خيري حمّاد

تاريخ ألمانيا الهتلريّة

٣

٣

تاريخ ألمانيا الهتلرية

وليام شيرر



تاريخ ألمانيا الهتلرية

نشأة وسقوط الرايخ الثالث

تعريب

خيري حماد

منشورات مكتبة المثنى - بغداد

توزيع دار الكتاب العربي

بيروت - لبنان

THE RISE AND FALL OF THE THIRD REICH

* * *

Part IV

A History of NAZI Germany

by
William L. Shirer.

الطبعة الثانية
شباط (فبراير) ١٩٦٦

القسم الثالث

الكتاب الرّابع

الحرب

الانتصارات الأولى ونقطة التحوّل

١٨

سقوط بولندة

اجتمع الفريق هولدر في الساعة العاشرة من صباح الخامس من ايلول عام ١٩٣٩ ، الى الفريق فون براوخيتش ، القائد العام للجيش الألماني والفريق فون بوك قائد مجموعة جيوش الشمال . وتولى الفرقاء الثلاثة تقييم الوضع الحربي كما بدا في مستهل اليوم الخامس من الغزو الألماني لبولندة ، واتفقوا ، كما دوّن هولدر ، في يومياته « على أن العدو قد هزم تقريباً »

وكانت معركة الرواق البولندي قد انتهت في اليوم السابق ، باتصال جيش الفريق فون كلوغه الرابع المندفع شرقاً من بوميرانيا وجيش الفريق فون كويشلر الثالث المندفع غرباً من بروسيا الشرقية . وكانت هذه المعركة هي أول المعارك التي أحرز فيها الفريق هاينز غودريان شهرته الأولى بدباباته . وقد تعرضت هذه الدبابات وهي تزحف راكضة شرقاً في فترة من الفترات للهجمات المضادة التي شنها عليها لواء فرسان « بومورسكا » البولندي ، وقدّر لمؤلف هذا الكتاب أن يرى بأم عينه بعد بضعة أيام عندما قام بزيارة الجبهة ، أشلاء الخيول البولندية وهي مبعثرة في ميدان المعركة لتقوم دليلاً تتقزز منه النفس على طبيعة الحملة البولندية القصيرة .

يا لها من مفارقة ... الخيول تهاجم الدبابات . ورماح الفرسان الطويلة تصارع

مدافع الدبابات الضخمة . والنتيجة واضحة ولا شك ... فمهما كان البولنديون شجعاناً وبواسل ومتهورين ، فإنهم كانوا أعجز من أن يصمـــدوا للهجوم الألماني الساحق ، وكانت هذه هي التجربة الأولى التي مروا بها هم ، كما مر بها العالم أيضاً في حروب الصاعقة الجديدة ... إنها الحرب التي تتسم بالهجوم المبـــاغت ، وقد حلقت الطائرات المحاربة والقاذفة مدويّة بأزيزها في سماء الميدان ، بينما تعول طائرات « الشتوكا » بصراخها الذي يصم الآذان وهي تنقض من علُ باعثة الرعب والفزع . والفرق الكاملة من الدبابات تشق طريقها زاحفة إلى الأمام تقطع المسافات الكبيرة في لحظة عين ، وتسجل في كل يوم تقدماً جديداً يتراوح بين الثلاثين والأربعين ميلاً ، بينما تسرع عربات المدافع الثقيلة قاطعة أربعين ميلاً في الساعة ، وقد جرّت وراءها المدافع الذاتية التوجيه ، والسريعة الإطلاق ، حتى على طرق بولندة السيئة . والمشاة بدورهم ، لا يدبون دبيب النمل ، كما كان يحدث في الحروب السالفة ، وإنما يستقلون العربات ، وقد أربى عددهم على المليون ونصف المليون من الجنود توجههم وتشرف على تنظيمهم وتنسيق أعمالهم الحربية شبكة الكترونية من المواصلات الإذاعية المعقدة والهواتف وأجهزة البرق . حقاً انه أضخم استشهاد آلي لم يشهد العالم مثيلاً له من قبل .

وتم تحطيم القوة الجوية البولندية في غضون الثماني والأربعين ساعة الأولى من القتال ، إذ نسفت الطائرات الألمانية القاذفة القسم الأكبر من طائرات البولنديين الصالحة للقتال والتي تعد نحواً من خمسمائة ، وهي جاثمة على أرضها قبل أن تتمكن من التحليق في الجو . واشتعلت النيران في معظم الأبنية وتجهيزات المطارات ، ولقي معظم العاملين فيها حتفهم أو تعرضوا لجراح بالغة . وسقطت « كراكاو » عاصمة بولندة الثانيـــة في أيدي الألمان في السادس من أيلول . وولّت الحكومة البولندية الأدبار تلك الليلة من وارشو قاصدة لوبلين . ولم يحل اليوم التالي حتى كان هولدر يشغل نفسه بالخطط الرامية إلى البدء في نقل القوات الى الجبهة الغربية ، على الرغم من عدم ظهور أية بادرة تشير الى قيام نشاط فيها ووصلت طلائع الفرقة الآلية الرابعة بعد ظهر الثامن من ايلول الى ضواحي

العاصمة البولندية ، بينما استولى جيش الفريق رايخناو العاشر والزاحف شمالاً من سيليزيا وسلوفاكيا على كيلسي ، ووصل جيش الفريق ليست الرابع عشر ، الى ساندوميرز ، التي تقع عند التقاء نهري الفستولا وسان .

وتمت هزيمة الجيش البولندي في غضون أسبوع واحد . وتعرض القسم الأكبر من فرقة الخمس والثلاثين اما إلى التمزيق الكامل ، أو الى الوقوع محصورة في حركات التطويق الضخمة التي أطبقت على العاصمة على شكل فكي كماشة . ولم يبق أمام الألمان إلا الانتقال إلى « المرحلة الثانية » ، التي تتمثل في تضييق النطاق على الوحدات البولندية المحصورة ، والتي شتتت الحرب الجديدة شملها وأصابتها بالذهول ، تمهيداً لتحطيمها ، والشروع في حركة « كماشة » جديدة على بعد مائة ميل شرقاً ، لإيقاع ما تبقى من تشكيلات الجيش البولندي الموجودة الى الغرب من بريست ليتوفسك ونهر بوغ في الطوق .

وبدأت المرحلة الثانية في التاسع من أيلول وانتهت في السابع عشر منه ، إذ اتجه الجناح الأيسر من مجموعة جيوش الشمال التي يقودهـا بوك ، الى بريست ليتوفسك التي وصلها الفيلق التاسع عشر الذي يقوده غودريان في الرابع عشر من ايلول ليستولي عليها بعد يومين . واتصلت طلائع هذا الفيلق في السابع عشر منه مع دوريات جيش ليست الرابع عشر من وولدوا على بعـد خمسين ميلاً إلى الجنوب من بريست ليتوفسك ، متممة فرض النطاق على ما تبقى من الجيش البولندي . وذكر غودريان فيما بعد ، أن هجمات البولنديين المضادة قد توقفت نهائياً في السابع عشر . وتم تطويق جميع القوات البولندية باستثناء حفنة قليلة ما زالت مرابطة على الحدود الروسية . وصمدت جيوب القوات البولندية في مثلث وارسوه والى الغرب على مقربة من بوزين صموداً اتسم بالبسالة ، ولكن مصير هذه القوات كان محتوماً ومقرراً . ووصلت الحكومة البولندية أو من تبقى من أعضائها ، بعد أن تعرضت بصورة مستمرة للقصف الجوي من طائرات السلاح الجوي الألماني الى قرية على الحدود الرومانية في الخامس عشر من ايلول . وكان كل شيء قد انتهى بالنسبة اليها والى الشعب المتكبّر ، باستثناء الموت في

ميدان القتال للوحدات التي كانت لا تزال صامدة بعزيمة لا تكاد تصدق ، محتملة كل ضروب المتاعب والتضحيات .

وحان الوقت للروس الآن للتقدم نحو البـــلاد المهشمة ، لاقتناص حصة من أسلابها .

الروس يغزون بولندة

فوجيء الكرملين في موسكو ، كما فوجئت عواصم الدول الأخرى بهذه السرعة الهائلة التي زحفت فيها الجيوش الالمانية في بولندة . وكان مولوتوف قد بعث في الخامس من ايلول ، برد رسمي خطير على الاقتراح النازي بأن تقوم روسيا بمهاجمة بولندة من الشرق ، وقد أوضح الرد بأن هـذه الخطوة « ستتم في الوقت المناسب » ، وأضاف أن هذا الوقت المناسب « لم يحن بعد » . وكان يرى أن « الاسراع الكثير » في هذه الخطوة قد يعرض « القضية » السوفياتية الأذى ، ولذا فقد أصر على الألمان في رده ، بوجوب احترام « خط الحـدود » المقرر في الميثاق السري ، في حالة وصول الألمان أولاً الى بعض الجهات المحددة للروس(١) . وكانت شكوك الروس من الألمان قد بدأت في الاتضاح يضاف الى هذا أن الكرملين كان يعتقد بأن احتلال الألمان لبولندة قد يستغرق أمداً طويلاً .

وأبرق ريبنتروب بعد منتصف ليل الثامن من ايلول ، وكانت فرقة المانية مدرعة قد وصلت الى ضواحي وارشو ، الى شولنبرغ سفيره في موسكو ، برقية « عاجلة وسرية للغاية » يقول فيها أن العمليات العسكرية في بولندة « تتقدم بسرعة تفوق ما كان الألمان أنفسهم يتوقعونه » ، وأن المانيا تود أن تعرف في هـــذه الظروف « حقيقة النوايا الحربية للحكومة

---

(١) نص الرد الروسي (وثائق وزارة الخارجية الالمانية (٨) ص ٤ وتوجد بعض الرسائل المتبادلة في « العلاقات النازية – السوفياتية ») .

السوفياتية » (١) ورد مولوتوف في الساعة الرابعة والدقيقة العاشرة من بعد ظهر اليوم التالي ، ان روسيا ستتحرك عسكرياً « في غضون الايام القليلة القادمة » . وكان وزير الخارجية السوفياتية قد هنأ في ساعة سابقة من ذلك اليوم ، الالمان تهنئة رسمية « بدخول جيوشهم الى وارشو » (٢) .

ووقع أول خلاف بين مولوتوف والسفير الالماني فون دير شولنبرغ في العاشر من أيلول . إذ عندما اجتمع الرجلان راح الوزير السوفياتي يعلن ان الحكومة السوفياتية قد بوغتت مباغتة كلية بالسرعة الهائلة التي « حققت المانيا فيها انتصاراتها العسكرية » وأضاف ان الاتحاد السوفياتي يجد نفسه تبعاً لذلك « في وضع شاق » ، ثم أخذ يشير الى المبرر الذي سيستند إليه الكوملين في تفسير العدوان الذي سيقوم به على بولندة . وكان هذا التفسير ، كما أبرق شولنبرغ لبرلين « سرياً ومستعجلاً للغاية » ... ثم قال :

« يود الروس أن يقولوا أن بولندة شرعت في الانهيار ، وان الواجب يحتم على الاتحاد السوفياتي ، نتيجة لذلك أن يسارع الى مساعدة الاوكرانيين والروس البيض الذين باتوا « مهددين » من المانيا . وأضاف مولوتوف أن هذه الحجة ضرورية لاضفاء شيء من التدبير المعقول بالنسبة الى الجماهير السوفياتية ، ولتجنيب الاتحاد السوفياتي الظهور بمظهر المعتدي » .

واحتج مولوتوف أيضاً على بيان صدر عن الفريق فون براوخيتش ونقلته عنه وكالة الأنباء الألمانية قال فيه : « انه لم يعد ثمة حاجة الى أي عمل عسكري على حدود المانيا الشرقية » . وقال الوزير السوفياتي ان بيان القائد الألماني يوحي بأن الحرب قد انتهت وانه لم يعد ثمة مبرر لروسيا « في أن تشن حرباً جديدة » .

---

١ - وثائق وزارة الخارجية الالمانية (٨) ص ٣٣-٣٤ .

٢ - تهنئة مولوتوف - وثائق وزارة الخارجية الالمانية (٨) ص ٣٤ ووعده بالعمل العسكري في ص ٣٥ .

وأضاف انه يحس بالامتعاض من تطور الوضع على النحو الذي وقع فيه (١) وراح مولوتوف ليزيد الامور تعقيداً ، يستدعي شولنبرغ الى الكرملين في الرابع عشر من ايلول ، وبعد ان ابلغه بأن الجيش الاحمر سيزحف في وقت أبكر مما كان متوقعاً ، طلب من السفير أن يبلغه موعد سقوط وارشو إذ ان الروس رأوا وجوب انتظار سقوط العاصمة البولندية لتبرير حركتهم العسكرية (٢) .

وأثار الوزير السوفياتي عدداً من الاسئلة المربكة المعقدة . فهو يريد أن يعرف موعد سقوط وارشو ، وهو يريد أن يعرف كذلك ، هل يرغب الالمان في أن يحمّلهم الروس جريرة تدخلهم وهل يقبلوا بـه ؟ . ولكن ريبنتروب راح في الخامس عشر من أيلول ، يبرق الى مولوتوف عن طريق سفيره ، رسالة « عاجلة للغاية وسرية » ، يرد فيها على هـذه الاسئلة . وقال الوزير الالماني في رده أن وارشو « ستسقط في غضون بضعة أيام » ، وان المانيا « تود لو تدخل الروس بعملهم العسكري الآن » . وأضاف ريبنتروب ان المانيا ترى في الذريعة التي تود روسيا تبرير هجومها بها عن طريق إلقاء اللوم على المانيا ، أمراً لا يمكن قبوله ، ومتعارضاً مع حقيقة النوايا الالمانية ومخالفاً لما اتفق عليه من ترتيبات في موسكو ، بالإضافة إلى أنه سيظهر الدولتين أمام العالم كله بمظهر الدولتين العدوتين . وانتهى من رده طالباً الى الحكومة السوفياتية تحديد « اليوم والساعة » التي ستشرع فيها بالهجوم على بولندة (٣) .

وحددت روسيا ما طلبته المانيا في المساء التالي ، وتقدم برقيتان بعث بهما شولنبرغ ، وعثر عليهما بين الوثائق الالمانيـة المصادرة ، صورة عن خديعة الكرملين ، وعن الطريقة التي تمت فيها هذه الخديعة .. قال شولنبرغ في برقية بتاريخ ١٦ ايلول :

١ - برقية شولنبرغ - وثائق وزارة الخارجية الالمانية (٨) ص ٤٤ - ٤٥
٢ - وثائق وزارة الخارجية الالمانية (٨) ص ٦٠ - ٦١
٣ - وثائق وزارة الخارجية الالمانية (٨) ص ٦٨ - ٧٠

« قابلت مولوتوف في السادسة مساء . قال الوزير السوفياتي ان التدخل العسكري السوفياتي بات وشيك الوقوع ، وقد يقع غداً أو بعد غد . وأضاف ان ستالين يوالي مشاوراته الآن مع القادة العسكريين .

« وذكر مولوتوف أن الحكومة السوفياتية تعتزم تبرير اجرائها على النحو التالي : لقد وقع التفسخ في الدولة البولندية وزالت من جرائه من الوجود ، ولهذا غدت جميع الاتفاقات السابقة المعقودة مع بولندة لاغية . ومن المتوقع أن تحاول دول أخرى الافادة من الفوضى الناجمة عن هذا التطور . وتجد الحكومة السوفياتية نفسها ملزمة بالتدخل لحماية المواطنين الاوكرانيين والروس البيض ، ولتمكين هؤلاء المواطنين التعساء من العيش بأمان » .

واعترض شولنبرغ على هـــذا التبرير ، لأن المانيا هي الدولة الوحيدة التي يمكن أن تكون المعنية بعبارة « الدول الأخرى » ... ثم مضى يقول في برقيته :

« وأقر مولوتوف بأن المبرر المزمع الاستناد إليه من جانب الاتحاد السوفياتي ينطوي على تلميح يمس بمشاعر الالمان ، ولكنه طلب إلينا بالنظر الى الوضع الشاق الذي تجد الحكومة السوفياتية نفسها فيه ، أن نتسامح بهذا التلميح ، وأن لا نجعل من « الحبة قبة » . وأضاف أن الحكومة السوفياتية لا تجد لسوء الطالع إمكاناً في العثور على مبرر جديد ، طالما أن الاتحاد السوفياتي لم يكن قد اكترث في الماضي بموضوع الاقليات الروسية في بولندة ، وطالما أنه في حاجة إلى تبرير تدخله الراهن في الخارج بشكل أو بآخر »(١) .

وبعث شولنبرغ في الساعة الخامسة والدقيقة العشرين من بعـــد ظهر اليوم

---

١ – وثائق وزارة الخارجية الالمانية (٨) ص ٧٩ – ٨٠

التـــالي في السابع عشر من ايلول ، برقية أخرى « عاجلة وسرية للغاية » الى برلين ..

« استقبلني ستالين في الساعة الثانية من بعد ظهر اليوم ، وأبلغني أن الجيش الاحمر ، سيجتاز الحدود السوفياتية في الساعة السادسة مساء .. وستشرع الطائرات السوفياتية اليوم بقصف المناطق الواقعة الى الشرق من لواو (ليمبرغ) » .

وعندما اعترض السفير الالماني على ثلاث نقاط واردة في البلاغ السوفياتي سارع الديكتاتور السوفياتي « بمنتهى الرغبة والاستعداد » الى تغيير الصيغة(١) .

وهكذا تذرع الاتحاد السوفياتي بتلك الحجة الواهية من أن بولندة قد زالت من الوجود وان ميثاق عدم الاعتداء البولندي – السوفياتي لم يعد باقياً ، وانه بات يشعر باضطراره الى حماية مصالحه ومصالح الاقليات الاوكرانية والروسية البيضاء ، فراح يدوس بأقدامه ، بولندة المسكينة الهاوية صباح السابع عشر من ايلول . وكان الاتحاد السوفياتي قد أبلغ السفير البولندي في موسكو « لزيادة الطين بلّة » بأنه سيحافظ على الحيـــاد المطلق في الصراع البولندي ! . والتقى الجنود السوفيات بالالمان في اليوم التالي ، الثامن عشر من ايلول ، عند بريست ليتوفسك ، وهي المدينة التي كانت الحكومـــة البلشفية المولودة حديثاً ، قد تنكرت فيها قبل واحد وعشرين عاماً ، لارتباطات بلادها بالحلفـــاء الغربيين ، وقبلت من الجيش الالمـــاني ، شروط الصلح المنفرد ، التي كانت مغرقة في القسوة والشدة.

وعلى الرغم من أن الروس كانوا شركاء الآن لألمانيا النازية في ازالة بولندة العريقة من الخارطة ، فإنهم ما لبثوا أن بدأوا يشكون برفقائهم الجـــدد . ففي الاجتماع الذي عقده ستالين مع السفير الالماني عشية يوم العـــدوان السوفياتي ، أعرب الطاغية الروسي عن شكوكه التي نقلها شولنبرغ باخلاص الى برلين ، فيما

---

١ – وثائق وزارة الخارجية الالمانية (٨) ص ٧٩ – ٨٠

إذا كانت القيادة العليا الالمانية ستحافظ على اتفاقات موسكو وتسحب قواتها الى الخط المتفق عليه. وحاول السفير تهدئة شكوكه ، وبعث الطمأنينة في نفسه، ولكن محاولاته ذهبت كما يبدو أدراج الرياح . وراح شولنبرغ يقول في برقيته إلى برلين .. » وبالنظر الى ما عرف عن ستالين من مزاج كثير التشكك ، فإني أكون ممتناً إذا خولتموني ، إصدار بيان آخر ، يكون من النوع الذي يضمن أن ينتزع من فؤاده كل ما بقي فيه من شكوك » (١) . وبعث ريبنتروب في اليوم التالي ، أي التاسع عشر من ايلول ، ببرقية الى سفيره يخوله فيه « إبلاغ ستالين ، بأن المانيا ستحترم حتماً الاتفاقات التي عقدها هو — أي ريبنتروب — في موسكو ، وانها تعتبر هذه الاتفاقات حجر الزاوية في علاقات الصداقة الجديدة بين المانيا والاتحاد السوفياتي » (٢) .

لكن الاحتكاك ظل قائماً على أي حال بين الشريكين اللذين لا تقوم شراكتهما على أسس طبيعية . ووقع خلاف في السابع عشر من أيلول على نص البلاغ المشترك الذي كان من المقرر إصداره « لتبرير » اشتراك الروس والالمان في تدمير بولندة . فقد اعترض ستالين على الصيغة التي وضعها الالمان « لأنها تبسط الحقائق بصراحة متناهية لا لزوم لها » وراح يضع الصيغة التي يقترحها هو ، والتي كانت نموذجاً في الخديعة والتضليل ، وأرغم الالمان على قبولها . وقد ذكرت هذه الصيغة أن الهدف المشترك لألمانيا وروسيا « إعادة السلام والنظام الى بولندة بعد أن أدى تفسخ الدولة البولندية إلى انهيارها ،ومساعدة الشعب البولندي على إقامة أوضاع جديدة لحياته السياسية » . وهكذا عثر هتلر في شخص ستالين على صنوه في الفلسفة « الكلبية » التي تقوم على الاستخفاف بعقول الناس .

ويبدو أن الديكتاتورين قد فكرا في بداية الأمر ، بإقامة « حطام دولة »

---

١ - وثائق وزارة الخارجية الالمانية (٨) ص ٩٢

٢ - وثائق وزارة الخارجية الالمانية (٨) ص ١٠٣

بولندية على نسق « دوقية وارشو الكبرى » التي أقامها نابوليون ، وذلك رغبة منهما في تهدئة الرأي العام للعالمي . ولكن ما عتم مولوتوف في التاسع عشر من أيلول أن أعلن أن البلاشفة قد أعادوا النظر في هذا الاقتراح . وبعد ان احتج غاضباً إلى شولنبرغ على ما ادعاه من تجاهل القادة العسكريين الالمان لاتفاقات موسكو عن طريق محاولتهم إلتهام أراض هي من حق موسكو بموجب هذه الاتفاقات ، انتقل فوراً الى النقطة الأساسية ... كما أبرق شولنبرغ لبرلين ..

« أشار مولوتوف الى أن ما أحست به الحكومة السوفياتية وستالين شخصياً من ميل سابق الى السماح بإقامة حطام دولة بولندية ، قد اختفى ليحل محله ميل جديد الى اقتسام بولندة على أساس خط بيزا – نارو – الفستولا – سان . وتود الحكومة السوفياتية أن تبدأ المفاوضات مع المانيا على هذا الأساس فوراً »(١) .

وهكذا صدر الاقتراح باقتسام بولندة كلية وحرمان الشعب البولندي من أي وجود مستقل مهما كان شكله ، عن الاتحاد السوفياتي . ولكن الألمان لم يكونوا بدورهم في حاجة الى من يحثهم على الموافقة على هذا الاقتسام . فقد أبرق ريبنتروب الى شولنبرغ في الثالث والعشرين من ايلول ، يأمره بإبلاغ مولوتوف بأن « الفكرة الروسية باقامة خط للحـــدود على أساس الأنهار الأربعة المعروفة . تتفق مع وجهة نظر حكومة الرايخ تمام الاتفاق » . واقترح ان يطير الى موسكو ثانية لوضع تفاصيل هذا الاتفاق الجديد وكل ما يتعلق « بالكيان النهائي للمنطقة البولندية »(٢) .

وتولى ستالين شخصياً الآن زمام المفاوضـــات ، وسرعان ما عرف حلفاؤه البريطان والامريكيون فيما بعد ، ما يتميز به هذا المساوم من انتهازية وصلابة وكلبية . واستدعى الديكتاتور السوفياتي شولنبرغ الى الكرملين في الساعة

---

١ – وثائق وزارة الخارجية الالمانية (٨) ص ١٠٥ .

٢ – وثائق وزارة الخارجية الالمانية (٨) ص ١٢٤ .

الثامنة من مساء الخامس والعشرين من ايلول ، وفتحت البرقية التي بعث بها هذا السفير في وقت لاحق من تلك الليلة عيون برلين على بعض « الوقائع القاسية » . وعلى أن بعض الفراخ قد سارعت الى اقفانها لتجثم فيها قبل الأوان . (إشارة الى وقوع تطورات منتظرة) . . . قال شولنبرغ في برقيته :

« قال ستالين أنه يرى من الخطأ السماح باقامة حطام دولة بولندية مستقلة وافترح أن تضاف الى حصتنا امارة وارشو بكاملها التي تمتد الى الشرق من خط الحدود حتى نهر بوغ ، شريطة أن نتخلى مقابل ذلك عن كل مطالبنا في ليتوانيا .

« وأضاف ستالين أنه في حالة موافقتنا على اقتراحه ، فإن الاتحاد السوفياتي سيبادر فوراً الى وضع الحلول لمشكلة دويلات البلطيق على ضوء الملحق (السرى) لاتفاق الثالث والعشرين من ايلول ، وهو يعتمد في هذه القضية على تأييد الحكومة الالمانية المطلق ، وقد ذكر ستالين بوضوح كلاً من استونيا ولاتفيا وليتوانيا ، دون أن يذكر شيئاً عن فنلندة » (١) .

حقاً انها لمساومة ماكرة وقاسية . فستالين يعرض على المانيا امارتين بولنديتين باتتا في الواقع تحت سيطرة الالمان بعد احتلالها ، مقـــابل تخليهم عن دول البلطيق . وكان في مساومته هذه يستغل الخدمة العظيمة التي قدمها الى هتلر بتمكينه من الهجوم على بولندة ، ليحصـــل على كل شيء يتمكن من الحصول عليه لروسيا ، في الوقت الذى ما زال المجال فسيحاً فيه للمساومة . يضاف الى هذا انه يقترح أن يضم الالمان اليهم الأغلبية الغالبة للشعب البولندي . فهو يدرك كروسي ، ما علمته إياه قرون طويلة من التاريخ ، وهو أن البولنديين لن يستسلموا هادئين لفقدهم استقلالهم . ولذا فهو يرى انه اذا كان لابد لهم من إثارة المتاعب و « الصداع » فلتكن هذه المتاعب وذلك « الصداع » من نصيب الألمان

---

١ - وثائق وزارة الخارجية الالمانية (٨) ص ١٣٠ .

لا الروس . وسيأخذ في غضون ذلك دول البلطيق التي انتزعت من روسيا بعد الحرب الكونية الأولى ، والتي تسهل أوضاعها الجغرافية على الاتحاد السوفياتي الحماية الضخمة اللازمة ضد أي هجوم مباغت قد يشنه عليه حلفاؤه الألمان

ووصل ريبنتروب إلى موسكو بالطائرة للمرة الثانية في الساعة السادسة من مساء الثامن والعشرين من ايلول ، وأتيح له الوقت اللازم ، قبل المضي الى الكرملين لقراءة برقيتين وصلتا من برلين ، تبصرانه بحقيقة ما يسعى إليه الروس وكانت البرقيتان صادرتين عن الوزير الالماني المفوض في تالين ينقل فيهما الى حكومته ما أبلغته اياه الحكومة الاستونية قبل لحظات من ان الاتحاد السوفياتي قد طالب بعض القواعد العسكرية والجوية في أستونيا مهدداً « بالهجوم الفوري في حالة التقاعس عن تلبية هذا الطلب » (١) . وأبرق ريبنتروب في ساعة لاحقة من تلك الليلة الى هتلر في برلين ، وبعد أن عقد اجتماعاً مطولاً مع ستالين ومولوتوف يقول ، ان ميثاقاً قد « عقد تلك الليلة نفسها » يخول الاتحاد السوفياتي وضع فرقتين من جنود الجيش الأحمر ، وكتيبة من السلاح الجوى على « الارض الأستونية ، دون المساس على أى حال بنظام الحكم الاستوني أو إلغائه في هذا الوقت » . ولكن الفوهرر ، وهو الخبير بهذا الطراز من الاعمال ، أدرك لتوه ، ضيق الفسحة الزمنية التي أتيحت لأستونيا قبل أن تلفظ أنفاسها الاخيرة ، ولذا فقد أبلغ ريبنتروب في اليوم التالي بأن الاوامر قد صدرت باجلاء (٨٦) ألف الماني من أستونيا ولاتفيا (٢) .

وهكذا أخذ ستالين في تقديم « فواتيره » ، وتحتم على هتلر مؤقتاًعلى الاقل ، أن يؤدى قيمتها . فها هو يتخلى فوراً عن كل من استونيا ولاتفيا اللتين كان قد وافق في الميثاق النازي - السوفياتي على اعتبارهما من مناطق « المصالح » السوفياتية ولم ينته ذلك النهار حتى كان يتخلى أيضاً عن ليتوانيا الواقعة على

١ - وثائق وزارة الخارجية الالمانية (٨) ص ١٤٧-١٤٨ .
٢ - وثائق وزارة الخارجية الالمانية (٨) ص ١٦٢ .

حدود ألمانيا الشمالية الشرقية ، وهي البـــلاد التي كانت البنود السرية في ميثاق موسكو قد نصت على أنها جزء من منطقة « مصالح » الرايخ .

وكان ستالين قد خير الألمان في الاجتماع الذي عقده مع ريبنتروب تلك الليلة والذى بدأ في العاشرة مساء وانتهى في الواحدة من صبـــاح الثامن والعشرين من ايلول بين أحد أمرين سبق له أن ذكرهما لشولنبورغ عند اجتماعه به في الخامس والعشرين . وهما إما قبول الخط الأصلي للحدود في بولندة على طول أنهر بيزا ونارو والفستولا وسان ، مع الحصول على ليتوانيا أو التخلي عن هـــذه لروسيا مقابل الحصول على أرض بولندية أكثر اتساعاً بحيث تشمل أمارة لوبلين والاراضي الواقعة الى الشرق من وارشو ، مما يضمن للألمان السيطرة على الشعب البولندى بكامله . وحث ستالين الالمان حثاً ملحاً على قبول الخيار الثاني ، ونقل ريبنتروب هذه الرغبة الملحة الى هتلر في برقية مطوّلة بعث بها إليه في الساعة الرابعة من صباح الثامن والعشرين من ايلول ، ووافق هتلر على القبول بها .

واستغرق تقسيم أوروبا الشرقية ، وما صاحبه من رسم معقد للخرائط ، وقتاً طويلاً تجاوز حدود ثلاث ساعات ونصف الساعة من بعد ظهر الثامن والعشرين من أيلول ، عقبته وليمة رسمية في الكرملين ، واستأذن ستالين ومولوتوف أثنـــاء الوليمة ، بالخروج للتحدث الى وفد لاتفي كانا قد استدعياه للمجيء إلى موسكو . وهرع ريبنتروب خارجاً من المأدبة إلى دار الاوبرا لحضور فصل من أوبرا « بحيرة البجع » ، ليعود بعد انتهائه عند منتصف الليل الى الكرملين لإجراء محادثات أخرى بصدد الخرائط وغيرها من المواضيع . ووقع مولوتوف وريبنتروب في الساعة الخامسة صباحاً على ميثاق جديد ، أطلق عليه رسمياً اسم « معاهدة الحدود والصداقة الالمانية - السوفياتية » ، بينما أشرق وجه ستالين مرة ثانية ، على حد تعبير موظف ألماني في تقرير لاحق ، بعلائم الرضى الواضحة » (١) . وكان من حقه بالطبـع أن يفرح وان يرضى (٢) .

---

١ - كتب هذا الموظف ويدعى اندور هينكي ، وكان يعمل دليلاً لوزارة الخارجية الالمانية

وأعلنت المعاهدة التي أذيعت نصوصها تخطيط الحدود بالنسبة الى « المصالح القومية للفريقين المتعاقدين» ضمن حدود « الدولة البولندية السابقة » وأوضحت أن الدولتين المتعاقدتين ستعيدان « إقرار السلام والنظام » في المناطق التي حصلتا عليها وانهما ستضمنان للشعب الذي يعيش في هـــذه المناطق حياة سلمية تنسجم مع شخصيته القومية » .

ولكن هذه المعاهدة ، شأنها في ذلك شأن سابقتها ، انطوت على « ملاحق سرية » ، عددها ثلاثة ملاحق تضمن اثنان منها زبدة الاتفاق وجوهره ، اذ نص الأول على اضافة ليتوانيا الى « منطقة النفوذ » السوفياتية مقابل اضافة مقاطعتي لوبلين ووارشو الشرقية الى « منطقة النفوذ » الالمانية ، بينما كان الملحق الثـــاني صريحاً وموجزاً في النص على أن لا ...

« تتسامح الدولتان المتعاقدتان في مناطقهما البولنـــدية مع أي اضطراب بولندي قد يؤثر على المناطق الأخرى ، وتتعهدان باخماد أية اضطرابات من هذا النوع من مستهلها ، وبتبادل المعلومات فيما بينهما بصدد الاجراءات اللازمة لتحقيق هذا الهدف . »

وهكذا اختفت بولندة ، كما اختفت النمسا وتشيكوسلوفاكيا من قبل ، من خريطة أوروبا . لكن أدولف هتلر لم يكن وحيداً هذه المرة وانما تلقى العون والمساعدة ، في هذه العملية من إزالة هـــذه البلاد من الوجود ، من دولة تدعى « اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفياتية » كانت تبدو دائماً بمظهر المدافع عن الشعوب المضطهدة ، وحامي حماها وكان هـــذا التقسيم هو الرابع لبولندة على

= بعد أن خدم عدة سنوات سابقة في سفارة بلاده في موسكو وصفاً مفصلاً وممتعاً للمحادثات . وكان هذا الوصف هو التسجيل الالماني الوحيد عن اجتماعات اليوم الثاني من المحادثات.(وثائق وزارة الخارجية الالمانية (٨) الملحق رقم (١) .

٢ - يوجد نص المعاهدة وثلاحقها السرية والبلاغ الرسمي والرسائل المتبادلة بين مولوتوف وريبنتروب في وثائق وزارة الخارجية الالمانية (٨) ص ١٦٤ - ١٦٨ .

أيدي ألمانيا وروسيا (١) . وكانت النمسا قد اشتركت في عمليات التقسيم السابقة، وقدر له أن يكون مـــدة بقائه ، أكثر هذه العمليات قسوة وبعداً عن الرحمة والاشفاق . إذ اتفق هتلر وستالين في الملحق السري الذي عقـد في الثامن والعشرين من ايلول (٢) . على إقامة عهد من الارهاب في بولندة ، قصد منه أن يقضي على حرية هذه البلاد وثقافتها ووجودها القومي .

واقد حارب هتلر في بولندة وكسب حربها ، لكن ستالين كان الرابح الاكبر في هذه الحرب ، على الرغم من الحقيقة الواقعة وهي أنه لم يطلق رصاصة واحدة فيها (٣) . ولقد تمكن الاتحاد السوفياتي من أن يسيطر على نصف بولندة تقريباً وأن يقيم حاجزاً منيعاً في دول البلطيق . وقد ضيق هذا الحاجز الحصار على المانيا بشكل أوثق ، وأبعدها عن تحقيق أي من هدفيها الاساسيين البعيدي المدى ، وهما الحصول على قمح اوكرانيا والسيطرة على الزيت الروماني . وتحتاج المانيا حاجة ماسة الى هاتين المادتين إذا كانت تريد البقاء ومقاومة الحصار البريطاني . وتمكن ستالين أيضاً من السيطرة على منطقة بوريسلان ـ دورغوبيكز البولندية الغنية بالبترول ، والتي كان هتلر يود لو تمكن من الاستيلاء عليها ، ولكنه ، أي ستالين، وافق كرماً منه على أن يبيع الالمان زيتاً يعادل في كميته الانتاج السنوي لهذه المقاطعة .

فلماذا دفع هتلر هذا الثمن الى الروس ؟ من الحق أن يقال ، انه قد وافق على دفعه في شهر آب ، رغبة منه في الابقاء على الاتحاد السوفياتي بعيـــداً عن معسكر الحلفاء ، وخارج نطاق الحرب . ولكنه لم يكن قط ، صادقاً في التمسك بمعاهداته واتفاقاته ، وكان في مكنته الآن أن يستجيب الى حث قادة الجيش

---

١ - يطلق أرنولد توينبي على هذا التقسيم في كتبه المختلفة اسم التقسيم الخامس

٢ - أرخت هذه المعاهدة رسمياً في الثامن والعشرين من ايلول ، على الرغم من التوقيع عليها في الخامسة من صباح التاسع والعشرين منه .

٣ - اعلن الالمان رسمياً أن خسائرهم في بولندة بلغت ١٠,٥٧١ قتيلاً و٣٠,٣٢٢ جريحاً و ٣٤٠٠ مفقود .

وأن يعلن تنكره لميثاق الثالث والعشرين من آب ، ولا سيما بعد أن تم احتلال بولندة نتيجة عمل مدهش لا مثيل له من أعمال السلاح الالماني . ولو اعترض ستالين على ذلك ، لكان في مكنة الفوهرر أن يهدده بالهجوم مستخدماً أقوى جيش في العالم ، كما أقامت الحملة البولندية الدليل على ذلك . ولكن هل كان بوسعه أن يهاجمه فعلاً ؟ لا . طالما أن القوات البريطانية والفرنسية مازالت مرابطة في الغرب تحمل سلاحها . ولكي يصفي أمره مع بريطانيا وفرنسا ، رأى لزاماً عليه الإبقاء على مؤخرته في منجاة من الخطر . وكان هذا التفكير هو الذى حمله ، كما شرح هو نفسه فيما بعد ، على السماح لستالين بالغلو في تلك الصفقة التي عقدها . ولكنه ظل يذكر هذه المساومة القاسية من جانب الديكتاتور السوفياتي وهو يتجه باهتمامه الآن الى الجبهة الغربية .

١٩

حرب «الجلوس» في الغرب

لم يقع الكثير في الجبهة الغربية . ولم تطلق حتى رصاصة واحـــدة إلا فيما ندر ... وشرع « رجل الشارع » الألماني ، يطلق على هذه الحرب اسم « حرب الجلوس » . أما في الغرب فقد أخذوا يلقبونها « الحرب الزائفة » . ففي هـــذه الجبهة يقف « أقوى جيوش العالم (الجيش الفرنسي) » على حـــد تعبير اللواء (الجنرال) البريطاني جي. إف سي فولر ، « مواجهاً ما يزيد على ست وعشرين فرقة ألمانية ، يجلس رجالها هادئين ، قابعين وراء حصونهم من الإسمنت والفولاذ بينما تجري هناك إبادة دولة حليفة باسلة الى أقصى حدود البسالة » (١).

فهل دهش الألمان يا ترى ؟ كلا انهم لم يدهشوا مطلقاً ، ففي يوميات الفريق هولدر نفسه ، وفي مستهلها الذي شرع في كتابته في الرابع عشر من آب ، وضع رئيس هيئة الأركان العامة للجيش الالماني ، تقريراً مفصلا للوضع في الغرب في حالة قيام المانيا بمهاجمة بولندة . وقد رأى أن قيام الفرنسيين بالهجوم في الغرب « احتمال بعيد للغاية » . وكان واثقاً من أن فرنسا لن تبعث بجيشها عبر الأراضي البلجيكية لمهاجمة ألمانيـــا ، « ضد رغبات البلجيكيين أنفسهم » . وتوصل الى

---

١ - اللواء جي . فولر - الحرب العالمية الثانية . ص ٥٥ مقتبس من « الربع الأول » ص ٣٤٣ .

النتيجة التي تقول بأن الفرنسيين سيواصلون التزام موقف الدفاع . وكنا قد ذكرنا قبل قليل ، أن الفريق هولدر ، شرع في السابع من ايلول ، بعد أن أيقن من القضاء على الجيش البولندي ، يشغل نفسه في وضع الخطط الرامية الى نقل القوات الالمانية الى الغرب .

ودوّن عشية ذلك اليوم نتائج اجتماع عقده الفريق براوخيتش بعد ظهر اليوم نفسه مع هتلر . فقال :

« لم تتضح العمليات في الغرب حتى الآن . هناك بعض الدلائل على عدم وجود نية فعلية في شن حرب في هذه الجبهة ... ويفتقر أعضاء الوزارة الفرنسية إلى الوزن البطولي . وهناك تلميحات أولى من جانب بريطانيا عن تأمل مغرق في التفكير .. »

وأصدر هتلر بعد يومين التوجيه الثالث عن إدارة دفة الحرب مصدراً أوامره باتخاذ الاجراءات اللازمة لنقل وحدات من الجيش والسلاح الجوي من بولندة إلى الغرب . ولكن التوجيه لا يتطلب من هذه الوحدات أن تقاتل . ومضى التوجيه يقول بصراحة .. « وحتى لو بدأت بريطانيا العظمى بداية تفتقر الى التصميم في شن العمليات الحربية .. وحذت فرنسا حذوها ، فإن من الواجب الحصول على أوامري الصريحة في كل حالة من الحالات التالية . وهي قيام قواتنا الأرضية أو احدى طائراتنا باجتياز الحدود الغربية ، أو قيام طائراتنا بهجوم جوي على بريطانيا » (١) .

ولكن ترى ما هي الوعود التي صدرت عن فرنسا وبريطانيا لبولندة في حالة تعرض هذه للهجوم ؟ كانت الضمانة البريطانية عامة ، بينما كانت الضمانة الفرنسية محدودة ومعينة ، وقد تم النص عليها في الميثاق العسكري الفرنسي البولندي الذي عقد في التاسع عشر من ايار عام ١٩٣٩ . وأوضح هذا الميثاق ان الاتفاق قد تم على أن يشن الفرنسيون « عمليات هجومية تدريجية ، ضد

---

١ – نص التوجيه في وثائق وزارة الخارجية الالمانية (٨) ص ٤١ .

أهداف محدودة في « نهاية اليوم الثالث من اعلان التعبئة العامة » . وقد أعلنت التعبئة العامة في فرنسا في الأول من ايلول . واتفق كذلك على أن تقوم فرنسا في حالة توجيه الالمان جهودهم الرئيسية ضد بولندة ، بشن هجوم رئيسي بمجموع قواتها ضد المانيا ابتداء من اليوم الخامس عشر بعد اعلان التعبئة الفرنسية العامة » . وعندما سأل العقيد جاكلينز نائب رئيس هيئة اركان الحرب البولندية ، عن عدد القوات الفرنسية التي يمكن توافرها لهذا الهجوم الرئيسي ، رد الفريق غاملان ، بأن هذه القوات ستتراوح بين الخمس والثلاثين والثماني والثلاثين فرقة(١) .

ولكن عندما أصبح الهجوم الألماني متوقعاً في كل لحظة على بولندة ، في الثالث والعشرين من آب ، كان الجنرال سيمو (الجنرال الاكبر) الفرنسي يبلغ حكومته ، كما رأينا من قبل انه لا يستطيع القيام بأي هجوم جدي « في أقل من نحو عامين .. أي في عام ١٩٤١ - ١٩٤٢ » ، مع افتراض شرط آخر وهو أن تكون فرنسا في ذلك الوقت قد تلقت « عون القوات البريطانية والمعدّات الحربية الامريكية » .

وليس ثمة من شك في أن بريطانيا لم تكن قادرة في الأسابيع الاولى من الحرب . على ان توفد اكثر من قوات قليلة الى فرنسا . ولقد اصبح لها في الحادي عشر من تشرين الاول ، أي بعد ثلاثة اسابيع من انتهاء القتال في بولندة اربع فرق في فرنسا تعد (١٥٨) ألف رجل . واطلق تشرشل على هذه القوة اسم « المساعدة الرمزية » وذكر فولر ان الاصابة البريطانية الاولى ، التي كان ضحيتها عريف انكليزي قتل إبّان قيامه بأعمال الدورية - قد وقعت في التاسع من كانون الاول . ويعلق فولر على ذلك بقوله . « كانت حرباً خالية من سفك الدماء ولم يعرف العالم مثيلاً لها منذ معركتي مولينيلا (Molinella) وزاغونارا

١ - نامير - في العهد النازي ص ٤٥٩ - ٤٦٠ يورد نامير نص الميثاق العسكري .

(Zagonara) ، (١) .

وإذا ما عاد المرء بذاكرته الى الوراء مستذكراً الوقائع وحاكماً عليها على ضوء ما وقع فعلاً فيما بعد ، تبيّن لنا ان القادة العسكريين الألمان اتفقوا في اثناء محاكمات نورمبرغ ، على ان الحلفاء الغربيين اضاعوا فرصة ذهبيــة ببقاءهم عن الهجوم في الغرب . فلقد ذكر الفريق هولدر ..

« كان نجاحنا ضد بولندة ، ثمرة تمكننا بنجاح من تحصين حدودنا الغربية تحصيناً كامــلاً . ولو تمكن الفرنسيون من ادراك منطق الاوضاع والامور ، واستغلوا فرصة انشغال القوات الألمانيــة في بولندة ، لكان في امكانهم عبور نهر الراين دون ان نتمكن من منعهم ، ولهددوا بذلك منطقة الروهر ، وهي العامل الحاسم جــداً في تسيير الالمان لدفة حربهم » (٢) .

وقال الفريق يودل ايضاً ..

« وإذا كنا لم نفشل ولم نتلاش فان الفضل في ذلك يعود الى بقاء المائــة والعشر فرق فرنسية وبريطانيــة خاملة لا عمل لها في الغرب ، أمام ثلاث وعشرين فرقة المانية ، وذلك طيلة حملتنا في

---

١ - استقل الكاتب في التاسع من تشرين الاول ، القطار الذي يسير بحذاء الضفة الشرقيــة لنهر الراين باتجاه الشمال ، حيث يؤلف النهر مسافة نحو من مائة ميــل الحد الفاصل بين فرنسا والمانيا ، ودون في يومياته ما يلي : « ليست هناك اية علامة على وجود حرب . وابلغني موظفو القطار انه لم تطلق رصاصة واحدة على هذه الجبهة منذ نشوب الجرب . وكان في وسعنا ان نرى العنابر الفرنسية ونبصر بحواجز فرنسية كبيرة في بعض الاماكن حيث يقوم الجنود وراءها ببناء التحصينات . ولا تختلف الصورة في الجانب الالماني عنها عند الفرنسيين . فالجنود يقومون بأعمالهم على مرأى من جنود العدو وعلى مرمى النار منهم . وكان الالمان ينقلون على الخط الحديدي المؤن والمدافع دون ان يتعرض لهم الفرنسيون بأذى . يا لها من حرب غريبة » (يوميات برلين للمؤلف ص ٢٣٤) .

٢ - شهادة هولدر الدفاعية في « قضية الوزراء » في محاكمات نورمبرغ في ٨ - ٩ ايلول عام ١٩٤٨ (محاكمات مجرمي الحرب - ١٢ - ص ١٠٨٦) .

بولندة » (١) .

واضاف الفريق كايتل رئيس القيادة العليا للقوات المسلحة الشهادة التالية :

« وكنا نحن العسكريين نتوقع هجوماً من فرنسا إبان حملتنا في بولندة ، وكانت دهشتنا بالغة عندما لم يتحقق ما توقعناه ولو شن الفرنسيون هذا الهجوم لما واجه إلا عمليات تغطيـة عسكرية المانية دون ان يكون هناك دفاع حقيقي » (٢) .

إذن ترى ما الذي حال بين الجيش الفرنسي ـ اذ لم تصل الفرقتان البريطانيتان الاوليان الى الجبهـة إلا في الاسبوع الاول من تشرين الاول وبين الهجوم في الغرب على الرغم من تفوقه الهائل على القوات الالمانية هناك. تنفيذاً للوعود الخطية الصادرة عن الفريق غاملان وعن الحكومة الفرنسية لبولندة ؟

هناك اسباب عدة حالت دون هذا الهجوم اولها روح الانهزامية التي سيطرت على القيادة العليا الفرنسية وعلى حكومة فرنسا وشعبها . وثاني هـذه الاسباب الذكريات المريرة عن الحرب الكونيـة الاولى ، عندما سالت دماء الفرنسيين انهاراً ، مما خلق تصميماً عند المسؤولين على عدم تكرار تلك المذابح ، اذا كان تجنبها ممكناً . وكان السبب الثالث هو ادراك المسؤولين في منتصف شهر ايلول ، بأن الالمان قـد أتموا هزم الجيش البولندى هزيمة كاملة ، وان من المحتمل ان يتمكنوا قريباً ـ أى الالمان ـ من نقل قوات متفوقـة الى الغرب تقضي على أية مكاسب فرنسية اوليـة وتمحوها محواً تاماً . أمـا السبب الرابع فهو خوف الفرنسيين من تفوق الالمان عليهم في السلاح وفي الجو . وبالفعل كانت الحكومـة الفرنسية قد أصرت منذ البداية ، على ان يمتنع السلاح الجوى البريطـاني عن مهاجمة الاهداف في ألمانيا مخافـة ان يثأر الالمان بالاغارة على المصانع الفرنسية ،

---

١ ـ شهادة يودل دفاعـاً عن نفسه في ٤ حزيران ١٩٤٦ في نورمبرغ (محاكمات كبار مجرمي الحرب (١٥) ص ٣٥٠) .

٢ ـ شهادة كايتل دفاعاً عن نفسه في ٤ نيسان ١٩٤٦ في نورمبرغ (محاكمات كبار مجرمي الحرب (١٠) ص ٥١٩) .

مع العلم بأن الإغارة بشكل قوي وشامل على الروهر . قلب المانيـــا الصناعي ، كان كفيلاً بأن يترك آثاراً مفجعة عند الالمان . وكان القادة الالمان يخشون هذا التطور اشد الخشية ، وظل يقضّ عليهم مضاجعهم طيلة شهر ايلول ، طبقاً لاعتراف الكثيرين منهم فيما بعد .

وليس ثمة من شك في ان تشرشل قد اوضح في مذكراتـــه السبب الجوهرى الذى حمل فرنسا على عدم مهاجمة المانيا عندما قال : « لقد خسرت فرنسا هذه المعركة قبل سنوات طوال» (١) . اجل لقد خسرتها عندما سكت الحلفـــاء في ميونيخ عام ١٩٣٨ . وقبل ذلك عندما اعاد الالمان احتلال منطقـــة الراين في عام ١٩٣٦ ، وقبل سنة اخرى عندما أعلن هتلر التجنيد الالزامي متحدياً معاهدة فرساي وهكذا دفع الآن ثمن تقاعس الحلفاء تقاعساً مؤلماً عن العمل في السنوات الماضية ، على الرغم من الحقيقة الواقعة ، وهي ان باريس ولنـــدن تصورتا ان في الامكان تأجيل دفع هذا الثمن عن طريق التقاعس عن العمل .

* * *

لكن البحر ، بات مسرحاً للعمل الحربي .

ولم يحصر الاسطول الالماني في الاكفان التي حصر بهـا الجيش في الغرب ، وتمكن هذا الاسطول في الاسبوع الاول من البدء بالعمليات الحربية من اغراق احدى عشرة باخرة بريطانية مجموع حمولتها (٦٤,٥٩٥) طناً وهو نصف الرقم للحمولة الاسبوعية التي اغرقتها الغواصات الالمانية في قمة نشاطها في نيسان عـــام ١٩١٧ ، عندما اشرفت بريطانيـا العظمى على شفير الكارثة . وبـــدأت خسائر البريطانيين في الهبوط بعـــد ذلك ، فبلغت (٥٣,٥٦١) طناً في الاسبوع الثاني و (١٢,٧٥٠) في الاسبوع الثالث و (٤,٦٤٦) في الاسبوع الرابع ، وبذلك بلغت الخسائر في شهر ايلول بكامله ستاً وعشرين باخرة اغرقتها الغواصات بمجموع حمولتها (١٣٥,٥٥٢) طناً ، وثلاثاً اخرى اغرقتها الالغام حمولتها (١٦,٤٨٨)

---

١ - مذكرات تشرشل ص ٤٧٨ .

طناً (١) .

وكان ثمة سبب لهذا الهبوط السريع ، لم يكن البريطانيون يعرفونه آنذاك . فلقد اجتمع الاميرال ريدر طويلاً الى هتلر في السابع من ايلول وكان الفوهرر قد أحس بالزهو والطرب من انتصاراته الاولى في بولندة ، ومن تقاعس الفرنسيين عن الهجوم في الغرب . فنصح قائد الاسطول بالتؤدة في الحرب البحرية . وكانت فرنسا قد اظهرت « كبتاً لأعمالها في الميدانين السياسي والعسكرى » ، كما كانت بريطانيا قد اظهرت « تردداً واضحاً » وتقرر على ضوء هذه الاوضاع ان تمتنع الغواصات في المحيط الاطلسي عن مهاجمة كافة بواخر الركاب دون استثناء . وان تمتنع كلية عن مهاجمة البواخر الفرنسية ، وان تقلع بارجة الجيب « دويتشلاند » العاملة في شمال الاطلسي ، وبارجة الجيب « غراف شبي » العاملة في جنوب هذا المحيط ، الى مراكز الانتظار في الوقت الحاضر ، متوقفة عن العمل . ودوّن ريدر في يومياته ان « السياسة العامة اقتضت التمسك بضبط النفس الى ان يصبح الوضع السياسي في الغرب اكثر جلاء ، وهذا يستغرق

---

١ - كشف تشرشل ، وزير البحرية آنذاك ، عن الارقام التقريبية في بيان ألقاه في مجلس العموم في السادس والعشرين من ايلول . وعاد فذكر الارقام الرسمية « المصححة » في مذكراته. ولقد ذكر المجلس ايضاً ان ست غواصات المانية أو سبعاً قد اغرقت ، وعاد فصحح في كتابه ايضاً هذا الرقم فيما بعد فذكر ان غواصتين المانيتين فقط قد اغرقتا في هذه المدة .

وتميز خطاب تشرشل هذا بطرفة ممتعة : فقد ذكر ان قائد احدى الغواصات الالمانية قد بعث اليه شخصياً برسالة لاسلكية يبلغه فيها عن موقع باخرة بريطانية اغرقها قبل قليل ، وحثه على ارسال وسائل النجدة لانقاذ بحارتها ، وقال تشرشل .. « ولم اعرف العنوان الذي استطيع ان اوجه اليه الرد على هذه الرسالة ، لكنه بات الان في قبضتنا » . ولكن قائد الغواصة لم يقع في ايدي البريطانيين كما قال تشرشل . فقد عقدت معه وهو القبطان هيربرت شولتز ، حديثاً اذاعياً وجهته الى امريكا بعد يومين . وقد اضطلع لى من سجل غواصته البرقية التي بعث بها الى تشرشل (راجع مذكرات تشرشل ص ٤٣٦ - ٤٣٧ ، ويوميات برلين للمؤلف ص ٢٢٥ - ٢٢٧) .

اسبوعاً على الاقل» (١) .

غرق الباخرة اثينيا

واتفق هتلر وريدر في اجتماعها في السابع من ايلول على قرار آخر . فقد دوّن الاميرال في يومياته . « يجب ان لا نقوم بأية محاولة لحل مشكلة «اثينيا» الى ان تعود الغواصات الى الوطن » .

وكنا قد ذكرنا ان الحرب في البحر ، بدأت بعد عشر ساعات من اعلان بريطانيا الحرب ، عندما نسفت الباخرة اثينيا التي تحمل (١٤٠٠) راكب بالطوربيد دون انذار في الساعة التاسعة من مساء الثالث من ايلول على بعد نحو من مائتي ميل الى الغرب من جزر « الهيبريديز » ، مما ادى الى غرق (١١٢) شخصاً من ركابها بينهم (٢٨) من الامريكيين . وارادت وزارة الدعاية الالمانية التأكد من الانباء الاولى التي اذيعت من لندن عن الحادث ، فاتصلت بالقيادة العليا للأسطول ، وقيل لها ان ليس ثمة من غواصات المانية في المنطقة التي تمزقت فيها الباخرة ، ونفت نفياً جازماً ان يكون الالمان هم المسؤولون عن اغراقها . وحيّرت الكارثة هتلر وقيادته البحرية ، ومالا في البداية الى الشك في صحة الانباء البريطانية . وكانت القيادة البحرية العليا قد اصدرت اوامر صارمة الى جميع قادة الغواصات بملاحظة ميثاق لاهاي ، الذي يمنع قيام الغواصات بمهاجمة أية باخرة قبل انذارها . ولما كانت جميع الغواصات تمتنع عن اعطاء أية اشارات لاسلكية حرصاً على سرّية حركاتها ، فلم يكن ثمة سبيل للتحقق مما وقع فوراً(٢) . ولكن هذا لم يحل بين الصحافة النازية الموجّهة وبين توجيه التهمة في غضون

---

١ — « اجتماعات الفوهرر لبحث الشؤون البحرية » — ١٩٣٩ — ص ١٦ — ١٧

٢ — صدرت اشارة لاسلكية في اليوم التالي ، الرابع من ايلول الى جميع الغواصات هذا نصها : « يأمر الفوهرر ، بعدم القيام بأية عملية حربية ، مهما كان السبب ضد أية باخرة من بواخر الركاب ، حتى ولو كانت تحت حراسة حربية » .

يومين الى بريطانيا بنسف هذه الباخرة رغبة منهـــا في استفزاز الولايات المتحدة ودفعها الى الاشتراك في الحرب .

وسيطر القلق فعـــلًا على دوائر « الويلهلمشتراسه » من رد فعل امريكا على الكارثة التي أدت إلى موت ثمانية وعشرين من المواطنين الامريكيين . واستدعى وايزساكر بعد يوم واحد من غرقها ، اليكزاندر كيرك ، القائم بأعمال السفارة الامريكية ونفى له ان تكون الغواصات الألمانيـــة هي المسؤولة عن غرقها . مؤكداً ان أية قطع بحرية المانية لم تكن قريبة من مكان الحادث آنذاك . وذكر وزير الدولة ايضاً في شهادته اللاحقة في نورمبرغ ، انه راح يقابـل الاميرال ريدر تلك الليلة . ليذكره كيف أدى اغراق الالمان للباخرة لوزيتانيـــا في الحرب الكونية الاولى الى دخول امريكا الصراع العالمي ، وليحثه «على اتخاذ كل وسيلة » لتجنب استفزاز الولايات المتحدة وقد أكد له الاميرال الالماني أن « أية غواصات ألمانية لا يمكن أن تكون قد اشتركت في عمل كهذا » (١) .

ودعا الاميرال ريدر بطلب ملحّ من ريبنتروب ، الملحق البحري الامريكي لمقابلته في السادس عشر من ايلول ، وصرح له بأنه قد تلقى معلومات من جميـع غواصاته ، وقد أصبح نتيجة لذلك على ثقة « من أن الغواصات الالمانية ليست المسؤولة عن غرق الباخرة أثينيا » ، وطلب إليه ابلاغ حكومته ذلك ، ففعل الملحق الامريكي ما طلبه منه (٢) .

ولكن أمير البحر الاكبر لم يكن قد روى الحقيقة . إذ لم تكن جميـــع الغواصات التي كانت تعمل في البحر في الثالث من ايلول قد عادت الى قواعدها .

---

١ - مذكرة وايزساكر عن محادثته مع كيرك (وزارة الخارجية الالمانيـــة (٨) ص ٣-٤) وشهادته في نورمبرغ عن حديثة مع ريدر (محاكمات كبار لمجرمي الحرب (١٤) ص ٢٨٧)

٢ - يبدو أن برقية الملحق الامريكي لم ترسل بالرموز . فقدظهرت صورة من البرقية في اوراق البحرية الالمانية في محاكمات نورمبرغ (محاكمات كبار مجرمي الحرب (٣٥) ص٥٢٧ - ٥٢٩) .

فلقد كان بين هذه الغواصات الغواصة (يو ٣٠) التي يقودها الملازم الاول ليمب ، التي لم ترس في ميـــاه الوطن حتى السابع والعشرين من ايلول . وقد استقبلها الاميرال دونيتز قائد سلاح الغواصات . الذي تولى بعد سنوات وفي نورمبرغ وصف الاستقبال ، وكشف أخيراً النقاب عن القصة الحقيقية لغرق البـــاخرة « اثينيا » اذ قال :

« قابلت القبطان ، الملازم الأول ليمت ، على رصيف ويلهلمسهافن عندما كانت الغواصة تدخل الميناء ، وطلب ان اسمح له بالتحـــدث إليّ على انفراد . ولاحظت فوراً ، انه كان يبدو تعساً وقد ذكر لي فوراً بأنه يعتقد بأنه مسؤول عن غرق الباخرة أثينيا في منطقة الطريق الشمالية ، وكان تنفيذاً لتعليماتي السابقة ، يراقب مراقبة دقيقة ظهور أية بواخر تجارية مسلحة في مداخل الجزر البريطانية ، وقد نسف بطوربيداته باخرة تبيّن فيما بعد من الاذاعات اللاسلكية انهـــا اثينيا ، وكان يخالها طراداً تجارياً مسلحاً يقوم بأعمال الدورية .

« وبعثت بليمب فوراً وبالطائرة الى برلين ليقدم تقريراً الى هيئة أركان البحرية . وأمرت في غضون ذلك بالسرية المطلقة كإجراء وقائي مؤقت . وتلقيت في صبيحة اليوم التالي ، أو في نفس اليوم . فقد نسيت التاريخ تماماً أمراً من القيادة العامة يقول :

« ١ – يجب الحفاظ على سرية القضية تماماً » .

« ٢ – لا ترى القيادة للأسطول ضرورة لمحاكمة القبطان أمام محكمة عسكرية ، نظراً لقناعتها بأنه ارتكب ما ارتكبه عن حسن نية » .

« ٣ – ستتولى القيادة العامة الايضاحات السياسية اللازمة » .

« ولم يكن لي على أي حال دور مهما كان شكله في الأحداث السياسية التي حملت الفوهرر على الادعاء بأن الغواصات الالمانية لم

تكن مسؤولة عن اغراق أثينيا » (١) .

ولكن دونيتز الذي يفسر وجوده في الميناء لاستقبال الغواصة (يو ٣٠) عند عودتها الشكوك التي كانت تساوره منذ البداية في الموضوع كله ، قد اشترك فعلاً في تغيير سجل الغواصة ، وفي تغيير يومياته نفسها ، رغبة منه في طمس معالم أي دليل يقوم على الحقيقة . فقد اعترف هو نفسه في نورمبرغ ، بأنه قد أصدر الامر بمحو أي ذكر للباخرة أثينيا من سجل الغواصة المذكورة ، كما طمس أية اشارة اليها في يومياته . وقام كذلك بحمل بحارة الغواصة على أداء اليمين بالحفاظ على السرية المطلقة (٢) .

وتحتفظ جميع القيادات العسكرية لجميع الدول في أيام الحروب بأسرار داخلية غير مستحبة ، وكان من المفهوم ، إن لم يكن من المقبول ، أن يصر هتلر، كما شهد أمير البحر ريدر في نورمبرغ فيما بعد ، على الاحتفـــاظ بسرية موضوع أثينيا ، لا سيما وان القيادة البحرية العليا ، كانت تظن نفسها صادقة عندما نفت أولاً مسؤولية ألمانيا عن اغراقها . وكان لا بد من أن تحس بالكثير من الضيق إذا تحتم عليها أن تعترف بهذه المسؤولية فيما بعد . ولكن هتلر لم يكتف بذلك أبداً . فلقد راح غوبلز وزير الدعاية يذيع بنفسه مساء الاحد الثاني والعشرين من تشرين الاول ، كما يذكر مؤلف هذا الكتاب تماماً ، ليتهم في إذاعته تشرشل باغراق

---

١ - شهادة دونيتز المشفوعة باليمين في نورمبرغ (المؤامرة النازية والعـــدوان (٧) ص ١١٤ - ١١٥).

٢ - نقل ضباط الغواصة ومعهم قائدها ليمب وبعض بحارتها كذلك الى الغواصة « يو ١١٠ » وقد غرقوا جميعاً معها عندما غرقت في التاسع من آيار عام ١٩٤١ . وقد أصيب احد البحارة بجراح من نيران الطائرات بعد بضعة ايام من غرق الباخرة أثينيا . وأنزلته الغواصة في ميناء ريكجافيك في السلندة ، في منتهى السرية ، ثم نقل فيما بعد الى معسكر لأسرى الحرب في كندا ، ووقع بعد انتهاء الحرب على شهادة مشفوعة باليمين تسرد الحقائق . ويبدو ان الالمان كانوا يخشون من أن « يتحدث » ولكن يبدو أنه لم ينبس ببنت شفة حتى انتهاء الحرب . (المؤامرة النازية والعدوان (٧) ص ١٥٦ - ١٥٨) .

الباخرة «أثينيا» . وطلعت صحيفة النازيين الرسمية – الفولكشاير بيوباختر – في اليوم التالي تنشر قصة في صدر صفحتها الاولى تحمل العنوان الكبير التـالي : « تشرشل يغرق اثينيا » ، ذكرت فيها ان وزير البحرية البريطانية قد وضع قنبلة موقوتة داخل الباخرة . وقد ثبت في محاكمات نورمبرغ ان الفوهرر قد أمر شخصياً باذاعة ذلك الحديث ونشر ذلك المقال ، وانه على الرغم من أن ريدر ودونيتز ووايز ساكر كانوا قد أحسوا بالامتعاض من هذه الكذبة الصارخة ، إلا أنهم لم يجرؤوا على القيام بأي عمل تجاهها (١) .

وقد قدر لهذا الجبن من جانب الأميرالين ومن جانب هذا الكبير المسؤول في وزارة الخارجية والمصرّ على اظهار نفسه بمظهر المناوىء للنازية ، وهو جبن كان يشترك معهم فيه كل الاشتراك القادة العسكريون كلما ظهر سيد الحرب النازي المهووس بمظهر الجنون ، ان يقود المانيـا الى حقبة من أكثر الحقب سواداً في تاريخها .

هتلر يقترح الصلح

دوّنت في يوميتي بتاريخ العشرين من ايلول ... « تتحدث الصحف صراحة اليوم عن الصلح والسلام ، ويكاد يؤكد جميـع الالمان الذين التقيت بهم اليوم أن السلام سيعود ثانية في غضون شهر . ان معنوياتهم عالية للغاية » .

وأصغيت في القاعة المذهبة والمزخرفة في دانزيـغ قبل ظهر اليوم السابق الى

---

١ – شهادة ريدر في نورمبرغ (محاكمات كبار مجرمي الحرب (١٤) ص ٧٨)، وشهادة وايز ساكر (نفس المصدر ص ٢٧٧ و ٢٧٩ و٢٩٣) وشهادة هانز فريتشه من كبار موظفي وزارة الدعاية (نفس المصدر (١٧) ص ١٩١ وص ٢٣٤ - ٢٣٥) ، ومقال الفولكشاير بيوباختر في المؤامرة النازية والعدوان (٥) ص ١٠٠٨ . واذاعة غوبلز من (يوميات برلين للمؤلف ص ٢٣٨) .

هتلر وهو يلقي أول خطاب له بعد خطابه في الرايشستاغ في الأول من ايلول معلناً بدء الحرب وعلى الرغم من انه كان ثائراً إذ حيل بينه وبين لقاء هذا الخطاب في وارشو ، التي كانت حاميتها لا تزال صامدة ببسالة ، وكان يقطر سماً كلما جاء على ذكر بريطانيا العظمى ، إلا انه أشار بإيماءة خفيفة الى موضوع الصلح إذ قال : « ليست لدي أية اهداف حربية ضد بريطانيا وفرنسا » . ثم مضى يقول : « وانني لأشعر بالعطف على الجندي الفرنسي الباسل ، فهو لا يعرف السبب الذي يدفعه الى الحرب » . وراح يبتهل الى الله « الذي بارك قواتنا ان يهب الفهم للشعوب الاخرى لتدرك ما في هذه الحرب من ضير وان يحملها على التفكير في نعم السلام » .

وشنت صحافة المانيا واذاعاتها في السادس والعشرين من ايلول ، أي في اليوم الذي سبق سقوط وارشو ، حملة ضخمة من اجل السلام . وكانت النغمة التي سادت هذه الحملة والتي دونتها في يومياتي .. ترى لماذا تريد بريطانيا وفرنسا ان تحاربا الآن .. ليس ثمة ما يستحق ان يحارب المرء بسببه . ان المانيا لا تريد شيئاً في الغرب » .

وسرعان ما انضمت روسيا بعد يومين اثنين ، وبعد ان شرعت تهضم بسرعة حصتها في بولندة ، الى حملة الصلح هذه . فقد طبخ مولوتوف وريبنتروب اثناء الاجتماعات التي دارت لعقد معاهدة الصداقة والحدود النازية السوفياتية بما فيها من بنود سرية لاقتسام اوروبا الشرقية ، تصريحاً مشتركاً سرعان ما اذاعاه في الثامن والعشرين من ايلول ، داعياً بصوت جهوري طنان الى الصلح والسلام .

وقد جاء في هذا التصريح المشترك ان حكومتي المانيا وروسيا بعد ان ...

« توصلنا بصورة نهائية الى تسوية واضحة للمشاكل الناجمة عن تفسّخ الدولة البولندية ، وبعد ان خلقتا اساساً ثابتاً للسلام الدائم في اوروبا الشرقية ، تعربان بصورة مشتركة عن اعتقادهما بأن مما يخدم المصالح الحقيقية لجميع الشعوب ، التوصل الى انهاء حالة الحرب

القائمة بين المانيا وانكلترا وفرنسا . وستوجه هاتان الحكومتان تبعاً لذلك جهودهما المشتركة لتحقيق هـذا الهدف في اسرع وقت ممكن » .

« أما اذا ظلت جهود هاتين الحكومتين دون جدوى ، فان هذا الواقـع يعرض آنذاك الحقيقة الماثلة وهي ان انكلترا وفرنسا ستكونان في هذه الحالة مسؤولتين عن استمرار الحرب .. » .

هل اراد هتلر السلام حقاً او انـه كان يريد مواصلة الحرب ، وان يحمّل بمساعدة روسيا المسؤولية في استمرارها على الحليفتين الغربيتين ؟ من المحتمل ان لا يكون هتلر نفسه قـد عرف ماذا يريد ، وان كان متأكداً الى حد ما من النتيجة .

فقد اجرى هتلر في السادس والعشرين من ايلول حديثاً طويلاً مع داهليروس الذي لم يكن قد تخلى بأي حال من الاحوال عن جهوده الهادفـة الى السلام . وكان السويـدي الذي لا يكل ولا يمل ، قد التقى قبل يومين بصديقه القديم اوغيلفي فوربس في مدينة اوسلو ، حيث كان المستشار السابق للسفارة البريطانية في برلين يعمل الآن مستشاراً لمفوضية بلاده في عاصمة النروج . وتروي مذكرة سرية كتبها الدكتور شميدت(١) ان داهليروس نقل الى هتلر ، قول فوربس بأن الحكومة البريطانية ساعية الى الصلح . واضاف ان المشكلة الوحيـدة التي تشغل بالها ، هي كيف يمكن لها ان تصون ماء وجهها ؟

ورد هتلر قائلاً ... « إذا كان البريطانيون يريدون الصلح حقاً ، فان في وسعهم الوصول اليه في غضون اسبوعين دون اراقة ماء الحياء في وجوههم » .

واضاف الفوهرر ان على البريطانيين اولاً ان يهيئوا انفسهم لتقبـل الحقيقة الواقعة وهي « ان بولندة لن تعود الى الوجود ثانية » . ومضى يقول .. انـه إذا تحقق هذا الشرط ، فانه على استعداد لضمان « الوضع الراهن فيما تبقى من اوروبا »

---

١ ـ مذكرة شميدت عن الحديث ـ وثائق وزارة الخارجية الالمانية (٨) ص ١٤٠ ـ ١٤٥

وأن يضمن أيضاً « سلامة » بريطانيا وفرنسا والأراضي المنخفضة (هولندة وبلجيكا واللوكسمبورغ) . وانتقل النقاش الى الطريقة التي يمكن فيها الشروع بمحادثات الصلح . واقترح هتلر أن يتولى موسوليني ذلك ، ولكن داهليروس رأى أن ملكة هولندة قد تكون أكثر « حياداً » للقيام بهذه الوساطة . واقترح غورنغ الذي كان يشهد المقابلة أيضاً ان يجتمع أولاً ممثلون عن بريطانيا وألمانيا سراً في هولندة ، وان تقوم الملكة في حالة احراز هؤلاء الممثلين تقدماً في مفاوضاتهم ، بدعوة البلدين علناً الى اجراء محادثات الهدنة . ووافق هتلر الذي كان يعلن شكه في حقيقة « رغبة البريطانيين في الصلح » أخيراً ، على اقتراح السويدي بأن « يسافر في اليوم التالي الى انكلترا ، ليسبر غورها بصدد الاتجاه المشار إليه » .

وقال هتلر لداهليروس وهو يودعه : « في وسع البريطانيين أن يحصلوا على الصلح إذا أرادوه ، ولكن يتحتم عليهم أن يبادروا بسرعة الى تحقيقه » .

كان هذا أحد الاتجاهات في تفكير الفوهرر . وقد أوضح اتجاهاً آخر لقادته العسكريين . وقد روى الفريق هولدر في يوميته التي دوّنها بتاريخ الخامس والعشرين من ايلول ، تلقيه « كلمة من الفوهرر عن خطته للهجوم في الغرب » . وفي السابع والعشرين منه أي بعد يوم واحد من تأكيده لداهليروس استعداده لعقد الصلح مع بريطانيا ، دعا هتلر القادة العامين لفروع القوات المسلحة الى اجتماع عقد في دار المستشارية وأبلغهم قراره « بالهجوم في الغرب ، في أسرع وقت ممكن ، طالما أن الجيوش الفرنسية والبريطانية ما زالت مفتقرة الى الاستعداد » . وذكر (براوخيتش) أن الفوهرر حدد الثاني عشر من تشرين الثاني موعداً للهجوم (١) . وليس ثمة من شك في أن هتلر قد استشاط حماساً في ذلك اليوم بالأنباء التي وصلته عن استسلام وارشو . ومن المحتمل أن يكون قد فكر

١ – شهادة براوخيتش في نورمبرغ (محاكمات كبار مجرمي الحرب (٢٠) ص ٥٧٣) . وهناك مذكرة في يوميات القيادة البحرية الالمانية العليا تؤكد هذه الفقرة المقتبسة .

بأن في الامكان اجبار فرنسا على الأقل على الركوع بنفس السهولة التي تم فيها اخضاع بولندة ، وان كان هولدر قد دوّن بعد يومين في يومياته بأنه « يرغب » في أن يوضح للفوهرر أن « الأسلوب الذي اتبع في الحملة البولندية لا يصلح كوصفة في حملة مماثلة في الغرب ، إذ ان هذا الاسلوب لا يجدي مع جيش قوي التماسك » .

ومن المحتمل أن يكون شيانو قد أفلح في النفاذ الى عقل هتلر وتفهمه أحسن من غيره عندما جرى له حديث طويل مع المستشار في الأول من تشرين الأول . وقد وجد وزير خارجية إيطاليا الشاب ، الذي كان يكره الالمان الآن كراهية شديدة ، ولكنه يرى نفسه مضطراً الى التظاهر بصداقتهم ، الفوهرر في وضع الواثق تماماً من موقفه . ولاحظ شيانو أن الفوهرر وهو يحدد له خططه ، كانت عيناه تومضان ببريق خاطف ينطوي على الشر ولا سيما عندما يتحدث عن طوقه ووسائله في القتال . وكتب الزائر الايطالي ملخصاً انطباعاته ما يلي :

« ... يبدو لي أن هناك أملاً يداعب خيال هتلر ويغريه ، وهو أن يقدم لشعبه سلاماً ثابتاً بعد النصر العظيم الذي حققه له . أما إذا وجد أن الوصول الى هذا السلام يتطلب منه بعض التضحية ، حتى ولو ضؤلت ، مما يحرمه من بعض الثمار التي يعتبرها مشروعة لانتصاره ، فإنه يؤثر والحالة هذه المضي الى المعركة ، وايثاره هذا يبلغ ألف ضعف ما يحس به من رغبة في السلام »(١) .

وخيّل إليّ وأنا أجلس في دار الرايشستاغ مستمعاً ظهر السادس من تشرين الأول الى هتلر وهو يوجه نداءه من أجل السلام ، ان هذا الحديث اسطوانة

---

١ – لم يكن موسوليني يشارك هتلر ثقته في النصر، وهي الثقة التي نقلها شيانو اليه في تقريره عن محادثاته . وكان يرى أن البرنطانيين والفرنسيين « سيصمدون، وان ليس من الخير في شيء خفاء هذه الحقيقة » . وسجل شيانو في يومياته بتاريخ الثالث من تشرين الاول« ان موسوليني يشعر بشيء من الالم ، والغيظ ، لهذا الارتفاع المفاجيء الذي حققه هتلر في طريق الشهرة » (ايوميات شيانو ص ١٥٥) و (أوراق شيانو الدبلوماتية ص ٣٠٩-٣١٦) .

تدور على الحاكي « الغرامافون » المرة الخامسة أو السادسة . وعدت بذاكرتي الى المرات العديدة التي استمعت إليه فيها يتحدث من فوق هـذا المنبر نفسه ، وبعد آخر فتح حققه ، وبنفس اللهجة الواضحة من التلهف والاخلاص ، داعياً الى السلام الذي يبدو إذا تجاهلنا ضحيته الاخيرة ، سلاماً كريماً ومعقولاً . وقد كرر نفس هذه المعزوفة في هذا اليوم المشمس من أيام الخريف ، بما عرف عنه من بلاغة في القول وزيف فيه . وكان خطابه هذه المرة طويلاً بل ولعله من أطول الخطب العامة التي ألقاها في حياته ، وعندما وصل الى نهايته ، وبعد أكثر من ساعة كاملة من سرد المغالطات النموذجية للتاريخ ، والتفاخر بما حققـه السلاح الالماني في بولندة « تلك الدولة المضحكة » ، راح يعرض اقتراحاته للسلام معدداً الاسباب التي تحمله على تقديمها فقال :

« لقد اتجهت محاولاتي الأساسية ، كلها الى تحرير علاقاتنـا مع فرنسا من كل أثر من آثار سوء النيـة ، وأن أجعلها مقبولة الى البلدين... واني لأعلنها كلمة صريحة وهي أن ليس لألمانيا أية مطالب أخرى من فرنسا ... وقد رفضت أيضاً أن أشير بكلمة واحدة الى الالزاس واللورين ... وقد أعربت لفرنسا دائماً عن رغبتي في أن أدفن عداوتنا القديمـة ، وأن أقرّب بين هاتين الأمتين اللتين تتميزان بالامجاد العريقة .. » .

وانتقل الى بريطانيا فقال :

« ولم آل جهداً كذلك في تحقيق التفاهم بين انكلترا والمانيا ، بل ومضيت الى أبعد من ذلك ، اذ حاولت اقامة صداقة المانية - انكليزية . ولم أقم في أي وقت من الأوقات ، ولا في أي مكان من الأماكن بعمل يناقض المصالح البريطانيـة .. واني لأعتقد حتى الآن ، ان السلام الحقيقي لن يستتب في أوروبا وبالتالي في العـالم بأسره ، إلا إذا توصلت المانيا وانكلترا الى التفاهم » .

وتحدث عن السلام فقال :

ولماذا نخوض هذه الحرب في الغرب ؟ هل نخوضها لإعادة بولندة ؟ . إن بولندة التي خلقتها معاهدة فرساي لن تعود ثانية الى الوجود ... فمشكلة اقامة الدولة البولندية لن تحل مطلقاً بالحرب في الغرب ، وانما تحل بالاتفاق بين روسيا والمانيا ... وليس من المعقول أن تعرض ملايين الارواح للفناء ، وما قيمته الملايين من الممتلكات للدمار ، لنعيد تأسيس دولة اعتبرت منذ ولادتها « طرحاً » جهضت به معاهدة فرساي ، وذلك عند جميع الناس باستثناء الذين يمتون الى أصل بولندي .. فهل هناك من سبب آخر للحرب» ؟ .

« أما إذا كنا نخوض هذه الحرب حقاً ، ليقيم أعداؤنا في المانيا نظاماً جديداً من الحكم ، فان ملايين الأرواح سيضحى بها عبثاً ... لأن هذه الحرب في الغرب لا يمكن لها أن تحل أية مشكلة أو قضية ... » .

ولكن ثمة قضايا عدة يجب حلها . وراح هتلر يعدد قائمة كاملة بهذه القضايا ، فذكر منها « تشكيل دولة بولندية » على الرغم من أنه كان قد اتفق قبل وقت قصير مع الروس على عدم السماح بوجودها ، و« حل المشكلة اليهودية وتسويتها» وقضية مستعمرات المانيا السابقة ، وانعاش التجارة الدولية و« السلام المضمون بلا قيد أو شرط » و « خفض التسلّح » و« وضع الانظمة للحرب الجوية وحرب الغازات والغواصات وما شابهها » وتسوية مشاكل الاقليات في أوروبا .

واقترح « لتحقيق هذه الاهداف العظيمة » عقد مؤتمر الدول الاوروبية الكبرى ، شريطة « اتخاذ الاعدادات اللازمة والكاملة له مسبقاً » ... ثم مضى يقول :

« ويستحيل أن يتمكن مؤتمر كهذا غايته تقرير مصير هذه القارة لأجيال عدة ، من تحقيق أهدافه والقيام بمشاوراته ، في الوقت الذي تواصل فيه المدافع هديرها والجيوش الكاملة التعبئة فرض ضغطها عليه.

« وإذا كان لا بد من حل هذه المشا كل إن عاجلاً وان آجلاً ، فإن من المنطق كل المنطق ، المبادرة الى الحل قبل أن يتعرض الملايين من الناس للموت والبلايين من الثروات للدمار . ولا يمكن للمرء أن يتصور استمرار هذه الاوضاع الراهنة في الغرب . فكل يوم يمضي يتطلب المزيد من التضحيات ... وستتبدد ثروة أوروبا القومية في انتاج القنابل والقذائف ، وستهدر حيوية كل بلد من البـــلاد في ميادين القتال ...

« وهناك شيء واحد لا يسع المرء إلا التثبت منه . فقــد علمنا التاريخ العالمي ، انه لا يمكن أن يكون هناك منتصران ، بل عدد كبير من الخاسرين دائماً . فهل للشعوب التي تحمل مثل هذا الرأي ، وهل لقادتهـــا الذين يشاطرونها إياه أيضاً أن يردوا على ما أقول . وليرفض أولئك الذين يعتبرون الحرب الحل الامثل ، هذه اليد التي أمدها اليهم » .

وانتقل بفكره الى تشرشل فقال ...

« أما إذا تغلبت أفكار المستر تشرشل وشركاه ، فسيكون هذا البيان آخر ما سأقوله . ولا بد من أن يكون هناك قتال والحالة هذه ... ولن يكون هناك تشرين ثان آخر في التاريخ الالماني » . (إشارة الى هدنة عام ١٩١٨) .

ودوّنت في يومياتي عند عودتي من الرايشستاغ في ذلك اليوم . انني أشك كل الشك في أن البريطانيين والفرنسيين سيعيرون هـــذه الاقتراحات الغامضة إلتفاتهم ولو لمدة « خمس دقائق » . لكن الالمان كانوا متفائلين . وابتعت وأنا في طريقي الى دار الاذاعـــة ، لأبث رسالتي الى امريكا تلك الليلة ، نسخة من الطبعة المبكرة لصحيفة هتلر « الفولكشاير بيوباختر » ، ووجدتها تحمل العناوين التالية :

« إرادة المانيا في السلام – لا أهداف حربية لنا مع انكلترا

وفرنسا « لا مطالب أخرى لنا سوى المستعمرات السابقة ــ خفض التسلح - التعاون مع جميع دول أوروبا - اقتراح عقد مؤتمر » .

ونعرف الآن من الوثائق الالمانية السرية المصادرة ، أن دوائر الويلهلمشتراسة ، كانت قد تلقت تقارير من باريس عن طريق السفيرين الاسباني والايطالي ، شجعتها على الاعتقاد بأن الفرنسيين لا يميلون الى استمرار الحرب . وأبلغ السفير الاسباني برلين في الثامن من ايلول ان بونيه « وزير خارجية فرنسا - نظراً لما تلقاه الحرب من كراهية في فرنسا ، سيحاول الوصول الى تفاهم فور انتهاء العمليات في بولندة . وهناك بعض الدلائل التي تشير الى انه على اتصال بموسوليني لتحقيق هذه الغاية(١) .

وسلّم أتوليكو ـ السفير الايطالي في برلين ــ الى وايز ساكر في الثاني من تشرين الاول ، نص الرسالة الاخيرة التي تلقتها حكومته من سفير ايطاليا في باريس ، وهو يذكر فيها أن غالبية أعضاء الوزارة الفرنسية يؤيدون عقد مؤتمر للصلح ، ولم تعد القضية الآن أكثر من مجرد « تمكين فرنسا وانكلترة من انقاذ وجهيهما » ، لكن رئيس الوزارة دیلادییه لم يكن على الغالب من رأي هذه الاكثرية (٢) .

وكانت هذه المعلومات صحيحة . ففي السابع من تشرين الاول ، رد دیلادییه على هتلر . وأعلن أن فرنسا لن تلقي سلاحها ، ما لم تحصل على ضمانات صحيحة « لقيام سلام حقيقي وأمن عام » . ولكن هتلر كان أكثر اهتماماً بالاستماع الى رأي تشمبرلين منه الى رأي الرئيس الفرنسي . وراح في العاشر من

---

١ - وثائق وزارة الخارجية الالمانية (٧) ص ٢٤.

٢ - تلقى الالمان من الايطاليين بعد فترة وجيزة أي في السادس عشر من تشرين الثاني أن معلوماتهم من باريس تشير الى أن « المارشال بيتان ، يعتبر المدافع الاول في فرنسا عن سياسة السلام . واذا قدر لقضية السلام ان تغدو اكثر حدة في فرنسا فإن بيتان سيلعب دوره فيها »(وثائق وزارة الخارجية الالمانية(٧) ص ٤١٤) . وكانت هذه هي الاشارة الاولى للالمان بأن بيتان قد يغدو نافعاً لهم فيا بعد . (وثائق وزارة الخارجية الالمانية (٨) ص ١٩٧ - ١٩٨) .

تشرين الأول ، وفي غضون خطاب قصير ألقاه في الميدان الرياضي في افتتاح حملة إغاثة الشتاء « Winterhilfe » ، يؤكد مرة ثانية « استعداده للسلام » . وأضاف « أن ليس لألمانيا أي سبب يدعوها الى الحرب مع الدولتين الغربيتين » .

وجاء رد تشمبرلين في الثاني عشر من تشرين الاول وكان بمثابة « دوش » بارد للشعب الالماني إن لم يكن لهتلر (١) . فقد أطلق رئيس الوزراء على اقتراحات هتلر في خطاب ألقاه في مجلس العموم صفة « الغموض وعدم الثبات » ، وأضاف انها « لا تنطوي على أية اقتراحات لتصحيح الأخطاء التي ارتكبت بحق تشيكوسلوفاكيا وبولنـــدة » . وقال انه لا يمكن الركون أبداً الى « وعود الحكومة الالمانية الراهنة » . وإذا كانت هذه الحكومة تريد السلام حقاً فعليها أن تقيم الدليل على رغبتها هـــذه « بالأفعال لا بالأقوال » . وطلب من هتلر « دليلاً مقنعاً » على أنه يريد السلام حقاً .

وهكذا تبيّـن ان « رجل ميونيخ » – اشارة الى تشمبرلين ، لم يعد مستعداً لقبول خديعة هتلر ووعوده . وصدر بيان رسمي الماني في اليوم التـــالي ، أي الثالث عشر من تشرين الاول ، يعلن ان تشمبرلين برفضه عرض هتلر للسلام ، قد اختار الحرب عامداً متعمداً ووجد الديكتاتور النـــازي الآن المبرر الذي يريده .

ونحن نعرف من الوثائق الالمانية المصادرة الآن . ان هتلر ، لم يظل مكتوف اليدين بالفعل في انتظار رد رئيس الوزراء ، قبل أن يصـدر أوامره بالاستعداد للهجوم الفوري في الغرب . واستدعى في العـــاشر من تشرين الاول ، قادته

---

١ – شهدت برلين في اليوم السابق أي في الحادي عشر من تشرين الاول فتنـــة تطالب بالسلام . فقد أعلنت اذاعة على موجة «برلين» في ساعات الصباح الباكر ان الحكومة البريطانية قد سقطت وان الهدنة الفورية ستقع في كل لحظة . وعندما انتشرت الشائعة عمت العاصمة الالمانية موجة طاغية من الفرح . وراحت العجائز يقذفن بما اشترينه من « ملفوف» من سوق الخضار في الهواء ، وتحطمت بعض المظلات في السوق ، من جراء مظاهرة الفرح هذه ، ومضت العجائز الى اقرب حانة ليشربن « الشناپز » نخب السلام . (شراب الماني) .

العسكريين ، وتلا على مسامعهم مذكرة مطولة عن حالة الحرب ، وأوضاع العالم ، وقذف في وجوههم بتوجيهه السادس عن إدارة دفة الحرب (١) .

وأثار إصرار الفوهرر في نهاية شهر ايلول على وجوب شن الهجوم في الغرب في أسرع وقت ممكن ، غضب القيادة العليا للجيش . وتواطؤ براوخيتش وهولدر ومعهما عدد آخر من القادة العسكريين على أن يقيموا الدليل للزعيم ، بأنه لا يمكن البحث الآن في موضوع أي هجوم فوري . وقالوا ان عملية إصلاح الدبابات التي استخدمت في بولندة ، وإعدادها للعمل من جديد تتطلب عدة أشهر أخرى . وقدم الفريق توماس أرقاماً تثبت أن هناك عجزاً شهرياً قدره ستمائة الف طن في إنتاج الفولاذ . وقدم الفريق فون ستولبناغل مدير تموينات الجيش ، أن الذخيرة الموجودة لا تكفي « لأكثر من ثلث فرقنا الحالية ، لمدة أربعة عشر يوماً من القتال » ، وهو أمد لا يكفي مطلقاً لكسب الحرب ضد فرنسا . ولكن الفوهرر لم يشأ الإصغاء الى قائده العام ورئيس هيئة أركان الحرب ، عندما قدما إليه تقريراً رسمياً عن نقاط الضعف في الجيش ، في السابع من تشرين الأول . وذكر الفريق يودل وهو الرجل المطواع الثاني في القيادة العامة للقوات المسلحة بعد كايتل ، في حديث مع الفريق هولدر ، أن « أزمة حادة على وشك الوقوع » ، وذلك بسبب معارضة الجيش للهجوم في الغرب وان الفوهرر « يشعر بالمرارة لأن العسكريين لا يطيعونه » .

واستدعى هتلر نتيجة هذه المعارضة ، قادته العسكريين الى اجتماع عاجل في الساعة الحادية عشرة من صباح العاشر من تشرين الاول . ولم يطلب الفوهرر منهم الرأي والمشورة ، وانما اكتفى بأن يردد على مسامعهم التوجيه السادس الذي أصدره في اليوم السابق ، والذي حدد لهم ما يفعلونه ... وهذا نصه :

---

١ - مذكرة هتلر (المؤامرة النازية والعدوان (٧) ص ٨٠٠-٨١٤) والتوجيه السادس (نفس المصدر (٦) ص ٨٨٠ - ٨٨١) .

« إذا اتضح في المستقبل القريب ان انكلترا ، وان فرنسا التي تعمل في ظل قيادة حليفتها ، لا ترغبان في الوصول بهذه الحرب إلى نهايتها ، فإنني عازم عزماً قاطعاً على العمل بجزم ، وبصرامة ، ودون أي ابطاء ...

« ولهذا فإنني أصدر الأوامر التالية :

« ا – يجب اتخاذ الأهبة والاعداد لعملية هجومية ...عن طريق أراضي اللوكسمبورغ وبلجيكا وهولندة . ومن الواجب تنفيذ هذا الهجوم ، في أقرب تاريخ ممكن .

« ب – ويكون الهدف من هـذا الهجوم هزم أقوى جزء من جيش فرنسا العامل ، وهزم حلفائه الذين يحاربون الى جانبـه ، والحصول في الوقت نفسه على أوسع منطقة ممكنة من هولندةوبلجيكا وفرنسا الشمالية ، لاستخدامها قواعد ، لتسيير دفة حرب ناجحة في الجو والبحر ضد انكلترا ...

« وانني أطلب الى القادة العامين للقوات المسلحة ، أن يقـدموا اليّ في أسرع وقت ممكن ، تقارير مفصلة عن الخطط التي يضعونها على أساس هذا التوجيه ، وأن يواصلوا اطلاعي على كل شيء ... »

وكانت المذكرة السرية المؤرخة كذلك في التاسع من تشرين الاول ، والتي تلاها هتلر على مسامع قادته العسكريين قبل أن يقدم إليهم توجيهه هـذا ، من أكثر الوثائق التي دوّنها العريف النمسوي السابق تأثيراً . إذ تظهر هذه الوثيقة بالاضافة الى مفهوم الالمان عن التاريخ ، ومفاهيمهم عن السوقية (الاستراتيجية) العسكرية وعن الاساليب التعبوية (التاكتيك) ، وهي مفاهيم بارزة كل البروز. بعض الإحساس بالغيب والتكهن عن الطريقة التي ستسير فيها الحرب في الغرب وما يمكن أن تؤدي إليه من نتائج . ويقول هتلر في مذكراته ، أن الصراع بين

المانيا والدولتين الغربيتين ، الذي ما فتيء مستمراً منذ انحـلال الرايخ الالماني الاول في معاهدة وستفاليا (مونيستر) في عام ١٦٤٨ « يجب أن يخاض بشكل أو بآخر » . ولكنه لا يرى مانعاً ، على أي حال ، بعد النصر العظيم في بولندة ، من «إنهاء الحرب فوراً » شريطة عدم المساس بالمكاسب التي حققتها المانيا فيبولندة. ومضى يقول

« وليس القصد من هذه المذكرة أن تدرس الاحتمالات في هذا المجال ، ولا حتى ان تأخذ هـذه الاحتمالات في موضع العناية والاهتمام . ولذا فسأحصر الحـديث فيها ، في الحالة الأخرى ليس إلا ، وهي ضرورة مواصلة القتال . وهدف المانيا من هذه الحرب « التصرف » عسكرياً وبصورة نهائية بالغرب ، أي تحطيم ما لدى الدولتين الغربيتين من قوة وطاقة ، لجعلها عاجزتين عن معـارضة وضع أسس الاستقرار للشعب الالماني في أوروبا وتطويره المقبل ...

« ومن الواجب بالنسبة الى العـالم الخارجي . أن يمر هـذا الهدف السرمدي ، بمراحل مختلفة من التعديلات في شؤون الدعاية ، على أن لا يشمل التعديل الهدف الحربي نفسه . وسيظل هـذا الهدف كما هو الآن تحطيم أعدائنا الغربيين » .

وكان القادة العسكريون قد اعترضوا على الاسراع في التحول الى الهجوم في الغرب . لكن عامل الزمن في رأيه ، يقف الى جانب العدو. وراح يذكر هؤلاء القادة ، بأن الانتصارات الضخمة في بولندة ، لم تتحقق ، إلا لأن المانيا لم تقاتل بالفعل إلا في جبهة واحدة . وأضاف أن هذا الوضع ما زال قائماً ، ولكن ترى حتام يظل هذا الوضع على هذا النحو ؟ . ومضى يقول :

« ولا يمكن لأي ميثاق أو أية معاهدة ، أن يضمنا بقاء روسيا السوفياتية على الحياد بشكل دائم ومستمر ، وثابت . وتقوم جميع العوامل في الوقت الحاضر ضد خروج روسيا على حيـادها . ولكن هذا الوضع قد يتبدل في غضون ثمانية أشهر أو سنة أو عدة

سنوات . وقد أثبتت حوادث السنوات الأخيرة ، تفاهة ما المعاهدات من قيمة عند جميع الأطراف . ولعل أعظم ضمانة لنا ضد وقوع هجوم روسي علينا ، تقوم في عرض حازم للقوة العسكرية الالمانية » .

وأشار الى ايطاليا فقال ان « الأمل في مساعدة الايطاليين لالمانيا » يعتمد أكثر ما يعتمد على بقاء الدوتشي على قيد الحياة ، وعلى طاقة الانتصارات الالمانية الجديدة على إغرائه . وعلينا أن لا ننسى في هذا الصدد عامل الزمن أيضاً ، و . و ينطبق كذلك على بلجيكا وهولندة ، اللتين قد ترغمهما بريطانيا وفرنسا على التخلي عن حيادهما ، وهو أمر لا تستطيع المانيا أن تظل مكتوفة اليدين منتظرة حدوثه . وأضاف أن « عامل الزمن أيضاً » يعمل ضد المانيا » بالنسبة الى موقف الولايات المتحدة نفسها .

واعترف هتلر ، بأن ثمة أخطاراً عظيمة تهدد المانيا من الاستمرار في الحرب أمداً طويلاً ، وشرع يعدد بعض هذه الاخطار . فقد تنقلب الدول المحايدة من صديقة أو لا صديقة الى الجانب الآخر ، كما حدث في الحرب الكونية الاولى « لا ريب في أنه كان يفكر في روسيا وايطاليا والولايات المتحدة ليس الا » . وقد تجد المانيا بالنسبة الى « أوضاع المواد الغذائية والاولية المحدودة عندها » ، ان من الصعب عليها ايجاد السبل « للاستمرار في الحرب أمداً طويلاً » وقال إن الخطر الاكبر يقوم في « افتقار حوض الروهر الى المناعة » . وإذا قدر لقلب الانتاج الصناعي الالماني هذا أن يصاب بأذى فإن اصابته ستؤدي الى « انهيار اقتصاد المانيا الحربي ، وبالتالي الى انهيار طاقتها على المقاومة » .

وأرى لزاماً علينا أن نعترف بأن « العريف » السابق، قد أظهر في مذكرته هذه فهماً مدهشاً للسوقية والتعبوية العسكريتين ، وان كان هـذا الفهم مصحوباً بالافتقار البارز كل البروز الى القواعد الاخلاقية . فقد تضمنت المذكرة صفحات عدة عن الاساليب التعبوية لتطور حرب الدبابات والطائرات بالنسبة الى ما وقع في بولندة ، بالاضافة الى تحليل مستفيض للصورة التي يمكن تطبيق هذه الاساليب

التعبوية فيها في الجبهة الغربية ، مع تحديد الاماكن التي تصلح لهـــذا التطبيق . وقال هتلر في مذكرته أن النقطة المهمة الاولى ، هي تجنب حرب المواقع الثابتة التي تميزت بها الحرب الكونية الاولى . ومن الواجب استخدام الفرق المدرعة في تحقيق اختراق الجبهة اختراقاً حاداً . . . ثم مضى يقول :

« وعلى هذه الفرق أن لا تضيع في متاهات الصفوف التي لا نهاية لها من البيوت في المدن البلجيكية . وقد لا يتوجب على هذه الفرق أبداً أن تهاجم المدن ، ولكن عليها أن تحـــافظ على تدفق الجيش وتقدمه ، وأن تحول دون تثبيت جبهات العدو عن طريق زحوف ضخمة تشق طريقها عبر نقاط واضحة الضعف » .

وليس ثمة من شك في أن هذه الاقوال كانت استشفافاً دقيقاً كل الدقة للغيب ، ولما وقع حقاً في الجبهة الغربية ، وعندما يقرأها المرء ، يدهش كل الدهشة ، من عدم ظهور شخص واحد من الحلفـــاء ، تميّز بمثل هذه الفراسة وقوة الاستبصار .

وتصح هذه الاقوال أيضاً على آراء هتلر السوقية (الاستراتيجية) . فهو يرى أن اللوكسمبورغ وبلجيكا وهولندة ، « هي المناطق الوحيدة الصالحة للهجوم » . ومن الواجب أن يهدف الى غايتين عسكريتين أساسيتين ، أولاهما تحطيم الجيوش الهولندية والبلجيكية والفرنسية والبريطانية ، وثانيتهما كسب مواقع على القناة الانكليزية (المانش) وبحر الشمال ، يستطيع سلاح المانيا الجوي الاعتماد عليها واستخدامها « استخداماً قاسياً » ضد بريطانيا .

ويعود بعد ذلك الى نظرياته التعبوية فيقول أن زمام المبـــادرة ، هو أهم عامل .. ثم يمضي قائلاً :

« وتحتم طبيعة هذه الحملة الغربية اللجوء الى الابتكار والمبادرة الى أقصى حدودهما . وذلك بتركيز القوات الدفاعية والهجومية في بعض النقاط ، بأعداد تفوق المألوف كالدبابات أو وسائل محـــاربة الدبابات وتخفيض هذه القوات من نقاط أخرى دون المستوى العادي .

وذكر هتلر لقادته العسكريين المترددين انه لا يرى « البدء بهذه العمليات في وقت مبكر للغاية ، وان كان يرى ان الشروع فيها يجب ان يتم في كل الظروف ، اذا امكن في هذا الخريف » .

* * *

ولم يكن الاميرالات الالمان على النقيض من زملائهم الفرقاء ، بحاجة الى « وخز » هتلر ، ليشرعوا في هجومهم ، على الرغم من تفوق الاسطول البريطاني على اسطولهم تفوقاً هائلاً . وظل ريدر يتوسل الى الفوهرر طيلة الايام الاخيرة من شهر ايلول ، والايام الاولى من تشرين الاول، لرفع « القيود » عن الاسطول، واطلاق يده في العمل . وتم للأميرال ما يريده على درجات ومراحل. وتمكنت غواصة المانية في السابع عشر من ايلول ، من نسف حاملة الطائرات البريطانية « كوريجيوس » بطوربيداتها الى الجنوب الغربي من ايرلندة . واصدر ريدر في السابع والعشرين من ايلول اوامره الى بارجتي الجيب « دويتشلاند » و « غراف شبي » ، بمغادرة قاعدتي انتظارهما والشروع في مهاجمة الملاحة البريطانية . ولم يحل منتصف شهر تشرين الاول ، حتى كانتا قد اغرقتا سبع بواخر تجارية بريطانية ، وسجلتا ظفراً لهما باغراق الباخرة الامريكية ، مدينة الصوان (سيتي اوف فلينت City of Flint) .

وتمكنت الغواصة الالمانية (يو — ٤٧) التي يقودها الملازم الاول غونيثر براين (Guenther prien) من اختراق الخطوط الدفاعية التي كانت تبدو في منتهى المناعة بحيث لا يمكن اختراقها ، لميناء سكابافلو ، القاعدة البحرية البريطانية العظمى ، ونسف البارجة الضخمة رويال اوك (Royal Oak) ، وهي راسية في قاعدتها ، مما سبب خسارة (٧٨٦) من ضباطها وبحارتها. ولقد استغل الدكتور غوبلز ، هذا العمل الحربي الجبار في دعايته ، واتاح للاسطول مكانة ضخمة في تفكير هتلر .

ومع ذلك فقد ظل القادة العسكريون يؤلفون مشكلة بالنسبة الى هتلر . وعلى الرغم من مذكراته المطولة والمدروسة التي وجهها اليهم ، وعلى الرغم من

صدور توجيهه السادس داعياً الى الاعداد لهجوم فوري في الغرب ، فقد ظلوا على ترددهم وتخاذلهم . ولم يكن هذا التردد ناجماً عن بعض النوازع الاخلاقية التي تحول دون اعتدائهم على بلجيكا وهولندة ، وانما كان ناتجاً عن تشككهم الكبير في النجاح في هـــذا الوقت . لكن في وسعنا استثناء واحد منهم على الأقل .

فهناك بعض الوثائق الالمانية التي تحسر النقـــاب عن ان الفريق ويلهلم ريتر فون ليب قائد مجموعة الجيوش (ج) ، التي تقف مواجهة للفرنسيين على ضفاف الراين وعلى طول خط ماجينو ، لم يكن يشك في امكان النصر في الغرب فحسب ، بل كان يعارض أيضاً في مهاجمة هولندة وبلجيكا المحايدتين ، لدوافع أخلاقية على الأقل . وقد أعد ليب في الحادي عشر من تشرين الأول أي في اليوم الذي تلا اجتماع هتلر بقادته العسكريين مذكرة مطولة بدوره بعث بها الى براوخيتش وغيره من الفرقاء . وذكر في مذكرته هذه ان العالم بأسره سينقلب ضد المانيا .

« لمهاجمتها للمرة الثانية في غضون ربع قرن بلجيكا المحايدة ، بعد أن تعهدت حكومتها بالحفاظ على هذا الحياد واحترامه قبل بضعة أسابيع ليس الا » .

وراح بعد ان اسهب في سرد الحجج العسكرية ضد الهجوم في الغرب ، يدعو الى الصلح والسلام وقال ... « ان البلاد بأسرها تواقة للسلام » (١) .

ولكن هتلر كان يتلهف الآن للحرب وللمعارك ، وكان قد مل مما خيل اليه انه جبن لا يغتفر للقادة العسكريين . وتشاور براوخيتش وهولدر في الرابـــع عشر من تشرين الأول ، في اجتماع طويل عقداه . وكان قائد الجيش يرى « ثلاثة احتمالات ، أولها الهجوم وثانيها الترقب والانتظار وثالثها احداث تبدلات جوهرية » . وقد دون هولدر هـــذه الاحتمالات في يوميته التي كتبها في ذلك اليوم ، وأوضح بعد انتهاء الحرب ان عبـــارة « التبدلات الجوهرية » عنت

---

١ - المؤامرة النازية والعدوان (١٠) ص ٨٦٤-٨٧٢ .

« الاطاحة بهتلر » . ولكن براوخيتش الضعيف الخائر العزيمة رأى انمثل هذا الاجراء الجذري « يعتبر سلبيـــاً بصورة جوهرية ، ويعرضنا الى الاصابة في مقاتلنا » . ولذا فقد قررا ان هذه الاحتمالات الثلاثة لا تتيح « مجالات للنجاح الحاسم » . وتبين ان الطريقة المثلى هي الاستمرار في الالحاف على هتلر .

واجتمع براوخيتش الى الفوهرر مرة ثانية في السابع عشر من تشرين الأول، ولكنه ما لبث ان ذكر لهولدر ، ان حججه لم تترك أثراً في نفس هتلر. وأضاف أن الوضع قد بات « يائساً » ، ودون هولدر في يومياته لذلك اليوم ، ان هتلر أبلغ قائد جيشه بلهجة قاطعة ، « ان البريطانيين لن يرضوا بالتفاوض الا بعد أن ينالوا نصيبهم من الضرب . ولذا علينا أن نبادر الى مهاجمتهم في أسرع وقت ممكن . ومن الواجب وقوع الهجوم بين الخامس عشر والعشرين من تشرين الثاني على أكثر تقدير » .

ووقعت اجتماعات أخرى مع سيد الحرب النازي ، الذي فرض « قانونه » في النهاية على « جنرالاته » في السابع والعشرين من تشرين الاول . فبعد احتفال أنعم فيه هتلر على أربعة عشر منهم بوسام الصليب الحديدي من رتبة فارس ، انتقل الى الحديث عن موضوع الهجوم في الغرب . وعندما حاول براوخيتش مناقشته في ان الجيش لن يكون متأهباً للهجوم قبل شهر واحد على الاقل ، أي قبل السادس والعشرين من تشرين الثاني ، رد هتلر ، بأنه لا يستطيع الانتظار « هذا الوقت الطويل » ، وأمر بأن يبدأ الهجوم في الثاني عشر من تشرين الثاني. وانسحب براوخيتش وهولدر من الاجتماع وقد أحسا بالهزيمة واليأس . وحاول الواحد منهما تلك الليلة أن يسرّي عن رفيقه ويعزيه . ودون هولدر في يومياته يقول : « يبدو براوخيتش مجهداً ويائساً » .

مؤامرة زوسين للاطاحة بهتلر

وخيل للمتآمرين أن الوقت قد حان الآن للوثوب الى العمل من جديد .

وتحتم على براوخيتش وهولدر التعسين أن يختارا بين تنفيذ الاحتمال الثالث الذي بحثا فيه في الرابع عشر من تشرين الاول وهو الاطاحة بهتلر ، وبين اعداد هجوم في الغرب كانا يعتقدان بأنه سيكون بمثابة كارثة لالمانيا . وعاد المتآمرون العسكريون والمدنيون على حد سواء الى الحياة فجأة . وكان الفريق فون هامر شتاين الذي استدعي مؤقتاً من حياة التقاعد الطويلة التي عاشها عشية يوم الهجوم على بولندة ، قد سلم قيادة في الجبهة الغربية . وكان يحث هتلر طيلة الاسبوع الاول من الحرب لزيارة مقر قيادته ، ليظهر انه لم يكن يهمل تلك الجبهة أثناء استيلائه على بولندة . وكان هامر شتاين ، وهو الخصم اللدود لهتلر ، يضع الخطط فعلاً لاعتقاله اذا ما زار جبهته . وقد نقل فابيان فون شلابريندورف نبأ هذه الخطة الى أوغليفي فوريس في الثالث من ايلول ، أي يوم اعلان بريطانيا الحرب في اجتماع عاجل تم بينهما ذلك اليوم في فندق أدلون في برلين . ولكن الفوهرر شم رائحة التآمر ، فرفض زيارة القائد العام السابق للجيش في الجبهة وسرعان ما أقاله من منصبه (١) .

وواصل المتآمرون اتصالهم ببريطانيا . ولما كانوا قد فشلوا في القيام بأي عمل للحيلولة بين هتلر وبين تدمير بولندة ، فقد ركزوا جهودهم الآن على محاولة منع الحرب من الانتشار الى الغرب . وقد أدرك المتآمرون المدنيون الآن أكثر من أي وقت مضى ، ان الجيش هو المنظمة الوحيـــدة في الرايخ ، التي تملك الوسائل لوقف هتلر ، لاسيما وقد اتسع سلطانه وأهميته اتساعاً كبيراً بعد التعبئة العامة وبعد الانتصارات الصاعقة التي حققها في بولندة . وحاول هولدر أن يوضح لهؤلاء المدنيين ان اتساع حجم الجيش ، يؤلف ايضاً عقبة في طريق تنفيذ أية مؤامرة . فقد اكتظت رتب الضباط التي « توسعت وانتفخت » بضباط الاحتياط الذين كان معظمهم من النازيين المتعصبين ، بينما تشبّع معظم الجنود بالعقيدة النازية تشبعاً كاملاً . وذكر هولدر ايضاً – وكان عظيماً في تأكيد المصاعب للأعداء

---

١ – غيزيفيوس – الى النهاية المرة – ص ٣١ ؛ .

والأصدقاء على حد سواء – ان من الصعب جداً العثور على أية تشكيلة عسكرية يمكن الركون اليها في التحرك ضد الفوهرر .

وكان هناك اعتبار آخر ، ألح اليه القادة العسكريون من المتآمرين ، وتفهمه المدنيون تمام التفهم . فلقد قدروا بأنهم اذا قاموا بثورة على هتلر ،فانمن المحتمل أن يستغل البريطانيون والفرنسيون ما سيصحبها من فوضى في الجيش وفي البلاد عامة ، فيقتحموا الجبهة الغربية ، ويحتلوا المانيا بأسرها ، ويفرضوا على الشعب الالماني صلحاً قاسياً على الرغم من اطاحته بزعيمه المجرم . ولذا رأوا من الضروري الاستمرار في الاتصال بالبريطانيين ليصلوا معهم الى تفاهم بأن لا يستغل الحلفاء الانقلاب الالماني المناهض للنازية لمصلحتهم .

واستخدمت طرق عدة لتحقيق هذا الاتصال . وكانت احدى هذه الطرق ، بواسطة الفاتيكان وقام الدكتور جوزيف موبلر ، المحامي البارز في ميونيخ ، والكاثوليكي الورع ، بدور الوسيط . وقد تميز هذا الرجل بقوة جسدية هائلة وطاقة كبرى على العمل ، وصلابة أكسبته في صباه لقب « جو الثور » . وقام هذا الرجل بتدبير من العقيد أوستر من رجال المخابرات الالمانية برحلة الى رومة في مطلع تشرين الاول ، حيث أقام في الفاتيكان اتصالاً مع الوزير البريطاني المفوض لدى الكرسي البابوي . وتقول المصادر الالمانية انه افلح في الحصول على تأكيد من البريطانيين وعلى موافقة البابا نفسه على القيام بدور الوسيط بين العهد الالماني الجديد المناوىء للنازية وبين بريطانيا [١] .

وجرى الاتصال الثاني في مدينة برن في سويسرا . وكان وايزساكر قد نقل تيودور كوردت الذي كان الى عهد قريب قائماً بأعمال السفارة الالمانية في لندن ، الى برن ليعمل ملحقاً في المفوضية الالمانية فيها ، وقد عثر هذا الرجل في العاصمة السويسرية على الفرصة لمقابلة انكليزي يدعى الدكتور فيليب كونويل – ايفانز ،

---

١ – ويلر – بنبت – نقمة السلطان ص ٩٠ . يورد المؤلف مصادره الالمانية . راجع ايضاً يوميات فون هاسيل ومقال توماس « التفكير والتطورات » المنشور في المجلة الشهرية السويسرية .

الذي مكنه عمله كاستاذ في جامعة كونيغزبرغ الالمانية من أن يغدو خبيراً في الشؤون النازية ، وصديقاً ودوداً للنازيين . وتمكن كونويل – ايفانز في النصف الاخير من تشرين الاول من ان يحمل الى كوردت ما وصفه الاخير فيما بعد ، بالوعد القاطع من تشمبرلين بأن يسلك سلوكاً عادلاً ينطوي على التفهم مع أية حكومة المانية معادية للنازية في المستقبل . وكان البريطاني قد حمل معه في الحقيقة مقتطفات من الخطاب الذي ألقاه تشمبرلين في مجلس العموم والذي اعلن فيه بعد رفضه لمقترحات هتلر السلمية ان بريطانيا لا تشعر « بأية رغبة في ان تحرم المانيا من احتلال مكانها المشروع في أوروبا شريطة ان تعيش المانيا هذه في جو من الود والصداقة مع الدول الأخرى » . وعلى الرغم من ان الاذاعة البريطانية كانت قد بثت هذا البيان وغيره من البيانات الاخرى ذات الطابع الودود تجاه الشعب الالماني ، التي وردت في نفس الخطاب ، وعلى الرغم من ان المتآمرين لا بد وان يكونوا قد التقطوها ، الا انهم هللوا لهذا « العهد » الذي حمله الى برن بريطاني غير مسؤول ، واعتبروه في منتهى الاهمية . وحمل المتآمرون هذا العهد ، والتأكيدات البريطانية الاخرى التي خيل اليهم انهم حصلوا عليها عن طريق الفاتيكان ، وراحوا يتجهون بها ، والامل يسيطر عليهم ، الى القادة العسكريين الالمان . لكن هذا الامل كان مصحوباً بشيء من اليأس أيضاً . فقد ذكر وايز ساكر لهاسيل في السابع عشر من تشرين الاول ، ان « أملنا الوحيد في الخلاص يتركز في انقلاب عسكري . ولكن كيف يمكن لهذا الانقلاب أن يقع ؟ » .

ان الوقت قصير . وقد تقرر الشروع في الهجوم الالماني عبر بلجيكا وهولندة في الثاني عشر من تشرين الثاني . ومن الواجب تنفيذ هذه المؤامرة قبل ذلك التاريخ . وكان هاسيل قد حذر رفاقه من صعوبة الحصول على « صلح شريف » بعد ان تكون المانيا قد خرقت حياد بلجيكا واعتدت عليها .

وهناك روايات عدة من المشتركين في المؤامرة حول ما وقع بعد ذلك ، أو عن الأسباب التي حالت دون وقوع الكثير ، وهي أنباء متضاربة وتدعو الى

الحيرة والارتباك . ولقد كان الفريق هولدر رئيس هيئة اركان حرب الجيش ، العنصر الرئيسي في المؤامرة تماماً كما كان في ايام مونيخ . ولكن هذا الرجل تميز بالتردد والاضطراب والتخاذل . وقد أوضح عند استجوابه في نورمبرغ ان « جيش الميدان » لم يستطع القيام بالثورة لأنه كان يواجه عدداً كامل التسلح أمامه » . ويقول انه استنجد « بجيش الوطن الداخلي » الذي لم يكن مشتبكاً آنذاك في قتـــال مع العدو ، للإسراع الى العمل ، ولكن أقصى ما تمكن من الحصول عليه من قائده الفريق فريدريش (فرتيز) فروم هو افهـــامه « بأنه كجندي » سينفذ كل أمر يصل اليه من براوخيتش [١] .

ولكن براوخيتش كان اكثر ضعفاً من رئيس اركان حربه . وراح الفريق بيك يقول لهولدر ... « ولكن اذا لم يكن براوخيتش قوياً في شخصيته الى الحد الذي يمكنه من اتخاذ القرار فان عليك أنت ، أن تتخذه وان تواجهـه بالأمر الواقع » . ولم يقتنع هولدر بهذا القول وأصر على ان المسؤولية الاخيرة تقع على براوخيتش بوصفه القائد العام للجيش . وهكذا ظلت المسؤولية تنتقل باستمرار من هذا الى ذاك ودوّن هاسيل في يومياته باكياً في نهاية شهر تشرين الاول : « مع الأسف ، ان هولدر لا يستطيـع مواجهة الموقف لا بشخصيته ولا بالسلطة التي تملكها » أما براوخيتش فكان على حد تعبير بيك « انسـاناً من الدرجة السادسة » . ومع ذلك ظل المتآمرون يقودهم هـــذه المرة الفريق توماس الخبير الاقتصادي للجيش والعقيد أوستر من رجال المخابرات ، يلحفون على هولدر ، الى ان وافق أخيراً كما اعتقدوا على تدبير انقلاب يقع في اللحظة التي يصدر فيها هتلر أمره النهائي بالهجوم في الغرب . أما هولدر فيقول ان موافقته ظلت رهن شرط واحد ، وهوأن يصدر براوخيتش الأمر النهائي . ويقول العقيــد هانز غروسكورث من رجال القيادة العليا للقوات المسلحة ، والصديق الأمين لكل

---

١ — استجواب هولدر في نورمبرغ في ٢٦ شباط ١٩٤٦ (المؤامرة النازية والعدوان — الملحق (٥) ص : ١٥٦٥ — ١٥٧٥) .

من هولدر وأوستر ، ان الاول بعث على كل حال في الثالث من تشرين الثاني ، كلمة الى كل من الفريق بيك وغويردلر وهما من كبار المتآمرين بأن يكونوا على أتم الاستعداد اعتباراً من الخامس من تشرين الثاني . وغدت زوسين وهي البلدة التي يقوم فيها مقر القيادة العامة للجيش وهيئة اركان الحرب ، أشبه ما تكون بخلية نحل تعج بنشاط المتآمرين .

وكان الخامس من تشرين الثاني تاريخاً في غاية الأهمية . وكان من المقرر ان تبدأ في ذلك اليوم تحرك الجنود الى مراكز القفز المواجهة لهولندة وبلجيكا واللوكسمبورغ . وكان ثمة موعد في نفس اليوم لاجتماع عاصف بين براوخيتش وهتلر . وكان القائد العام ، يرافقه هولدر ، قد قام بزيارة القيادات الكبرى للجيش في الغرب في الثاني والثالث من تشرين الثاني ، وتسلح مع رفيقه بالآراء السلبية التي قدمها قادة الميدان . وأسر هولدر ليومياته قائلاً : « ليس ثمة من قيادة عليا في الميدان تعتقد بوجود أية فرصة لنجاح الهجوم » . وهكذا تسلح القائد العام للجيش الالماني تسلحاً وفيراً بالحجج التي أوردها القادة العسكريون في الجبهة الغربية ، والحجج التي توصل اليها هو وكل من هولدر وتوماس ، والتي ضمت في مذكرة أطلق عليها هولدر لسبب معقول اسم « المذكرة المضادة » ، لأنها ترد على مذكرة هتلر بتاريخ التاسع من تشرين الاول ، ومضى بسيارته في الخامس من تشرين الثاني الى دار المستشارية في برلين ، وقد حزم امره على اقناع الفوهرر بالعدول عن الهجوم في الغرب . وفهم المتآمرون انه في حالة فشل براوخيتش في مهمته ، فانه سينضم الى المؤامرة للاطاحة بالطاغية . وكان المتآمرون في حالة الهياج والتفاؤل . وشرع غويردلر ، على حد رأي غيزيفيوس في اعداد قائمة بأسماء الوزراء في أول حكومة مؤقتة مناهضة للنازية ، ولم يوقفه عن عمله هذا الا بيك الاكثر اتزاناً وعقلاً . وكان شاخت الشخص الوحيد بين المتآمرين المتشائم من نتائجها . وقال لرفاقه ... « عليكم ان تتريثوا ، وسترون أن هتلر قد شم رائحة المؤامرة ، وامتنع عن اتخاذ القرار في الغد » .

وكانوا ، كما هو دأبهم ، جميعاً على خطأ .

ولم يتمكن براوخيتش من تحقيق أي نجاح كما كان متوقعاً ، لا بالمذكرة التي يحملها ولا بالتقارير التي نقلها من قادة الجبهة ، ولا بالحجج التي أوردها . وعندما راح القائد العام يؤكد رداءة الطقس في الغرب في هـذا الفصل من السنة ، رد هتلر بأن هذا الطقس السيء يعمل ضد العدو أيضاً كما يعمل ضد الالمان ، يضاف الى ذلك انه لا يتوقع حدوث أي تحسن فيه في الربيع . وأحس قائد الجيش الخائر القوى باليأس من اقناع الفوهرر ، فشرع في غمرة يأسه يبلغه أخيراً ، ان الحالة المعنوية بين الجنود في الغرب مشابهة لما كانت عليه في عام ١٩١٧–١٩١٨ ، عندما كانت الانهزامية وروح التمرد وحتى العصيان منتشرة في الجيش الالماني.

ويقول هولدر الذي تعتبر يومياته المصدر الرئيسي لهذه الجلسة السرية للغاية ، ان هتلر عندما سمع هـذه الاقوال من قائده العام ، انفجر في ثورة عارمة من الغضب . وراح يطلب الى الفريق ان يحدد له الوحدات التي ظهرت فيها حالات من الافتقار للانضباط وصرخ قائلاً : « قل لي ، ماذا حدث ؟ وأين ؟ » وأضاف انه سيطير الى المكان الذي يحدده القائد العام غداً . وأسقط في يد براوخيتش المسكين ، فلقد روى هولدر انه بالغ في حديثه « رغبة منه في منع هتلر من الهجوم » ، ولكنه بات الآن متعرضاً لثورة الزعيم العاصفة . وعاد الفوهرر يصرخ قائلاً .. « وما هي الاجراءات التي اتخذتها قيادة الجيش ؟ وكم عـدد الافراد الذين نفذ فيهم حكم الاعدام » . ومضى يقول بصوت كهزيم الرعد .. « ان الحقيقة .. هي ان الجيش لا يريد ان يحارب » .

وقال براوخيتش لمحكمة نورمبرغ وهو يستذكر هذه التجربة السيئة التي مر بها ... « ووجدت ان النقاش بات مستحيلاً . فغـادرت دار المستشارية » . وتذكر آخرون بأنه عاد وهو يترنح الى مقر قيادته في زوسين التي تبعد ثمانية عشر ميلاً ، وقد أصيب بنوع من الانهيار ، الى الحد الذي تعذر عليه فيه أن يروي قصة مفهومة ومترابطة عن حقيقة ما وقع .

وكانت هـذه نهاية « مؤامرة زوسين » . وقد منيت بفشل معيب ، نظير سابقتها المسماة « بمؤامرة هولدر » في ايام ميونيخ . وكانت الاوضاع التي يشترط

المتآمرون وجودها ، تتحقق في كل مرة ، ومع ذلك كانوا يتقاعسون ويتخاذلون . فلقد تمسك هتلر هذه المرة بقراره في ان يهجم في الثاني عشر من تشرين الثاني . ولم يكد براوخيتش المنهار يغادر حضرته حتى راح هتلر يؤكد قراره هاتفياً الى مركز القيادة العامة في زوسين . وعندما طلب هولدر ان يصل اليه القرار خطياً ، سارع الفوهرر الى تلبية طلبه . وهكذا أمسك المتآمرون في أيديهم بالدليل الملموس ، الذي سبق لهم أن أعلنوا احتياجهم له ، ليطيحوا بهتلر ، وهو الامر بالهجوم الذي يعتقدون بأنه سيحمل الكارثة الى المانيا . ولكنهم لم يفعلوا شيئاً آخر ، سوى ان الفزع قد سادهم . وآسرع المتآمرون يحرقون الأوراق التي تحمل أية أدلة على جريمتهم ، كما راحوا يطمسون كل آثار هذه الادلة . ويبدو ان العقيد أوستر كان الوحيد الذي ظل محتفظاً بهدوئه واتزانه . وبعث بانذار سري الى المفوضيتين البلجيكية والهولندية في برلين ، بأن تتوقعا هجوماً على بلديهما صباح الثاني عشر من تشرين الثاني (١) . ومضى الى الجبهة الغربية في مهمة غير مجدية محاولاً اقناع الفريق فون ويتزليبين بقتل هتلر . ولكن الفرقاء وبينهم ويتزليبين ، كانوا يعرفون الهزيمة عندما تحل بهم . وقد تمكن العريف السابق من الانتصار عليهم مرة ثانية بمنتهى السهولة . وبعد بضعة أيام استدعى رونشتادت قائد مجموعة الجيوش « أ » ، قادة فيالقه وفرقه ليبحث معهم تفاصيل الهجوم . وعلى الرغم من ان شكوكه في النجاح ما زالت قائمة الا أنه نصح « فرقاءه » بأن يدفنوا شكوكهم ومخاوفهم . وقال لهم ... « لقد تلقى الجيش الامر ، وعليه أن يطيعه وينفذ المهمة التي أوكلت اليه » .

* * *

وانهمك هتلر في اليوم الذي تلا شجاره مع براوخيتش ، ذلك الشجار الذي عرض القائد العام لخطر الانهيار العصبي ، في اعداد نصوص البيانات التي ستذاع

---

١ - وتنيلز - « المعارضة الالمانية لهتلر » .

على شعبي هولندة وبلجيكا ، لتبرير الهجوم عليهما . ودون هولدر هذا المبرر في يومياته بأنه « توقعاً من هجوم فرنسي واقع على بلجيكا » .

ولكن هتلر ، أجل في اليوم التالي السابع من تشرين الثاني موعد الهجوم ، وبعث تأجيله الارتياح في صدور القادة العسكريين .. وهذا نص القرار ..

سري للغـــاية

برلين في السابــع من تشرين الثاني عام ١٩٣٩

« ... أمر الفوهرر والقائد الاعلى للقوات المسلحة بعدان استمع الى التقارير المتعلقة بتكهنات الاحوال الجوية وأوضاع النقـل في السكك الحديدية بما يـلي :

« يؤجل يوم الانذار النهـــائي ثلاثة ايام . وسيصدر القرار التالي في الساعـــة السادسة من مساء التاسع من تشرين الثاني عام ١٩٣٩ .

كايتل »

وكان هذا الأمر بالتأجيل الأول بين سلسلة من التأجيلات يبلغ عددها أربعة عشر طيلة الخريف والشتاء ، وقد عثر عليها جميعها في وثائق القيادة العـــامة للقوات المسلحة في نهاية الحرب (١) . وتظهر هذه الأوامر أن الفوهرر لم يتخل لحظة واحدة عن قراره بالهجوم في الغرب ، وان كل ما فعله هو تأجيل موعد هذا الهجوم من اسبوع الى آخر . ففي التاسع من تشرين الثاني تأجل الهجوم

١ ــ المؤامرة النازية والعدوان (٦) ص ٨٩٣ ــ ٩٠٩ .

حتى التاسع عشر منه ، وفي الثالث عشر من تشرين الثاني تأجل حتى الثاني والعشرين ، وهكذا دواليك ، مع وجود فترة انذار مسبقة لا تقل عن ستة أيام ، وإعطاء حالة الطقس سبباً للتأجيل . ومن المحتمل ان تكون هذه التأجيلات قد وقعت استجابة لآراء الفرقاء العسكريين ، ومن المحتمل ايضاً ان يكون قد اقتنع بأن الجيش لم يكن مستعداً . وليس ثمة من شك في ان الخطط السوقية والتعبوية (الاستراتيجية والتكتيكية) لم تكن قد أعدت اعداداً كاملاً اذ انه ظل دائماً يتولى اصلاحها وترقيعها .

وقد تكون هناك أسباب أخرى لتأجيل هتلر الاول لهجومه . ففي السابع من تشرين الثاني ، وهو يوم القرار ، ارتبك الالمان ارتباكاً شديداً من جراء اعلان مشترك صدر عن ملك البلجيك وملكة هولندة ، يعرضان وساطتهما لعقد الصلح واعادة السلام ، « قبل أن تبدأ الحرب في أوروبا الغربية على نطاق عنيف للغاية » . ووجد هتلر ان من الصعب عليه أن يقنع أي انسان ، كما كان يحاول في الاعلان الذي كان يعده آنذاك ، بأن الجيش الالماني انما يزحف على الاراضي الواطئة ، لأنه عرف بأن الجيش الفرنسي يعتزم الزحف على بلجيكا .

ومن المحتمل ان يكون هتلر قد أحس بأن هجومه على دولة بلجيكا الصغيرة ، لن تكون له قوة المباغتة ، التي كان قد اعتمد عليها . وكان غويردلر قد سافر الى بروكسل في نهاية تشرين الاول ، حاملاً رسالة سرية من وايز ساكر يحث فيها السفير الالماني هناك ، بيولو - شوانتي ، ليحذر ملك بلجيكا بصورة شخصية من « خطورة الموقف القصوى » . وقد نفذ السفير المهمة ، وسرعان ما هرع الملك الى لاهاي ليتشاور مع ملكة هولندة في الوضع وليصدرا معاً ذلك الاعلان المشترك . وتلقى البلجيكيون معلومات أكثر دقة ، وقد جاء بعضها من أوستر كما رأينا قبل قليل . وبعث بيولو - شوانتي في الثامن من تشرين الثاني ببرقية الى برلين ، يحذرها فيها من أن الملك ليوبولد قد أبلغ ملكة هولندة بأنه تلقى « معلومات دقيقة موثوقة » عن حشد ألماني عسكري على حدود بلجيكا يشير الى

هجوم متوقع عبر بلجيكا « في غضون يومين أو ثلاثة ايام » (١) .

ووقع حادثان غريبان كل الغرابة عشية الثامن من تشرين الثاني ، وبعد ظهر اليوم الذي تلاه ، أولهما انفجار قنبلة على مقربة من هتلر ، نجا منها بأعجوبة ، واختطاف الحرس النازي لرجلين من رجال المخابرات البريطانية في هولندة على مقربة من الحدود الألمانية . وقد صرف الحادثان في البداية اهتمام سيد الحرب النازي عن الخطط التي وضعها للهجوم على الغرب ، ولكنهما أديا في النهاية الى تقوية مركزه في المانيا بينما أثارا فزع متآمري « زوسين » اللذين لم يكن لهما في الواقع أي ضلع في أي من الحادثين .

عملية خطف نازية وقنبلة في حانة الجعة

انفجرت قنبلة مساء الثامن من تشرين الثاني في حانة « بيوغيربروكلر » في ميونيخ بعد اثنتي عشرة دقيقة من انتهاء الفوهرر من القاء خطابه السنوي في الحانة المذكورة احتفاء بالذكرى السنوية لانقلاب حانة الجعة في عام ١٩٢٣ . وقد نجا الفوهرر من الموت بأعجوبة نظراً لقصر خطابه في ذلك العـــام عن المألوف ، اذ كانت القنبلة المتفجرة من النوع الموقوت ، وقد وضعت في عمود يقف خلف منصة الخطابة مباشرة ، وأدى انفجارها الى مصرع سبعة أشخاص واصابة ثلاثة وستين آخرين بجراح. وعندما وقع الانفجار كان معظم القادة النازيين الكبار ، قد غادروا القاعة مع هتلر ، على الرغم من أنهم ألفوا في السنوات الماضية البقاء بعد انتهاء الخطاب ، يحتسون الجعة ، ويستعيدون مع رفاق الحزب القدامى ذكريات المحاولة الانقلابية الاولى .

وعملت صحيفة هتلر الخاصة وحدها – الفولكشاير بيوباختر – في الصباح

---

١ – شهد بيولو – شوانتي في محاكمات نورمبرغ حول رسالة غويردلر ، ومقابلته الخاصة للملك ليوبولد . (وثائق وزارة الخارجية الالمانية (١) ص ٣٨٤) . وتوجد برقية الى برلين في نفس المصدر في الصفحة ٣٨٦ .

التالي قصة المحاولة لاغتيال الفوهرر ، وحملت مسؤوليتها « لعملاء المخابرات البريطانية » ولتشمبرلين نفسه . ودونت في يومياتي في ذلك المساء أقول : « لا ريب في أن محاولة الاغتيال ستوحد الرأي العام الالماني وتجعله صفاً واحداً وراء هتلر ، وتستثير الكراهية لانكلترا .. ويرى الكثيرون منا ان المحاولة مصطنعة أشبه ماتكون بقصة حريق الرايشتاغ » .

ترى ما هي الصلة بين المخابرات البريطانية وبين هذا الحادث خارج نطاق عقل هملر المحموم ؟ لقد حاول الالمان خلق هذه الصلة فوراً . اذ لم تمض ساعة أو ساعتان على انفجار القنبلة في ميونيخ حتى كان هنريخ هملر ، رئيس الغستابو والحرس النازي ، يهتف الى واحد من مساعديه الناشئين في الحرس النازي ويدعى وولتر شيلينبرغ ، يقيم في دوسلدورف ، ويأمره تنفيذاً لتعليمات الفوهرر بعبور الحدود الى هولندة في اليوم التالي ، واختطاف عميلين من عملاء المخابرات البريطانية ، كان شيلينبرغ على اتصال بهما .

وأدى أمر هملر الى حادث من أغرب حوادث الحرب كلها ، فلقد كان شيلينبرغ ، وهو كزميله الفريد نوجوكس من قطاع الطرق المثقفين من خريجي الجامعات ، يواصل الاجتماع منذ نحو من أكثر من شهر في هولندة الى ضابطين من ضباط المخابرات البريطانية هما الرئيس إس بابن والرائد آر . إش . ستيفينز . وانتحل شيلينبرغ أمامهما اسم « الرائد شيميل » وشخصية الضابط المناوىء للنازية في مقر القيادة العليا للقوات المسلحة الالمانية (وكان هذا الاسم يحمله ضابط حقيقي في القيادة الالمانية) ، وراح يتلو على مسامعهما قصة مقنعة عن الطريقة التي اعتزم فيها بعض القادة العسكريين الالمان ، الاطاحة بهتلر . وقال لهما ان كل ما يطلبه هؤلاء القادة ، تأكيدات من حكومة لندن ، بأنها ستعامل العهد الجديد المناوىء للنازية معاملة تنطوي على الانصاف . ولما كانت الحكومة البريطانية قد سمعت ، كما رأينا من قبل ، عن وجود مؤامرة عسكرية المانية ، يريد المشتركون فيها مثل هذه التأكيدات ، فقد اهتمت مراجع لندن بتنمية الاتصال مع هذا الرائد الالماني « شيميل » : وزوده بيست وستيفينز بجهاز

ارسال صغير وجهاز استقبال ، وجرت اتصالات لاحقة عدة عن طريق هذين الجهازين ، كما عقدت اجتماعات اخرى في عدد من مختلف المدن الهولندية. وعندما اجتمع الجانبان في السابع من تشرين الثاني في بلدة فينلو الهولندية الصغيرة على الحدود الالمانية ، كان في وسع رجلي المخابرات البريطانية ان يقدما الى «شيميل» رسالة غامضة الى حد ما من لندن موجهة الى قادة حركة المقاومة الالمانية تضع في عبارات عامة ، أسس الصلح العادل مع العهد الجديد المناوىء للنازية . واتفق على ان يأتي « شيميل » في اليوم التالي بأحد هؤلاء القادة ، وهو ضابط برتبة فريق ، الى فينلو ، ليبدأ بمفاوضات محدودة . ولكن هذا الاجتماع قد تأجل حتى التاسع من الشهر .

وكانت أهداف الجانبين حتى هذه اللحظة واضحة كل الوضوح. فالبريطانيون يحاولون اقامة اتصال مباشر مع « الانقلابيين » العسكريين الالمان ، رغبة منهم في تشجيعهم ومساعدتهم . وكان هملر يحاول التوصل عن طريق البريطانيين الى معرفات هويات المتآمرين الالمان ، ومدى ما لهم من اتصال بالمخابرات البريطانية . وكان من الواضح ان هملر وهتلر ، كانا قد بدءا في الشك في بعض القادة العسكريين وفي أشخاص من أمثال العقيد أوستر والاميرال كاناريس من المخابرات الالمانية . أما الآن ، وعشية الثامن من تشرين الثاني ، فقد عثر هتلر وهملر على هدف جديد ، وهو خطف هذين البريطانيين لاتهام عملاء المخابرات البريطانية ورجالها ، بمحاولة اغتيال هتلر في حانة الجعة وتفجير القنبلة فيها .

وسرعان ما ظهر على المسرح ، ممثل معروف لدينا هو الفريد نوجوكس ، الذي كان قد أعد « الهجوم البولندي الزائف » على محطة الاذاعة الالمانية في غليويتز ومعه اثنا عشر رجلاً من رجال المكتب السري الخاص .S.D ، لمساعدة شيلينبرغ في تنفيذ عملية الاختطاف . وتمت العملية بنجاح منقطع النظير . وكان شيليبرغ يجلس في الساعة الرابعة من بعد ظهر التاسع من تشرين الثاني على شرفة أحد المقاهي في فينلو ، يحتسي قدحاً من « المشهيات » ، منتظراً موعده مع بيست وستيفينز ، عندما وصل الضابطان البريطانيان في

سيارتهما « البيويك » فأوقفاها وراء المقهى ، سرعان ما انهال عليهما سيل من الرصاص من سيارة الحرس النـــازي الواقفة لهما بالمرصاد وقد امتلأت بأوغاد نوجوكس. وسقط الملازم « كلوب » ، وهو ضابط مخابرات هولندي ، كان يرافق البريطانيين دائماً في محادثاتهما مع شولنبرغ . مصاباً بجراح قاتلة . وحُمل البريطانيان الى السيارة الالمانية وكأنهما « حزمتين من القش » ، على حد وصف شولنبرغ فيما بعد ، وحمل معهما « كلوب » الجريح ، ومضت السيـــارة تنهب الارض عبر الحدود الى المانيا (١) .

وهكذا تمكن هملر ، من أن يعلن في الواحد والعشرين من تشرين الثاني الى الجميع ، بأن جميع الأسرار المتعلقة بمحاولة اغتيال الفوهرز في حانة الجعة قد تم اكتشافها . وأضاف ان المحاولة قد جرت بتحريض جهاز المخابرات البريطانية ، الذي اعتقل اثنان من كبـــار رجاله وهما ستيفنز وبيست « على مقربة من الحدود الالمانية — الهولندية » في اليوم الذي تلا المحاولة . أما المنفذ الفعلي فهو جورج ايلسر ، النجار الشيوعي الألماني ، المقيم في مونيخ .

---

١ تقول الرواية الهولندية الرسمية ، التي ظهرت الى النور بعد انتهاء الحرب ، ان الالمان قد سحبوا السيارة البريطانية وفي داخلها ستيفنز وبيست وكلوب ، عبر الحدود الى المانيا ، إذ لم تكن الحدود تبعد عن المكان اكثر من (١٢٥) قدماً. ووجهت الحكومة الهولندية ابتداء من العاشر من تشرين الثاني ، أي اليوم التالي لوقوع الحادث ، تسعة طلبات خطية في فترات متباعـــدة الى الحكومة الالمانية لاستعادة كلوب والسائق الهولندي ، كما طلبت التحقيق من جانب الالمان لهذا الخرق للحياد الهولندي . ولم يرد الالمان قط على هذه الطلبات المتكررة والمتلاحقة حتى العاشر من أيار عندما برر هتلر هجومه على هولنده ، الى حد ما على أساس قضية فينلو ، التي اقامت الدليل على تواطؤ هولنديين مع جهاز المخابرات البريطانية . ومات كلوب متأثراً من جراحه بعد بضعة أيام . أما بيست وستيفنز فقد قضيا خمس سنوات في معسكرات الاعتقال النازية وخرجا منها حين بعد انتهـــاء الحرب (راجع الروايات المختلفة عن حادث فينلو في كتاب . اس. بين. بيست. « حادث فينلو » وكتاب شيلينبرغ « ممالك الجن » وويلر – بنيت « نقمة السلطان ». وتوجد الرواية الهولندية الرسمية في وثائق وزارة الخارجية الالمانية (٨) ص ٣٩٥- ٣٩٦ – راجع ايضاً محاكمات مجرمي الحرب (١٢) ص ١٢٠٦–١٢٠٨ .

وبدت لي قصة هملر المستفيضة المسهبة ، عن الجريمة ، قصة « زائفة » منــذ البداية كما دوّنت في يومياتي في ذلك النهار . ولكن غايته التي حققها كانت واقعية للغاية . ورحت أقول ... « لقد كان هدف هملر وعصابته ، كما يبدو ، إقناع الشعب الالماني السريع التصديق ، بأن الحكومة البريطانية تحاول أن تكسب الحرب عن طريق اغتيال هتلر وكبار مساعديه » .

ولم يحسر النقاب قط عن سر واضع القنبلة بصورة كاملة . وعلى الرغم من أن أيلسر ، لم يكن من طراز ذلك « النصف مجنون » مارينوس فان ديرلوبيه ، المتهم في قضية إحراق الرايشستاغ ، إلا أنه كان على الرغم من صدقه ، إنساناً ذا ذكاء محدود . ولم يكتف بأن يعترف بجريمته في صنع القنبلة وإعدادها ، وإنما تفاخر بذلك مزهواً أيضاً . وعلى الرغم من أنه لم يكن قد اجتمع قط الى بيست وستيفينز قبل هذه المحاولة ، إلا انه تعرف على الاول منهما إبان السنوات الطويلة التي قضياها معاً في معسكر اعتقال ساشينهاوزن . وهناك وفي المعتقل راح يروي للانكليزي قصة طويلة ومعقدة ، ولا تنسجم مع المنطق دائماً .. وهذه هي القصة ..

كان إيلسر معتقلاً منذ أواسط الصيف في معتقل داخاو بوصفه من أنصار الشيوعية ، وفي ذات يوم من أيام شهر تشرين الاول ، استدعاه قائد المعتقل الى مكتبه حيث قدمه الى شخصين أجنبيين . وقد أوضح له الرجلان ضرورة الخلاص من بعض أتباع الفوهرر « الخونة » عن طريق تفجير قنبلة في حانة الجعــة ، فور انتهاء هتلر من إلقاء خطابه التقليدي المألوف عشية الثامن من تشرين الثاني ، ومغادرته القــاعة . وذكرا أن القنبلة يجب أن توضع في عمود يقع وراء منصة الخطيب مباشرة . ولما كان إيلسر نجاراً فنياً ، وذا خبرة في شؤون الكهرباء ، والعمل « السمكري » ، فقد اقترحا عليه أن يتولى هذا العمل . وأكدا له أنه إذا قام بالعمل ، فسيرتبان أمر فراره إلى سويسرا . ويدفعان له مبلغاً كبيراً من المال يمكنه من العيش في رغد ورخاء هناك . ووعداه للتدليل على جديتهما في الموضوع بمعاملة أفضل في المعتقل في الفترة التي ستسبق التنفيــذ ، كإعطائه غذاء أفضل

وملابس مدنية عادية وكمية كبيرة من لفائف التبغ ، إذ أنه كان من المدخنين بنهم وافراط ، كما وعداه « بعدة » كاملة . وأعد ايلسر هناك قنبلة رغم عدم اتقانها ، كافية لتحقيق الغاية المتوخاة منها ، ومعها جهاز للتوقيت ، و « بدعة » تمكن صاحب القنبلة من ابطالها ، عن طريق محول كهربائي . وأكد يلسر ، أن الرجلين أخذاه ذات ليلة مبكرة من ليالي تشرين الاول ، الى الحانة ، حيث أودع القنبلة في العمود المقرر .

وأضاف الرجل ان هذين الغريبين حملاه عشية الثامن من تشرين الثاني ، في الموعد الذي كان من المقرر فيه أن تنفجر القنبلة ، الى الحدود السويسرية ، وقدما اليه مبلغاً من المال ، وصورة – وهنا وجه الطرافة – بحجم بطاقة البريد ، للجزء الداخلي من حانة الجعة ، ظهر فيها العمود الذي وضع قنبلته فيه ، وقد أشير إليه بعلامة الصليب . ولكن بدلاً من أن يساعداه على اجتياز الحدود – وهذا هو الذي أثار حيرة الرجل القليل الذكاء – تركاه ليقع في قبضة الغستابو ومعه تلك الصورة . وسرعان ما شرع رجال الغستابو في تلقينه ما سيعترف به لإلصاق التهمة ببيست وستيفينز ، عندما تنعقد المحكمة لمحاكمتهما ، حيث سيغدو مركز الاهتمام ومحوره (١) .

ولكن المحاكمة لم تجر مطلقاً ونحن نعرف الآن أن هملر لأسباب يعرفها هو دون غيره ، لم يجرؤ على اجراء أية محاكمة ونحن نعرف الآن ايضاً بأن ايلسر قدعاش في معتقل ساشينهاوزن ، ومن ثم في معتقل داخاو ، وانه كان يلقى من

---

١ – وقد سرد ايلسر فيما بعد قصة مماثلة الى القس نيمولر ، الذي أعرب عن قناعته المطلقة ، بأن هتلر هو الذي وافق على حادثة القنبلة ليزيد من شعبيته الشخصية ، وليثير الحماس للحرب عند الشعب . وأرى من الانصاف ان اضيف بأن غيزيفيوس ، عدو هتلر وهملر وشيلينبرغ الاكبر ، يعتقد كما شهد في نورمبرغ وفي كتابه بأن ايلسر حاول اغتيال هتلر فعلاً وانه لم يكن له شركاء من النازيين . أما شيلينبرغ ، الذي اعتبره أقل وثوقاً ، فيذكر انه كان يشك في البداية في هملر وهايدريش ، ولكنه مالبث أن تأكد بعد استجواب النجار وبعد قراءة الاستجوابات التي جرت لإيلسر بعد تخديره أولاً وبعد تنويمه مغناطيسياً ، بأن القضية تعتبر محاولة أصيلة لاغتيال هتلر .

المعتقلين تلبية لأوامر الفوهرر الصريحة ، اعترافاً منه بما كسبه من تفجير القنبلة من نتائج ، معاملة انسانية في تلك الظروف . ولكن هملر ظل يراقبه طيلة المدة. ولم يكن من الخير أن يظل النجار حياً بعد انتهاء الحرب ليروي قصته . وهكذا قبيل انتهائها أي في السادس عشر من نيسان عام ١٩٤٥ ، أعلنت الغستابو ، ان جورج ايلسر قد قتل إبان غارة جوية شنتها طائرات الحلفاء في اليوم السابق . ونحن نعرف الآن أن الغستابو قد قتلت الرجل (١) .

حديث هتلر الى قادته العسكريين

ومضى هتلر قدماً بعد أن نجا من الاغتيال كما بدا في عيون الالمان ، وبعد أن أخمد روح التحدي عند قادته العسكريين ، يضع خططه للهجوم العظيم الذي ينتظر شنه في الغرب . وأصدر في العشرين من تشرين الثاني التوجيه رقم (٨) ، لإدارة دفة الحرب ، وقد أمر فيه قادته العسكريين بالمحافظة على «حالة الاستنفار» ، وذلك «لاستغلال الاوضاع المناخية المواتية فوراً» ووضع الخطط لتحطيم هولندة وبلجيكا . واستدعى رغبة منه في بعث الشجاعة في الحائري العزيمة ، وإيقاظهم لخطورة مهمتهم ، وإيماناً منه بضرورة ذلك عشية خوض المعارك العظيمة الى دار المستشارية ظهر الثالث والعشرين من تشرين الثاني جميع القادة العسكريين في القيادات المختلفة وضباط هيئة أركان الحرب .

ولا ريب في ان هذه المقابلة السرية وما دار فيها من أحاديث مع كبار قادته العسكريين كانت من أمتع ما وقع في الحرب . ويرجع الفضل في اكتشاف مادار فيها الى بعض الملاحظات التي دونها قائد مجهول شهد الاجتماع ، وعثر عليها

---

١ - راجع للاطلاع على الروايات المختلفة عن حادث القنبلة كتاب بيست « حادث فينلو » ، وكتاب شيلينبرغ « مسالك الجن » وكتاب ويلور بنيت « نقمة السلطان » وكتاب ريتلينغر . « الحرس النازي - يوميات برلين » وكتاب غيزيفيوس نحو « النهاية المرة » وهناك بعض المراجع الاخرى من محاكمات نورمبرغ .

الحلفاء في ملفات القيادة العامة للقوات الالمانية المسلحة في فلينسبرغ (١) ...
وبدأ هتلر حديثه الى قادته العسكريين قائلاً :

« ان هدفي من هذا الاجتماع هو أن أقدم لكم فكرة عن العالم الذي تطوف فيه أفكاري وهي الأفكار التي تتحكم فيّ في مواجهة الأحداث المقبلة ، وأن أنقل إليكم قراراتي » .

كان عقله مليئاً بوقائع الماضي والحاضر والمستقبل ، وقد تحدث الى هذه الفئة المحدودة بشيء من الصراحة القاتلة والبلاغة مقدماً ملخصاً رائعاً لكل ما طاف بعقله الخصيب والملتوي ، ومتكهناً بدقة رائعة بشكل الاحداث المقبلة . ولكن يبدو من الصعب على المرء أن يتصوّر أن كل من استمع اليه في ذلك اليوم ، لا يمكن أن يظل في شك من أن هذا الرجل الذي يسيطر على مقدرات المانيا ، والذي بات يقبض بيده على مصير العالم ، قد بات حتماً شخصاً مصاباً بالعُظام (جنون العظمة) الى حد خطر ... فقد راح يشرح في البداية ، الكفاحات التي خاضها في البداية ، وقال :

« وكنت أتعرف تعرفاً جلياً على التيار المحتمل للأحداث التاريخية ، كما كانت لدي الارادة الثابتة الحازمة والقادرة على اتخاذ أقسى القرارات ... وفي وسعي أن أصف نفسي كعامل أخير وبكل تواضع ، بأني الانسان الذي لا يمكن أن يوجد له بديل . وليس في وسع أي رجل سواء أكان عسكرياً أو مدنياً أن يحتل محلي . وقد تتكرر محاولات الاغتيال . ولكنني واثق من طاقاتي الفكرية ومن قدرتي على اتخاذ القرارات ... ولم يستطع أي انسان ان يحقق ما حققته أنا ... فلقد قدت الشعب الالماني الى أعلى الذرى حتى ولو كان العالم يكرهنا اليوم ... ويعتمد مصير الرايخ علي وعلى وجودي وسأقوم بممارسة أعمالي على ضوء ذلك » .

---

١ - المؤامرة النازية والعدوان (٣) ص٥٧٢-٥٨٠ . ومن وثائق وزارة الخارجية الالمانية (٨) ص٤٣٩-٤٤٦ .

وراح يؤنب القادة العسكريين على الشكوك التي ساورتهم عندما اتخـذ قراراته الصارمة كقرار الخروج من عصبة الامم ، وقرار التجنيد ، واحتلال منطقة الراين وتحصينها والاستيلاء على النمسا ، ثم قال ... « وكان عدد الذين يؤمنون بي آنذاك صغيراً للغاية » .

وراح يصف فتوحاته بشيء من « الـكلبية » التي كان من سوء حظ العالم أن المستر تشرشل لم يسمع بها قط ، وقال : « كانت خطوتنا التالية احتلال بوهيميا ومورافيا وبولندة » . ثم مضى يقول :

« وكان من الواضح لي منذ الوهلة الاولى ، ان ليس في استطاعتي ان اقنع بأراضي السوديت الالمان . وكان هذا الحل جزئياً . واتخذت قراري بالزحف على بوهيميا . وتبـع ذلك ، قرار آخر ، وهو إقامة محمية بوهيميا ومورافيا ، وتم بذلك وضع الأسس لاحتلال بولندة . ولكنني لم أكن واثقاً آنذاك هل أبدأ أولاً بالشرق ، ثم انتقل الى الغرب ، أو أن أنفذ العكس تماماً . وأدى ضغط الأحـداث إلى توجيه الحرب نحو بولندة أولاً . وقد يتهمني المرء بأنني مولع بالحرب . واني لأرى مصير جميع المخلوقات مرتبط بالصراع . وليس في وسع المرء ، إذا لم يكن يقبل بالهبوط والتدهور إلا أن يحارب ويصارع .

« ويتطلب تزايد عدد الالمان مجالاً حيوياً أوسع . وكان هدفي ان اخلق صلة معقولة بين عدد السكان والمجال المتوافر لهم للعيش . وهكذا بدأ الصراع من هذا المنطلق . فليس في وسع أي بلد أن يهمل حل هذه المشكلة ، وإلا فإن الاستسلام يغدو مصير هذا البلد ، ويؤدي به الاستسلام الى التدهور ... وليس للذكاء والحساب أي ثمرة هنا ، فالحل يجب ان يتم بالسيف وعلى الشعب الذي لا يستطيع أن ينتج القوة على الصراع ، ان ينسحب ويستخذي » .

وقال هتلر ان الخطأ في القادة الالمان في الماضي وبينهم بسمارك ومولتكيه ،

هو افتقارهم الى الصلابه الكافية » . ولا يمكن ايجاد الحـــل الا بالهجوم على أية بلاد في الوقت المناسب » . وقد أدى الفشل في ادراك هـــذه الحقيقة الى وقوع حرب عام ١٩١٤ « في جبهات عدة . ولم يؤد هـــذا التطور الى أي حل لأية مشكلة » . ومضى يقول :

« ويجري الآن وضع الفصل الثاني في هذه المسرحية فلأول مرة منذ سبعة وستين عاماً ، لا نجد أنفسنا مرغمين على القتال في جبهتين .. ولكن ، ليس في وسع أي انسان أن يعرف مدة بقاء الوضع على هذا النحو . وأنا لم أقم بتنظيم قواتنا المسلحة ، لكي أتقاعس عن كيل الضربات لأعدائنا . فقرار الضرب يعيش معي دائماً » .

وأوصلته أفكاره عن نعمة القتال في جبهة واحدة ، الى موضوع روسيـــا فقال :

« ولا تمثل روسيا في الوقت الحاضر أية خطورة ، فهناك أوضاع داخلية عديدة في هذه البلاد تؤدي الى ضعفها . لكن المعاهدات ، لا تحترم على أي حال ، إلا اذا كانت تخدم هدفاً . وليس ثمة من شك في أن روسيا ستحترم معاهدتها معنا طالما تعتقد ان احترامها لها هو في صالحها . وما زالت هناك أهداف بعيدة أمام روسيا ، ولعل أهمها تقوية مركزها في بحر البلطيق . ولن يكون في وسعنا أن نقاوم روسيا إلا اذا كنا مطلقي الأيدي في الغرب .

أما بالنسبة الى ايطاليا فكل شيء يتوقف على موسوليني « الذي يؤدي موته الى تغيير كل شيء . وكما ان موت ستـــالين يؤدي الى الاضرار بنا فإن موت الدوتشي يعرضنا الى الخطر . وقد خبرت مؤخراً مدى السهولة التي يمكن أن يقع فيها موت رجل الدولة أو السياسي » . وكان هتلر لا يزال يرى أن لا خطورة هناك في موقف الولايات المتحدة وذلك « بسبب قوانين الحياد فيها » ، كما أن مساعدتها للحلفاء لم تصبح كبيرة حتى ذلك الوقت . لكن الوقت حليف للعدو. « وما زالت اللحظة مواتية اليوم ، ولكنهـــا قد لا تظل كذلك بعد ستة

أشهر » . ولهذا . .

« فإن قراري ثابت لا يتبدل . فسأهاجم فرنسا وانكلترا في أقرب فرصة ممكنة وأكثرها صلاحاً ، وأنا لا أعتبر خرق حياد بلجيكا وهولندة شيئاً هاماً ، ولن يسألنا أحد عن ذلك عندما ننتصر. ولن نحاول تبرير خرقنا للحياد على النحو الاحمق الذي برروا به هذا الخرق في عام ١٩١٤ » .

وقال هتلر لقادته العسكريين ان الهجوم في الغرب يعني « نهاية الحرب العالمية ، لا مجرد عمل فردي . فهي لا تتصل بمجرد قضية واحدة ، وإنما تتصل بوجود البلاد أو لا وجودها » وعاد يتدفق في خطابه كعادته فقال :

« ويجب ان تشد روح العظماء في تاريخنا من عزائمنا نحن . ولا يتطلب القدر منا أكثر مما تطلبه من عظماء الرجال في التاريخ الالماني ولن تتسلط علي في حياتي كلها إلا فكرة واحدة وهي انتصار شعبنا . ولن أهن أو أضعف أمام أي شيء ، وسأقضي على كل من يجرؤ على معارضتي . . ان ما أريده هو أن اقضي على أعدائنا » .

كان الخطاب جلياً لا يحتاج الى أي إيضاح ، ولم يجرؤ أي قائد عسكري ، كما نعرف الآن على أن يرفع صوته إما معبراً عن الشكوك في إمكان نجاح الهجوم في هذا الوقت ، وهي الشكوك التي كانت تساور جميع قادة الجيش ، أو مثيراً موضوع اللاأخلاقية في مهاجمة بلجيكا وهولندة اللتين ضمنت الحكومة الالمانية حياد حدودهما ضمانة قاطعة . وروى بعض « الفرقاء » الذين شهدوا الاجتماع أن ملاحظات هتلر على افتقار كبار دهاقنة الجيش وهيئة أركان الحرب الى الروحية الصامدة كانت أقسى من النحو الذي أوردناه في هذا التلخيص للخطاب .

واستدعى سيد الحرب النازي في ساعة لاحقة من ذلك اليوم أي في السادسة مساء ، كلًا من براوخيتش وهولدر مرة ثانية ، وراح يلقي على مسامع القائد العام محاضرة في موضوع « زوحية روسين » ، بينما ترك رئيس هيئة أركان الحرب ينتظر في خارج مكتبه وكأنه ولد عاق . وقال هتلر ان القيادة العليا للجيش

مصابة « بالانهزامية » ، بينما يقف أركان حرب هولدر موقف « المشاكسة مما يعرضهم الى الخلاف مع الفوهرر » . وعرض براوخيتش الذي أصيب في كرامته، كما روى هو نفسه فيما بعد على منصة الشهادة في نورمبرغ ، استقالته فوراً،ولكن هتلر رفضها ، مذكراً اياه بواجبه كقائد عام للجيش « وان عليه أداء هـذا الواجب وما يترتب عليه من التزامات كأي جندي آخر » . ودوّن هولدر في يومياته لذلك اليوم ملاحظة بطريق الاختزال ... تمثلت في كلمتين « يوم عصيب » (١) .

ومثل الثالث والعشرون من تشرين الثاني من نواح عدة ، علامة فارقة في التاريخ الالماني الحديث ، فقد رمز الى انتصار هتلر الحاسم والأخير على الجيش بعد أن كان هذا الجيش نفسه قد نحّى في الحرب الكونية الأولى ، الأمبراطور غليوم الثاني جانباً ، قابضاً بنفسه على زمام السلطان السياسي والعسكري في ألمانيا . وشرع ذلك العريف النمسوي السابق منذ ذلك اليوم ، في اعتبـار أحكامه العسكرية بالإضافة الى أحكامه السياسية متفوقة على أحكام قادته العسكريين ، ورفض الاستماع الى نصائحهم أو السماح بانتقاداتهم ، مما أدى الى نتـائج مفجعة للجميـع .

وقال براوخيتش في محكمة نورمبرغ يصف مـا وقع في ذلك اليوم من أحـداث .. « لقد وقعت القطيعة التي ما لبثت ان اختفت ، ولكنها لم تصلح إصلاحاً كاملاً أبداً .. »

وأخفت خطاب هتلر الى قادته العسكريين في ذلك اليوم من أيام الخريف ، أية أفكار ، تراود أذهان هولدر وبراوخيتش وغيرهما في الاطاحة بالديكتاتور النازي مهما كانت تلك الافكار ضعيفة في طبيعتها . فلقد أنذرهم بأنه « سيقضي » على كل من يحاول الوقوف في طريقه ، وذكر هولدر ان هتلر أضاف « مخصصاً » بأنه سيسحق بالقوة أية معارضة قد تبديها هيئة أركان الحرب لقراراته ولم يكن

١ – محاكمات كبار مجرمي الحرب (٢٠) ص ٥٧٥ .

هولدر ، في ذلك الوقت على الأقل ، بالرجل الذي يستطيع الصمود أمام هذا الوعيد المخيف . وروى هولدر نفسه فيما بعد ، ان الفريق توماس قام بزيارته بعد أربعة أيام ، أي في السابع والعشرين من تشرين الثاني ، مدفوعاً من شاخت وبوبيتز لحثه على مواصلة الضغط على براوخيتش للقيام بعمل ضد الفوهرر ، وانه – أي هولدر – ذكّر زائره « بالعقبات الكأداء » في طريقهم لا سيما وانه لم يكن واثقاً من أن براوخيتش « سيشترك اشتراكاً فعلياً في أي انقلاب عسكري » (١) .

وشرح هولدر بعد بضعة أيام لغويردلر ، الأسباب المضحكة التي تحول بينه وبين المضي في خططه للخلاص من الديكتاتور . وسجل هاسيل هذه الأسباب في يومياته . فبالاضافة الى أن « المرء لا يثور عادة عندما يواجه عدواً » ، راح هولدر يعدد النقاط التالية : « علينا أن نتيح لهتلر فرصته الأخيرة لإنقاذ الشعب الالماني من عبودية الرأسمالية الانكليزية .. وليس ثمة من رجل عظيم آخر متوافر لنا الآن .. ولم تنضج المعارضة بعد نضوجاً كافياً .. ولا يمكن المرء أن يثق بصغار الضباط » . وراح هاسيل نفسه يناشد أمير البحر كاناريس وهو من المتآمرين الأصليين أن يمضي قدماً في تحقيق الخطة ، ولكنه لم يصل معه الى أية نتيجة . وأسر السفير السابق ليومياته بتاريخ الثلاثين من تشرين الثاني : « لقد يئس كاناريس من مقاومة القادة العسكريين ، وهو يرى أن من غير المجدي القيام بأية محاولة أخرى في هذه الطريق» . ودوّن هاسيل بعد أيام أخرى في يومياته .. « لم يعد براوخيتش وهولدر أكثر من تابعين صغيرين لهتلر » (٢) .

---

١ – المؤامرة النازية والدوان – الملحق (ب) ص ١٥٦٩ – ١٥٧٠ ومقال توماس « التفكير والتطورات » أيضاً .

٢ – يوميات هاسيل ص ٩٣ وص ٩٤ وص ١٧٢ .

الارهاب النازي في بولندة

المرحلة الأولى

لم تمض أيام عدة على هجوم الالمان على بولندة ، حتى أخـــذت يومياتي تمتلىء بأنباء الارهاب النازي في البلاد المحتلة وقد علمت فيما بعد أن يوميات شخص آخر أخذت تحتشد بهذه الأنباء أيضاً . فقد روى هاسّيل في يوميته بتاريخ التاسع عشر من تشرين الأول ، انه سمع « بالأعمال الوحشية التي يرتكبها الحرس النازي في بولندة ولاسيما ضد اليهود » . وراح بعد بضعة أيام يسرّ الى يومياته بقصة سمعها من أحد أصحاب الأملاك الالمان في مقاطعة بوزن ..

« وكان آخر ما رآه ، الزعيم الاقليمي النـــازي الشمل ، الذي أمر بفتح أبواب السجن ، حيث قتل خمساً من العاهرات وحاول الاعتـــداء على اثنتين أخريين » (١) .

ودوّن هولدر في الثامن عشر من تشرين الأول في يومياته النقاط الرئيسية للحديث الذي دار في ذلك اليوم بين هتلر وبين الفريق إدوارد واغنر مدير تموينات الجيش عن مستقبل بولندة . وكان هذا المستقبل قاتماً فقد قال هتلر ..

« اننا لا نعتزم مطلقاً إعادة بناء بولندة .. ولن تكون دولة نموذجية على المقاييس الالمانية . ومن الواجب الحيلولة بين الفئات الهولندية المثقفة وبين توطيد أقدامها كطبقة حاكمة . وعلينا أن نحافظ على مستويات الحياة الخفيضة فيها ليكون أهلها عبيداً لا يكلفون كثيراً .

« وعلينا أن نخلق انحلالاً كاملاً في البلاد . وستتيح حكومة الرايخ للحاكم العام في بولندة جميع السبل لتحقيق هـــذه الخطة

---

١ - يوميات هاسيل ص ٧٩ وص ٩٤ .

الشيطانية » .

وقد اتاحت له ذلك فعلاً . وفي وسعنـا الآن أن نورد وصفاً ملخصاً لبداية عهد الإرهاب النازي في بولندة ، كما تحسر عنها النقاب ، الوثائق الالمانية المصادرة ، والأدلة التي ظهرت في مختلف محاكمات نورمبرغ . ولم تكن الأعمال التي اجترمت هناك إلا تمهيداً للفظائع السوداء التي أوقعها الالمان فيما بعد في جميع الشعوب المحتلة . ولكن هذه الفظائع كانت من البداية حتى النهـاية أسوأ في بولنـدة منها في أية بلاد أخرى . فقد بلغت الوحشية النازية في هذه البلاد حداً لا يكاد يصدق مطلقاً .

وكان هتلر ، قد أبلغ قادته العسكريين قبيل بدء الهجوم على بولندة ، عندما اجتمع اليهم في أوبر سالزبرغ في الثاني والعشرين من آب ان « الأمور قد تسير على نحو لا يرضي أذواق الفرقاء الالمان » ، وحذرهم « من التدخل في مثل هذه القضايا ، وان يحصروا اهتمامهم بواجباتهم العسكرية » . وكان هتلر يعرف بالطبع ما يقوله . اذ لم يمض طويل وقت حتى كانت الأنباء تنهال على مؤلف هذا الكتاب سواء في برلين أو عند زيارته لبولندة ، عن المذابح النازية . وقد انهالت هذه الأنباء نفسها على القادة العسكريين . فقد دوّن هولدر في العاشر من ايلول ، وكانت الحملة البولندية لا تزال في عنفوانها ، حادثاً يعتبر مثالاً بارزاً لما وصل الى برلين من أنباء . وذكر القائد أن بعض غلاظ القلوب من فوج مدفعي من جيش الحرس النازي ، حملوا أكثر من خمسين يهودياً على العمل نهاراً بكامله في إصلاح أحد الجسور ثم قادوهم الى كنيس يهودي حيث تولوا ذبحهم فيـه . ورفض الفريق فون كويشلر قائد الجيش الثالث ، الذي أصيب فيما بعد بنوبات حادة من تبكيت الضمير ، التوقيع على حكم ليّن أصدرته المحكمة العسكرية على الذين قاموا بهذا العمل ، وهو يقضي بسجنهم سنة واحدة ، قائلاً ان هذا الحكم مغرق في اللين . ولكن براوخيتش القائد العام مالبث أن ابطل حتى هـذه الأحكام اللينة ، بعد أن تدخل هملر ، محتجاً بأن قانون « العفو العام » ينطبق على المجرمين المذكورين .

ورأى القادة العسكريون الالمان ، وهم يعتبرون أنفسهم من المسيحيين الصادقين أن الوضع بات من النوع الذي لا يطاق ، والذي يعرضهم للحيرة والضيق . وعقد اجتماع في الثاني عشر من ايلول في قطار الفوهرر الخاص بين كايتل وأمير البحر كاناريس ، وقد احتج هذا على ما يقع من مظالم وفظائع في بولندة . ورد رئيس القيادة العامة للقوات المسلحة ، المستكبر رداً مقتضباً فقال ان « الفوهرر قد اتخذ قراره في هذا الموضوع وليس ثم مجال للبحث فيه » وإذا كان الجيش لا يرغب « في الاشتراك في هذه الوقائع ، فإن عليه أن يقبل باعتبار الحرس النازي والغستابو ندين له » أي أن تقبل كل وحدة عسكرية من وحدات الجيش بمفوضين من الحرس النازي في صفوفها يتولون « تنفيذ عمليات الابادة » . ودوّن امير البحر كاناريس في يومياته التي ظهرت في نورمبرغ ما يلي ...

« وبيّنت للفريق كايتل انني واثق من أن ثم مخططات للقيام بعمليات إبادة على نطاق واسع في بولندة ، وان هذه المخططات تهدف إلى إبادة النبلاء ورجال الدين . وقلت له ان العالم سيعتبر القوات الألمانية المسلحة مسؤولة حتماً عن هذه الأعمال »[1] .

وكان هملر أشد ذكاء من أن يسمح للقادة العسكريين بالخلاص من المسؤولية . وقام مساعد هملر الأول في التاسع عشر من أيلول بزيارة القيادة العامة للجيش وأبلغ الفريق واغنر ، بخطط الحرس النازي الهادفة الى عمليات « تطهير بولندة داخلياً من اليهود والمثقفين ورجال الدين والنبلاء » ودوّن هولدر رد فعله تجاه هذه الخطط في يومياته بعد ان نقل إليه واغنر أنباءها فقال ..

« يصر الجيش على أن لا تبدأ عمليات التطهير إلا بعد انسحاب الجيش ، وتحوّل الحكم في البلاد إلى الادارة المدنية وذلك في مطلع كانون الأول » .

وتفسّر هذه اليومية المختصرة التي دوّنها رئيس هيئه أركان الجيش لنا موقف

---

١ - يوميات الاميرال كاناريس - المؤامرة النازية والعدوان (٥) ص ٧٦٩ .

القادة العسكريين الألمان من الناحية الأخلاقية لعمليات التطهير . فهم لا يعتزمون معارضة عمليات التطهير التي تعني إبادة اليهود والمثقفين ورجال الدين والنبلاء معارضة جدية . وكل ما يريدونه هو « تأجيل » هذه العمليات الى أن يتم خروج « الجيش » من بولندة ، ليتجنب قادته المسؤولية . وكانوا يلحفون بالطبع على وجوب أخذ الرأي العام العالمي في محل الاعتبار والاهتمام . وهذا ما دونه هولدر فعلاً في يوميته في اليوم التالي ، وبعد اجتماع طويل مع براوخيتش ، تركز البحث فيه على عمليات التطهير في بولندة .. إذ قال :

« علينا أن لا نسمح بحدوث ما يمكن له تزويد البلاد الأجنبية بالفرصة لشن أي نوع من الحملات الدعائية المعادية التي لا تستند إلى مثل هذه الحوادث . والمساس برجال الدين الكاثوليك أمر غير عملي في هذا الوقت » .

وقدم هايدريش في الواحد والعشرين من أيلول الى قيادة الجيش العليا ، صورة من خططه الأولى لعمليات التطهير . وتنص هذه الخطط كخطوة أولى على « تجميع » اليهود في المدن حيث يكون من السهل الإمساك بهم عندما يقع التطهير . وأعلن قائلاً : « ويتطلب تنفيذ الحل الأخير » . بعض الوقت ، ومن الواجب الحفاظ على سريته الكاملة . وليس ثمة من شك في أن أي قائد عسكري قرأ هذه المذكرة ، قد أدرك فوراً أن « الحل الأخير » يعني « الابادة » (١) . وعندما حان وقت التنفيذ بعد نحو من سنتين أصبحت هذه العبارة التي تنطلق على الألسنة ، ترمز الى أفظع ما ارتكبه النازيون من جرائم في الحرب .

وأصدر الفوهرر في الثاني عشر من تشرين الأول ، مرسوماً يقضي بقيام حكومة بولندة العامة في الأراضي التي بقيت بعد ان ضم الروس حصتهم في الشرق ، وضمت ألمانيا الأمارات السابقة التي كانت جزءاً منها قبل الحرب الأولى ،

---

١ ــ المؤامرة النازية والعدوان (٦) ص ٩٧ - ١٠١ .

الى الرايخ ، وعيّن هانزفرانك حاكماً عاماً ، وسايس - انيكورات «الكويزلنغ» النمسوي نائباً له . وكان هانز فرانك نموذجاً رائعاً ، اقاطع الطرق النازي المثقف، فقد انضم الى الحزب في عام ١٩٢٧ فور تخرجه من كليـــة الحقوق ، وسرعان ما شيّـد لنفـسه شهرة كالمفكر القانوني للحركة . وتميّـز هذا الرجل بالذكاء والفراهة والنشاط والثقافة الواسعة التي تتعدى حدود القراءات القـــانونية الى الآداب العـــالمية ، والميل الى الفنون ولا سيما الموسيقى . وبات بعد وصول النازيين الى الحكم قوة لها وزنها في المنظمات الحقوقية ، إذ عمل أولاً كوزير للعدل في بافاريا ، ثم غدا وزيراً للدولة بلا وزارة في حكومة الرايخ ، ورئيساً للمجمع القـــانوني ونقيباً للمحامين الالمان . وتمكنت ثقافة هـــذا الرجل الأسمر الوجه ، النشيط الحركة ، الكثير الحيوية ، ووالد أطفال خمسة من التغلب عل تعصبّه الفطري ، وجعلت منه حتى ذلك الوقت اقرب الرجال الذين يحيطون بهتلر الى القلب . ولكن كانت شخصية « القاتل المتعمّـد » تختفي في هذا الرجل وراء هذا القناع من المدنية والثقافة . فلقد كشفت اليوميات التي دوّنها في اثنين واربعين مجلداً عن حياته وأعماله التي ظهرت الى الأضواء في محاكمات نورمبرغ عن وثائق لا مثيل لها فيما توحي به من رعب ، وعرضت مؤلفها في صورته الحقيقية كرجل متعطش للدماء، متحجّر العواطف ، قاس لا يرحم ومغال في نشاطه وكفاياته . ويبدو انها لم تنس أي قول من أقواله البربرية (١) .

وأعلن في اليوم التالي لتوليه منصبه الجديد .. « سيكون البولنديون عبيد الرايخ الالماني » . وقال لأحد الصحفيين النازيين عندما سمع ان نوراث « حامي » بوهيميا ، قد «علـّق » اعلانات عن اعدام سبعه من الطلاب الجامعيين التشيكيين . « لو أردت أن آمر بتعليق اعلان واحد ، عن كل سبعة من البولنـــديين الذين أعدموا ، لما كانت هناك غابات كافية في بولندة لصناعة الورق اللازم لهـــذه

---

١ - عثر الملازم وولتر شتاين من الجيش الامريكي السابع على هذه اليوميات في أيار عام ١٩٤٥ في جناح فرانك في فندق بيرغهوف على مقربة من نيوهاوس في بافاريا .

الاعـــلانات » (١) .

وعهد هتلر الى كل من هملر وهايدريش بإبادة اليهود . وكانت مهمـة فرانك بالاضافة الى ابتزاز المواد الغذائية والمؤن والعمل الالزامي من بولندة ، تصفية المثقفين وابادتهم وقد وضع النازيون اسماً رمزياً جميلاً لهـــذه العملية إذ أطلقوا عليها اسم « عملية التهدئة الخارقة للعادة » أو عملية (ا ب) كما أصبحت تسمى . واستغرق الاعداد لها وقتاً طويلاً من فرانك ، ولم يشرع في تحقيق بعض النتائج منها الا في الربيـع التالي عندما انشغل العالم بأسره بقضية الهجوم الالماني الكبير في الغرب ، وانصرف بانتباهه عن بولندة . وتظهر يومياته نفسها انه كان في وسعه في الثلاثين من أيار أن يفاخر في حديث «مكتوم» الى مساعديه من قادة الشرطة باحراز بعض التقدم وبأن أرواح «بضعة آلاف» من المثقفين البولنديين قد أزهقت أو على وشك أن تزهق

وراح يقول لرجاله .. « واني لأرجوكم يا سادة أن تتخذوا من الاجراءات أقساها وأكثرها حزماً لمساعدتنا في مهمتنا هذه » . وأضاف يسر لهم ان هـذه هي « اوامر الفوهرر » لأنه قد أصدرها على النحو التالي :

« يجب تصفية جميـع الرجال القادرين على تولي الأدوار القيادية في بولندة . ومن الواجب إبادة الأشخاص الآخرين الذين يتبعونهم ويسيرون في ركابهم ، كل منهم بدوره ، وليس ثمة من حاجـــة الى تحميل الرايخ أعبـــاء وجودهم ... كما لا حاجة الى الزج بهم في معسكرات الاعتقال في الرايخ » .

وأضاف ان من الواجب التخلص منهم هناك على أرض بولندية نفسها (٢) .

ودوّن فرانك في يوميته عن ذلك الاجتمـــاع أن رئيس شرطة الأمن قدم اليه تقريراً عن سير العمل . فقد قبض على نحو من ألفي رجل وعدة مئات من

---

١ ـ محاكمات كبار مجرمي الحرب (١) ص ٢٩٧ .

٢ ـ محاكمات كبار مجرمي الحرب (٧) ص ٤٦٨ ــ ٤٦٩ .

النساء ، في « مستهل عمليه التهدئة الخارقة للعادة . وقد تم « اعــدام معظمهم بالجملة » وهو اصطلاح نازي يطلق على عمليـــات الابادة . وأضاف التقرير ان مجموعة أخرى من المثقفين يجري اعتقالها الآن لعملية « الاعدام بالجمـــلة » . وهكذا فإن نحواً من (٣٥٠٠) من أشد العناصر البولندية المثقفة خطورة سيتم الاهتمام بها (١) .

ولم يوفر فرانك اليهود ابداً ، حتى ولو كانت الغستابو قد انتزعت مهمة إبادتهم منه . وتحتشد يومياته بما ساوره من أفكار في هذا الموضوع وما حققه من أعمال . وتتضمن هذه اليوميات خطاباً ألقاه في جمعيه نازية في بولندة في السابـع من تشرين الاول عام ١١٤٠ ، لخص فيه ما قام به من أعمال في غضون العام الأول من حكمه في بولندة وقال :

« ايها الرفاق الأعزاء .. لم يكن في وسعي أن أقضي على كل مافي البلاد من قمل ويهود في عام واحد فقط . (ودوّن ان الجمهور المستمع اليه قد طرب لهذه العبارة) . ولكننا سنتمكن من تحقيق هذا الهدف إذا ساعدتموني مع مرور الزمن » (٢) .

وأنهى فرانك جلسة عقدها مجلس وزرائه في كراكاو التي جعل منها عاصمته ، قبل اسبوعين من عيد الميلاد في السنة التالية(١٩٤١) بقوله:

« أود ان اقول لـكم بصراحة تامة ، ان من الواجب التخلص من جميـع اليهود بطريق أو بآخر .. وأريد أن أطلب منكم أيها السادة أن تتخلصوا من كل مشاعر الرحمة . فعلينا أن نبيـــد اليهود تماماً » .

واعترف ان من الصعوبة بمكان « ان نقضي على ثلاثة ملايين ونصف المليون من اليهود المقيمين في أراضي « الحكومة البولندية العامة » ، بالقتل أو السم ،

١ ـ محاكمات كبار مجرمي الحرب ص ٤٤٧ ـ ٤٤٨ .
٢ ـ المؤامرة النازية والعدوان ص ٨٩١ .

ولكننا سنتمكن من القيام باجراءات ستؤدي الى حد ما الى ابادتهم » وكانت هذه النبوءة دقيقة الى حد ما (١) .

وبدأت عملية ترحيل اليهود والبولنديين من الديار التي عاشوا فيها هم وعائلاتهم اجيالاً طويلة فور انتهاء القتال في بولندة. وعين هتلر في السابع من تشرين الاول، أي في اليوم الذي تلا « خطابه السلمي » المشهور ، هملر ليكون رئيساً لمنظمة جديدة هي « قوميسارية الرايخ لتقوية القومية الالمانية » أو ما اطلق عليها الاسم المختصر (R.K.F.D.V) تسهيلاً. وكانت مهمة هذه المنظمة نقل البولنديين واليهود اولاً من المقاطعات البولندية ، التي ضمت الى المانيا مباشرة ، والإستعاضة عنهم بالألمان الاصليين أو من الذين يمتون الى الاصل الألماني والذين كانوا يعيشون في اطراف بولندة البعيدة أو في دويلات البلطيق وأخذوا يتدفقون على المانيا الآن فراراً من الخطر الذي بات يهدد هذه البلاد من الشرق . وكان هولدر قد سمع بهذه الخطة قبل اسبوعين من تنفيذها ، ودوّن في يومياته ان « شخصين سيطردان من بولندة مقابل كل الماني يرتحل الى هذه المقاطعات » .

واصدر هملر في التاسع من تشرين الاول أي بعد يومين من توليه منصبه الجديد قراراً بترحيل (٥٥٠) ألفاً من مجموع (٦٥٠) ألف يهودي يعيشون في المقاطعات البولندية التي ضمت الى الرايخ مباشرة ، ومعهم جميع البولنديين الذي لا يصلحون « للاندماج » مع الالمان الى اراضي «الحكومة البولندية العامة» الى الشرق من نهر الفستولا . وتم في غضون يوم ترحيل مليون ومائتي ألف بولندي وثلاثمائة ألف يهودي ، من اماكنهم وابعدوا الى الشرق ، ليحل محلهم (٤٩٧) ألفاً من الالمان فقط . وكانت النسبة تفوق والحالة هذه ما قدره هولدر اذ ابعد ثلاثة من البولنديين واليهود مقابل كل مهاجر الماني .

وتميز شتاء عام ١٩٣٩ ١٩٤٠ بالقسوة كما يتذكر المؤلف الآن ، وسقطت فيه « ثلوج » كثيرة ، وتم ترحيل البولنديين واليهود في هذا الجو القارص الذي

---

١ - المؤامرة النازية والعدوان (٤) ص ٨٩١ - ٨٩٢ .

تهبط فيه درجة الحرارة عن الصفر ، ووسط زوابع ثلجية ، مما أدى الى خسائر في الارواح تفوق عـــدد الذين ذهبوا ضحية مشانق النازيــين ورصاصهم . وفي وسعنا ان نعتمد على أقوال هملر نفسه ، فقد ألقى خطاباً في جماعات من الحرس النازي في الصيف التالي ، أي بعد سقوط فرنسا ، رسم فيه مقارنـــة بين عمليات « الترحيل » التي شرع رجاله في تنفيذها في الغرب ، وتلك التي قاموا بهـــا في الشرق وقال :

« حدثت هذه العمليات في بولندة في طقس قارص تهبط فيه الحرارة أربعين درجة عن الصفر ، حيث تحتم علينا أن نغير اتجاه الألوف بل وعشراتها ومئاتها ، من ناحية الى ناحية ، وكان لزاماً علينا ان نتحلى بالقسوة التي اود ان تسمعوا بها وان تنسوا ما سمعتوه فوراً ، اقتل الالوف من البولنديين البارزين ... وليس ثمة من شك في ان من الأسهل ايهـــا السادة في كثير من الاحوال ان يصطرع الانسان مع جماعة عسكرية ، على ان يخمد جمهوراً متمرداً يتميز بالمستوى الثقافي الخفيض أو ان ينفذ عمليات إعدام ، أو يغير اتجاه جماعات من النساء اللاتي يبكين بـــكاء هستيرياً أو يجليهن عن مكان ما (١) » .

وكان الزعيم الأول ريشارد غليكس ، من كبار قادة جيش الحرس النازي ورئيس دائرة تفتيش المعتقلات ، قد ابلغ هملر في الواحد والعشرين من شباط عام ١٩٤٠ بعد ان طاف بالمنطقة المحيطة بكراكار ، انـه عثر على « موقـــع مناسب » لإقامة « معسكر جديد للحجز » في اوشويتز ، وهي بـــلدة صغيرة مهجورة ، وفي منطقة تغص بالمستنقعات تضم نحواً من اثني عشر ألف انسان ، وفيها بالاضافة الى بعض المصانع ، ثكنة نمسوية قديمـــة للخيالة . وبدأ العمل في اعداد المعسكر فوراً . وتم في التاسع عشر من حزيران افتتاح معتقل اوشويتز

---

١ ـ المؤامرة النازية والعدوان (٤) ص ٥٥٣ ـ ٥٥٤ .

للمسجونين السياسيين البولنديين الذين اراد الالمان ان يعاملوهم معاملة تنطوي على الكثير من القسوة . وسرعان ما تحول هذا المكان الى معتقل من اكثر المعتقلات شراً وفظائع . وكان مدير مؤسسة « فاربين » لاحتكار الصناعات الكيمائية الالمانية قد اكتشفوا في غضون ذلك ان « اوشويتز » موقع يمتاز لصناعة المطاط الكيمائي وزيت الفحم الصناعي . وتطلبت اقامة الابنية الجديدة اللازمة لهذه المصانع ، وادارة العمل فيها ، المزيد من اليد العاملة الرقيقة والرخيصة .

ووصلت الى اوشويتز في ربيع عام ١٩٤٠ زمرة من اغلظ رجال الحرس النازي قلباً بقيادة جوزيف كرامر ، الذي اشتهر امره فيما بعد عند الجماهير البريطانية وعرف باسم « وحش بيلزين » وذلك لتولي ادارة المعسكر وتأمين العمل الدقيق لمصانع فاربين . وكان يساعده رودولف فرانز هويس ، المجرم المدان بتهمة القتل والذي قضى خمس سنوات في السجن ليصبح فيما بعد سجاناً ، والذي تفاخر فيما بعد في نورمبرغ ، في عام ١٩٤٦ وكان قد بلغ السادسة والاربعين من عمره ، بأنه أشرف في اوشويتز على إبادة مليون من المعتقلين ، يضاف اليهم نصف مليون آخر ، ماتوا جوعاً .

وقد قدر لأوشويتز ان يغدو اكثر معتقلات الإبادة شهرة ، ومن الواجب تمييزه عن معسكرات الاعتقال التي ظل بعض نزلائها احياء حتى انتهاء الحرب . ولا ريب في ان من المهم كل الاهمية لتفهم الالمان ، حتى من اكثرهم جدارة بالاحترام في عهد هتلر ، ان يقال ان مثل هذه الشركة — شركة فاربين — ذات المكانة البارزة والشهرة الدولية ، والتي كان مديرها يكرمون على انهم من ابرز رجال الاعمال في المانيا واكثرهم نجاحاً ، ويبدون بمظهر الذين يخافون الله ، قد آثرت ان تجعل من معسكر الموت هذا مكاناً مناسباً لتجارتها المربحة .

الاحتكاك بين الجماعيين

تميّز محور برلين روما بكثرة ما دار فيه من صراخ في ذلك الخريف الاول من الحرب .

وتبودلت الخلافات الحادة على مختلف المستويات بين البلدين متناولة عدداً من المشاكل أهمها فشل الالمان في تنفيذ جلاء المواطنين من أصل الماني من التيرول الجنوبي الايطالي تنفيذاً لاتفاق سابق في حزايران الماضي ، وفشل الالمان ايضاً في تزويد ايطاليا بمليون طن من الفحم في كل شهر ، وتقاعس الايطاليين عن تجاهل الحصار البريطاني وتزويد المانيا بالمواد الاولية التي تحتاجها والتي تستورد عن طريق ايطاليا ، وازدهار اتجار ايطاليا مع بريطانيا وفرنسا وتزويدهما لها ببعض المواد الحربية ، وتزايد مشاعر شيانو المناوئة الألمان .

وكان موسوليني ، كدأبه دائماً ، يترنح بين الحدة والبرود ، وقد دوّن شيانو مراحل هذا التقلب في يومياته . ولقي الدوتشي مشقة بالغة في التاسع من تشرين الثاني ، في اعداد برقية الى هتلر يهنؤه فيها بنجاته من محاولة الاغتيال . وقد دوّن شيانو في يومياته يقول :

« اراد ان تكون برقيته دافئة عاطفية، على ان لا تكون مغالية في دفئها ، اذ انه في تقديره ، لم يكن يرى ان هناك ايطاليا واحداً يحس احساساً شديداً بالفرح ، لأن هتلر قد نجا من الموت، والدوتشي في مقدمتهم .

« ٢٠ تشرين الثاني .. لا يستطيع موسوليني احتمال فكرة قيام هتلر بشن الحرب ، او بكسبها وهو الاسوأ » .

واعرب الدوتشي في اليوم الذي تلا عيد الميلاد عن « رغبته في هزيمة المانيا » ، وراح يوعز الى شيانو ، بأن يبلغ سراً كلاً من بلجيكا وهولندة بأنهما تتعرضان لهجوم قريب (١) . ولكن لم يحل مطلع العام الجديد ، حتى كان يتحدث ثانية عن الدخول في الحرب الى جانب هتلر .

---

١ – نقل شيانو التحذير الى السفير البلجيكي في رومة في الثاني من كانون الثاني ودون عمله هذا في يومياته. ويقول وايز ساكر ان الالمان التقطوا برقيتين رمزيتين بعثبهما السفير البلجيكي الى بروكسل ، ينقل فيهما تحذير الوزير الايطالي وتولوا حلها (وثائق وزارة الخارجية الالمانية (٨) ص ٦٨٣) .

وكانت سياسة الالمان المؤيدة للروس هي السبب الرئيسي في الاحتكاك بين دولتي المحور . فلقد قام الجيش السوفياتي الأحمر في الثلاثين من تشرين الثاني عام ١٩٣٩ بمهاجمة فنلندة ، ووجد هتلر نفسه في وضع حرج للغاية عرضة للاذلال والمهانة . فلقد طرد الالمان من البلطيق ثمناً لميثاقهم الذي عقدوه مع ستالين ، ووجد هتلر نفسه مجبراً على اجلاء الأسر الالمانية التي عاشت في تلك البلاد قروناً طويلة ، بسرعة فائقة ، وتحتم عليه الآن ان يعلن رسمياً تسامحه تجاه قيام الروس بهجوم غير مستفزّ على بلاد صغيرة تشدها الى المانيا أوثق الوشائج منذ عهد طويل ، وكان للجنود الالمان النظاميين في عام ١٩١٨ ، الفضل الأكبر في تحقيق استقلالها وخروجها على النطاق الشيوعي بعد قيام الحكم السوفياتي في روسيا (١) . وكانت « البرشامة » مرة كل المرارة على مذاق هتلر ، ولكنه وجد نفسه مرغماً على ابتلاعها ، وقد ابتلعها . وصدرت تعليمات حازمة إلى البعثات الدبلوماسية الالمانية في الخارج ، وإلى الصحف والاذاعات الالمانية لتأييد عدوان روسيا وتجنب التعبير عن أي عطف على الفنلنديين .

ويبدو ان هذا كان الخيط الأخير بالنسبة إلى موسوليني الذي تحتم عليه ان يواجه المظاهرات المعادية للألمان في طول ايطاليا وعرضها . وراح الدوتشي بعيد مطلع العام الجديد ، وفي الثالث من كانون الثاني على وجه التحديد ينفس عما يحس به من ضيق في رسالة مطولة بعث بها الى الفوهرر . ولم يكن الدوتشي قط لا من قبل ولا من بعد ، بمثل هذه الصراحة التي بدت في رسالته المذكورة ، عندما كان على استعداد لتقديم مثل هذه النصائح الحادة والقاسية لزميله هتلر .

وقال الدوتشي في رسالته انه « واثق ثقة مطلقة » من ان المانيا لن تستطيع حتى ولو ساعدتها ايطاليا ، ارغام بريطانيا وفرنسا على الركوع والاستسلام أو

---

١ - انتخب البرلمان الفلندي في التاسع من تشرين الاول عام ١٩١٨ - وهذه طرفة مضحكة من طرف التاريخ المجهولة - الأمير فريدريك كارل أوف هيسي ليكون ملكاً لفلندة بأغلبية ٧٥ صوتاً مقابل ٢٥ وذلك اعتقاداً من النواب بأن المانيا هي التي ستكسب الحرب . ولكن انتصار الحلفاء بعد نحو من شهر وضع نهاية لهذه القصة المضحكة .

حتى التفريق بينهما . وحمل مثل هذا الأمل مجرد حلم خادع ، فلن تسمح الولايات المتحدة بهزيمة الدولتين الديموقراطيتين هزيمة كاملة » . ولذا فليس من الضروري بعد ان أحس هتلر الآن بالاطمئنان على حدوده الشرقية ان « يجازف بكل شيء حتى بالعهد النازي نفسه ، ويضحي بزهرة الاجيال الالمانيــة » في محاولة لهزم هاتين الدولتين . وقال موسوليني انه يرى السلام ممكناً اذا سمحت المانيا بوجود دولة بولندية متواضعة وغير مسلحة شريطة ان تكون بولندية تمامـاً . وأضاف قائلاً : « وما لم تكن تعتزم المضي في الحرب حتى النهاية ، فإني اعتقد ان خلق دولة بولندية .. قد يكون عنصراً نافعاً في تقرير الحرب ، وإقامة وضع صالح لخلق السلام » .

ولكن صفقة المانيا مع الروس هي التي تقض على الديكتاتور الايطالي مضجعه أكثر من أي شيء آخر ، اذ مضى يقول :

« وقد افادت روسيا من الحرب دون ان تطلق رصاصة واحدة فائدة كبيرة تتمثل في ما استولت عليه في بولندة ودول البلطيق . ولكن في وسعي ، وقد ولدت انساناً ثورياً ، ان أقول لك ، ان ليس بامكانك الاستمرار في التضحيـة بمبادىء ثورتك في سبيل المقتضيات التكتيكية للظروف الناتجة عن فترة سياسية معينة .. وأرى من واجبي ان أضيف بأن قيامك بأية خطوة جديدة في طريق علاقـاتك مع موسكو سيؤدي إلى نتائج مفجعة في ايطاليا (١) » .

ولم تكن رسالة موسوليني التحذيرية الى هتلر، مجرد انذار عن تدهور العلاقات الايطالية ـ الالمانية فحسب ، وانما اصابت ايضاً هدفاً سهل المنال في الصميم ، وهو شهر العسل الذي يقضيه الفوهرر مع روسيا السوفياتية ، اذ ان ما يقع فيه من خلافات قد بدأ في التأثير على اعصاب العروسين . حقـاً لقد مكنه هذا

---

١ ـ نص الرسالة ـ وثائق وزارة الخارجية الالمانية (٨) ص ٦٠٤ ـ ٦٠٩ .

الزواج من شن حربه على بولندة وتدميرها ، كما اتاح له ايضاً فوائد أخرى . فقد كشفت الاوراق الالمانية المصادرة عن سر يعتبر من أدق أسرار الحرب ، وهو تأمين الاتحاد السوفياتي الموانىء على المحيط المتجمد الشمالي والبحر الأسود والمحيط الهادىء ، لتستورد المانيا عن طريقها ما هي في حاجة اليه من مواد حربية ، كان الحصار البريطاني يحول دون وصولها اليها .

ووافق مولوتوف في العاشر من تشرين الثاني عام ١٩٣٩ ايضاً على ان يقوم الاتحاد السوفياتي كذلك بدفع اجور نقـل هذه السلع على السكك الحديدية الروسية (١) . وتعهدت روسيا ايضاً بتأمين الوقود وخدمـات الاصلاح للسفن والغواصات الالمانية في ميناء تيريبيركا الواقعـة على المحيط المتجمد الشمالي الى الشرق من مورمانسك ، فقد ظن مولوتوف ان الميناء الاخير أي مورمانسك لا يؤمن « السرية المطلوبة » بينما يعتبر تيريبيركا « أكثر صلاحاً لبعده عن الخطوط الملاحية ، ولعدم وصول السفن الاجنبية اليه (٢) » .

وظلت المانيا وروسيا السوفياتية تتفاوضان طيلة خريف عام ١٩٣٩ وشتائه ، لزيادة الاتجار بينهما . ولم تحل نهاية كانون الاول حتى كانت شحنات الروس من المواد الاولية ولا سيما من الحنطة والزيت إلى المانيا قد بلغت حداً كبيراً ولكن الالمان ظلوا يطلبون المزيد . وبدأوا يتعلمون ايضاً ان الروس لا يقلون مهارة وصلابة في مساوماتهم الاقتصادية عن مهارتهم وصلابتهم في المفاوضات السياسية . واحتج المشير غورنغ وامير البحر الاكبر ربدر والفريق كايتـل في الاول من تشرين الثاني ، « فرادى الى وزارة الخارجية » طبقاً لما دوّنه وايز ساكر ، على مبالغة الروس في طلب المعدات الحربية من المانيا . وعاد كايتل إلى الاحتجاج ثانية إلى وايز ساكر ، بأن طلبات الروس من المنتجات الالمانية ولا سيما الآلات اللازمة لصناعة الذخيرة « أخذت تزداد شراهة وبعداً عن العقـل والمنطق

١ - وثائق وزارة الخارجية الالمانية (٨) ص ٣٩٤ .

٢ - وثائق وزارة الخارجية الالمانية (٨) ص ٢١٣ .

ثبيناً فشيناً (١) » .

ولكن لما كانت المانيا بحاجة إلى الغذاء والزيت من روسيا . فقد كان لزاماً عليها ان تدفع إلى موسكو السلع التي تحتاجها وتريدها . وكانت حاجة الرايخ « المحصور » الى هذه المواد الضرورية من روسيا كبيرة إلى الحد الذي حمل هتلر على ان يصدر في الثلاثين من آذار عام ١٩٤٠ ، وفي لحظة من أكثر اللحظات حراجة ، امره بأن تعطى الاولوية لتسليم المعدات الحربية إلى روسيا حتى بالنسبة الى ما تحتاجه القوات الالمانية المسلحة نفسها (٢) . ودفع الالمان في وقت من الاوقات الطراد الثقيل « لوبتزاو » الذي لم يكن قد تم بناؤه بعد ، كجزء من مدفوعاتهم الى موسكو . وكان امير البحر ريدر قد اقترح في الخامس عشر من كانون الاول ان يبيع الالمان الى موسكو ، تصميات البارجة « بسمارك » ذات حمولة (٤٥) الف طن والتي تعتبر أضخم بارجة في العالم ، وهي تحت البناء إذا دفع الروس « ثمناً غالياً جداً لها (٣) » .

واشترك ستالين شخصياً في نهاية عام ١٩٣٩ في المفاوضات التي تدور في موسكو مع الوفد التجاري الالماني . ووجد الاقتصاديون الالمان فيه مساوماً من الدرجة الاولى . وهناك في وثائق الويلهلمشتراسة المصادرة مذكرة طويلة مسهبة عن ثلاثة اجتماعات لا تنسى عقدها الوفد الالماني مع ستالين الذي بعث المهابة في نفوسهم ، والذي ادهشهم بما يعرفه من كثرة التفاصيل . وقد وجدوا ان ليس من السهل خداع ستالين أو « بلفه » ، وانه يواصل الالحاف والمطالبة بقسوة وشراسة ، حتى انه كان في بعض الاحايين ، على حد رواية الدكتور

---

١ – وثائق وزارة الخارجية الالمانية (٨) ص ٤٩٠ .

٢ – ابلغ غورنغ الفريق توماس (المستشار الاقتصادي للقيادة العامة للقوات المسلحة) بعد احتلال فرنسا والاراضي المنخفضة ان « الفوهرر يرغب في تسليم الروس ما يطلبونه في المواعيد المقررة حتى ربيع عام ١٩٤١ فقط » ثم مضى يقول ... « أما بعد ذلك التاريخ فلن تكون لنا مصلحة في ارضاء المطالب الروسية وتلبيتها » . (المؤامرة النازية والعدوان (٤) ص١٠٨٢).

٣ – وثائق وزارة الخارجية الالمانية (٨) ص ٥٣٧ .

شنوري ، أحد المفاوضين النازيين ، في تقريره الذي بعث به الى برلين ، « تأثراً الى حد كبير » . وراح ستالين يذكّر المفاوضين الألمان بأن الاتحاد السوفياتي « قدم خدمات عظمى لألمانيا ، واكتسب اعـداء له بسبب هذه الخدمات » . وهو يتوقع شيئاً من الاحترام من برلين مقابل هذه الخدمات .. وفي اجتماع عقد في الكرملين عشية رأس سنة ١٩٤٠ ..

« وصف ستالين الثمن الاجمالي للطائرات بأنه مسألة خارجة عن الموضوع تماماً . اذ ان هذا الثمن يمثل أضعاف الثمن الحقيقي . وهو يود ان تصارحه المانيا إذا كانت عزوفة عن تسليم هـذه الطائرات اليه » .

وفي جلسة عقدت عنـد منتصف ليلة الثامن مـن شباط في الكرملين... « طلب ستالين من الألمان ان يقترحوا أسعاراً معقولة ، وان لا يبالغوا في وصفها على النحو الذي وقـع سابقاً . وأورد على سبيل المثال ، ما طلبه الالمان من ثمن للطائرات بلغ ثلاثمائة مليون مارك . وما طلبوه ثمناً للطراد « لوتيزاو » بلغ حدود ١٥٠ مليونـاً من الماركات . وأضاف ان على الالمان ان لا يستغلوا طيبة الاتحاد السوفياتي وحسن نواياه (١) » .

وتم التوقيـع في موسكو أخيراً في الحادي عشر من شباط عـام ١٩٤٠ على اتفاق تجاري معقد ، ينص على تبادل السلع بين الدولتين في غضون الثمانية عشر شهراً التالية في حدود (٦٤٠) مليوناً من الماركات كحد أدنى . ويضاف هذا المبلغ ، إلى ما اتفق عليه في الاتفاق التجاري الذي عقـد في شهر آب الماضي والذي ينص على تبادل في السلع يبلغ (١٥٠) مليوناً من الماركات في العام تقريباً . ونص الاتفاق الجديد ايضاً على ان تحصل روسيا بالاضافة الى الطراد « لوتيزاو » وتصميات البارجة « بسمارك » ، على عدد من المدافع البحرية الثقيلة وغيرهـا من

---

١ - وثائق وزارة الخارجية الالمانية (٨) ص ٥٩١ و ٧٥٣ .

المعدات ، وعلى ثلاثين من احدث الطائرات الالمانية المحاربة بينها طائرات مقاتلة من طراز « مسرشميت ١٠٩ » و (١١٠) وطائرات « يونكرز ٨٨ » المنقضة . وتقرر ايضاً ان يتسلم الروس الآلات اصناعاتهم الكهربائية والنفطية، والقاطرات والمحركات الدوارة (توربينات) ، والمولدات، وقاطرات الديزل والبواخر وقطع الآلات ونماذج من مدافع الالمان ودباباتهم ومتفجراتهم ومعداتهم للحرب الكيمائية وما اشبه ذلك من آلات (١) .

وسجلت وثائق القيادة العليا للقوات المسلحة ما حصل عليه الالمان في السنة الاولى من الروس ، وتضمنت القائمة مليون طن من الحبوب ونصف مليون من القمح وتسعمائة الف طن من الزيت ومائة الف طن من القطن وخمسمائة الف طن من الفوسفات وكميات كبيرة من المواد الاولية المهمة الاخرى ، ونقل مليون طن من « حبوب الصويا » من منشوريا (٢) .

وأعد الدكتور شنوري الخبير الاقتصادي في وزارة الخارجية الالمانية والموجه للوفد التجاري في موسكو ، عند عودته الى برلين مذكرة مطوّلة ، ضمنها المكاسب التي حققها للرايخ في مفاوضاته . وقد جاء في هذه المذكرة ان ستالين بالاضافة إلى ما قدمه من مواد اولية تحتاجها المانيا أمس الحاجة عرض « مساعدة سخيّة » وهي ان تتولى روسيا دور « المشتري للمعادن والمواد الاولية بالنيابة عن المانيا في بلاد أخرى » ، وانهى مذكرته قائلاً :

« ويعني هذا الاتفاق ، فتح الباب على مصراعيه لنا باتجاه الشرق ... وليس ثمة من شك في انه سيضعف الحصار البريطاني المفروض علينا الى حد كبير (٣) » .

---

١ - نص الاتفاق التجاري المعقود في ١١ شباط عام ١٩٤٠ والارقام التي تحدد الشحنات المتبادلة في « وثائق وزارة الخارجية الالمانية (٨) ص ٧٦٢ - ٧٦٤ » .

٢ - المؤامرة النازية والعدوان (٤) ص ١٠٨١ - ١٠٨٢ .

٣ - مذكرة شنوري بتاريخ ٢٦ شباط عام ١٩٤٠ موجودة في « وثائق وزارة الخارجية الالمانية (٨) ص ٨١٤ - ٨١٨ » .

ولعل هذه المساعدة الاقتصادية كانت من أهم الاسباب التي حملت هتلر على ابتلاع ما أصاب كبرياءه من اذلال ، وعلى مساعدة روسيا في عدوانها على فنلندة ، وهو عدوان لم يلق قط تأييداً من الشعب الالماني ، وعلى قبول التهديد الموجه ضد المانيا وحدها دون غيرها ، من إقامة الجنود والطيارين الروس في القواعد الجديدة التي حصل عليها ستالين في دول البلطيق الثلاث . فلقد ساعده ستالين على التغلب على الحصار البريطاني ، وما زال يتيح له الفرصة - ولعل هذا هو المهم كل الاهمية - للقتال في جبهة واحدة ليس إلا ، ولتركيز قوته العسكرية الهائلة في الغرب ، ليوجه بها الضربة القاضية ، ضد فرنسا وبريطانيا ، ويجتاح بها بلجيكا وهولندة ، ليتمكن بعد ذلك كله من تنفيذ المخطط الذي وضعه ، والذي سبق له ان نقله إلى قادته العسكريين .

وكان في السابع عشر من تشرين الاول عام ١٩٣٩ ، وبعد انتهاء الحملة البولندية قد ذكر كايتل بأن الاراضي البولندية . .

« مهمة لنا من وجهة نظر عسكرية . كنقطة قفز أمامية ، ولحشد سوقي لقواتنا الحربية. ومن الواجب تحقيقاً لهذه الغاية الحفاظ على ما في بولندة من طرق حديدية وطرق برية ووسائل أخرى للمواصلات ، سليمة من كل أذى (١) » .

وأدرك هتلر مع اقتراب عام ١٩٣٩ الجليل الشأن من نهايته ، كما سبق له ان قال لقادته العسكريين في مذكرته بتاريخ التاسع من تشرين الاول ، انه لا يمكن الركون الى حياد السوفيات الى الابد . وأضاف ان الاوضاع قد تتبدل في غضون ثمانية أشهر أو سنة . وعاد يؤكد في خطابه الذي القاه على هؤلاء القادة في الثالث والعشرين من تشرين الثاني « ان ليس في وسعنا ان نقاوم روسيا الا عندما نتحرر من الغرب » . وظلت هذه الفكرة مسيطرة على عقله

---

١ - المؤامرة النازية والعدوان (٣) ص ٦٢٠ .

القلق امداً طويلاً .

واختفت السنة القدريـــة في ضباب التاريـــخ في جو غريب وعجيب . فعلى الرغم من وجود حرب عالميـــة ، لم يكن هناك قتال في البر ، ولم تكن القاذفات الضخمة تحمل في الجو الا منشورات دعائيـــة من اسوأ ما كتب من دعايات . واقتصرت الحرب الفعلية على البحر . اذ واصلت الغواصات الالمانيـة فرض جزيتها على البواخر البريطانية وحتى المحايدة في ميـــاه شمال الاطلسي القاسية والباردة .

وخرجت « غراف شبي » وهي احـــدى بوارج الجيب الالمانية الثلاث من مركز انتظارها الى جنوب الاطلسي وتمكنت في غضون ثلاثـة أشهر من اغراق تسع بواخر نقل بريطانية حمولتها خمسون الف طن وفي الرابـــع عشر من كانون الاول عام ١٩٣٩ ، وقبل ايام من أول عيـــد ميلاد يقضيه العالم في الحرب ، تكهربت جماهير الالمان من الانباء التي نشرت تحت عناوين لاهبة ، والتي اذيعت على شكل خاطف سريـع على موجـات الاثير ، تنقل اليها نبأ انتصار عظيم في البحر . فلقد قيل في البيانات ان البارجة الالمانية اشتبكت مـــع ثلاث طرادات بريطانية في اليوم السابق على بعد اربعمائة ميل من ميناء مونتفيديو في اميركا الجنوبية وعطلتها عن العمل . ولكن سرعان مـــا تحول المرح الى دهشة . فلقد اذاعت الصحف الالمانية بعد ثلاثة أيام فقط ان البارجة قـــد اغرقت نفسها عند مصب نهر لابلاتا على مقربـــة من عاصمة اورغواي . ترى أي نصر هـــذا ؟ واعلنت القيادة البحرية العليا في الواحد والعشرين من كانون الاول ان قائد « غراف شبي » القبطان هانز لانغـدورف قد «حذا حذو سفينته ، فمات منتحراً قائماً بواجبه كمحارب وبطل ، ومحققاً الآمال التي كان يعلقها عليه الفوهرر والشعب الالماني والاسطول » .

ولم يعرف الرأي العام الالماني قط ان « غراف شبي » قـــد اصيبت بأضرار بالغة من الطرادات الثلاثة التي قيل انها عطلتها ، والتي كانت تقل عن البارجـــة

في قوة مدافعها (١) ، وانها اضطرت الى اللجوء إلى مونتفيديو طلباً لإصلاحها ، وان حكومة اورغواي ، لم تسمح لها طبقاً للقانون الدولي الا بالبقاء مدة اثنتين وسبعين ساعة ، وهي مدة لا تكفي لاصلاحها وان القبطان « البطل » لانغسدورف ، آثر على المجازفة بمعركة أخرى يخوضها مع الوحدات البريطانية بالبارجة المعطلة ، ان يغرقها ، وانه بدلاً من ان يمضي معها الى اعماق البحار ، انتحر بعد يومين باطلاق النار على نفسه في غرفة في أحد فنادق بيونيس ايرس .
ولم يعرف الشعب الالماني أيضاً ، ان الفوهرر كما روى الفريق يودل في يوميته بتاريخ الثامن عشر من كانون الأول ، « غضب أشد الغضب لاغراق البارجة غراف شبي دون معركة » ، وبعث في طلب أمير البحر ريدر الذي تلقى منه اعنف التوبيخ (٢) .

واصدر هتلر في الثاني عشر من كانون الاول توجيهاً آخر ، « سرياً للغاية » أجل فيه الهجوم في الغرب ، وحدد ان أي قرار جديد لن يتخذ قبل السابع والعشرين من الشهر ، وان أقرب تاريخ للغزو ، سيكون في الاول من كانون الثاني عام ١٩٤٠ . ونصح تبعاً لذلك بمنع اجازات عيد الميلاد للعسكريين .
وأرى في يومياتي التي دونتها عن تلك الايام ، ان برلين احتفلت بعيد الميلاد في ذلك العام - وهو من أكثر اعيادها في العادة مرحاً وصخباً - بشكل كئيب قاتم ، ولم تقدم فيه الهدايا كالعادة ، وتميز الغذاء الذي قدم فيه بالتقتير والشح ، بينما كان معظم الرجال غائبين عن بيوتهم والشوارع يسودها الظلام ، ونوافذ الدور معتمة اسدلت عليها سحب وستائر ثقيلة ، وكل من في العاصمة يتمتم متذمراً من الحرب وأوضاع الغذاء وشدة البرد القارص .

---

١ - اوعز غوبلز في اليوم الذي سبق غرق البارجة الى الصحف الالمانية بنشر برقية مزورة صادرة عن مونتفيديو تقول ان « غراف شبي » لم تصب الا « بأضرار طفيفة ، وان الأنباء البريطانية عن اصابتها بأضرار تشلها عن الحركة ليست الا اكاذيب صارخة .

٢ - مؤتمرات هتلر في الشؤون البحرية (١٩٣٩ . ص ٦٢) - نص رسالة لانغسدورف المؤثرة وفي نفس المصدر المواد الاخرى المتعلقة بالمعركة وما وقع بعدها (٥٩ - ٦٢).

وتبودلت برقيات التهنئة بالعيد بين هتلر وستالين ، اذ ابرق هتلر قائـــلاً : « ابعث اليك بأحسن التمنيات لسعادة شخصك الكريم ، ولرخاء شعوب الاتحاد السوفياتي الصديقة ومستقبلها الطيب »

ورد ستالين قائلاً ... « هناك كل مـا يبرر خلود الصداقة القائمة بين شعبي المانيا والاتحـــاد السوفياتي التي وثقتها المشاركة في الدم ، وان يحفظها على أسس راسخة » .

واغتنم السفير السابق فون هاسّيل في برلين فرصة العيد للتحدث الى رفاقه المتآمرين من أمثال بوبيتز وغوبردلر والفريق بيك ، ودوّن في يومياته بتاريخ الثلاثين من كانون الثاني الخطة الأخـــيرة التي توصل اليهـــا ... وكانت على النحو التالي :

« تقف عـــدد من الفرق الحربية في برلين ، وهي في طريـق نقلها من « الغرب إلى الشرق » . ويظهر ويتزليبين في برلين ويأمر بحل جيش الحرس النازي . ويمضي بيك على هـــذا الأساس الى زوسين حيث يتولى القيادة العامة من براوخيتش . ويقوم أحـــد الاطباء باعلان عجز هتلر عن البقاء في الحكم ، ويحمل بعد ذلك الى الاعتقال التحرزي . ويصدر نـــداء بعد ذلك الى الشعب يتضمن النقاط التالية : الحيلولة دون أية فظائع يقوم بهـا الحرس النازي ، اعادة الأخلاق المسيحية والشرف والنزاهة ، المضي في الحرب مـع الاستعداد لعقد الصلح على اسس معقولة ... » .

ولكن هذه الخطة لم تكن أكثر من مجرد سفسطة وكلام لا طائل تحته ، اذ انها كانت بعيدة عن الواقـــع . ويبدو ان « المتآمرين » كانوا على اختلاف في آرائهم حتى ان هاسّيل خصص جزءاً كبيراً من يومياته لدراسة ما إذا كان من الضروري الاحتفاظ بغورنغ أو الاطاحة به ايضاً .

واستغل غورنغ نفسه بالاضافة الى هتلر وهملر وغوبلز ولي وغيرهم من زعماء الحزب ، فرصة العـــام الجديد لاصدار بيانات تنطوي على العظمة والفخامة .

وقال لي في بيانه... « ان الفوهرر على حق دائماً ... فأطيعوه » . وقال الفوهرر نفسه ، انـــه لم يكن « هو الذي أشعل الحرب وانما أشعلها دعاتهـــا من اليهود والرأسماليين » ثم مضى يقول ...

« وها نحن نقف على عتبة هذا العالم الحاسم في التاريخ الالماني ونحن متحدون في بلادنا ، أقوياء في اقتصادنا ، ومسلّحون الى اقصى التسلح في جهازنا الحربي ... واننـــا لنأمل في ان تكون سنة ١٩٤٠ سنة القرار الحاسم . وستتميز مهما وقع فيها بالنصر الذي سنحققه » .

وكان هتلر في السابع والعشرين من كانون الاول قد عاد الى تأجيل الهجوم في الغرب مدة « اسبوعين على الاقل » . وحدد في العاشر من كانون الثاني موعـد الهجوم بصورة حاسمة في الساعة الثامنة والدقيقة السادسة عشرة من صباح السابـع عشر من كانون الثاني أي « قبيل شروق الشمس بربع ساعة » . وأمر بأن يشرع السلاح الجوي في هجومه في الرابـع عشر من كانون الثاني ، أي قبيل الموعـــد المحدد بثلاثة أيام ، جاعلاً مهمته تدمـــير مطارات العدو في فرنسا دون المساس ببلجيكا وهولندة. وحزم أمره على ان يترك الدولتين المحايدتين الصغيرتين في حيرة من مصيرهما حتى اللحظة الأخيرة .

ولكن سيد الحرب النازي عاد فجأة الى تأجيل الهجوم ثانية في الثالث عشر من كانون الثاني « بسبب الأوضاع الجوية » . وظل ملف القيادة العليا للقوات المسلحة عن يوم الغزو في الغرب صامتاً حتى السابـع من أيار . ومن المحتمل ان يكون الطقس قـد لعب دوراً في تأجيل الهجوم في الثالث عشر من كانون الثاني . ولكننا نعرف الآن ان هناك حادثتين آخرين كانا مسؤولين عن هذا التأجيل الى حد كبير وأولها هبوط طائرة عسكرية المانية بصورة اضطرارية في بلجيـكا في العاشر من كانون الثاني ، وثانيهما ظهور فرصة جديدة الآن في الشمال .

ففي العاشر من كانون الثاني وهو اليوم الذي أمر فيه هتلر بأن يبدأ الهجوم في

السابع عشر عبر بلجيكا وهولندة ، اضطرت طائرة حربية المانية كانت تطير من مونيستر الى كولون الى الهبوط في بلجيكا بعد ان ضلت طريقها بسبب السحب الكثيفة وذلك على مقربة من بلدة ميشيلان الواقعة على نهر الموز . وكانت هذه الطائرة تقل الرائد هيلموت راينبرغر ، وهو من ضباط الأركان المهمين في قيادة السلاح الجوي الالماني ، وقد حمل في حقيبة يده الخطط الالمانية الكاملة للهجوم في الغرب معخرائطها التفسيرية اللازمة. وعندما بدأ الجنود البلجيكيون فيالاقتراب من الطائرات الهابطة، مضى الرائد الى اجمة قريبة وأشعلالنار بالحقيبة التي يحملها، ولفت عمله هذا اهتمام الجنود البلجيكيين ، فهرعوا الى النار يطفئونها ، وينقذون ما ظل فيها من محتويات . وعندما نقل راينبرغر الى مقر قيادة بلجيكية قريبة ، راح الضابط الالماني يقفز بحركة يائسة ويمسك بالاوراق التيكانت النار قد التهمت جزءاً منها ، التي كان الضابط البلجيكي قد وضعها على مكتبه ، ويقذف بها في موقد تشتعل فيه النيران ، ولكن الضابط البلجيكي تمكن من انقاذها بسرعة خارقة .

ونقل راينبرغر الى مقر قيادة سلاحه الجوي في برلين عن طريق السفارة الالمانية في بروكسل ، نجاحه في احراق الاوراق التي لم تبق منها الا اجزاء صغيرة في « حجم راحة اليد » . . لكن القلق سيطر على الدوائر العليا في برلين . وراح يودل ينقل الى هتلر آراءه فيما « يحتمل ان يكون العدو قد عرفه أو لم يعرفه » . ولكنه لم يكن في الواقع على ثقة مما يقول . وراح يدوّن في يوميته بتاريخ الثاني عشر من كانون الثاني بعد مقابلته للفوهرر . . . ما يلي . . اذا تمكن العدو من حيازة الملفات ، فان الوضع يغدو مفجعاً بل وقريباً من الكارثة » وبعث ريبنتروب في تلك الليلة برقية « عاجلة للغاية » الى السفارة الالمانية في بروكسل يطلب اليها فيها ان تبعث فوراً بتقرير عن اتلاف ما كان يحمله الرسول » . وتكشف يومية يودل في الثالث عشر من كانون الثاني ان غورنغ عقد اجتماعاً فيصباح ذلك اليوم مع ملحقه الجويفي بروكسل الذي طار الى برلين على جناح السرعة وان كبار قادة الطيران قد شهدوا هذا الاجتماع . ومضى

يودل يدون قائلاً : « كانت نتيجة الاجتماع ان المحفظة قــد احرقت بكل تأكيد » .

وتمضي يوميات يودل فتقول ان هذه النتيجة لم تكن اكثر من مجرد تخبيط أعشى في ظلمة الليل. ثم تذكر ان الامر قد صدر في الساعة الواحدة بعد الظهر الى الفريق هولدر هاتفياً « بوقف كل حركات عسكرية ».

ونقل السفير الألماني في بروكسل الى حكومته في نفس اليوم الثالث عشر ، من كانون الثاني انباء حركات عسكرية بلجيكية واسعة النطاق « نتيجة انبــاء مفزعة تلقتها هيئة اركان الحرب البلجيكية ». وبعث السفير في اليوم التالي برسالة عاجلة اخرى الى برلين يقول فيهـــا ان البلجيكيين قد أصدروا الأمر بتطبيق « الحالة د » التي تعتبر قبل الأخيرة في موضوع التعبئة العامة ، وانهم استدعوا طبقتين اخريين من القوات الاحتياطية . وهو يعتقد ان السبب الذي حدا بهم الى اتخاذ هذه الخطوات هو ما حملته اليهم «الأنباء من تحركات عسكرية المانية على الحدود البلجيكية والهولندية،وكذلك محتويات ما كان يحمله الرسول العسكري من بريد احترق بعضه وعثر على بعضه الآخر مع الضابط الماني الطيار».

ولم يحل مساء الخامس عشر من كانون الثاني حتى كانت الشكوك قد ساورت عقول كبار العسكريين المسؤولين في برلين ، في صحة رواية الرائد راينبرغر عن احراقه الوثائق التي تدين المانيا . ودون يودل بعد أن شهد اجتماعاً آخر حول الموضوع ... « يبدو ان هذه الوثائق قد احرقت في الظاهر ليس الا ». ولكن بول هنري — سباك وزير خارجية بلجيكا استدعى السفير الالماني في بروكسل ، وابلغه بصراحة ، كما روى السفير في البرقية التي بعث بها الى برلين بعـــد انتهاء المقابلة ..

« بأن الطائرة التي اضطرت الى الهبوط في العاشر من كانون الثاني قد وضعت في ايدي البلجيكيين وثيقة من اكثر الوثائق أهمية وخطورة ، اذ ضمت أدلة واضحة على وجود النية في الهجوم . ولم تكن هذه الوثيقة مجرد مخطط لعملية حربيــة ، وانما هي أمــر

بالهجوم ارفق بجميع التفاصيل المتعلقة به ولا ينقصه الا تحديد موعد الهجوم الذي كان لا بد وان يوضع في المكان المخصص له والذي ترك خالياً . »

ولم يتأكد الألمان قط ، مما اذا لم يكن سباك يخدعهم « ويبلفهم » بهذه الأقوال . وسلمت نسخ من هذه الأوراق الألمانية الى هيئتي اركان الحرب البريطانية والفرنسية . وكان الميل سائداً هاتين الهيئتين بأن الأوراق الألمانية كانت تستهدف « الخدعة » ليس الا . ويقول تشرشل انه اعترض بشدة على هذا التفسير ، وأعول لأن أحداً لم يهتم بتحذيره الخطير . وكل ما نعرفه الآن معرفة أكيدة ان هتلر قد أجل في الثالث عشر من كانون الثاني عندما عرف بما حدث، موعد الهجوم ، وانه عندما حان الوقت أخيراً لاتخاذ القرار النهائي في الربيع كانت الخطة السوقية كلها للعملية قد تغيرت تغيراً جوهرياً ( ) .

ولكن الهبوط الاضطراري في بلجيكا ورداءة الطقس لم يكونا العاملين الوحيدين في تأجيل الهجوم . فقد بدأت النضوج في برلين ابان ذلك خطط أخرى لهجوم الماني جريء على دولتين محايدتين اخريين في الشمال ، واحتلت الآن مكان الأولوية . وهكذا مع مجيء الربيع كانت الحرب « الزائفة » تقترب من نهايتها بالنسبة الى الألمان .

( ) اعتمدت في قصة الهبوط الاضطراري على بعض المصادر الألمانية الرئيسية . اما مصادر التقارير التي بعث بها السفير الألماني والملحق الجوي في بروكسل الى برلين فواردة في وثائق وزارة الخارجية الالمانية (٨) وفي يوميات يودل . ويظهر نص الخطة الألمانية للهجوم في الغرب على النحو الذي تمكن الألمان من تنفيذه في (المؤامرة النازية والعدوان (٨) ص ٢٣ : - ٢٨ ؛) وقد اورد كارل بارتز وصفاً للحادث في كتابه « لما احترقت السماء » . اما ملاحظات تشرشل عن الموضوع فترد في مذكراته ص ٥٥٦ - ٥٥٧ وهو يورد تاريخاً خاطئاً لموعد الهبوط الاضطراري .

٢٠

احتلال الدانمارك والنروج

استخدم الالمان عبارة « تمرين ويسر » الرمزية البريئة ، لتعني الخطة الاخيرة للعدوان الالماني . وكانت جذور هــذه الخطة وتطورهــا من النوع الفريد الذي لا يشبه بأي حال من الاحوال ذلك الطراز من الهجوم غــير المستفز الذي احتشدت بــه صفحات هذا الكتاب ولم تكن وليدة عقــل هتلر كما كانت الاخرى ، وانما كانت ثمرة تفكير امير بحر طموح وانسان نازي مبتذل دائم السكر مشوش الفكر . وكان هذا العمل ، هو العدوان العسكري الالماني الوحيد الذي لعب فيه الاسطول الالماني الدور الحاسم. وكان ايضاً الحركة الوحيدة التي وضعت القيادة العليا للقوات المسلحة خطتها وترتيبات التنسيق فيهــا بين الفروع الثلاثة للقوات المسلحة. وفي وسعنا القول بأن القيادة العليا للجيش وهيئة اركان حربه لم تستشارا في هذه الخطة بمجرد استشارة، مما اثار انزعاجهما وسخطهما، كما ان غورنغ لم يطلع عليها ويلعب دوره على مسرحها الا في اللحظة الاخيرة ، وهو تجاهل أحس الرئيس البدين للسلاح الجوي بشعور من المهانة تجاهه .

كانت عيون البحرية النازية تتطلع منذ أمد طويل نحو الشمال . فليس لالمانيا أي منفذ مباشر نحو المحيطات الواسعة ، وهي حقيقة جغرافية انطبعت في عقول ضباط البحرية الالمانيــة منذ أيام الحرب الكونية الاولى . فلقد أقــام

البريطانيون شبكة محكمة النطاق عبر بحر الشمال من جزر « شيتلانـــد » الى الساحل النروجي ، يعززهـــا سياج من الالغام ، ودوريات دائمة من البوارج الحربية . وقد حصرت هذه الشبكة الاسطول الامبراطوري الالماني القوي ، ومنعت الغواصات من النفاذ الى شمال الاطلسي ، وحالت بين السفن التجاريـة الالمانية وبين الوصول الى البحار الواسعة . وتمكن الحصار البحري البريطاني من خنق المانيا الامبراطورية في الحرب الاولى . وراح ضباط البحرية الالمان الذين يعدون على الاصابع في فترة بين الحربين ويتولون قيادة الاسطول المتواضع الحجم يفكرون بهذه التجربة التي مرت بها بلادهم وبتلك الحقيقة الجغرافية ويصلون الى النتيجة القائلة وهي ان على المانيا ان تحاول الحصول على قواعد بحرية في النروج في أية حرب مقبلة مع بريطانيا . وثبت لهم ان هذه القواعد تحطم خط الحصار البريطاني عبر بحر الشمال ، وتفتح المحيط واسعاً أمـــام سفن المانيا الحربيـــة وغواصاتها ، وتتيح الفرصة للرايـــخ ليقلب الاوضاع ويفرض بدوره حصاراً فعالاً على الجزر البريطانية .

وليس من الغريب والحالة هذه عندما نشبت حرب عام ١٩٣٩ ، اذا ما راح امير البحر رولف كارلز ، وهو الرجـــل الثالث بين قادة الاسطول الالماني ، وصاحب الشخصية القوية ، يمطر أمير البحر ريدر كما دون هـــذا في يومياته ، وكما شهد أمام محكمة نورمبرغ بالرسائل التي يقترح فيها « اهمية احتـــلال المانيا للساحل النروجي (١) » . ولم يكن ريدر بحاجة الى الكثير من الحث ، وراح في الثالث من تشرين الاول وبعد انتهاء الحملة على بولندة ، يبعث بسؤال « مكتوم » الى هيئة أركان حرب البحرية يطلب اليها فيها التثبت من « احتمال الحصول على قواعد في النروج ، في ظل الضغط المشترك لروسيا والمانيا » . واستشير ريبنتروب في هذا الموضوع وفي موقف موسكو فرد بأن في « الامكان الاعتماد على تأييد واسع من تلك الناحية » . وقال ريدر لأركان حربه ، بأن من الواجب اطلاع

---

١ - المؤامرة النازية والعدوان (٤) - ص ١٠٤ و (٦) ص ٨٩١ - ٨٩٢ .

هتلر على هذه « الاحتمالات » في اسرع وقت ممكن(١) .

وراح ريدر يقترح على الفوهرر في تقرير مطول بعث بـه اليه في العاشر من تشرين الاول عن سير العمليات البحرية ، أهمية الحصول على قواعـد بحرية في النروج بمساعدة روسيا اذا اقتضى الأمر . وتظهر الوثائق المصادرة ان هذه هي المرة الاولى التي لفتت البحرية الالمانية اهتمام هتلر الى هـذا الموضوع . ويقول ريدر ان الزعيم « ادرك على الفور اهمية المشكلة النروجية » . وطلب الى قائده البحري ، ان يترك له كل ما لديه من ملاحظات حول هذه القضية واعداً بايلائها ما تستحقه من درس وعناية . ولكن سيد الحرب النازي كان في غضون ذلك غارقاً في موضوع الهجوم على الغرب ، وفي التغلب على ما يبديه قادته العسكريون من تردد (٢) . ويبدو ان النروج قد بعدت عن تفكيره بعض الوقت (٣) .

ولكن هذه الفكرة مـا لبثت ان عادت الى عقل هتلر بعـد شهرين لأسباب ثلاثة .

كان أول هذه الاسباب حلول الشتاء . وكان وجود المانيا كلـه يعتمد على استيراد معدن الحديد من السويد . وكان الالمان يعتمدون لمخططهم للسنة الاولى من الحرب على أحد عشر مليونـاً من الاطنان من السويد من مجموع خمسة عشر مليوناً هي الاستهلاك الكلي لالمانيا في العام . وكان نقل هذه المادة التي لا غنى لالمانيا عنها يجري في أشهر الدفء من شمال السويد الى خليج بوثنيا ومن ثم عبر بحر البلطيق الى المانيا ، دون ان يسبب هذا النقل أية مشكلة حتى في أيام الحرب نظراً لتمكن الالمان من حماية هـذا البحر حماية فعالة من غواصات البريطانيين وسفنهم الحربية. ولكن هذا الطريق البحري يتوقف عن العمل في الشتاء بسبب

---

١ - المؤامرة النازية والعدوان (٦) ص ٩٢٨ و ٩٧٨ .

٢ - كان هتلر قد استدعى في العاشر من تشرين الاول قادته العسكريين وتلا على مسامعهم مذكرة مطولة عن ضرورة القيام بهجوم فوري في الغرب ، وسلمهم توجيهه السادس الذي يأمر باتخاذ الاستعدادات لشن الهجوم عبر هولندة وبلجيكا .

٣ - المؤامرة النازية والعدوان (٦) ص٨٩٢ ومؤتمرات هتلر في الشؤون البحرية (١٩٣٩) ص ٢٧ .

كثافة الثلج وتجمد البحر . وكان من الضروري ان ينقل الحديد في أشهر الشتاء بطريق السكة الحديدية الى ميناء نارفيك النروجي في الشمال ، وان تحمله البواخر على طول السواحل النروجية الى المانيا . وكان في وسع البواخر الالمانية الحاملة للحديد ان تبحر طيلة الطريق ضمن المياه النروجية الاقليمية وان تكون في مأمن من تدمير السفن البحرية والطائرات البريطانية .

وهكذا كانت للنروج المحايدة في بادىء الامر فائدتها لالمانيا على حد تعبير هتلر لقادته العسكريين ، اذ انها مكنتها من الحصول على شريان حياتها من الحديد دون تدخل بريطانيا .

وقد ادرك تشرشل وزير بحرية بريطانيا هذه الحقيقة منذ البداية ، وفي الاسابيع الاولى من الحرب ، وحاول اقناع الحكومة التي هو عضو فيها بالسماح له بزرع الالغام في مياه النروج الاقليمية لوقف نقل الحديد الى المانيا . ولكن تشمبرلين وهاليفاكس ترددا كثيراً في خرق حياد النروج ، وتقرر تأجيل النظر في اقتراح تشرشل مؤقتاً (١) .

وبدل هجوم روسيا على فنلندة في الثلاثين من تشرين الثاني عام ١٩٣٩ تبديلاً جذرياً في الدول الأسكندنافية اذ ضاعف من اهميتها السوقية (الاستراتيجية) بالنسبة الى الحلفاء الغربيين والى المانيا . وشرعت بريطانيا وفرنسا في تنظيم حملة مشتركة في اسكوتلندة لايفادها الى فنلندة لمساعدة أهلها البواسل الذين تحدوا جميع التكهنات فصمدوا بعناد واصرار في وجه هجمات الجيش الاحمر الساحقة . ولكن هذه الحملة لا تستطيع الوصول الى فنلندة الا عبر اراضي السويد والنروج وأدرك الالمان لفورهم ان قوات الحلفاء اذا ما سمح لها بالعبور من الجزء الشمالي للدولتين الأسكندينافيتين أو اذا ما قامت باحتلاله لهذه الغاية ، فانها ستبقى فيه قوات كافية بحجة المحافظة على طرق المواصلات لقطع طريق تموين المانيا

---

١ - مذكرات تشرشل الجزء الثاني - ص ٥٣١ - ٥٣٧ .

بالحديد السويدي(١) . يضاف الى هذا ان الدولتين الغربيتين ستطوقان جناح المانيا من الناحية الشمالية . ولم يتقاعس امير البحر ريدر عن تذكير الفوهرر بجميع هذه الاخطار .

ووجدت البحرية الالمانية الآن حليفاً ، مهماً لهـــا في النروج يعمل لتحقيق خططها ، في شخص الرائد فيدكون ابراهام لورتيز كويزلنغ الذي سرعان مـا بات اسمه مرادفاً لكلمة « الخائن » في كل لغة من اللغات .

ظهور فيدكون كويزلنغ

بدأ كويزلنغ حياته بداية شريفة . ولد في عام ١٨٨٧ من أسرة من الفلاحين وتخرج اولاً من الكلية العسكرية النروجية ، وعندما بلغ العشرين من عمره ، اوفد ملحقاً عسكرياً الى بيتروغراد . وانعمت عليه الحكومة البريطانية تقديراً للخدمات التي بذلها للعناية بالمصالح البريطانية بعد قطع العلاقات بـين بريطانيا والحكومة البلشفية بوسام الامبراطورية البريطانية من درجة قائد . وكان في هذه الآونة من الميالين الي بريطانيا والى البلاشفة في وقت واحـــد . وظل في روسيا السوفياتية بعض الوقت كمساعد لفريد تجوف نانسين المكتشف السوفياتي المشهور والعالم الانساني ، يعينه في اعمال الاغاثة للروس .

وقـد تأثر الضابط النروجي الشاب كل التأثر بنجاح الشيوعيين في روسيا ، حتى انه عندما عاد الى اوسلو عرض خدماتـــه على حزب العمال الذي كان في تلك الآونة عضواً في الدولية الشيوعية (الكومنترن) . واقترح تأليف « حرس احمر » ولكن حزب العمال ، شك فيه كثيراً وفي مشروعه ثم أبعده . وسرعان ما تحول الى جانب الآخر المتطرف . وقام بعد أن شغل منصب وزارة الدفاع

١ ـ كان هذا الافتراض صحيحاً كل الصحة . فقد عرف الآن ان مجلس الحلفاء الحربي الأعلى الذي اجتمع في باريس في الخامس من شباط عام ١٩٤٠ قرر ان تقوم القوات المشتركة الـتي سترسل كحملة الى فلندة باحتلال مناجم الحديد السويدي ، بعد نزولها في ميناء نارفيك النروجي الذي لا يبعد كثيراً عن هذه المناجم (راجع كتاب المؤلف... تحدي اسكندينافيا ص ١١٥ - ١١٦) . ويقول تشرشل في مذكراته انه تقرر عرضاً اثناء الاجتماع « السيطرة على مناجم الحديد في غوليفار » (مذكرات تشرشل الجزء الثاني صفحة ٥٦٠) .

الوطني مدة عامين بين عام ١٩٣١ و ١٩٣٣ ، بانشاء حزب « الاتحـاد الوطني » مقتبساً من النازية عقائدها وأساليبها ، بعد ان كانت قد وصلت الى الحكم في المانيا . ولكن لم يقدر للنازية أن تنجح في تربة النروج الديموقراطية الخصبة ولم يتمكن كويزلنغ حتى من النجاح في الانتخابات والوصول الى عضوية البرلمان . وهكذا استدار ناحية المانيا بعد ان هزمه شعبه عند صناديق الاقتراع .

واتصل في المانيـــا بالسكير الفرد روزنبرغ الفيلسوف الرسمي للحركة النازية وكان بين مهامه ، ادارة مكتب الحزب للشؤون الخارجية. وخيل لهذا الأحمق البلطيقي ، الذي كان من أقدم اعوان هتلر واخدانه انه يرى في هـذا الضابط النروجي امكانات ضخمة ، اذ كان من خيالات روزنبرغ المحبوبة ،اقامة امبراطورية « نوردية » ، يحرم منها اليهود وغيرهم من العناصر « غير النقية » ، وتتولى السيطرة على العالم تحت زعامة المانيا النازية . ولذا فقد ظل منذ عـام ١٩٣٣ على اتصال بكويزلنغ ، يشبعه بفلسفته غير المعقولة ودعايته .

وعندما كانت نذر الحرب تتجمع في سماء أوربا في حزيران عـــام ١٩٣٩ اغتنم كويزلنغ فرصة حضوره مؤتمراً للجمعية النوردية في لوبك ليطلب الى روزنبرغ ان يقدم اليه شيئاً آخر اكثر من الدعـــم العقائدي . وتقول تقارير روزنبرغ السرية التي ظهرت في نورمبرغ ، ان كويزلنغ حذر روزنبرغ من خطر سيطرة بريطانيا على النروج في حالة نشوب الحرب ، وبين له مـا تحصل عليه المانيا من مزايا في حالة احتلال المانيا لها ، وطلب مساعدة جوهرية لحزبـــه وصحافته . وراح روزنبرغ وقد عرف عنه ولعه بكتابة المذكرات ، يبعث بثلاث منها الى هتلر وغورنغ وريبنتروب ، ولكن يبدو ان « الكبار الثلاثة » قد تجاهلوهـا ، اذ لم يكن هناك في المانيا من يحمل « الفيلسوف الرسمي » على محمل الجد . وتمكن روزنبرغ على أي حـــال من اعداد العدة لتدريب خمسة وعشرين من رجال جيش العاصفة الذي أسسه روزنبرغ لمدة اسبوعين في المانيا في شهر آب .

ولم يقع أي اتصال فيغضون الأشهر الاولىمن الحرب بين أمير البحر ريدر ،

كما شهد في نورمبرغ فيما بعد ، وبين روزنبرغ ، الذي لم يكن يعرفه الا لماحاً ، كما لم يتصل بكويزلنغ الذي لم يكن قد سمع عنه شيئاً . ولكن مـا كاد الروس يهاجمون فنلندة ، حتى شرع ريـدر في تلقي التقارير من ملحقه البحري في اوسلو ، الرئيس ريشارد شرايبر ، عن توقع نزول الحلفاء في وقت قريب في النروج . وقد تحدث امير البحر عن هذه التقارير الى هتلر في الثامن من كانون الاول ، ونصحه بصراحة قائلاً : « من المهم ان نحتل النروج (١) » .

وبعث روزنبرغ بعد أمد قصير ، بمذكرة غير مؤرخة الى أمير البحر ريدر ، حول « زيارة عضو المجلس الخاص كويزلنغ » . وكان المتآمر النروجي قد وصل الى برلين ، ووجد روزنبرغ ان من الخير ان يعرف ريدر عنه شيئاً وان يعرف ماذا جاء يفعل . وقال ان لكويزلنغ عدداً من المؤيدين بين كبار ضباط الجيش النروجي ، واطلعه ، كدليل على ما يقول ، على رسالة أخيرة من العقيد كونراد سوندلو ، قائد منطقة نارفيك النروجي وصف فيها رئيس وزراء بلاده بالانسان (البليد) وأحد كبار وزرائه (بالعجوز الثمل) ، ومعربـاً عن استعداده (للمجازفـة بنفسه في سبيل البعث القومي) . ولكن العقيد سوندلو لم يغامر فيما بعد بنفسه للدفاع عن بلاده ضد العدوان .

ولقد ابلغ روزنبرغ ريدر بالفعل بأن كويزلنغ يضع خطة للقيام بانقلاب عسكري . ولا بد ان يكون هذا النبأ قد لقي آذاناً صاغية في برلين ، اذ أن مثل هذا الانقلاب لا بد وان يكون صورة مقتبسة من اتحاد النمسا (الانشلوس). وسيجري تدريب عدد من جنود العاصفة الكويزلنغيين بسرعة في المانيـا على ايدي (الاشتراكيين الوطنيين المدربين ، والكثيري الفعالية ، والخبيرين بمثل هذه العمليات) . وعندما يعود هؤلاء الطلاب الى النروج ، فيسحاولون السيطرة على بعض النقاط ذات الأهمية السوقية (الاستراتيجية) في اوسلو ...

« ويتحتم على الاسطول الالماني في الوقت نفسه معززاً بوحدات

---

١ - مؤتمرات هتلر في الشؤون البحرية ١٩٣٩ - ص ٥١ .

من الجيش الالماني الظهور في خليج يختار لهذه الغاية خارج ارسلو ، تلبية لنداء خاص من الحكومة النروجية الجديدة) .

انه عين الاسلوب الذي اتبع في ضم النمسا (الانشلوس) يعود الى الظهور من جديد ، مع قيام كويزلنغ بتمثيل الدور الذي مثله سايس انيكوارت ... وأضاف روزنبرغ قائلا ...

« ولا يساور الشك نفس كويزلنغ في ان مثل هذا الانقلاب... سيلقى تأييداً من فئات الجيش التي أقام الآن ارتباطات بهـــا ... وهو يعتقد ان الملك سيقبل ايضاً بمثل هذا الامر الواقع ...

» وتتفق تقديرات كويزلنغ عن عدد القوات الالمانية التي يحتاج اليها في هذه العملية مع التقديرات الالمانية نفسها (١) .

واجتمع امير البحر ريدر الى كويزلنغ في الحادي عشر من كانون الاول ، وقد رتب روزنبرغ هذه المقابلة عن طريق أحد رجال الأعمال النروجيين ويدعى فيلجام هاغيلين الذي كانت اعماله تتطلب بقاءه اغلب الوقت في المانيا ، والذي كان يتولى القيام بدور ضابط الارتباط لكويزلنغ فيها . وقـد تحدث هاغيلين وكويزلنغ الى ريدر في الكثير من الامور ودون ريدر مـا استمع اليه منهما في مذكرة احتفظ بها في الوثائق الالمانية السرية ..

قال كويزلنغ ... ان البريطانيين يعدون العدة لانزال قواتهم في ضواحي ستافانغر ومن المعقول ان تصبح كريستيا نساند قاعدة بريطانية محتملة . ويسيطر اليهودي المشهور كارل هامبرو ، رئيس مجلس الشيوخ النروجي والصديق الحمـــيم للوزير البريطاني هور بليشا على الحكومـــة النروجية الحاضرة ، وعلى برلمان البـــلاد وسياستها الخارجية ... وشرح كويزلنغ بالتفصيل الاخطار التي

---

١ – مذكرة روزنبرغ (المؤامرة النازية والعدوان (٦) ص ٨٨٥ – ٨٨٧ ومؤتمرات هتلر في الشؤون البحرية ١٩٣٩ ص ٥٣ – ٥٥) .

تتعرض لها المانيا من احتلال بريطانيا للنروج ...

واقترح كويزلنغ تحسباً من أية حركة بريطانية ان تضع تحت تصرف القيادة العامة للقوات المسلحة الالمانية ، القواعد النروجية اللازمة . وقد تم شراء الرجال الذين يحتلون مراكز مهمة في السكك الحديدية والبريد والمواصلات في جميع المناطق الساحلية لتحقيق الهدف » . وقد جاء هو وهاغلين الى برلين لاقامة « علاقات واضحة مع المانيا بالنسبة الى المستقبل ... ولهذا فهو يرغب في عقد اجتماعات للبحث في العمليات المشتركة ونقل القوات الى اوسلو وما شابه ذلك من مواضيع (١) .

وشهد ريدر في نورمبرغ فيما بعد انه تأثر بهذه الاقتراحات ، وقال لزائريه بأنه سيتحدث الى الفوهرر . ثم يبلغهما بنتائج هذا الحديث . وقد اجتمع الى هتلر فعلاً في اليوم التالي ، وحضر المقابلة كايتل ويودل ايضاً . وقد ابلغ القائد العام للأسطول الذي عثر على تقريره عن هذا الاجتماع بين الوثائق المصادرة ، هتلر ، بأن كويزلنغ قد ترك في نفسه « انطباعاً يوحي بالثقة » . وراح بعد ذلك يلخص للفوهرر النقاط التي ذكرها النروجي مؤكداً علاقات كويزلنغ الطيبة مع ضباط الجيش النروجي « واستعداده للاستيلاء على الحكومة عن طريق انقلاب سياسي يقوم بعده بطلب العون من المانيا » . واتفق جميع الحاضرين على انه ليس في وسع المانيا مقاومة قيام البريطانيين باحتلال النروج ، ولكن سرعان ما تحول امير البحر ريدر الى الحذر والحيطة ، فأعلن ان « احتلال الالمان للنروج ، يستثير بريطانيا على القيام باجراءات مضادة » وأضاف ان « الاسطول الالماني ليس على استعداد بعد لمواجهة هذه الاجراءات مدة طويلة ، وان هذه الحقيقة يجب ان تحمل على انها نقطة ضعف في حالة الاحتلال ، لا سيما وان المنطقة نفسها تصبح معرضة لأي هجوم » . واقترح أمير البحر من الناحية الاخرى ان تقوم القيادة العامة للقوات المسلحة ...

---

١ - مؤتمرات هتلر في الشؤون البحرية (١٩٣٩) ص ٥٥ - ٥٧ .

« باعداد الخطط اللازمة مع كويزلنغ وتنفيذ الاحتلال باحدى طريقتين ...

« أ – الوسائل السلمية أي أن تتولى النروج دعوة القوات الالمانية المسلحة .

« ب – القوة والعنف » .

ولم يكن هتلر على استعداد بعد للمضي بعيداً الى هذا الحد في الوقت الحاضر ورد بأنه يود ان يتحدث الى كويزلنغ شخصياً قبل كل شيء « ليتمكن من تكوين فكرة عن الرجل [١] » .

وفعلاً اجتمع هتلر في اليوم التالي أي الرابع عشر من كانون الثاني الى كويزلنغ ، وقد تولى ريدر شخصياً مصاحبة الخائنين النروجيين الى دار المستشارية . وعلى الرغم من عدم عثورنا على أي سجل لهذا الاجتماع الا ان كويزلنغ قد أثر كما يبدو على الديكتاتور الالماني [٢] كما اثر سابقاً على قائد الاسطول ، اذ ان هتلر أمر في نفس الليلة القيادة العامة للقوات المسلحة ، باعداد مشروع خطة بالتشاور مع كويزلنغ . وقد سمع هولدر بأن هذه الخطة ستشمل ايضاً القيام بعمل عسكري ضد الدانمارك [٣] .

وعاد هتلر الى الاجتماع بكويزلنغ مرتين في السادس عشر والثامن عشر من كانون الاول على الرغم من انهماكه في الانباء السيئة التي توالت عليه من « غراف شبي » . ولا ريب في ان النكسة البحرية التي مني بها ، قد ضاعفت من

---

١ – مؤتمرات هتلر في الشؤون البحرية (١٩٣٩) ص ٥٧ – ٥٨ .

٢ – ولكنه لم يؤثر ابداً على الوزير الالماني المفوض في اوسلو ، الدكتور كورت بريفر ، اذ انه حذر برلين مرتين في شهر كانون الاول من « حمل كويزلنغ على محمل الجد ، ذلك لان نفوذه وآماله ليسا كبيرين » (وثائق وزارة الخارجية الالمانية (٨) ص ٥١٥ وص ٥٤٦ و ٥:٧) . وقد كلف هذا الموقف من الصراحة والرغبة في عدم تحقيق مشيئة هتلر ، الوزير ثمناً باهظاً في وقت قريب

٣ – يوميات يودل بتاريخ ١٢ و ١٣ و ١٤ كانون الاول عام ١٩٣٩ .

اهتمامه بموضوع الحملة الاسكندينافية ، التي يتوقف كل شيء فيها على الاسطول .
وروى روزنبرغ ان الفوهرر قد اكد لزائره بأن « الحياد التام هو خير موقف يمكن للنروج ان تقفه » لكن اذا كان البريطانيون يستعدون حقاً لاحتلال النروج ، فان على المانيا ان تسبقهم الى ذلك . وأضاف انه سيزود كويزلنغ في غضون ذلك بالأموال اللازمة لمكافحة الدعاية البريطانية ، ودعم حركته الموالية لالمانيا . وتقرر تخصيص مبلغ مائتي ألف مارك ذهبي لهذه الغاية في شهر كانون الثاني المقبل مع الوعد بأن يدفع له في كل شهر مبلغ عشرة آلاف جنيه استرليني لمدة ثلاثة أشهر اعتباراً من الخامس عشر من آذار (١) » .

وأوفد روزنبرغ قبل عيد الميلاد عميلاً خاصاً الى النروج يدعى هانز ويلهلم شايدت ، للعمل مع كويزلنغ ، وشرع عدد من ضباط القيادة العليا للقوات المسلحة في غضون ذلك في اعداد الخطة التي اطلق عليها اسم « دراسة الشمال » .
وانقسمت الآراء في الاسطول الالماني ، اذ كان ريدر مقتنعاً كل الاقتناع من ان بريطانيا تعتزم احتلال النروج في المستقبل القريب . لكن قسم العمليات في هيئة اركان حرب البحرية كان يخالفه رأيه هذا ، وقد اوضح هذا الخلاف في اليوميات الحربية السرية بتاريخ الثالث عشر من كانون الثاني عام ١٩٤٠ ، على النحو التالي (٢) :

« لا يعتقد قسم العمليات البحرية باحتمال وقوع احتلال بريطاني سريع للنروج . وهو يعتبر ان قيام المانيا باحتلال النروج اذا لم يكن هناك خطر عمل بريطاني مشروع خطر كل الخطورة » .

وتوصل اركان حرب الاسطول الى النتيجة القائلة بأن « بقاء الوضع الراهن هو حتماً السبيل الامثل » ، وأكدوا ان هذا الاستمرار سيسمح بدوام استخدام المياه الاقليمية النروجية في حركة نقل الحديد الى المانيا « بسلام وأمان » .

---

١ - مذكرة روزنبرغ (المؤامرة النازية والعدوان (٣) ص ٢ - ٢٥) .
٢ - وثائق وزراة الخارجية الالمانية (٨) ص ٦٦٣ - ٦٦٦ .

ولم يرض هتلر عن تردد البحرية ولا عن النتائج التي توصلت اليها « دراسة الشمال » والتي قدمتها اليه القيادة العامة للقوات المسلحة في منتصف كانون الثاني. وأوعز الى كايتل في السابع والعشرين من كانون الثاني باصدار توجيه سري للغاية يقول ان العمل في موضوع « دراسة الشمال » سيستمر تحت اشراف « الفوهرر الشخصي ومراقبته الفورية » ، وان الاوامر قد صدرت الى كايتل بأن يتولى كافة الاعدادات اللازمة . وقرر الفوهرر ايضاً قيام لجنة صغيرة عاملة من اركان الحرب ، تضم ممثلا واحداً عن كل من الفروع الثلاثة للقوات المسلحة ، وذلك في مقر القيادة العامة ، وان يطلق على هذه العملية منذ هذه اللحظة اسم « تمرين ويسّر » الرمزي [1] .

ويبدو ان هذه الخطوة قد رمزت الى انتهاء أي تردد عند الفوهرر في موضوع احتلال النروج . ولا ريب في ان الحادث الذي وقع في المياه النروجية بتاريخ السابع عشر من شباط ، قد وضع حداً لأية شكوك يمكن ان تكون قد ساورته حتى تلك اللحظة .

كانت باخرة التموين الاضافية « التمارك » التي عملت مع البارجة « غراف شبي » قد تمكنت من التسلل عبر النطاق البحري البريطاني ، واكتشفتها طائرة استكشاف بريطانية في الرابع عشر من شباط وهي تمضي مسرعة نحو الجنوب باتجاه المانيا عبر مياه النروج الاقليمية . وكانت الحكومة البريطانية تعرف ان هذه الباخرة تحمل على ظهرها ثلاثمائة من البحارة البريطانيين الاسرى من البواخر البريطانية التي اغرقتها « غراف شبي » ، وهم ينقلون الآن الى المانيا ليحتجزوا في معتقلاتها . وكان الضباط البحريون النروجيون قد قاموا بعملية تفتيش سطحي على ظهر الباخرة ، فلم يجدوا فيها اسرى بريطانيين ، كما قرروا انها غير مسلحة ولذا فقد سمحوا لها بالمضي نحو المانيا . ولكن تشرشل الذي كان واثقاً من النقيض ، اصدر اوامره الشخصية الى عمارة من المدمرات البريطانية بالمضي

1 – المؤامرة النازية والعدوان (٦) ص ٨٨٣ .

الى المياه النروجية ، وطلب ان يصعد بعض رجالها على الباخرة الالمانية لتحرير الاسرى البريطانيين منها .

وتولت المدمرة البريطانية « قوزاق » التي يقودها القبطان فيليب فيان هـذه المهمة ، ليلة السادس عشر – السابع عشر من شباط فيخليج جوسينغ النروجي ، حيث كانت الباخرة التمارك قد لجأت ناشدة الامان وبعد معركة قتل فيها أربعة من الالمـان وجرح خمسة آخرون تمكن الفريق البريطاني الذي صعد الى ظهر الباخرة التمارك من تحرير (٢٩٩) بحاراً بريطانياً كانوا محتجزين في عنابر الباخرة وفي « قسطل » خال من قساطل الزيت ، لمنع النروجيين من رؤيتهم .

وقدمت الحكومة النروجية احتجاجاً عنيفاً الى بريطانيا على هـذا الخرق لحرمة مياههـا الاقليمية ، ورد تشمبرلين في مجلس العموم بأن النروج هي التي خرقت حرمة القانون الدولي بسماحها للألمان بنقل الاسرى البريطانيين عـبر مياهها الاقليمية الى معسكرات الاسرى في المانيا .

وكان هذا الحادث « القشة » الاخيرة التي تمسك بها هتلر . وقد اقنعه بأن النروجيين لن يعترضوا اعتراضاً جدياً على أي عرض بريطاني للقوة في مياههـم الاقليمية . وقد اشتدت ثورته ايضاً كما دوّن يودل في يومياته ، لان بحارة غراف شبي الذين كانوا يستقلون الباخرة التمارك لم يبدوا مقاومة اعنف للبريطانيين ... اذ لم يكن ثمة مقاومة أو خسائر بريطانية ، وتحسر يوميات يودل في التاسع غشر من شباط النقاب عن ان الفوهرر « ضغط بشدة » لاستكمال الخطط اللازمـة « لتموين ويسر » وراح يقول ليودل ... « جهزوا البواخر ، واعدوا مختلف القطعات » . ولكن هذه العمليات كانت لا تزال مفتقرة الى القائد الذي يتولى قيادة المغامرة ، وراح يودل يذكر هتلر بأن الوقت قد حان لتعيين قائد برتبة فريق مع هيئة اركان حربه لهذه الغاية .

واقترح كايتل ضابطاً كان قد اشترك في القتال في فنلندة في نهايـة الحرب الكونية الاولى ، في فرقة الفريق فون دي غولتز ، ويدعى الفريق نيكولاوس فون فاكلنهورست . وكان يتولى في هذه الآونة قيادة فيلق الماني في الجبهـة

الغربية . وسرعان ما راح هتلر الذي كان قد اهمل هذه المسئلة الصغيرة ، يدعو هذا القائد لمقابلته . وعلى الرغم من ان هذا القائد يمت الى اسرة عسكرية سيليزية عريقة تدعى « جاستر زيمبسكي » وكان هو قد استبدل اسمها بالاسم الالماني « فاكلنهورست » الذي يعني « عش النسر » ، الا ان هتلر ، لم يكن قد عرفه معرفة شخصية من قبل .

وقد روى فاكلنهورست فيما بعد لمحكمة نورمبرغ ، اثناء استجوابه ، كيف وقع اجتماعه الاول مع هتلر في دار المستشارية في صباح الواحد والعشرين من شباط . وتضمنت روايته بعض النواحي الطريفة . ولم يكن القائد قد سمع قط بعملية الشمال ، وكانت هذه هي المقابلة الاولى لسيد الحرب النازي ، الذي لم يبعث الرهبة كما يبدو في فؤاد الفريق كما كان يفعل مع غيره من القادة العسكريين... قال فاكلنهورست ..

« طلب الي هتلر ان اجلس . ورحت اروي له دقائق العمليات في فنلندة عام ١٩١٨ ... وقال الفوهرر ... « اجلس وابلغني كيف سارت تلك العمليات » ، ونفذت بالطبع رغبته ...

« وسرعان ما نهضنا من مقاعدنا ، وقادني الى منضدة كانت الخرائط تغطيها . ثم قال ... « تلقت حكومة الرايخ معلومات تؤكد اعتزام البريطانيين النزول في اراضي النروج » .

وقال فاكلنهورست في رسالته ، انه حمل انطباعاً من مقابلته لهتلر بأن حادث الباخرة التمارك هو الذي اثر على الزعيم اكثر من غيره واستفزه « على تنفيذ الخطة الآن » ، وسرعان ما دهش الفريق من انه وجد نفسه في تلك اللحظة وفي ذلك الاجتماع قد عين قائداً عاماً . وأضاف هتلر ان الجيش سيضع خمس فوق تحت تصرفه . وتتلخص الخطة في وجوب احتلال الموانىء النروجية الرئيسية .

وصرف الفوهرر فاكلنهورست من حضرته عند الظهر ، وطلب اليه ان يعود الى الاجتماع به في الساعة الخامسة مساء ، على ان يحمل معه جميع الخطط

لاحتلال النروج ... وذكر فالكنهورست في شهادته في نورمبرغ :

«... وخرجت لأبتاع دليلاً للسائحين لأعرف اولاً ما هي النروج وما هي اوضاعها ، اذ لم تكن لدي اية فكرة عنها ... وانتقلت بعد ذلك الى غرفتي في الفندق ، واخـــذت ادرس هذا الدليل ، وعندما حلت الساعة الخامسة مساء ، كنت اعود من جديد لمقابلة الفوهرر »[1].

وكانت الخطط التي وضعها الفريق على ضوء دراسته للدليل . اذ لم يطلعـــه احد قط على الخطط التي وضعتها القيادة العامة للقوات المسلحة ، مرتجلة وعلى شكل مخططات سريعة ، ولكنها نالت كما يبدو اعجاب هتلر . وقد نصت على تخصيص فرقة واحدة لكل من موانىء النروج الخمس وهي اوسلو وستافانغر وبيرغين وتروندهايم ونارفيك . وقال فالكنهورست فيما بعـــد « ... ولم يكن بوسعي أن أفعل أكثر من ذلك ، فهذه هي الموانىء الرئيسية في البلاد » . وبعد ان أقسم لهتلر على الكتمان والسرية ، صرفه هذا من حضرته بعد أن حثـــه على السرعة في العمل ، وراح يتخذ اهبته .

وظل براوخيتش وهولدر ، على جهل بكل مـا وقع ، اذ كانا منهمكين في اعداد الخطط للهجوم في الغرب ، الى أن جاء فالكنهورست لزيارة رئيس هيئة أركان حرب الجيش في السادس والعشرين من شباط ، ليطلب اليه بعض القوات ولا سيما من الوحدات الجبلية لتنفيذ عمليته . ولم يبد هولدر أية رغبة في التعاون ، بل كان على النقيض من ذلك ساخطاً ، وطلب المزيد من المعلومات عما كان يجري اعداده ، وعما يحتاجه هذا الاعداد من قوات وقال هولدر في يومياته .. « لم يجر تبادل أية كلمة في هـذا الصدد بين الفوهرر وبراوخيتش . ومن الواجب تسجيل هذه الحقيقة حرصاً على تاريخ الحرب » .

---

١ - استجواب فالكنهورست في نورمبرغ (المؤامرة النازية والعدوان الملحق (ب) ص ١٥٣٤ - ١٥٤٧) .

لكن هتلر الذي كان شديد الزراية بالقادة العسكريين من رجال العهد القديم ولا سيما برئيس أركان حربه ، ما كان ليتراجع أو يعود عن قراره . وصدق في التاسع والعشرين من شباط وهو شديد الحماس على خطط فالكنهورست . وأمر باعداد فرقتين جبليتين وأعلن أن تنفيذ الخطة يتطلب المزيد من القوات لأنه يرى الحاجة ماسة الى وجود « قوة كبيرة في كوبنهاغن » . وكان الفوهرر قد أضاف الدانمارك الى قائمة ضحاياه ، اذ أن السلاح الجوي كان يتطلع الى قواعد فيها لاستخدامها ضد بريطانيا .

وأصدر هتلر في اليوم الاول من آذار توجيهه الرسمي لتمرين ويسر وهذا نصه :

سري للغاية

سري جداً

« تطلب تطور الوضع في اسكندينافيا اتخاذ كافة الاعدادات لاحتلال الدانمارك والنروج . وستحول هذه العملية بين بريطانيا وبين التسلل الى اسكندينافيا والبلطيق . يضاف الى هذا انها ستضمن الحفاظ على القاعدة التي نستمد منها الحديد في السويد وتتيح لاسطولنا وقوتنا الجوية مجالاً أوسع للعمليات ضد بريطانيا .

« وبالنظر الى ما نتمتع به من سلطان سياسي وعسكري بالنسبة الى الدول الاسكندينافية ، فان القوة التي سنستخدمها في « تمرين ويسر » ستظل أصغر ما يمكن . وسنستعيض عن الضعف العددي بالأعمال الجريئة والتنفيذ المباغت .

« وسنبذل كل جهودنا لاضفاء صفة الاحتلال السلمي من ناحية المبدأ على العملية ، وأن يكون هدف هذا الاحتلال تأمين الحفاظ

عسكرياً على حياد الدول الاسكندينافية . وسنتقدم بطلبات مماثلة الى حكومات هذه الدول في بداية عمليات الاحتلال . وسيؤمن الاسطول والسلاح الجوي والتأكد اللازم لعرض هذه الاهداف إذا تطلب الأمر . واذا ما ظهرت مقاومة على الرغم من كل هذه المظاهر فسنلجأ الى الوسائل العسكرية لتحطيمها ... ومن الواجب ان يقع اجتياز الحدود الدانماركية والهبوط في النروج في وقت واحد ...

« ومن المهم جداً أن تفاجأ الدول الاسكندينافية والخصوم الغربيون بعملياتنا هذه ... ومن الواجب عدم اطلاع القوات على حقيقة أهدافنا إلا بعد أن تنزل هذه القوات الى البحر ... »[1]

وعم « السخط » القيادة العليا للجيش في ذلك المساء ، أي الاول من آذار – على حد تعبير يودل – بسبب ما طلبه هتلر من قوات لتنفيذ « عملية الشمال » وثار حنق « غورنغ » على كايتل ومضى الى هتلر يشكوه . وكان هذا الحنق ناجماً عن أن المشير البدين ظل جاهلاً للسر هذه المدة الطويلة ، كما غضب لوضع الطيران الجوي « اللوفتوان » تحت امرة فالكنهورست . وأحس هتلر بالخطر من وقوع خلاف خطير على « الاختصاصات » . فاستدعى قادة الفروع الثلاثة للقوات المسلحة الى اجتماع عقد في دار المستشارية في الخامس من آذار ، لتهدئة الاوضاع ، ولكنه وجد صعوبة في تذليل المشاكل ، على حد قول يودل في يومياته :

« وأطلق المشير سخيمة حقده ، لأنه لم يستشر بالعملية منذ البداية . وسيطر الرجل البدين على النقاش ، وحاول أن يقيم الدليل على أن جميع الاعدادات السابقة ، لا تصلح لشيء » .

---

١ – نص التوجيه (المؤامرة النازية والعدوان (٦) ص ١٠٠٣ – ١٠٠٥ ووثائق وزارة الخارجية الالمانية (٨) ص ٨٣١–٨٣٣) .

وهذا الفوهرر من ثائرته بمنحه بعض الامتيازات، ومضت الخطط في طريقها تغذ السير. وكان هولدر، كما ذكر في يومياته، قد حمل الانطباع منذ الواحد والعشرين من شباط بأن الهجوم على الدنمرك والنروج لن يبدأ الا بعد أن يكون الهجوم الكبير في الغرب قد شن ووصل «الى حد ما» وكان هتلر نفسه متردداً في تقرير العمليـــة التي يجب أن يشرع فيها أولاً، وأثار الموضوع مع يودل في السادس والعشرين من شباط. ونصح يودل بالابقاء على العمليتــين منفصلتين عن بعضها، ووافق هتلر على هذه النصيحة «اذا كان تنفيذها ممكناً».

وقرر في الثالث من آذار أن يسبق «تمرين ويسر» في توقيته «العمليـــة الصفراء»، وهو الاسم الرمزي الذي يطلق على الهجوم الكبــير في الغرب. وأعرب ليودل «بصراحة وبجزم عن ضرورة القيام بعمل حازم وقوي في النروج». وكان الجيش الفنلندي الباسل، نتيجة ما يواجهه من تفوق معاد وطاغ في الرجال والمدفعية، قد تعرض الى الكارثة من الهجوم الروسي الساحق، وكانت الانباء تترى عن أن الحملة الانكليزية — الفرنسية المشتركة تعتزم الحركة قريباً من قواعدها في اسكوتلندة باتجاه النروج، للزحف عبر مناطقها الشمالية وعبر أراضي السويد الى فنلندة لانقاذ جيشها ومساعدته [1]. ولا ريب في أن هـــذا الخطر، كان السبب الرئيسي في عجلة هتلر.

---

١ — ابلغ الفريق ايرونسايد، رئيس هيئة اركان حرب القوات البريطانية في السابع من آذار المشير الفنلندي مانرهايم، بأن حملة بريطانية فرنسية قوامها سبعة وخمسون الف جندي، باتت على استعداد للذهاب الى فنلندة لمساعدتها في حربها وأن الفرقة الاولى التي تعد خمسة عشر الف جندي تستطيع الوصول الى فنلندة في نهاية آذار اذا سمحت لها السويد والنروج بعبور أراضيها وكان مانرهايم قد عرف بأن حكومتي السويــد والنروج، رفضتـــا في الثاني من آذار، طلب فرنسا وبريطانيا منحهم الحق في مرور قواتها عبر أراضي الدولتــين المذكورتين. ولم يحل هذا دون تقريع الرئيس ديلادييه في الثامن من آذار للفنلنديين على عدم توجيه طلب رسمي لقوات الحلفاء بمساعدتهم، ودون الاشارة بأن قوات الحلفاء سترسل الى فنلنـــدة دون الاكتراث باحتجاجات السويد والنروج لكن الخديعة لا تجوز على مانرهايم، اذ نصح حكومته بأن تطلب الصلح، والجيش الفنلندي ما زال متماسكاً وغير مهزوم ووافق على ارسال وفد للصلح الى موسكو في=

وانتهت الحرب الروسية – الفنلندية فجأة في الثامن عشر من آذار بعد أن قبلت فنلندة شروط روسيا القاسية لعقد الصلح . وعلى الرغم من ترحيب برلين بصورة عامة بهذا التطور ، لأنه أنقذ المانيا من الظهور بمظهر المدافع البغيض عن عدوان الروس على الفنلنديين ، ولأنه وضع حداً مؤقتاً للزحف السوفياتي باتجاه البلطيق ، إلا أنه أربك هتلر من الناحية الاخرى ، بالنسبة الى مغامرته الاسكندينافية المقبلة . وذكر يودل في يومياته أن هذا الصلح قد زاد من صعوبة الحصول على « دافع » لاحتلال النروج والدانمرك . ودوّن في يوميته بتاريخ الثاني عشر من آذار أن « عقد الصلح بين فنلندة وروسيا ، قد حرم انكلترا كما حرمنا نحن من الدافع السياسي لاحتلال النروج » .

وجهد هتلر في الواقع في البحث عن مبرر ودوّن يودل الصادق في يوميته بتاريخ الثالث عشر من آذار أن الفوهرر كان لا يزال يجد في « البحث عن أي مبرر » . ودوّن في اليوم التالي ... « ان الفوهرر لم يكن قد اتخذ قراره بعد بصدد إيجاد المبرر « لتمرين ويسر » ومضى قائلا ... « ويبدو ان الفوهرر كان يشك فيما اذا كان من المهم أن يتستر وراء الحرب الوقائية (؟) في النروج » [1] .

وتردد هتلر بعض الوقت ، فقد ظهرت في غضون ذلك مشكلتان جديدتان ، أولاهما كيفية التصرف مع سمنر ويلز وكيل وزارة الخارجية الامريكية الذي كان قد وصل الى برلين في الاول من آذار ، موفداً من الرئيس روزفلت للبحث فيما اذا كان ثمة أي احتمال في انهاء الحرب قبل وقوع المجزرة في الغرب وثانيتهما

= الثامن من آذار . ويبدو ان القائد الفلندي العام كان يشك في ان الجيش الفرنسي الذي لا يبدي حماساً للحرب في بلاده سيبدي حماساً للحرب في فنلندة (راجع مذكرات المشير مانرهايم) .

وفي وسع الانسان ان يتخيل ما كان سيحدث من اضطراب بين المتحاربين لو ان الحملة البريطانية الفرنسية قد وصلت الى فنلندة واشتركت في الحرب ضد الروس ، اذ لم يمض اكثر من عام تقريباً حتى كانت المانيا قد باتت في حرب مع روسيا واصبح أعداء هذه الغربيون ، حلفاء لها في الشرق .

١ – يوميات يودل من ١٠ الى ١٤ آذار عام ١٩٤٠ .

طريقة تهدئة ايطاليا الحليفة التي أحست بالألم من اهمالها وتجاهلهـــا . ولم يكن هتلر قد كلف نفسه بعـــد عناء الرد على خطاب موسوليني المشحون بالتحدي والمؤرخ في الثالث من كانون الثاني ، وكانت العلاقات بين برلين وروما قد فترت فتوراً ملحوظاً واعتقد الالمان ان المهمة الحقيقية لسمنر ويلز ، من رحلتـــه الى اوروبا – وكان لهم بعض الحق في هذا الاعتقاد – هي محاولة اخراج ايطاليـــا من المحور المتصدع واقناعهـــا على اي حال بعدم الدخول في الحرب الى جانب المانيا في حالة استمرار الصراع . وكانت برلين قد تلقت سيلاً من النذر من روما تؤكد ان الوقت حان للقيام بعمل يضمن الحفـــاظ على الدوتشي المتبرم في صف المانيا .

اجتماع هتلر بسمنر ويلز وموسوليني

كان هتلر يجهل الولايات المتحدة وأوضاعها جهلاً فاضحاً يشاركه فيه كل من غورنغ وريبنتروب[1]. وعلى الرغم على ان سياستهم في هذه الآونة كانت تتجه

---

١ – بينت في فصول سابقـــة أمثلة على نظرة هتلر الغريبة وآرائه في امريكا ، ولكن تضم الوثائق الالمانية المصادرة ، وثيقة للخارجية الألمانية تلقي ضوءاً على حالة هتلر العقلية في هـــذه الآونة . فلقد دار في الثاني عشر من آذار حديث طويل بين هتلر وبين كولين روس « الخبير » الألماني في شؤون الولايات المتحدة ، وكان قد عاد مؤخراً من رحلة في امريكا ألقى فيها محاضرات عدة ، أسهم فيها بنشر ما تتضمنه الدعاية الالمانية من «عنونة» . وعندما ذكر روس لهتلر ان هناك « اتجاهاً استعمارياً » يسيطر على الولايات المتحدة ، سأله هذا (طبقاً لما دونه الدكتور شميدت من ملاحظات عن هذا الاجتماع) ، عما اذا « كان هذا الميل الاستعماري لم يقو من الرغبة في ضم كندا الى الولايات المتحدة ، خالقاً « موقفاً معادياً لانكلترا » .

وارى لزاماً علي ان اعترف بأن مستشاري هتلر في الشؤون الامريكية لم يكونوا عوناً له في تبصيره بالحقائق المتعلقة بموضوع امريكا . ففي هذه المقابلة التي جرت بين هتلر وروس ، افضى هذا بالردود التالية ، بالاضافة الى نقاط اخرى ، محاولا عن طريقها الاجابة على سؤال هتلر عن الاسباب التي تحمل الولايات المتحدة على الوقوف هذا الموقف المناوىء لألمانيا :

« . . تؤلف قوة اليهود الهائلة في امريكا ، عاملاً مساعداً في الكراهية التي يحملها

الى ابقاء امريكا خارج الحرب. إلا انهم كأسلافهم في برلين في حرب عام ١٩١٤، لم يكونوا ينظرون الى بلاد « اليانكي » (الولايات المتحدة) ، نظرة جدية أو يعتبرونها قوة عسكرية كبيرة . وكان الفريق فريدريك فون بويتيشر ، الملحق العسكري الالماني في سفارة واشنطن قد نصح القيادة العامة للقوات الالمانيـــة المسلحة في برلين في الاول من تشرين الاول عام ١٩٣٩ ، بأن لا تقلق مطلقاً من فكرة ارسال حملة امريكية الى اوروبا ، إذ أن هذا الاحتمال غير قائم مطلقاً . وراح في الأول من كانون الأول ، يبلغ رؤساءه العسكريين في برلين بأن التسلح الامريكي غير كاف للقيام « بأية سياسة حربية عدوانية » وأضاف أن هيئـــة أركان الحرب في واشنطن، ما زالت تحمل على النقيض من سياسة وزارة الخارجية الامريكية القائمة على كره المانيا وعدائها وفي سياسة روزفلت الاستفزازية القائمة على مغالاة في تقدير قوة امريكا العسكرية ، الكثير من التفهم لألمانيا وطريقـة سيرها بالحرب القائمة . وكان بويتيشر قد أكد في برقيته الاولى ان « لينـدبرغ والطيار المشهور ريكينبيكر » يدعوان الى الابقاء على امريكا خارج نطـــاق الحرب ، لكنه في برقيته الثانية بتاريخ الأول من كانون الأول، قد حذر القيادة الألمانية العليا من « ان الولايات المتحدة قد تدخل الحرب ، اذا كانت ترى ان

الامريكيون لألمانيا . فاليهود هم الذين يوجهون بذكاء خارق حقاً ، وببراعة في التنظيم ، النضال ضد كل ما هو ألماني واشتراكي وطني ... »

وتحدث كولين روس بعد ذلك عن روزفلت الذي يعتقـــد بأنه عدو لدود للفوهرر ، بسبب ما يحس به من حسد شخصي له ، وما يتطلع اليـــه من شهوة في السلطان...فقد وصل الى الحكم في الولايات المتحدة في نفس السنة التي جاء فيها هتلر الى الحكم،ووجد نفسه ملزماً بمراقبة هتلر وهو يحقق مشاريعه العظيمة بينما لم يستطع هو -أي روزفلت- أن يصل الى اهدافه.وهو يحمل كذلك بعض الآراء الديكتاتورية التي تشبه الى حد ما افكار الاشتراكية الوطنيـــة . ومع ذلك فان ادراكه بأن الفوهرر قد حقق اهدافه ، بينما لا يزال هو بعيداً عن تحقيق مراميه ، أضفى على طموحه السقيم في ان يمثل على مسرح التاريخ العالمي دور المنافس لهتلر . . »

وقد علق هتلر بعد خروج الهر كولين روس من حضرته ، بأن هذا الرجل مفرط في الذكاء ويحمل آراء طيبة كثيرة ووافرة . (وثائق وزارة الخارجية الالمانية (٨) ص ٩١٠-٩١٣).

النصف الغربي مهدد من المانيا » وذلك على الرغم من استهانته بالقوة العسكرية الامريكية[1] .

وحاول هانز تومسون القائم بالأعمال الالماني في واشنطن جهده ، ان ينقل بعض الحقائق عن موقف الولايات المتحدة الى وزير خارجيته الجاهل . وفي الثامن عشر من ايلول ، وكانت الحملة البولندية تقترب من نهايتها ، راح يحذر الويلهلمشتراسة ، من ان « عواطف الاغلبية الغالبة من الشعب الامريكي مع اعدائنا ، وان امريكا مقتنعة كل الاقتناع من جريمة المانيا في شن الحرب ».وأبرز في برقيته هذه النتائج السيئة التي قد تثيرها أية محاولة تقوم بها المانيا للتخريب في امريكا ، وطلب ان لا تقوم حكومته بأي عمل تخريبي « من أي نوع »[1] .

ويبدو ان برلين لم تكترث بطلبه هذا ، اكتراثاً جدياً إذ راح تومسون يبرق الى برلين في الخامس والعشرين من كانون الثاني عام ١٩٤٠ قائلاً :

«علمت ان امريكياً من أصل الماني يدعى فون هوسبرغر ، وان المانياً يقيم في نيويورك أيضاً ويدعى وولتر ، يضعان الخطط للقيام بأعمال تخريبية في مصانع الاسلحة الامريكية ، بايعاز من المخابرات الالمانية . ويعتقد ان فون هوسبرغر يحتفظ ببعض المتفجرات في منزله بنيويورك » .

وطلب تومسون من برلين ان تمتنع عن هذه الاعمال وقال :

« ليس ثمة من طريقة اكثر ضمانة في حمل امريكا على خوض الحرب ، من اللجوء ثانية الى طراز من العمل ، يشبه ذاك الذي دفع بامريكا الى صفوف اعدائنا في الحرب الكونية السابقة ، على الرغم من انه لم يؤثر قط على الصناعة الحربية في الولايات المتحدة » .

واضاف القائم بالاعمال ان الرجلين لا يصلحان كذلك بأي حال من الاحوال

---

١ – وثائق وزارة الخارجية الالمانية (٨) ص ١٧٩–١٨١ و ٤٧٠–٤٧١ .
٢ – وثائق وزارة الخارجية الالمانية (٨) ص ٨٩–٩١ .

للعمل كوكلاء للمخابرات الالمانية [1] .

ولم يكن التمثيل بين المانيا والولايات المتحدة منذ قيام روزفلت باستدعاء سفيره من برلين في تشرين الثاني عام ١٩٣٨ ، كاحتجاج على الاعمال التي ارتكبها النازيون بصورة رسمية ضد اليهود ، قد عاد الى وضعه الطبيعي ، بوجود سفير لكل منها في عاصمة الدولة الاخرى . وكانت التجارة بين البلدين قد هبطت الى حدود الصفر تقريباً بسبب المقاطعة الامريكية ، ثم ما لبثت المانيا ان انقطعت نهائياً نتيجة الحصار البريطاني على المانيا . وقرر مجلسا الشيوخ والنواب الامريكيان في الرابع من تشرين الثاني عام ١٩٣٩ ، رفع الحظر المفروض على السلاح ، فمهد هذا القرار السبيل امام الولايات المتحدة لتزويد الحليفتين الغربيتين بالأسلحة الامريكية . وعلى هذا الاساس من التدهور السريع في العلاقات بين البلدين وصل سمنر ويلز الى برلين في اليوم الأول من آذار عام ١٩٤٠ .

وكان هتلر قد أصدر في اليوم السابق ، اي التاسع والعشرين من شباط — اذ كانت السنة كبيسة — توجيهاً سرياً عن « المحادثات مع المستر سمنر ويلز »[2]. ودعا التوجيه الجانب الالماني الى « التحفظ » ونصح بان « يترك المجال امام

---

١ - رد وايز ساكر على هذه البرقية بأن كاناريس نفسه قد أكد بأن أياً من هذين الرجلين اللذين ذكرهما ومسون ، لم يكن من عملاء المخابرات الالمانية . ولكن المفهوم ان دوائر المخابرات في أي بلد من بلاد العالم لا تعترف بهوية من يعملون معها . وتحمر وثيقة اخرى في وزارة الخارجية الالمانية النقاب عن ان عميلاً آخر من عملاء المخابرات قد غادر بيونيس آيرس في الرابع والعشرين من كانون الثاني يحمل تعليمات للاتصال بفريتز فون هوسبرغر في نيويورك في نيوجرسي « ليتلقى منه تعليماته في مهمته الخاصة » . وأوفد عميل آخر من بيونيس أيرس ايضاً الى نيويورك في كانون الأول لجمع المعلومات عن مصانع الطائرات الامريكية وعن شحنات الاسلحة الامريكية الى الحلفاء. وروى تومسون نفسه في برقية بتاريخ العشرين من شباط، وصول البارون قسطنطين فون ميديل ، المواطن الاستوني من أصل الماني الى واشنطن وإعلامه السفارة الالمانية فيها بأنه موفد في مهمة « تخريبية » من المخابرات الالمانية .

٢ - نص توجيه هتلر (وثائق وزارة الخارجية الألمانية (٨) ص ٨١٧ - ٨١٩) .

المستر ويلز ليتولى هو معظم الحديث على قدر الامكان » . ووضع التوجيه بعد ذلك نقاطاً خمساً ،لارشاد كبار الموظفين الذين سيجتمعون الى المبعوث الامريكي. وكانت الحجة الالمانية الاساسية هي ان المانيا لم تكن هي التي قد اعلنت الحرب على بريطانيا وفرنسا ، وان هاتين الدولتين هما اللتان اعلنتا الحرب عليها ، وان الفوهرر قد عرض عليهما الصلح في تشرين الأول ولكنهما رفضتا عرضه ،وان المانيا قبلت التحدي ، كما تضمنت ان اهداف بريطانيا وفرنسا من الحرب « تحطيم الدولة الالمانية » ، وان المانيا والحالة هذه لا تجد مفراً من المضي في الحرب ومواصلتها . وتوصل هتلر في نهاية توجيهه الى ما يلي :

« من الواجب تجنب البحث في اية قضية سياسية محدودة كقضية الدولة البولندية المستقبلة بقدر الامكان . واذا اثار ويلز مثل هذه المواضيع ، فمن الواجب ابلاغه بأنني انا الذي اقرر وحدي في هذه القضايا . ومن البديهي ، انه يجب عدم الخوض مطلقاً في اي بحث يتعلق بالنمسا او محمية بوهيميا ومورافيا ...

«ويجب تجنب كل بيانات قد تفسر على ان المانيا مهتمة في الوقت الحاضر ببحث اية احتمالات للسلام . وانني لأطلب ان لا يترك أي مجال للشك عند سمنر ويلز بأن المانيا ستنهي هذه الحرب نهاية ظافرة».

وقد تمسك كل من ريبنتروب وغورنغ وهتلر نفسه ،بنص هذا التوجيه تمسكاً حرفياً عندما اجتمع كل منهم الى ويلز على انفراد في الاول والثاني والثالث من آذار . واذا ما حكمنا على الأمور من التقارير المسهبة التي وضعها الدكتور شميدت من وقائع هذه الاجتماعات والتي عثر عليها بين الوثائق المصادرة تبين لنا ان الدبلوماتي الامريكي وهو رجل كثير الشكوك من ناحيته ، ومعروف بالصمت ، قد كوّن لنفسه انطباعاً بانه ينزل في مستشفى للمجاذيب ، هذا اذا اعار كل ما سمعه شيئاً من اهتمامه فلقد آثر كل من النازيين الكبار الثلاثة ، اغراق ويلز ، بأعظم المغالطات التاريخية التي تقلب فيها الحقائق بشكل لا يكاد

يصدق ، كما تفقد ابسط الكلمات كل معنى لها [1] . وقد استقبل هتلر ، الذي اصدر توجيهــه في الأول من آذار « لتمرين ويسّر » ، المبعوث الامريكي في الثاني من الشهر نفسه ، واصر اثناء المقابلة على ان هـــدف الحلفاء من الحرب « الافناء والابادة » بينما لا تهدف المانيا الا الى السلام . وراح يلقي محاضرة على زائره تناول فيها كل ما فعله للحفاظ على السلام مع بريطانيا وفرنسا . ومضى تقرير شميدت يقول :

« وكان السفير البريطاني قد جلس قبيل اندلاع نـيران الحرب في نفس المقعد الذي جلس اليه سمنر ويلز الآن ، وكان الفوهرر قد قدم اليه اسخى ما صدر عنه من عروض حتى الآن » .

واضاف هتلر ان بريطانيا قد رفضت جميع العروض التي قدمها اليها ، وها هي الآن ماضية في طريقها تحاول تحطيم المانيا . ولهـــذا فهو يعتقد ان « من الواجب خوض الصراع حتى النهاية » ... وليس ثمة من حل آخر ، الا هذا الكفاح في سبيل الموت او الحياة ».

وليس من المستغرب ان يكون ويلز قد أسرّ لوايز ساكر ، كما ردد لغورنغ عند اجتماعه اليه في اليوم التالي ، انه لايرى مجالاً للبحث اذا كانت المانيا مصممة على ان تكسب نصراً عسكرياً في الغرب ، وانه لا يرى والحالة هذه اي طائل لرحلة الى اوروبا [1] .

---

١ – هتف غورنغ بسمنر قائلاً .. « استطيع ان اقسم امام الله والعالم ان المانيا لم تكن راغبة في الحرب مطلقاً ، وان هذه الحرب قد فرضت عليها فرضاً .. ولكن ما عسى ان يكون بوسع المانيا ان تفعله وهي ترى ان الآخرين يحاولون تحطيمها ? »

٢ – شهدت برلين في نفس الوقت وسيطاً امريكياً آخر ، يعمل بصفة لا رسمية لاحلال السلام وهو جيمس دي موني ، نائب رئيس شركة «جنرال موتورز» . فلقد كان هذا الرجل في برلين كما أذكر ، قبيل نشوب الحرب أو بعد نشوبها بقليل ، وكان يحاول كزميله الهــاوي السويدي الآخر ، داهليروس ، وان كان يقل عنه شأناً في اتصالاته على انقاذ السلام في العالم وقد استقبل هتلر في اليوم الذي تلا رحيل سمنر ويلز عن برلين، أي في الرابع من آذار عام ١٩٤٠، المستر موني الذي ابلغه كما روت الوثائق الالمانية الصادرة عن الاجتماع ، ان الرئيس روزفلت «اكثر=

وعلى الرغم من ان ويلز قــد اكد في محادثاتــه مع الالمان ، انه سينقل مــا يسمعه من ساسة اوروبا إبان رحلته هــذه الى الرئيس روزفلت ليس الا ، فانه وجد ان من الحكمة ان يتجنب « الكتمان » بعض التجنب ، وان ينقل الى هتلر وغورنــغ نبأ « الاجتماع الطويل والبنّاء والمفيد » الذي عقــده مع موسوليني وان يذكر لهما ان الدوتشي لا يزال «يرى احتمالاً ضخماً في الوصول الى سلام دائم وثابت في اوروبا » . وادرك الألمان ان الوقت قد حان لتصحيح هذه الآراء التي يحملها الديكتاتور الايطالي . اذا صح ما رواه لهم المبعوث الامريــكي فهم يريدون السلام ولكن بعد ان يحققوا نصراً المانياً ضخماً في الغرب .

وكان تأخر هتلر في الرد على رسالة موسوليني التي بعث بها اليه في الثالث من كانون الثاني . قد اثار القلق المتزايد في نفس الدوتشي . وواصــل السفير

= وداً وعطفاً على الالمان، مما هو سائد على التفكير في برلين» وان الرئيس على استعداد للقيام بدور « الملطف » للتقرب بين الدول المتحاربة . واكتفى هتلر بأن يكرر عــلى مسامعه ما سبق له ان قال للمستر ويلز قبل يومين .

وبعث تومسون في الحادي عشر من آذار بمذكرة سرية الى برلــين اعدها مخبر امريكي لم يذكرا اسمه ، يقول فيها ان موني ، « من مؤيدي المانيا عــلى أي حال » . ومن الثابت ان الألمان كانوا قد اجتذبوا هذا المدير في شركة « جنرال موتورز » . وتقول مذكرة تومسون ان موني قد ابلغ روزفلت على اساس حديث سبق له ان اجراه مع هتلر، بان الفوهرر «راغب في السلام وانه يريد ان يحول دون سفك الدماء في حملة الربيــع » . وقد اجتمع هانز ديكهوف، السفير الالماني المسحوب من واشنطن ، والذي كان يقتل ايامه في برلين ، الى موني فور مقابلته الاخيرة للفوهرر،ورفع تقريراً الى وزارة الخارجية الألمانية ذكر فيه ان رجل الأعمال الامريكي لا يعدو ان يكون « ثرثاراً » وانه ـ اي السفير « لايستطيع ان يــصدق ، ان حركة موني تنطوي على اية اهمية كبيرة ».« توجد وقائع اجتماعات سمنر ويلز مع هتلر وغورنغ وريبنتروب كما دونها شميدت في وثائق وزارة الخارجية الالمانية (٨). كما توجد مذكراة وايز ساكر عن احاديثه مع ويلز في نفس المصدر . وقد قابل المبعوث الامريكي ايضاً شاخت،الذي كان الفوهرر قد استدعاه رغم اقصائه ليوجهه في الخط الذي يجب ان يتبعه في حديثه مع ويلز.راجع ايضاً يوميات هاسيل . ص ١٢١ . وروى ويلز قصته عن احاديثه في برلين في كتابه « حان الوقت للقرار ». (راجع وثائق وزارة الخارجية الألمانية (٨) ص ٨٦٥ — ٨٦٦ لرؤية تقرير ديكهوف ايضاً).

اوليكو الاستعلام من ريبنتروب طيلة الشهر عن الموعد الذي يستطيع فيه ان يتوقع تسلم هذا الرد ، ملمحاً اليه ان علاقات ايطاليا بفرنسا وبريطانيا وتجارتها معهما على الأخص تسير في طريق التحسن .

وكان هذا الاتجار الذي اشتمل على قيام ايطاليا ببيع المواد الحربية الى الحليفتين الغربيتين ، قد اثار سخط الالمان ، الذين واصلوا باستمرار الاحتجاج الى رومة بأنها تساعد هاتين الدولتين مساعدة لا ضرورة لها . وظل السفير فون ماكنزن ينقل الى صديقه وايز ساكر « قلقه العميق » من الوضع ، وساورت المخاوف هذا - اي وايز ساكر - من ان يؤدي الاستمرار في تجاهل رسالة موسوليني التي لم يبعث الفوهرر برد عليها ، الى اتاحة المجال للدوتشي ليكون « حراً في عمله » ، وان يؤدي ايضاً الى ضياع ايطاليا بصورة نهائية من صف المانيا [1] .

ولكن هتلر ما لبث ان تلقى فرصة يتنفس فيها الصعداء . فقد اعلن البريطانيون في الأول من آذار انهم قرروا منع شحن الفحم الألماني من ميناء روتردام الهولندي بحراً الى ايطاليا . وكان هذا القرار ضربة قاصمة وشديدة للاقتصاد الايطالي ، مما اثار ثائرة الدوتشي ضد البريطانيين ، وحدد ميوله نحو الألمان الذين وعدوه بالعثور على الوسائل لنقل فحمهم بطريق السكة الحديدية الى ايطاليا . واغتنم هتلر فرصة هذا الوضع فبعث برسالة مطولة الى موسوليني في الثامن من آذار ، تولى ريبنتروب تسليمها شخصياً الى الدوتشي في رومة بعد يومين [2] وهذا ما جاء فيها ...

« لو قمت بسحب القوات الألمانية من اراضي حكومة بولندة العامة ، لما ادى ذلك الى تهدئة الاوضاع في بولندة ، وانما الى قيام فوضى مخيفة ، لاتتمكن الكنيسة فيها من أداء واجباتها في تقديم فروض الشكر لله ، وانما يتعرض فيها القسس الى قطع رقابهم ... »

---

١ - وثائق وزارة الخارجية الألمانية (٨) ص ٦٥٢ - ٦٥٦ ، و ٦٨٣ - ٦٨٤ .

٢ - نص رسالة هتلر الى موسوليني في الثامن من آذار عام ١٩٤٠ - وثائق وزارة الخارجية الألمانية (٨) ٨٧١ - ٨٨٠ .

ومضى هتلر يقول ... أما بالنسبة الى زيارة سمنر ويلز فانها لم تحقق شيئاً.
اما هو فما زال مصمماً على الهجوم في الغرب . وهو واثـــق من ان المعركة القادمـة لن تكون مجرد نزهة عسكرية ، وانما ستكون من اقسى المعارك في التاريخ الألماني ... انها معركة الحياة او الموت .

وهنا عرض هتلر اول اشارة منه الى موسوليني لدخول الحرب فقال :

« واني لواثق يادوتشي ، ان نتيجة هذه الحرب ستقرر ايضاً مستقبل ايطاليا ... وستواجه ذات يوم نفس الخصوم الذين يقاتلون المانيا اليوم... واني لأرى ايضاً بأن مصير بلدينا وشعبينا وثورتينا وعهدينا واحد ، ولا فصم فيه » .

« واود ان اؤكد لك اخيراً ، بأنني اعتقد رغم كل شيء ، بأن القدر سيرغمنا ان عاجلاً وان آجلاً في يوم ما على ان نقاتل جنباً الى جنب ، أي انـك لن تنجو ايضاً من هذا التقارع في السلام ، مهما كان الشكل الذي ستتطور فيه كل ناحيـــة من نواحي الاوضاع الراهنـة ، وسيكون مكانك الى جانبنا اكثر من اي يوم مضى ، كما سيكون مكاننا الى جانبك » .

واستفزت الرسالة غرور موسوليني فوراً فراح يؤكد لريبنتروب انه يتفق مع هتلر على ان مكانه الى جانب الفوهرر « في خط القتال » . ولم يضـع وزير الخارجية النازي فرصته في اغراء مضيفه فراح يقول ان الفوهرر « قـد غضب للاجراءات البريطانية الاخيرة الرامية الى منع نقل شحنات الفحم الألماني الى ايطاليا بطريق البحر » . وراح يسأله عن كمية الفحم التي تحتاجها ايطاليا ، فرد موسوليني بأنها تتراوح بين الخمسماية والسبعمائة طن في الشهر الواحـــد . وقال ريبنتروب بطلاقة لسان ان المانيا على استعداد الآن لتزويد ايطاليا بمليون طن في الشهر . وانها ستؤمن القسم الاكبر من العربات اللازمة لنقلها .

وعقد اجتماعان مطولان بين الرجلين ، شهدهما شيانو وذلك في الحادي عشر من آذار والثاني عشر منه . وتروي الملاحظات التي دوّنها الدكتور شميدت عن

الاجتماعين ان ريبنتروب كان في احسن حالاته [1]. وعلى الرغم من وجود عـــدد ضخم من المواضيع التي يتناولانها بالبحث راح يعرض بعض الوثائق الدبلوماتية البولندية المصادرة والتي تشمل برقيات واردة من العواصم الغربيـة عارضة « الجريمة المرعبة التي ارتكبتها الولايات المتحدة في اشعال الحرب» .

« واوضح وزير الخارجية ان هذه الوثائق قد اظهرت بصورة خاصة الدور الشرير الذي لعبه سفراء امريكا وهم بوليت في باريس وكنيدي في لندن ودريكسيل بيـــدل في وارشو . وهي توضح الاساليب التي تتبعها الزمرة اليهودية—البلوتو قراطية التي كان نفوذها يمتد عن طريق مورغان وروكفلر الى جميع الدوائر حتى يصل الى روزفلت نفسه » .

وظل وزير الخارجية النازي يهرف عدة ساعات ، عارضاً جهله المألوف بالشؤون العالمية ، ومؤكداً المصير المشترك للدولتين الفاشيتين ومؤكداً ان هتلر سيهجم في الغرب فوراً « ليهزم الجيش الفرنسي في غضون الصيف » ولنطرد البريطانيين من القارة قبـــل « حلول الخريف » . وظل موسوليني يصغي طيلة الوقت قاطعاً حديث ضيفه بين الآونة والأخرى بملاحظـة تنطوي على الهزء والسخرية ، دون ان يتمكن الوزير النازي من فهمها او تمييزها . فعندما اعلن ريبنتروب مثلاً بشيء من الزهو والاعتداد « بأن ستالين قـــد تخلى عن فكرة السيطرة العالمية » ، رد الدوتشي ، كما روى شميدت في ملاحظاته ، قائلاً : « اتصدق حقاً هذا القول ؟ » وعندما قال ريبنتروب « ان ليس ثمة من جندي الماني فرد ، لايعتقد بأن النصر سيكون حليف المانيا هـــذا العام » قاطعه موسوليني قائلاً : « حقاً انها ملاحظة مسلية » . ودوّن شيانو في يومياته تلـك

---

١ - ملاحظة شميدت عن الاجتماع (وثائق وزارة الخارجية الألمانية (٨) ص ٨٨٢-٨٩٣ و ص ٨٩٨-٩٠٩). اوراق شيانو الدبلوماتية ص ٣٣٩ - ٣٥٩ . شميدت - ترجمان هتلر ص ١٧٠-١٧١ ويوميات شيانو .

الليلة يقول :

« وعندما ظللت وحدي مع موسوليني بعد المقابلة ، قال انه لا يصدق بأن الألمان سيهاجمون ، كما لايصدق بأنهم سيحوزون نصراً كاملاً » .

وكان الدوتشي قد وعد بأن يفضي بآرائه في جلسة الغد ، وكان ريبنتروب قلقاً تنتابه الهواجس من طبيعة هذه الآراء ، فراح يبرق لهتلر قائلاًبأنه لم يستطع ان يتميز « أية اشارة توضح افكار الدوتشي » .

وقد اثبتت الحوادث ان قلقه كان بلا داع ، اذ كان موسوليني في اليوم التالي رجلاً مختلفاً كل الاختلاف . فقد تحول فجأة كما دوّن شميدت في يومياته « الى تأييد الحرب كل التأييد » . وراح يقول لزائره ، ان القضية لاتتعلق بما اذا كانت ايطاليا ستدخل الحرب الى جانب المانيا ، وانما تتعلق بموعد دخولها هذا. واضاف ان قضية التوقيت «دقيقة» للغاية . اذ انه لايشعر بضرورة التدخل قبل ان تستكمل استعداداته كلها . تحاشياً من ان يصبح عبئاً على شريكه » ومضت ملاحظات شميدت تقول :

« وهو يشعر على اي حال بضرورة الايضاح في هذا الوقت بكل صراحة ، بأن ايطاليا ليست في وضع مالي يمكنها من تحمل اعباء حرب طويلة ، فهو لايستطيع ان ينفق بليون ليرة ايطالية في كل يوم ، كما تفعل انكلترا وفرنسا مثلاً » .

ويبدو ان هذه الملاحظة قد فاجأت ريبنتروب بعض الوقت ، ولذاً فقد حاول ان يحمل الدوتشي على تحديد موعد لدخول ايطاليا الحرب . ولكن هذا كان احرص من ان يلزم نفسه بشيء ، وقال : « سيحين الوقت ، عندما تحدد ايطاليا علاقاتها بفرنسا وانكلترا أي عندما تقع القطيعة مع هاتين الدولتين » . واضاف ان من السهل عليه ان يستفز مثل هذه القطيعة وان كان يصر على عدم تحديد موعد قاطع لريبنتروب.وهو يرى ان من الواجب تدخل هتلر شخصياً في هذه القضية . ولذا فقد اقترح وزير الخارجية النازي عقد اجتماع في برينّر بين

الرجلين في النصف الثاني من شهر آذار أي بعد التاسع عشر منه ، ووافق موسوليني بارتياح على هذا الاقتراح ، ولم ينبس ريبنتروب ، طبعاً ببنت شفة عن خطط هتلر لاحتلال الدانيمارك والنروج . وكانت هناك بعض الأسرار التي لا يذكرها المرء لحليفه حتى ولو كان يضغط على هذا الحليف لحمله على الاشتراك معه في الحرب .

وعلى الرغم من اخفاق هتلر في حمل موسوليني على الموافقة على تحديد موعد دخوله الحرب ، إلا انه تمكن من غوايته الى الحد الذي حمله على التعهد بالاشتراك فيها.وراح شيانو ينتحب مدوّناً في يومياته.. « واذا كان يهدف الى تعزيز المحور فلا ريب في انه قد أفلح في تحقيق هدفه هذا » . وعندما عاد سمنر ويلز الى رومة في السادس عشر من آذار للاجتماع ثانية بموسوليني بعد أن طاف ببرلين وباريس ولندن ، وجد ان الديكتاتور الايطالي قد غدا رجلاً آخر ، ودوّن الدبلوماتي الأميركي فيما بعد قائلاً :

« يبدو انه قد فقد الكثير من وزنه . وكثيراً ما خيل إليّ أنه في غضون الأسبوعين اللذين انقضيا بعد زيارتي الأخيرة له في رومة ، قد حزم أمره على عبور نهر الروبيكون (اشارة الى قرار لا رجوع عنه) ، كما خيـل إلي ان ريبنتروب قد نجح إبان زيارته في ارغام ايطاليا على دخول الحرب » [1]

* * *

ولم يكن ويلز بحاجة الى الكثير من الخيالات والاستغراب .

إذ ما كاد ريبنتروب يغادر رومة في قطاره الخاص عائداً الى برلين ، حتى وجد الديكتاتور الايطالي الحزين نفسه فريسة أفكار أخرى . ودوّن شيانو في يومياته بتاريخ الثاني عشر من آذار يقول .. « انه يخشى بأن يكون قد مضى بعيداً في تعهده بالحرب ضد الحلفاء . وهو يود الآن أن يقنع هتلر بالعدول عن

---

١ - ويلز - حان الوقت للقرار ص ١٣٨ .

هجومه ، وهو يأمل في ان يحقق ذلك في الاجتماع الذي سيقع في ممر برينر » .
ولكن شيانو ، على الرغم من تفاهته ، كان يعرف أكثر من غيره . فقد أضاف في يومياته يقول : « وليس ثمة من ينكر بأن الدوتشي شديد الاعجاب بهتلر ، وهو إعجاب يمت الى اعمق الاعماق في تكوينه . وليس ثمة من ريب في أن الفوهرر سيحصل من الدوتشي على أكثر مما حصل عليه ريبنتروب منه » . وقد صدقت نبوءة شيانو مع بعض التحفظات ، كما سيظهر لنا عما قريب .

ولم يكد ريبنتروب يصل الى برلين حتى راح يهتف الى شيانو في الثالث عشر من آذار طالباً اليه تقديم موعد اجتماع برينر بين الديكتاتورين ، عن الموعد السابق ، وان يكون في الثامن عشر من آذار . وتفجّر موسوليني قائلاً : « ان الالمان لايطاقون . فهم لا يفسحون المجال للانسان للتنفس أو حتى للتفكير . ومع ذلك وافق على الموعد الجديد ودوّن شيانو في يومياته في ذلك اليوم يقول :

« كان الدوتشي عصبي المزاج اليوم. فلقد كان حتى هذه اللحظة يعيش في وهم امكان تجنب الحرب الحقيقية . وقد أخذت فكرة وقوع تصادم حقيقي قد يظل هو خارجه ، تؤرق عليه ليله ، بل انها تذله ، اذا آثرنا استعمال عباراته نفسها » [١]

وكان الثلج يتساقط ، عندما اقترب قطار الديكتاتورين في الساعات المبكرة من صباح الثامن عشر من آذار عام ١٩٤٠ من المحطة الصغيرة الواقعة على الحدود عند ممر برينر ، والتي تقبع في ظل جبال الألب السامقة التي تغطيها الثلوج . ودارت المقابلة كترضية لموسوليني في عربته الخاصة في القطار ، ولكن هتلر ، تولى دفة الحديث معظم الوقت . وقد لخص شيانو مؤتمر ذلك اليوم في يوميته التي دوّنها في المساء فقال :

« كان المؤتمر أشبه ما يكون بالمأكلة (المونولوج)...فهتلر هو الذي يتولى زمام الحديث طيلة الوقت ... أما موسوليني فيصغي إليه

---

١ - يوميات شيانو ص ٢٢٠ .

بكل ما لديه من انتباه ،-مشغوفاً بحديثه ومهتماً به . وهو لا يقول إلا القليل مؤكداً عزمه على التحرك مع المانيا ولكنه يحتفظ لنفسه فقط بالحق في اختيار اللحظة المواتية » .

وقال موسوليني عندما أتيح له المجال للتكلم أخيراً ، بأنه يدرك بأن « من المحال بقاءه على الحياد حتى نهاية الحرب » . فهو يرى ان التعاون مع انكلترا وفرنسا « شيء لا يمكن تصوره ، لأنه يكرههما . ولهذا فدخول ايطاليا الحرب شيء حتمي » . وقضى هتلر نحواً من ساعة محاولاً إقناعه بذلك ،هذا اذا أرادت ايطاليا ، ان لا تبقى وحيدة مهملة ، أو ارادت ان لا تغدو على حد تعبيره دولة من « دول الدرجة الثانية »[1] ولكن بعد ان رد على سؤال هتلر الأساسي مرضياً اياه برده ، انقلب فوراً يحاول اتقاء الخطر فقال :

« ان التاريخ يؤلف المشكلة الأساسية على أي حال .. فهناك شرط يتعلق بهذا الموضوع ويجب تحقيقه . فمن الواجب أن تكون ايطاليا « مستعدة كل الاستعداد » .. ووضعها المالي لا يسمح لها بخوض حرب طويلة ..

« وهو يسأل الفوهرر اذا كان ثمة من خطر على المانيا في حالة تأجيل الهجوم . وهو لا يرى وجوداً لهذا الخطر مطلقاً ... فهو سيكمل استعداداته العسكرية في غضون ثلاثة أشهر أو أربعة ، ولن يكون في وضع محرج ، بحيث يرى زميله يقاتل فعلاً ، بينما يقتصر عمله هو على مجرد التظاهر .. فهو يريد أن يعمل أكثر من التظاهر ، ولكن وضعه حتى الآن لا يسمح له بأكثر من ذلك » .

ولكن سيد الحرب النازي لا يعتزم تأجيل هجومه في الغرب ، وقد أعلن عزمه هذا الى حليفه . ولكن هناك « بعض الافكار النظرية تساوره » ، وقد

---

١ - ملاحظات الدكتور شميدت عن الاجتماع (وثائق وزارة الخارجية الالمانية (٩) ص ١ - ١٦) .

تعمل على مساعدة موسوليني في حل متاعبه بتجنب الهجوم الجبهي عن الأقسام الجبلية في جنوب فرنسا لأن هذا الهجوم سيكلف ايطاليا كما يرى « الكثير من الدماء المسفوكة » . واقترح الفوهرر ان تقوم ايطاليا بتجهيز قوة عسكرية قوية تزحف جنباً الى جنب مع القوات الالمانية على طول الحدود السويسرية باتجاه نهر الراين « للالتفاف حول جبهة الألب الفرنسية – الايطالية من مؤخرتها » . وستكون الجيوش الالمانية قبل هذه الحركة قد اكتسحت الجيوش الفرنسية والبريطانية في الشمال . ويبدو ان هتلر كان يتوخى تسهيل الأمر على الايطاليين.. ومضى هتلر يقول :

« وعندما يتم تحطيم العدو في شمال فرنسا ، سيحين الوقت لإيطاليا للتدخل عملياً ، لا في نقاط الألب الصعبة الوعرة ، بل في أماكن أخرى ..

« وسيقرر مصير الحرب في فرنسا ، واذا ما تم التخلص منها ، فان ايطاليا ستغدو سيدة البحر الأبيض المتوسط ، ويتحتم على بريطانيا آنذاك ان تطلب الصلح » .

وأرى لزاماً علينا أن نقول أن موسوليني كان سريع التمسك بهذا الأمل المشرق ليجني أكبر الفوائد بعد ان يكون الألمان قد تحملوا جميع متاعب القتال الشاق ..

« ورد الدوتشي بأنه سيدخل الحرب فور تمكن الالمان من احراز تقدم منتصر . وأكد انه لن يضيع وقتاً ، إذ عندما يكون الهجوم الالماني قد هز الحلفاء هزاً ، لا تكون الحاجة ماسة إلا لضربة ثانية لإرغامهم على الركوع على ركبهم . »

ولكن الدوتشي ظل متحفظاً ، فقال انه يؤثر الانتظار في حالة البطء في الهجوم الألماني .

ويبدو ان هذه المساومة الخوّارة الغريبة قد أزعجت هتلر كل الازعاج ، وإذا صحّ ما قاله شيانو من ان موسوليني كان شديد الاعجاب شخصياً بهتلر ، لسبب يمت

إلى اعمق الاعماق في تكوينه ، فإن في وسعنا ان نقول ، بأن هذا الاعجاب كان متبادلاً ، وان هتلر كان معجباً بموسوليني لنفس الأسباب الخفيّة . وعلى الرغم من ان هتلر لم يكن وفياً لبعض أخدانه المقربين ، إذ قتل عدداً منهم ، كروهم وشتراسر مثلاً ، إلا انه ظل على وفائه الغريب وغير المألوف لشريكه الايطالي المضحك ، وقد ظل هذا الوفاء قوياً لم يصبه وهن أو ضعف ، بل تعزز وتقوى ، عندما حل الشقاء ووقعت الكارثة بالقيصر الروماني المترنح ، والواقع في الرغام .

وهكذا وعدت ايطاليا أخيراً بدخول الحرب وعداً قاطعاً ، على الرغم من تفاهة ما لها من قيمة ، كان الألمان باستثناء هتلر نفسه ، يقرون بها ، وبينهم عدد من القادة العسكريين . وكان في وسع سيد الحرب النازي أن يتجه بأفكاره بعد الآن الى فتوحات قريبة وجديدة . ولكنه لم يفه بكلمة واحدة لصديقه وحليفه ، عن هذه الفتوحات التي كان من المقرر وقوعها قريباً جداً في الشمال .

خيبة أمل المتآمرين من جديد

قام المتآمرون المناهضون للنازية من جديد باقناع القادة العسكريين بخلع الفوهرر ، وذلك قبل ان يشن عدوانه الجديد هذه المرة في الشمال. وهو العدوان الذي كانت انباؤه قد وصلت الى مسامعهم . وكان كل ما أراده المتآمرون المدنيون هذه المرة ، الحصول على تأكيد من الحكومة البريطانية بانها ستعقد صلحاً مع العهد المناوىء للنازية في المانيا ، وكانوا يصرون مع ما هم عليه من موقف ، بأن تسمح أية تسوية جديدة مع حكومة الرايخ المقبلة ، لهذه الحكومة بالاحتفاظ بمعظم المكاسب الاقليمية التي حققها هتلر ، وهي النمسا وأراضي السوديت وحدود عام ١٩١٤ مع بولندة، على الرغم من أن هذا الكسب الأخير لم يتحقق في الماضي إلا بإزالة الشعب البولندي من الوجود .

وقد غامر هاسّيل ، متدرعاً بشجاعته الشخصية الفائقة ، بالسفر الى بلدة أروزا في سويسرا في الواحد والعشرين من شباط عام ١٩٤٠ ، حاملاً مثل هذا الاقتراح ، وهادفاً الى البحث فيه مع شخص بريطاني أطلق عليه اسم « السيد س » في يومياته ، وان كنا قد عرفنا حقاً انه جي لونسديل برايانز . وقد اجتمع الرجلان أربعة اجتماعات في الثاني والعشرين والثالث والعشرين من شباط ، وأحيطت اجتماعاتهما بمنتهى السرية . ولم يكن برايانز هذا ، على الرغم من مكانته الدبلوماتية في رومة إلا صورة أخرى من صور هؤلاء المفاوضين الهواة الذين يعينون أنفسهم ، لإجراء محادثات تتعلق بالسلام ، والذين روينا قصص عـــدد منهم في سياق هذا الكتاب . وكانت للرجل اتصالات في داوننغ ستريت ، وقد أثر على فون هاسّيل فور اجتماعه به تأثيراً قوياً . ولقد طرأ على البريطانيين بعض التشكك في قصة المتآمرين كلها ، بعد القصة الهزلية التي لابست المحاولات التي جرت لاتصال الرائد ستيفينز والرئيس بيست في هولندة معهم ، ولذا فقد أصر برايانز على ان يعرف من هاسّيل بعض المعلومات الموثوقة ، عن هوية الأشخاص الذين يتحدث باسمهم ، واستشاط المبعوث الالماني غضباً وقال : « لست في وضع أتمكن فيه من تسمية الرجال الذين يقفون خلفي . ولكن في وسعي أن اؤكد لك أن بياناً يصدر عن هاليفاكس يصيب كبد الحقيقة ، ويقع في أيدي الصالحين من الناس [١] .

وراح هاسيل يرسم بعد ذلك آراء « المعارضة » الألمانية . فهي ترى ان هتلر يجب ان ينتهي قبل « البدء بعمليات عسكرية ضخمة في الغرب » ، وان عملية الاطاحة به « يجب ان تكون المانية مجردة » ، وان من الضروري «صدور بيان انكليزي من مصدر عال » عن الطريقة التي سيعامل بها « العهد المناوىء النازية في برلين » ، وأضاف هاسّيل ان المعارضة الالمانية ترى ان العقبة الأساسية في تبدل العهـــد تقوم في قصة عام ١٩١٨ ، « إذ ان الالمان يخشون ان تتطور

١ – فون هاسيل – يوميات ص ١١٦–١١٨ .

الأمور كما تطورت آنذاك بعد أن ضحوا بالقيصر » . واكد هاسيل انه يريد مع رفاقه ضمانات بأن تعامل المانيا بعد التخلص من هتلر ، معاملة أكرم من تلك التي عوملت بها بعد ان تخلص الالمان من غليوم الثاني .

وقام بعد ذلك بتسليم برايانز مذكرة كان هو نفسه قد أعدها باللغة الانكليزية. وعلى الرغم من غموض المذكرة ، إلا انها كانت تنطوي على الكثير من العواطف الطيبة عن عالم الغد ، الذي يقوم « على مبـادىء الاخلاق المسيحية والعدل والقانون والرفاه الاجتماعي وحرية الفكر والضمير » . وأضاف هاسّيل ان الخطر الأكبر من استمرار هـذه الحرب المجنونة يقوم في بلشفة اوروبا . وهو خطر يراه أكبر من استمرار النازية ، وهو يضع شرطاً أساسياً واحداً للسلام وهو ان يترك لألمانيا كل ما قام به هتلر من فتوحات راح يعددهـا . وقال انه لا يرى احتمالاً للبحث في استيلاء المانيا على النمسا وأراضي السوديت في أي صلح مقترح ، وان من حق المانيا أن تعيد حدودها مع بولندة الى ما كانت عليه في عام ١٩١٤ ، وهو يعني بذلك تلميحاً لا تصريحاً حدودها السابقة مع روسيا إذ أن بولندة لم تكن في حيّز الوجود في عام ١٩١٤ .

ووافقه برايانز على وجوب السرعة في العمل بالنظر الى توقع الهجوم الالماني الكبير في الغرب في كل لحظة ، ووعد بنقل مذكرة فون هاسّيل الى اللورد هاليفاكس . وعاد هاسّيل الى برلين ليطلع شركاءه على الحركة الأخيرة التي قام بها . وعلى الرغم من الآمال التي علقوها على السيد «س» ، صديق هاسّيل ، إلا أنهم كانوا اكثر اهتماماً في تلك اللحظة « بتقرير س » على حـد تعبيرهم ، وهو التقرير الذي وضعه هانز فون دوهنانيا ، أحد اعضاء الجماعة ومن رجال المخابرات على أساس الاتصال الذي جرى بين الدكتور مويلر وبين البريطانيين في الفاتيكان وقد جاء في هذا التقرير ان البابا على استعداد للتدخل مع بريطانيا لعقد صلح معقول ، مع الحكومة الجديدة المناهضة للنازية ، ولا ريب في أن احد الشروط التي وضعوها ، والتي تعتبر مقياساً لآرائهم هو الزعم بأن قداسة البـابا يؤيد « تسوية المسئلة الشرقية في صالح المانيا » . وقد تمكن الديكتاتور النازي المجنون

من الحصول على تسوية في الشرق « في صالح المانيا » عن طريق العدوان المسلح ، وكان المتآمرون النازيون الطيبون يريدون عين هـــذه التسوية ، على ان يسلمها البريطانيون اليهم مصحوبة ببركات البابا .

وظل تقرير «س» مسيطراً على افـكار المتآمرين طيلة شتاء ذلك العام ۱۹۳۹ — ١٩٤٠ . وتولى الفريق توماس اطلاع براوخيتش على هذا التقرير في نهاية شهر تشرين الاول ، هادفاً من وراء ذلك الى اشراك القائد العام للجيش في محاولاته اقناع هتلر بعدم شن الهجوم الكبير في الغرب في ذلك الخريف . ولكن براوخيتش لم يقدر هـــذا التشجيع حق قدره ، وراح يهدد الفريق توماس بالاعتقال ، ان عاد الى إثارة الموضوع من جديد ، صارخاً به ان هـــذا العمل « خيانة كبرى وواضحة » .

وحمل توماس التقرير بعد ان بات العدوان النازي الجديد وشيك الوقوع الى الفريق هولدر مؤملاً ان يقوم هذا بالعمل على ضوئه . ولكن آماله كلها ذهبت أدراج الرياح ، فلقد اعلن رئيس هيئة اركان الحرب الى غويردلر الذي كان ايضاً من اشد المتآمرين نشاطاً وحماساً ، والذي كان قد ابتهل اليه ليتولى دور القيادة طالما ان براوخيتش الجبان ، يتردد في توليه ، بأنه لا يستطيع أن يبرر في هذه اللحظة نكثه بالقسم الذي أداه لهتلر ، كجندي الماني . ومضى يقول :

« يضاف الى هذا ، ان انكلترا وفرنسا هما اللتان اعلنتا الحرب ضدنا وان على الجندي الالماني ان يخوضها حتى النهاية . وكل صلح يقوم على الحلول الوسطى ، لا معنى له ولا قيمة . ولا يمكن للمرء أن يقوم بالعمل الذي يريده غويردلر إلا في حـــالات الضرورة القصوى » .

وهتف هاسّيل وهو يدوّن في يوميته بتاريخ السادس من نيسان عام ١٩٤٠ صورة الحالة العقلية التي يرى فيها هولدر ، كما شرحها له غويردلر ... « يا له من كلب رعديد » .. وأضاف هاسّيل يقول : « لا ريب في ان هولدر الذي شرع بالبكاء إبان مناقشة مسؤوليته ، يوحي بالانطباع بأنه رجل ضعيف ذو أعصاب

محطمة » .

ومن حقنا ان نشك في صحة هذا الانطباع . فعندما يقرأ المرء اليوميات التي دوّنها هولدر في الاسبوع الاول من شهر نيسان ، والتي تعج بمئات الشروح والتفاصيل عن الاستعدادات التي كان يساعد هو في اتخاذها تأهباً للهجوم الضخم الجبار في الغرب ، لا يشك مطلقاً ، كما لم يشك مؤلف هذا الكتاب ، في ان رئيس اركان الحرب كان يمر في حالة مزاجية نضالية محاربة ، وقد تجلت في المناقشات التي كان يجريها مع قادة الميدان والتي كان يدقق في غضونها في الخطط الاخيرة لأعظم عملية عسكرية واكثرها جرأة في التاريخ الالماني . وليست هناك أية اشارة في يومياته الى وجود افكار خائنة تراوده أو تعاوده ، ولا الى أي حالة اصطراع مع ضميره . وعلى الرغم من انه لا يخفي في يومياته هذه شكوكه في الهجوم على الدانيمارك والنروج ، إلا ان هذه الشكوك تقوم على أسس عسكرية مجردة ، وليس في ما دوّنه أية كلمة ، ولو واحدة عن القلق الاخلاقي تجاه العدوان النازي على الدول الأربع المحايدة الصغيرة ، التي كانت المانيا قد ضمنت حدودها ، والتي كان هولدر يعرف ان المانيا أصبحت على وشك مهاجمتها . لا سيما وانه قد تولى بنفسه دوراً قيادياً في وضع الخطط للهجوم على اثنتين منها وهما هولندة وبلجيكا .

وهكذا انتهت المحاولة الأخيرة « للألمان الطيبين » للاطاحة بهتلر قبل ان يفوت الأوان . وكانت هذه هي فرصتهم الاخيرة في الحصول على صلح سخي كريم . ولم يكن القادة العسكريون ، كما ذكر براوخيتش وهولدر بوضوح ، مهتمين بعقد صلح على أساس التفاوض . وكل ما كانوا يفكرون به الآن ، هو ما يفكر به الفوهرر نفسه ، من فرض الصلح ، بعد ان تحقق المانيا انتصارها . ولم يعد هؤلاء القادة عودة جدية الى افكارهم « الخيانية » القديمة ، التي كانت قوية في أيام ميونيخ وزوسّين للاطاحة بديكتاتورهم المجنون ، إلا بعد أن خبت تلك الآمال في النصر الذي علقوا الكثير عليه . وعلينا ان نذكر هذه الحالة العقلية ، وهذه الطبيعة ، بالنسبة الى ما سيقع من أحداث تالية ، والى ما سيحاك

من أساطير وروايات .

الاستيلاء على الدانيمارك والنروج

وصف بعض الكتاب والمؤرخين استعدادات هتلر لاجتيـاح الدانيمارك والنروج ، بأنها من اعظم الأحداث التي حوفظ في الحرب على سريتها . ولكن مؤلف هذا الكتاب يخالفهم رأيهم هذا ، إذ انه يرى ان الدولتين الاسكندينافيتين وبريطانيا لم تباغت بما وقع ، لأنها لم تتلق التحذيرات في الوقت المناسب بما هو واقع لانها لم تصدق هذه التحذيرات في الوقت المناسب ، وقبل أن يفوت الاوان.

فلقد قام العقيد اوستر ، وهو احد المتآمرين ومن رجال المخابرات الالمانية قبل وقوع الـكارثة بعشرة ايام بتحذير العقيد . جي . جي . ساس ، صديقه الحميم والملحق العسكري الهولندي في برلين من الخطط التي تضعها المانيا ، «لتمرين ويسر » ، وتولى هذا نقلها بدوره ، وفوراً الى الملحق البحري الدانيماركي في برلين ، الرئيس كجولسين[1]. ولكن الحكومة الدانيماركية المتراخية لم تشأ ان تصدق ملحقها البحري ، وعندما أوفد الوزير الدانيماركي في برلين ملحقه البحري الى كوبنهاغن على جناح السرعة في الرابع من نيسان ، ليكرر الانذار شخصياً على مسامع المسؤولين ، لم يحمل هؤلاء معلوماته على محمل الجد . وهناك ما هو ادهى من هذا وأمر . ففي مساء الثامن من نيسان ، أي عشية يوم الـكارثة . وكانت الانباء قد تناقلت نسف باخرة نقل المانية ملأى بالجنود على مقربة من ساحل النروج الجنوبي ، الى الشمال قليلاً من الدانيمارك ، وكان الدانيماركيون قد رأوا بأم أعينهم اسطولاً المانياً ضخماً يبحر باتجاه الشمال بين جزرهم نفسها ، ابتسم ملك الدانيمارك ساخراً عندما قيل له ، وهو يتناول العشاء ان بلاده معرضة للخطر .

وروى أحد ضباط الحرس الملـكي فيما بعد ، وكان يحضر العشاء ان الملك لم يصدق ما قيل له ، بل مضى فعلاً وبعد انتهاء العشاء الى المسرح الملكي ، وقد سيطرت عليه حالة عقلية من الثقة والسعادة[2].

---

١ – آلين دالاس – الحركة السرية في المانيا ص ٥٩ .

٢ – شيرر – تحدي اسكندينافيا ص ٢٢٣ – ٢٢٥ .

وكانت الحكومة النروجية قد تلقت في مستهل شهر آذار تحـــذيرات من مفوضيتها في برلين ، ومن السويديين عن وجود تحشدات المانية للقوات العسكرية والسفن الحربية في بحر الشمال وموانىء البلطيق ووصلت في الخامس من نيسان الى اوسلو أنباء موثوقة من برلين عن نزول الماني متوقع فوراً في السواحل الجنوبية من النروج . ولكن وزارة النروج المتخاذلة الكسول ، ظلت متشككة في هذه الحقائق . ولم تر هذه الوزارة المتراخية ضرورة حتى في السابع من نيسان ، عندما شوهـــدت بواخر المانية حربية تقترب من الساحل النروجي ، وعندما وصلت أنباء تقول بأن الطائرات البريطانية شاهدت اسطولاً المانياً حربياً في مدخل مضيق سكا جيراك. لان تتخذ خطوات دفاعية واضحة كتعبئة الجيش ، ووضع الحاميات القوية في القلاع التي تحمي الموانىء وتعزيز وسائل المقاومة في المطارات واغلاقها وزرع الالغام في المداخل المائية الضيقة للعاصمة والمدن الكبرى رغم سهولة الدفاع عنها . وظل هذا التراخي قائماً حتى في الثامن من نيسان عندما تولت الاميرالية البريطانية ابلاغ مفوضية النروج في لندن بأن وحداتها اكتشفت قوات بحرية المانية ضخمة تقترب من ميناء نارفيك ، وراحت الصحف في أوسلو ، تنقل أنباء انقاذالجنود الالمانمن باخرة النقل ريودي‌جانيرو التي نسفتها غواصة بولندية في ذلك اليوم على مقربة من الســاحـــل النروجي عند ليليساند ، وأعلن الناجون من الجنود انهم كانوا في طريقهم الى بيرغين للمساعدة في الدفاع عنها ضد البريطانيين . ولو فعلت الحكومة النروجية غير ما فعلته من استرخاء واستخذاء ونفذت التدابير التي أشرت إليها ، لـكان من المحتمل ان يتخذ التاريخ اتجاهاً مغايراً لما حدث .

وبدأت النذر تتوارد الى لندن ، على حـــد رواية تشرشل منذ الاول من نيسان ، وقامت وزارة الحرب المصغرة في الثـــالث من نيسان بدراسة آخر الأخبار ، الوارد معظمها من استوكهولم ، والتي تحدثت عن قيـام الالمان بجمع قوات عسكرية ضخمـــة في موانىء البلاد الشمالية مستهدفة التحرك باتجاه اسكندينافيا . ولكن يبدو ان الحكومة لم تحمل هذه الأنباء على محمل الجد .

وفي الخامس من نيسان أي بعد يومين ، وكانت الدفعة الأولى من سفن التموين الألمانيـــة قد مضت ماخرة في البحر ، راح رئيس الوزراء تشمبرلين يعلن في خطاب ألقاه ، ان هتلر ، بعد أن فشل في القيام بهجوم في الغرب عندما لم يكن البريطانيون والفرنسيون على استعداد لمقابلته ، قد « فاته الباص » وهو تعبير سرعان ما ثبت بطلانه [١] .

وكانت الحكومة البريطانية ميالة في هذا الوقت على حد قول تشرشل الى الاعتقاد بأن هذه الحشود الالمانية في بحر الشمال والبلطيق انما تهدف الى تمكين هتلر من توجيه ضربة مقابلة في حالة قيام البريطانيين بزرع الألغام في الميـــاه النروجية ، لقطع تموينات الحديد من نارفيك الى المانيا ، واحتلال ذلك الميناء وبعض الموانىء الأخرى الى الجنوب .

وكانت الحكومة البريطانية تفكر في الحقيقة في مشروع احتلال كهذا . وكان تشرشل ، وزير البحرية قد نجح بعد سبعة أشهر طويلة من خيبة الأمل في الحصول على موافقة وزارة الحرب ومجلس الحلفاء الأعلى ، على زرع الألغام في الطريق البحرية النروجية في الثامن من نيسان في عملية اطلق عليها البريطانيون اسم « ويلفريد » الرمزي . ولما كان من المتوقع ان يرد الالمـان رداً عنيفاً على هذه الضربة المميتة التي تقضي بحرمانهم من شحنات الحديد من نارفيك بعد اغلاق الطريق المؤدية إليها ، فقد تقرر ايفاد قوة انكليزية – فرنسية مشتركة الى نارفيك على ان تتقدم هذه القوة باتجاه الحدود السويدية . وتقرر انزال وحدات أخرى في تروندهايم وبيرغين وستافانغر ، الى الجنوب ، « لحرمان العدو من هذه القواعد » على حد تعبير تشرشل . وقد أطلق على هــذه العملية اسم « الخطة س – ٤ » [٢].

---

١ – ابحرت البواخر الالمانية الثلاث الاولى من بواخر التموين الى نارفيك في الساعة الثانية من صباح الثالث من نيسان . وغادرت أضخم ناقلة المانية للزيت من مورمانسك باتجاه نارفيك في السادس من نيسان ، بتواطؤ مع الروس الذين زودوها من مينائهم هذا بحمولة ضخمة من الزيت.

٢ – مذكرات تشرشل الجزء الاول ص ٥٧٩ . وورد النص الرسمي للخطط البريطانية في كتاب ديري « الحملة في النروج » .

وهكذا بينما كانت القوات الألمانية تحمّل في مختلف السفن الحربية في غضون الأسبوع الأول من نيسان ، لتعبر الى النروج « كانت القوات البريطانية تحمّل ، وان كانت في اعداد أقل من القوات الالمانيـــة ، في سفن النقل في كلايد وفي الطرادات في فورت ، متجهة الى نفس الهدف .

* * *

وأصدر هتلر بعد ظهر الثاني من نيسان ، وبعد اجتماع طويل مع غورنغ وريدر وفالكنهورست توجيهاً رسمياً أمر فيه بأن تبدأ عملية « تمرين ويسر » في الساعة الخامسة والربع من صباح التاسع من نيسان . وأصدر هتلر في نفس الوقت توجيهاً آخر ينص على « وجوب منع ملكي الدانيمارك والنروج من الفرار من بلاديهما أثناء الاحتلال بمختلف السبل والوسائل » [١] . وراحت القيادة العليا للقوات المسلحة تطلع وزارة الخارجية في نفس اليوم على السر . وصدر توجيه مطول آخر الى ريبنتروب يوعز له ، بإعداد الاجراءات الدبلوماتية اللازمة لاقناع الدانيمارك والنروج بالاستسلام دون حرب ، حالما تهبط القوات المسلحة الالمانية في أراضيهما و « طبخ » نوع من التبرير لعدوان هتلر الاخير [٢] .

ولم تكن الخديعة محصورة في وزارة الخارجية إذ تقرر ان يلجأ الأسطول الالماني الى استخدامها أيضاً . وراح يودل في الثالث من نيسان ، أي في موعد ابحار البواخر الالمانية الاولى يفكر وهو يدوّن يومياته ، بمشكلة الطريقة التي يجب ان تتبع في خداع النروجيين في حالة تبادر الشكوك الى اذهانهم من جراء وجود مثل هذا العدد الكبير من السفن الحربية الالمانية في جوارهم . وكانت البحرية الالمانية قد أعدت بالفعل الخطة لهذه العملية ، فأوعزت الى سفنهــا الحربية وبواخر نقلها ، بأن تحاول الظهور بمظهر السفن البريطانية وان ترفع اذا اقتضى الأمر العلم البريطاني . ووضعت القيادات البحرية الالمانية السرية

---

١ – نص التوجيه في وثائق وزارة الخارجية الالمانية (٩) ص ٦٦–٦٨ .
٢ – وثائق وزارة الخارجية الالمانية (٩) ص ٦٨ – ٧٣ .

الأوامر المفصلة لخداع النروج وتضليلها في موضوع الغزو الألماني [1] .

سري للغـــاية

سلوك القوات عند دخولها الى الموانىء

« يجب تعتيم كافة السفن ... ومن الواجب الحفاظ على التنكر في شكل سفن بريطانية أطول وقت ممكن . ويجب ان يرد باللغة الانكليزية على جميع الاشارات اللاسلكية التي تصدر عن السفن النروجية برموز « المورس » طالبة معرفة هويات البواخر الالمانية بالجواب التالي : « نعتزم زيارة برغين فترة قصيرة ... وليس لدينا أي هدف معاد » .

« وإذا ما سألت السفن النروجية عن اسماء هذه السفن يرد على سؤالها بالنحو التالي :

« كويلن – تتستر باسم الباخرة البريطانية « القاهرة » .

« كوينغزبرغ – تتستر باسم الباخرة البريطانية « كلكوتا » .. الخ.

« يجب اتخاذ الترتيبات لإضاءة الاعلام الحربية البريطانية ...

« على النسفن المتجهة الى برغين ... ان تسير وفق المبدأ الموجه التالي في حالة اضطرارها الى الرد على استفسارات من سفن عابرة ..

« يعطى اسم « القاهرة » للباخرة كويلين ..

« في حالة صدور إيعاز من السفن النروجية لبواخرنا بالوقوف ، يرد عليها (أولاً) نرجو إعادة الاشارة و (ثانياً) لا نستطيع ان نفهم الاشارة .

« وفي حالة اطلاق قذيفة انذارية نروجية .. يكون الرد

---

١ – المؤامرة النازية والعدوان (٦) ص ٩١٤ – ٩١٥ .

« أوقفوا النار . نحن بواخر بريطانية . اننا بواخر صديقة .
« وفي حالة الاستفهام عن الإتجاه والهدف يرد بالعبارة التالية :
نحن متجهون الى برغين ، مطاردين بعض البواخر الألمانية »[1] .

* * *

وهكذا في الساعة الخامسة والدقيقة العشرين من صباح التاسع من نيسان عام ١٩٤٠ (أي الساعة الرابعة والدقيقة العشرين من وقت الدانيمارك) ، وقبل ساعة من طلوع الفجر أيقظ المبعوثان الدبلوماتيان في كل من كوبنهاغن وأوسلو وزيري خارجية هاتين الدولتين من رقادهما قبل عشرين دقيقة من وصول القوات الألمانية ، تنفيـــذاً لتعليمات ريبنتروب الدقيقة ، وسلما اليهما إنذاراً رسمياً من الحكومة الالمانية الى حكومتيهما ، بوجوب قبول « حماية الرايخ » فوراً ودون مقاومة .وكان هذا الانذار أوقح ما وضعه هتلر وريبنتروب من وثائق ، إذ كان هذان الرجلان قد اتقنا الآن ، الخداع الدبلوماتي بعد تجاربهما السابقة [2] .

وبعد أن أعلن الانذار انقوات الرايخ قد جاءت لمساعدة الدانيمارك والنروج ، في حماية نفسيهما من الاحتلال الانكليزي – الفرنسي ، مضى قائلاً :

« ولهذا فان القوات الألمانية لا تطأ اقدامها الأرض النروجية ، كقوات معادية . ولا تعتزم القيادة العليا الالمانية الافادة من النقاط التي تحتلها قواتها ، كقواعد للعمليات الحربية ضد انكلترا ، طالما انها غير مضطرة الى مثل ذلك ...

« ولا تهدف العمليات الالمانية العسكرية على النقيض من ذلك إلا لحماية الشمال من الاحتـــلال البريطاني المتوقع للقواعد النروجية

---

١ – حاول امير البحر الاكبر ريدر في محاكمات نورمبرغ تبرير هذه الاساليب على اساس انها أساليب مشروعة و « خدع حربية مقبولة ، لا تقبل من الناحية القانونيـــة أي اعتراض عليها » (محاكمات كبار مجرمي الحرب الالمان (١٤) ص ٩٩ و ١٩٤) .

٢ – نص الانذار في المؤامرة النازية والعـــدوان (٨) ص ٤١٠ – ٤١٤ . وكذلك في وثائق وزارة الخارجية الالمانية (٩) ص ٨٨ – ٩٩ .

بواسطة القوات الانكليزية ـ الفرنسية .

« وتعلن حكومة الرايخ على ضوء العلاقات الطيبة القائمة بين المانيا والنروج حتى هذا اليوم ، الى الحكومة الملكية النروجية ، ان المانيا لا تعتزم المساس عن طريق اجراءاتها بسلامة مملكة النروج الاقليمية واستقلالها السياسي ، لا في الحال ولا في الاستقبال .

«وتتوقع حكومة الرايخ والحالة هذه ان لا تتعرض لأية مقاومة من حكومة النروج أو شعبها . اذ ان أية مقاومة ستحطم بجميع السبل والوسائل ، ولن تؤدي والحالة هذه إلا الى سفك دماء لا ضرورة له ولا جدوى منه مطلقاً ... »

وكانت توقعات الالمان صحيحة بالنسبة الى الدانيمارك لا الى النروج واتضحت هذه الحقيقة لدوائر الويلهلمشتراسة بعد تلقيها أولى الرسائل العاجلة من وزيريها المفوضين في هاتين البلدين . فقد ابرق المبعوث الالماني في كوبنهاغن الى ريبنتروب في الساعة الثامنة والدقيقة الرابعة والثلاثين صباحاً يقول ان الدانيماركيين قد قبلوا « جميع طلباتنا على الرغم من تسجيلهم احتجاجاً عليها » . اما كورت بروير ، الوزير المفوض في اوسلو فقد بعث برواية مخالفة . اذ بعث في الساعة الخامسةوالدقيقة الثانية والخمسين صباحاً أي بعداثنتين وثلاثين دقيقة من تسليمه الانذار الالماني ، ببرقية الى برلين تحمل الرد العاجل للحكومة النروجية على النحو التالي .. « لن نستسلم طواعية . وقد بدأنا النضال » [1] .

واحتد ريبنتروب المغرور من هذا الرد [2] . وعاد يبعث الى كورت بروير

---

١ - برقية ريشفينك من كوبنهاغن (وثائق وزارة الخارجية الالمانية (٩) ص ١٠٢ -١٠٣ وبرقية بروير من اوسلو (وثائق وزارة الخارجية الالمانية (٩) ص ١٠٢) .

٢ - لم ير مؤلف هذا الكتاب ريبنتروب قط في حالة لاتطاق كما رآه في ذلك الصباح فلقد هرع داخلاً الى مؤتمر صحفي طارىء عقده في ذلك الصباح في وزارة الخارجية، وقد ارتدى بزة عسكرية براقة وفاتحة،وهو يبدو كمادونت في يومياتي وكأنه (يملك العالم بأسره).وراح يندفع =

في الساعة العاشرة والدقيقة الخامسة والخمسين ببرقية عاجلة للغاية قال فيها : « عليك ان تقنع الحكومة هناك بأن ليس ثمة من منطق او معنى لأية مقاومة نروجية » .

ولم يكن في وسع المبعوث الألماني التعس ان ينفذ لوزير خارجيته رغبته . فلقد كان ملك النروج وحكومته واعضاء البرلمان قد فروا جميعاً في هذا الوقت من العاصمة الى الجبال في الشمال . وقد صمموا جميعاً على المقاومة ، على الرغم من عدم التكافؤ في القوى . وكانت المقاومة قد بدأت في الواقع في بعض الاماكن وان لم يكن في كلها ، مع وصول البواخر الالمانية في تلك الليلة .

وكان الدانيماركيون في وضع اكثر قنوطاً ويأساً وكانت بلادهم الجميلة المؤلفة من الجزر ، إعجز عن الدفاع من جارتها . فهي اكثر استواء ، واصغر مساحة من النروج ، وكانت جتلند ، التي تؤلف الجزء الأكبر من البلاد ، مفتوحة براً امام جحافل هتلر المدرعة . ولم تكن هناك جبال يستطيع ملكها وحكومته الفرار اليها ، كما لم يكن باستطاعتها ان تأمل في أي عون يأتيها من بريطانيا . ولقد قيل ان الدانيماركيين كانوا اكثر حضارة من ان يحاربوا في مثل هذه الظروف ، وبالفعل فانهم لم يحاربوا مطلقاً . وطلب الفريق و . و . بريور ، القائد العام للجيش ، المقاومة ، ولكن رئيس الوزراء ثورفالد ستونينغ خالفه الرأي وابطل قراره . وأيد الملك ووزير الخارجية ادوار مونك رئيس

= بكلامه قائلاً ... « لقد اصدر انفوهرر رده ... ان المانيا تحتل التربة الدانيماركية والنروجية لحماية هاتين البلدين من الحلفاء ، وستدافع عن حيادهما الصحيح حتى نهاية الحرب. وهكذا تمكنا من انقاذ جزء كريم من اوروبا من الانهيار الأكيد » .

ووجدت صحف برلين ما تقوله ايضاً في ذلك اليوم ، فلقد كتبت «البورصن زايتونغ تقول» : « تدوس انكلترا باقدامها عامدة متعمدة اجساد الشعوب الصغيرة بعد قتلها . وتتولى المانيا حماية الدول الضعيفة من قطاع الطرق الانكليز .. وعلى النروج ان ترى عدالة العمل الالماني الذي استهدف ضمان حرية الشعب النروجي». وطلعت صحيفة هتلر «الفولكشاير بيوباختر» تحمل العنوان الضخم التالي : « المانيا تنقذ اسكنديناڤيا » .

الوزراء في قراره ، وكان الملك قد رفض نداء القائد العام باعلان التعبئه العامة ، عندما وصلت اولى الانبــاء السيئة في الثامن من نيسـان . ولم يستطع مؤلف هذا الكتاب ، على الرغم من التحقيق الذي اجراه في كوبنهاغن ، معرفة الاسباب التي ظلت غامضة بالنسبة اليه ، والتي ادت الى امتناع الاسطول الدانيماركي عن اطلاق طلقة واحدة ، لا من سفنه الحربية ، ولا من بطارياته الساحلية ، حتى في اللحظة التي مرت بها السفن الالمانية الناقلة للجنود ، في مرمى هذه المدافع ، التي كان في وسعها ان تصليهـا ناراً حامية ، وان تمزقها شذر مذر . اما الجيش فقد اشتبك في بعض المناوشات القليلة في جوتلند ، كما اطلق الحرس الملكي بعض الطلقات النارية حول القصر الملكي في العاصمة ، وأصيب بعض افراده بالجراح. وانتهى كل شيء في الدانيمارك ، في اللحظة التي كان الدانيماركيون فيها قد أتموا فطورهم الصباحي . واستسلم الملك تلبية لنصيحة حكومته وخلافاً لرأي الفريق بريور ، وأمر بوقف كل ما بدا من مقاومة ضعيفة .

وتظهر الوثائق الألمـــانية المصادرة ، ان الخطط التي وضعت للاستيلاء على الدانيمارك بالمباغتة والخداع ، قد أعدت بعناية فائقة . وكان الفريق كورت هايمر ، رئيس اركان القوات التي عهد اليهـــا باحتلال الدانيمارك قد وصل الى كوبنهاغن في السابع من نيسان بالملابس المدنيـــة ، ليستكشف اوضاع العاصمة ويقوم بالترتيبات اللازمة لاختيـــار رصيف مناسب ، ترسو اليـــه السفينة هانسيستادت دانزيغ ، الناقلة للجنود ، وانتقاء سيارة شاحنة لنقل بعض المؤن وجهاز للارسال . وكان قائد الفوج الألمـــاني الذي وجدت القيادة انه كافٍ لاحتلال هذه العاصمة الكبيرة ، قد زار كوبنهاغن ايضاً في الملابس المدنية ، قبل يومين ، ليحمل صورة عنها .

ولم يكن من الغريب والحالة هذه ان تنفذ الخطط التي وضعها القائد هايمر وقائد الفوج ، دون وقوع اي خطأ فيها . ووصلت الباخرة الناقلة للجنود الى كوبنهاغن قبيل الفجر ، ومرّت دون ان تتعرض لاطلاق النار من مدافع القلعة التي تحمي الميناء ولا من السفن الدورية الدانيماركية ، ورست بهدوء وأمان على

رصيف « لانغيليني » في قلب المدينة وعلى مرمى حجر من القلعة ، التي يتخذها الجيش الدانيماركي مقراً لقيادته العليا ، وعلى بعد قريب للغـــاية من قصر « أمالينبورغ » حيث يقيم الملك . واستولى الفوج الألماني الصغير بسرعة كبيرة على القصر والقلعة دون أية مقاومة تستحق الذكر .

وعقد الملك في قصره ، وبين هذه الطبقات النارية المتفرقة اجتماعاً للتشاور مع وزرائه . وأيد الجميع قرار اللامقاومة . وكان الفريق بريور الوحيد الذي طلب السماح له بالمقاومة . ورجا الملك ان يغادر القصر الى اقرب معسكر حربي في هوفيلتي ، للنجاة من الأسر . لكن الملك وافق وزراءه على رأيهم في عدم المقاومة . ويقول شاهد عيان ان الملك سأل قائد جيشه « اذا كان الجنود قـــد خبروا القتال طويلاً » فكان رد الفريق انهم لم يقاتلوا (١) .

وسيطر القلق على الفريق هايمر من الابطـــاء في التسليم ، فهتف الى مقر القيادة العامة التي اقيمت في همبورغ ، وكانت السلطات الدانيماركية قد اهملت قطع خطوط الهاتف مع المانيا ، وروى هو بنفسه (٢) ، انه طلب من القيادة ايفاد بعض قاذفات القنابل للتحليق فوق كوبنهاغن « لارغام الدانيماركيين على القبول والتسليم » . ودار الحديث بصورة رمزية ، وفهمت القيادة العامة للسلاح الجوي ان هايمر يطلب من الطائرات القيام بقصف حقيقي للمدينة ، ووعدت بتنفيذ طلبه فوراً ، وهو خطأ تم اصلاحه في الوقت المناسب ، وقبل ان يقـــع الخطأ . ويقول هايمر ان الطائرات « هدرت بأصواتها فوق العاصمة الدانيماركية ، ونجحت في تحقيق الغاية منها ، اذ قبلت الحكومة مطالب المانيا » .

---

١ – بلغ مجموع خسائر الدانيماركيين في طول المملكة وعرضها ثلاثة عشر قتيلاً وثلاثة وعشرين جريحاً . وبلغت خسائر الالمان نحواً من عشرين رجلاً .. استندت في الرواية الدانيماركية عن الاحتلال الالماني على كتابي « تحدي اسكندينافيا » وعلى كتاب « الدانيمارك في عهد الاحتلال » اعداد بورج اوتزي . وافدت ايضاً من المساعدة التي قدمها لي المقدم ثولاد ، وهو من ضباط الحرس الملكي .

٢ – من وثائق الجيش الالماني السرية (المؤامرة النازية والعدوان (٦) ص ٢٩٩–٣٠٨).

وكانت هناك صعوبة في ايجاد وسيلة لاذاعة نبأ استسلام القوات الدانيماركية على الشعب ، اذ ان محطات الاذاعة المحلية ، لم تكن قد بدأت ارسالها بعد في هذه الساعة المبكرة. وحلت المشكلة عن طريق اذاعة النبأ على الموجة الدانيماركية بواسطة جهاز الارسال الذي حمله الفوج الألماني الفاتح معه . والذي كان الفريق هايمر قد نقله على ظهر شاحنة ، مفكراً بمثل هذا الاحتمال الى القلعة .

وقام الفريق هايمر يرافقه سيسيل فون رينته – فينك وزير المانيا المفوض بزيارة ملك الدانيمارك ، الذي لم يعد صاحب السيادة في بلاده ، وإن جهل هذه الحقيقة في الساعة الثانية بعد ظهر ذلك اليوم نفسه . وخلف لنا هايمر صورة خطية للاجتماع في وثائق الجيش السرية ، وهذا ما جاء فيها :

« بدا الملك الذي يبلغ السبعين من عمره ،وقد تحطم في نفسيته ، على الرغم من احتفاظه بالمظاهر الخارجية ، وتمسكه بكرامته المطلقة إبان الاجتماع . ورأيته يرتجف من قمة راسه الى أخمص قدميه. واعلن انه سيحاول مع حكومته القيام بكل وسيلة ممكنة للحفاظ على السلام والنظام في البلاد ، وازالة اي احتكاك يجري بين بلاده وبين القوات الالمانية . وأعرب عن رغبته في ان يجنب بلاده أية تعاسة او شقاء .

« ورد الفريق هايمر ، بأنه يأسف شخصياً اشد الأسف لمجيئه الى الملك في مثل هذه البعثة ، ولكنه يقوم بواجبه كجندي . ولقد اتينا هنا كأصدقاء .. وعندما سأله الملك ، اذا كان في وسعه ان يحتفظ بحرسه الخاص ، رد الفريق هايمر ، بأنه لا يشك مطلقاً في ان الفوهرر سيسمح له بالاحتفاظ به . انه واثق كل الثقة من ذلك .

« وأحس الملك ببعض الارتياح من ذلك ، وبدا هذا الارتياح على وجهه . وازداد هذا الارتياح إبان المقابلة ، وراح يقول للفريق الالماني عند انتهائها ... « اسمع يا جنرال ، هل يمكنني كجندي قديم ان أقول لك شيئاً ، وان احدثك كما يحدث الجندي زميله ؟

لقد قمتم ايها الألمان بشيء لا يكاد يصدق ثانية . وارى لزاماً علي ان اعترف بأن عملكم كان رائعاً » .

* * *

ولم يثر الملك وشعبه ، وهو الشعب السليم النيـة والطوية ، الكثير الحضارة والذي يعرف التمتع بعيشه . أية مشاكل للألمان طيلة السنوات الاربـع التالية ، الى ان كان مد الألمان الحربي قد تحول الى جزر واتاح المحتلون للملك وحكومته ومحاكمه حتى برلمانه وصحافته ، في البداية الكثير من الحرية ، مما يثير الدهشة . وظل حتى اليهود الذين يعدون سبعة آلاف في البلاد ، يعيشون حيـاة الأمن والطمأنينة ردحاً من الزمن . ولكن الدانيماركيين ادركوا اخيراً ، وبعد غيرهم من الشعوب المحتلة ان المضي في سياسة « التعاون المخلص » كما اسموها ، مـع طغاتهم التيوتونيـك ، الذين تضاعفت وحشيتهم مع مضي السنين ومع تردي الاوضاع الحربية ، بات مستحيلاً اذا شاءوا الاحتفاظ بشيء مهما ضؤل من احترام النفس والكرامة . وشرعوا يرون ايضاً بأن المانيا قد لا تربـح الحرب على أي حال ، وان الحكم على الدانيمارك الصغيرة بأن تعيش كما خشي الكثيرون في البداية عيشة الدولة التابعة في نظام هتلر الجديد ، لم يكن مبرماً . وآنذاك بـدأت المقاومة في البلاد .

مقاومة النروجين

بدأت المقاومة في النروج منذ اللحظة الأولى ، وان لم تكن تشمل البلاد كلها . ففي نارفيك ، الميناء الواقع في الشمال ، ونهاية الخط الحديدي النـاقل للحديد من السويد ، استسلم العقيد كونراد سوندلو ، آمر الحامية المحلية والتابع المتعصب لكويزلنغ ، كما رأينا من قبل ، دون ان يطلق عياراً نارياً واحداً . أما القائد البحري في الميناء ، فكان من طراز آخر . فعندما اقتربت عشر مدمرات المانية من مدخل الخليج الطويل ، راحت المدرعة القديمة « آيدز فولد » الراسية

في الميناء ، تطلق قذيفة انذار ، مصحوبـة بالاشارة الى المدمرات للكشف عن هويتها . ورد الرير اميرال فريتز بونتي قائد مجموعة المدمرات الألمانية ، بايفـاد ضابط من رجاله في زورق بخاري الى المدرعة النروجية ليطلب اليهـا التسليم . وهنا لجأ الألمان الى الخديعة ، وقد حاول الضباط البحريون فيما بعد الدفاع عن انفسهم محتجين بأن الغـاية تبرر الواسطة ، وان ضرورات الحرب لا تعرف قانوناً . وعندمـا رد الضابط الذي يستقل الزورق ، على أمير البحر الألماني ، بأن النروجيين اعلنوا المقاومة ، انتظر بونتي الى ان ابتعد الزورق من الطريق ، ونسف المدرعة النروجية بطوربيداته. واطلقت المدرعة الثانية « نورج » نيرانها آنذاك ، ولكنها سرعان ما اغرقت ، وقضي على نحو ثلاثمائـة بحار نروجي ، كانوا يؤلفون قوة المدرعتين الغريقتين . ولم تحل الساعة الثامنة صباحـاً حتى كانت نارفيك قد سقطت في ايدي الألمان بعد ان احتلتهـا المدمرات العشر التي تسللت بعيدة عن انظار الاسطول البريطاني القوي . وتألفت القوات المحتلة من فوجين من القوات النازية ، تحت قيادة العميد (البريغادير) ادوار دايتـل ، خدن هتلر البافاري القديم منذ ايام انقلاب حانة الجعة ، والرجـل الذي برهن على شجاعة ونبوغ عسكري ، عندما التحم في معارك ضارية في نارفيك ، بدأت بطلوع اليوم التالي .

واحتل الألمان تروندهايم الواقعة الى الجنوب من نارفيك وفي وسط الساحل النروجي بسهولة فائقة ايضاً . ولم تطلق البطاريات الساحلية النروجية اية طلقة على السفن الحربية الألمانية التي يقودها الطراد الثقيل هيبر ، وهي تدخل الخليج الطويل . ونزل الجنود من ذلك الطراد ومن اربـع مدمرات ترافقه الى الساحل بسلام وامان ، ودون اية مقاومة . وصمدت بعض القلاع القريبة بضع ساعات ، كما صمد مطار فييرنيس (Vaernes) المجاور مدة يومين ، ولكن هذه المقاومة لم تؤثر على احتلال هذا الميناء الرائع الصالح لاستعمال اضخم السفن الحربيـة والغواصات والذي يقع في نهاية خط حديـدي يعبر الشمال الاوسط من النروج الى السويد ، ويأمل الألمان في استخدامه للحصول على المؤن في حـالة تمكن

البريطانيين من قطع طريق البحر عنهم .

وصمدت برغين بعض الوقت وهي الميناء الثاني في النروج ، واهم مدنها بعد اوسلو . وتقع على بعد ثلاثمائة ميل الى الجنوب من تروندهايم وترتبط مع اوسلو العاصمة بخط حديدي . واصابت البطاريات التي تحرس الميناء الطراد كوينغزبرغ وسفينة المانية اضافية اخرى ببعض الاضرار ، ولكن القوات تمكنت من النزول بأمان من بواخر اخرى واحتلت المدينة قبل حلول الظهيرة . وقد وصل اول عون بريطاني مباشر الى النروجيين المذهولين ، الى برغين هذه . فقد تمكنت خمس عشرة طائرة بحرية بريطانية من طائرات الانقضاض من اغراق الطراد كوينغزبرغ في ساعات بعد الظهيرة ، فكانت أول سفينة حربية من هذا الحجم تغرق نتيجة الغارات الجوية . وكان هناك خارج الميناء اسطول بريطاني ضخم يضم اربعة طرادات وسبع مدمرات ، وكان في وسعه ان يقضي على القوة الألمانية البحرية الصغيرة . واوشك هذا الاسطول على دخول الميناء عندما تلقى الأوامر من الاميرالية البريطانية بالغاء الهجوم خشية تعرضه لخطر الالغام والقذف الجوي ، وهو قرار سرعان ما أسف تشرشل الذي اشترك في اتخاذه ، لصدوره . وكان هذا القرار أول دليل على الحذر والاجراءات الناقصة التي كلفت البريطانيين غالياً في الايام الحرجة التالية .

واستولت قوات المظليين الألمان على مطار سولا القريب من ميناء ستافانغر على الساحل الجنوبي الشرقي . بعد ان تمكنت من اسكات مراكز المدافع الرشاشة النروجية ، اذ لم تكن فيه وقاية حقيقية من الغارات الجوية ، وكان هذا اكبر مطارات النروج ، وله اهمية سوقية ضخمة بالنسبة الى السلاح الجوي الألماني ، إذ كان في مكنة قاذفات القنابل فيه لا أن تهاجم الاسطول البريطاني على طول الساحل النروجي فحسب بل وان تهاجم القواعد البحرية البريطانية الرئيسية في شمال بريطانيا أيضاً . وقد اتاح الاستيلاء عليه للألمان التفوق الجوي المباشر في النروج ، وقضى على اية محاولة قد يقوم بها البريطانيون للهبوط بقوات ضخمة على الساحل .

وقاومت كريستيانساند الواقعة على الساحل الجنوبي، الألمان مقاومة فعالة ، وتمكنت بطارياتها الساحلية من اقصاء اسطول الماني مرتين ، كان الطراد الخفيف كارلسرو يتولى قيادته ولكن السلاح الجوي الألماني تمكن من اخفات هذه القلاع بسرعة ، وتمكن الاسطول من احتلال الميناء بعد الظهر . ولكن عندما كان الطراد كارلسرو يغادر الميناء في ذلك المساء ، نسفته غواصة بريطانية بطوربيداتها واصابته باضرار جسيمة بحيث اضطر بحارته الى اغراقه .

وهكذا لم تحل الظهيرة ذلك اليوم أو بعدها بقليل حتى كانت المدن النروجية الرئيسية الخمس وموانئها والمطار الكبير الوحيد على طول السواحل الغربية والجنوبية التي تمتد مسافة الف وخمسمائة ميل من سكاجيراك الى المحيط المتجمد الشمالي ، قد غدت كلها في ايدي الألمان . وقد تمكنت حفنة من الجنود نَقَلَها اسطول يقل حجماً وشأناً عن الاسطول البريطاني من الاستيلاء عليها وهكذا تمكنت الجرأة والخديعة والمباغتة من ان تضمن لهتلر نصراً ضخماً بثمن ضئيل للغاية .

أما في اوسلو . وهي الصيد الثمين، فقد لاقت قواته العسكرية ودبلوماتيته متاعب غير منتظرة .

ففي ليلة الثامن – التاسع من نيسان الباردة كالثلج كانت هناك فئة مرحة من رجال المفوضية الألمانية يقودها الرئيس شرايبر ، الملحق البحري ، وينضم بين الفينة والفينة الوزير « المنهمك » بالعمل ، الدكتور بروير ، تقف على الرصيف في ميناء اوسلو تنتظر وصول الاسطول الالماني والبواخر من ناقلات الجنود . وكان هناك ملحق بحري الماني صغير ، يقفز في الخليج بزورقه البخاري ينتظر ان يمثل دور المرشد للاسطول ، وقد سارت في مقدمته بارجة الجيب لوتزاو (وكان اسمها دويتشلاند ، ولكن هتلر بدل اسمها لأنه لم يرغب في ان يجازف بغرق بارجة تحمل هذا الاسم) ، والطراد الثقيل الجديد « بلوخر » ، الذي يرفع راية اميرال الاسطول .

وانتظر هذا الفريق عبثاً . فالسفن الضخمة لم تصل ، اذ قاومتها في مدخل

الخليج الذي يمتد مسافة خمسين ميلاً ، زرّاعة الالغام النروجيـــة « اولاف تريجفرسون » التي تمكنت من اغراق زورق طوربيد الماني واصابـــة الطراد الخفيف ايمدن ببعض الاضرار . وتمكن الأسطول الألماني بعد أن انزل قوة صغيرة من الجنود لإسكات البطاريات الساحليـــة ، من مواصلة سيره صاعداً في الخليـج . وعندما وصل الى نقطة تبعد خمسة عشر ميلاً الى الجنوب من اوسلو ، حيث يضيق الماء الى عرض خمسة عشر ميلاً ، تعرض الاسطول لمشاكل جديدة. ففي هذه النقطة ، تقوم قلعة اوسكار سبورغ القديمة ، التي كان حماتها اكثر وعياً وانتباهاً ، مما تصور الألمان . وراحت مدافع كروب ذات عيار (٢٨) سنتمتراً تطلق نيرانها قبيل الفجر على البارجـــة لوتزاو والطراد بلوخر ، كما اطلقت الطوربيدات من الشواطىء على الاسطول المهاجم . واشتعلت النيران بالطراد بلوخر ذي حمولة عشرة آلاف طن ، وسرعان ما تمزق شذر مـذر ، من جراء تفجر الذخائر فيه ، ومضى الى قعر البحر ، يحمل معـه الى الموت والفناء الفاً وستمائة انسان بينهم عدد من رجال الغستابو ، والموظفين الاداريين ، وكل ما لديهم من اوراق ، وكان من المتوقع ان يعتقـلوا الملك وحكومته ، وان يتولوا شؤون الادارة في العاصمة . واصيبت لوتزاو ايضاً باضرار ، ولكنهـا لم تتعطل بصورة نهائية . وتمكن الرير اميرال اوسكار كوميتز ، قائد السرب البحري ، والفريق ايروين اينغلبرت ، الذي قاد فرقة المشاة المائة والثـلاث والستين وكانا على ظهر بلوخر ، من السباحة الى الشاطىء ، حيث اسرهما النروجيون . وعاد الاسطول الالماني الذي اصيب بالعجز ادراجه مؤقتاً ، ليمسح الجراح التي اصيب بها . وقد فشل هذا الاسطول في مهمته وهي الاستيـــلاء على الهدف الالماني الرئيسي ، المتمثل في عاصمة النروج . ولم يتمكن من الوصول الى هذا الهدف إلا في اليوم التالي .

وقد سقطت اوسلو في الحقيقة في يدي قوة المانية رمزية هبطت من الجو في المطار المحلي الذي لم يدافع عنه . وأدت الأنباء المفجعة التي وصلت من الموانىء الاخرى ، والهدير الداوي من المدافع على بعد خمسة عشر ميلاً ، من العاصمة الى

الجنوب في خليج اوسلو ، الى قيام الأسرة المالكة النروجية والحكومة واعضاء البرلمان، بركوب قطار خاص حملهم جميعاً من العاصمة في الساعة التاسعة والنصف صباحاً ، الى هامار على بعد ثمانين ميلاً الى الشمال وغادرت العاصمة ايضاً في نفس الوقت خمس عشرة سيارة شاحنة ملأى بذهب بنك النروج ، وثلاث اخرى تحمل الاوراق السرية لوزارة الخارجية . وهكذا احبطت المقاومة الباسلة التي ابدتها حامية اوسكار سبورغ خطط هتلر ، في اعتقال ملك النروج واعضاء حكومته ، وذهبها .

ولكن اوسلو ظلت في حالة من الارتباك والذهول الكاملين . وكان ثمة بعض الجنود النروجيين فيها ، ولكنهم لم يكونوا قد وضعوا في حالة استعداد للدفاع . يضاف الى هذا ، ان أي اجراء لم يتخذ لاغلاق مطار فورنيبو القريب ، مع ان هذا كان امراً سهلاً للغاية ، ولا يحتاج تنفيذه الى اكثر من بضع سيارات قديمة توضع في مدرج المطار وحوله . وكان الرئيس سبيلر الملحق الجوي الالماني في اوسلو قد اقام في المطار في الليلة السابقة للترحيب بالجنود الألمان الذين كان من المقرر هبوطهم من الجو بعد ان يكون الاسطول قد وصل الى المدينة . وعندما فشلت السفن الحربية في الوصول في الوقت المعين ، بعثت المفوضية برسالة لاسلكية محمومة الى برلين تبلغها فيها بالتطور المزعج وغير المتوقع . وكان رد برلين فورياً. وسرعان ما أخذت قوات المظليين والجنود الذين تحملهم الطائرات تهبط في مطار فورنيبو . واحتشدت في المطار عند الظهيرة نحو من خمس سرايا وكان في مكنة القوات النروجية الموجودة في العاصمة ان تقضي عليها بسهولة ، وبالنظر الى الاسلحة الخفيفة التي كان يحملها افرادها . ولكن لأسباب ما زلنا نجهلها، اذ ان الفوضى كانت قد ضربت اطنابها في اوسلو، لم تجمّع هذه القوات، ولم توزع في الوقت نفسه توزيعاً صحيحاً ، وزحفت القوة الألمانية الرمزية الى العاصمة ، وراء فرقة موسيقية تعزف ألحانها العسكرية . وهكذا سقطت آخر مدينة في النروج ، ولكن النروج نفسها ظلت صامدة .

وعقد البرلمان النروجي جلسة في هامار بعد ظهر التاسع من نيسان ، شهدها

جميع اعضائه المائتين باستثناء خمسة فقط ، ولكن الجلسة ما لبثت ان أجلت في الساعة السابعة والنصف مساء، عندما وردت الانباء عن اقتراب القوات الالمانية من البلدة، وارتحل اعضاء البرلمان الى ايلفيروم التي تقع على بعد بضعة اميال نحو الشرق باتجاه الحدود السويدية . وكان الدكتور بروير ، بالحاف من ريبنتروب ، يطلب مقابلة فورية مع الملك . ووافق رئيس الوزراء على هذه المقابلة شريطة ان تنسحب القوات الألمانية الى مسافة بعيدة باتجاه الجنوب . ولكن الوزير الألماني المفوض لم يوافق على هذا الطلب .

وكان الألمان يعدون في هذه الآونة خدعة جديدة فقد غادر الرئيس سبيلر ، الملحق الألماني الجوي ، مطار فورنيبو يرافقه فصيلان من المظليين الألمان باتجاه هامار لاعتقال الملك المتردد واعضاء حكومته . وخيل اليهم ان تراجع الملك وحكومته لا يعدو ان يكون لهواً ولعباً . ولما كانت القوات النروجية لم تطلق عياراً واحداً لتحول دون دخول الألمان الى اوسلو ، فقد توقع سبيلر ان لا يجد أية مقاومة في هامار . واستقل العقيدان الألمانيان سيارتي «باص» ومضيـا في طريقهما يتطلعان الى المناظر الرائعة التي تحيط بهما . ولم يحسبا حساب ضابط في الجيش النروجي سلك سلوكاً مغايراً للآخرين ، وهو العقيد روج المفتش العـام للمشاة ، الذي كان قد رافق الملك في اتجاهـه شمالاً ، وأصر على تأمين نوع من الحماية للحكومة الهاربة ، ولذا أقام حاجزاً على الطريق على مقربـة من هامار يعززه فوجان من المشاة كان هـذا الضابط الباسل قد جمعهما بسرعة . وأوقف النروجيون السيارتين الألمانيتين ، وتبعت ذلك مناوشة اصيب فيها سبيلر بجراح قاتلة . ومني الألمان باصابات اخرى واضطروا الى العودة الى اوسلو .

وراح الدكتور بروير يغادر اوسلو وحيداً في اليوم التالي باتجاه هامار لمقابلة الملك . وبالطبع لم يكن هذا الدبلوماتي المتهن من رجـال المدرسة القديمة ميالاً الى اداء هذه المهمة الشاقة ، ولكن ريبنتروب ظل يحثه باصرار على التحدث الى الملك وحكومته ليطلب اليهما الاستسلام. وأدى وقوع بعض الأحداث السياسية في اوسلو الى الزيادة في تعقيد مهمة الألماني . ففي الليلة السابقة ، تحرك كويزلنغ

اخيراً ، بعد ان أحس بثبات مركز الالمان في اوسلو ، واقتحم دار الاذاعـة ، حيث ألقى بياناً على الشعب النروجي ، اعلن فيه نفسه رئيساً للحكومة الجديدة وطلب الى جميع النروجيين وقف كل مقاومـــة للألمان فوراً . وعلى الرغم من عدم تفهم بروير لهذه الحقيقة ، وعلى الرغم من عدم تفهم الالمان لها ، حتى بعـد عهد طويل ، فان هذا العمل الخيـاني ، قضى بالفشل على كل محاولات الالمان لاقناع النروج بالاستسلام . وفي وسعنا القول على سبيل المناقضة ، ان خيانـة كويزلنغ على الرغم من تمثيلها لحظة من لحظـات العار القومي بالنسبة الى الشعب النروجي ، إلا انها حشدت جميع النروجيين الذين أذهلتهم المفاجأة وراء حركة المقاومة التي غدت قوية وبطولية .

واجتمع الدكتور بروير ، الى الملك هاكون السابع ، وهو الملك الوحيد في القرن العشرين الذي انتخبه الشعب لارتقـــاء العرش ، كما كان الملك الاول في النروج ، من أصل نروجي ، منذ خمسة قرون ، وقد دارت المقابلة في بلدة صغيرة تدعى ايلفيروم في الساعة الثالثة من بعد ظهر العاشر من نيسان [١] . وفي وسعنا ان نقدم وصفاً لما دار في هذا الاجتماع على ضوء الحديث الذي دار بين المؤلف فيما بعد وبين الملك هاكون ، وعلى ضوء دراسة الوثائق النروجية ، والتقرير السري الذي وضعه الدكتور بروير والذي عثرت عليه بين الوثائق الالمانيـة المصادرة . ولقد رضي الملك بعد تردد طويل ، بالاجتماع الى المبعوث الالماني بحضور الدكتور هالفدان كوهت وزير الخارجية . وعندما أصر بروير على مقابـلة انفرادية مع الملك ، رضي هذا اخيراً ، بعد موافقة وزير خارجيته .

وحاول الوزير الالماني المفوض ، تنفيذاً للتعليمات التي تلقاها من حكومتـه ،

---

١ – ظلت النروج جزءاً من الدانيارك مدة اربعة قرون ، ثم اصبحت جزءاً من السويد مدة قرن آخر ، ولم تستعد استقلالها الكامل الا في عام ١٩٠٥ ، عندما انفصلت عن اتحادهـــا مع السويد ، وانتخب شعبها الأمير كارل الدانياركي ملكاً للنروج ، حاملا اسم الملك هاكون السابع. وكان هاكون السادس قد توفي في عام ١٣٨٠ . وكان الملك هاكون السابع شقيقـــاً للملك كريستيان العاشر الدانياركي ، الذي استسلم الى الالمان صباح التاسع من نيسان عام ١٩٤٠ .

التملق الى الملك من ناحية ، وارهابه من الناحية الاخرى . فألمانيا تريـد – كما قال – الحفاظ على الأسرة المالكة . وكل ما تريد من هاكون ان يعمله ، هو ان يحذو حذو اخيه ملك الدانيمارك . واضاف ان من الجنون والحمق، مقاومة الجيش الالماني « الفير ماخت » ، اذ ان النتيجة الوحيدة لهذه المقاومة، مذابح لا طائل تحتها ، ولا فائدة منها . وطلب المبعوث من الملك ان يقر قيام حكومة كويزلنغ وان يعود الى عاصمته . وراح هاكون وهو الرجل الديموقراطي بطبعـه ، والمتمسك أشد التمسك حتى في هذه اللحظات المفجعة في تاريخ بلاده بالاجراءات الدستورية ، يحاول ان يوضح للدبلوماتي الألماني ، ان الملك في النروج ، لا يقرر المسائل السياسية ، وان مثل هذا التقرير من صلاحيـة الحكومة ليس إلا ، ولذا فهو يرى ضرورة مشاورتها . وانضم وزير الخارجية في هذه اللحظة الى الملك في محادثاته ، واتفق على ان ينقل رد الحكومة هاتفيـاً الى بروير ، وهو في طريق العودة الى اوسلو .

ولم يكن ثمة إلا رد واحد عند هاكون للألمان ، رغم عدم اتخاذه القرارات السياسية ، وذلك نتيجة قدرته على التأثير عليها . وكان هـذا الرد هو التراجع الى نزل متواضع من قرية نيبرغساند القريبة من ايلفيروم ، مخافة ان يحـاول الألمان اعتقاله بهجوم مباغت آخر بعد عودة الوزير الالماني . واستدعى الى هذا النزل جميع اعضاء حكومته ليؤلفوا مجلساً أعلى للدولة ، وراح يقول لهم :

« لا استطيع من ناحيتي ان اقبل بالمطالب الالمانية ، اذ ان هذا القبول يتعارض مع كل ما اعتبرته واجباً كملك للنروج ، منـذ ان جئت الى هذه البلاد قبل نحو من خمسة وثلاثين عامـاً . وانا لا أود ان اؤثر ببياني هذا على القرار الذي تتخذه الحكومة ... فليس في وسعي ان أعين كويزلنـغ رئيساً للوزراء ، وهو الرجل الذي اعرف تمام المعرفة ان شعبنا وممثليـه في البرلمان لا يثقون به مطلقـاً .

« ولهذا فاذا اختارت الحكومة قبول المطالب الالمانية ، وانا

ادرك الاسباب التي قد تحملها على هـــذا القبول ، بالنظر الى خطر الحرب التي يتحتم على الكثيرين من النروجيين الشبان التضحيـــة بأرواحهم فيها ، فان السبيل الوحيد الذي يظل ماثلاً امامي ، هو النزول عن العرش »[١] .

وعلى الرغم من وجود بعض المترددين والمتشككين من الاعضاء ، حتى هذه اللحظة ، إلا ان الحكومة وجدت نفسها عاجزة عن ان تكون أقل شجاعة من الملك وسرعان ما التفت حوله وأيدت موقفه. وتلقى الوزير الألماني عندما وصل الى ايدزفولد الواقعة في منتصف الطريق الى اوسلو ، رد الحكومة النروجيـة ، وقد نقله اليه الدكتور كوهت وزير الخارجيـــة عن طريق الهاتف وراح بروير يهتف به فوراً الى مفوضيته في اوسلو ،التي تولت بدورها نقله الى برلين على جناح السرعة .. وهذا هو الرد :

« قرر الملك تلبية للمشورة الجماعية من حكومتـه ، ان لا يعين حكومة يرئسها كويزلنغ .. أما بالنسبة الى السؤال المحدد الموجّه الي ، فان المقاومة ستستمر اطول وقت ممكن[١] » .

وألقت الحكومة النروجية في ذلك المساء من محطة اذاعة ريفيـــة صغيرة وقريبة ، هي كل ما تبقى من سبيل للاتصال مع العالم الخارجي ، بقفاز التحدي في وجه الرايخ الثالث القوي . وقد اعلنت قرارها بعدم قبول المطالب الألمانية ، وناشدت شعبها الذي يعد ثلاثة ملايين ليس إلا ، مقاومة الغزاة . وقد اشترك الملك ايضاً في اصدار هذا النداء .

ولكن الفاتحين النازيين لم يستطيعوا حمل انفسهم على الاعتقاد بصحة مـــا يقوله النروجيون . وجرت محاولتان اخريان لإقناع الملك . فقد اوفد كويزلنغ في الحادي عشر من نيسان رسولاً هو الرئيس ايرغينس ، ليستحث الملك على

---

١ - من وثائق الدولة النروجية . مقتبس من كتـــاب المؤلف (تحدي اسكندينافيا) ص ٣٨ .

٢ - وثائق وزارة الخارجية الألمانية (٩) ص ١٢٤ .

العودة الى العاصمة . وقد وعده بأن يقوم كويزلنغ بخدمتـــه بولاء واخلاص . ولكن الملك رفض عرضه باحتقار صامت .

ووصلت بعد الظهر رسالة عاجلة من بروير يطلب فيها مقابلة اخرى مع الملك لتقديم « اقتراحات معينة اخرى » . وكان الوزير الألماني الواقــع تحت الضغط والالحاف قد تلقى تعليمات من ريبنتروب ، بأن ينقل الى الملك « رغبتــه في ان يتيح للشعب النروجي ، الفرصة الأخيرة ، لعقد اتفـــاق معقول[1] » . وتلقى الوزير الألماني هـــذه المرة بعد التشاور مع الملك ، رد وزير الخارجية ، بأن في وسعه ان ينقل هذه « الاقتراحات المعنية » الى الوزير اذا اراد .

وكان رد الالمان على هـــذه الصدمة من دولة صغيرة ، لا حول لها ولا طول كالنروج فورياً ومتفقاً مع طبيعة النازيين . فلقد فشلوا اولاً في وضع ايديهم على الملك وعلى اعضاء حكومته ، وها هم يفشلون في حملهم الآن على الاستسلام . ولم يبق امامهم إلا ان يقتلوهم . واوفدوا بعد ظهر الحادي عشر من نيسان طائرات سلاحهم الجوي ، لتعطي لقرية « نيبرغساند » ، الدرس الذي تستحقه . وقـام الطيارون النازيون بتدمير القرية كلها بالقنابل المتفجرة والمحرقـــة ، كما أصلت بنيران مدافعها الرشاشة أولئك الذين حاولوا النجاة من الخرائب المحرقـــة . ويبدو ان الالمان اعتقدوا بادىء ذي بدء انهم قد افلحوا في ذبح الملك واعضاء حكومته . فقد تضمنت يومية طيار الماني عثر عليها فيما بعـــد في شمال النروج الفقرة التالية بتاريخ الحادي عشر من نيسان : « حكومـــة اوسلو . تم مسحها

---

١ . هناك اشارة مشؤومة عن خديعة المانية اخرى في تعليمات ريبنتروب السرية. فقـــد امر بروير بأن يرتب المقابلة في نقطة تقع بين « اوسلو وبين المكان الحالي الذي يقيم فيه الملك . وقد طلب منه ايضاً لأسباب واضحة ، ان يبحث هذه الحركة بحثاً مستفيضاً مع الذيرق فون فالكنهورست، وان يبلغ الاخير عن المكان الذي اتفق على عقد الاجتماع فيه » . وذكر غاوس الذي هتف لبروير بتعليمات ريبنتروب في تقريره ان « الهر بروير قد فهم بوضوح معنى هذه التعليمات . وفي وسع المرء ان يتصور بأن الملك لو ذهب الى هذه المقابلة ، لوضعت قوات فالكنهورست يدها عليه (وثائق وزارة الخارجية الالمانية (٧) ص ١٢٩) .

من الوجود » .

اجل لقد مسحت القرية من الوجود ولكن الحكومة والملك ظلا في حيّز الوجود . وقد احتمى الملك واعضاء حكومته عند مجيء القاذفات النازية في غابة مجاورة . ووقفوا جميعاً في الثلج حتى ركبهم وشاهدوا الطائرات الالمانية وهي تحيل القرية الصغيرة الى انقاض . وتحتم عليهم ان يختاروا بين احد امرين ، إما الانتقال الى الحدود السويدية القريبة ، والعثور على الملجأ في السويد المحايدة ، أو الاندفاع شمالاً في جبالهم ، التي ما زالت تغطيها ثلوج الربيع . وقرروا اخيراً الصعود مع وادي غودبراندز ، الذي يمر بهامار وليليهامار وعبر الجبال الى اندالسنس على الساحل الشمالي الغربي على بعد مائة ميل الى الجنوب الغربي من تروندهايم . وتصورت الحكومة ان ما في وسعها في الطريق تنظيم ما تبقى من قوات متفرقة ، ما زالت تعلوها الدهشة ، لابداء مقاومة اخرى . وكان ثمة بعض الأمل في ان تصل قوات بريطانية في النهاية لتقديم العون لهم .

معارك النروج

وكان الاسطول البريطاني قد رد رداً قوياً على الاحتلال الالماني المفاجيء في اقصى الشمال . وقد اعترف تشرشل ، الذي كان مسؤولاً عن الاسطول في هذا الحين ، بأن الالمان تفوقوا عليه في المكر والدهاء . إذ لما كانت المنطقة في أقصى الشمال ، بعيدة على الأقل عن مرمى القاذفات الالمانية التي تستند الى القواعد الارضية ، فقد تحول الاسطول البريطاني فيها الى الهجوم . ففي صباح العاشر من نيسان ، أي بعد اربع وعشرين ساعة من استيلاء المدمرات الالمانية على نارفيك وانزالها قوات دايتل فيها، دخلت قوة مؤلفة من خمس مدمرات بريطانية الى ميناء نارفيك واغرقت مدمرتين من المدمرات الالمانية الخمس ، الموجودة في الميناء ، وعطلت الثلاث الباقية واغرقت جميع بواخر الشحن الالمانية باستثناء واحدة منها . وقد قتل القائد البحري الالماني الرير اميرال بونتي في هذه العملية

ولكن ما كادت المدمرات البريطانية تخرج من الميناء حتى اصطدمت بالمدمرات الألمانية الخمس الباقية ، وقد طلعت لها من الخلجان المجاورة . وتمكنت الوحدات الألمانية بمدافعها المتفوقة من اغراق مدمرة بريطانية واحدة ، وارغام اخرى على الجنوح الى الشاطىء ، واصابة ثالثة بأضرار بالغة . وقد اصيب القائد البريطاني القبطان واربورتون ـ بي وكان على ظهر المدمرة الثانية بجراح قاتلة وتمكنت ثلاث من المدمرات البريطانية من النجاة الى البحر ، حيث اغرقت عند انسحابها سفينة نقل المانية ضخمة ، ملأى بالذخائر ، كانت في طريقها الى الميناء .

وعاد الاسطول البريطاني ظهر الثالث عشر من نيسان ، تتقدمه هذه المرة البارجة « وورسبايت » ، وهي من البوارج التي نجت من معركة جتلند البحرية في الحرب الكونية الأولى ، ومعها عمارة من المدمرات ، الى نارفيك فازالت من الوجود ما تبقى من السفن الحربية الألمانية في الميناء . وراح نائب الاميرال و. جي. ويتوورث قائد الاسطول المهاجم يبعث ببرقية لاسلكية الى الاميرالية يتحدث فيها عما قام به من اعمال ، ويحثها فيها على وجوب قيام القوات البريطانية الاساسية باحتلال نارفيك ، بعد ان اصيبت القوات الألمانية الموجودة على الساحل بالذهول وتفرقت ايدي سبا ، بينما كان دايتل قد انسحب في الحقيقة مع رجاله الألمان الى الجبال المحيطة بالميناء . وكان امير اللواء بي . جي. ماكيسي ، القائد البريطاني ، لسوء حظ الحلفاء من النوع الشديد الحذر والحيطة ، فلما وصل في اليوم التالي بقوة طليعية تتألف من ثلاثة افواج مشاة ، قرر ان لا يغامر بالنزول في نارفيك ، وان يهبط بقواته في هارستاد ، التي تبعد خمسة وثلاثين ميلاً الى الشمال ، والتي كانت لا تزال في ايدي النروجيين . وكانت غلطة كلفت الحلفاء غالياً .

واذا ما عرفنا الحقيقة الواقعة وهي ان البريطانيين كانوا قد اعدوا حملة صغيرة للنروج من قبل ، تبين لنا انهم كانوا جد مبطئين في ايفاد قواتهم الى الميدان فبعد ظهر الثامن من نيسان ، وكانت الانباء قد وصلت عن تحرك وحدات الاسطول الألماني باتجاه الساحل النروجي ، راح الاسطول البريطاني ينزل بسرعة

القوات التي كانت قد استقلت بواخره ووحداته استعداداً لاحتلال ستافانغر وبرغين وتروندهايم ونارفيك ، على اساس الاعتقاد بأنه سيحتاج الى كل باخرة من بواخره للعمليات البحرية . وعندما عادت الاميرالية الى ارجاع هذه القوات الى البواخر ، كانت جميع هذه المدن النروجية قد باتت في ايدي الألمان وعندما وصلت هذه القوات الى اواسط النروج كان مصيرها قد تقرر كما تقرر مصير السفن الحربية البريطانية التي عهد اليها بحماية القوات البرية بفضل سيطرة السلاح الجوي الألماني على سماء المعركة .

وهبط الى البر في العشرين من نيسان لواء بريطاني تعززه ثلاثة افواج من الرماة الألبيين الفرنسيين ، وذلك في موقع نامسوس الميناء الصغير الذي يقع على بعد ثمانين ميلاً الى الشمال الشرقي من تروندهايم ، كما هبط لواء بريطاني ثانٍ في اندالسنس التي تقع على بعد مائة ميل الى الجنوب الغربي من تروند هايم ، وكانت الخطة ترمي الى مهاجمة المدينة من الشمال والجنوب . لكن هاتين القوتين نظراً لافتقارهما الى مدفعية الميدان ، والمدافع المضادة للطائرات ، والدعم الجوي ، لم تستطيعا تهديد تروندهايم تهديداً جدياً ، وذلك لتعرض قواعدهما الى القصف الجوي المتواصل ليلاً ونهاراً من القاذفات الألمانية التي حالت كذلك دون انزال اية مؤن جديدة أو تعزيزات للقوات الهابطة وحوّل اللواء البريطاني الذي هبط في اندالسنس اتجاهه بعد ان التقى بقوة نروجية في دومباس ، مركز التقاء الخطوط الحديدية الواقع على بعد ستين ميلاً الى الشرق ،فتخلى عن فكرة الهجوم شمالاً نحو تروندهايم ، وراح يدفع الى الجنوب الشرقي مع وادي غود براند سدال ، هادفاً الى مساعدة القوات النروجية الرئيسية ، التي كانت تعمل تحت قيادة العقيد روج النشيطة في ابطاء الزحف الألماني الرئيسي المتقدم مع الوادي من مدينة اوسلو .

ووقع أول اشتباك في الحرب بين القوات البريطانية والألمانية في بلدة ليليهامار الواقعة الى الشمال من هامار . في الواحد والعشرين من نيسان ، لكن كفة القوى لم تكن متوازنة إبداً فلقد غرقت الباخرة التي كانت تنقل للواء

البريطاني مدفعيته، وحتم على الجنود البريطانيين والحالة هذه ان يحاربوا بالبنادق والمدافع الرشاشة قوات المانية تفوقهم عدداً ، وتعززها المدفعية والدبابات الخفيفة . يضاف الى هذا ان قوات المشاة البريطانيين ، وهي تفتقر الى العون الجوي ، تعرضت باستمرار الى قصف عنيف من طائرات السلاح الجوي الألماني العاملة من مطارات النروج القريبة . وسقطت ليليهامار في يد الألمان بعد معركة دامت اربع وعشرين ساعة ، وشرعت القوات البريطانية والنروجية في عملية تراجع مسافة مائة واربعين ميلاً مع الوادي وبمحاذاة السكة الحديدية الى اندالسنس ، متوقفة هنا وهناك لخوض معركة تعويقية ، اخرت الزحف الألماني ولكنها لم توقفه مطلقاً . وتم اجلاء القوات البريطانية من اندالسنس في الثلاثين من نيسان والاول من ايار ، وسحبت الوحدات البريطانية والفرنسية من نامسوس في الثاني من ايار ، وهي عمليات جلاء رائعة في حد ذاتها اذ ان الميناءين كانا قد باتا شعلة من النيران من جراء القصف الجوي الألماني . وقام الطراد البريطاني « غلاسجو » في التاسع والعشرين من نيسان ينقل ملك النروج واعضاء حكومته من « مولديه » الواقعة على خليج « رومسدال » على مقربة من اندالسنس التي غدت في حد ذاتها حطاماً من الرماد من غارات الطائرات الالمانية ونقلتهم الى ترومسو الواقعة في الدائرة القطبية الى الشمال من نارفيك ، حيث اقيمت الحكومة النروجية المؤقتة في الاول من ايار .

وكان القسم الجنوبي من النروج في هذه الفترة بكل ما فيه من مدن وبلدان مهمة ، قد وقع تحت سيطرة الالمان ولكن بدا ان القسم الشمالي من البلد سيظل حراً من سيطرتهم . وقد تمكنت قوة للحلفاء قوامها خمس وعشرون الف رجل بينهم لواءان من النروجيين ولواء من البولنديين وفوجان من الفرقة الاجنبية الفرنسية ، باخراج الالمان من نارفيك نتيجة تفوق الحلفاء العددي الهائل ولم يبد ثمة أي سبب يدعو الى الشك في ان هتلر سيحرم من حاجاته الى الحديد ، وسيمنع من احتلال جميع اجزاء النروج ، وارغام الحكومة النروجية على الاستسلام . ولكن كانت القوات الالمانية المسلحة في هذه الآونة قد وجهت

ضربتها بقوات مذهلة في الجبهة الغربية ، وكان الحلفاء في حاجة الى كل جندي من جنودهم لسد الثغرة . واضطروا الى الجلاء عن نارفيك . واعيد الجنود الى البواخر بسرعة ، وعاد الفريق دايتل الالماني الذي كان قد صمد بقواته في المنطقة الجبلية الوعرة القريبة من الحدود السويدية ، الى احتلال الميناء في الثامن من حزيران ، فاستسلم اليه بعد اربعة ايام القائد النروجي الباسل والشجاع العقيد روج ومن تبقى معه من قوات غلب عليها الغضب والدهشة من جراء ما أحسوا به من تخلي البريطانيين عنهم ونقل الملك هاكون وحكومته على ظهر الطراد البريطاني « ديفونشاير » من ترومسو في السابع من حزيران ليقلهم الى لندن ليقضوا فيها خمس سنوات من النفي المؤلم [1]. ورفعت برلين دايتل الى رتبـــة

---

١ - لم يعد حكم كويزلنغ في محاولته الاولى للسيطرة على النروج طويلاً . فبعد ستة ايام من اعلان نفسه رئيساً للوزراء ، قام الألمان بطرده في الخامس عشر من نيسان وعينوا مجلساً اداريا مؤلفاً من ستة اشخاص من كبار النروجيين ، وبينهم المطران ايفيند بيرغراف ، رئيس الكنيسة اللوثرية في النروج وبآل بيرغ رئيس المحكمة العليا . وكان هذا التطور نتيجة جهود بيرغ المشروع البارزة والعنيد الذي بات فيما بعد رئيس حركة المقاومة السرية النروجية .واختارهتلر في الرابع والعشرين من نيسان جوزيف تيربوفن ، احد الشبان النازيين البارزين ليصبح مفوض الرايخ في النروج ، فبات بالفعل حاكما البلاد الحقيقي ، الذي تزايدت شراسته ووحشيته يوماً بعد آخر خلال فترة الاحتلال . واستدعت برلين في السابع عشر من نيسان وزيرها المفوض برور ، الذي عارض كويزلنغ منذ البداية واحالته الى الاستيداع من السلك الدبلوماسي ، ثم بعثت به فيما بعد كجندي الى الجبهة الغربية . وعاد الالمان فنصبوا كويزلنغ رئيساً للوزراء في عام ١٩٤٢ ،وعلى الرغم من ان الشعب النروجي ظل على كراهيته الشديدة له ، الا ان سادته الالمان لم يمنحوه السلطة مطلقاً على الرغم من مساعيه الكبرى لارضائهم وخدمتهم .

وقد حوكم كويزلنغ في نهاية الحرب بتهمة الخيانة العظمى ،وأدين بعد محاكمة طويلة ومجهدة ، وقضي عليه بالاعدام الذي نفذ فيه في الرابع والعشرين من تشرين الاول عام ١٩٤٥ وآثر تيربوفين الموت على ان يقع اسيراً في ايدي الحلفاء . وحوكم نوت هامسون الكاتب القصصي النروجي العظيم بتهمة الخيانة العظمى لتعاونه الصريح مع الالمان والاشادة بهم وكيل المديح لهم ،ولكن القضاء برأ ساحته نظراً لشيخوخته وما اصابه من خرف.ولكنه حوكم بتهمة (استغلال العهد النازي) وأدين وقضت عليه المحكمة بدفع غرامة قدرها (٦٥) الف دولار . وقد توفي في التاسع عشر من شباط عام ١٩٥٢ وهو في الثالثة والتسعين من عمره.وحوكم الفريق فون فاكنهورست كمجرم حرب=

الفريق الكاملة، ومنحته ارفع الأوسمة ، ونعته هتلر بلقب « بطـــل نارفيك » .

* * *

ولقد واجه الفوهرر على الرغم من انتصاراته المدهشة لحظات عصيبة إبان الحملة النروجية . وتحتشد يوميات يودل ، بفقرات رائعة في صياغتها تتحدث عن السلسلة المتعاقبة من الأزمـــات العصبية التي مرّ بها سيد الحرب . فقد دوّن في الرابع عشر من نيسان يقول ان الفوهرر اصيب « بنوبة عصبية فظيعة » لدى تلقيه الأنباء بإزالة القوات البحرية الالمانية في نارفيك من الوجود . وطلب ان تُجلى قوات الفريق دايتل من منطقة نارفيك بطريق الجو ، وهو أمر مستحيل . ودوّن يودل في يوميته لذلك اليوم ايضاً « ان كل مجموعة من الأنباء السيئة تؤدي الى أسوأ المخاوف في نفس الفوهرر » وعاد بعد يومين يقول : « تجددت الأزمة . فشلت الاجراءات السياسية . استدعي الوزير براور . ويقول الفوهرر ان القوة يجب ان تستخدم ... »[1] واحتد النقاش في الاجتماعات التي عقـــدت في دار المستشارية في برلين في ذلك اليوم التاسع عشر من نيسان ، وأخذ رؤساء الفروع الثلاثة للقوات المسلحة يتبادلون التهم في موضوع الابطاء في العمليات العسكرية الى الحد الذي اضطر معه كايتل الجبان الى الخروج من الغرفة . واضاف في يوميته بتاريخ الثاني والعشرين من نيسان يقول : « يشعر الفوهرر بقلق متزايد من النزول البريطاني في النروج » .

وادى البطء في تقدم القوات الألمـــانية المتجهة من اوسلو الى الشمال نحو

= امام محكمة عسكرية بريطانية - نروجية مختلطة، بتهمة تسليم بعض فدائيي الحلفاء الذين وقعوا في أسره الى الحرس النازي لاعدامهم . وقد حكم عليه بالاعدام في الثاني من آب عام ١٩٤٦ ولكن الحكم ما لبث ان خفف الى السجن مدى الحياة .

١ — قام الفريق فون فالكنهورست في الثالث عشر من نيسان ، تلبية لامر هتلر حتماً ، الذي كان في أوج غضبه بسبب المقاومة النروجية بتوقيع أمر يقضي باعتقال عشرين من كبار رجال النروج البارزين كرهائن ، بينهم المطران بيرغراف وبآل بيرغ . وكان من المحتم ، على حد تعبير الوزير الالماني المفوض براور (اعدام هؤلاء في حالة استمرار المقاومة او محاولة القيام بأي عمل من اعمال التدمير) . وثائق وزارة الخارجية الالمانية ، (٩) ص ١٨٦) .

تروندهايم واندالسنس ، الى ازدياد موجة « الحماس والهياج » في الثالث والعشرين من نيسان ، على حد تعبير يودل ، ولكن عادت الانباء فتحسنت في اليوم التالي ، ثم تابعت اشراقها اعتباراً من ذلك اليوم . وكان سيد الحرب قد بات في السادس والعشرين من نيسان في وضع مرح رائع ، حتى انه في الساعة الثالثة والنصف من صباح ذلك اليوم ، وبعد جلسة استمرت طيلة الليل مع مستشاريه العسكريين ، راح يعلن لهم انه يعتزم البدء بالعملية « الصفراء » بين الاول من ايار والسابع منه . وكان هذا الاسم الرمزي قد اطلق على الهجوم الكبير في الغرب عبر هولندة وبلجيكا . وعلى الرغم من ان القلق على تروندهايم قد عاود هتلر في التاسع والعشرين من نيسان إلا انه ما لبث في اليوم التالي ان « غمره الفرح » بعد ان وصلته الانباء بأن جماعة مقاتلة من اوسلو قد وصلت الى المدينة . وبات في وسعه الآن ان يركز جميع اهتمامه في الجبهة الغربية . واصدر في الأول من ايار أمره بأن تكون الاستعدادات كاملة قبل الخامس من ايار للهجوم في الغرب .

وقد ذاق قادة القوات الالمانية المسلحة من امثال غورنغ وبراوخيتش وهولدر وكايتل ويودل وريدر والبقية ، لأول مرة وإبان الحملة النروجية ما يصيب زعيمهم المجنون من انهيار ، لدى وقوع اية نكسات مهما كانت ضئيلة في المعركة . وكان هذا ضعفاً في الزعيم ما لبث ان نما معه ، عندما تحول تيار الحرب بعد سلسلة من الانتصارات العسكرية المذهلة ، وكان عاملاً مهماً اسهم اسهاماً قوياً في التصدع النهائي الذي اصاب الرايخ الثالث .

ولكن مهما كان الشكل الذي يرى فيه المرء هذه الصورة ، فان السرعة التي تم فيها احتلال الدانيمارك والنروج كان نصراً مهماً لهتلر ، وهزيمة مثبطة للعزائم بالنسبة الى البريطانيين . فقد أمن هذا النصر لهتلر طريق الحديد في الشتاء ، وضمن حماية اضافية لمداخل بحر البلطيق ، وسمح للاسطول الألماني الجريء ، باختراق الحصار الى شمال الأطلسي ، وسمح للألمان بموانىء ممتازة تستخدمها الغواصات والسفن الحربية الأخرى في حربها البحرية ضد بريطانيا . وزود هذا

النصر هتلر بقواعد جوية تقربه مئات الاميال من العدو بالنسبة الى قواعده الاصلية . ولعل اهم نتيجة لهذا النصر انه ضاعف من سمعة الرايخ الثالث العسكرية واضعف بالتالي سمعة الحلفاء الغربيين . وبدت المانيا النازية في عيون الناس وكأنها الدولة التي لا تقهر . فقد اذعنت النمسا وتشيكوسلوفاكيا وبولندة ، والدانيمارك والنروج بسهولة لسيطرة هتلر ،او لتهديده باستعمال قوته ، وبدت مساعدة الدولتين الغربيتين الكبيرتين ، كما وقع في النروج مثلاً ، وكأنها ليست كبيرة النفع أو ذات جدوى وبدا ان موجة المستقبل ، كما كتبت سيدة امريكيه بارزة ، ملك لهتلر والنازية .

وكان فتح هتلر الاخير بالنسبة الى ما تبقى من الدول المحايدة عبرة مرعبة . وبدا من الواضح ان الحياد لا يؤمن الحماية للدول الديموقراطية الصغيرة التي تحاول البقاء في عالم تسيطر عليه الانظمة الجماعية . وقد اكتشفت فنلندة هذه الحقيقة ، وجاء الآن دور النروج والدانيمارك . وكان على هذه الدول ان تلوم نفسها لأنها كانت عمياء البصيرة ، ولأنها رفضت ان تقبل في الوقت المناسب وقبل ان يقع العدوان الفعلي العون من الدول الكبيرة الصديقة .

ولقدسمعنا تشرشل يقول في مجلس العموم في الحادي عشر من نيسان :

« واني لواثق من ان الدول ستفكر تفكيراً عميقاً في هذه الحقيقة ، اذ انها قد تتعرض غداً او بعد اسبوع أو بعد شهر ، الى ان تغدو فريسة لخطة مدروسة درساً كاملاً وضعتها هيئة اركان حرب متقنة ، لتدميرها واستعبادها » (١)

ومن الواضح ان تشرشل كان يفكر في كل من هولندة وبلجيكا عندما قال قوله هذا ، على الرغم من ان المانيا شاءت ان تفسح لهاتين الدولتين نعمة الراحة لمدة شهر آخر ، ولكنهما لم تكونا مطلقاً تفكران هذا التفكير (٢) .

---

١ – تشرشل – مذكرات – الجزء الاول – ص ٦٠١ .

٢ – وجدالسويديون أنفسهم بين روسيا في فنلندة ودول البلطيق،وبين المانيا التي تسيطر على جارتيهم النروج والدانيمارك، فكروا طويلا وقرروا ان لامناص لهم من التمسك بحيادهم الغريب =

وكانت هناك دروس عسكرية يجب تعلمها من فتح هتلر الخاطف للدولتين الاسكندينافيتين . ولعل ابرز هذه الدروس ، اهمية السيطرة الجوية وتفوقها على القوات البحرية عندما تكون القواعد البرية للقاذفات والمقاتلات قريبة من ميادين القتال . ولعل الدرس الثاني الذي لا يقل اهمية عن سابقه هو الدرس القديم القائل بأن النصر يكون دائماً حليف الجريء ، والواسع الخيـــال . وكان الاسطول والسلاح الجوي الالمانيان يتميزان بهاتين الصفتين معاً ، كما ابدى دايتل في نارفيك ما يتميز به الجيش الألماني من دهاء وسعة حيلة تفتقر اليهما جيوش الحلفـــاء كل الافتقار .

وكانت ثمة ثمرة عسكرية للمغامرة النروجية لم يكن في الامكان تقدير قيمتها

= وان يموتوا وهم يقاتلون اذا تعرضوا للهجوم .وكانوا قد ارضوا الاتحاد السوفياتي بعدم السماح لقوات الحلفاء بعبور فنلندة ، وهاهم يحاولون الآن ترضية المانيا بعد ان تعرضوا لضغطها الشديد. وعلى الرغم من ان السويد كانت قد بعثت بكميات كبيرة من السلاح الى فنلندة الا انها رفضت ان تبيع السلاح أو حتى الوقود للنروج عندما هوجمت . وظل الالمان طيلة شهر نيسان يطلبون من السويد السماح لهم بنقل قواتهم الى نارفيك لنجدة الفريق دايتل ، ولكنها رفضت السماح لهم بذلك حتى انتهاء العمليات الحربية ، على الرغم من سماحها لقطار يقل بعثة طبية وبعض المواد بالعبور في اراضيها . واذعنت السويد في التاسع عشر من حزيران لضغط هتلر مخافة تعرضها لهجومه المباشر، ووافقت على السماح بنقل القوات النازية والمعدات الحربية الى النروج على خطوطها الحديدية، شريطة ان يكون عدد القوات المرسلة الى النروج موازياً الى التي تنقل في طريق العودة الى المانيـــا ، وذلك لتضمن عدم تعزيز الحاميات الالمانية في النروج عن طريق هذا الترتيب .

وكان هذا العون كبيراً لألمانيا . فقد وفر سماح السويد لهتلر بنقل القوات الجديدة والمعدات الحربية بطريق البر الى النروج ، عليه تعريض هذه القوات والمعدات لخطر الغرق على ايدي البريطانيين . وتم في الستة اشهر الاولى من هذا الاتفاق تبادل نحو من (١٤٠) الف جندي الماني في النروج كما تم تعزيز هذه القوات بكميات كبيرة من المؤن والمعدات . وقبيل بدء الهجوم الألماني الكاسح على روسيا، سمحت السويد للقيادة العليا الالمانية بنقل فرقة عسكرية كاملة من النروج عبر اراضيها الى فنلندة لاستخدامها في الهجوم على الاتحاد السوفياتي. وهكذا فقد سمحت لألمانيا الآن بما ضنت به على الحلفاء في السنة السابقة . وفي وسع القارىء للحصول على تفاصيل الضغط الألماني على السويد ونصوص الرسائل المتبادلة بين الملك غوستاف وبين هتلر ، ان يراجع كتاب « وثائق عن السياسة الخارجية الالمانية (٩) » . وقد بحث المؤلف في هذا الموضوع بحثاً وافياً في كتابه « تحدي اسكندينافيا » .

فوراً ، وذلك بسبب عدم التمكن من النظر بعيداً الى المستقبل . وكانت خسائر الفريقين في النروج ضئيلة للغاية . فقد خسر الألمان ١٫٣١٧ قتيلاً و٢٣٧٥ مفقوداً و١٦٠٤ من الجرحى ، وبلغ بذلك مجموع الخسائر (٥٢٩٦) ، بينما بلغت خسائر النروجيين والفرنسيين والبريطانيين أقل من خمسة آلاف . وخسر البريطانيون حاملة طائرات وطراداً وسبع مدمرات كما خسر كل من البولنديين والفرنسيين مدمرة واحدة اما خسائر الالمان البحرية فكانت اضخم نسبياً ، اذ فقدوا عشر مدمرات من مجموع عشرين يملكونها،وثلاثة طرادات من مجموع ثماني ،كمااصيبت البارجتان – الطرادان شارنهورست وغفيزنار وبارجة الجيب لوتيزاو باضرار ثقيلة للغاية حتى انها ظلت عاطلة عن العمل عدة اشهر . ولم يكن لدى هتلر اسطول يستحق الذكر بالنسبة الى احداث الصيف المقبلة . وعندما حان الوقت لغزو بريطانيا ، وهو ما وقع فعلاً بعد وقت قصير ، ثبت ان هذه الحقيقة تؤلف عقبة لايمكن تذليلها .

ولم تخطر ببال هتلر قط في بداية شهر ايار النتائج المحتملة لهذا الشلل العنيف الذي اصاب الاسطول الألماني . فقد اضاف الدانيمارك والنروج الى قائمة فتوحاته الطويلة ، واخذ يعمل مع قادته العسكريين المتلهفين ، بعد ان تخلوا الآن عن كل ما كان لديهم من شكوك في الخريف المنصرم ، في اعداد آخر الاستعدادات للفتح الذي كانوا على ثقة من انه سيكون اضخم فتوحاتهم واعظمها كلها .

٢١

النصر في الغرب

استدعى سفير بلجيكا في برلين وزير هولندة المفوض فيها بعد فجر العاشر من ايار عام ١٩٤٠، وكان يوماً من ايام الربيع المشرقة الى وزارة الخارجية الألمانية الويلهلمشتراسة ، حيث ابلغهما ريبنتروب ان الجيوش الألمانية بدأت تدخل بلاديهما لضمان حيادهما تجاه هجوم متوقع من الجيوش الانكليزية — الفرنسية . وكان هذا المبرر الزائف هو عين المبرر الذي اعتمد عليه هتلر قبل نحو من شهر لغزو الدانيمارك والنروج . وطلب الانذار الألماني الرسمي الذي وجه اليهما من حكومتيهما ، ان تضمنا عدم ابداء اية مقاومة . واضاف انه في حالة وقوع أية مقاومة ، فستسحق بكل الوسائل ، وستقع مسؤولية سفك الدماء بصورة كاملة على الحكومتين الملكيتين البلجيكية والهولندية .

وشق المبعوثان الألمانيان في بروكسل ولاهاي ، كما فعل زميلاهما في كوبنهاغن واوسلو قبل نحو شهر ، طريقهما الى وزارتي خارجية البلدين يحملان رسالتين مماثلتين . ولعل من سخرية الاقدار ان حامل الانذار من لاهاي ، كان الكونت جوليوس فون زيخ–بير كسرودا الوزير الألماني المفوض، وهو صهر بيثمان–هولويغ ، مستشار القيصر غليوم الذي اعلن في عام ١٩١٤ ، ان ضمانة المانيا لحياد بلجيكا الذي خرقته حكومة الهوهنزولرن آنذاك ، لم

يكن اكثر من مجرد « قصاصة من الورق » .

وبينما كانت القاذفات الالمانية تهدر بدويها في السماء فوق بروكسل ، وكان صوت انفجار القنابل الـتي تقذف بها على المطارات القريبة يهز النوافذ هزاً ، شرع سفير المانيا في بروكسل بيولو - شوانتي ، يخرج من جيبه مغلفاً في وزارة الخارجية البلجيكية ، ليقدمه الى وزيرها ، واذا بالوزير بول هنري سباك يوقفه قائلاً .. « استميحك العذر يا سيدي السفير ، فأنا اريد الكلام أولاً » . ومضى الوزير البلجيكي يقول وهو لا يحاول إخفاء مشاعر الغضب المسيطرة عليه :

« لقد بدأ الجيش الالماني بمهاجمة بلادنا . وهذه هي المرة الثانية في غضون خمسة وعشرين عاماً ،تقترف فيها المانيا عدواناً اجرامياًعلى بلجيكا المحايدة والمخلصة لحيادها . ولعل ما حدث الآن يفوق ما حدث في عام ١٩١٤ . فلم تتسلم الحكومة النروجية حتى هـــذه اللحظة اي انذار أو مذكرة أو احتجاج من أي نوع . ولم تعرف بلجيكا ، بأن المانيا قد نقضت العهود التي قطعتها على نفسها إلا عن طريق الهجوم الذي وقع فعلاً ... وسيحكم التاريخ على ان الرايخ الالماني هو المسؤول أولاً واخيراً . أما بلجيكا ، فانها عازمة على الدفاع عن نفسها . »

وشرع الدبلوماتي الالمـاني الذي وجد نفسه اثر ذلك في موقف حرج يتلو الانذار الالماني الرسمي ، فقاطعه سباك قائلاً ... « سلمني الوثيقة ... انني أود ان أوفر عليك هذه المهمة الشاقة [١] . »

وكان الرايخ الثالث قد قدم الى هاتين « الدولتين المنخفضتين » ضمانات لا عد لها ولا حصر لحيادهما . فقد كانت الدول الأوروبية الكبرى الخمس ، قـد قدمت في عام ١٨٣٩ ضمانة « دائمة » لاستقلال بلجيكا وحيادها ، وظل هذا الميثاق محترماً وقائماً حتى عام ١٩١٤ عندما خرقته المـانيا في عـام ١٩١٤ .

---

١ - بلجيكا - الوصف الرسمي لما حدث ١٩٣٩ - ١٩٤٠ ص ٢٧ - ٢٩ .

وتعهدت جمهورية ويمار الالمانية بأن لا تحمل السلاح قط ضد بلجيكا ، وقد عاد هتلر بعد وصوله الى الحكم الى تأكيد هذه السياسة باستمرار ، وقدم ضمانات مماثلة الى هولندة . وسبق للمستشار النازي أن اعلن في الثلاثين من كانون الثاني عام ١٩٣٧ ، وبعد إلغائه ميثاق لوكارنو ما يلي :

«ولقد قدمت الحكومة الالمانية تأكيدها الى بلجيكا وهولندة، بأنها على استعداد للاعتراف بحيادهما . وحصانتهما من الانتهاك ، وضمان هذا الحياد وتلك الحصانة » .

وأحست بلجيكا بخوف من عودة الرايخ الثالث الى التسلح ، واستعادة منطقة الراين في ربيع عام ١٩٣٦ ، فتخلت عن السياسة التي اتبعتها بحكمة بعد عام ١٩١٨ ، وهي السياسة البعيدة عن الحياد ، وعادت الى التمسك به من جديد طمعاً منها بأن يحميها . وقامت بريطانيا وفرنسا في الرابع والعشرين من نيسان عام ١٩٣٧ ، بتحريرها من التزاماتها بموجب ميثاق لوكارنو ، وعادت المانيا في الثالث عشر من تشرين الاول من العام نفسه الى التأكيد بصورة رسمية ...

« بأنها تعتزم عزماً قاطعاً وأكيداً ، على عدم المساس ، مهما كانت الظروف بسلامة بلجيكا وكيانها وحصانتها على الانتهاك ، وبأنها ستحترم في جميع الاوقات الاراضي البلجيكية ،وستساعدها في حالة تعرضها لأي هجوم » ...

ولكن بدأ منذ ذلك اليوم التناقض في فكرة هتلر تجاه حياد هاتين الدولتين – بلجيكا وهولندة يظهر بشكل ملحوظ في تأكيداته لهما وفي احاديثه الخاصة مع قادته العسكريين . ففي الرابع والعشرين من آب عام ١٩٣٧ ، تحدث عندما قدمت اليه بعض الاوراق المتعلقة بالعملية الخضراء،وهي العملية التي تتناول الهجوم على تشيكوسلوفاكيا ، عن المزايا العظيمة التي يمكن لألمانيا الحصول عليها اذا ما احتلت بلجيكا وهولندة ، وراح يسأل الجيش عن رأيه في الاوضاع التي يمكن ان يتم فيها احتلال هذه المنطقة وعن الزمن الذي

تستغرقه عملية الاحتلال ، ولكنه في الثامن والعشرين من نيسان عام ١٩٣٩ ، عاد يؤكد لروزفلت في رده عليه « البيانات الملزمة » التي سبق له ان قدمها الى الى هولندة وبلجيكا وغيرهما من الدول . ولم يمض شهر واحد على هذا التأكيد ، حتى كان يقول لقادته العسكريين في الثالث والعشرين من ايار ، كما روينا من قبل ، ان « من الواجب احتلال القواعد الجوية الهولندية والبلجيكية بالقوات المسلحة ، بسرعة البرق الخاطف ، وان من الواجب تجاهل بيانات الحياد » .

ولم يكن قد شرع في حربه هذه ، حتى كانت خططه العسكرية قد باتت جاهزة . وكان في الثاني والعشرين من آب ، أي قبل اسبوع واحد من شنه الحرب بالهجوم على بولندة قد تشاور مع قادته العسكريين في موضوع «احتمال» خرق حياد بلجيكا وهولندة . وأضاف قائلاً : « لن تقوم انكلترا وفرنسا بخرق حياد هاتين الدولتين » وأصدر بعد اربعة ايام أي في السادس والعشرين من آب أوامره الى مبعوثيه في بروكسل ولاهاي بابلاغ حكومتيهما بأن المانيا لن تمس بأي حال من الاحوال اذا ما نشبت الحرب ، حصانة هولندة وبلجيكا على الانتهاك » . وعاد يكرر هذا التأكيد بصورة علنية في السادس من تشرين الاول بعد انتهاء الحملة البولندية . واصدر الفريق فون براوخيتش في اليوم التالي أي في السابع من تشرين الأول أوامره الى قادة مجموعات الجيوش بإيعاز من هتلر طبعاً ...

« بأن يقوموا بجميع الاعدادات اللازمة للقيام بهجوم فوري على الاراضي الهولندية والبلجيكية ، اذا تطلبت الاوضاع السياسية هذا الهجوم [1] . »

واصدر هتلر بعد يومين ، في توجيهه السادس بتاريخ التاسع من تشرين أوامره ...

« باتخاذ الأهبة الكاملة لعملية هجومية عبر اللوكسمبورج

---

١ - المؤامرة النازية والعدوان (٤) ص ١٠٢٧ .

وهولندة وبلجيكا. ويجب تنفيذ هذا الهجوم في اسرع وقت ممكن، وبأقصى ما يمكن من قوة ... وهدف هذا الهجوم الحصول على منطقة واسعة من أراضي هولندة وبلجيكا وفرنسا الشمالية [1] ».

وبالطبع لم يكن البلجيكيون والهولنديون على علم بأوامر هتلر السرية، ومع ذلك فقد تلقوا تحذيرات عما تخبؤه الاقدار لهم . وسبق لنا ان بينا عدداً من هذه التحذيرات ، وقلنا ان العقيد اوستر ، وهو من كبار المتآمرين ضد النازية انذر الملحقين العسكريين البلجيكي والهولندي في برلين في الخامس من تشرين الثاني ، بأن يتوقعا هجوماً المانياً في الثاني عشر من الشهر نفسه وهو الموعد المقرر للهجوم . ومضى غويردلر في نهـاية تشرين الاول ـ وهو احد المتآمرين ايضاً ـ الى بروكسل بتحريض من وايز ساكر ، لتحذير البلجيكيين من الهجوم المتوقع في كل لحظة . وسبق لنا ان قلنا أيضاً ان الخطة الالمانية الكاملة للهجوم في الغرب ، قد وقعت في العاشر من كانون الثاني عام ١٩٤٠ في أيدي البلجيكيين ، عندما اضطر ضابط الماني كان يحملها الى النزول بطائرته في الاراضي البلجيكية .

وكانت هيئتا اركان الحرب في هولندة وبلجيكا قد عرفتا من مخابراتها على الحدود بأن الالمان يحشدون نحواً من خمسين فرقة على حدود بلاديهما . واتيح لهما الانتفاع من مصدر ممتاز للمعلومات في العاصمة الالمانية . وهو العقيد جي . جي ساس الملحق العسكري الهولندي في برلين . وكان هذا الرجل صديقاً حميماً للعقيد اوستر وكثيراً ما تناول معه العشاء في منزل الاخير في ضاحيـة زيهليندروف المنعزلة الهادئة . وكان من السهل بعد نشوب الحرب عند مثل هذه الاجتماعات بسبب « التعتيم » الذي مكن الكثيرين من الاشخاص في ذلك الحين في برلين ، من ألمان وأجانب ، من القيام بمختلف الاعمال « الهدامة والمناوئة للعهد » دون الخوف من اكتشاف امرهم . وكان اوستر قد أبلـغ ساس هذا في

١ - المؤامرة النازية والعدوان (٦) ص ٨٨٠

مطلع شهر تشرين الثاني بنبأ الهجوم الالماني المقرر في الثاني عشر من تشرين الثاني. ثم عاد الى تحذيره من جديد في مطلع شهر كانون الثاني . ولا ريب في ان عدم وقوع الهجوم في كل من التاريخين اللذين حددهما ساس ، قد اضعفا الثقة باقواله في لاهاي وبروكسل ، لا سيما وان العاصمتين كانتا تجهلان الحقيقة الواقعة وهي ان هتلر قد حدد بالفعل هذين التاريخين لهجومه ثم عاد فأجله لأسباب مختلفة . لكن التحذير الذي تلقاه ساس من اوستر قبل عشرة ايام ، عن غزو النروج والدانيمارك ، وتحديده الموعد الدقيق لهذا الهجوم ، قد أعاد للملحق الهولندي المكانة التي كانت له في بلاده .

ونقل اوستر في الثالث من أيار بصراحة الى ساس ان الهجوم الالماني في الغرب سيقع في العاشر منه عبر هولندة وبلجيكا ، وقام هذا بدوره بنقل النبأ الى حكومته فوراً . وتلقت لاهاي تأييداً لهذا النبأ في اليوم التالي من الفاتيكان. وتولى الهولنديون نقل المعلومات بدورهم فوراً الى البلجيكيين . وكان الخامس من ايار من ايام الآحاد ، وعندما بدأ الاسبوع الجديد ، اتضح وضوحاً جلياً لكل من كان في برلين ان الضربة في الغرب ، ستقع في غضون بضعة ايام .واشتد التوتر في العاصمة . ولم يكد يحل الثامن من ايار ، حتى كنت ابرق الى مكتبنا في نيويورك ، بأن يوقف احد مراسلينا في امستردام ، بدلا من ايفاده بحراً الى النروج ، حيث كانت الحرب قد انتهت على أي حال ، وسمح لي المراقبون العسكريون في تلك الليلة بأن أشير في اذاعتي الى اقتراب موعد الهجوم في الغرب ، وبأن هذا الهجوم سيشمل هولندة وبلجيكا .

وتناول اوستر وساس عشية التاسع من ايار العشاء لآخر مرة. وأكد الضابط الألماني لصديقه ان الأمر الأخير بالهجوم في الغرب ، قد صدر وانه سيقع في فجر اليوم التالي ، وان القيادة العليا للقوات المسلحة في الولهلمشتراسه قد أيدت له ذلك ، عندما مر بها اليوم للتثبت من عدم وجود أي تغيير في الخطة العسكرية وتوقيتها . وقال اوستر لضيفه ساس : « لقد تحول الخنزير الى الجبهة الغربية » ، وهو يقصد « هتلر » بالخنزير طبعاً . وتولى ساس نقل النبأ الى

الملحق العسكري البلجيكي ، ثم مضى الى مفوضيته حيث سجل طلباً هاتفياً الى لاهاي . وكان الملحق قد أعد رموزاً خاصة لمثل هذة المناسبة ، وراح يقول لقيادته في لاهاي عبارات لا ضمير فيها تتضمن الرسالة التالية : « غداً عند الفجر . استعدوا [١] . »

ومن الغريب كل الغرابة ، ان الدولتين الكبيرتين في الغرب ، أي بريطانيا وفرنسا ، قد بوغتتا بالهجوم وهما نائمتان تغطان في سبات عميق . ولم تكترث هيئتا أركان الحرب فيهما بالتقارير العسكرية الواردة من بروكسل ولاهاي : وانشغلت لندن نفسها في ذلك الوقت بأزمة وزارية استغرقت ثلاثة ايام ثم حلت عشية العاشر من ايار ، بحلول تشرشل محل تشمبرلين في رئاسة الوزارة . وكان أول ما سمعه مقر قيادتي القوات الفرنسية والبريطانية عن الهجوم الالماني ، هو هدير القاذفات الالمانية وهي تقطع هدوء الساعات التي سبقت فجر ذلك اليوم من أيام الربيع . وعويل طائرات الانقضاض من طراز شتوكا . وهي تظهر في السماء ، ليعقبها بعد انبلاج الفجر ، سيل من النداءات المحمومة من هولندة وبلجيكا تطلب المساعدة ، بعد ان كانت قد أبقت قوات الحلفاء على بعد ذراع منها مدة ثمانية أشهر دون أن تكلف نفسها عناء تنسيق خطط الدفاع المشترك معها .

ومضت رغم ذلك ، خطة الحلفاء في مواجهة الهجوم الالماني في بلجيكا في اليومين الأولين بدقة ونظام دون أي تبدل أو صعوبة ، فلقد سارع جيش انكليزي – فرنسي ضخم باتجاه الشمال الغربي من الحدود الفرنسية – البلجيكية ، لتعزيز خط الدفاع البلجيكي الرئيسي على طول نهري دايل والموز إلى الشرق من بروكسل . وكان هذا هو ما تريده القيادة العليا الألمانية تماماً كما ثبت ذلك فيما بعد ، إذ أن هذه الحركة الضخمة التي قام بها الحلفاء قد اتفقت مع خطة القيادة

١ – آلين دالاس – الحركة السرية في المانيا ص ٥٨ – ٦١ . ويقول دالاس ان العقيد ساس قد اكد له هذه الرواية شخصياً بعد انتهاء الحرب

الألمانية تمام الاتفاق . وهكذا سارعت الجيوش الانكليزية الفرنسية الى الوقوع في الشرك الذي وضعته لها القيادة الألمانية ، وعندما اطبق هذا الشرك ، كان مفجعاً في نتائجه كل الفجيعة .

الخطط المتقابلة

وقع تبدل جذري في الخطة الالمانية الأصلية للهجوم في الغرب ، بعد وقوعها في ايدي البلجيكيين كما سبق لنا ان رأينا ، وفي ايدي الفرنسيين والبريطانيين كما توقع الألمان في شهر كانون الثاني . وكانت القيادة العليا للجيش الالماني قد اعدت بأمر من هتلر وتحت ضغطه وإلحافه خطة الهجوم في الغرب على ان يقع في أواسط تشرين الثاني بسرعة فائقة في خريف عام ١٩٣٩ ، وهي الخطة التي اطلق عليها اسم « الحالة الصفراء » . وهناك خلاف في الرأي بين المؤرخين العسكريين وبين « الجنرالات » الألمان انفسهم ، حول ما اذا كانت هذه الخطة الأولى ، صورة معدلة لخطة شلايفن القديمة أو لا . وكان من رأي هولدر وغودريان انها صورة معدّلة للخطة الأولى . وكانت تقضي بوقوع الزحف الألماني الأصلي من الجناح الأيمن عبر بلجيكا وشمال فرنسا ، وتهدف الى احتلال موانىء بحر المانش . وكانت هذه الخطة تقلّ بعض الشيء عن خطة شلايفن المشهورة ، التي فاتها النجاح بصورة غريبة في عام ١٩١٤ ، والتي لم تهدف فقط الى احتلال موانىء القناة الانكليزية وحدها ، بل هدفت ايضاً الى المضي في الحركة الالتفافية الضخمة ، التي تحمل الجناح الأيمن للزحف الألماني عبر بلجيكا وشمالي فرنسا ، وعبر نهر السين ، لتتجه شرقاً بعد ذلك الى الجنوب من باريس مطوقة ما تبقى من القوات الفرنسية ومحطّمة اياها وكان الهدف منها ايضاً وضع نهاية سريعة للمقاومة الفرنسية المسلّحة ، لتتمكن المانيا في نفس العام - أي عام ١٩١٤ من الاستدارة نحو روسيا بكل ما لديها من قوة عسكرية جبارة .

لكن هتلر لم يكن بحاجة في عام ١٩٣٩ - ١٩٤٠ الى القلق من وجود جبهة

روسية . فلقد كان هدفه على اي حال اكثر تحديدا . ولقد وضع خطته هـذه المرة للمرحلة الأولى من الحملة ، على اساس دفع الجيش الفرنسي الى الوراء بدلاً من توجيه ضربة قاضية اليه ، واحتلال ساحل المانش ، ليعزل بذلك بريطانيا عن حليفتها ، وليضمن لنفسه في عين الوقت قواعد جوية وبحرية يستطيع ان يفرض عن طريقها الحصار على الجزر البريطانية وان يكيل لها الضربات القاتلة . وقد اتضح من احاديثه العديدة الى قادته العسكريين في هذا الوقت انه كان يعتقد بأن بريطانيا وفرنسا ستميلان بعد هذه الهزيمة الى عقد الصلح ، والى السماح له بتوجيه اهتمامه من جديد الى الجبهة الشرقية .

وكانت القيادة العليا للحلفاء قد توقعت حتى قبل وقوع الخطة الأصلية « للعملية الصفراء » في ايدي الحلفاء ، مثل هذه الخطة من جانب الألمان وكان مجلس الحلفاء الحربي الأعلى قد اتخذ في السابع عشر من تشرين الثاني عند انعقاده في باريس « الخطة د » التي تقضي في حالة هجوم الألمان عبر بلجيكا ، باندفاع الجيشين الفرنسيين الأول والتاسع والحملة البريطانية في فرنسا إلى الأمام الى خط الدفاع البلجيكي الرئيسي على نهري دايل والموز ، من انتويرب عبر لوفان ونامور وجيفيت الى ميزيير . وكانت هيئتا اركان الحرب البريطانية والفرنسية بعد عدة اجتماعات سرية عقدتاها مع القيادة العليا البلجيكية قد تلقتا منذ بضعة ايام تأكيدات قاطعة من البلجيكيين بأن يعززوا خطوطهم الدفاعية هناك وان يصمدوا فيها صمودهم الرئيسي . ولكن البلجيكيين وكانوا لا يزالون يتعلقون بأوهام الحياد وخيالاته ، وهي الأوهام التي عززت أملهم في اجتناب التورط في الحرب ، لم يكونوا راغبين في المضي الى أبعد من ذلك . وكان من رأي رؤساء اركان الحرب البريطانيين ، ان المجال لن يتسع امامهم لنشر قوات الحلفاء على هذه المسافة البعيدة في حالة هجوم الألمان ، ولكنهم اضطروا الى السير وفق الخطة « د » تحت ضغط الفريق غاملان وإلحافه .

واضاف الحلفاء في نهاية تشرين الثاني خطة تقضي بدفع الجيش الفرنسي السابع الذي يقوده الجنرال هنري جيرو الى ساحل القناة ، لمساعدة الهولنديين الى الشمال

من انتويرب في حالة تعرض هولندة الى الهجوم ايضاً . وهكذا اصبح من المحتم ان تواجه أية محاولة المانية لاجتياح بلجيكا ـ وهولندة على سبيل الاحتمال ايضاً ـ والالتفاف حول خط ماجينو، في مراحلها الاولى ، قوات الحملة البريطانية كلها، وغالبية الجيش الفرنسي واثنتين وعشرين فرقة بلجيكية وعشر فرق هولندية ، وبذلك تكون جيوش الحلفاء مكافئة من ناحية عددها لقوات الالمان .

واقترح الفريق فون مانشتاين (اسمه الأصلي لوينسكي) ، رئيس اركان حرب مجموعة الجيوش (P) التي يقودها رونشتادت في الجبهة الغربية لتجنب هذا الصدام العنيف ولاقامة شرك للجيوش البريطانية والفرنسية التي ستسرع في زحفها ، تعديلاً جذرياً في « العملية الصفراء ». وكان مانشتاين هذا ضابط ركن موهوب وواسع الافق والخيال ، وقد أفلح رغم صغر رتبته بالنسبة الى القادة الآخرين في ايصال فكرته الجريئة الى هتلر إبان الشتاء ، على الرغم من معارضة براوخيتش وهولدر وعدد من كبار « الفرقاء » العسكريين الاولية . ويقضي اقتراح مانشتاين بأن يشن الهجوم الالماني الرئيسي في الوسط عبر الاردين بحشد هائل من القوات المدرعة التي يمكنها آنذاك ان تعبر نهر الموز الى الشمال من سيدان وان تخترق جبهة الحلفاء ، ولتنفذ الى الارض العراء لتغذ السير مسرعة الى القناة عند مدينة ابيفيل .

واهتم هتلر الذي تستهويه المشاريع الجريئة وحتى المغامرة، بخطة مانشاين. وواصل رونشتاد الإلحاف لقبول هذه الفكرة لا لمجرد ايمانه بها فحسب ، بل ولأنها ستتيح لمجموعة الجيوش التي يتولى قيادتها ، ان تلعب الدور الحاسم في الهجوم وعلى الرغم من كراهية هولدر الشخصية لمانشتاين ، ومن وجود نوازع الحسد المهني عند بعض القادة العسكريين الذين يعلون هذا القائد رتبة ، مما أدى الى نقله من مركزه في رئاسة اركان حرب جيش الشمال الى قيادة فيلق للمشاة في نهاية كانون الثاني ، إلا انه تمكن من الافصاح عن آرائه المتطرفة والتي تخالف القواعد العسكرية الى هتلر شخصياً في حفلة عشاء اقيمت في برلين في السابع عشر من شباط تكريماً لعدد من قادة الفيالق . وقال ان توجيه ضربة

من السلاح المدرع عبر الاردين سيصيب الحلفاء في اضعف نقطة لهم ، لا يتوقعون مجيء الضربة فيها ، اذ ان « فرقاءهم » العسكريين يعتبرون كمعظم القادة الالمان هذه المنطقة الجبلية التي تغطيها الغابات ، غير صالحة لحرب الدبابات . واضاف ان تظاهر الجناح الايمن من قوات الالمان بالهجوم ، سيحمل الجيوش البريطانية والفرنسية على الاندفاع بسرعة نحو بلجيكا . وآنذاك يوجه الالمان ضربتهم في سيدان ، فيحطمون الفرنسيين ويتجهون غرباً على طول الضفة الشمالية لنهر السوم حتى يصلوا الى القناة ، وبذلك يوقعون القوات الانكليزية – الفرنسية والجيش البلجيكي بأسره في الفخ الذي نصبوه .

وكانت الخطة جريئة ولكن لها مخاطرها ، كما أكد عدد من الفرقاء وبينهم بودل نفسه . ولكن هتلر وكان قد شرع يعتبر نفسه عبقرياً في فنون الحرب ، اعتقد عملياً ان هذه الفكرة فكرته ، ولذا فقد ازداد حماسه لها . وبدأ هولدر نفسه الذي كان قد اعتبرها في بداية الامر ، فكرة انسان مجنون، يتبناها ايضاً، وأضاف عليها بعض التحسينات مستعيناً بعدد من ضباط اركان حربه . وهكذا أقرت هذه الخطة رسميا في الرابع والعشرين من شباط عام ١٩٤٠ وصدر بها توجيه جديد من القيادة العامة للقوات المسلحة ، وصدر الامر للقادة العسكريين بأن يعيدوا توزيع قواتهم ونشرها طبقاً لها اعتباراً من السابع من آذار، وكانت خطة احتلال هولندة ، التي كانت قد اسقطت من العملية الصفراء عرضاً عند اعادة النظر فيها في التاسع والعشرين من تشرين الاول عام ١٩٣٩ ، قد اعيدت الى الخطة نفسها في الرابع عشر من تشرين الثاني بطلب من السلاح الجوي الالماني ، الذي اراد ان يستخدم المطارات الهولندية ضد بريطانيا ، ولذا فقد قدّم عدداً ضخماً من القوات التي تحملها الطائرات للاشتراك في هذه العملية الصغيرة والمعقدة في وقت واحد . وهكذا تقرر مصائر الشعوب الصغيرة احياناً على اساس مثل هذه الاعتبارات[١] .

---

١ – هناك مصادر عدة عن تطور الخطط الالمانية للهجوم في الغرب وقد افدت من المصادر=

وهكذا عندما اقتربت حملة النروج من نهايتها الظافرة،وعندما بدأت اخيراً اول ايام شهر ايار الدافئة ، وقف الجيش الالماني ، الذي كان اقوى ما عرفه العالم من جيوش حتى ذلك الوقت ، على استعداد ليوجه ضربته الهائلة في الغرب . وكانت القوتان من الناحية العددية متكافئتين ، فهناك (١٣٦) فرقة المانية تواجه (١٣٥) فرقة فرنسية وبريطانية وبلجيكية وهولندية . وكان المدافعون يتمتعون بمزية التحصينات الدفاعية ، المؤلفة من خط ماجينو الذي لا يمكن اختراقه في الجنوب ، والخط الهائل من القلاع البلجيكية في الوسط ، والخطوط المائية المنيعة الهولندية في الشمال . وكان عدد دبابات الحلفاء يضاهي ايضاً عدد دبابات الالمان ، ولكنهم لم يكونوا قد حشدوهم بصورة مركزة كالالمان . وادى انحراف الهولنديين والبلجيكيين في اتجاه الحياد ، الى عدم قيام مشاورات بين اركان الحرب ، لتجميع خطط المدافعين وتنسيقها ، وحشد مواردهم لضمان اكبر فائدة ممكنة . وكانت للألمان قيادة واحدة ، وكانوا يتميزون بأفضلية المهاجم ، كما لا يحسون بأي ندم أو شكوك تجاه العدوان ، وعندهم الثقة المطلقة بأنفسهم وبخطتهم الجريئة . وقد خبروا الحرب وجربوها في بولندة . وهناك فحصوا اساليبهم واسلحتهم القتالية الجديدة ووضعوها في محك التجربة . وقد عرفوا قيمة طائرات الانقضاض وعرفوا ما يحققه استخدام الدبابات جماعياً من نتائج . وقد عرفوا ، ما سبق لهتلر ان اكده ، ان الفرنسيين

= التالية : يوميات هولدر ويودل وكتاب هولدر « هتلر كقائد ميدان » . ويوميات القيادة العامة الحربية كما نشرت في « المؤامرة النازية والعدوان » و « محاكمات كبار مجرمي الحرب. وتوجيهات هتلر والقيادة العامة المتعددة كما وردت في الجزئين الثامن والتاسع من وثائق وزارة الخارجية الالمانية . وكتاب مانشتاين « نصر ضائع » وكتاب غويرليتز « تاريخ هيئة اركان الحرب الالمانية» وكتابه « الحرب العالمية الثانية » وكتاب جاكوبسين « وثائق عن الحوادث التمهيدية للهجوم في الغرب » ، وكتاب غودريان « قائد فرق الصاعقة » وكتاب بلومينتريت « فون رونشتادت » وكتاب ليدل هارت« الفرقاء الالمان يتكلمون »وكتاب « مذكرات تشرشل » وايليس«الحرب في فرنسا والفلاندرز »، وكتاب فولر « الحرب العالمية الثانية » وكتاب دريبره حرب الاسابيع الستة » وكتاب تيلفوردتيلور « زخف الفتح » .

على الرغم من دفاعهم عن تربتهم يفتقرون الى العزيمة للقتال ومواجهة ما يخبؤه الغد لهم .

ولقد اظهرت الوثائق السرية المصادرة ان القيادة الألمانية العليا على الرغم من ثقتها وتصميمها ، عانت من بعض لحظات الهلع عندما اقتربت ساعة الصفر ، وان هتلر القائد الأعلى نفسه قد احس بالكثير من القلق . وقد دون الفريق يودل جميع هذه اللحظات في يوميته . وقام هتلر بعدة تأجيلات في اللحظة الاخيرة لموعد القفز الذي كان قد حدده في الأول من ايار ليكون في الخامس منه . ففي الثالث من ايار أمر هتلر بتأجيل الهجوم حتى السادس منه بسبب حالة الطقس ، وقد يكون سبب هذا التأجيل ان وزارة الخارجية وجدت ان مبرره المقترح لخرق حياد بلجيكا وهولندة ليس بالأمر الكافي أو المجدي وعاد في اليوم التالي فأجله حتى السابع من آذار ، ثم كرر تأجيله من جديد حتى يوم الاربعاء في الثامن منه . ودوّن يودل في يومياته يقول : « لقد اتم الفوهرر العثور على المبررات اللازمة للعملية الصفراء » . وتوصل هتلر الى الاستنتاج بأن من الواجب توجيه التهمة الى بلجيكا وهولندة بسلوك مسلك مخالف للحياد . ومضى يودل يدوّن في يومياته :

« ٧ أيار — من المقرر ان يغادر قطار الفوهرر فينكنكروغ في الساعة الرابعة والدقيقة الثامنة والثلاثين بعد الظهر . ولكن الطقس ما زال على حاله ولهذا فإن أمر الهجوم سيؤجل . . . ويبدو الفوهرر مضطرباً اشد الاضطراب من التأجيل الجديد اذ ان ثمة خطراً بقيام خديعة وخيانة ، يوحي الحديث الذي دار بين مبعوث بلجيكا الى الفاتيكان وبين بروكسل بالاستنتاج بأن خيانة قد اقترفت ، وان القائم بها شخصية المانية غادرت برلين الى رومة في التاسع والعشرين من نيسان ...

« ٨ أيار — وصلت انباء مفزعة من هولندة ... ألغيت هناك الاجازات العسكرية وبدأت عمليات اجلاء المدنيين ، واقيمت

الحواجز في الطرق ، ونفذت اجراءات التعبئة ... ان الفوهرر لا يريــد ان ينتظر مدة اطول ، بينما يريد غورنغ التأجيل حتى العاشر على الاقل ... يبدو الفوهرر شديد الهياج ، ولكنه وافــق على التأجيل حتى العاشر من ايار ، على الرغم من قوله بأن هــذا التأجيل يخالف إلهامه ولكنه لن يوافق على التأجيــل يوماً آخر.

« ٩ ايار – قرر الفرهرر قراراً لارجوع عنه ان يبدأ الهجــوم في العاشر من ايار ، سنسافر مــع الفوهرر في قطاره في الساعــة الخامسة مساء من فينكنكروغ ،ستعطى الاشارة الرمزية «دانزيغ» في الساعة التاسعة مساء بعد تلقي تقرير الاحوال الجوية،بأن الطقس سيكون مواتياً للحركة .

ووصل هتلر يرافقه كايتل ويودل وغــيرهما من رجال اركان حرب القيادة العليا للقوات المسلحة الى مقر القيادة العامة التي اطلق عليها اسم « فيلسينست » أو « ايري » على مقربة من مونيسترايفيل ، عند فجر العاشر من ايار . وكانت القوات الالمانية قد اجتازت الحدود البلجيكية على بعد خمسة وعشرين ميلاً الى الغرب من مقر القيادة واندفعت القوات النازية على جبهة طولها (١٧٥) ميلاً ، تمتد من بحر الشمال الى خط ماجينو ، تجتاز حدود ثلاث دول محايدة صغيرة هي هولندة وبلجيكا ولكسمبورغ ، ناقضة بذلك العهود التي قطعتها المانيا ، والتي كررتها اكثر من مرة وبصورة قاطعة جازمة .

حرب الاسابيــع الستة

من ١٠ ايار حتى ٢٥ حزيران ١٩٤٥

لم تستغرق الحرب مع هولندة اكثر من خمسة ايام ، وقد تقرر في هذه الفترة القصيرة ايضاً ، مصير بلجيكا وفرنسا وقوات الحملة البريطانية.ومضى كل شيء

بالنسبة الى الألمان وفق الخطة المرسومة ، أو حتى بصورة تفضل هذه الخطة ، وذلك بالنسبة الى السوقية العسكرية (الاستراتيجية) والى الاساليب التعبوية (التاكتيك) . وقد فاق نجاح هذه الخطط كل ما كان يساور هتلر من آمال . وذهل حتى «الفرقاء» من قادته العسكريين من سرعة الانتصارات الخاطفة التي حققوها ومن سعة مداها . اما بالنسبة الى قادة الحلفاء ، فقد اصيبوا بالشلل السريع من جراء التطورات التي وقعت والتي لم يكونوا يتوقعونها مطلقاً ، كما لم يستطيعوا فهمها في خضم ما تلاها من فوضى واضطرابات .

واصيب ونستون تشرشل نفسه الذي تولى رئاسة الوزراء في اول يوم من ايام المعركة بالوجوم مما حدث . فقد استيقظ في الساعة السابعة والنصف من صباح الخامس عشر من ايار على جرس الهاتف يرن لينقل اليه صوت بول رينو رئيس الوزارة الفرنسية وهو يقول له بصوت يغلبه التأثر : « لقد هزمنا . لقد غلبنا على امرنا » . ورفض تشرشل تصديق ما سمعه. هل يمكن للجيش الفرنسي العظيم ان يقهر في اسبوع واحد ان هذا مستحيل . وعاد يكتب فيما بعد : « لم استطع ان افهم عنف الثورة التي طرأت على اساليب الحرب منذ الصراع العالمي السابق ، بادخال السلاح المدرع السريع الحركة على شكل جماعي ضخم » [١].

انها الدبابات . سبع فرق منها ركّزت في نقطة واحدة ، هي اضعف النقاط في الخطوط الدفاعية الغربية ، لتقتحم الجبهة . فحققت هذه النتيجة . تضاف اليها طائرات الانقضاض « الشتوكا » ، وقوات المظليين ، والقوات التي تنقل بالطائرات لتهبط وراء خطوط الحلفاء ، أو فوق القلاع التي كانت تبدو منيعة لاتقهر ، لتحدث فيها الفوضى والاضطراب .

ولكننا نحن الذين كنا في برلين ، استغربنا اشد الاستغراب ، لماذا فاجأت هذه الاساليب التعبوية الألمانية قادة الحلفاء مثل تلك المفاجأة او لم تظهر

---

١ – تشرشل – مذكرات الجزء الثاني - ص ٤٢ - ٤٣ .

قوات هتلر كفايتها وفعاليتها في الحملة البولندية ؟ فقد تحقق الاختــراق العظيم هناك ، والذي ادى الى تطويق الجيوش البولندية او تدميرها في غضون اسبوع عن طريق تركيز السلاح المدرع بعد ان كانت طائرات الانقضاض قـد تولت اضعاف كل مقاومة واخمادها وقد فشلت قوات المظليين والقوات الهابطـة من الجو ، في بولندة في اداء مهماتها حتى على النطاق الضيق الذي استعملت فيـه ، وخابت في الاستيلاء على الجسور الرئيسية سليمة دون ان يلحق بها اذى ولكنها نجحت نجاحاً بارزاً في النروج قبل شهر واحـــد من بدء الهجوم في الغرب ، فاحتلت اوسلو وجميع المطارات ، واستعملت في تعزيز الفئات الصغيرة مـــن الجنود التي هبطت من البحر في ستافانغر وبرغين وتروندهايم ونارفيك ممكنة اياها من الصمود . أو لم يقم قادة الحلفاء العسكريون بدراسة هـــذه الحملات ليتعلموا الدرس منها ؟

احتلال هولندة

لم يكن في وسع النازيين الاستغناء عن اكثر من فرقة مدرعة واحـــدة لاحتلال هولندة ، الذي تم في غضون خمسة ايام عن طريق المظليين والقوات الهابطة من الطائرات وراء الخطوط المائية العظيمة التي اعتقد الكثـــيرون في برلين انها ستصمد امام الالمان عدة اسابيع . وقدر للهولنديين الذاهلين ان يمروا بتجربة التعرض لأول هجوم محمول بالجو على نطاق واسع ،يشهده تاريخ الحرب . واذا ما اخذنا بعين الاعتبار افتقارهم الى الاستعداد لمثل هذه المحنة ، والمباغتة الكاملة التي تعرضوا لها ، تبين لنا ، الآن ، انهم ابلوا بلاء حسناً يفوق ماتصوره الناس آنذاك .

وكان هدف الالمان الاول ، انزال قوة كبيرة من الجو في المطارات القريبة من لاهاي ، لاحتلال العاصمة فوراً ، ولوضع يدهم على المملكة وحكومتها ، تماماً كما حاولوا قبل نحو من شهر مع النروجيين . ولكن خطتهم فشلت في لاهاي ،

كما سبق لهـــا ان فشلت في اوسلو،وان كان الفشل يعزى الى ظروف وعوامل مختلفة . اذ تمكن المشاة الهولنديين تعززهم المدفعية ، بعد ان استفاقوا مـــن ذهولهم الاولي الذي خلط حابلهم بنابلهم ، من اخراج الالمان الذين يعدون كتيبتين كاملتين من المطارت الثلاثة التي تحيط بالعاصمة ، مساء العاشر من ايار . وحقق هذا النجاح الاولي انقاذ العاصمة والحكومة مؤقتاً ، وان كان قـد حرم الهولنديين من الافادة من قواتهم الاحتياطية التي كانوا في حاجة ماسة وبائسة لها في اماكن اخرى .

وكان الاستيلاء على الجسور الواقعة الى الجنوب من روتردام ، على نهري النيووي – الموز والى الجنوب الشرقي على فرعي الموز الكبيرين في دورد رخت ومويرد جيك بواسطة القوات التي تحملها الطائرات ، وهو مفتاح الخطة الألمانية كلها . فقد أمل الفريق جورج فون كويشلر ، ان يعبر بجيشه الثامـــن عشر الزاحف من الحدود الألمانية على بعد مائة ميل ، على هذه الجسور ليصـــل الى قلب هولندة الخصب . وليس ثمة من سبيل آخر الى احتلال هذا المكان المنيـــع الذي يقبع خلف حواجز مائية هائلة ، والذي يضم مدن لاهاي وامستردام واوترخت وروتردام وليدن ، بسرعة وسهولة .

وتم الاستيلاء على هذه الجسور في الصباح من ايار على ايدي وحـــدات هابطة من الجو،وكانت بينها سرية هبطت في طائرات بحرية قديمة على النهر عند روتردام قبل ان يصحوا الحراس الهولنديون من ذهولهم لينسفوا الجسر. وبذل الهولنديون الذين تعززت قواهم جهوداً بائسة لأخراج الألمان من هذه الجسور ، وكادت جميع محاولاتهم تمنى بالنجاح ،ولكن الألمان صمدوا صموداً عجيباً حتى صباح الثامن عشر من ايار ، عندما وصلت اليهم فرقة مدرعة من فرق كويشلر ، بعد ان شقت طريقها عبر خط غريب – بيل ، الذي يؤلف جبهة محصنة الى الشرق تعززها عدد من الحواجز المائية التي كان الهولنديون يركزون آمالهم عليها في الصمود بضعة ايام امام الألمان .

وكان ثمة امل في وقف الألمان قبل الوصول الى جسور مويردجيك بواسطة

الجيش الفرنسي السابع الذي يقوده الفريق جيرو ، الذي غذ سيره مسرعاً من القناة ووصل الى تيلبورغ بعد ظهر الحادي عشر من ايار . ولكن الفرنسيين شأنهم في ذلك شأن الهولنديين المجهدين ، كانوا يفتقرون الى الغطاء الجوي والى المدرعات والمدافع المضادة للطائرات والدبابات ، ولذا سرعان ما ردهم الالمان الى بريدا . وفتح هذا التطور الطريق امام الفرقة الالمانية المدرعة التاسعة لعبور الجسور في مويردجيك ودورد رخت ، لتصل بعد ظهر الثاني عشر من ايار الى الضفة الجنوبية من نهري نيووي – الموز ، امام روتردام ، حيث كانت القوات الالمانية الهابطة من الجو لا تزال تحتفظ بالجسور التي احتلتها اول أيام الهجوم .

ولم يكن في وسع الدبابات ان تعبر جسور روتردام ، اذ كان الهولنديون قد اغلقوها في غضون ذلك من اطرافها الشمالية . وهكذا كان الوضع في صباح الرابع عشر من ايار بالنسبة للهولنديين يائساً ، وان كان الأمل لم ينقطع تماماً . فالقلعة الهولندية لم تتهشم بعد . وقد تم أسر القوات الالمانية القوية الهابطة من الجو على مقربة من لاهاي او تشتيتها في القرى المجاورة . وما زالت روتردام صامدة . ولم تكن القيادة الالمانية العليا راضية عن الوضع نظراً لتلهفها على سحب الفرقة المدرعة العاملة هناك ، وما يعززها من قوات مناصرة ، ودفعها في مكان آخر للافادة من فرصة جديدة فتحت امامها في الجنوب من فرنسا . واصدر هتلر صباح الرابع عشر من ايار التوجيه الحادي عشر الذي قال فيه : « لقد برهنت قوة مقاومة الجيش الهولندي على انها اصلب مما كنا نتوقع . وتتطلب الاعتبارات السياسية والعسكرية تحطيم هذه المقاومة في اسرع وقت ممكن » . ولكن كيف ؟ انه يأمر بأن تسحب وحدات من القوات الجوية العاملة في جبهة الجيش السادس في بلجيكا « لتسهيل احتلال القلعة الهولندية بالسرعة الكاملة [١] . »

وأصدر هتلر وغورنغ أمرهما بضرب روتردام ضرباً عنيفاً من الجو وسيحمل الهولنديون على الاقتناع بوجوب التسليم عن طريق جرعة من الارهاب النازي ،

---

١ – وثائق وزارة الخارجية الالمانية (٩) ص ٢٤٣ – ٢٤٤ .

تماماً كما جرى في الخريف السابق مع وارشو المحاصرة .

وعبر ضابط ركن ألماني من الفيلق التاسع والثلاثين صباح الرابع عشر من ايار ، الجسر عند روتردام ، وهو يحمل علمـــاً ابيض ليطلب استسلام المدينة . وانذر بأنه في حالة رفضها التسليم فسيجري قصفها قصفاً عنيفاً من الجو . وبينما كانت مفاوضات التسليم سائرة في طريقها المعتاد ، اذ وصل ضابط هولندي الى مقر القيادة الالمانية قرب الجسر لبحث الشروط ، وكان في طريق عودته الى المدينة حاملاً مطالب الالمان . ظهرت القاذفات الالمانية وأزالت قلب المدينة العظيمة من الوجود . وقتل نحو من ثمانمائة شخص معظمهم من المدنيين كما اصيب عدة آلاف بجراح ، وبات (٧٨) الفاً بلا مأوى [1] . ولن ينس الهولنديون قط هذه الخدعة ، ولا هذه القسوة المتعمدة ، على الرغم من الحقيقة الواقعة وهي ان كلًا من غورنغ وكيسلرنغ (من سلاح اللوفتوافه) قد دافعـا عن نفسيهما في محاكمات نورمبرغ بالادعاء بأن روتردام لم تكن مدينة مكشوفة ، وانما كانت مدينة يدافع عنها الهولنديون بضراوة . وقد انكر الرجلان انهما كانا يعرفان بوجود مفاوضات للاستسلام ، عندما بعثا بالقاذفات ، على الرغم من وجود دليل قوي في الوثائق الالمانية العسكرية على انهما كانا يعرفان بوجود المفاوضات [2] . ومهما كان الموقف ، فان القيـادة العليا للقوات المسلحة الالمانية لم تحاول العثور على مبرر في ذلك الوقت . فقد استمعت بنفسي عشية الرابع عشر من ايار الى بلاغ لهذه القيادة تذيعه محطة برلين جاء فيه :

---

١ - قيل في بادىء الامر . وصدق الناس هذا القول طويلًا ، بأن ما يتراوح عدده بين الخمسة والعشرين الفاً والثلاثين الفاً من الهولنديين قد قتلوا ، وكان هذا هو الرقم الذي ذكرته « دائرة المعارف البريطانية (انايكلوبيديا بريتانيكا) في عددها لعام ١٩٥٣ » لكن الحكومة الهولندية قدمت الرقم (٨١٤) من القتلى الى محاكمات نورمبرغ . محاكمات كبار مجرمي الحرب (٩) ص ١٧٥ -- ١٧٧ ، ٢١٣ - ٢١٨ ، ٣٣٨ - ٣٤٠) .

٢ - لم تصدر اية قرارات بالتجريم في نورمبرغ بالنسبة الى قصف روتردام. (محاكمات كبار مجرمي الحرب (٣٦) ص ٦٥٦).

« استسلمت مدينة روتردام تحت تأثير الضغط الهائل لطائرات الانقضاض الألمانية والفزع من الهجوم المتوقع كل لحظة للدبابات الألمانية ، وانقذت نفسها باستسلامها من الدمار » .

وهكذا استسلمت روتردام اولاً، ثم ما لبثت ان استسلمت القوات الهولندية المسلحة وفرت الملكة ولهلمينا واعضاء حكومتها الى لندن على ظهر مدمرتين بريطانيتين . واصدر الفريق اش.جي وينكلمان ، القائد العام للقوات الهولندية، عندما حل غسق اليوم الرابع عشر من أيار أوامره الى الجيش الهولندي بالقاء سلاحه ، ووقع في الساعة الحادية عشرة من صباح اليوم التالي وثيقة الاستسلام الرسمية. وهكذا انتهى كل شيء في غضون خمسة ايام . أجل لقد انتهى القتال ، وجثم على صدر هذه الدولة الصغيرة المتحضرة والمعتدى عليها ليل من الارهاب الألماني المتوحش قدر له ان يطول خمس سنوات .

سقوط بلجيكا

ووقوع الجيوش الانكليزية ـ الفرنسية في الفخ

ما كان الهولنديون يستسلمون، حتى جاء دور بلجيكا وفرنسا والحملة البريطانية. وكان الرابع عشر من ايار على الرغم من انه هو اليوم الخامس من الهجوم يوم القدر بالنسبة الى الحملة كلها . ففي الليلة السابقة تمكن السلاح الالماني المدرّع من اقامة اربعة رؤوس جسور على نهر الموز المنخفض الضفة والذي تغطي الغابات الكثيفة جانبيه ، وذلك بين دينانت وسيدان، كما احتل المدينة الاخيرة التي كانت مسرح استسلام الامبراطور الفرنسي نابليون الثالث للقائد الالماني مولتيكيه في عام ١٨٧٠ ، والتي سجلت نهاية الامبراطورية الثالثة ، ثم هددت قلب خطوط الحلفاء تهديداً خطيراً ، اذ كانت المحور الذي التفت حوله زهرة الجيوش البريطانية والفرنسية بسرعة لتقذف بنفسها في خضم بلجيكا

وانفجر التيهور الهائل في اليوم التالي، الرابع عشر من ايار . فقد اندفع جيش من الدبابات لم يسبق له مثيل في تاريخ الحروب في حجمه وتركيزه وحركته وقوته الضاربة عبر غابات الاردين مبتدئاً من الحدود الالمانية في العاشر من ايار، وممتداً في ثلاثة ارتال الى مسافة مائة ميل وراء الراين، شاقاً طريقه عبر الجيشين الفرنسيين التاسع والثاني، غاذاً السير بسرعة هائلة ليصل الى القناة الانكليزية، قاطعاً طريق الرجعة على قوات الحلفاء العامة في بلجيكا . وكان هذا الجيش بمثابة الاله الهندي « يغرنوط » الذي يبحث عن سيادة العالم لنفسه، باعثاً الرعب والمهابة . وكانت موجات طائرات الانقضاض من طراز « شتوكا » التي تتولى تليين المواقع الدفاعيـــة الفرنسية وتخنيثها، والطائرات التي تلتقي بالمهندسين العسكريين، يقذفون على الفور زوارقهم المطاطية في الانهر، ويقيمون جسور القوارب المتحركة عليها لعبور القنوات والانهار، تتقدم كل فرقة من فرق العاصفة المدرعة هذه، التي تملك الواحدة منها بالاضافة الى اسلحتها العادية، المدافع الذاتية الحركة، وكتيبة من المشاة الآلية، لتشق طريقها الى الامـــام تتبعها الفيالق المدرعة، التي تسير وراءها فرق المشاة الآلية لتثبيت اقدامها في المواقع التي استولت عليها الدبابات . ولم يكن في وسع المدافعين الذاهلين، بكل ما لديهم من وسائل وقف هذه الجحافل من الفولاذ والنار، او منعها من التقدم . واضطر الفرنسيون على جانبي دينانت الواقعة على الموز، الى فسح الطريق امام الفريق هيرمان هوث الذي يقود الفيلق الالماني الخامس عشر المدرع المؤلف من فرقتين للدبابات يقود احدهما الزعيم الجريء الشاب ايروين رومل . وكان نفس الترتيب يجري تنفيذه الى الجنوب على طول النهر عند مونتيرمن، على يدي الفريق جورج هانز راينهاردت الذي يقود الفيلق المدرع الحادي والاربعين المؤلف من فرقتين من فرق الدبابات .

لكن اعظم الضربات حلت بالفرنسيين عند سيدان، ذات الذكريات المفجعة بالنسبة الى الفرنسيين . ففي هذه الجبهة اندفعت فرقتا الدبابات اللتان يقودهما الفريق هاينز غودريان قائد الفيلق المدرع التاسع عشر في صباح الرابع عشر من

ايار عبر جسر من القوارب أقيم بسرعة خلال الليل فوق نهر الموز ، واتجهت نحو الغرب [١] . وعلى الرغم من المحاولات اليائسة التي قام بها السلاح الفرنسي المدرع والقاذفات البريطانية لتدمير هذا الجسر ، مما كلفها ثمناً باهظاً ، اذ خسرا أربعين طائرة بريطانيـــة من مجموع سبعين أسقطت في غارة واحدة بالقذائف المضادة للطائرات ، وسبعين دبابة فرنسية ، فان الجسر ظل قائماً . ولم يحل المساء ، حتى كان رأس الجسر الألماني عند سيدان ، قد امتد ثلاثين ميلاً عرضاً وخمسة عشر ميلاً عمقاً ، بينما تمزقت القوات الفرنسية العاملة في القلب الحيوي لخطوط الحلفاء. وتحولت هذه القوات التي كانت تؤلف جيشاً منظماً في يوم ما ، الى جماعات تم تطويق بعضها ، وأسر بعضها الآخر ، بينما تراجع البعض الثالث بصورة تفتقر الى النظام . وغدت الجيوش الفرنسية والبريطانية في الشمال بالاضافة الى اثنتين وعشرين فرقة بلجيكية معرضة لخطر التطويق والعزلة عن مواصلاتها .

وكان قد خيِّل الى الحلفـــاء بأن اليومين الاولين من المعركة الجبارة قد انتهت الى صالحهم. وخيل لتشرشل نفسه الذي اندفع بحماس منقطع النظير يتولى مسؤولياته الجديدة كرئيس للوزراء ، انه « لم يكن هناك حتى ليلة الثاني عشر من ايار » كما دوّن فـــيما بعد « أي مبرر للافتراض بأن العمليات لا تسير سيراً حسناً [٢] . » وكان غاملان القائد الأعلى لقوات الحلفاء مرتاحاً من الوضـع كل الإرتياح . فلقد كانت الجيوش الفرنسية الأول والسابع والتاسع ، وهي أحسن القوات الفرنسية واضخمها ، قد انضمت مـع قوات الحملة البريطانية المؤلفة من تسع فرق بقيادة اللورد غورت ، في ذلك المساء الى القوات البلجيكية حسب الخطة المرسومة ، لتحمي خطاً دفاعياً منيعاً يمتد على نهر دايل من انتويرب عبر لوفان الى وامز ومنها عبر ثغرة غيمبلو الى نامور وانتويرب البلجيكيتين المنيعتين

١ ـ الف الفيلقان المدرعان اللذان يقودهما راينهاردت وغودريان ، مجموعة قوات العاصفـــة المدرعة التي يقودها الفريق ايوولد فون كلايست والتي تضم خمس فرق للدبابات وثلاث فرق مشاة مدرعة .

٢ ـ تشرشل ـ مذكرات الجزء الثاني ص ٤٠ .

في جبهة تمتد ستين ميلاً فقط ، قوات تفوق في عددها المهـــاجمين الالمان ، اذ كانت لهم ست وثلاثون فرقة مقابل عشرين فرقة يؤلفها جيش رايختاو السادس.

وعلى الرغم من ان البلجيكيين قد قاتـــلوا ببسالة على أطراف حدودهم الشمالية ، إلا انهم لم يصمدوا فيها طويلاً كما كان يتوقع منهم ، أو كما سبق لهم ان صمدوا في عام ١٩١٤ . وكان السبب في ذلك بسيطاً ، فقد عجزوا شأنهم كشأن الهولنديين الى الشمال منهم عن مواجهة الأساليب التعبوية الثورية الجديدة التي لجأت اليها القوات الالمانية المسلحة. وقد استولى الألمان هنا كما في هولندة على الجسور المهمة باستخدام مجموعة من الجنود المدربين خصيصاً لهذه الغاية ، وانزالهم بجرأة عجيبة عند الفجر من طائرات عديمة الصوت . وتمكن هؤلاء الألمان من التغلب على الحراس البلجيكيين عند جسرين من الجسور الثلاثة فوق قناة البرت وراء « ماستريخت » قبل ان يتمكن المدافعون من نسفها .

وأحرز الالمان نصراً كبيراً في الاستيلاء على قلعة « ايبين ايمايل » التي تسيطر على نقطة التلاقي بين نهر الموز وقناة البرت . وكان الحلفاء والالمان على حد سواء يعتبرون هذه القلعة العصرية ذات المركز الاستراتيجي الهام ،أعظم تحصين منيع في اوروبا ، يفوق في مناعته أي شيء تمكن الفرنسيون من بنائه في خط ماجينو أو الالمـــان من اقامته في الجدار الغربي . وقد أقيمت هذه التحصينات على شكل سلسلة من الاروقة المشادة من الفولاذ والاسمنت المسلح ، تمتد عمقاً تحت الأرض . وقد حميت ابراج مدافعها بالدروع الثقيلة يقوم ورائها الف ومائتا جندي . وكان من المنتظر ان تصمد هذه القلعة الجبارة أمام أشد القنابـــل والقذائف المدفعية الضخمة. ولكنها سقطت بعد ثلاثين ساعة في يد ثمانين جندياً المانياً يقودهم عريف ، هبطوا على سطحها في تسع طائرات لا محركات لها . ولم تزد خسائرهم الإجمالية على ستة قتلى وتسعة عشر جريحاً . وانني لأذكر ، وانا في برلين آنذاك ، ان القيادة العليا للقوات المسلحة قد اضفت شيئاً من الغموض والسرية على المشروع ، اذ أعلنت في بلاغ خاص صدر عشية الحادي عشر من ايار ان القوات الالمانية قد استولت على قلعة « ايبين ايمايل » بوسيلة جديدة من

وسائل الهجوم . وأدى هذا البيان الى انتشار الشائعات، التي شمر غوبلز بالفرح الزائد ، من توسعها ، بأن الالمان يستعملون « سلاحاً سرياً » جديداً ومميتاً ، قد يكون من غازات الاعصاب التي تشل المدافعين مؤقتاً وتفقدهم كل قدرة على الحركة .

لكن الحقيقة كانت أقل شعرية من ذلك كله . فلقد أقام الالمان بما عرف عنهم من ميل الى الاهتمام بجميع الدقائق في كافة اعداداتهم ، في شتاء عام ١٩٣٩ ـ ١٩٤٠ في موقع هيلدشايم ، صورة اصطناعية للقلعة والجسور عبر قناة البرت ، ودربوا نحواً من أربعمائة جندي من الذين تحملهم الطائرات التي لا محركات لها ، على احتلالها . وتقرر ان يعهد الى ثلاث مجموعات باحتلال الجسور الثلاثة وان يعهد الى المجموعة الرابعة باحتلال القلعة . وقد هبطت هذه المجموعة المؤلفة من ثمانين رجلاً على سطح القلعة ، ووضعت في أبراج المدافع المدرعة متفجرات « مجوفة » أعدت خصيصاً لهذه الغاية تمكنت من تعطيل هذه المدافع ونشرت ألسنة اللهيب والغازات في الغرف القائمة في الداخل . واستخدمت قاذفات تحمل اللهيب أيضاً في فوهات المدافع وفتحات المراقبة . وقد تمكن الالمان في غضون ساعة من الوصول الى الأروقة العليا ، وأبطلوا مفعول المدافع الخفيفة والثقيلة الموجودة في القلعة الفظيعة ، كما حالوا دون تمكن مراكز المراقبة من أداء واجبها . وحاول المشاة البلجيكيون المتركزون وراء القلعة ، عبثاً ان يخرجوا الفئة الصغيرة المهاجمة من مراكزها ولكن طائرات «شتوكا» المنقضة والتعزيزات التي تلقاها المهاجمون من المظليين قد حالت بينهم وبين تحقيق غايتهم . ولم يحل صباح الحادي عشر من أيار حتى كانت الوحدات المدرعة الامامية التي راحت تنهب الارض فوق الجسرين السليمين القائمين في الشمال ، قد وصلت الى القلعة وأحاطت بها،وبعد قصف آخر من طائرات شتوكا ، وقتال بالسلاح الابيض في الانفاق الواقعة تحت الارض ، رفع المدافعون عند الظهر علم التسليم الابيض ،

وخرج الف ومائتا جندي بلجيكي، غلبتهم الحيرة والدهشة يسلمون أنفسهم [1].

وأدى هذا العمل الحربي الرائــع ، مع ما رافقه من احتلال الجسور وعنف الهجوم الذي قام به جيش الفريق فون رايخناو السادس يعززه الفيلق المدرع السادس عشر المؤلف من فرقتي دبابات وفرقة مشاة آلية بقيادة الفريق هويبنر ، الى اقتناع القيادة العليا للحلفاء ، بأن الجناح الأيمن ، هو الذي يحتمل كما احتمل في عام ١٩١٤ ، أعباء الثقل الرئيسي في الهجوم الألماني العام ، وانها ، أي هذه القيادة مقتنعة من الوسائل الصالحة التي اتخذتها لوقفه . وبالفعل ظلت القوات البلجيكية والبريطانية والفرنسية حتى عشية الخامس عشر من ايار صـــامدة بقوة على خط دايل من انتويرب إلى نامور .

وكان هذا ما تريده قيادة الألمان العليا . وأصبح من الممكن بالنسبة اليها الآن ان تسارع الى تنفيذ خطة مانشتاين ، وأن توجه ضربتها الهائلة في الوسط . وتمكن الفريق هولدر ، رئيس هيئة أركان حرب الجيش الألماني من تفهم الوضع وما فيه من فرص ، بوضوح عشية الثـــالث عشر من ايار ... ولذا دوّن في يومياته يقول :

«في وسعنا ان نعتمد الى الشمال من نامور على تركيز كامل لنحو من (٢٤) فرقة بريطانية وفرنسية و (١٥) فرقة بلجيكية . ونحن نملك مقـابل هذه القوى جيشنا السادس الذي يضم نحواً من خمس عشرة فرقة في الجبهة وست فرق في الاحتياط ... ونحن قادرون هناك على احباط أي هجوم قد يقوم به العدو . ولسنا في حاجة

---

١ ــ الوصول الى معلومات اكثر تفصيلا ، راجع كتاب وولتر ــ ميلتزر «قناة البرت وقلعة ايبين ــ ايمايل» وكتاب رودولف ويتزيغ (احتلال حصن ايبين ايمايل) (كان الملازم ويتزيغ هو المنتدب لقيادة العملية ولكن خللا طرأ على طائرته التي لا محرك لها أخره عن الوصول الا بعد ان كان رجاله بقيادة العريف ويتزيل قد حققت رسالتها) وكتاب الفريق فان اوفرستريتن (من البرت الاول الى ليوبولد الثالث ـ بلجيكا الرواية الرسمية لما حدث) . وكتاب تيلفورد تيلور «زحف الفتح» ص ٢١٠ - ٢١٤ .

الى المجيء بأية قوات جديدة . أما الى الجنوب من نامور فنحن نواجه عدداً اضعف ، اذ لاتبلغ قوته نصف ما لدينا من قوات هناك . وستقرر نتيجة الهجوم في الموز مصير المعركة كلها،إذا عرفنا كيف ومتى يجوز لنا استغلال تفوقنا . ولا يملك العدو وراء هذه الجبهة اية قوات تستحق الذكر .

أجل لم تكن هناك قوات تستحق الذكر وراء هذه الجبهة ، التي تحطمت في اليوم التالي.

وطار رئيس الوزراء تشرشل في السادس عشر من ايار الى باريس ليرى بنفسه ماذا حدث . وعندما كان يقطع شوارع باريس بسيارته بعد ظهر ذلك اليوم متجهاً الى « الكي دورسيه » لمقابلة رينو،رئيس الوزراء الفرنسية والفريق غاملان ، كانت رؤوس رمال الارتال الألمانية المدرعة قد غدت على بعد ستين ميلاً الى الغرب من سيدان ، وهي تتوغل في الارض العراء التي لا دفاع فيها . ولم يكن هناك ما يحول بينها وبين الوصول الى باريس أو الى بحر المانش ولكن تشرشل لم يكن يعرف هذه الحقيقة . وراح يسأل غاملان قائلاً : « واين القوات الاحتياطية الاستراتيجية ؟ » ثم تحول الى القوات الفرنسية قائلاً « واين قوات المناورة » . وراح القائد العام لقوات الحلفاء يلتفت اليه وهو يهز رأسه قائلاً ويحرك كتفيه : « ليست لدينا قوات احتياطية او قوات للمناورة » [1] .

وقال تشرشل في مذكراته : « ووجمت ولم استطع ان انبس ببنت شفة » . فلم يسبق لانسان ان سمع بأن جيشاً عظيماً كالجيش الفرنسي لا يحتفظ بقوات احتياطية ليواجه بها اي هجوم يتعرض له . وعاد تشرشل يقول : واني لأعترف بأن هذه المفاجئة كانت من اعظم ما مررت به من مفاجئات

---

١ – روى غاملان بعد انتهاء الحرب ان رده كان « لم يعد لدينا قوات احتياطية أو للمناورة» (عدد ٢١ تشرين الثاني عام ١٩٤٩ من صحيفة اورور الفرنسية) .

في حياتي »[1] .

ولم تكن هذه المفاجئة أقل غرابة للقيادة العليا الألمانية او لهتلر او لفرقاء القيادة العليا للقوات المسلحة على الأقل ان لم تكن لهولدر . فلقد تردد الفوهرر الذي ادار بنفسه الحملة في الغرب ، مرتين في هذه الحملة . وكانت المرة الاولى في السابع عشر من ايار عندما واجهته ازمة عصبية حادة . فلقد تلقى غودريان الذي كان قد قطع ثلث الطريق نحو المانش ، بفيلقه المدرع أمراً بالتوقف في موضعه ، اذ كان السلاح الجوي الألماني قد نقل معلومات الى القياة العامة بأن الفرنسيين يعدون هجوماً مضاداً ضخماً لقطع « الشقين » المدرعين الألمانيين النحيلين اللذين امتدا الى الغرب من سيدان . وتشاور هتلر بسرعة مع قائد جيشه براوختش ومع رئيس اركان حربه هولدر وكان على يقين من تزايد تهديد فرنسي خطير من ناحية الجنوب . وأيده في رأيه هذا رونشتادت قائد مجموعة الجيوش (ا) وهي القوة الرئيسية التي احدثت « الاختراق » عند نهر الموز ، عندما اشترك في المشاورات في ساعة متأخرة من ذلك اليوم . وقال انه يتوقع «هجوماً مضاداً مباغتاً وعظيماً تقوم به قوات فرنسية ضخمة من منطقتي فردان وشالون على نهر المارن » . وبدت امام عقل هتلر المحموم صورة معركة اخرى كمعركة «المارن» ، في الحرب الاولى .وراح يكتب الى موسوليني في اليوم التالي : « انني حريص كل الحرص ، على ان لا تعود معجزة المارن الى الظهور من جديد[2] .

ودوّن هولدر في يومياته مساء السابع عشر من ايار يقول :

« كان يوماً مزعجاً. فالفوهرر متوتر الاعصاب للغاية. فهو قلق على نجاحه ، لا يريد ان يغامر بشيء ويصر على كبح جماحنا . وهو

---

١ - تشرشل - مذكرات الجزء الثاني ص ٤٦ - ٤٧ .

٢ - من هتلر الى موسوليني في ١٨ ايار ١٩٤٠ (محاكمات كبار مجرمي الحرب (٩) ص ٣٧٤ - ٣٧٥) .

يتذرع بأن كل ما يقلقه ناجم عن وضع الجناح الايسر . وهو لم يأت لنا بشيء جديد الا الحيرة والشكوك » .

ولم يظهر أي تحسن في مزاج سيد الحرب النازي في اليوم التالي ، على الرغم من الانباء الهائلة التي وصلت عن انهيار فرنسا . وسجل هولدر الأزمة في يوميته للثامن عشر من ايار قائلاً :

« ان الفوهرر يحس بقلق لايكاد يوصف حول وضع الجناح الجنوبي . فهو يصرخ ويثور قائلاً بأننا نوشك على اتلاف العملية كلها وبأننا نتجاهل ما للهزيمة من أخطار . انه لا يريد ان يشترك في مواصلة الزحف غرباً فكيف بالزحف الى الجنوب الغربي ، ويصر على فكرة الاندفاع نحو الشمال الغربي.ولعل هذا الموضوع هو الذي يخلق المناقشات وخلافات مزعجة بين الفوهرر من ناحية وبين براوختش وبيني من الناحية الثانية » .

وسجل الفريق يودل من رجال القيادة العليا للقوات المسلحة ، وهو الرجل الذي يؤمن بأن الفوهرر لايخطىء ابداً ، هذا الخلاف بين الكبار في يوميته بتاريخ الثامن عشر من ايار قائلاً :

« اشتد التوتر اليوم ، لم يقم براوختش القائد العام بتنفيذ عزمه في اقامة موضع التفافي جديد بأسرع وقت ممكن باتجاه الجنوب .. وقد استدعى الفوهرر براوختش وهولدر فوراً وأمرهما بحزم باتخاذ الاجراءات اللازمة فوراً » .

ولكن هولدر كان مصيباً في رأيه ، اذ لم يكن لدى الفرنسيين قوات يستطيعون بها ان يشنوا هجوماً مضاداً من الجنوب . وعلى الرغم من ان الفرق المدرعة ، وهي التي تحترق غيظاً وكمداً قد تلقت اوامر ، بان لاتفعل شيئاً سوى التقدم « بقوات استطلاعية » ، الا ان هذه القوات كانت كافية وحدها للضغط باتجاه القناة الانكليزية . ولم يحل صباح التاسع عشر من ايار حتى كانت سبع فرق مدرعة ، قد احدثت فجوة كبيرة في صفوف الحلفاء،ومضت مسرعة

الى الغرب ، في شمال نهر السوم ، عابرة بمسارح المعارك الكبرى التي دارت في الحرب الكونية الأولى ، والتي رويت القصص الكثيرة عنها وغدت على بعد خمسين ميلاً من القناة . وفوجىء مقر قيادة هتلر عشية العشرين من ايار ، بوصول الفرق المدرعة الثانية الى مدينة ابيفيل عند مصب السوم . وهكذا سقطت القوات البلجيكية والحملة البريطانية كلها وثلاثة جيوش فرنسية في الفخ . وراح يودل يدوّن في يومياته في تلك الليلة :

« يكاد الفوهرر يطير من الفرح . انه يتحدث معرباً عن تقديره العظيم للجيش الالماني وقيادته . انه يعد الآن معاهدة الصلح ، التي تنطوي على الانغام التي طالما رددها عن عودة الأراضي التي سرقت من الشعب الألماني منذ اربعمائة عام ، كما تنطوي ايضاً على الفوائد الكثيرة ...

« وتوجد مذكرة خاصة في الملفات تحتوي على العبارات التي تخنقها العواطف ، والصادرة عن الفوهرر ، عندما تلقى النبأ الهاتفي من القائد العام للجيش عن احتلال بلدة ابيفيل » .

وكان الأمل الوحيد للحلفاء للخلاص من هذا الطوق الذي يهددهم بالكارثة هو ان تتجه الجيوش الموجودة في بلجيكا فوراً نحو الجنوب ، متخلية عن القتال الذي كانت تشتبك فيه مع الجيش الألماني السادس الذي يهاجمها هناك ، وان تحاول شق طريقها عبر الفجوة الألمانية المدرعة التي تمتد في شمال فرنسا نحو الساحل ، لتتصل الى القوات الفرنسية الجديدة التي اخذت في الاندفاع شمالاً من السوم . وكانت هذه الخطة هي ما تضمنها الامر الذي اصدره الفريق غاملان فعلاً في صباح التاسع عشر من ايار ، ولكنه نحي عن منصبه في المساء ، ليخلفه فيه الفريق مكسيم ويغان الذي ألغى ذلك الأمر فوراً . وأراد ويغان الذي كان يتمتع بشهرة عسكرية ضخمة حققها في الحرب الكونية الأولى ، ان يتشاور اولاً مع قادة الحلفاء في بلجيكا قبل ان يصل الى القرار الذي سيتخذه بصدد ما يفعله. وأدى هذا الوضع الى ضياع ثلاثة ايام قبل ان يصل ويغان الى عين الخطة التي سبق

لسلفه غاملان ان قررها. وكان هذا التأخير باهظ الثمن والتكاليف . فلقد كانت هناك أربعون فرقة فرنسية وبريطانية وبلجيكية تمرست على الحرب في الشمال ، ولو وجهت هذه القوة الضخمة ضربتها باتجاه الجنوب عبر الخط الالماني «الرقيق» في التاسع عشر من ايار كما أمر غاملان ؛ لكان نجاحها في اختراق الطوق كبير الاحتمال ولكن عندما شرعت هذه الجيوش في العمل بعد فترة التأخر ، كانت المواصلات بين القيادات المختلفة من فرنسية وبريطانية وبلجيكية ، قد غدت في حالة من الفوضى ، وكانت جيوش الحلفاء المتعددة التي اشتد الضغط عليها قد بدأت تعمل في أهداف متعارضة . ولكن خطة ويغان ظلت فكرة في عقل القائد ، اذ لم تكن هناك قوات فرنسية تستطيع الاندفاع شمالاً من السوم .

وكانت القيادة العليا الالمانية قد قذفت في غضون ذلك بكل ما توافر لديها من قوات المشاة لتعزيز « الثغرة » المدرعة وتوسيعها . ولم يحل الرابع والعشرون من ايار حتى كانت دبابات غودريان الزاحفة من ابيفيل مع ساحل القناة الانكليزية قد استولت على بولون وحاصرت كاليه وهما الميناءان الرئيسيان . ثم وصلت الى « غريفلاين » التي تبعد نحو عشرين ميلاً على الساحل من دنكرك . وكانت الجبهة في بلجيكا قد تحركت نحو الجنوب الغربي نتيجة محاولة الحلفاء الخلاص من الطوق هناك . وهكذا لم يحل الرابع والعشرون من ايار حتى كانت الجيوش البريطانية والفرنسية والبلجيكية في الشمال قد حصرت في مثلث صغير نسبياً ، قاعدته على ساحل القناة الانكليزية تمتد في « غريفلاين » الى «تيرنوزين» ورأسه عند فالينين التي تقع على بعد سبعين ميلاً الى الداخل . ولم يعد ثمة أمل في النجاة من الطوق ، وبات الأمل الوحيد ، رغم ضآلته هو الجلاء بحراً من دنكرك .

وفي هذه اللحظة الحرجة ، في الرابع والعشرين من ايار ، تلقى السلاح الألماني المدرع ، الذي بات الآن على مرأى من دنكرك ، وقد وقف على طول قناة « أ آ » بين « غريفلاين » وسنت اومير على استعداد لتوجيه الضربة القاضية الأخيرة ، أمراً غريباً ، لم يستطع الجنود في الميدان فهمه او تفسيره . يقضي

بالتوقف عن الزحف وكان هذا الأمر اول خطأ رئيسي ارتكبته القيادة العليا الألمانية في الحرب الكونية الثانية وغدا موضع الجدل العنيف لا بين القـــادة الالمــان وحدهم ، بل بين المؤرخين العسكريين الذين راحوا يستقصون المسؤول عن اصداره والسبب في صدوره . وسنعود الى هذا الموضوع بعد لحظة على ضوء ما لدينا من معلومات متوافرة الآن . ومهما كانت الاسباب التى أدت الى هـذا الأمر بالوقوف ، فقد اتاح للحلفاء فرصة هي أشبه ما تكون بالمعجزة لم تنقـذ البلجيكيين ابداً .

استسلام الملك ليوبولد

استسلم ليوبولد الثالث ملك البلجيك في الساعات المبكرة من صباح الثامن والعشرين من ايار . فهـــذا الملك الشاب ، الصعب المراس ، الذي اخرج بلاده من حظيرة التحالف مع فرنسا وبريطانيا مؤثراً عليه الحياد الاحمق ، والذي رفض ان يعيد هذا التحالف حتى في الاشهر التي كان يعرف فيها خير معرفـــة ان الالمان يعدون العدة لهجوم ضخم عبر حدوده ، والذي استنجد في اللحظة الاخيرة ، وبعد ان وجه هتلر ضربته اليه ؛ بالبريطانيين والفرنسيين طالبـــاً مساعدتهم التي تلقاها فعـــلاً ، وراح الآن يتخلى عنهم في ساعة محنتهم ، ويفتح الطريق امام الفرق الألمانية لتنصب على جناح القوات الانكليزية ــ الفرنسية المتعرضة للضغط الشديد . ومع ذلك ، فقد قام بهذا العمل . كما ذكر تشرشل لمجلس العموم في الرابع من حزيران دون أية مشورة سابقة معنا ، ودون مهـلة انذار كافية . ودون نصيحة من وزرائه وانما بحافز شخصي منه » .

وليس ثمة من شك في انه قام بهذا العمل ضد رغبة حكومته الجماعية التي كان قد أقسم يميناً دستورياً على اتباعها . ولقد عقدت في الساعة الخامسة من صباح اليوم الخامس والعشرين من ايار جلسة عاصفة في مقر قيـــادة الملك ،

شهدها بالاضافـــة اليه ثلاثة من اعضاء حكومته وبينهم رئيس الوزراء ووزير الخارجية . وقد حثوه لآخر مرة ، على عـــدم الاستسلام شخصياً لئلا يصبح اسيراً عند الالمان ، اذ لو فعل ذلك لانحطت منزلته الى منزلة «الدكتور هاشا» في براغ . وقد ذكروه ايضاً بانه رئيس دولة وقائد عام للجيش وبانه اذا ساءت الأمور الى الحد الأقصى فإن في وسعه ان يمارس صلاحياته في المنفى ، كما تمارسها ملكة هولندة وملك النروج ، الى ان يتحقق النصر النهائي للحلفاء .

ورد ليوبولد قائلاً : « لقد قررت البقاء . فقضية الحلفاء خاسرة » [1]

وفي الساعة الخامسة من بعد ظهر السابع والعشرين من ايار ، اوفد الملـــك الفريق ديروسو نائب رئيس هيئة الأركان العامة ليطلب الهدنة من الألمان . وعاد الفريق في الساعة العاشرة يحمل شروط الألمان وهي تنص على « ان الفوهرر يطلب القاء السلاح دون قيد او شرط » . وقبل الملك بالاستسلام غير المشروط في الساعة الحادية عشرة مساء واقترح ان يتوقف القتال في الرابعـــة صباحاً . وهذا ما تم بالفعل .

واستنكر رينو رئيس وزراء فرنسا استسلام ليوبولد استنكاراً غاضباً في خطاب عنيف ألقاه من الاذاعة ، واذاع بييرلو رئيس وزراء بلجيـــكا رسالة مماثلة من باريس ولكن في عبارات اكثر تهذيباً ، وابلغ الشعب البلجيكي بأن الملك قد اتخذ قراره ضد نصيحة حكومته الجماعية ، وانه قد قطع صلاته بشعبه ، ولم يعد في وضع يمكنه من الحكم ، وان الحكومة البلجيكية في المنفى ستواصل القتال . وتحفظ تشرشل عندما ألقى خطابه في مجلس العموم في الثامن والعشرين من ايار في حكمه على عمل الملك ليوبولد ، ولكنه عاد فاشترك في حملة الانتقاد العامة في خطابه في الرابــع من حزيران .

---

١ - رواية الملك ورئيس وزرائه عن الاجتماع في التقرير الرسمي للحكومة البلجيكيـــة , اللاحق . ص ٦٩ - ٧٥) وقد نقلها بول رينو رئيس وزراء فرنسا . كتابه(حمأة المعركة) ص ٤٢٠ - ٤٢٥ .

واستمر الجدال حول هذا الموضوع طويلاً بعد ان انتهت الحرب . وكان هناك الكثيرون داخل بلجيكا وخارجها من الناس الذين دافعوا عن ليوبولد ، واعتقدوا بأنه قد فعل الشيء الصحيح والكريم والشريف ، في اشتراكه مع شعبه في مصيره ومصير جنوده . وقد طبلوا كثيراً وزمروا ، للزعم القائل بأن الملك لم يقم بعمله هذا في الاستسلام كرئيس دولة ،وانما كقائد عام للجيش .

وليس ثمة من خلاف في ان القوات البلجيكية المحطمة كانت في وضع يائس من السابع والعشرين من ايار . وكانت هذه القوات قد وافقت شهامة منها وبسالة على توسيع جبهتها رغبة منها في تحريرالبريطانيين والفرنسيين لتمكينهم من شق طريقهم جنوباً . ولكن هذه الجبهة المتوسعة كانت تنهار بسرعة على الرغم من قتال البلجيكيين قتالاً حروناً عنيداً .ولم يكن ليوبولد قد ابلغ كذلك بأن اللورد غورت قد تلقى في السادس والعشرين من ايار – أوامر من لندن ، للانسحاب من دنكرك ، وانقاذ ما يمكن انقاذه من قوات الحملة البريطانية . وهذا جانب واحد من المناقشة ولكن هناك جانباً آخر لها . فالجيش البلجيكي كان تابعاً لقيادة الحلفاء المشتركة ، وقد قام ليوبولد بعقد هذا الصلح المنفرد دون استشارة هذه القيادة.ويقول المدافعون عنه انه ابرق في السابع والعشرين من ايار وفي الساعة الثانية عشرة والنصف بعد الظهر الى اللورد غورت يقول له انه سيجد نفسه مضطراً عما قريب « للاستسلام لتجنب الانهيار » . ولكن القائد البريطاني المنهمك في انسحابه والدائم الحركة في تلك الآونة لم يتلق هذه البرقية . وقد شهد فيما بعد انه سمع لأول مرة بالاستسلام بعيد الساعة الحادية عشرة من مساء السابع والعشرين من ايار ووجد نفسه « فجأة يواجه ثغرة اتساعها عشرين ميلاً بين ايبرس والبحر ، يستطيع العدو النفاذ منها للوصول بقواته المدرعة الى الشاطىء[1] . ووصلت الانباء الى الفريق ويغان ، وهو القائد الاعلى عسكرياً للملك بوصفه قائد الحلفاء الاعلى ، من ضابط الارتباط الفرنسي في مقر القيادة البلجيكية بعد الساعة السادسة مساء وقد اصابته على

١ – رسائل اللورد غورت ملحق الجريدة الرسمية البريطانية – لندن عام ١٩٤١ .

حد قوله فيما بعد « كالصاعقة الهابطة من السماء ، اذ لم يكن قد تلقى انذاراً مسبقاً عنها من قبل [1] ».

واخيراً ،كان من الواجب على ليوبولد حتى بوصفه قائداً أعلى للقوات المسلحة ، ان يقبل بنصيحة حكومته وذلك طبقاً للاعراف الدستورية في بلجيكا كبلد ديموقراطي . ولم يكن بوسعه لا في هذه الصفة ولا بوصفه رئيساً للدولة ، ان يستسلم بقرار منه وحده. وقد أصدر الشعب البلجيكي ، وهذا حق من حقوقه ، الحكم على ملكه . اذ لم يستدع للعودة الى العرش من سويسرة التي لجأ اليها بعد انتهاء الحرب ، إلا بعد مرور خمس سنوات من اقامته فيها . وعندما جاءته الدعوة في العشرين من تموز عام ١٩٥٠ ، اثر اقتراع (٥٧) في المائة من مجموع المقترعين في الاستفتاء العام الى جانب دعوته ، اثار رجوعه الى البلاد رد فعل عنيف بين السكان الى الحد الذي هدد بنشوب حرب أهلية ،مما أرغمه على التنازل عن العرش لمصلحة ولده .

ومهما قيل عن سلوك ليوبولد ، فليس ثمة من خلاف ، مع وجود بعضه فعلاً ، في الطريقة الرائعة التي حارب بها جيشه [2] . وكنت قد لحقت بجيش رايخناو السادس بضعة أيام من شهر ايار عبر الاراضي البلجيكية ورأيت العناد الذي ابداه البلجيكيون في قتالهم ضد قوات تفوقهم عدداً بشكل هائل . ولم تنهر مقاومتهم مرة واحدة أمام هذا القصف الجوي الذي تعرضوا له دون ان تتهيأ لهم سبل مقاومته على الرغم من وحشيته ، ولا امام السلاح الالماني المدرع عندما حاول اختراق صفوفهم . ولا يمكن ان يقال هذا القول بالنسبة الى قوات معينة اخرى من قوات الحلفاء في تلك الحملة. فلقد صمد البلجيكيون ثمانية عشر يوماً ، وكان من الممكن ان يصمدوا مدة أطول ، لولا انهم كقوات الحملة البريطانية

---

١ - ويغان - « دعي الى الخدمة العسكرية » ص ١٢٥ - ١٢٦ .

٢ - من بين الذين خالفوا هذا الرأي الفريق السير الان بروك الذي كان يتولى قيادة الفيلق الثاني في الحملة والذي اصبح المشير اللورد الان بروك ، رئيس هيئة اركان حرب الامبراطورية. راجع كتاب السير ارثر برايانت (تحول التيار) المستند الى يوميات الان بروك .

وجيوش فرنسا الشمالية ، قد وقعوا في فـــخ لم يكونوا هم المسؤولون عن السماح بوجوده .

المعجزة في دنكرك

شرعت الامبرالية البريطانية بايعاز شخصي من تشرشل ، منذ العشرين من ايار عندما شقت دبابات غودريان طريقها الى ابيفيل على البحر ، في تجميـــع البواخر اللازمة للقيام بجلاء محتمل لقوات الحملة البريطانية وغيرها من القوات الحليفة الاخرى من موانىء القناة . وبدأ نقل الموظفين غير المحاربين وغيرهم من أصحاب « الأفواه التي تأكل » والذين لا ضرورة لوجودهم عبر البحر الضيق الى بريطانيا فوراً . وعندما حل الرابع والعشرون من ايار ، كانت الجبهة البلجيكية في الشمال ، كما ذكرنا آنفاً على وشك الانهيار ، وكان السلاح الالماني المدرع في الجنوب والمتجه مع الساحل من ابيفيل ، قد وصل بعد الاستيلاء على بولون وتطويق كاليه الى قناة (أ آ) التي تبعد عشرين ميلاً فقط عن دنكرك . وقد حاصر الالمان في هذا الطوق الذي ضربوه الجيش البلجيكي بكامله ، وتسع فرق من الحملة البريطانيـــة وعشر فرق من الجيش الفرنسي الاول ، وعلى الرغم من وعورة الارض في الطرف الجنوبي من هذا « الجيب » ، وعدم صلاحها للدبابات بالنظر الى تشابك القنوات فيها ووفرة الاخاديد والمناطق التي تغمرها المياه ، الا ان فيالق غودريان ورينهارد المدرعة تمكنت من اقامة خمسة «رؤوس جسور» عبر العائق الرئيسي وهو قناة (أ آ) بين « غريغلاين على البحر وسنت أومير » وكانت تستعد لتوجيه الضربة القاضية التي تحصر جيوش الحلفاء بين مطرقتها وبين سندان الجيشين الالمانيين السادس والثامن عشر المندفعين جنوباً من ناحية الشمال الشرقي ، وللقضاء عليها قضاء مبرماً .

وفجأة وفي مساء الرابع والعشرين من ايار صدر الأمر الفجائي من القيادة العليا باصرار من هتلر الذي أيده كل من رونشتادت وغورنـغ ، ورغم اعتراضات

براوختش وهولدر العنيفة ، بوقف قوات الدبابات على خط القناة ، وعدم القيام بأية محاولة للتقدم . وقد اتاح هذا التوقف للورد غورت فرصة جوهرية لم يكن يتوقعها . وسرعان ما استغلها الاسطول والسلاح الجوي البريطانيان اكـبر استغلال ، وغدت على حد تعبير رونشتادت فيما بعد ، اثر انبلاج الحقيقة امامه « احدى نقاط التحول العظيمة في الحرب » .

فكيف صدر هذا الأمر بالتوقف عندما كان الألمان على عتبة ما كان يبدو كشيء مؤكد ، اكبر نصر تحرزه المانيا في هذه الحملة ؟ وما هي الأسباب التي أدت الى صدوره يا ترى ؟ ومن المسؤول عن صدوره ؟ انها اسئلة اثارت اعظم المناقشات المتعلقة بالحرب بين القادة الألمان من ذوي العلاقة ، وبين المؤرخين ايضاً . لقد انحى القادة العسكريون يقودهم رونشتادت وهولدر باللوم على هتلر كلية . وصب تشرشل الزيت على النار التي اشعلها هذا الجدال في المجلد الثاني من مذكراته عن الحرب ، عندما ذكر ان المبادرة الى هذا الامر صدرت عن رونشتادت نفسه لا عن هتلر ، مستنداً في قوله هذا على الأدلة التي استخلصها من يوميات الحرب في مقر قيادة رونشتادت . وكان من الصعب علي في خضم هذه الأقوال المتباينة والمتضاربة ، أن أصل الى الحقائق أو أثبت منها . ورأيت وانا أعد هذا الفصل ان اكتب الى الفريق هولدر اطلب اليه ايضاحات اخرى عن الموضوع وقد تلقيت منه رداً كريماً ومسهباً . وعلى ضوء هذه الرسالة ، وعلى ضوء الأدلة الأخرى التي اصبحت متوافرة الآن ، بات في مكنتي ان أصل الى استنتاجات معينة قد تضع حداً لهذا الجدل ، ان لم يكن نهائياً ، فقادراً على الاقناع على الأقل .

وليس ثمة من شك في ان رونشتادت على الرغم من تأكيداته اللاحقة بعدم وجود اية مسؤولية عليه في اصدار هذا الأمر الشهير ، يتحمل على النقيض قسطاً منها مع هتلر نفسه . فلقد قام الفوهرر في صباح الرابع والعشرين من ايار بزيارة مقر القيادة العامة لمجموعة الجيوش (١) التي يتولى رونشتادت قيادتها ، وذلك في مدينة شارليفيل . وقد اقترح رونشتادت عليه وقف الفرق المدرعة عند خط

القناة (أ آ) ، ترقباً لوصول قوات جديدة من المشاة لتعزيزها [١] . وقد وافق هتلر على هذا الاقتراح مشيراً الى وجوب الاحتفاظ بالسلاح المدرع للعمليـــات المقبلة ضد الفرنسيين الى الجنوب من نهر السوم. وأعلن ايضاً بأنه في حالة تضييق مساحة الفخ الذي وقع فيه الحلفاء الى حد كبير للغاية فان هذا الضيق يؤدي الى عرقلة ما يبذله السلاح الجوي الالماني من نشاط ومن المحتمل ان يكون رونشتادت قد أصدر هذا الأمر بالتوقف بعد موافقة الفوهرر ، وذلك لان تشرشل يروي ان الحملة البريطانية التقطت رسالة لاسلكية ألمانية تتضمن هذا الأمر في الساعة الحادية عشرة والدقيقة الثـــانية والاربعين من ذلك الصباح [٢] . وكان هتلر

---

١ - لم تمنع هذه الحقيقة المستقاة من سجلات قيادة رونشتادت بين هذا القائد وبين اصدار عدة بيانات بعد الحرب يلقي اللوم فيها كلية على هتلر. فقد ذكر للرائد ميلتون شوللان ضابط المخابرات الكندي قائلاً : « لو كنت حراً فيما اعمل ، لما تمكن الانكليز من الخلاص بمثل تلك السهولة من دنكرك . ولكن أوامر هتلر نفسه كانت تقيد يدي . فبينما كان الانكليز يصعدون الى البواخر من الشطئان الرملية ، كنت مجبراً على الوقوف في خارج الميناء ، دون ان أقوم بأي عمل ، وغير قادر على الحركة .. وظللت خارج المدينة أرقب الانكليز وهم يفرون ، بينما كانت الأوامر تمنع دباباتي ومشاتي من الحركة . ولا ريب في ان هذا الخطأ الذي لا يكاد يصدق ، ناجم من فكرة هتلر الشخصية عن القيادة (شوللان ـ الهزيمة في الغرب . ص ٢ : - ٤٣) .

وأضاف رونشتادت في وثيقة خطية قدمها الى لجنة تابعة للمحكمة العسكرية الدولية في نورمبرغ في العشرين من حزيران عام ١٩٤٦ ، يقول : حقاً لقد كان خطأ كبيراً من القائد...وليس في وسع أي انسان ان يصف في ذلـــك الوقت مدى ما كنا نحس به من غضب » . وقد افضى رونشتادت ببيانات مماثلة الى ليدل هارت «الفرقاء الالمان يتكلمون ص ١١٢ - ١١٣ » ، والى محكمة نورمبرغ العسكرية في القضية التي رفعتها الولايات المتحدة ضد ليب (ص ٣٣٥٠-٣٣٥٣ و ص ٣٩٣١ - ٣٩٣٢) .

وقد حلل تيلفورد تيلور في كتابه «زحف الفتح» والرائد. ال. اف. ايليس في كتابه (الحرب في فرنسا والفلاندرز) ما ذكرته السجلات الالمانية عن الحادث وتوصلا الى استنتاجات مختلفة الى حد ما . ويعتبر كتاب ايليس النص البريطاني للحملة ، ولكنه يضم وثائق المانية ايضـــاً . ويعتبر تيلور الذي قضى اربع سنوات ممثلا للنيابة العامة الامريكية في محاكمات نورمبرغ حجة في الوثائق الالمانية .

٢ - تشرشل - مذكرات - ص ٧٦...

ورونشتادت يعقدان اجتماعاً في تلك اللحظة .

على كل حال ، اصدر هتلر في تلك الليلة ، الأمر الرسمي من القياده العليا للقوات المسلحة ، وقد دوّنه كل من هولدر ويودل في يومياتهما . وكان هولدر ، رئيس اركان الحرب يعرب عن سخطه في يومياته على هذا الأمر عندما قال :

« وهكذا تحتم على جناحنا الايسر المؤلف من السلاح المدرع والقوات الآلية ، ان يقف جامداً عن الحركة في نصف الطريق بأمر مباشر من الفوهرر ! وعهد الى القوة الجوية بتصفية ما تبقى من قوات العدو المطوّقة ! » .

وتشير اشارة التعجب هذه التي وردت في ذيل الفقرة ، الى ان غورنغ قد تدخل مع هتلر في هذا الموضوع ، وها نحن نعرف الآن انه تدخل فعلاً . فلقد عرض على الفوهرر ان يصفي بقواته الجوية ما تبقى من قوات العدو ! وقد شرح هولدر في رسالته المؤرخة في التاسع عشر من تموز عام ١٩٥٧ للمؤلف الاسباب التي حملته على هذا الاقتراح المشبع بالطموح والغرور اذ قال :

« اتضح لنا في الايام التي تلت الرابع والعشرين من ايار ان غورنغ كان صاحب التأثير الاكبر على هتلر في اصدار امره هذا . فلقد اعتبر الديكتاتور بسبب افتقاره الى الثقافة العسكرية ، الحركة السريعة التي قام بها الجيش والتي لم يستطع هو فهم ما تنطوي عليه من احتمالات ونجاح ، شيئاً مشؤوماً ... بأن الانتكاس قد يحل في كل لحظة ...

« وقد استغل غورنغ الذي كان اعرف الناس بزعيمه هذا القلق . ولذا عرض عليه ان يخوض ما تبقى من معركة التطويق العظيمة وحيداً بقواته الجوية ، مزيلاً بذلك اي خطر قد ينجم من استخدام التشكيلات المدرعة الثمينة ... وقد عرض اقتراحه هذا لأسباب تتفق كل الاتفاق مع شخصية غورنغ الطموحة ... فلقد

اراد ان يضمن لقوته الجوية في تلك العمليات الرائعة التي قام بها الجيش حتى ذلك الوقت العمل الحاسم الأخير في تلك المعركة العظمى ، ليكسب امجاد النصر لنفسه امام العالم باسره » .

وراح الفريق هولدر يتحدث في رسالته بعد ذلك ، عن الرواية التي سمعها من براوختش بعد الحديث الذي دار بين الاخير وبين قائدي الطيران الفريقين ميلش وكيسلرنغ ، في سجن نورمبرغ في كانون الثاني عام ١٩٤٦ ، إذ أعلن له القائدان الطياران ...

« ان غورنغ اكد لهتلر في ذلك الوقت ايار عام ١٩٤٠ بأن سمعته في الوطن الألماني ستتحطم الى حد بعيد يصعب اصلاحه ، اذ كانت الانتصارات العظيمة التي كانت تسير سيرها الطبيعي في الجبهة ، ستعزى الى قادة الجيش الألماني وحده . ولا يمكن الحيلولة دون ذلك الا اذا قام سلاح الطيران لا الجيش بانهاء المعركة الفاصلة » .

ويتضح من هذا الى حد كبير ، ان فكرة هتلر ، التي ايدها كل من غورنغ ورونشتادت ، وعارضها كل من براوختش وهولدر معارضة عنيفة كانت تتلخص في ان يسمح للقوة الجوية ولمجموعة الجيوش (ب) التي يقودها بوك ، والتي لاتضم اية قوات مدرعة تستحق الذكر ، وان كانت تواصل دفع البلجيكيين والبريطانيين امامها ببطء نحو القناة الانكليزية ، بتصفية ما تبقى من قوات العدو في « الجيب » . ولذا تقرر ان يعهد الى مجموعة الجيوش (أ) التي يقودها رونشتادت والتي تضم سبع فرق من فرق الدبابات بالتوقف عند الخطوط المائية الى الغرب والجنوب من دانكرك ، وان تحافظ على النطاق الذي تفرضه على العدو المحصور . ولكن السلاح الجوي الألماني ومجموعة جيوش بوك ، لم يكونا قادرين على تحقيق هذا الهدف كما ثبت فعلا . وراح هولدر ينفث غضبه في يومياته التي كتبها في صباح السادس والعشرين من ايار قائلاً .. ليس لهذه الاوامر الصادرة من علُ اي معنى ... ان دباباتنا تقف وكأنها مشلولة عن الحركة » .

وعاد هتلر اخيراً في مساء السادس والعشرين من ايار فألغى أمر التوقف ، ووافق بالنظر الى الزحف البطيء الذي تقوم به قوات بوك في بلجيكا ، والى وصول سفن النقل البريطانية الى الشاطىء ، على ان تستأنف القوات المدرعة تقدمها نحو دنكرك . ولكن الفرصة كانت قد ضاعت ، وفات أوانها . فقد اتيح للعدو الوقت الكافي لتعزيز خطوطه الدفاعية ، وشرع ينسل في حماية هذه الخطوط نحو البحر .

ونحن نعرف الآن ان هناك اسباباً سياسية اخرى ، حدت بهتلر الى اتخاذ قراره الخطير هذا . فلقد دوّن هولدر في يومياته بتاريخ الخامس والعشرين من ايار ، وهو اليوم الذي بدأ كما قال « بواحدة من تلك المشاحنات المؤلمة التي تكررت في تلك الآونة بين براوختش والفوهرر عن الخطوات المقبلة في معركة التطويق » .. ما نصه :

« لقد كوّنت القيادة السياسية الآن الفكرة الثابتة بأن المعركة الفاصلة يجب ان لا تقع على الارض البلجيكية وانما في شمال فرنسا » .

وقد ادهشتني هذه الفقرة ، وحرت في امرها ، وكتبت الى رئيس اركان الحرب السابق ، اسأله ، اذا كان باستطاعته ان يذكر الاسباب السياسية التي حدت بهتلر الى الرغبة في انهاء المعركة في شمال فرنسا لا في بلجيكا . وقد تذكر هولدر هذه الاسباب تمام التذكر ، ورد عليّ قائلاً : « ما زالت ذاكرتي الحيّة المنتعشة تعي ان هتلر في محادثاته معنا في ذلك الوقت ، عزز الاسباب التي دعته الى اصدار امر التوقف بخطّين فكريين أوردهما . وكان أول هذين الخطّين متعلقاً بالاسباب العسكرية ، أي بالطبيعة الجغرافية والأرضية غير الصالحة للدبابات ، مما يؤدي الى إلحاق الخسائر الكبيرة بها ، ويضعف من قوة جيشنا وطاقته في الهجوم المتوقع على ما بقي من فرنسا ... الخ ... » ويمضي هولدر فيكتب في يومياته ... قائلاً :

« وذكر الفوهرر سبباً ثانياً ، كان يعرف بأننا كجنود لا نستطيع

ان نناقشه او نعارضه فيه لطبيعته السياسية لا العسكرية ..

« فلقد قال انه لأسباب سياسية يرى ان هنـاك سبباً ثانياً لهذا التوقف . وهو انه لا يريـد وقوع المعركة الاخيرة الحاسمة ، التي ستلحق حتماً أعظم الاضرار بالسكان في ارض يسكنهـا الشعب الفلمنكي (قسم من الشعب البلجيكي) . وأضاف انـه عازم على ان يقيم دولة اشتراكية وطنية مستقلة في الارض التي يسكنها الفلمنكيون من أصل الماني ، ليشدهم الى المانيا شداً وثيقاً . وكان مؤيدوه في الارض الفلمنكية ناشطين في هذا الاتجاه منذ أمد بعيد ، وقد وعدهم بالحفاظ على اراضيهم في نجوة من ويلات الحرب واضرارها . واذا لم يحافظ على وعوده لهم ، فإن ثقتهم به ستصاب بأضرار قاسية . ولا ريب في ان مثل هذا الوضع يعتبر خسارة سياسية لألمانيا التي يتحتم عليه بوصفه الزعيم السياسي المسؤول ان يتجنبه » .

ما اغرب هذه الأقوال ؟ وإذا كنا نرى في هذه الاقوال بعض الانحرافات الفكرية المفاجئة التي عرفت عن هتلر ، واذا لم تكن قد اقنعت براوختش وهولدر على حد قول الأخير ، فقد كانت هنـاك اعتبارات سياسية اخرى أسرّ بها الى غيرهما من الفرقاء وكانت اكثر تعقلاً وأهمية . فقد وصف الفريق غونتر بلومنتريت مدير العمليات الحربية في قيادة رونشتادت ، لليدل هارت الكاتب العسكري البريطاني ، بعد انتهاء الحرب ، المقابلة التي جرت بين هتلر ورونشتادت في الرابع والعشرين من ايار .. بقوله :

« كان هتلر في حالة مزاجية رائعة ... وذكر لنـا انه يرى ان الحرب ستنتهي في ستة أسابيع واضاف انه يريد بعـد ذلك ان يصل الى صلح معقول مع فرنسا وتصبح الطريق آنذاك ممهدة لعقد اتفاق مع بريطانيا ..

« وأذهلنا بعد ذلك إذ راح يتحدث باعجاب عن الامبراطورية البريطانية ، وعن ضرورة وجودها ، وعن الحضارة التي حملتهـا

بريطانيا الى العالم .. وقال ان كل ما يريده من بريطانيا هو ان تعترف بوضع المانيا في القارة الأوروبية . واضاف ان المانيا ترغب حتماً في استرجاع مستعمراتها ، ولكنها لا تعتبر هذه العودة شيئاً لا بد منه .. وانتهى من ذلك الى القول بأن هدفه هو ان يعقد صلحاً مع بريطانيا على ان يكون من النوع الذي لا ترى فيه مساساً بكرامتها »[1] .

وقد أفضى هتلر بمثل هذه الآراء مرات عدة في غضون الاسابيع القليلة القادمة الى قادته العسكريين والى شيانو وموسوليني، ومن ثم علناً الى الشعب في النهاية. وأعرب شيانو عن دهشته بعد شهر ، عندما وجد الديكتاتور النازي ، وهو في أوج قوته ونجاحه ، يعزف على وتر أهمية الحفاظ على الامبراطورية البريطانية « كعامل اساسي في التوازن العالمي »[2] . ودوّن هولدر في الثالث عشر من تموز في يومياته ، ما رآه من حيرة الفوهرر الناطقة بالألم من جراء رفض بريطانيا قبول الصلح . وقد قال لقادته العسكريين في ذلك اليوم نفسه : « ان ارغام انكلترا على الركوع على ركبتيها بالقوة لن يفيد المانيا ، وانما سيفيد اليابان والولايات المتحدة وغيرهما » .

وقد يقال على ضوء هذا الخط الفكري البادي عند هتلر ، على الرغم من تشكك البعض فيما يقال، بأن هتلر أوقف قواته المدرعة امام دنكرك ليوفر على بريطانيا اذلالاً مؤلماً ، وليسهّل عليها قبول تسوية صلحية . ولقد قال هتلر ، ان مثل هذا الصلح يجب ان يكون من النوع الذي يضمن من بريطانيا السماح للالتفات ثانية جهة الشرق ، أي ناحية روسيا في هذه المرة . وعلى لندن ان تعترف كما قال ايضاً بسيطرة الرايخ الثالث على القارة . وظل هتلر طيلة الشهرين التاليين على ثقة من ان مثل هذا الصلح في متناول يده . وكان هتلر الآن اكثر من أي وقت مضى في السنوات السالفة قد تفهم طبيعة الشعب البريطاني، أو طراز العالم الذي

---

١ - ليدل هارت - الفرقاء الألمان يتكلمون - ص ١١٤ - ١١٥ .

٢ - يوميات شيانو ص ٢٦٥ - ٢٦٦ .

قرر مع زعمائه ، المضي في القتال حتى النهاية .

ولم يكن هو أو قادته العسكريون، جهلاً منهم بالبحر ، يحلمون بأن في مكنة هذا الشعب البريطـاني ذي التفكير البحري ، ان يجلي نحواً من ثلث مليون انسان من ميناء صغير يتعرض لقصف متواصل ومن شطئان عارية مكشوفة تقع مبسطة امام اعينهم .

وفي الساعة السادسة والدقيقة السابعة والخمسين من مساء السادس والعشرين من ايار ، أي بعد صدور الأمر الجديد بالغـــاء أمر هتلر السابق بوقف السلاح المدرع ، بعثت الاميرالية البريطانية باشارة لاسلكية موعزة ببدء «عملية دينامو» وهو الاسم الرمزي الذي اطلق على عملية الجلاء عن دنكرك . واستأنف السلاح الالماني المدرع تلك الليلة هجومه على الميناء من الجنوب والغرب ، لكن هـــذه الفرق المدرعة لم تجد المهمة سهلة الآن . فقد اتيح للورد غورت في فترة التوقف، ان يحشد ضدها ثلاث فرق للمشاة تدعمها المدفعية القوية . ولم تحرز الدبابات الا تقدماً طفيفاً. وشرعت القوات البريطانية بالجلاء في غضون ذلك. فقد احتشدت في دنكرك قوة بحرية جبارة تضم (٨٥٠) باخرة من مختلف الاحجام والاشكال واساليب الدفع والسير ، بينها الطرادات والمدمرات والزوارق الشراعيةالصغيرة والقوارب الهولندية ، وقد قام على إعدادها متطوعون مدنيون من مختلف المدن الساحلية البريطانية. وقد حملت هذه السفن في اليوم الأول أي السابع والعشرين من ايار نحواً من (٧,٦٦٩) جندياً ، ثم (١٧,٨٠٤) في اليوم الثاني و(٤٧,٣١٠) في اليوم الثالث و (٥٣,٨٢٣) في اليوم الرابع فبلغ بذلك المجموع الكلي في الايام الاربعة الاولى (١٢٦,٦٠٦)من الاشخاص . وعندما بدأت العملية ، كان المشرفون عليها يتوقعون اجلاء (٤٥) الف رجل فقط في اليومين الأولين، إذ لم يكونوا يتصورون ان المجال سيتاح لهم لمدة اطول .

ولم تستفق القيادة العليا الألمانية لما هو واقع إلا في هذا اليوم الرابع من بدء « عملية دينامو » ، أي في الثلاثين من ايار . وكانت بلاغات هذه القيـادة تؤكد طيلة هذه الايام الاربعة ، بأن مصير الجيوش المطوّقة بات محتوماً . وذكر بلاغ

صدر في التاسع والعشرين من ايار ودوّنته في يومياتي بالحرف الواحد مـــا يلي : « لقد تقرر مصير الجيش الفرنسي في ارتوا ... أما الجيش البريطاني الذي ضغط ضغطاً شديداً في المنطقة المحيطة بدنكرك فيسير ايضاً نحو دماره النهائي امـام هجماتنا المركزة » .

لكنه لم يكن يسير نحو هذا الدمار في الحقيقة ، وانما كان يمضي إلى البحر . ومن الحق ان يقال ، انه كان يتخلى عن اسلحته الثقيلة ومعداته ، ولكنـــه كان يمضي بكل تأكيد بالرجال ، الذين يستطيعون ان يعيشوا ليخوضوا الحرب في يوم آخر .

وأسرّ هولدر الى يومياته في صباح الثلاثين من ايار « بأن تفسخ العدو الذي اتممنا تطويقـــه يستمر » . واعترف ان بعض البريطانيين « يقاتلون بأسنانهم وأظافرهم » بينما يفرّ البعض الآخر الى الساحل محاولاً عبور القنـاة الى انكلترا بكل ما يتوفر له من اشياء تعوم . انها .. كارثة وانحـلال » مشيراً بذلك الى رواية اميل زولا المشهورة عن انهيار فرنسا في الحرب الفرنسية – البروسية » .

وقد استفاق رئيس هيئة اركان الحرب ، بعد ظهر ذلك اليوم ، وبعـــد اجتماع مع براوختش الى اهمية هذه الاسراب من القوارب الصغيرة الحقيرة التي يستخدمها البريطانيون في فرارهم فكتب يقول :

« ان براوختش غاضب ... كان في امكاننا ان نغلق هذا الجيب من ناحية البحر لو ان سلاحنا المدرع لم يتوقف. وقد حاولت رداءة الطقس دون قيام طائراتنا بواجبها ، وعلينا ان نقف الآن وان نشهد الوف الاعداء وهم ينجون الى انكلترا تحت سمعنا وبصرنا » .

حقاً هذا ما وقع . اذ على الرغم من الضغط المتزايـــد الذي فرضه الألمان فوراً على جميع اطراف الجيب ، فقد صمدت الخطوط البريطانيـة ، وتمكنت القيادة المعادية من اجلاء عدد آخر من القوات. وكان اليوم التالي الواحد والثلاثون من ايار اضخم هذه الايام بما تحقق فيه من نتائج. فقد تم نقل (٨٦) الف بريطاني فيه إلى انكلترا ثلثهم من الشطئان الرملية والثلثان الباقيان من ميناء دنكرك .

وهكذا تم اجلاء (١٩٤,٦٢٠) رجلاً من دنكرك ، أي ما يعادل أربعة اضعاف التقديرات الأولية .

واين كان سلاح المانيا الجوي ذو الشهرة الكبيرة ؟ لقد حال الطقس السيء بينه وبين العمل بعض الوقت كما دوّن هولدر في يومياته . أما في الاوقات الباقية فقد واجه مقاومة لم يكن يتوقعها من السلاح الجوي الملكي البريطاني . الذي تمكن من الوقوف امامه موقف التحدي من قواعده عبر القناة لأول مرة[1] . وقد اقامت طائرات « باصقات النار – Spitfires » البريطانية الجديدة الدليل على انها تستطيع ان تقف اكثر من موقف الند من طائرات « مسرشميت » الألمانية ، وتولت اسقاط القاذفات الألمانية المزعجة . وتمكنت طائرات غورنغ في بعض الاحيان من الوصول الى سماء دنكرك في الفترات التي انقضت بين عودة سرب من الطائرات الى قواعده، ووصول سرب آخر ، واحدثت اضراراً بالغة في الميناء ، بحيث عطلته عن العمل ، واجبرت الجنود على استخدام الشواطىء في الانتقال الى البواخر . ووجّه السلاح الجوي الألماني ايضاً هجماته العنيفة الى البواخر البريطانية وتمكن من اغراق (٢٤٣) من مجموع (٨٦١) قطعة . ولكن هذا السلاح فشل في ان ينفّذ لهتلر ما وعده به غورنغ وهو إبادة الحملة البريطانية بكاملها . وفي الأول من حزيران ، عندما قام السلاح الجوي باعنف هجوم له، كلفه ابلغ الخسائر ، اذ خسر كل من الجانبين الالماني والبريطاني ثلاثين طائرة ، تمكن من اغراق ثلاث مدمرات بريطانية وعدد من سفن النقل

---

١ – لم يشعر الكثيرون من الجنود البريطانيين المجهدين،وهم على الشطئان بهذه الحقيقة نظراً لتعرضهم المستمر للقصف العنيف ، اذ ان المعارك الجوية كانت تدور دائماً فوق السحب أو على مسافات بعيدة من مدى النظر . وكل ما كانوا يعرفونه ان الطائرات الالمانية كانت تواصل قذفهم بقنابلها،واصلائهم بنيرانها الحامية طيلة الطريق التي مروا فيها من بلجيكا الشرقية الى دنكرك وكانوا يحسون بأن قواتهم الجوية قد تخلت عنهم . وعندما وصل هؤلاء الى موانيء الوطن كان بعضهم يوجه اهاناته الى الجنود الذين يرتدون بزة الطيران.وقد حزن تشرشل لهذا حزناً شديداً، وخرج عن طوره ليضع الامور في نصابها الصحيح عندما خطب في مجلس العموم في الرابع من حزيران . وقد قال إن « عملية الخلاص من دنكرك قد تمت بفضل السلاح الجوي » .

الصغيرة . ولكن البريطانيين تمكنوا من انقاذ (٤٢٩ و ٦٤) رجلاً وعندما حل فجر اليوم التالي لم يكن هناك في القطاع إلا نحو من اربعة آلاف بريطاني ، يتولى حمايتهم نحو من مائة الف فرنسي ، هم الذين يقيمون على صيانة الخطوط الدفاعية.

واصبحت المدفعية الألمانية المتوسطة في غضون ذلك على مرمى القطـــاع ، وتحتم على القيادة البريطانية وقف عمليات الجلاء في وضح النهـــار . ولم يكن السلاح الجوي الألماني يعمل آنذاك في ظلام الليل ، ولذا فقد تمكنت هذه القيادة ليلتي الثاني والثالث من حزيران من اجلاء من تبقى من رجال الحملة البريطانية وستين الف فرنسي بنجاح بارز . أما دنكرك التي ظل نحو من اربعـــين الف جندي فرنسي يدافعون عنها باصرار وعناد فقد صمدت حتى صباح الرابع من حزيران . وكان نحو من (٣٣٨،٢٢٦) جندياً بريطانياً وفرنسياً قد نجوا حتى ذلك اليوم من براثن الالمان ولم يكن هؤلاء بعد نجاتهـــم يؤلفون جيشاً بمعنى الكلمة ، اذ كان معظمهم ، كما هو منتظر ، قد بات في حالة محزنة للغاية . ولكنهم كانوا قد خبروا الحرب والقتال ، وادركو انهم اذا إحسن تسليحهم ، وضمنوا الغطاء الجوي المناسب ، فإن في وسعهم ان يصمدوا للألمان . وقد برهن معظمهم على هذه الحقيقة عندما تحقق التوازن في السلاح ، وفي شواطىء على القناة لاتبعد كثيراً عن الشواطىء التي تم انقاذهم منها .

حقاً لقد كانت دنكرك تمثل الانقاذ للبريطانيين . ولكـــنْ تشرشل راح يذكرهم في الخطاب الذي القاه في مجلس العموم في الرابع من حزيران ان «الحروب لا تربح بعمليات الجلاء » . وكانت التكهنات بالنسبة الى بريطانيا العظمى اكثر قتاماً وظلاماً ، واشد خطورة مما كانت عليه في اي وقت مضى منذ ايام الفتح النورماني قبل نحو من الف عام . فليس لدى بريطانيا الجيش الذي يستطيـــع الدفاع عن جزرها . وقد منيت القوة الجوية البريطانية بخسائر بالغة في فرنسا اضعفتها . ولم يبق لها الا اسطولها ، وقد اثبتت الحملة النروجية ، ضعف البواخر الحربية الكبيرة امام الطائرات التي تعمل من قواعد ارضية . وقد باتت القاذفات الألمانية الآن على بعد خمس دقائق او عشر من القناة الانكليزية الضيقة . ومـــا

زالت فرنسا صامدة وراء السوم والآين . ولكن خيرة جنودها وسلاحها ، قد ضاع في بلجيكا وشمالي فرنسا ، كما دمرت قوتها الجوية الصغيرة وغير الملحوظة تدميراً يكاد يكون كاملاً ، وبدأ قائدها الشهير ان المشير بتان والفريق ويغان ، يسيطران الآن على حكومتها الضعيفة المترجرجة ، وهما لم يعودا راغبين في القتال ضد عدو متفوق .

وكانت جميع هذه الحقائق المرعبة ماثلة امام ونستون تشرشل عندما نهض في مجلس العموم في الرابع من حزيران عام ١٩٤٠ ، بينما كانت آخر قوافل النقل تنزل من دنكرك وقد صمم ، كما كتب فيما بعد ، على ان يظهر لا لشعبه فحسب بل وللعالم كله ايضاً ولا سيما للولايات المتحدة الامريكية «ان اصرارنا على القتال يقوم على اسس جدية ». وكانت هذه هي المناسبة التي فاه فيها بخطابه الشهير ، الذي سيخلد التاريخ ، والذي سيظل واحداً من اشهر الخطب التي عرفها التاريخ في مختلف العصور اذ قال :

« وعلى الرغم من ان مساحات شاسعة من اوروبا ، وعلى الرغم من ان دولاً كثيرة عريقة ومشهورة ، قد سقطت ، او قد تسقط في قبضة الغستابو ، وتحت وطأة جهاز الحكم النازي الرهيب ، فإننا لن نهن ولن نستسلم ، بل سنمضي الى النهاية . وسنحارب في فرنسا وفي البحار والمحيطات ، وسنقاتل بثقة تتزايد ، وقوة تنمو في الهواء ، وسندافع عن جزيرتنا مهما كان الثمن غالياً . اجل سنقاتل على الشطآن ، وفي المطارات ، واماكن الهبوط . وسنحارب في الشوارع والحقول ، وفي التلال والوهاد ، ولن نستسلم. واذا قدّر ، وهذا ما لا اتصوره لحظة واحدة ، لهذه الجزيرة او لقسم كبير منها ان يسقط في يد العدو ، وتموت جوعاً . فإن امبراطوريتنا وراء البحار ، يعززها ، ويحرسها الاسطول البريطاني ، ستحمل راية النضال ، الى ان تحين ارادة الله . فيسارع العالم الجديد ، بكل ما لديه من عزم وقوة الى انقاذ العالم القديم وتحريره » .

انهيـــار فرنسا

يبدو ان اصرار البريطانيين على القتال ، لم يزعح أفكار هتلر قيد شعرة واحدة . وكان على ثقة من انهم سيروا صبح الحقيقة ، بعد أن ينتهي من فرنسا التي شرع الآن في إنهائها . وقد شرع الألمان في صبـــاح اليوم الذي تلا سقوط دنكرك ، أي في الخامس من حزيران بهجوم واسع وضخم على السوم، وسرعان ما امتد هذا الهجوم القوي الطاغي ليشمل جبهة تمتد اربعمائة ميل عبر فرنسا كلها من ابيفيل حتى أعالي نهر الراين . وتقرر مصير الفرنسيين . ولم يكن في وسعهم أن يحشدوا أمام القوات الألمانية المهاجمة التي تعد (١٤٣) فرقة بينهـــا عشر من الفرق المدرعة ، إلا خمساً وستين فرقة معظمها من فرق الدرجة الثانية ، بعد أن ضاع أحسن الفرق ومعظم السلاح المدرع في بلجيكا . ولم يبق لدى الفرنسيين الا قوة جوية لا تـكاد تذكر . ولم يكن في وسع البريطانيين ان يقدموا أكثر من فرقة مشاة واحدة ، كانت ترابط في السار ، وبعض فئات من فرقة مدرعة . ولم يكن في وسع السلاح الجوي الملكي البريطاني أن يستغني إلا عن عدد ضئيل من الطائرات للاشتراك في هـــذه المعركة ، إلا اذا كانت بريطانيا ستترك جزرها دون وقاية جوية كافية . وأصبحت القيادة العليا الفرنسية ايضاً بعد ان سيطر عليها بتان وويغان ، تحت كابوس من الانهزامية . ومع ذلك فقد قاتلت بعض الوحدات الفرنسية بشيء كثير من البسالة والعناد ، متمكنة من وقف السلاح الألماني المدرع وقفاً مؤقتاً هنا وهنـــاك ، وصامدة بإصرار أمام القصف الجوي العنيف من الطيران الالماني .

لكن القتال لم يكن متـكافئاً . واندفعت القوات الالمانية تجتاح فرنسا في « فوضى النصر » على حد تعبير تيلفورد تيلور الرائع، وكأنها موجة من موجات المد ، وقد نجمت الفوضى عن وجود أعداد كبيرة من هـــذه القوات ، وعن

سرعة حركتها ، واضطرار بعضها احياناً الى عرقلة زحف البعض الأخر[١] .
وهجرت الحكومة الفرنسية في العاشر من حزيران وبسرعة هائلة مدينة باريس، وتمكن جيش الفريق فون كويشلر في الرابع عشر من حزيران من احتلال تلك المدينة العظيمة ، التي تتمثل فيها امجاد فرنسا ، والتي تركت دون دفاع عنها .
وسرعان ما راح علم « الصليب المعقوف » يرفرف على برج ايفل . واستقالت حكومة الرئيس رينو في السادس عشر من حزيران ، وكانت قد فرت الى بوردو ، وحلت محلها حكومة اخرى برئاسة بتان ، الذي راح يطلب من الألمان في اليوم التالي وعن طريق السفير الاسباني عقد الهدنة[٢] . وورد هتلر في

---

١ – تيلفورد تيلور – زحف الفتح – ص ٢٩٧ .

٢ – بعث القيصر غليوم من منفاه في دورن في هولندة المحتلة في هذا اليوم السابع عشر من حزيران عام ١٩٤٠ ببرقية تهنئة الى هتلر ، بعد ان ظل امداً طويلا يزدريه ، معتبراً اياه انساناً عادياً « حديث النعمة » . وقد عثر على هذه البرقية في الوثائق النازية المصادرة . وهذا نصها :

« متأثراً تأثراً عميقاً باستسلام فرنسا ، اغتنم الفرصة لتهنئتك وتهنئة القوات الألمانية المسلحة كلها بهذا النصر الجبار الذي شاء الله ان يمنحنا إياه مقتبساً عبارات الامبراطور ويلهام الاكبر في عام ١٨٧٠ عندما قال : « يا له من تحول في الاحداث جاءت به الارادة الالهية » .

« وتتردد اليوم في افئدة الألمان جميعاً اصداء ترنيمة لوثين (*) ، التي انشدها منتصرو معركة لوثين من جنود الملك العظيم عندما قالوا « لنتوجه جميعاً الى الله بالشكر » .

ولما كان هتلر يعتقد ان الفضل في هذا النصر الجبار يعود اليه لا الى الله، اعد رداً متحفظاً على هذه البرقية التي لا يعرف احد ما اذا كانت قد ارسلت الى غليوم او لا اذ لم يظهر ذلك في الوثائق الألمانية (نص البرقية والرد في وثائق وزارة الخارجية الألمانية (٩)) .

وكان الفوهرر قد استشاط غضباً قبل وقت قصير ، عندما عرف بأن الوحدة الألمانية التي استولت على دورن ، وضعت حرس شرف على قصر الامبراطور المبعد عن البلاد . وسرعان ما اصدر هتلر امره برفع حرس الشرف واعلان البلدة محظورة على العسكريين الألمان . وقد توفي غليوم فيها في الرابع من حزيران عام ١٩٤١ ودفن فيها . ودون هاسيل في الصفحة (٢٠٠) من يومياته ، ان وفاته مضت دون ان يحس بها انسان في المانيا .

(*) لوثين اسم قرية في سيليزيا البولندية اشتهر امرها بالمعركة الظافرة التي انتصر فيها فريدريك الكبير على النمسويين في عام ١٧٥٧ . – المعرب –

نفس اليوم ، بانه يجد نفسه مضطرا اولا الى استشارة حليفه موسوليني . إذ كان هذا المحارب المزهو بنفسه ، قد سارع يقفز كابن آوى الى الحرب في العاشر من حزيران ، بعد ان تأكد من هزيمة الجيوش الفرنسية التي لامفر منها ، ليحصل على شيء من الأسلاب .

الدوتشي يغمد خنجره الصغير
في ظهر فرنسا

وجد هتلر ، رغم انشغاله الكلي ، بمعركة الغرب التي خاضها ، الوقت الكافي لكي يكتب الى موسوليني في فترات متقاربة بشكل يثير الدهشة ، ليطلعه على سير الانتصارات الألمانية المتعاقبة .

فبعد الرسالة الأولى التي وجهها في السابع من ايار الى موسوليني ، مبلغاً اياه بأنه على وشك مهاجمة بلجيكا وهولندة « لضمان حيادهما » ، وبأنه سيواصل اطلاعه أولاً بأول على سير الأمور حتى يمكن الدوتشي من اتخاذ قراره في الوقت المناسب ، وجّه اليه رسائل اخرى في الثالث عشر من ايار والثامن عشر منه والخامس والعشرين وكانت كل رسالة منهـــا اكثر تفصيلاً وحماساً من الرسالة السابقة لها [1] . وعلى الرغم من ان القادة العسكريين لم يكونوا ليكترثوا قيد شعرة ، كما تظهر يوميات هولدر ، بما ستفعله ايطاليا ، وهل ستدخل الحرب أو لا ، كان الفوهرر لسبب ما يعلق أهمية كبرى على تدخل ايطاليا . وما كادت هولندة وبلجيكا تستسلمان ، والجيوش الانكليزية – الفرنسية في الشمال تتحطم وما تبقى من القوات البريطانية يسرع الى الزوارق في دنكرك ناجياً بجلده ، حتى كان موسوليني يقرر التسلل الى الحرب . وراح يبلغ هتلر في رسالة بعث

---

١ – نصوص الرسائل المتبادلة بين موسوليني وهتلر بين شهري ايار وحزيران عام ١٩٤٠ في وثائق وزارة الخارجية الالمانية (٩) .

بها اليه بتاريخ الثلاثين من ايار أن موعد دخوله الحرب قد تقرر في الخامس من حزيران . وقد رد هتلر فوراً بأنه « تأثر أشد التأثر بهذا القرار » .وراح يقول في رده الذي بعث به اليه في الواحد والثلاثين من ايار ما يلي :

« اذا كان لا يزال ثمة ما يقوّي ايماني الذي لا يتزعزع بالنتيجة الظافرة في هذه الحرب ، فإن بيانك الذي بعثت به إليّ ، هو هذا الشيء ... وليس ثمة من ريب في ان الحقيقة المجردة المتعلقة بدخولك الحرب تؤلف عنصراً يؤدي الى اصابة جبهة اعدائنا بضربة تحملها على الترنح » .

لكن الفوهرر راح يطلب الى حليفه على أي حال ، أن يؤجل الوعد ثلاثة أيام أخرى لأنه يود ان يقضي أولاً على القوة الجوية الفرنسية . وقد استجاب له موسوليني فأجل الموعد خمسة ايام اخرى أي الى العاشر من حزيران ، وأضاف ان العمليات الحربية ستبدأ في اليوم التالي .

ولكن عمليات الدوتشي الحربية لم تكن كبيرة ابداً . ففي الثامن عشر من حزيران ، عندما استدعى هتلر شريكه الصغير الى ميونيخ للبحث في الهدنة مع فرنسا ، لم تكن الفرق الايطالية الاثنتان والثلاثون قد تمكنت بعد اسبوع من القتال من تحريك قوة فرنسية صغيرة لا تعدو الفرق الست من مواضعها على جبهة الألب ، والى الجنوب على ساحل الريفييرا ، على الرغم من ان المدافعين كانوا يتعرضون آنذاك للهجوم على مؤخرتهم من القوات الالمانية المكتسحة كل ما أمامها والزاحفة مع مجرى نهر الرون [1] . ودوّن شيانو في يوميته بتاريخ

---

١ - منعت القيادة الفرنسية العليا الانهزامية ، القيام بأي عمل هجومي ضد ايطاليا .وقامت مجموعة فرنسية بحرية في الرابع عشر من حزيران بضرب المصانع ومستودعات الزيت ومعامل التكرير الايطالية القريبة من جنوة ، ولكن امير البحر دارلان حرم القيام بأي عمل آخر من هذا النوع . وعندما حاول السلاح الجوي البريطاني ان يبعث بقاذفاته من المطارات القريبة من مرسيليا لقصف ميلان وتورين، قذف الفرنسيون بعدد من سيارات الشحن الى المطارات للحيلولة دون طيران الطائرات منها .

الواحد والعشرين من حزيران ما يلي :

« يحس موسوليني بالكثير من الذلة لأن قواتنا لم تخط خطوة واحدة الى الأمام . ولم تفلح حتى في هـــذا اليوم في احراز أي تقدم ، وقد توقفت أمام التحصينات الفرنسية الأولى التي أبدت بعض المقاومة » [١] .

وقد تكشف ما في قوة موسوليني العسكرية التي كثيراً ما تبجّح بهـــا من خواء منذ البداية ، وقد أحال هذا مزاج الديكتاتور الايطالي القميء الى التجهّم والعبوس ، عندما استقل مع وزير خارجيته شيانو القطار مساء السابع عشر من حزيران الى ميونيخ ليتشاور مع هتلر في موضوع الهدنة مع فرنسا .

وكتب شيانو في يومياته يقول :

« يبدو موسوليني ساخطاً ، فهـــذا الهجوم المفاجيء يثير في نفسه القلق . وقد تحدثنا أثناء الرحلة مطولاً ، لإيضاح الأوضاع التي يمكن فيها منح الهدنة الى الفرنسيين . ويرغب الدوتشي في المضي بعيداً الى حد احتلال الأرض الفرنسية كلها ، وتسليم الاسطول الفرنسي . ولكنه يدرك ان ليس لرأيه اكثر من قيمة استشارية . فلقد ربح هتلر الحرب دون أي اسهام عسكري فعلي من جانب ايطاليا ، ولذا فلا ريب ان الكلمة الاخيرة هي لهتلر . ويزعج هذا الوضع بدهياً موسوليني ويبعث في نفسه الاسى » .

وكان لين « كلمة الفوهرر الأخيرة » بمثابة هزة واضحة نزلت بالايطاليين عندما تشاوروا مع سيد الحرب النازي في دارة الفوهرر في ميونيخ حيث كان تشيمبرلين وديلادييه قد أظهرا منتهى التساهل مع الديكتاتورين في موضوع تشيكوسلوفاكيا قبل أقل من عامين . وتوضح المذكرة السرية الالمانيـــة التي أعدت عن الاجتماع [٢] ، ان هتلر كان عازماً قبل كل شيء على عدم السماح

---

١ – يوميات شيانو ص ٢٦٧ .

٢ – وثائق وزارة الخارجية الالمانية (٩) ص ٦٠٨ – ٦١١ .

للاسطول الفرنسي بالوقوع في ايدي البريطانيين . وكان يشعر بالقلق ايضاً من جراء احتمال فرار الحكومة الفرنسية الى افريقيا الشمالية أو لندن ،حيث تواصل الحرب . ولهذا قرر ان تكون شروط الهدنة ليس إلا معتدلة ، إذ ان شروط الصلح النهائي قد تكون شيئاً آخر ، وتهدف الى السماح « لحكومة فرنسية بالعمل على الارض الفرنسية » كما تضمن ايضاً « تجميد الاسطول الفرنسي » . ورفض رفضاً حازماً الاستجابة الى مطالب ايطاليا باحتلال حوض الرون بما في ضمنه مدينة طولون . القاعدة الفرنسية البحرية الكبيرة على البحر المتوسط حيث يوجد القسم الأكبر من الاسطول ، ومدينة مرسيليا ، وبتجريد كل من كورسيكا وتونس وجيبوتي من السلاح . وتقول المذكرة الالمانية ان شيانو ذكر المدينة الاخيرة بصوت منخفض ، مع انها مفتاح الحبشة التي تحتلها ايطاليا .

ووجد شيانو ايضاً ان ريبنتروب المتزمت والمتصلت، كان «ميالاً أشد الميل الى الاعتدال والهدوء ومؤيداً للسلام » . ولاحظ ايضاً ان موسوليني المحارب أحس بارتباك شديد ..

« فهو يحس بأن دوره عديم الاهمية .. ويخشى الدوتشي بصورة خاصة ، ان تكون ساعة السلام قد قربت ، وان حلم حياته الذي لم يتحقق ، باحراز الامجاد في ميادين القتال قد شرع في الاختفاء والذبول »[1] .

ولم يستطع موسوليني ايضاً ان يقنع هتلر بالموافقة على مفـــاوضات هدنة مشتركة مع الفرنسيين . ولم يكن الفوهرر راغباً في ان يشرك معه بنصره في هـــذه اللحظة التاريخية ، « جوني – الذي جاء متأخراً » ، وان لم يكن قد أفصح عن نيته هذه لصديقه المتخلف . ولكنه وعـــد الدوتشي بأن لا يوضع اتفاق الهدنة الذي سيعقده مع فرنسا موضع التنفيذ إلا بعد ان يكون الفرنسيون قد وقعوا الهدنة مع ايطاليا .

---

١ - يوميات شيانو ص ٢٦٦ .

وغادر موسوليني ميونيخ بخيبة الأمل والألم ، ولكن شيانو تأثر تأثراً طيباً من ناحية جديدة في هتلر . أوضحها في يومياته ، لم يكن قد رآها من قبل أو تصور وجودها . فقد قال في يومياته بعد عودته الى رومة :

« يتضح من كل ماقاله هتلر ، انه يود الاسراع في العمل لانهاء كل شيء . فهتلر اشبه ما يكون بالمغامر الذي فاز بضربة عظيمة من ضربات الحظ ، وبات راغباً في مغادرة المائدة الخضراء ، دون ان يقامر بأي شيء آخر . فهو يتحدث اليوم بشيء من التحفظ والاتزان اللذين يبدوان غريبين كل الغرابة بعد هذا النصر العظيم . ولا يمكن لانسان ان يتهمني بالافراط في الميل اليه ، ولكنني اقول اليوم انني اعجبت به حقاً »[1] .

الهدنة الثانية في كومبيين

لحقت بالجيش الالماني الى باريس في حزيران ، وهو اجمل شهور السنة في تلك العاصمة الجليلة ، التي اصابها الويل والإذلال ، وفهمت في التاسع عشر من حزيران ما سيضعه هتلر من شروط للهدنة التي طلبها بتان قبل يومين . وقد تقرر ان توقع الهدنة في نفس المكان الذي استسلمت فيه الامبراطورية الالمانية في الحادي عشر من تشرين الثاني عام ١٩١٨ لفرنسا وحلفائها ، أي في نفس الفجوة الصغيرة الموجودة بين غابات كومبيين . فسيثأر الفوهرر لألمانيا بذلك ، وستضيف روعة المكان الى ما يحس به من عذوبة النصر . وكانت الفكرة قد لاحت له في العشرين من ايار أي بعد عشرة ايام فقط من بدء الهجوم العظيم في الغرب ، وفي نفس اليوم الذي وصلت دباباته فيه الى ابيفيل . فلقد دوّن يودل في يوميته لذلك اليوم يقول : « يعمل الفوهرر الآن في اعداد معاهدة الصلح ... انه

---

١ – يوميات شيانو ص ٢٦٦ .

يريد ان تدور المفاوضات الأولى في غابة كومبيين . » ورحت في ساعة متأخرة من بعد ظهر التاسع عشر من حزيران الى المكان ووجـدت المهندسين العسكريين الألمان ينسفون جدران المتحف الذي اقـيم هناك للحفاظ على عربة النوم التي كان يستقلها المشير فوش والتي وقعت فيها هدنة عـام ١٩١٨ . وعندما تركت المكان كان المهندسون الألمان وهم يعملون بمناقب هوائية ، قـد تمكنوا من « تهبيط » الجدار وشرعوا يسحبون العربة الى الخط في منتصف الفجوة ، أي في عين المكان الذي كانت فيه كما قالوا في الساعة الخامسة من صباح الحـادي عشر من تشرين الثاني عام ١٩١٨ عندما شرع فوش يأمر المبعوثين الألمـان بوضع تواقيعهم على اتفاق الهدنة .

وهكذا عندما وقفت بعد ظهر ذلك اليوم الحادي والعشرين من حزيران عند طرف غابة كومبيين لأشهد آخر انتصارات هتلر واعظمها ، بعد ان شهدت في سني عملي الكثير منها في تلك السنوات المضطربة . لقد كان ذلك اليوم من اجمل ايام الصيف التي اذكر اني قضيتها في فرنسا. وكانت شمس حزيران الدافئة تنعكس على الاشجار العالية الرائعة على بلوط وسنديان وصفصاف وصنوبر ، ملقية بظلالها الجميلة على الممرات الصغيرة بين الاشجار المؤدية الى الفسحة الدائرية الصغيرة . وفي الساعة الثالثة والربع مساء على وجه التقريب وصـل هتلر بسيارته المرسيدس الفارهة ، يصحبه غورنغ وبراوختش و كايتـل وريـدر وريبنتروب وهس ، وجميعهم في بزاتهم العسكرية المختلفة ، بينما وقف غورنغ وهو المشير الوحيد في الرايخ يلهو بعصا الماريشالية التي يحملها في يده . وقـد هبطوا من سياراتهم على بعد مائتي ميل ، امام تمثال الالزاس واللورين الذي غطته الرايات الحربية الألمانية ، حتى لا يرى الفوهرر السيف الضخم الذي اذكر اني رأيته في زيارات سابقة في ايام الخير والسعادة . وهو سيف الحلفـاء المنتصرين في عام ١٩١٨ ، مخترقاً جسد نسر جريح ، يمثـل امبراطورية الهوهنزولرن الالمانية . وتطلع هتلر بطرف عينه الى التمثـال ، ثم مضى في طريقه ، ودوّنت في يومياتي لذلك اليوم اقول :

« لاحظت وجهه . كان عابساً متجهماً تعلوه سيماء الجد وإن أشرقت في عينيه علائم الفرح للثأر . ورأيت في هذه النظرات كما في خطواته الواثبة ، صورة الفاتح المنتصر ، ومتحدي العالم . وكان ثمة شيء آخر ... انه نوع من الفرح الذاتي الباطني الذي يشير الى الزراية بكل شيء ، لأنه يشهد هذا الانعكاس العظيم للقدر ، الانعكاس الذي خلقه هو بنفسه » .

وعندما وصل الى تلك الفسحة القائمة في وسط الغابة ، وأضحى شخصه هو في مركزها ، اجتذبت انتباهه كتلة ضخمة من الغرانيت تقف على ارتفاع ثلاثة اقدام من الأرض ... ودوّنت قائلاً :

« وسار الآخرون وراء هتلر ، ومشى هو نحو هذه الكتلة . ثم صعد درجها ، وقرأ ما عليها من كتابة بالفرنسية ، دونت بالأحرف الضخمة :

« هنا وفي الحادي عشر من تشرين الثاني عام ١٩١٨ استسلمت كبرياء الامبراطورية الألمانية الاجرامية — بعد ان قهرتها الشعوب الحرة التي حاولت استعبادها » .

« وقرأها هتلر ، ثم تبعه غورنغ وسرعان ما قرأها الجميع ، وقد وقفوا واجمين تحت نيران شمس حزيران الحارقة . وتطلعت الى وجه هتلر أقرأ ما فيه من تعبيرات . وانا لا أبعد عنه اكثر من خمسين ياردة ، وأراه في نظارتي وكأنه امامي مباشرة . وكنت قد رأيت هذا الوجه عدة مرات في اللحظات التي مر بها في حياته . أما اليوم ! فقد اتقد هـذا الوجه بتعابير الاحتقار والغضب والكراهية والثأر والانتصار .

« واجتاز النصب ، وقد نجح في ان يبدي ايماءة تعتبر قطعة فنيّة من الامتهان . وعاد يلتفت اليه ، وتعـابير الزراية والغضب ما زالت ماثلة في محياه . انه غضب تـكاد تلمسه لأنه لا يستطيع ان

يمحو تلك الكلمات المثيرة والمرعبة بحركة واحـــدة من حذائه البروسي[1] . ويعود فيتطلع حوله داخل الفرجة بين الأشجار ، وعندما التقت عيناه بعيوننا ، كان في وسعنا ان نحس بعمق ما فيهما من كراهية . ولكن فيهما أيضاً لمحات من الانتصار ، انه الكره المنتقم المنتصر . وفجأة ، وكأن محياه لا يعكس التعابير الـكاملة لعواطفه ، نراه يقوم بحركات عضوية تتناسق مع مزاجه . وبسرعة يضع راحتيه في خصره ، ويعلو بكتفيه ، ويبعد بين قدميه . انه التعبير الرائع عن التحدي وعن الامتهان اللاهب لهذا المـكان في هذه اللحظة ، ولكل ما مثله في الاثنتين والعشرين سنة الماضية منذ ان شهد اذلال الامبراطورية الالمانية » .

ودخل هتلر وصحبه عربة القطار التي شهدت الهدنة الماضية وجلس الفوهرر في المقعد الذي احتله فوش في عام ١٩١٨ . ووصل الوفد الفرنسي بعد خمس دقائق برئسه الفريق شال هوتزنجر ، قائد الجيش الثاني في سيدان ، ويضم أحد أمراء البحر ، « وفريقاً » من السلاح الجوي ، وأحد المدنيين وهو ليون نويل السفير الفرنسي السابق في بولندة ، الذي قدر له ان يشهد الآن « الانهيار » الثاني الذي احدثته الأسلحة الألمانية . وبدا الفرنسيون محطمين وان كانوا قد احتفظوا بشيء من الكبرياء المفجعة . ولم يكن أحد قد ذكر لهم ، انهم سيقادون الى هذا النصب الفرنسي المتكبّر ، ليمروا بلحظات لا مثيل لها من الاذلال ، ولذا فإن الهزّة التي اصابتهم كانت من النوع الذي توقعه هتلر . ودوّن هولدر في يومياته في تلك الليلة ، بعد ان روى له براوختش ما شهده في ذلك اليوم ما يلي :

« لم يتلق الفرنسيون أي اشعار بأن الألمان سيسلمونهم شروط الهدنة في نفس المـكان الذي شهد مفاوضات عام ١٩١٨ . ويبدو ان هذا الترتيب هزهم هزّة عنيفة ، وقد مالوا في البداية الى التجهّم والتبرم » .

---

١ – لقد نسف ذلك النصب بعد ثلاثة ايام ، حسب أوامر الفوهرر .

ومن المحتمل أن يكون طبيعياً بالنسبة الى الماني مثقف كهولدر أو براوختش ان يخلط بين الكبرياء المتجهمة وبين التبرم . فلقد كان في وسع كل من شهد ذلك المنظر ان يرى موجة من الدهشة التي تقرب من الثمول ، قد سيطرت حقاً على الفرنسيين . ولقد حاولوا ، خلافاً لما انتشر من اقوال آنذاك ، ان يلطّفوا بعض الأجزاء القاسية من شروط هتلر ، وان يبعدوا تلك التي رأوا فيها ما يمس بكرامة بلادهم وشرفها . لكن محاولاتهم هذه التي قامت الأدلة على وجودها في الوثائق السرية النازية المصادرة ، ذهبت أدراج الرياح [١] .

وغادر هتلر وحاشيته عربة الهدنة بعد ان انتهى الفريق كايتل من تلاوة مقدمة شروط الهدنة على مسامع الفرنسيين تاركاً ، أمر المفاوضات الى رئيس قيادته العليا للقوات المسلحة ، دون ان يسمح له بالابتعاد ولو شعرة واحدة عن الشروط التي وضعها هو بنفسه .

وراح هوتزنجر يعلن للألمان بعد استماعه الى الشروط ، انها « قاسية وخالية من الرحمة » ، وانها اسوأ من تلك التي سلمتها فرنسا الى المانيا في عام ١٩١٨ . وأضاف قائلاً ان « فرنسا لن تذعن إذا قامت دولة أخرى تقع وراء الألب ، ولم

---

١ - على الرغم من ان سجلات الوقائع ، التي عثر عليها في المحفوظات الالمانية غير موقعة ، الا ان الدكتور شميدت شهد أمام محكمة نورمبرغ ، بأنه هو الذي تولى وضعها . ولما كان هو الذي قام بدور المترجم في الاجتماع ، فلقد كان خير من يستطيع تقديم وصف لما دار فيه. وتوجد هذه الوقائع في « محاكمات كبار مجرمي الحرب (٩) على النحو التالي: مفاوضات الواحد والعشرين من حزيران ص٦٤٣ - ٦٥٠ ، تسجيل المحادثة الهاتفية بين الفريق هوتزنجر والفريق ويغان (في بوردو) مساء الواحد والعشرين من حزيران ، كما دونها شميدت الذي أمر بالاصغاء اليها ص ٦٥٢ - ٦٥٤ ، تسجيل المحادثة الهاتفية بين هوتزنجر والعقيد بورجيه مرافق ويغان في الساعة العاشرة من صباح ٢٢ حزيران ص ٦٦٤ - ٦٧١ ، نص اتفاق الهدنة ص٦٧١ - ٦٧٦ ، مذكرة عن المواضيع التي اثارها الفرنسيون في مفاوضات كومبيين ورد الالمان عليها ص٦٧٦ - ٦٧٩ ، وقد اصدر هتلر تعليماته باعتبار هذه الوثيقة على الرغم من انها ليست جزءاً من الاتفاق ملزمة للجانب الالماني . وقد سجل الالمان بأجهزة سرية كل ما دار من حديث في عربة القطار . وقد سمعت بنفسي جزءاً من هذه التسجيلات . ولا أعلم أن هذه التسجيلات قد نشرت، كما لا أعلم عن العثور عليها . وكانت ملاحظاتي التي دونتها جزئية الا بالنسبة الى الجلسة الدرامائية الختامية.

تنتصر على فرنسا (يقصد ايطاليا التي لم يذكرها صراحة اشارة الى ازدرائه لها)، بتقديم شروط مماثلة ، مهما كانت النتائج . وستقاتل حتى النهاية المرة .. ولهذا فهو يشعر باستحالة وضع توقيعه على الشروط الالمانية » ..

ولم يتوقع الفريق يودل ، وهو الضابط الثاني في رئاسة القيادة العليا للقوات المسلحة ، وكان يتولى مؤقتاً رئاسة الجلسة ، مثل هذه العبارات التي تنطوي على التحدي من عدو مهزوم يائس ، ورد بأنه على الرغم من اضطراره الى التعبير عن « تفهمه » لما قاله هوتزنجر عن الايطاليين ، إلا انه لا يملك الصلاحيـــة لتبديل شروط الفوهرر . وأضاف ان كل ما يستطيع ان يفعله هو « انيقدم الايضاحات ويشرح بعض النقاط الغامضة » . وعلى الفرنسيين اما قبول وثيقة الهدنة كما هي أو رفضها .

وكان الالمان قد تضايقوا من وصول الوفد الفرنسي دون ان تكون لديه الصلاحيات لعقد اتفاق الهدنة دون الموافقة الصريحة من حكومة بوردو . وكانوا قد أفلحوا بمعجزة هندسية رافقها بعض الحظ الحسن ، من اقامة خط اتصال هاتفي من عربة النوم القديمة ، عبر خطوط المعركة حيث كان القتال لايزال دائراً على أشده ، الى مدينة بوردو . وقد سمح للمفاوضين الفرنسيين باستخدام هـــذا الخط لنقل نصوص الهدنة وشروطها ، ولبحثها مع حكومتهم . وصدر الأمر الى الدكتور شميدت الذي يعمل ترجماناً ، بالاستماع من عربة مجاورة الى المحادثات الهاتفية ، بعد ان أخفى الألمان هذه العربة وراء مجموعة من الأشجـــار . وقد تمكنت في اليوم التالي من الاستماع الى جزء مما سجله الالمان عن هذه المحادثات بين الفريقين هوتزنجر وويغان .

وأرى لزاماً علينا ان نذكر حسنة لويغان الذي يتحمل المسؤولية الكبرى في الانهزامية الفرنسية وفي الاستسلام النهائي لبلاده وقطيعتها مع بريطانيـــا العظمى ، وهي انه حاول جاهداً على الاقل ، الاعتراض على الكثير من مطالب الالمان . وكان من أغرب هـــذه المطالب ، إرغام الفرنسيين على ان يسلموا الى الرايخ جميع اللاجئين السياسيين الالمان من اعداء النازية في فرنسا وفي ممتلكاتها .

ووصف ويغان هذا الشرط بأنه امتهان لكرامة فرنسا ومناقض لتقاليدها العريقة في منح اللجوء السياسي ، ولكن عندما عاد المتفاوضون الى بحث هذه النقطة في اليوم التالي ، رفض كايتل المتعنّت طلب الفرنسيين حذفها . وقال بصوت عال يكاد يكون صراخاً : « لقد كان المهاجرون الالمان أعظم دعاة الحرب والمحرضين عليها . ولقد خانوا شعبهم ولذا يجب تسليمهم مهما كان الثمن » . ولم يعترض الفرنسيون على بند في الاتفاق يقول بصراحة ان جميع الفرنسيين الذين يلقى القبض عليهم وهم يحاربون في صفوف دولة ثالثة ضد المانيا ، يعتبرون « ارهابيين » يجوز اعدامهم فوراً . وكان هذا البند يستهدف ديغول الذي كان قد شرع في محاولاته لتنظيم قوة من الفرنسيين الأحرار في بريطانيا . لكن كايتل وويغان ، لم يكونا يجهلان ان هذا البند يعتبر خرقاً فاضحاً لقواعد الحرب الأساسية . ولم يناقش الفرنسيون كذلك بنداً ينص على بقاء جميع أسرى الحرب في اسرهم الى ان يتم التوصل الى الصلح النهائي . ويبدو ان ويغان كان على ثقة من ان الالمان سيحتلون بريطانيا في غضون ثلاثة أسابيع وان اسرى الحرب الفرنسيين سيطلق سراحهم بعد هذه الفترة القصيرة . وهكذا قضي على مليون ونصف مليون من أسرى الحرب الفرنسيين بأن يظلوا رهن الاعتقال مدة خمس سنوات .

وكانت مشكلة التصرف بالأسطول الفرنسي هي النقطة الأساسية في اتفاق الهدنة . وكان تشرشل ، قد عرض على فرنسا عندما بدأت تترنح ، ان يحررها من التزاماتها بعدم عقد صلح منفرد ، شريطة ان تصدر الأوامر الى الاسطول الفرنسي بالابحار الى الموانىء البريطانية . ولكن هتلر كان عازماً على ان لا يقع هذا . فلقد كان يدرك تمام الإدراك ، كما ذكر لموسوليني في رسالته اليه في الثامن عشر من حزيران ، ان وقوع الاسطول الفرنسي في يد بريطانيا سيعزز قوتها العسكرية الى حد كبير . ولما كان يحس بضخامة الخطر من هذا الاسطول ، فقد تحتم عليه ، ان يتساهل مع العدو المهزوم ، أو ان يعده بشيء على الاقل . فقد نص اتفاق الهدنة على وجوب تجميد سفن الاسطول الفرنسي ونزع سلاحها .

ووقفها عن الحركة في موانىء الوطن ... وقد تعهدت الحكومة الالمانية مقابل ذلك ... تعهداً جازماً للحكومة الفرنسية :

« بأنها لا تعتزم ان تستخدم مطلقاً لأهدافها الحربية، الاسطول الفرنسي الذي يقبع في الموانىء الفرنسية تحت اشراف الالمان .
وهي تعلن أيضاً بصراحة ووضوح انهـــا لا تعتزم مطلقاً المطالبة بالاسطول الفرنسي عندما تعقد معاهدة الصلح » .

ولكن هذا الوعد سرعان ما نقض كغيره من وعود هتلر .

ووافق هتلر أخيراً على أن يترك للحكومة الفرنسية منطقة غير محتلة في الجنوب والجنوب الشرقي ، حيث تكون حرة في الظـــاهر في الحـكم كما تهوى وتشاء . وكانت هذه الحركة في منتهى الفطنة والذكاء . فهي لن تؤدي فقط الى تجزئة فرنسا جغرافياً وادارياً ، بل وستجعل من المتعذر بل المستحيل اقامة أية حكومة فرنسية في المنفى ، كما تحبط الخطط التي يفكر فيها بعض الساسة في بوردو لنقل عاصمة الحكومة الفرنسية الى افريقيا الشمالية ، وهو مشروع كاد يلقى النجاح ، لو لم يفشل لا بتأثير الالمان بل بتأثير الانهزاميين الفرنسيين من أمثال بيتان وويغان ولافال وأعوانهم . وعرف هتلر فوق ذلك ان الرجال الذين تسلموا الآن زمام الحـكم فيحكومة بوردو من أعداء الديمقراطيةالفرنسية ، وقد توقع منهم شيئاً من التعاون لمساعدته في اقامة النظام النازي الجديد في أوروبا .

ومع ذلك تمسك المندوبون الفرنسيون في مفاوضات الهدنة في كومبيين في اليوم التالي بموقف المنافرة والتسويف . وكان من أسبـــاب التأجيل اصرار هوتزنجر ، على ان يكتفي ويغان بمنحه صلاحية التوقيــع على اتفاق الهدنة ، بل يصدر له الامر بتوقيعها ، اذ لم يكن هناك في فرنسا من يرغب في تحمل المسؤولية . وأخيراً وجه كايتل انذاراً نهائياً الى الفرنسيين في الساعة السادسة والنصف مساء . ونص الانذار على وجوب قبول الشروط الالمانية أو رفضها في غضون ساعة واحدة . واستسلمت فرنسا في غضون هذه الساعة . وفي الساعة السادسة

والدقيقة الخمسين من بعد ظهر الثاني والعشرين من حزيران عام ١٩٤٠ وقع هوتزنجر وكايتل اتفاق الهدنة[1] .

واستمعت الى المناقشات الأخيرة من مكبرات الصوت الخفية الموضوعة في عربة القطار . وقبل التوقيع بلحظات ، أعلن القائد الفرنسي بصوت تخنقه الرعشة انه يود ان يفضي ببيان شخصي . ودونت هذا البيان وهو يتلوه بالفرنسية ... قال هوتزنجر :

« انني أعلن هنا ان الحكومة الفرنسية قد أمرتني بتوقيع شروط الهدنة هذه ... وعلى أثر اضطرار فرنسا بحكم السلاح الى وقف القتال الذي كنا نشتبك فيه الى جانب الحلفاء ، تجد فرنسا نفسها مرغمة على توقيع هذه الشروط القاسية للغاية . ومن حق فرنسا ان تتوقع من المانيا في المفاوضات المقبلة روحية تسمح لهاتين البلادين العظيمتين المتجاورتين بالعيش والعمل معاً بسلام » .

ولم يقدر لهذه المفاوضات لعقد الصلح ان تقع مطلقاً ، ولكن الروحية التي أظهرها الرايخ الثالث فيما بعد ، أخذت تتضح مع اتجاه الاحتلال نحو الخشونة ، ومع تزايد الضغط على عهد بتان الذليل . فقد قضي على فرنسا ان تغدو تابعة لألمانيا ، وهو ما آمن به في الظاهر كل من بتان وويغان ولافال ، وقبلوا به .

وبدأ رذاذ من المطر يتساقط عندما غادر المندوبون عربة القطار وشرعوا يعودون بسياراتهم الى أماكنهم . وكان في وسع المرء ان يرى خطاً طويلاً غير متقطع من اللاجئين يغذون السير على أرجل مجهدة تعبة ، أو على دراجاتهم وعرباتهم ، أو في الشاحنات القديمة اذا ساعدهم حظهم على الوصول اليها . ومضيت الى الفجوة القائمة بين الاشجار ، ورأيت جماعة من المهندسين العسكريين الالمان ، يصرخون بحماس ، وهم يجرون عربة القطار القديمة التي وقعت فيها الهدنة ..

---

١ – نصت شروط الاتفاق على ان يوضع موضع التنفيذ في اللحظة التي يتم التوقيع فيها على الهدنة الفرنسية الايطالية كما نصت على توقف العمليات الحربية بعد ست ساعات من ذلك التوقيع.

وقلت اسألهم .. الى أين تنقلون هذه العربة ؟ ..
فردوا .. الى برلين[1] .

* * *

ووقعت الهدنة بين فرنسا وايطاليا بعد يومين اثنين في مدينة رومة . ولم يتمكن موسوليني من احتلال إلا ما استولت عليه قواته فعلاً ، وهو لا يزيد على بضع مئات من الياردات من الأراضي الفرنسية ، وان يفرض قيام منطقة عمقها خمسون ميلاً منزوعة السلاح مقابل الاراضي الايطالية في فرنسا وتونس . وتم التوقيع على الاتفاق في الساعة السابعة والدقيقة الخامسة والثلاثين من بعد ظهر الرابع والعشرين من حزيران . وبعد ست ساعات سكت هدير المدافع ودويها في فرنسا .

وهكذا خرجت فرنسا من الحرب بعد ستة اسابيع من بدء الهجوم ، بينما كانت قد تمكنت من الصمود في الحرب الأولى اربع سنوات دون ان تقهر . ووقفت القوات الالمانية موقف الحراسة في معظم انحاء أوروبا من رأس الشمال فوق الدائرة القطبية حتى بوردو في الجنوب ، ومن القناة الانكليزية غرباً حتى نهر بوغ في بولندة الشرقية . وقد وصل أدولف هتلر الى أوجه . وبات الأفاق النمسوي السابق ، الذي كان أول من استطاع توحيد الالمان في دولة قومية صحيحة ، وهـــذا الرجل الذي عرفته الحرب الكونية الأولى عريفاً ، أعظم الفاتحين الذين عرفتهم المانيا . ولم يقف في وجه السيطرة الالمانية الكاملة التي أرادها على أوروبا في ظل نظامة الديكتاتوري ، إلا شخص انكليزي واحد ، لايعرف الهزيمة ، يدعى ونستون تشرشل ، ووراءه شعب حزم امره على ان لا يعترف بالهزيمة التي واجهته ، بعد ان بات وحيداً ، يفتقر الى حد كبير الى السلاح ، وقد طوقت الجزر التي يعيش فيها من قبل اعظم جهاز عسكري عرفه العالم طيلة تاريخه الطويل .

---

١ ــ وصلت العربة الى برلين في الثامن من تموز . ولعل من سخرية الاقدار ان قنابل طائرات الحلفاء قد حطمتها في العاصمة الالمانية في وقت لاحق من الحرب .

هتلر يتطلع للسلام

ذكرنا آنفاً ان الفريق يودل دوّن في يومياته بعد عشرة ايام من بدء الهجوم الألماني الكاسح في الغرب ، وعشية وصول الدبابات الألمانية الى ابيفيل ، ان الفوهور « يعيش تحت سيطرة فرح طاغ » واضاف انه « شرع يعمل في اعداد معاهدة الصلح ... وفي وسع بريطانيا ان تحصل على صلح منفرد في اي وقت بعد حل مشكلة المستعمرات » . وكان هذا في العشرين من ايار . ويبدو ان هتلر ظل عدة اسابيع لا يشك مطلقاً في ان بريطانيا ستكون بعد اخراج فرنسا من الحرب تواقة الى عقد الصلح . وكانت شروطه من وجهة النظر الالمانية ولا سيما بعدما تلقاه البريطانيون من ضرب عنيف في النروج وفرنسا ، سخية كل السخاء . وكان قد اعلن هذه الشروط الى الفريق فون رونشتادت في حديثه اليه في الرابع والعشرين من ايار معرباً عن اعجابه بالامبراطورية البريطانية ومؤكداً « ضرورة » بقائها . واضاف ان كل مـــا يريده من لندن هو ان تسمح له بحرية العمل في القارة الأوروبية .

وكانت هذه الثقة متأصلة في نفسه في ان بريطانيا ستوافق على ذلك ، الى الحد الذي حمله بعد انهيار فرنسا على اهمال اعداد الخطط اللازمة للمضي في الحرب ضد بريطانيا . ولم تكلف هيئة اركان الحرب الكثيرة التعاظم والتفاخر نفسها عناء تزويده بأية خطة مع العلم بأنها عرفت بدقتها « البروسية » المتناهية في اتخاذ الأهبة مسبقاً لكل احتمال ولم يشر هولدر رئيس هيئة اركان الحرب في يومياته المسهبة الى هـذا الموضوع في هـذا الوقت بالذات مطلقاً . وكان اكثر قلقاً من جراء التهديد الروسي في البلقان والبلطيق منـــه ، بالنسبة الى بريطانيـــا .

وقد يتساءل المرء حقاً ، ما هي العوامل التي دفعت بريطانيـــا العظمى الى المضي فريدة في حربها ضد قوات هائلة تجعل وضعها يائساً ؟ ولماذا تواصل هــذه

الحرب مع ان في استطاعتها الحصول على صلح يضمن بقاءها ، خلافاً لفرنسا وبولندة وغيرها من الدول المهزومة ، سليمة وحرة لا تمس ؟ وكانت هذه الاسئلة توجه في كل مكان إلا في دوانغ ستريت حيث لم يفكر انسان ، كما كشف تشرشل النقاب فيما بعد ، حتى بالبحث فيها ، لأن الردود عليها بدهية لا تحتاج الى سؤال [1] . ولكن الديكتاتور النازي ، لم يكن على علم بما يجري هناك . ولم يصدق هتلر اذنيه عندما سمع تشرشل يعلن ان بريطانيا ماضية في حربها ، وخيل اليه ان تشرشل يهزل ولا يجد في قوله هذا . وظل هذا التشكك قائماً في نفس هتلر ، حتى بعد ان استمع الى رئيس وزراء بريطانيا وهو يخطب في مجلس العموم في الرابع من حزيران بعد الانسحاب من دنكرك ، ويقول بعباراته البليغة ان بلاده ستحارب في الجبال والوهاد وعلى الشواطىء . ولم يسمح كذلك لنفسه بأن يصدق تشرشل وهو يؤكد في مجلس العموم في الثامن عشر من حزيران بعد ان طلب بتان الهدنة ، تصميم بريطانيا الذي لا يلحق به وهن على المضي في القتال » . وكذب اذنيه كذلك عندما استمع الى تشرشل يقول في احدى خطبه البليغة الخالدة وهو ينهي كلامه :

« علينا اذن ، ان نكرس انفسنا لواجباتنا ، وان نتحمل وان نصبر ، حتى اذا قدر للامبراطورية البريطانية وللجامعة شعوبها (الكومونولث) ان تعيش الف عام اخرى .. هتف ابناؤهما قائلين: حقاً كانت هذه اعظم ساعة في امجادنا » .

وخيل لهتلر،وهو الخطيب الذرب اللسان،الفصيح الكلام ،ان هذه العبارات ليست إلا مجرد « عبارات بليغة » تصدر عن خطيب موهوب . ولا ريب في انه لقي التشجيع الكافي لهذه الافكار من محاولات جس النبض التي جرت في العواصم المحايدة ، ومن النداءات التي صدرت عن هذه العواصم لانهاء الحرب . فقد تلقى في الثامن والعشرين من حزيران رسالة « مكتومة » من البابا ، الذي وجه رسالتين

---

١ - تشرشل - مذكرات - الجزء الثاني ص ١٧٧ .

مماثلين الى موسوليني وتشرشل ، عارضاً وساطته ، للوصول الى « صلح عادل وشريف » . ومعلناً انه يود قبل القيام بهذه الخطوة في سبيل احلال السلام ، التأكد بصورة مكتومة من الطريقة التي ستقابل بها خطوته في هـذه العواصم الثلاث [١] . ونشط ملك السويد ايضاً نشاطاً ملحوظاً في عرض الصلح على كل من لندن وبرلين .

وكانت السفارة الالمانية في واشنطن ، بادارة هانز تومسون القائم بالأعمال ، تنفق كل دولار تستطيـع الوصول اليه ، لدعم دعاة العزلة في الولايات المتحدة ، لابقاء امريكا خارج الحرب ، وبذلك تضمن تثبيط عزيمة بريطانيا على المضي فيها وتحتشد وثائق وزارة الخارجية الألمانية بالرسائل التي بعث بها تومسون يروي فيها جهود سفارته في اقناع الرأي العـــام الامريكي بتأييد هتلر . وكان حزبا امريكا الكبيران يعدان العدة لعقد مؤتمريهما في صيف ذلك العام ، ولم يتوان تومسون عن بذل كل جهد ممكن للتأثير على مخططات السياسة الخارجية للحزبين المذكورين ولا سيما للحزب الجمهوري .

ولقد ابرق تومسون الى برلين بالرموز مثلاً في الثاني عشر من حزيران ، برقية « عاجلة للغاية وفي منتهى السرية » يقول فيها ان « احد الاعضاء البـــارزين في الحزب الجمهوري في الكونغرس » ، وهو يعمل متعاوناً تعاوناً وثيقاً مع السفارة الالمانية قد عرض مقابل ثلاثة آلاف دولار ، ان يدعو خمسين عضواً انعزالياً من اعضاء الكونغرس الى مؤتمر الحزب الجمهوري « لكي يضمن تأثيرهم على بقيـــة الوفود لتأييد سياسة خارجية انعزالية » . وروى تومسون في برقية ثانية ان هذا الشخص عينه طلب ثلاثين الف دولار ، ليدفعهـــا لنشر اعلانات صفحات كاملة في الصحف الامريكية تحت عنوان « ابعدوا امريكا عن الحرب ! » [٢] .

---

١ – وثائق وزارة الخارجية الألمانية (١٠) ص ٤٩ – ٥٠ .

٢ – وثائق وزارة الخارجية الألمانية (٩) ص ٥٥٠ – ٥٥١ – ولقد ظهر مثل هذا الاعلان في عدد الخامس والعشرين من حزيران عام ١٩٤٠ من صحيفة النيويورك تايمز .

وأبرق تومسون في اليوم التالي الى برلين يقول ان هناك مشروعاً جديداً يتفاوض بشأنه عن طريق احد الناشرين الامريكيين لحمل خمسة من كتاب امريكا المشهورين على وضع كتب ينتظر منها « نتائج عظيمة » . وهو يطلب لتحقيق هذا المشروع مبلغ عشرين الف دولار ، أمر ريبنتروب بصرفها بعد بضعة ايام »[1].

وقد اذاع هتلر ، اول حديث عام له عن آماله في السلام مع بريطانيا ، في مقابلة صحفية اجراها مع كارل فون ويغاند ، مراسل صحف هيرست الامريكية ، ونشرت في عدد الرابع عشر من حزيران من صحيفة « نيويورك جورنال امريكان » . وابلغ تومسون وزارة الخارجية الألمانية بعد اسبوعين انه أوعز بطبع مائة الف نسخة اضافية من الصحيفة التي نشرت الحديث . ثم قال :

« وقد تمكنت ايضاً عن طريق عميل أثق به ، من اقناع عضو الكونغرس الانعزالي ثور كيلسون (نائب ديموقراطي عن ولاية مونتانا) ، بطبع حديث الفوهرر في سجل الكونغرس بتاريخ

---

١ - وثائق وزارة الخارجية الالمانية (٩) ص ٥٥٨ - ٥٥٩ وص ٥٨٥ - وعندما حل الخامس من تموز عام ١٩٤٠ ، كان تومسون خائفاً أشد الخوف من مدفوعاته ، حتى انه ابرق الى برلين يطلب اذنها في احراق كل ما لديه من وصولات وحسابات فقال :

« يجري الدفع دائماً الى المتسلمين عن طريق وسطاء موثوقين ، ولكن بالنسبة الى الظروف الراهنة ، لا يمكن الحصول على وصول بالاستلام .. فمثل هذه الوصول او أية وثائق مماثلة قد تقع في ايدي الشرطة الامريكية السرية ، اذا قامت السلطات الامريكية فجأة باقتحام السفارة والاستيلاء عليها . وعلى الرغم من جميع وسائل التعمية والتغطية التي نتبعها ، فان مجرد وجود هذه الوصولات ستعني الدمار السياسي لاصدقائنا مما يترك آثاراً خطيرة ، لا سيما وان اعداءنا يعرفون هؤلاء الاصدقاء ... ولهذا فاني اطلب تخويل السفارة الحق في احراق كل وصولات وحسابات في حوزتها وان تتوقف عن تسجيل أية حسابات للمدفوعات الجديدة » . وقد احرق هذا التقرير نفسه بين وثائق السفارة .

(وثائق وزارة الخارجية الالمانية (١٠) ص ١٢٥ - ١٢٠) .

الثاني والعشرين من حزيران . ويضمن هذا للحديث الصحفي مجالاً جديداً من النشر والتوزيـع »[1].

وكانت السفارة النازية في واشنطن تتمسك بكل « قشة » تقع في يدها وفي ذات يوم من ايام ذلك الصيف ، قدم ملحقها الصحفي اقتراحاً قال انه تلقاه من فولتون لويس (الصغير) ، المعلق الاذاعي المعروف الذي وصفه بأنـــه من « المعجبين بألمانيا والفوهرر ومن الصحفيين الامريكيين المحترمين جداً ».. وهذا نص رسالة الملحق :

« يجب على الفوهرر ان يبعث ببرقيات الى روزفلت .. يضمنها العبارات التقريبية التالية : « لقد وجهت الي يا مستر روزفلت ، مراراً وتكراراً نداءات تعرب فيها عن رغبتك في تجنّب حرب دموية . لم اكن انا الذي اعلنت الحرب على انكلترا ، وانما كنت دائماً على النقيض من ذلك ، اؤكد عـــدم وجود اية رغبة لدي في تحطيم الامبراطورية البريطانية ولقد رفض تشرشل بعناد واصرار طلباتي المتكررة التي وجهتها اليه بأن يكون « متعقلاً » وان يعمل على الوصول الى صلح شريف معنا واني لأعرف ان انكلترا ستعاني أشد الويلات عندما آمر بشن حرب جماعية على الجزر البريطانية . واني لأسألك تبعاً لذلك ، ان تتصل بتشرشل من ناحيتك وان تضغط عليه للتخلي عن عناده الذي لا معنى له ولا طعم » . واضاف لويس ان روزفلت سيبعث بالطبع برد قاس ينطوي على الامتهان ، ولكن رده هذا لا يغير من واقع الأمر شيئاً . اذ ان مثـــل هذه الرسالة من جانب هتلر ستترك اثراً عميقـــاً على شعوب امريكا الشمالية ، وعلى شعوب امريكا الجنوبية بصورة خاصة . . »[2]

١ - وثائق وزارة الخارجية الالمانية (٩) ص ٣٩ - ٤٠
٢ - وثائق وزارة الخارجية الالمانية (٩) ص ٢٩٨

ولم يكترث ادولف هتلر بنصيحة المستر لويس ذات المرمى البعيدة ، ولكن وزارة الخارجية الالمانية ابرقت الى سفارتها تسألها عن المكانة التي يحتلها المعلق الاذاعي في امريكا . وقد رد تومسون بأن لويس قد « حقق نجاحـاً بارزاً مؤاخراً .. ولكنه من الناحية الاخرى اذا ما قورن ببعض المعلقين الامريكيين البارزين فانه لا يتمتع بأهمية سياسية كبيرة [1] ».

---

١ – وثائق وزارة الخاجية الالمانية (٩) ص ٢٤ ؛ و ص ٣٥ ؛ . تؤلف الاعمال التي قامت بها السفارة الالمانية في واشنطن في هذه الفترة ، كما اوضحتها برقياتها المنشورة في « وثائق وزارة الخارجية الالمانية »، مادة رائعة لكتاب مدهش . ولعل اكثر ما يلفت نظر القارىء هو ما يجده من ميل لدى الدبلوماتيين الالمان لينقلوا الى الديكتاتور النازي ، ما يود هو ان يسمعه ، وهذا اجراء مألوف لدى الممثلين الدبلوماتيين للدول الجماعية . وقد صرح لي ضابطان من رجال القيادة العليا للقوات المسلحة في برلين ، ان قيادتها ، أو هيئه اركان الحرب على الاقل ، كانت تشك اكبر الشك في موضوعية التقارير التي تبعث بها سفارة واشنطن ، وانها لذلك اقامت لنفسها جهاز مخابراتها العسكري في الولايات المتحدة .

واذا ما حكم المرء على ضوء التقارير التي بعث بها الفريق فريدريش فون بويتشر الملحق العسكري الالماني في واشنطن ، والموجودة في وثائق وزارة الخارجية الالمانية تبين له ان هذا القائد ايضاً لم يكن صادقاً في خدمته للقيادة العامة . فلم يكل هذا القائد قط او يمل من التأكيد للقيادة العامة للقوات المسلحة ، ولهيئتي اركان حرب الجيش والسلاح الجوي، وهي الجهات التي كان يوجه اليها برقياته، بأن اليهود والماسونيين هم الذين يحكمون امريكا، وهذا ما كان يقوله هتلر دائماً. ويبدو ان بويتشر قد غالى ايضاً في تقدير نفوذ الانعزاليين في السياسات الامركية ، ولا سيما نفوذ العقيد شارل ليندبرغ، الذي يبدو في رسائل الملحق ، بطلا عظيماً. وارى أن اقتطف بعض المقتطفات من رسائله لأوضح اتجاهها ، واعطي صورة عنها :

« ٢٠ تموز عام ١٩٤٠ ... يود روزفلت بوصفه واقعاً تحت تأثير اليهود الذين يسيطرون عن طريق الحركة الماسونية على الجماهير الامريكية، ان تواصل انكلترا القتال وان يؤدي ذلك الى اطالة الحرب . وقد اتضح هذا التطور للحلقة التي تحيط بليندنبرغ ، وهي تحاول الآن على الاقل ، عرقلة سيطرة اليهود سيطرة مفجعة على السياسة الامريكية. وقد بعثت اليكم مراراً وتكراراً عن الحملات الشريرة والحقيرة التي تشن على ليندنبرغ لان اليهود يرون فيه أقوى خصومهم واشدهم (وثائق وزارة الخارجية الالمانية (١٠) ص ٢٥٤ – ٢٥٥) . « آب عام ١٩٤٠ – معلومات عامة عن ظهور ليندنبرغ علناً وعن الحملات التي تشن عليه .

= « يحتل العنصر اليهودي الآن مراكز هامة للغاية في القوات الامريكية المسلحة، بعد ان اشغل اليهود في الاسابيع الاخيرة مناصب ، وزير الحربية، ووكيل وزارة الحرب ، ووزير البحرية ، بأفراد عدامين ، كما عينوا يهوديا من اصحاب النفوذ والشخصية البارزة هو « العقيد » جوليوس أوخس ـ ادلر ، سكرتيرا لوزير الحربية .

« وقد اوضحت في تقاريري السابقة القوى التي تقاوم العنصر اليهودي ، وسياسة الولايات المتحدة الراهنة ، مركزا الاهمية على هيئة اركان الحرب . وليس ثمة من ريب في ان ليندبرغ الموهوب حقا ، والذي تصل علاقاته الى آفاق واسعة ، هو اهم شخصية في هذه القوى . ويخشى العنصر اليهودي ، كما يخشى روزفلت نفسه ما لهذا الرجل من تفوق روحي واخلاقي ، وما يتصف به من طهر .

« وقد وجه ليندبرغ يوم الاحد الرابع من آب ضربة لا بد وان تلحق باليهود افدح الاذى . فلقد أكد ان على امريكا ان تبذل جهدها لتحقيق التعاون المخلص مع المانيا هادفة الى اقرار السلام والحفاظ على الثقافة الغربية . ولم تمض بضعة ساعات حتى كان الفريق بيرشينغ العجوز الذي يمثل منذ عهد طويل الالعوبة في يدي روزفلت وبالتالي بين يدي اليهود ، يذيع بيانا من الاذاعة ، فرضه عليه « جاذبو الخيوط » من ارباب النفوذ ، قال فيه ان امريكا ستتعرض للخطر من جراء هزيمة انكلترا .

« ولا ريب في ان ما تحاوله جوقة العناصر اليهودية من القاء الشكوك حول ليندبرغ في الصحافة ، والحملة عليه من لوكاس عضو مجلس الشيوخ ، الذي هاجمه علنا يوم الاثنين الماضي بحث من روزفلت على موجات الاثير متهما اياه بأنه من رجال « الطابور الخامس » ، وملصقا به وصمة الخيانة ، انما يشير كله الى ما تحس به اليهودية من خوف من السلطان الروحي لهذا الرجل ، الذي تحدثت اليكم في تقاريري السابقة منذ بداية الحرب عن سير تقدمه، والذي اعتقد بأهميته البالغة بالنسبة الى العلاقات الامريكية الالمانية المقبلة . (وثائق وزارة الخارجية الالمانية (١٠) ص ٤١٣ ـ ٤١٥) .

وروى تومسون في تقرير آخر بعث به في الثامن عشر من ايلول ، وصفا مسهبا لمحادثة سرية دارت بين ليندبرغ وبين عدد من ضباط الاركان الامريكيين . وذكر في هذا التقرير ان ليندبرغ اعرب عن رأيه بأن انكلترا سرعان ما ستنهار امام الهجمات الجوية الالمانية . ولكن ضباط الاركان أصروا على رأيهم بأن القوة الجوية لا يمكن ان تنجح في اتخاذ قرار فصل (وثائق وزارة الخارجية الالمانية (١٠) ص ٤١٣ ـ ٤١٥) .

وكان هتلر قد منح ليندبرغ في التاسع عشر من تشرين الاول عام ١٩٣٨ ، أي بعد ثلاثة اسابيع من استسلام ميونيخ ، « وسام صليب النسر الالماني مع النجم المرصع » ، واعتقد ان هذا الوسام يعتبر ثاني وسام الماني رفيع ويمنح عادة الى الاجانب البارزين الذين « يستحقون المكافأة من الرايخ » .

وقد أحس تشرشل نفسه كما روى فيما بعد في مذكراته ببعض الضيق والحرج من محاولات السلام المنبعثة عن السويد والولايات المتحدة والفاتيكان، وبات مقتنعاً من ان هتلر يحاول استغلال هذه المحاولات استغلالاً كلياً لمصلحته، مما حتم عليه اتخاذ اجراءات حازمة تجاهها. وعندما علم تشرشل ان تومسون، القائم بأعمال السفارة الالمانية في واشنطن، قد حاول ان يتحدث الى السفير البريطاني فيها، ابرق الى اللورد لوثيان يأمره بأن لا يرد على رسالة القائم بالأعمال الالماني بأية حالة من الأحوال [1].

وأعد رئيس الوزراء الحازم، رداً قوياً على رسالة ملك السويد التي حث فيها بريطانيا العظمى على قبول الصلح مع المانيا وهذا نصها:

« من الواجب قبل البحث في هذه المطالب والاقتراحات، تقديم الضمانات الفعالة، بالأعمال لا بالأقوال من جانب المانيا بحيث تؤكد اعادة الحياة الحرة المستقلة الى كل من تشيكوسلوفاكيا وبولندة والنروج والدانمارك وهولندة وبلجيكا، وفرنسا قبل كل شيء ... » [2].

كانت هذه هي عقدة قضية تشرشل. ويبدو انه لم يكن هناك في لندن من حلم قط بحل هذه العقدة عن طريق الوصول الى صلح قد يضمن الحفاظ لبريطانيا ولكنه يستعبد البلاد التي استولى هتلر عليها بصورة دائمة. ولكن برلين لا تفهم هذا الواقع، حيث كان كل انسان كما أذكر في تلك الايام من أيام الصيف، ولا

---

١ – تشرشل – مذكرات – الجزء الثاني ص ٢٥٩ – ٢٦٠.

٢ – مذكرات تشرشل – الجزء الثاني ص ٢٦١ – ٢٦٢. هناك عدة برقيات في مجلدات وثائق وزارة الخارجية الالمانية، واردة الى الوزارة عن اتصالات مزعومة مع مختلف الشخصيات البريطانية والدبلوماتيين الانكليز، بعضها مباشر وبعضها عن طريق بعض المحايدين من أمثال اسباني فرنكو. ونقل الامير ماكس فون هوهيلوهي، الالماني السوديتي المشايع لانكلترا، الى برلين ما دار من حديث له مع الوزير البريطاني المفوض في سويسرة السير ديفيد كيلي، ومع آغا خان. وزعم ان الاخير قد طلب اليه نقل الرسالة التالية الى الفوهرر:

سيما من رجال الويلهلمشتراسه والبندلشتراسه ، واثقاً من ان الحرب قد اقتربت من نهايتها .

وظل هتلر طيلة الاسبوعين الاخيرين من حزيران والايام الأولى من تموز ، ينتظر كلمة من لندن بأن الحكومة البريطانية على استعداد للاعتراف بالهزيمة وعقد الصلح . وقد ذكر لدينو الفييري [١] سفير ايطاليا الجديد في الأول من تموز بأنه « لا يستطيع ان يتصور احداً في انكلترا لا يزال يعتقد بالنصر [٢] » . ولهذا لم تقم القيادة العليا بأي اجراء لمواصلة الحرب ضد بريطانيا .

واصدرت القيادة العليا للقوات المسلحة في اليوم التالي الثاني من تموز اول توجيه لها في الموضوع . وكان هذا الامر الذي صدر اخيراً ينطوي على التردد ..

«قرر الفوهرر والقائد الاعلى ما يلي :

«ان النزول الى انكلترا شيء ممكن شريطة الحصول على التفوق الجوي وتحقيق بعض الاوضاع الضرورية الاخرى . لم يتقرر موعد البدء بالحركة . من الواجب الشروع في كافة الاستعدادات فوراً » .

« لقد اتفق خديوي مصر الموجود هنا معي ، على انه في اللحظة التي يصل فيها الفوهرر ، الى قصر وندسور لقضاء ليلة فيه ، سنشرب معاً زجاجة من الشمبانيا نخب هذا القصر . وقال آغا خان انه سيضع نفسه تحت تصرفنا في حالة تفكير المانيا وايطاليا بالاستيلاء على الهند . . والصراع مع انكلترا لا يمكن ان يكون صراعاً مع الشعب الانكليزي وانما مع اليهود . فتشرشل عميل مأجور لهم منذ سنوات طويلة ، والملك أضعف وأقل ادراكاً من ان يقاوم . . وقال انه اذا ذهب الى انكلترا بهذه الآراء ، فان تشرشل سيودعه السجن (وثائق وزارة الخارجية الالمانية (١٠) ص ٢٩٤ - ٢٩٥) .

وعلى المرء ان يذكر ان هذه التقارير المانية وقد لا تكون صادقة ابداً ، ولكنها تصور المادة التي كان هتلر يطلع عليها . وسنورد فيما بعد الخطة النازية للاستعانة بالدوق وندسور بعد خطفه ومحاولة استغلاله كما جاءت في الاوراق السرية لوزارة الخارجية .

١ - استبدلت ايطاليا بايعاز من ريبنتروب سفيرها اتوليكو بالسفير الفييري وذلك في شهر ايار .

٢ - وثائق وزارة الخارجية الالمانية (١٠) ص ٨٢ .

وينعكس شعور هتلر المتخاذل تجاه العملية ، واعتقاده بأن لا ضرورة لها ، في الجزء الاخير من التوجيه اذ يقول :

« يجب اتخاذ كافة الاعدادات على اساس الغزو ما زال خطة او مشروعاً ولم يتخذ القرار النهائي بصدده » [١]

وعندما اجتمع شيانو الى الفوهرر في برلين في السابع من تموز ، تكوّن لديه الانطباع الذي دوّنه في يومياته ، بـــأن سيد الحرب النازي يتعرض لمشاغل فكرية تقض عليه مضجعه ... وقال في هذه اليوميات :

« انه يميل الى الاستمرار في الصراع ، والى اطلاق زوبعة عاصفة من الغضب والفولاذ على الانكليز . لكنه لم يصل بعد الى القرار النهائي . ولهذا السبب وحده يؤجل الفوهرر خطابه الذي يريد كما قال هو ، ان يزن كل كلمة من كلماته » [٢] .

وشرع هتلر في الحادي عشر من تموز يجمع كبار قادتـــه العسكريين في اوبرسالزبرغ ، ليرى مدى شعورهم تجاه الموضوع . وقد دار حديث طويل بين الفوهرر في ذلك اليوم وبين امير البحر ريدر الذي تحتم على اسطوله ان يتولى نقل الجيش النازي عبر القناة الانكليزية . ويبدو ان كلا الرجلين لم يرغب في معالجة المشكلة ، وانما قضيا معظم الوقت معاً في مناقشة مشكلة تطوير القاعدتين البحريتين في تروندهايم ونارفيك في النروج .

واذا ما استند الى تقرير ريدر السري عن الاجتماع [٣] ، تبيّن لنا ان القائد الاعلى كان في وضع مستكين . وراح يسأل امير البحر ، ما اذا كان يرى بأن خطابه الى الرايشتاغ « سيكون مؤثراً وفعّالاً » . ورد ريدر بأنه سيكون كذلك ولا ســيما اذا سبقه قصف « مركز » على بريطانيا . وذكّر امير البحر قائده الاعلى بأن السلاح الجوي الملكي البريطاني يوالي « هجـــماته المؤذية » على

١ - مؤتمرات هتلر في الشؤون البحرية (١٩٤٠) ص ٦١ - ٦٢ .
٢ - يوميات شيانو ص ٢٧٤ .
٣ - مؤتمرات هتلر في الشؤون البحرية (١٩٤٠) ص ٦٢ - ٦٦

القواعد البحرية الألمانية الرئيسية في ويلهلمستهافن وهمبورغ وكييل ، وان من واجب السلاح الجوي الألماني ان يشرع في العمل فوراً ضد بريطانيا . ولكن القائد العام للاسطول ، كان فاتراً فتوراً واضحاً في موضوع غزو بريطانيا . وقد نصح زعيمه بأن لا يقوم بهذه المحاولة « إلا كآخر ملجأ لارغام بريطانيا على طلب الصلح » . ويقول التقرير :

« يعتقد ريدر ان في الامكان ارغام بريطانيا على طلب الصلح ، عن طريق قطع شريان تجارتها الخارجية بواسطة حرب الغواصات والهجمات الجوية على القوافل ، والغارات الجوية الثقيلة على مراكزها الرئيسية ...

« ولهذا لايستطيع القائد العام للاسطول ان يوصي من ناحيته بغزو بريطانيا كما فعل في موضوع النروج » .

ويبدو ان امير البحر شرع يوضح ايضاحاً طويلاً ومسهباً جميع الصعوبات التي ينطوي عليها مثل هذا الغزو . ولا ريب في ان إيضاحاته هذه كانت مثبطة لعزائم هتلر . لكنها كانت مقنعة في نفس الوقت ايضاً . اذ ان تقرير ريدر يشير الى « ان الفوهرر يرى كذلك ان الغزو هو الملجأ الاخير » .

ووصل القادة العسكريون بعد يومين أي في الثالث عشر من تموز الى « عش النسر » في برختسغادن ، للتشاور مع القائد الأعلى . وقد وجدوه ما زال ذاهلاً من موقف بريطانيا . فلقد دوّن هولدر في يومياته في تلك الليلة ، ان « الفوهرر يعيش تحت سيطرة كابوس مخيف ، هو التساؤل عن الاسباب التي تحمل بريطانيا على عدم الرغبة في اتخاذ طريق الصلح » . ولكن يبدو ان أحد هذه الاسباب ، قد بدأ يتجلى لأول مرة امام الفوهرر ، فقد دوّن هولدر مايلي :

« انه يرى كما نرى نحن ان الرد على هذا السؤال يقوم في الحقيقة الواقعة وهي ان انكلترا ما تزال تركز امالها على روسيا . وهو يتوقع كذلك ، ان تجد انكلترا نفسها مضطرة تحت تأثير القوة الى عقد الصلح . لكنه عزوف عن استعمال هذه القوة على أي حال .

ولعزوفه هذا اسباب عدة ، منها انــه يرى اننا اذا حطمنا انكلترا عسكرياً ، فإن الامبراطورية البريطانية ستصاب بالتفسّخ والتحلل. لكن المانيا لن تستفيد بأي حال من الاحوال من مثل هــذا التطور . وسيستخدم الدم الالماني في تحقيق امر تفيد منه اليابان وامريكا وغيرهما من الدول » .

وبعث هتلر في نفس اليوم الثالث عشر من تموز برد الى موسوليني يعتذر فيه اعتذاراً مصحوباً بالشكر عن قبول عرض الدوتشي تقديم القوات والطائرات الايطالية للاشتراك في عملية غزو بريطانيا . ويتضح من هذه الرسالة ان هتلر قد شرع في النهاية يحزم امره. فالبريطانيون الغربيون في اطوارهم لن يصغوا لصوت العقل والمنطق ...

« لقد كتب الفوهرر يقول : قدمتُ لبريطانيا عــدة عروض للاتفاق وللتعاون ايضاً ، ولكنها عاملتني معاملة تنطوي على الازدراء ، بحيث بت مقتنعاً الآن، بأن أي نداء أوجهه اليها للتعقل والتمسك بالمنطق ، سيقابل بعين الرفض . فالحكم الذي يقوم في تلك البلاد في الآونة الحاضرة ، لا يمكن ان يعتبر حكم المنطق [1] » .

وتوصل سيد الحرب النازي بعد ثلاثة ايام ، أي في السادس عشر من تموز الى قرار فاصل . واصدر توجيهه رقم ١٦ عن « الاستعدادات التي يجب القيام بها لضمان نجاح عملية الانزال في بريطانيا [1] »

---

١ – رسالة هتلر الى موسوليني في ١٣ تموز ١٩٤٠ - وثائق وزارة الخارجية الالمانية (١٠) ص ٢٠٩ – ٢١١ .

٢ – نص التوجيه رقم ١٦ في المؤامرة النازية والعدوان (٣) ص ٣٩٩ - ٤٠٣ ، وفي وثائق وزارة الخارجية الالمانية (١٠) ص ٢٢٦ - ٢٢٩ .

مقر قيادة الفوهرر
في ١٦ تموز — ١٩٤٠

« لما كانت انكلترا على الرغم من وضعها العسكري اليائس ، لا تبدي اية اشارة أو استعداد للرغبة في التفاهم ، فقد قررت اعداد عملية انزال ضد بريطانيا ، وتنفيذ هذه العملية اذا اقتضى الأمر .

« والغاية من هذه العملية ، هو ازالة خطر استخدام الوطن الانكليزي قاعدة لمواصلة الحرب ضد المانيا ، واحتلالها احتلالاً تاماً اذا تطلب الامر ذلك » .

وقد اطلق على العملية الاسم الرمزي « اسد البحر » . وطلب الفوهرر إتمام الاستعدادات اللازمة لها قبل منتصف شهر آب .

انه ما زال متردداً كما تظهر عبارات التوجيه ، فهو على الرغم من تزايد شعوره بضرورة هذه العملية إلا انه ما زال يقول : « اذا اقتضى الأمر » . وكانت « اذا » الشرطية هذه ما زالت ماثلة امام ناظريه ، عندما نهض في الرايشستاغ عشية التاسع عشر من تموز ، ليلقي عرضه الأخير للصلح مع بريطانيا وكان هذا الخطاب آخر خطبه العظيمة في الرايشستاغ ، وآخر ، ما استمع اليه المؤلف من خطب القيت في هذا المكان لعدة سنوات اخرى . وليس ثمة من شك ايضاً في ان هذا الخطاب كان من اعظم خطبه . وقد سجلت في تلك الليلة انطباعاتي عنه ... بقولي :

« كان هتلر الذي رأيناه في الرايشستاغ هذه الليلة هو الفاتح القاهر ، الذي يحس بما حققه من فتوحات . ولكنه كان في الوقت نفسه ممثلاً رائعاً ، وقد تجلى نبوغه في معالجة العقل الألماني ، اذ كان

يمزج مزجاً رائعاً بين ثقة الفاتح المطلقة وبين التواضع الذي يؤثر على الجماهير اشد التأثير لا سيا اذا عرفت ان صاحبه يقف في القمـــة . وكان صوته اكثر انخفاضاً من المعتاد ولم اسمعه يصرخ كما تعودنا ان نسمعه . ولم اره يتفجّر مرة واحدة بعواطف هستيرية ، كما سبق لي ان رأيته كثيراً من فوق هذا المنبر » .

وليس ثمة من ريب في ان خطابه الطويل كان غاصاً بالمغالطات التاريخية ، وتنتشر فيه هنا وهناك ، اهانات شخصية لتشرشل ولكن هذا الخطاب كان على أي حال معتدلاً في لهجته ، وهكذا اخذنا بعين الاعتبار الظروف المشرقة المتألقة التي ألقاه فيها . وكانت غايته الماكرة من هذا الخطاب ان لا يكسب تأييد شعبه فحسب ، بل وتأييد الشعوب المحايدة ، وان يقدم للجماهير في انكلترة مادة تحملها على التفكير الطويل ... قال في خطابه :

« انني لا اسمع اليوم من انكلترة الا صوتاً واحداً ، انه صوت الساسة لا صوت الشعب ، وهو ينادي بأن الحرب يجب ان تستمر ! ولست ادري اذا كان هؤلاء الساسة يحملون فكرة صحيحة عـــن الشكل الذي سيبدو فيه استمرار هذه الحرب . وهم يعلنون ، هذا حق وصدق ، انهم سيواصلون الحرب ، وانهـــم سيواصلونها من كندا ، اذا قدر لبريطانيا العظمى ان تمّحي من الوجود وتزول . ولا استطيع ان اصدق مطلقاً انهم يعنون بـــذلك ان على شعب بريطانيا ان يرتحل الى كندا . ويبدو ان هؤلاء السادة الذين يهمهم ان تستمر الحرب ، هم الذين سيذهبون الى هناك . أمـــا الشعب ، فعليه ان يبقى في بريطانيا ... وسينظر الى الحرب حتماً بعيون تختلف عن تلك التي ينظر فيها اليها اولئك الزعماء المزعومون ، وهم قابعون في كندا .

« صدقوني ايها السادة ، ان قلت لـكم ، بأن نفسي لتتقزز تقززاً عميقاً من هذا الطراز من الساسة الذين يودون خراب بلاد بأسرها .

واني لاشعر بالألم عندما افكر بأن القدر قد اختارني لتوجيه الضربة النهائية القاضية الى هذا الكيان الذي زلزل هؤلاء السادة قواعده واركانه ... وليس لدي من شك في ان المستر تشرشل سيمضي الى كندا ، الـتي بعث اليها اولئك الذين يهمهم ان تستمر الحرب ، بأطفالهم وما يملكون من أموال . أما بالنسبة الى الملايين من الناس الآخرين ، فانهم سيعانون اشد الآلام الـتي سيتعرضون لها فوراً .
وأود ان اقول ان على المستر تشرشل ، ان يصدقني ولو مرة واحدة عندما اقول له ان امبراطورية عظيمة ستتحطم ، وهي الامبراطورية التي لم اكن افكر قط في تحطيمها او إلحاق الاذى بها ... »

وهكذا بعد ان انهال هتلر عـلى رئيس الوزراء الراسخ القدم بالضربات يكيلها اليه ، محاولاً ان يفرّق بينه وبين الشعب البريطاني ، وصـل اخيراً الى النقطة الرئيسية التي استهدفها من خطابه الطويل ... فقال :

« واني لاشعر من واجبي في هـذه الساعة ، امام ضميري ، ان اناشد بريطانيا العظمى من جديد ، التعقل والمنطق ، كما اناشدهما في اي مكان آخر . واني لاعتبر نفسي في وضع يمكنني من توجيه هذا النداء ، لا سيما وانـني لست المهزوم الذي يطلب الاحسان والصدقة ، وانما المنتصر الذي يتحدث نيابة عن العقل والمنطق .
« انني لا ارى سبباً يدعو الى استمرار هذه الحرب » [1]

---

١ – وقع منظر رائع ، لا مثيل له في التاريخ الالماني ، عندما توقف هتلر فجأة عن الخطابة في في منتصف حديثه ليمنح عصا الماريشالية الى اثني عشر فريقاً المانياً ، وليمنح رتبة ضخمة لغورنغ ، اذ منحه الرتبة الجديدة التي خلقها وهي ماريشال الرايخ الالماني الأعظم فجمله بها ، فوق غيره من الماريشالات . وقدمخه ايضاً الصليب الأعظم من وسام الصليب الحديدي ، وهو وسام لم ينله غيره طيلة الحرب كلها . وقد تخطت هذه الترقيات الى رتبة «المشير» هولدر ، الذي رفع فقط الى رتبة الفريق الكامل . وقد ادت هذه المكافآت السخية ، بتقديم رتبة « المشير » الى هذا العدد الضخم ، الى خنق اية معارضة محتملة لهتلر بين قادته العسكريين لا سيما بعد ان حاول بعضهم الاطاحة به ثلاث مرات في الماضي ويجدر بنا ان نذكر هنا ان القيصر لم يمنح هذه الرتبة طيلة الحرب =

ولم يوضع ما يريد قوله ، باكثر من هذا اذ لم يذكر اية اقتراحات محددة عن شروط الصلح الذي يطلبه ، ولم يشر بقليل أو بكثير الى المائة مليون من البشر الذين يرزحون تحت الحكم النازي في البلاد المحتلة . ولكن لم يكن بين اعضاء الرايشستاغ في تلك الليلة إلا عدد ضئيل ، إن وجد هذا العدد ايضاً ، يودون لو راح يفصل في هذه المرحلة ما يريده . ورحت اختلط بأكبر عـــدد من الضباط والموظفين عند نهاية الاجتماع ، ولم يكن لدى اي منهم ، شك ، كما قالوا ، في ان البريطانيين سيقبلون ما خالوه هم عرضاً سخياً وشهماً من الفوهرر . ولكن لم يقدر لهم ان يظلوا مخدوعين طويلاً .

ورحت امضي بسيارتي فوراً الى « روندفونك » لأبث تقريراً اذاعياً عـــن الخطاب الى الولايات المتحدة . ولم اكد اصل الى دار الاذاعة ، حتى كنت التقط اذاعه من لندن موجهة باللغة الالمانـــية ، وكانت تعطي الى الألمان رد بريطانيا على عرض هتلر . ولم يكن هذا الرد إلا عبارة « لا » ، مصحوبة بكل عزم وتصميم [1] .

ورأيت عدداً من صغار الضباط من القيادة العامة ومن الموظفين من مختلف الوزارات يجلسون في القاعة ، وهم يصغون الى ما تنقله الاذاعـــة لهم بمنتهى الاهتمام . ورأيت الوجوم يعلو وجوههم . انهم لا يكادون يصدقون ما سمعوه . وهتف احدهم لي قائلاً : « هل تستطيع ان تفسر لنا هذا ؟ » كانت الحيرة تبدو

= الكونية الاولى الا الى خمسة ضباط ، لم يكن بينهم لودندورف نفسه وليس ثمة من شك في ان هتلر ، في امتهانه لهذه الرتبة التي تعتبر أعلى رتبة عسكرية في الجيش الالماني ، بترقيته هذا العدد الضخم اليها ، قد سلك سلوكاً ينطوي على الدهاء لتشديد قبضته على الجنرالات . وقد رفع تسعة من الفرقاء الى رتبة المشير وهم براوختش وكايتل ، ورونشتادت ، وبوك ، وليب وليست وكلوغة وويتزليبين ورايخناو ، وثلاثة من الفرقاء (الجنرالات) الجويين وهم ميلش وكسلرنغ وسبيرل.

١ - اعلن تشرشل فيما بعد ان هذا الرفض الفوري الصارم لعرض هتلر للصلح قد « صدر عن دار الاذاعة البريطانية نفسها دون اي حث من حكومة صاحبة الجـــلالة ، فور ان استمع المسؤولون عنها الى خطاب هتلر من الاذاعة الالمانية » (مذكرات تشرشل - الجزء الثاني ص ٢٦٠) .

واضحة عليه . ومضى يهتف بصوت عال : « هــل في وسعك ان تفهم هؤلاء المجانين البريطانيين ؟ » ... ثم قــال : « هل يرفضون الصلح الآن ؟ حقاً انهم مجانين » .

واستمع شيانو [1] في ساعة متأخرة من ذلك المساء الى رد فعــل برلين على المجانين الانكليز ، على مستوى اعلى بكثير من المستوى الذي استمعت فيه انا . ودوّن في يومياته بقول : « انتشر بين الألمان في ساعة متأخرة تلــك الليلة عندما وصلت اولى ردود الفعل من انكلترا على الخطاب ، موجة من خيبة الأمل التي لم يحسنوا اخفائها » . وكان التأثير على موسوليني على النقيض تماماً من ذلك .

«فهو يصف الخطاب بــأنه « فعال للغاية في مكره » . وهو يخشى ان يجد فيه الانكليز ، ذريعة للبدء في المفاوضات . ان مثل هذا الاحتمال يحزن موسوليني اشد الحزن ، وذلك لأنــه اشد رغبة اليوم في الحرب منه في أي وقت مضى » [2] .

ولاحظ تشرشل فيما بعد ، انه كان مــن واجب الدوتشي ان لا يثور ويكبت ثورته في نفسه . فسيتاح له ان يذوق الكثير مــن طعم الحرب التي ارادها » [3] .

ودوّنت في يوميتي في تلك الليلة اقول : « لا ريب في ان خطاب هتلر كان قطعة رائعة من البيان كمناورة يقصد منها حشد الشعب الألماني للحرب ضــد بريطانيا . فسيقول الشعب الألماني الآن بعد ان استمع الى هذا الخطاب ان هتلر قد عرض الصلح على انكلترة ، ولكنها لم تستجب له . ولقد قال الفوهرر انه

---

١ - سلك وزير خارجية ايطاليا مسلك المهرج ابان جلسة الرايشستاغ ، واثباً تارة وهابطاً تارة اخرى . كدمية الأطفال ، ليحيي التحية الفاشية في كل مرة يلتقط فيها هتلر انفاسه . ورأيت كذلك كويزلنغ ، الرجل التمسيء ذا العين التي تشبه عين الخنزير ، قابعاً في مقعد يقع في الزاوية في الشرفة الاولى . لقد جاء الى برلين ليرجو الفوهرر ، اعادته الى الحكم في اوسلو .

٢ - يوميات شيانو ص ٢٧٧ - ٢٧٨ .

٣ - مذكرات تشرشل - الجزء الثاني ص ٢٦١ .

لا يرى سبباً لاستمرار هذه الحرب . أما اذا استمرت ، فان الخطأ هو خطأ انكلترا » .

أولم يكن هذا هو السبب الرئيسي في تقديمه لهذا العرض بعد ثلاثة ايام من اصداره التوجيه السادس عشر ، لإعداد العدة لغزو بريطانيا ؟ وقد اعترف بهذا ، كما حدث من قبل الى اثنين من الايطاليين المقربين وهما الفييري وشيانو . فلقد صرح في الأول من تموز للسفير قائلاً :

« ... لا ريب في ان اظهار العدو بمظهر المسؤول عن السير المقبل للأحداث ، امام الرأي العام ، هو اسلوب طيب ونافع . فمثل هذا الاجراء ، يشدد من معنوية المرء ويضعف من عزائم عدوه . ولا ريب في ان العملية التي كانت المانيا تعمل على اعدادها كانت دموية للغاية . . وعلى المرء والحالة هذه ان يقنع الرأي العام بأن كل شيء قد تم اعدادة لتجنّب هذا الهول ...

« ولقد كان في خطابه في السادس من تشرين الأول الذي عرض فيه الصلح على الغرب عند انتهاء الحملة البولندية يتلقى الايحاء من الفكرة القائلة بتحميل اللوم للجانب الآخر في جميع التطورات اللاحقة . وهكذا فقد كسب الحرب حقاً قبل ان تبدأ بداية فعلية . ولهذا فهو يعتزل لأسباب نفسية ان يدعم الروح المعنوية ، لينتقل الى مرحلة العمل التي ينوي القيام بها » [1]

وأسر هتلر بعد نحو من اسبوع أي في الثامن من تموز الى شيانو بأنه : « سيعرض تمثيلية اخرى ، حتى اذا ما قدر للحرب ان تستمر وهو الاحتمال الواقعي الوحيد الذي يعتقد بأنه سيصبح موضوع الحديث ، فستترك هذه التمثيلية اثراً نفسياً لدى الشعب الانكليزي ... وقد يكون من الممكن عن طريق نداء ينطوي

---

١ - وثائق وزارة الخارجية الالمانية (١٠) ص ٧٩ - ٨٠ .

على الدهاء ، ويوجه الى الشعب الانكليزي ، عزل الحكومة الانكليزية الى مدى أبعد في بلادها[1] » .

ولكن الحوادث لم تبرهن على امكان تحقيق هذا الهدف . فلقد ترك خطاب التاسع عشر من تموز اثره لدى الشعب الألماني لا الشعب البريطاني . واصدر اللورد هاليفاكس في الثاني والعشرين من تموز اذاعة خاصة رفض بريطانيا الرسمي لعرض هتلر السلمي . وعلى الرغم من ان برلين كانت تتوقع هذا الرفض ، إلا انه ادهش وزارة الخارجية الألمانية ، حيث قابلت عدداً من الوجوه الساخطة بعد ظهر ذلك اليوم . وقال لنا الناطق الرسمي باسم الحكومة : «لقد رفض اللورد هاليفاكس عرض الفوهرر للصلح . اذن فستكون حرباً ضروساً ايها السادة » .

وكان القول بالطبع اسهل من العمل . لم يكن هتلر على وجه التأكيد ولا قيادته العليا او اركان حرب جيشه واسطوله وقوته الجوية قد درسوا دراسة جديدة الطريقة التي يمكن بها خوض الحرب مع بريطانيا العظمى وكسبها . أما وقد حل منتصف صيف عام ١٩٤٠ فلم يكونوا قد عرفوا بعد ما يمكن عمله بانتصاراتهم اللامعة المشرقة ، ولم يكونوا قد وضعوا الخطط اللازمة او تحلوا بالارادة الصادقة لاستغلال هذه الانتصارات العسكرية التي تعتبر اعظم ما حصل عليه شعبهم المحارب طيلة تاريخه . وكان هذا من اضخم المتناقضات والغرائب في الرايخ الثالث . ففي اللحظة التي وقف فيها هتلر في اوج قوته وعظمته العسكرية ، اذ باتت معظم أجزاء القارة الأوروبية طريحة تحت قدميه ، وامتدت جيوشه الظافرة من جبال البيرانيز حتى الدائرة القطبية ، ومن الاطلنطي الى ما وراء نهر الفستولا ، تقف على قدم الاهبة والاستعداد ، للقيام باي هجوم جديد ، نجد ان هذا المنتصر ، لا يكون اية فكرة عن الطريقة التي سيمضي فيها للوصول بالحرب الى نهاية ظافرة ، ويصدق هذا القول ايضاً على « فرقائه »

---

١ - وثائق وزارة الخارجية الالمانية (١٠) ص ١٤٨ .

العسكريين الذين ارتقى اثنا عشر منهم الى رتبة المشير .

وكان ثمة سبب لكل هذا التراخي ، وان كان لم يصل الى علمنا ، ولم يتضح لنا في ذلك الوقت . فالألمان على الرغم من مواهبهم العسكرية الضخمة يفتقرون الى المفاهيم السوقية (الاستراتيجية) الدقيقة . فآفاقهم محدودة ، وكانوا دائماً محصوري الفهم في الحروب البرية ، ضد الدول المجاورة لهم في القارة الاوروبية . وكان هتلر نفسه شديد الهلع دائماً من البحر [1] ، كما كان كبار مساعديه يجهلونها جهلاً تاماً . فسعة ادراكهم تقتصر على البر ، ولا تمتد الى البحر وعلى الرغم من ان جيوشهم كانت قادرة على سحق القوات البريطانية الضعيفة الموجودة في جزرها ، لو اتيح لها ان تشتبك معها في غضون اسبوع ، إلا ان هذه المياه الضيقة في مضائق دوفر التي تفصل بينهم وبين اعدائهم ، كانت دائماً تتراءى امامهم ، مع اقتراب الصيف من نهايته ، عائقاً لا يعرفون طريقة التغلب عليه ، على الرغم من الحقيقة الواقعة وهي ان في وسع المرء اذا وقف على الشاطىء الفرنسي ان يرى الناس الذين يواجهونه على الشاطىء المقابل .

وكان هناك بالطبع مجال آخر ، مفتوح امام الالمان . ففي وسعهم ان يرغموا بريطانيا على الركوع ، عن طريق توجيه الضربة اليها عبر البحر الابيض المتوسط مع حليفتهم ايطاليا باحتلال جبل طارق الواقع عند مدخله الغربي ، وبالزحف في الشرق ، من القواعد الايطالية في افريقيا الشمالية ، عبر مصر وقناة السويس الى ايران لقطع طريق يعتبر من شريانات الحياة الرئيسية للامبراطورية . ولكن هذه الخطة تتطلب عمليات وراء البحار تبعد كثيراً عن قواعد الوطن وكانت تبدو في عام ١٩٤٠ وراء مجالات الخيال الألماني .

وهكذا تردد هتلر ومساعدوه ، وهم في سمت نجاحهم المذهل . فلم يكونوا قد فكروا بعد بالخطوة المقبلة . ولا بطريقة تنفيذها . وقد قدر لهذا الاهمال

---

١ - قال هتلر ذات يوم لرونشتادت . . « انا بطل في البر وجبان في البحر » (شولمان - الهزيمة في الغرب . ص ٥٠) .

القدري ، ان يبرهن على انه من اهم نقاط التحول في الحرب ، وفي التاريخ القصير لحياة الرايخ الثالث وفي سير ادولف هتلر الذي يشبـــه سير الشهب الثاقبة في سرعته . وقدر للفشل ان يبدأ الآن بعد هذه الانتصارات المذهلة . ولكن لم يكن في وسع انسان ان يتكهن بهـــذا وهو يرى بريطانيا المحاصرة ، تصمد الآن لوحدهـــا . تتأهب بما لديها من ممكنات ضعيفة للغزو الألماني الـكاسح في نهاية الصيف .

٢٢

عملية "أسد البحر"

غزو بريطانيا الفاشل قبل بدايته

كتب الفريق يودل رئيس دائرة العمليات الحربيـة في القيادة العليا للقوات المسلحة في يومياته بتاريخ الثلاثين من حزيران عـام ١٩٤٠ يقول : « لم يعد الانتصار الألماني النهائي على انكلترا الآن إلا قضية وقـت ليس إلا . وليس في مكنة العدو بعد الآن ان يقوم بأية عمليات هجومية على نطاق واسع » .

وكان واضع الخطط السوقية المقرب الى هتلر ، في حالة مزاجية ترمز الى الثقة وهـدوء النفس . فلقد استسلمت فرنسا في الاسبوع الماضي ، تاركة بريطانيا وحدها في وضع يائس كما يبدو .وكان هتلر قد ابلغ قادته العسكريين في الخامس عشر من حزيران انه يريد تسريح جيشه تسريحاً جزئياً ، وخفض قوامه من (١٦٠) فرقة الى (١٢٠) . ودوّن هولدر في يومياته في ذلك اليوم يقول: « والافتراض القائم وراء هذا القرار ، ان مهمة الجيش قد انتهت ، وان مهمة مواصلة الحرب ضد انكلترة ، سيعهد بها الى القوة الجوية والاسطول وحدهما » .

ومن الحق ان يقال ، ان الجيش لم يبدِ كبير اهـتمام بمواصلة الحرب . ولم يكن الفوهرر نفسه كثير القلق والاهتمام بها .فلقد نقل العقيد وولتر وورليمونت

نائب يودل الى قيادة الاسطول في السابع عشر من حزيران ، ان « الفوهرر لم يعرب بعد عن عزمه على النزول في بريطانيا ... ولهذا لم يجر اعداد أي عمل تحضيري من اي نوع حتى هذه اللحظة في القيادة العليا للقوات المسلحة » [١] . وقيل لقيادة الاسطول بعد اربعة ايام أي في الواحد والعشرين من حزيران ، في نفس اللحظة التي كان هتلر يدخل فيها عربة الهدنة في كومبيين ، لإذلال الفرنسيين ان « هيئة اركان حرب الجيش لن تشغل نفسها في موضوع انكلترا ، فهي ترى ان تنفيذ الغزو مستحيل . وهي لا تعرف الطريقة التي يمكن ان تجري فيها العملية من البحار الجنوبية ... ان هيئة اركان الحرب ترفض العملية » [٢] .

ولم يدر أي من المخططين الموهوبين في القوات الألمانية المسلحة الثلاث الطريقة التي يمكن ان يتم فيها غزو بريطانيا ، على الرغم من الحقيقة الواقعة وهي ان الاسطول ، كان اول هذه القوات الثلاث الذي اولى الموضوع بعض التفكير . وكان ريدر في الخامس من تشرين الثاني عام ١٩٣٩ ، عندما كان هتلر يحفز قادته العسكريين عبثاً على الشروع في الهجوم في الغرب ، قد اوعز الى اركان حربه البحريين « دراسة الامكانيات لزيارة انكلترا ، وهو احتمال قد ينشأ في حالة تحقيق بعض الاوضاع ، من جرّاء الاستمرار في الحرب[٣]. وكانت هذه هي المرة الأولى في التاريخ التي يطلب فيها الى ضباط اركان من الألمان

---

١ - يوميات اركان حرب الاسطول الحربية.في ١٨ حزيران عام ١٩٤٠ . اقتبست من كتاب رونالد ويتلي «عملية اسد البحر » ص ١٦ . وقد اتيح للمؤلف وهو عضو في فريق بريطاني يضع تاريخاً رسمياً للحرب ،ان يصل دون أية قيود الى الوثائق الالمانية الصادرة من حربية وبحرية وجوية ودبلوماتية ، وهو امتياز لم يمنح حتى وضع هذا الكتاب ، الى أي مؤلف امريكي لا من السلطات الامريكية ولا البريطانية وهما اللتان تشرفان بالاشتراك على هذه الوثائق. ولهذا فان كتاب ويتلي يعتبر دليلا نافعاً عن المصادر الالمانية المحدودة عن عملية اسد البحر :

٢ - سجلات القيادة العليا البحرية ـ ويتلي ـ ص ٢٦ .

٣ - يوميات اركان حرب اسطول الحربية في ١٥ تشرين الثاني عام ١٩٣٩ - (ويتلي ص ٤ - ٧) .

دراسة مثل هذا العمل. ويبدو ان ريدر قد قام بهذه الخطوة لانه اراد ان يتوقع أي انحراف مفاجيء من جانب زعيمه غير الموزون . وليس ثمة من وثيقة تثبت استشارة هتلر في هذه القضية او معرفته بها . وكان اقصى ما وصلت اليه افكاره في هذا الحين ، الحصول على المطارات والقواعد البحرية في هولندة وبلجيكا وفرنسا ، لتضييق الحصار على الجزر البريطانية .

ولم يحل كانون الأول عام ١٩٣٩ ، حتى كانت قيادتا الجيش والسلاح الجوي قد شرعتا في ايلاء هذه القضية بعض تفكيرهما . وقد تبودلت بعض الافكار الغامضة بين هذه الفروع الثلاثة ، ولكنها لم تمض بعيداً . ورفض الاسطول والسلاح الجوي في كانون الثاني عام ١٩٤٠ خطة وضعها الجيش على اعتبار انها مفتقرة الى الواقعية . ورأى الاسطول فيها تجاهلها القوة البحرية البريطانية كما رأى فيها السلاح الجوي انها اهملت قوة بريطانيا في الجو وعلقت هيئة اركان القوة الجوية في ردها على هيئة اركان الجيش قائلة : « وفي الختام فإن عملية مشتركة تهدف الى الانزال في انكلترا يجب ان ترفض رفضاً قاطعاً »[1] . وسنرى فيما بعد ، كيف تحتم على غورنغ ومساعديه ، ان يتبنوا وجهة نظر مغايرة لهذه تمام المغايرة .

وقد ورد اول ذكر في الوثائق الألمانية بأن هتلر يواجه احتمال غزو بريطانيا في الواحد والعشرين من أيار ، اي في اليوم الذي تلا وصول القوات المسلحة الى البحر عند ابيفيل . وبحث هتلر « بصورة خاصة » مع الفوهرر « في احتمال القيام بنزول لاحق في انكلترا » . وكان ريدر نفسه هو مصدر المعلومات[2] ، اذ لم يكن اسطوله قد اشترك في امجاد الانتصارات المذهلة التي حققها الجيش والاسطول الجوي في الغرب ، وكان يود لو عثر على بعض الوسائل التي تمكنه من اظهار خدماته في الصورة ولكن افكار هتلر تركزت في معركة

---

١ – ويتلي ص ٧ – ١٣ .

٢ – مؤتمرات هتلر في الشؤون البحرية ص ٥١ . ويوميات اركان حرب الاسطول الحربية بتاريخ ٢١ ايار ١٩٤٠ ويتلي ص ١٥ .

التطويق الجارية في الشمال ، وفي جبهة اليوم التي كانت ، قيد التكوين في الجنوب . ولم يكن يود ان يشغل قادته العسكريين بأمور تتعدى حدود هذه المهام .

لكن ضباط البحرية ، واصلوا على أي حال ، نظراً لضآلة ما يعملونه ، دراسة مشكلة الغزو ، وفي السابع والعشرين من ايار ، طلع الرير اميرال كورت فريك ، رئيس دائرة العمليات البحرية بخطة جديدة اطلق عليها اسم « دراسة انكلترا ».وقد شرع ايضاً في اعداد الاعمال التمهيدية لجميع البواخر ، والاكثار من السفن اللازمة للانزال ، وهي للقطع التي كان الاسطول الالماني يفتقر اليها كل الافتقار . وكان الدكتور غوتفريد فيدر الخبير الصنّاع في الشؤون الاقتصادية ، الذي سبق له ان اعان هتلر في وضع برنامج الحزب في ايام ميونيخ الاولى،والذي غدا الآن وزير دولة في وزارة الاقتصاد، حيث كانت آراؤه الفارهة تلقى قبولاً سريعاً ، قد انتج الآن تصاميم لما اسماه « تمساح الحرب ».ولم يكن هذا الابتكار إلا قارباً ذاتي الانطلاق ، مصنوعاً من الاسمنت المسلح،يستطيع ان يحمل جماعة يبلغ تعدادها مائتي رجل ، ومعهم معداتهم الكاملة ، او يحمل عدداً من الدبابات او المدافع ؛ وفي استطاعته ان يندفع الى أي ساحل ، وان يؤمن الغطاء الناري للقوات والعربات الهابطة . وقد حملت القيادة البحرية هذا الاختراع على محمل الجد ، واشترك في ذلك هولدر ايضاً ، الذي اشار اليه في يومياته . كما بحث فيه مفصلاً هتلر وريدر اثناء اجتماعها في العشرين من حزيران . لكن هذا الاختراع لم يسفر في النهاية عن أي شيء عملي .

ولم ير امراء البحر عندما اقترب شهر حزيران من نهايته ان هناك أي أمل في نجاح غزو الجزر البريطانية . فبعد ان انتهى هتلر ، من الفصل المسرحي الذي مثله في كومبيين في الواحد والعشرين من حزيران ، مضى مع بعض اخوانه القدامى الى باريس لرؤيتها [١] ، ولزيارة بعض ميادين القتال ، في معارك الحرب

---

١ ــ اراد هتلر ان يشاهد قبر نابليون في ضريح « الانفاليد » . ولقد صرح الى مصوره الامين ، هنريخ هوفمان ، بأن هذه اللحظة كانت من اعظم واروع ما شهده من لحظات فيحياته.

الأولى حيث كان يعمل كجندي مراسلة. وقد رافقه في هذه الزيارة الرجل الذي كان يعمل عريفاً في كتيبته في الحرب الأولى ، والذي امتاز بالصرامة والشدة ، وبات الآن الناشر النازي المليونير وهو ماكس امان ويبدو انه لم يفكر قيد أنملة بسير الحرب المقبل ضد بريطانيا ، اذ انه كان يعتقد كما يبدو ، بأن هذه القضية قد سويت وان البريطانيين سيستجيبون الآن الى صوت العقل والمنطق، وسيقبلون على الصلح .

ولم يعد هتلر الى مقر قيادته الجديد ، تاننبرغ ، الى الغرب من فرويد نستادت في الغابة السوداء ، إلا في التاسع والعشرين من حزيران . وعندما هبط ثانية الى الارض في اليوم التالي من الخيالات والأوهام التي عاشها بعد انتصاره على فرنسا، شرع يتبصّر في المذكرة التي أعدها يودل عن الخطوة المقبلة . وكان عنوان هذه المذكرة « مواصلة الحرب ضد بريطانيا » [1] . وعلى الرغم من ان يودل لم يكن يقل ايماناً عن كايتل في عبقرية الفوهرر إلا انه كان بين رجال القيادة العليا للقوات المسلحة العالم المتبصّر لسوقية الحرب . ولكنه كان يشترك في هذه الآونة مع غيره من رجال القيادة العليا ، في الرأي بأن بلاده قد فازت بالحرب ، وانها قد وصلت الى نهايتها . وكان يرى، انه اذا لم تكن بريطانيا قد ادركت هذه الحقيقة فإن من الواجب اللجوء الى بعض القوة لحملها على هذا الادراك . واقترحت مذكرته ثلاث خطوات لفرض « الحصار » على انكلترا ، وهي الاسراف في الحرب الجوية والبحرية الألمانية ضد الملاحة البريطانية وضد مستودعات التخزين والمصانع والسلاح الجوي البريطاني ، وشن « هجمات ارهابية » على المراكز الآهلة بالسكان، وانزال القوات التي تهدف الى احتلال انكلترا .

وادرك يودل ان الحرب ضد السلاح الجوي البريطاني « يجب ان يحتل مكان الصدارة » ، ولكنه رأى ان هذه الخطوة مع الصور الأخرى من الهجوم، يمكن

---

(١) المؤامرة النازية والعدوان ـ ٣٠١ ص (٢٨) محاكمات كبار مجرمي الحرب الالمان ـ ١ ص ٤٠٤ ـ ٤٠٦ .

ان تقع دون أي عناء أو متاعب .. اذ قال في مذكرته :

« وليس ثمة من ريب في ان هذه الخطوة مع الهجمات الارهابية التي تقع من آونة الى اخرى، والتي تصوّر على انها عمليات انتقامية، ستعمل على اضعاف قواعد التموين البريطانيـة بصورة متزايدة، وتشل من ارادة الشعب على المقاومة ويضعفها، مما يرغم الحكومة على الاستسلام » ..

ومضت المذكرة تتحدث عن الانزال فقالت :

« لا يمكن التفكير بأية عملية من هذا النوع إلا بعد ان تحقق المانيـا السيطرة في الجو، ولهذا فإن الانزال يجب ان لايهدف الى احتلال انكلترا عسكرياً، اذ يمكن ان يعهد بهذه المهمة الى السلاح الجوي والأسطول . ومن الضروري ان يكون الهدف توجيه الضربة القاضية الى انكلترا التي باتت مشلولة اقتصادياً وعاجزة عن القتال في الجو اذا كان هذا العجز ما زال ضرورياً » [1]

ومع ذلك يرى يودل ان جميع هذه الامور قد لا تكون ضرورية ...

« لما كانت انكلترا قد باتت عاجزة عن القتال في سبيل النصر، وانما تقاتل من اجل الحفاظ على ممتلكاتها، وعلى سمعتها الدولية، فإن عليها طبقاً لجميع الاحتمالات ان تكون ميّالة الى عقد الصلح عندما تدرك ان في وسعها الآن ان تحصل عليه بثمن ضئيل نسبياً ».

وكان هذا يماثل تفكير هتلر نفسه، وقد شرع يعمل في هذا الاتجاه بخطابه السلمي الذي القاه في الرايشستاغ . ولكنه أمر في غضون ذلك، كما سبق لنا ان رأينا من قبل، أي في الثاني من تموز، بوضع الخطط التمهيدية للقيام بعملية انزال الى البحر، وعندمـا حل السادس عشر من تموز، ولم تكن أية عبارة

---

١ ـ اقترح يودل ايضا احتمـال « توسيـع الحرب الى ميادين اخرى » اي مهاجمـة الامبراطورية البريطانية بمساعدة ايطاليا واليابان واسبانيا وروسيا .

« معقولة » قد وردت من لندن ، راح يصدر توجيهه السادس عشر باعداد عملية « اسد البحر » . وهكذا بعد ستة اسابيع من التردد تقرر اخيراً غزو بريطانيا « اذا اقتضى الأمر » . ولقد كانت هذه الخطة ، كما ادرك هتلر « وفرقاؤه » اخيراً عملية عسكرية رئيسية ، لا تفتقر الى المجازفة والاخطار ، وتعتمد في نجاحها على ما اذا كان السلاح الجوي والاسطول ، يستطيعان ان يمهدا الطريق للقوات للنزول امام اسطول بريطاني متفوق تمام التفوق ،وامام سلاح جوي معادٍ لايمكن ان يعتبر بأي حال من الأحوال تافهاً او مهملاً .

ولكن هل كانت خطة اسد البحر عملية جدية ؟ وهل كان القصد منهـــا تنفيذها فعلاً ؟

مازال الكثيرون حتى اليوم يشكون في جديتها ، وقد عزز شكوكهم هذه ما صدر عن « جوقة » الفرقاء الالمان من اقاويل بعد انتهاء الحرب . فلقد ذكر رونشتادت الذي اسندت اليه قيادة الغزو ، لمحققي الحلفاء في عام ١٩٤٥ ما يلي :

« كان الغزو المقترح لانكلترا ، مجرد سخافة لا طائـل تحتها ، اذ ان البواخر اللازمة للغزو لم تكن متوافرة ... وكنا ننظر الى الامر كله على ان مجرد لعبة ليس الا ، إذ كان من الواضح ان الغزو لن يكون ممكناً في الوقت الذي لا يكون فيه اسطولنا قادراً على تغطية عبور القناة او نقل الامدادات . ولم يكـن السلاح الجوي الالماني ايضاً قادراً على المضي في هذه الواجبات اذا عجز الاسطول عن القيام بها .. وكانت الشكوك تراودني دائماً تجاه القضية كلها... واني لاشعر بأن الفوهرر لم يرغب قط رغبة صادقـــة في غزو انكلترا ... اذ كان يفتقر الى الشجاعة ... وكل ما كان يأمل فيه ان الانكليز سينشدون الصلح ... » [١]

---

١ ـ مجلة المخابرات العسكرية البريطانية (عدد تشرين الثاني ١٩٤٥) ـ نقلها شولمان ـ الهزيمة في الغرب ص ٤٩ ـ ٥٠ .

واعرب بلومينتريب مدير دائرة العمليات الحربية في قيادة رونشتادت عن آراء مماثلة الى ليدل هارت بعد انتهاء الحرب ، زاعماً انهم كانوا يتحدثون عن عملية اسد البحر ، كمجرد بلفة ليس الا » [1]

ولقد قضيت بضعة ايام في اواسط شهر آب في مدن ساحل القناة ، متنقلاً من انتويرب الى بولون بحثاً عن جيش الغزو ، ورأينا في الخامس عشر من آب بين كاليه ورأس الانف الرمادي (Cap Gris - Nez) جماعات من القاذفات والمقاتلات الألمانية تعبر القناة باتجاه انكلترا ، في الغارة التي كانت اول هجوم جوي مركز عليها . وبينما كان من الواضح ان السلاح الجوي الألماني كان جاداً في هجومه . إلا ان مارأيته من افتقار الى البواخر ولا سيما الى زوارق الغزو في الموانىء والقنوات والانهار قد خلق لدي الانطباع بأن الألمان كانوا هازلين لا جادين . فلقد كانوا كما رأيت يفتقرون الى الوسائل التي تمكن قواتهم من عبور القناة الانكليزية .

ولكن المراسل الصحفي لا يستطيع الا رؤية القليل عن الشؤون المتعلقة بالحرب ، ونحن نعرف الآن ، ان الألمان لم يشعروا في تجميع أسطول الغزو إلا في الأول من أيلول . بالنسبة الى الفرقاء ، فكل من يقرأ افاداتهم الى المحققين في محاكمات نورمبرغ أو يصغي الى اجاباتهم ، على الاسئلة ، يدرك ان شهاداتهم بعد الحرب ، لم تكن تساوي في عين الحقيقة شيئاً [2] . والذاكرة تخدع المرء كثيراً ، ولم يكن الفرقاء الألمان استثناء لهذه القاعدة . وكانوا يهدفون الى اشياء كثيرة ، لعل في طليعتها الحط من قيادة هتلر العسكرية وشأنها . وكانت غايتهم الاساسية التي تظهر باسهاب ووضوح في مذكراتهم في شهادتهم ، وافاداتهم اثناء التحقيقات في نورمبرغ ، ان يوضحوا انهم لو تركوا أحراراً في اتخاذ قراراتهم فإن

---

١ ـ ليدل هارت ـ الفرقاء الالمان يتكلمون ص ١٢٩ .

٢ ـ وقد اهمل حتى ليدل هارت نفسه وهو الناقد العسكري الكبير ان يفعل ذلك دائما ، ولا ريب في ان اهماله هذا هو الذي يشوه كتابه « الفرقاء الالمان يتكلمون » . وقد تكلموا ، ولكن ذاكراتهم لم تكن دائما طيبة . ولم يكن قولهم هو الصدق دائما .

هتلر ما كان ليستطيع قيادة الرايخ الثالث الى الهزيمة .

ولكن من سوء حظهم هم ومن حسن حظ الاجيال القادمة . والحقيقة ، لا تترك اكوام الملفات العسكرية الألمانية السرية أي شك في ان خطة هتلر لغزو بريطانيا في مطلع خريف عام ١٩٤٠ ، كانت جدية تمام الجدية ، وأنها على الرغم مما رافقها من كبير تردد ، فإن الديكتاتور الذي كان يعتزم عزماً اكيداً ، تنفيذها ، لو كانت هناك اية احتمالات معقولة في النجاح . ولم يكن الافتقار الى التصميم أو المجهود هو الذي قرر مصيرها ، وانما قررته سعود الحرب ونحوسها ، اذ اخذت تتحول الآن وللمرة الأولى ضده .

* * *

وفي السابع عشر من تموز أي بعد يوم واحدفقط من صدورالتوجيه السادس عشر ، باعداد خطط الغزو وقبل يومين من خطاب الفوهرر السلمي في الرايشستاغ ، خصصت القيادة العامة للجيش القوات اللازمة لعملية اسد البحر ، وأمرت باعداد ثلاث عشرة فرقة ، لنقاط القفز على ساحل القناة ، لتؤلف الموجة الأولى من القوات الغازية . واتمت قيادة الجيش في نفس اليوم وضع الخطة المفصلة للنزول على جبهة واسعة على الساحل الجنوبي من انكلترا .

وقد تقرر ان يعهد الى المشيرفون رونشتادت الذي عيّن في التاسع عشر من تموز قائد بمجموعة الجيوش (ا) ، بالقيام بالهجوم الرئيسي ، وهو عين الدور الذي مثله في معركة فرنسا . وتقرر ان تنزل ست فرق للمشاة من قوات جيش الفريق ارنست بوش السادس عشر من منطقة خليج كاليه على الشواطىء بين رامسغيت وبيكسهيل . وتقرر ان تعبر اربع فرق من جيش الفريق ادولف شتراوس التاسع ، القناة الانكليزية من منطقة الهافر ، وان تهبط بين برايتون وجزيرة وايت . وعهد الى ثلاث فرق من جيش المشير فون رايخناو السادس التابعة لمجموعة الجيوش (ب) التي يتولى المشيرفون بوك قيادتها ، بأن تتحرك من شبه جزيرة شربورغ في الغرب ، وان تهبط في خليج (لايم) بين ويماوث و « لايم ريجز » وهكذا تتألف الموجة الأولى من تسعين الف جندي ، وقضت

خطة القيادة العليا بأن يهبط الى الساحل عند نهاية اليوم الثالث من الغزو (٢٦٠) الف جندي . وستتولى القوات المحمولة من الجو والتي ستنزلها الطائرات في خليج « لايم » وفي مناطق أخرى تعزيز هذه العملية . وستهبط مع الموجة الثانية قوة لا يقل تعدادها عن ست فرق من فرق العاصفة وثلاث فرق آلية ، وبهذا يتم في بضعة الايام الأولى انزال قوة مؤلفة من تسع وثلاثين فرقه بالاضافة الى فرقتين اخريين ، تحملها الطائرات .

وكانت المهمة التي رسمت لهذه القوات على النحو التالي . بعد تأمين رؤوس الجسور ، تندفع قوات بمجموعة الجيوش (ا) من الجنوب الشرقي نحو هدفها الأول وهو خط يصل بين « غريفسند » وسارثها مبتن . ويتقدم جيش رايخناو السادس الى بريستول ، عازلاً ديفون وكورنول . ويكون الهدف الثاني خطاً يمتد بين مالدون على الساحل الشرقي الى الشمال من مصب نهر التيمس حتى نهر سيفيرن ، عازلاً مقاطعة ويلز . وكان من المتوقع ان تدور « معارك عنيفة مع قوات بريطانية ضخمة » في نفس الوقت الذي يصل فيه الالمان الى هدفهم الأول . ولكن النصر سيتحقق بسرعة في هذه المعارك ، ويتم تطويق لندن ويستأنف الزحف شمالاً [١] . وقد ابلغ براوختش ريدر في السابع عشر من تموز ان العملية كلها ستتم في غضون شهر واحد وستكون في منتهى السهولة [٢] .

---

١ ــ من اوراق القيادة العامة للجيش الالماني ــ نقلها ويتلي ص ٤٠ وص ١٥٢ ــ ١٥٥ ، وص ١٥٨ . وظلت الخطة عرضة للتبديل طيلة الاسابيع الستة التالية .

٢ ــ يوميات اركان حرب الاسطول الحربية ــ ويتلي ــ ص ٤٠ ــ غالت المخابرات الالمانية في تقدير قوة بريطانيا البرية طيلة اشهر تموز وآب وايلول ، بنحو من ثماني فرق . وقدرت اركان حرب القيادة الالمانية في مطلع تموز القوة البريطانية بما يتراوح عدده بين خمس عشرة وعشرين فرقة من « فرق الميدان » . وكانت هناك في الحقيقة تسع وعشرون فرقة في انكلترا في ذلك الوقت لا تزيد عدد فرق الميدان فيها على النصف اذ انها تفتقر عمليا الى المدافع والمدرعات . ولكن خلافا للاعتقاد الذي كان سائدا في ذلك الحين والذي ظل قائما حتى يومنا هذا ، كان الجيش البريطاني قد بات في اواسط ايلول معادلا للفرق الالمانية المعدة لموجة =

لكن ريدر وقيادته البحرية ، ظلا يشكان في احتمال النجاح . اذ لم يكن في وسع الاسطول الألماني ،ان ينقل القوات اللازمة لهذه العملية وان يتولى حمايتها، لاسيما وان العملية تحتاج الى قوات ضخمة وتمتـــد على جبهة واسعة تنتشر على مسافة مائتي ميل من رامسغيت الى خليج « لايم » . وقد تولى ريدر ابلاغ قيادة الجيش رأية هذا بعد يومين ، وعاد الى اثارته في الواحـــد والعشرين من تموز عندما استدعاه هتلر مع براوختش والفريق هانز جيشونيك رئيس هيئة اركان القوة الجوية ، لمقابلته في برلين . وكان الفوهرر لا يزال حائراً « فيما يقع فعلاً في انكلترا » . وقد اعرب عن تفهمه للمتاعب التي يحس بها الاسطول ، ولكنه اكد إهمية انهاء الحرب في اقصر وقت ممكن . وقال ان الغزو يحتاج الى اربعين فرقة ، وان « العملية الرئيسية » يجب ان تتم في الخامس عشر من ايلول . وكان سيد الحرب في الحقيقة في وضع متفائل على الرغـــم من رفض تشرشل في تلك اللحظة الاكتراث بندائه السلمي . ودوّن هولدر في يومياته يقول :

« قال هتلر ان وضع انكلترا غدا يائساً . فلقد كسبنا نحـــن الحرب . ولا يمكن لأحوالها ان تنعكس مطلقاً »[1] .

* * *

لكن قيادة الاسطول، لم تكن على نحو ثقته ، وهي تواجه هذه المهمة الهائلة

... الغزو الاولى . فقد بات لديه في ذلك الوقت ست عشرة فرقة مدربة خير تدريب بينها ثلاث مدرعة ، متركزة في الساحل الجنوبي لمواجهة الغزو تضاف اليها اربع فرق اخرى مع لواء مدرع لحماية الساحل الشرقي في نهر « التيمز » حتى « ووش » . ولا ريب في ان هذه القوة تمثل نقاهة بارزة بعد كارثة دنكرك، التي تركت بريطانيا عزلاء في البر طيلة شهر حزيران .

وكانت المخابرات البريطانية عن خطط الالمان مخطئة كل الخطأ، وظلت طيلة الاشهر الثلاثة الاولى من خطر الغزو على خطأ كامل . وقد ظل تشرشل ومستشاروه العسكريون طيلة الصيف يعتقدون ان الالمان سينزلون قواتهم الرئيسية على الساحل الشرقي ، وظلت قوات بريطانيا الرئيسية البرية متمركزة في هذه الناحية حتى شهر ايلول .

١ – يوميات هولدر في ٢٢ تموز ومؤتمرات هتلر في الشؤون البحرية ص ٧١ – ٧٣ .

في نقل جيش ضخم عبر القناة الانكليزية الشاطرة للبرين الانكليزي والفرنسي أمام اسطول بريطاني يفوقها الى حد هائل في القوة ، وأمام قوة جوية معادية تبدو نشيطة وفعّالة . وقد قدّمت هيئة اركان البحرية في التاسع والعشرين من تموز مذكرة تنصح فيها « بعدم القيام بهذه العملية في هذه السنة » وتقترح « التفكير فيها في ايار عام ١٩٤١ أو بعد هذا التاريخ[١] . »

ولكن هتلر اصرّ على دراستها في الواحد والثلاثين من تموز عام ١٩٤٠ عندما استدعى قادته العسكريين من جديد ، الى دارته في اوبرسالزبرغ هذه المرة وقد حضر الاجتماع بالاضافة الى ريدر كل من كايتل ويودل من القيادة العامة للقوات المسلحة وبراوختش وهولدر من القيادة العامة للجيش . وقد تولى الاميرال هذه المرة كما في المرات السابقة ، معظم الحديث ، اذ انه لم يكن في وضع يدعو الى التفاؤل مطلقاً .

قال ريدر ان الخامس عشر من ايلول ، هو الموعد المبكر الذي يمكن لعملية اسد البحر ان تبدأ فيه ، هذا اذا لم تكن هناك « ظروف غير منظورة بسبب عوامل الطقس أو استعدادات العدو » . وعندما استعلم منه هتلر عن مشاكل الطقس راح ريدر يلقي محاضرة عن الموضوع بدت في غاية البلاغة وداعية الى التشاؤم حقاً . وقال ان الطقس يكون « سيئاً بصورة عامة في القناة وفي بحر الشمال باستثناء الاسبوعين الأولين من تشرين الأول ، اذ ان الضباب الخفيف يحل في منتصف ذلك الشهر ليعقبه ضباب شديد في نهايته . ولكن هذا لم يكن إلا ناحية واحدة من نواحي مشكلة الطقس . اذ اعلن ان « العملية لا يمكن القيام بها الا اذا كان البحر هادئاً » . اذ تغرق الزوارق اذا كان البحر عالياً ، وتصبح السفن الكبيرة ايضاً عاجزة ومشلولة ، اذ انها لا تستطيع ان تفرغ حمولها من المؤن . وقد غدا الاميرال ، اكثر تشاؤماً مع كل دقيقة فكر فيها بما يقوم أمامه من أهوال . ومضى يقول :

---

١ – يوميات اركان حرب الاسطول الحربية – ٣٠ تموز – ويتلي ص ٤٥ – ٤٦ .

« وحتى لو تمكنت الموجة الأولى من عبور القناة بنجاح ، في اوضاع طقس مواتية ، فليس ثمة من ضمانات على ان هـــذا الطقس المواتي نفسه سيظل مستمراً اثناء نقل الموجتين الثانية والثالثة ... وعلينا ان ندرك كأمر واقـــع ، بأنه قد تمضي بضعة ايام دون ان نتمكن من نقل قوات تستحق الذكر « الى ان نكون قـــد اتممنا الافادة من بعض الموانىء »

وكان حرياً بهذا الوضع ان يترك الجيش في مأزق حرج ، وان يدعه في حالة من الضيق على الشواطىء مفتقراً الى المؤن والنجدات . ووصل ريدر الآن الى النقطة الرئيسية في الخلافات بين الجيش والاسطول . فالجيش يريد جبهـــة واسعة تمتد من مضائق دوفر الى خليج لايم . ولكن الاسطول لايستطيع ان يؤمن البواخر اللازمة لعملية كهذه ضد رد فعل قوي ومتوقع من الاسطول والسلاح الجوي البريطانيين . ولهذا كان من رأي ريدر تقصير الجبهة وان تحصر بين مضائق دوفر وايستبورن وأجّل امير البحر قوله الفصل حتى النهاية ... ثم فاجأ به الآخرين قائلاً :

« وهكذا على ضوء جميع الاعتبارات تبـــين لنا ان الوقت الامثل للبدء بالعملية سيكون في ايار عام ١٩٤١ » .

ولكن هتلر لا يريد ان ينتظر هـــذه المدة الطويلة . وقد أقرّ بأن من « الطبيعي » تعذر عمل شيء ضد الطقس . وعلى الموجودين ان يدرسوا النتائج المحتملة لاضاعة الوقت . فالاسطول الألماني لن يكون في الربيع القادم أفضل بالنسبة الى الاسطول البريطاني من وضعه الحالي . والجيش البريطاني الآن في اسوأ حالاته . فاذا ما اتيحت له فسحة من الوقت تتراوح بـــين الثمانية أشهر والعشرة ، فستصبح لديه فرق تتراوح بين الثلاثين والخمسة والثلاثين وهي قوة كافية للدفاع في منطقة محدودة كالمنطقة التي يقترح وقوع الغزو فيهـــا . ولهذا فقد كان قراره ، كما ورد في الملاحظات السرية التي دوّنها كل من ريدر

وهولدر [1] على النحو التالي .

« من الواجب دراسة احتمال تحويل اهتمام العدو الى افريقيا . لكن النتيجة الحاسمة لا يمكن تجنبها إلا بهجوم على انكلترا نفسها . ولهذا يجب اعداد محاولة لتهيئة العملية في الخامس عشر من ايلول عام ١٩٤٠ ... وسيتخذ القرار الذي يقضي إما بوقوع العملية في ايلول ، أو تأجيلها حتى ايار عام ١٩٤١ ، بعد ان تكون القوة الجوية ، قد قامت بهجمات مركزة على انكلترا الجنوبية لمدة اسبوع واذا كان تأثير الهجمات من النوع الذي يضمن اصابة قوة العدو الجوية ، وقواه البحرية وموانئه اصابات شديدة ، فإن عملية اسد البحر ستنفذ آنذاك في عام ١٩٤٠ . وإلا فان العملية ستؤجل حتى شهر ايار عام ١٩٤١ » .

وهكذا بات كل شيء متوقفاً على السلاح الجوي .

واصدر هتلر في اليوم التالي ، الأول من آب نتيجة لذلك توجيهين من القيادة العليا للقوات المسلحة ، وقع هو احدهما ، ووقع كايتل التوجيه الثاني . .

مقر قيادة الفوهرر
في اول آب ١٩٤٠

سري للغاية

التوجيه رقم ١٧ لادارة الحرب الجوية والبحرية
ضد انكلترا

.. رغبة في اقامة الاوضاع اللازمة لاحتلال انكلترة نهائياً ،

---

١ ـ مؤتمرات هتلر في الشؤون البحرية ١ آب ١٩٤٠ ـ هذا هو تقرير ريدر السري عن الاجتماع وقد قدم هولدر تقريره في برقية طويلة في الواحد والثلاثين من تموز .

أود ان تستمر الحرب الجوية والبحرية ضد الوطن الانكليزي بصورة اكثر عنفاً من السابق .

« وتحقيقاً لهذه الغاية اصدر الأوامر التالية :

« ١ — على القوة الجوية الألمانية ان تتغلب على القوة الجوية البريطانية بجميع السبل المتوافرة تحت تصرفها وفي اسرع وقت ممكن .

« ٢ — بعد الحصول على التفوّق الجوي المحلي أو الوقتي يجب ان تستمر الحرب ضد الموانىء ولا سيما ضد المؤسسات المتعلقة بالمواد الغذائية ... ويجب ان تقع الهجمات على موانىء الساحل الجنوبي الشرقي على اضيق نطاق ممكن ، وذلك بالنسبة الى عملياتنا المقصودة ...

« ٣ — على السلاح الجوي الألماني ان يقف على قدم الاهبة للاشتراك في عملية اسد البحر .

« ٤ — احتفظ لنفسي بحق القرار بالنسبة الى الهجمات الارهابية التي يقصد منها الثأر أو الانتقام .

« ٥ — يجب ان تبدأ الحرب الجوية المتضخمة في السادس من شهر آب أو حواليه . والاسطول البحري مخوّل بأن يبدأ الحرب البحرية العنيفة والمخطط لها ، في نفس الوقت ايضاً .

أدولف هتلر . (١)

وانقل الآن بعض ما جاء في التوجيه الثاني الذي اصدره كايتل نيابة عن هتلر في نفس اليوم ..

---

١ — وثائق وزارة الخارجية الالمانية (١٠) ص ٣٩٠ — ٣٩١ .

سري للغاية

عملية اسد البحر

« لما كان القائد العام للأسطول ، قد نقل الى الفوهرر في الواحد والثلاثين من تموز ان الاستعدادات الضرورية لعملية أسد البحر لا يمكن استكمالها قبل الخامس عشر من ايلول ، فقد اصدر الفوهرر أمره بما يلي :

« يجب مواصلة الاستعدادات اللازمة لعملية أسد البحر على ان يستكملها الجيش والسلاح الجوي قبل الخامس عشر من ايلول .

« سيقرر الفوهرر ، بعد مدة تتراوح بين الثمانية ايام والاربعة عشر يوماً من شن الهجوم الجوي على بريطانيا . المخطط له ان يبدأ في الخامس من آب ، ما اذا كان الغزو سيقع في هذا العام او لا ، وسيعتمد القرار الى حدٍ كبير على نتيجة الهجوم الجوي ..

« وعلى الرغم من تحذير الاسطول ، بان في وسعه ان يضمن فقط الدفاع عن شقة ضيقة من الساحل لا تتجاوز في بعدها غرباً ، ايستبورن ، يجب اتخاذ الاستعدادات اللازمة للقيام بالهجوم على اساس واسع كما كان مقرراً في البداية [1] .. »

ولم تؤد الفقرة الاخيرة إلا الى اشعال الخلاف بين الجيش والاسطول في موضوع وقوع الغزو على جبهة طويلة أو قصيرة . وكانت هيئة اركان حرب البحرية قد قدّرت قبل اسبوعين ان تحقيق مطالب الجيش في انزال مائة الف رجل مع معداتهم ومؤنهم في الموجة الاولى على جبهة تمتد مائتي ميل من رامسغيت

---

١ ـ مؤتمرات هتلر في الشؤون البحرية في ١ آب عام ١٩٤٠ . ص ٨١ ـ ٨٢ .

الى خليج لايم ، يتطلب جمع نحو من ١٧٢٢ زورقاً و ١١٦١ قارباً بخارياً و ٤٧١ من زوارق الجذب البخارية و ١٥٥ سفينة نقل . وقد نقل ريدر لهتلر في الخامس والعشرين من تموز ان مثل هذا الاجراء سيحطم الاقتصاد الالماني اذ ان حشد مثل هذا العدد الكبير من القوارب وزوارق الجذب ، سيدمّر جميع نظام النقل الالماني في القنوات المائية ، الذي تعتمد عليه حياة البلاد الاقتصادية الى حدٍ كبير [١] . وقد أوضح ريدر على أي حال ، بأن حماية مثل هذا الاسطول الضخم وهو يحاول تزويد جبهة عريضة كهذه بالمؤن والذخيرة ، من غارات اسطول بريطانيا وسلاحها الجوي ، تفوق طاقة القوات البحرية الالمانية وقدرتها . وقد حذر اركان حرب الاسطول ، قيادة الجيش في وقت ما من ان اصرارها على هذه الجبهة الواسعة قد يعرض الاسطول الى خسارة جميع ما لديه من سفن حربية .

ولكن الجيش أصر على رأيه . فقد أدت المبالغة في تقدير قوة البريطانيين ، الى الاعتقاد بأن النزول في جبهة ضيقة سيؤدي الى مواجهة المهاجمين ، قوة بريطانية برّية تفوقهم « عدداً » . وحدثت مشادة بين القيادتين عندما اجتمع هولدر في السابع من آب بقرينه في القيادة البحرية وهو أمير البحر شنايويند رئيس هيئة اركان حرب البحرية . وكان الصدام بين الرجلين حاداً واشبه ما يكون بالتمثيل المسرحي .

وهدر رئيس هيئة اركان حرب الجيش ، وهو الرجل الهادىء عادة يقول في ثورة غاضبة : « انني أرفض اقتراح البحرية . وانني اعتبره من وجهة نظر الجيش ، اشبه ما يكون بالانتحار الكامل . وانني اوثر ان اضع القوات التي تنزل في آلة لصنع « السجق » من ان اعرضها لمثل هذه المجزرة » .

ويقول سجل هيئة اركان حرب البحرية عن الاجتماع [٢] أن الاميرال شنايويند ، رد بأن محاولة نقل الجنود الى مثل الجبهة الواسعة التي يقترحها الجيش

---

١ ــ مؤتمرات هتلر في الشؤون البحرية ص ٧٣ ــ ٧٥ .

٢ ــ لم يسجل هولدر في اليومية التي كتبها في ذلك التاريخ ، **هذه الاقوال التي ــ**

« لا تقل في نتائجها الانتحارية بالنظر الى تفوق بريطانيا البحري » .

حقاً لقد كانت معضلة فظيعة . فالقيام بفتح جبهة واسعة ، ونقل هذا العدد الضخم من الجنود لها يعرض الحملة الألمانية كلها الى خطر قيام الاسطول البريطاني بإغراقها . ولو تبنى الجيش فكرة الجبهة القصيرة التي تعززها قوات أقل ، فإن في امكان الجيش البريطاني صد الغزاة والقذف بهم الى البحر . وراح براوختش القائد العام للجيش يبلغ القيادة العليا للقوات المسلحة في العاشر من شهر آب انه لا يستطيع قبول فكرة النزول بين فولكستون وايستبورن . لكنه كان على استعداد على أي حال ، يوماً متذمراً ، للتخلي عن فكرة النزول في خليج لايم لتقصير الجبهة ومقاتلة الاسطول في منتصف الطريق .

ولكن تساهل براوختش لم يكن كافياً لامراء البحر العنيدين ، وقد بدأ ما يتصفون به من حذر وعناد يترك اثراً في القيادة العليا للقوات المسلحة . وأعد يودل في الثالث عشر من آب « تقديراً للوضع » حدد فيه خمسة شروط لنجاح عملية اسد البحر ، وهي شروط لابد وان تكون قد ظهرت بمظهر « الافتراضات المضحكة للغاية » لو لم تكن معضلتهم التي يواجهونها من النوع الجديد للغاية . فلقد اشترط أولاً محو الاسطول البريطاني من الساحل الجنوبي ، كما اشترط ثانياً محو السلاح الجوي البريطاني من الاجواء البريطانية ، وتناولت الشروط الاخرى انزال القوات بأعداد ضخمة وبسرعة تفوق ما لدى الاسطول من امكانيات . وقال : انه ما لم تتحقق هذه الشروط ؛ فإن الانزال سيكون « عملاً » يائساً لا يمكن تنفيذه الا في وضع يائس ، والذي لاحق لنا في تنفيذه في الوقت الحاضر »[1]

= اوردناها ، ولكنه اعلن على اي حال ، ان الحديث ادى الى « وجود هوة في الخلاف في الراي لا يمكن اجتيازها » ولقد قال ان الاسطول الالماني « يخشى اسطول بريطانيا فيالمحيطات البعيدة » واكد ان درء هذا الخطر عن طريق السلاح الجوي الالماني امر مستحيل . ويبدو ان قيادة الاسطول الالماني ، ان لم تكن قيادة الجيش . لم تكن مخدوعة في هذه المرحلة بالقوة الضاربة لسلاح غورنغ الجوي .

١ ــ من يوميات يودل واوراق القيادة العامة للقوات المسلحة ــ ويتلي ص ٦٨ .

وإذا كانت مخاوف البحرية قد انتقلت عدواها الى يودل ، فإن تردد رئيس العمليات الحربية في القيادة العليا للقوات المسلحة ، اخذ يؤثر على هتلر ولقد ظل الفوهرر طيلة الحرب اكثر اعتماداً على يودل منه على رئيس القيادة العليا كايتل ، الرجل المتبلد الذهن الخائر العزيمة . وليس من الغريب والحالة هذه ، ان نرى هتلر بوصفه القائد الاعلى يميل في الثالث عشر من آب عندما قابله ريدر في برلين ليطلب اليه اتخاذ قراره في موضوع الخيار بين الجبهتين الواسعة والضيقة ، الى الاتفاق مع الاسطول في رأيه المنادي بالعملية الصغيرة . ووعد بأن يصدر قراراً محدوداً في اليوم التالي بعد ان يكون قد اجتمع الى القائد العام للجيش [1] . وهكذا بعد ان استمع الى آراء براوختش في الرابع عشر من آب عن القيادة العليا للقوات المسلحة والموقع من كايتل يعلن بأن الفوهرر قد قرر التخلي عن النزول في خليج لايم الذي كان من المقرر ان يقوم به جيش رايخناو السادس . وتقرر ان تستمر الترتيبات للنزول في الجبهة الاكثر ضيقاً في الخامس عشر من ايلول ، ولكن شكوك الفوهرر الخاصة تسللت الآن وللمرة الأولى الى توجيهه السري . واضاف التوجيه ان « الاوامر النهائية لن تصدر الى ان يتضح الوضع تماماً . » لكن الأمر الجديد كان على أي حال بمثابة حل وسط اذ ان توجيهاً آخر صدر في ذلك اليوم قضى بتوسيع الجبهة الضيقة .

> « يجب ان يكون العبور الرئيسي في جبهة ضيقة. ومن الواجب ان يتم نزول ما يتراوح عدده بين اربعة آلاف وخمسة آلاف من الجنود في برايتون من الزوارق ومثل هذا العدد تقريباً من الطائرات في ديل -- رامسغيت . وعلى السلاح الجوي ان يقوم بهجوم عنيف في اليوم الذي يسبق الغزو على مدينة لندن ، مما قد يدفع الاهلين الى الهرب من المدينة واغلاق الطرق المؤدية اليها » [2]

---

١ ـ مؤتمرات هتلر في الشؤون البحرية ص ٨٢ ــ ٨٣ .

٢ ــ مؤتمرات هتلر في الشؤون البحرية ص ٨١ ــ ٨٢ .

وعلى الرغم من ان هولدر كان يدوّن في الثالث والعشرين من آب ملاحظة بطريقة الاختزال في يومياته قال فيها : « ان أي هجوم لا يقدر له النجاح في هذا العام على هذا الأساس » ، صدر توجيه من كايتل في السابع والعشرين من آب ، حدد الخطط النهائية للنزول في أربع مناطق رئيسية على الساحل الجنوبي بين فولكستون و « سيلسي بيل » الواقعة الى الشرق من بورتسماوث ، على ان يكون الهدف الأول ، كما كان من قبل خطاً « يمتد بين بورتسماوث ونهر التيمز » الى الشرق من لندن عند « غريفسند » وان تصل القوات الى هذا الخط ، فور ايجاد الاتصال بين رؤوس الجسور هذه ، وفور تنظيم هـذا الاتصال ، لتتمكن القوات من الزحف شمالاً . وصدرت في نفس الوقت الأوامر بالاستعداد لتنفيذ بعض مناورات التضليل التي تؤلف عملية « رحلة الخريف » المناورة الرئيسية فيها . ونصت هذه المناورة على توجيه هجوم ضخم زائف باتجاه ساحل بريطانيا الشرقي ، حيث كان تشرشل ومستشاروه العسكريون لا يزالون يتوقعون ان توجه الضربة الرئيسية إليه . وتقرر لهـذه الغاية ان تغادر أربع بواخر ألمانية ضخمة من بواخر الركاب بينها الباخرتان الكبريان « يوروبا » و « بريمن » ، وعشر من السفن الأخرى الأصغر حجماً ، تحرسها كلها أربعة طرادات ، موانىء الساحل النروجي الجنوبي ، وشبه جزيرة هليغولند ، قبل يومين من موعد الغزو ، وان تتجه الى الساحل الانكليزي بين ابردين ونيوكاسل . وكان من المقرر ان تكون جميع البواخر خالية من الجنود ، وان تعود الحملة بأسرها الى الموانىء التي غادرتها عندما يخيم الظلام مكررة المناورة كلها في اليوم التالي (١) .

وأصدر براوختش في الثلاثين من آب أمراً مطولاً ضمنه التعليمات المتعلقة بالنزول ، وليس ثمة من شك في ان القادة العسكريين الذين تسلموا هذا الأمر قد استغربوا ما يفتقر إليه من حماس للمشروع . وقد أطلق على الأمر الاسم التالي :

---

١ ـ مؤتمرات هتلر في الشؤون البحرية ص ٨٥ ـ ٨٦ وويتلي ص ١٦١ ـ ١٦٢ الذي يعطي تفصيلات وافية عن رحلة الخريف من الوثائق العسكرية الالمانية .

« تعليمات لاعداد عملية أسد البحر » ، ولا ريب في ان هذا العنوان يعني بعض التأخر في الاشتراك في إصدار الأمر بالاعـــداد ، إذ لا يعقل ان يكون أمر الاعداد قبل خمسة عشر يوماً فقط من موعد التنفيذ الذي حدده هتلر في الخامس عشر من ايلول . وأضاف ان امر التنفيذ « يعتمد على الوضع السيـــاسي » ، وهو لا بد وان يكون قد أدهش القادة العسكريين الذين لا شأن لهم في السياسة [1] .

وبدأ ابحار البواخر من الموانىء الالمانيـــة الواقعة على بحر الشمال ، نحو موانىء التحرّك على ساحل القناة الانكليزية في الأول من ايلول ، وصدر عن القيادة العليا للقوات المسلحة توجيه آخر بعد يومين أي في الثالث من ايلول هذا نصه :

« تقرر تعيين أقرب موعد للابحار في عملية الغزو في العشرين من ايلول على ان يكون النزول في الواحد والعشرين منه .

« وسيصدر الأمر ببدء الهجوم قبل عشرة ايام من يوم الغزو ، أي في الحادي عشر من ايلول على وجه التقريب .

« أما الأوامر الأخيرة فستصدر ظهر اليوم الثـــالث قبل موعد الغزو .

« يجب ان تظل جميع الاستعدادات قابلة للالغاء قبل أربـــع وعشرين ساعة من ساعة الصفر .

كايتل [2] .

وبدا أن القيادة كانت جادة هذه المرة . لكن هذا الجد كان خادعاً . فلقد اجتمع ريدر الى هتلر مرة ثانية في السادس من ايلول . وسجل امير البحر في يوميـــات الحرب لأركان حرب البحرية في تلك الليلة يقول : « لم يتخذ قرار

---

١ ـ نص تعليمات براوختش من ملفات القيادة العليا للجيش ـ ويتلي ص ١٧٤ ـ ١٨٢

٢ ـ مؤتمرات هتلر في الشؤون البحرية ص ٨٨ .

الفوهرر بالنزول في انكلترا شكلاً قاطعاً بعد ، إذ انه واثق كل الثقة من انهزيمة بريطانيا يمكن ان تتحقق دون اللجوء الى النزول فيها ، ويظهر تسجيل ريدر المطوّل عن الحديث في الواقع ان الفوهرر تحدث باسهاب عن كل موضوع إلا موضوع عملية أسد البحر ، فقد تحدث عن النروج وجبل طارق والسويس و « مشكلة الولايات المتحدة » ومعاملة المستعمرات الفرنسية ، وعن آرائه المضحكة في اقامة « اتحاد جرماني شمالي » [1] .

ولو كان تشرشل وقادته العسكريون قد أحسوا بما وقع في هذا المؤتمر البارز فإن عبارة « كرومويل » الرمزية ، ما كانت لتنطلق في انكلترا في مساء اليوم التالي، السابع من ايلول مشيرة الى ان الغزو بات « وشيك الوقوع في كل لحظة » ، ولما أدى اطلاقها الى ما لا حصر له من الاضطراب والى قرع اجراس الكنائس على أيدي رجال الحرس الوطني ونسف المهندسين الملكيين لعدد من الجسور ، والى وقوع عدد لا حد له من الاصابات التي لا ضرورة لها والتي وقعت من جراء تعثر الناس بالألغام التي زرعت بسرعة هائلة [2] .

وبدأ الألمان بعد ظهر السبت السابع من ايلول ، أولى غاراتهم الجوية الضخمة على مدينة لندن ، وقد اشتركت فيها (٦٢٥) طائرة قاذفة تحرسها (٦٤٨) طائرة محاربة . وكانت هذه الغارة أعظم ما وقع من هجمات مدمّرة من الجو حتى تلك اللحظة على أية مدينة من المدن ، إذ ان الغارات التي وقعت على

---

١ ـ مؤتمرات هتلر في الشؤون البحرية ص ٩١ ـ ٩٧ .

٢ ـ يقول تشرشل ، انه لم يكن على علم هو او قادته العسكريون بأن كلمة «كرومويل» الرمزية قد انطلقت في انكلترا . وقد صدرت الاشارة من القيادة العامة لقوات الوطن (مذكرات تشرشل ـ الجزء الثاني ص ٣١٢) . ولكن رئيس الوزراء ما لبث بعد ايام أي في الحادي عشر من ايلول ، ان اذاع تحذيرا الى الشعب البريطاني ذكر فيه ان الغزو ان وقع ، فلن يتأخر حدوثه طويلا . واضاف «ان علينا تبعا لذلك ، ان نعتبر الاسبوع القادم تقريبا فترة مهمة للغاية في تاريخنا . انها تقف على قدم المساواة مع تلك الايام التي كان فيها اسطول اسبانيا « الارمادة » يقترب من القناة ، والتي كان فيها دريك ينهي لعبته بالكرات ، او كان نيلسون يقف بيننا وبين جيش نابوليون الاعظم في بولون » .

وارشو وروتردام لم تكن شيئاً يذكر الى جانب هذه الغارة ، ولم تحل الساعات المبكرة من المساء ، حتى كانت منطقة الأرصفة في المدينة العظيمة كتلة ساعرة من اللهب ، كما توقف السير على جميع الخطوط الحديدية الممتدة الى الجنوب ، وهي خطوط متناهية في الأهمية ، بالنسبة الى أغراض الدفاع ضد الغزو . واعتقد الكثيرون في لندن ، في مثل هذه الظروف ان هذا القصف القاتل ، لم يكن إلا مقدمة للنزول الألماني المتوقع في كل لحظة ، ولهـذا السبب ، انطلقت الإشارة التحذيرية بأن الغزو بات وشيك الوقوع في كل لحظة . وليس ثمة من شك ، كما سنرى عمّا قريب في ان هذا القصف المتوحش للندن في السابع من ايلول ، قد سجل نقطة تحول حاسمة في معركة بريطانيا ، على الرغم من توجيهه تحذيراً عن الغزو قبل الأوان ، وعلى الرغم مما ألحقه من أضرار بالغة . فقد أشار الى أن اعظم صراع حاسم شهده العالم في الهواء ، بات يقترب بسرعة من أوجه .

واقترب كذلك موعد وصول هتلر الى قراره القدري ببدء الغزو أو تأجيله . فقد تقرر ان يصل هتلر الى النتيجة التي يريدها كما نص التوجيه الصادر في الثالث من ايلول في الحادي عشر من الشهر نفسه ، معطياً القوات المسلحة فرصة عشرة أيام ليس إلا لتنفيذ الخطوات التمهيدية . ولكن هتلر ما عتم في العاشر من ايلول أن قرر تأجيل كلمته الفاصلة حتى الرابع عشر منه . ويبدو انه كان هنـاك سببان على الاقل لهذا التأجيل ، أولهما الإعتقاد الذي ساد القيادة العليا للقوات المسلحة ، بأن قصف لندن قد أحدث من الدمار بالنسبة الى الممتلكات والى المعنويات البريطانية الى الحد الذي لم يعد فيه القيام بالغزو ضرورة ماسة [١] .

---

١ ـ تأثر الالمان اشد التأثر من التقارير الواردة من سفارتهم في واشنطن، وهي التقارير التي نقلت بعض المعلومات الواردة من لندن بعد ان اضفت عليها الكثير من التزويق . وقد قيل في هذه التقارير ان هيئة اركان الحرب الامريكية باتت تعتقد بأن بريطانيا لم يعد في وسعها ان تصمد مدة اطول . ويقول المقدم فون لوسبرغ في الصفحة الواحدة والتسعين من كتابه «في اركان قيادة الجيش الالماني» ان هتلر كان ينتظر جديا نشوب ثورة في بريطانيا . وكان لوسبرغ ممثل الجيش في القيادة العليا للقوات المسلحة .

ونجم السبب الثاني من المتاعب التي شرع الاسطول الألماني في معاناتها من جرّاء حشده ما لديه من بواخر. فبالاضافة الى متاعب الطقس ، الذي ذكرت السلطات البحرية عنه في العاشر من ايلول ، انه بات « شاذاً كل الشذوذ وغير مستقر » ، أخذ السلاح الجوي الملكي الذي وعد غورنغ بتحطيمه ، والاسطول البريطاني يتدخلان تدخلاً متزايداً مع حشد اسطول الغزو وتجميعه . ولقد حذّر أركان حرب البحرية في ذلك اليوم من خطر الهجمات الجوية والبحرية البريطانية على حركة النقل الألمانية ، وهي الهجمات التي وصفها التحذير بأنها كانت « ناجحة كل النجاح » . وبعثت قيادة المجموعة البحرية الغربية بعد يومين أي في الثاني عشر من ايلول ، ببرقية حاشدة بالتشاؤم الى برلين جاء فيها :

« بدا التدخل الناجم عن قوات العدو الجوية ومدافعه البعيدة المدى ، وقواته البحرية الخفيفة في شكل متناهٍ في الأهميـة للمرة الأولى . ولم يعد في الامكان استخدام موانىء أوستند ودنكرك وكاليه وبولون ، كمراس ليلية للبواخر ، لسبب ما تتعرض له من قصف مدفعي وجوي انكليزي . وبات في امكان وحدات الاسطول البريطاني ان تعمل حرة طليقة في القنـاة الانكليزية . وبات من المنتظر نتيجة هذه المتاعب ، وقوع تأجيل جديد في تجميـع اسطول الغزو » .

وزادت الأمور سوءاً في اليوم التالي . فقد قامت القوات البحرية البريطانية الخفيفة باطلاق نيران مدافعها على موانىء الغزو الرئيسية في القناة ، وهي أوستند وكاليه وبولون وشربورغ . بينما تولى السلاح الجوي الملـكي اغراق ثمانين زورقاً في ميناء أوستند . وتشاور هتلر في ذلك اليوم في برلين مع رؤساء قواته المسلحة الثلاث . وكان من رأيه ان الحرب الجوية تسير على خير ما يرام ، وأعلن انه لا يعتزم والحالة هذه المجازفة بغزو انكلترا [1] . وتكوّن لدى يودل الانطباع من

---

١ ـ يوميات هولدر ـ كتاب اسمان « سنوات المصير الالماني » ص ١٨٦ ـ ١٩٠ وويتلي ص ٨٢ .

ملاحظات الفوهرر بأنه « اعتزم التخلي كلية عن عملية أسد البحر » وكان هذا الانطباع صحيحاً بالنسبة الى ذلك اليوم فعلاً إذ اكده هتلر في اليوم التالي عندما عاد الى تبديل فكره .

وخلّف كل من ريدر وهولدر ملاحظات سرية عن اجتماع الفوهرر بقادته العامين في برلين بتاريخ الرابع عشر من ايلول [1] . وتمكن امير البحر من ان يعطي لهتلر مذكرة قبل الاجتماع ضمنها رأي البحرية في ان :

« الوضع الجوي لا يؤمن الشروط اللازمة للقيـــام بعملية اسد البحر ، إذ ان خطر المجازفة ما زال كبيراً » .

وقد أظهر سيد الحرب النازي في بداية الاجتماع حالة سلبية الى حدٍ ما ، واختلطت في افــكاره المتناقضات المختلطة . فهو لن يصدر امره ببدء الغزو ، ولكنه لن يصدر في الوقت نفسه امراً بابطال الغزو وإلغائه ، وهو ما كان ريدر قد دوّنه في يومية الاسطول البحرية على انه كان « قد انتواه في الثالث عشر من ايلول » .

« ترى ما هي الأسباب لهذا التبدل الجديد في فكره ؟ قال الفوهرر :

« ان النجاح في الغزو إذا أعقبه الاحتلال ، سيضع نهاية للحرب في أقصر وقت ممكن . وستجوع انكلترا . وليس من الضروري ان يقع النزول في وقت معين ... لكن الحرب الطويلة امر غير مرغوب فيه . فلقد حققنا حتى الآن كل ما نحن في حاجة إليه » .

ولم تتحقق لبريطانيا الآمال التي علقتها على إشراك روسيا وامريكا في الحرب. فروسيا لا تريد ان تسفك دماء ابنائها في سبيل بريطانيا . ولن تصبح برامج التسلح الامريكي فعّالة كل الفعل إلا في عام ١٩٤٥ . اما في هــذه اللحظة فإن

---

١ ـ تقرير ريدر ـ مؤتمرات هتلر في الشؤون البحرية ص ٩٨ ـ ١٠١ ويوميات هولدر في ١٤ ايلول .

« الحل الأشد سرعة يتمثل في النزول في انكلترا . ولقدحقق الاسطولالشروط اللازمة . وباتت عمليات السلاح الجوي الألماني فوق كل تقدير وثناء . وستأتي أربعة ايام أو خمسة من الطقس الحسن بخير النتائج الحـــاسمة ... ولدينا فرصة رائعة في ارغام انكلترا على الجثو على ركبتيها » .

« إذن أين يقوم الخطأ ياترى ؟ ولماذا التردد مدة اطول في بدء الغزو ؟ وقد اقرّ هتلر بأن المشكلة تقوم :

« في ان العدو يشفى من حالته المضنية المرة تلو المرة .. ولم تمح طائرات العدو المقاتلة من الوجود تماماً حتى الآن . ولا تقدم تقاريرنا عن انتصاراتنا صورة صحيحة تماماً عن الوضع ، على الرغم من ان اضراراً شديدة لحقت بالعدو » .

ومضى هتلر يعلن بعد ذلك ، على الرغم من جميـع ما حققناه من نجاح فإن الشروط الأولية لنجاح عملية أسد البحر ، لم تتحقق بعد » .

ولخص هتلر انعكاساته الفكرية على النحو التالي :

« ١ – ان النجاح في النزول يعني النصر ، ولكن تحقيق هذا يتطلب السيطرة الجوية المطلقة .

« ٢ – لقد حالت رداءة الطقس حتى الآن بيننا وبين الحصول على هذه السيطرة .

« ٣ – ما زالت العوامل الأخرى في وضعها الصحيح .

« ولهذا فالقرار يقضي بعدم العدول عن العملية حتى الآن » .

أما وقد وصل الى ذلك الاستنتاج السلبي ، فإن هتلر قد فسح المجال للآمال المشرقة بأن السلاح الجوي البريطاني ما زال قادراً على تحقيق النصر ، وهي الآمال التي ظلت تغذّيه وتفر من بين يديه كلما شعر بدنوه من تحقيقها . وقال : « ان الهجمات الجوية قد تركت أثراً هائلاً حتى الآن ، وان كان اثرها ما زال محصوراً في الأعصاب. ولو تمكنا من تحقيق النصرفي الهواء في عشرة أيام أو اثني عشر يوماً ، فإن الانكليز ، قد يقعون تحت سيطرة هستيريا جماعية » .

ورجا جيشونيك ، لتحقيق هذه الغاية ، ان يسمح له بقصف المناطق الآهلة بالسكان في لندن طالما ان توفير هذه المناطق ، لم يؤد الى ظهور « هلع جماعي » في العاصمة البريطانية . وأيد امير البحر ريدر بحماس اللجوء الى القصف الارهابي. لكن هتلر ظل على رأيه في ان التركيز على الاهداف العسكرية اكثر اهمية . وأضاف : « ان القصف الذي يهدف الى إحداث الهلع الجماعي يجب ان يترك حتى النهاية » .

ويبدو ان حماس امير البحر ريدر للقصف الارهابي نجم بصورة رئيسية عن افتقاره الى الحماس لعمليات الانزال . وتدخل في الحديث من جديد ليؤكد ثانية « الاخطار العظمى » التي تنطوي عليها هذه العمليات . وأشار الى ان الوضع في الحرب الجوية لا يمكن ان يتحسن قبل المواعيد المقررة بين الرابع والعشرين والسابع والعشرين من ايلول للنزول ، ولهذا فمن الواجب التخلي عن الانزال حتى الفترة الواقعة بين الثامن والرابع والعشرين من تشرين الاول » .

ولم يكن هذا القول يعني سوى إلغاء الغزو كلية ، وهو ما أدركه هتلرعندما أصدر امره بأنه سيؤجل قراره النهائي في موضوع النزول الى البر حتى السابع والعشرين من ايلول . وإذا كان النزول متعذراً في الموعد الجديد ، فسيفكر بعد ذلك في مواعيد شهر تشرين الاول المقترحة . وصدر على الاثر توجيه من القيادة العليا هذا نصه :

برلين — ١٤ ايلول ١٩٤٠

سري للغاية

« قرر الفوهرر ما يلي :

« يؤجل البدء بعملية أسد البحر مرة ثانية . وسيصدر أمر جديد بعد السابع عشر من ايلول . يجب المضي في كافة

الاستعدادات .

« يجب المضي في الهجمات الجوية على لندن كما يجب توسيع منطقة الهدف لتشمل المؤسسات العسكرية وغيرها كمحطات السكة الحديدية .

« ويحتفظ بالهجمات الإرهابية ضد مناطق السكن المجردة للاستعمال كوسيلة نهائية للضغط » [١] .

وهكذا على الرغم من ان هتلر قرر تأجيل اتخاذ القرار في موضوع الغزو ثلاثة ايام أخرى إلا أنه لم يعدل عنه نهائياً . فهو يريد ان يمنح السلاح الجوي الألماني فرصة بضعة ايام اخرى للقضاء على السلاح الجوي البريطاني ولإضعاف مدينة لندن ، حتى يتمكن من تحقيق حركة الانزال التي ستضمن له النصر النهائي. وهكذا بات كل شيء يعتمد من جديد على قوة غورنغ الجوية التي كثر التباهي بها . وستقوم بأعظم جهدٍ لها في اليوم التالي .

وأخذ رأي الاسطول في السلاح الجوي يسوء ساعة بعد أخرى فقد روت هيئة اركان حرب الأسطول الالماني عشية الاجتماع الخطير الذي عقد في برلين ان غارات عنيفة قام بها السلاح الجوي الملكي على موانىء الغزو الممتدة من انتويرب الى بولون . ومضت الرواية تقول :

« وقعت خسائر كبيرة في انتويرب في سفن النقل ، إذ أصيبت خمس منها كانت راسية في الميناء بأضرار بالغة ، وأغرق أحد الزوارق ، واغرقت سفينتان رافعتان ، ونسف قطار للذخيرة ، واشتعلت النيران في عدد من الاكواخ » .

وكان الوضع في الليلة التالية أشد سوءاً ، فقد روت البحرية « وقوع غارات جوية معادية قوية على جميع أرجاء المنطقة الساحلية الممتدة على الهافر الى انتويرب». وبعث البحارة باشارة استغاثة يطلبون المزيد من الحماية لموانىء الغزو من

---

١ ـ مؤتمرات هتلر في الشؤون البحرية (١٩٤٠) ص ١٠٠ ـ ١٠١ .

الطائرات المعادية . وروت هيئة أركان حرب البحرية في السابع عشر من ايلول ما يلي :

« لم يهزم السلاح الجوي الملكي بعد . بل على النقيض يبدي هذا السلاح المزيد من النشاط في غاراته على موانىء القناة ، ومن عرقلته لحركات تجمعنا [1] » .

وكان القمر بدراً في تلك الليلة واستغلت القاذفات البريطانية هذا الوضع اكبر استغلال . وروت هيئة اركان حرب الاسطول وقوع « خسائر بالغة » البواخر ، التي اكتظت بها موانىء الغزو الآن . وأغرق أو دمّر اربعة وثمانون قارباً في دنكرك ، ونقل الاسطول وقوع اضرار بالغة على طول الساحل الممتد من شربورغ الى « دين هولدر » اشتملت على نسف مخزن للذخيرة سعته خمسمائة طن ، والتهاب النيران في مستودع للمؤن ، واحراق أو إغراق عدد من البواخر وزوارق الطوربيد ووقوع اصابات كثيرة بين عدد ضخم من الناس . وأضاف أركان حرب المحرية ان هذا القصف الجوي العنيف بالاضافة الى الضرب الشديد من المدافع القائمة عبر القناة الانكليزية قد حتما ضرورة تشتيت شمل السفن الحربية وبواخر النقل المحتشدة على القناة ووقف أية حركة جديدة باتجاه موانىء الغزو.

---

١ – يوميات اركان حرب الاسطول الحربية – ويتلي – ص ٨٨ . ويقول مصدر المانى ان القاذفات البريطانية فاجأت في السادس عشر من ايلول ، جماعة المانية ضخمة يجري تدريبها على اعمال الغزو ، وأوقعت فيها خسائر بالغة في الرجال وفي مراكب الانزال . وادت هذه الانباء الى انتشار القول في المانيا وفي اماكن اخرى من القارة الاوروبية بأن الالمان قد حاولوا الانزال فعلا وان البريطانيين قد صدوهم (جورج فويشتر «الغارات الجوية» ص ١٧٦) وسمعت مثل هذه الرواية في جنيف في السادس عشر من ايلول ، حيث كنت اقضي اجازة بضعة ايام في ربوع سويسرا . ورأيت في الثامن عشر من ايلول وفي اليوم الذي تلاه قطاري اسعاف طويلين يفرغان محمولهما من الجنود الجرحى في ضواحي برلين . وتبينت من طريقة اربطة الجرحى، ان معظم جراحهم كانت نتيجة الحرق. ولم يكن هناك اي قتال فعلي على البر منذ ثلاثة اشهر.

وسجلت اوراق البحرية الالمانية السرية بتاريخ الواحد والعشرين من ايلول ان احدى وعشرين باخرة نقل وان ٢١٤ زورقا اي ما يعادل ١٢ في المائة من مجموع القوات التي تم جمعها للغزو قد فقدت او اصيبت بأضرار (مؤتمرات هتلر في الشؤون البحرية ص ١٠٢) .

ومضوا يقولون :

« وإذا لم نقم بذلك ، فإن أي عمل ينطوي على الحيوية والفعالية سيؤدي الى وقوع اصابات تجعل من المتعذر القيام بتنفيذ العملية على النطاق الذي سبق تحديده وتصوره » [1] .

ولكن هذا التعذر أصبح حقيقة واقعة . فهناك إشارة موجزة في يوميات الحرب البحرية الالمانية بتاريخ السابع عشر من ايلول تقول :

« لم نهزم سلاح العدو الجوي حتى الآن بأي حال من الاحوال . انه يظهر على النقيض من ذلك المزيد من النشاط . ولا تسمح لنا أحوال الطقس بتوقع فترة من الهدوء . ولهـذا فقد قرر الفوهرر تأجيل عملية أسد البحر الى أجل غير مسمى [2] .

وهكذا مني هتلر بالفشل لأول مرة بعد هذه السنوات الطويلة من النجاح المنقطع النظير . وظل الادعاء قائماً لمدة شهر آخر ، بأن الغزو قد يقع في ذلك الخريف ، ولكن هذا الادعاء كان أشبه ما يكون بأحلام النهـار . وأصدر الفوهرر أمره رسمياً في التاسع عشر من ايلول ، بوقف أي تجمع جديد لأسطول الغزو ، وبتفريق البواخر المحتشدة في موانىء الغزو « لتقليل الخسارة الناجمة في الحمولة الملاحية من جراء غارات العدو الجوية الى أدنى حد ممكن » .

وكان من المستحيل حتى الحفاظ على أسطول ضخم موزع وعلى جميع القوات والمدافع والدبابات والمؤن التي تم تجميعها لعبور القناة للقيام بغزو اتخذ القرار بتأجيله الى أمد غير مسمى . وقال هولدر في يومياته بتاريخ الثامن والعشرين من ايلول : « ان التسويف المستمر في وجود عملية أسد البحر أصبح امراً لا يطاق » . ولاحظ شيانو في يومياته التي كتبها بعد ان اجتمع موسوليني الى الفوهرر في ممر بريز في الرابع من تشرين الأول ، انه « لم يعد هناك حديث عن غزو الجزر

---

١ ـ يوميات اركان حرب الاسطول الحربية ١٨ ايلول ـ ويتلي .
٢ ـ مؤتمرات هتلر في الشؤون البحرية (١٩٤٠) ص ١٠١ .

البريطانية » . وأدت النكسة التي مني بهـا هتلر ، الى اشراق مزاج شريكه موسوليني ، وانشراحه بشكل لم يعرفه منذ مدة طويلة . ومضى شيانو يقول في يومياته : « لم يسبق لي ان رأيت الدوتشي في مثل هذا المزاج المرح .. الذي رأيته فيه اليوم في اجتماع برينر » [1] .

وكان الاسطول والجيش يلحفان في غضون ذلك على الفوهرر بوجوب اتخاذ القرار الفصل في إلغاء عملية أسد البحر إلغاءً كاملاً . وبيّنت له هيئة أركان حرب الجيش ان الاحتفاظ بهذه القوات على سواحل القناة « يؤدي نتيجة تعرضها للغارات الجوية البريطانية الدائمة الى اصابات مستمرة » .

واعترف سيد الحرب النازي أخيراً في الثاني عشر من تشرين الأول بفشله بصورة رسمية ، وأمر بتأجيل الغزو حتى الربيـع التالي إذا تقرر آنذاك القيام به . وصدر التوجيه الرسمي بذلك على النحو التالي :

مقر قيادة الفوهرر
في ١٢ تشرين الأول عام ١٩٤٠

سري للغـــاية

« قرر الفوهرر استمرار التأهب منذ اليوم حتى الربيـع القادم « لعملية أسدالبحر » بقصد الحفاظ على الضغط العسكري والسياسي الموجه الى انكلترا ليس إلا .

« وإذا تقررت إعـادة النظر في الغزو في الربيـع أو في مطلع صيف عام ١٩٤١ ، فستصدر الأوامر بتجديد التأهب العملي لذلك فيما بعد ... »

---

١ ـ يوميات شيانو ص ٢٩٨ .

وصدر الأمر الى الجيش بتسريح تشكيلاته المعدة « لأسد البحر للقيام بواجبات أخرى أو لتوزيعها على جبهات ثانية ».وصدرت التعليمات الى الأسطول، باتخاذ جميع الاجراءات لتسريح الرجال والسفن » . ولكنه اشترط على فرعي القوات المسلحة ان تقوما بتنفيذ هذه التعليمات سراً وتحت ستار من التغطية . وأضاف هتلر في اشتراطه « وعلى البريطانيين ان يواصلوا الاعتقاد بأننا نعد العدة لهجوم على جبهة واحدة » [1] .

ترى ما الذي حدث حتى اضطر أدولف هتلر الى التسليم اخيراً ؟ .

لقد حدث أمران ، أولاهما سير المعركة القدرية في سماء بريطانيا ، وثانيهما انتقال أفكاره من جديد باتجاه الشرق الى روسيا .

معركة بريطانيا

وجه غورنغ هجومه الجوي العظيم على بريطانيا في عملية «النسر » ابتداء من الخامس عشر من شهر آب ، وقد هدف من هجومه هذا الى اخراج القوة الجوية البريطانية من الأجواء وتحقيق الشرط الوحيد الذي يتوقف عليه الغزو . ولم يكن مشير الرايخ البدين يشك مطلقاً في النصر . وكان في منتصف شهر تموز على ثقة من ان في وسعه ان يحطم خطوط بريطانيا الدفاعية في الجو في جنوب انكلترا في غضون أربعة أيام عن طريق هجوم شامل ، ممهداً الطريق بذلك الى غزوها . وقال غورنغ لقيادة الجيش العامة ان تحطيم السلاح الجوي الملكي كلية يتطلب وقتاً أطول يتراوح بين الأسبوعين والأربعة أسابيع [2] . واعتقد قائد القوة الجوية الالمانية الذي تملأ الأوسمة صدره ، ان السلاح الجوي الألماني وحده ،

---

١ ـ مؤتمرات هتلر في الشؤون البحرية ١٩٤٠ ص ١٠٣ .

٢ ـ المقدم فون هيسلر ـ كتاب « دراسات عن الحرب الجوية ـ الجزء الثاني ـ الحرب الجوية ضد بريطانيا » اقتبس منه ويتلي في ص ٥٩ .

قادر على اجبار بريطانيا على الجثو أمام المانيا ، وان من المحتمل ان لا تحتاج هذه إلى غزو تلك بقواتها البرية .

وكانت لدى غورنغ لتحقيق هذا الهدف ثلاثة أساطيل جوية أولها الاسطول رقم (٢) بقيادة المشير كيسلرنغ ويعمل من قواعده في البلاد المنخفضة وشمال فرنسا والاسطول رقم (٣) بقيادة المشير سبيرل ويعمل من قواعده في فرنسا والاسطول رقم (٥) بقيادة الفريق شتومبف ويعمل من قواعده في النروج والدانمارك وكان الاسطولان الأولان يملكان (٩٢٩) طائرة محاربة و (٨٧٥) طائرة قاذفة و (٣١٦) طائرة منقضة ، بينما كان الاسطول الاخير أصغر حجماً ويشمل (١٢٣) قاذفة و (٣٤) طائرة محاربة من ذات المحركين من طراز مسر شميت (١١٠) ، وتواجه هذه القوة الجبارة السلاح الجوي الملكي ، الذي كان يملك للدفاع عن البلاد كلها في مستهل شهر آب طائرات يتراوح عددها بين السبعمائة والثمانمائة طائرة محاربة .

وقضى السلاح الجوي الالماني طيلة شهر تموز يزيد تدريجياً في غاراته على الملاحة البريطانية في القناة وعلى موانىء بريطانيا الجنوبية . وكانت هذه العملية مجرد محاولة لجس النبض ، وعلى الرغم من ضرورة تطهير المياه الضيقة من البواخر البريطانية قبل ان يبدأ الغزو ، إلا ان الهدف الأساسي من هذه الهجمات الجوية الأولية ، كان اجتذاب الطائرات البريطانية المقاتلة الى المعركة واغرائها بالقتال . وقد فشل الالمان في تحقيق هذا الهدف . ورفضت قيادة السلاح الجوي الملكي ، دهاء منها ومكراً ، ان تدفع الى المعركة بأكثر من جزء صغير من مقاتلاتها ، وكانت النتيجة الحاق أفدح الأضرار بالملاحة وببعض الموانىء . وأغرق الالمان أربع مدمرات وثماني عشرة باخرة تجارية ، ولكن هذه المعارك التمهيدية كلفت السلاح الجوي الالماني ٢٩٦ طائرة حطمت و ١٣٥ اخرى اصيبت بأضرار . ولم يفقد السلاح الملكي اكثر من ١٤٨ طائرة مقاتلة .

وأصدر غورنغ في الثاني عشر من آب امره بشن عمليه « النسر » في اليوم التالي . واستهل السلاح الجوي الالماني هذه العملية في نفس اليوم بغارات عنيفة على محطات الرادار البريطانية فأصاب خمساً منها بأضرار وأطار واحدة أخرى

من الوجود ، ولكن الالمان لم يكونوا قد أدركوا في هذا الوقت الأهمية الحيوية للرادار في الدفاع البريطاني ، ولذا لم يتابعوا هجومهم على هذه المحطات . وزج الالمان في الثالث عشر والرابع عشر بألف وخمسمائة طائرة في القتال ، ركزت هجومها على مطارات الطائرات البريطانية المقاتلة ، وعلى الرغم من انهم ادعوا تدمير خمس منها تدميراً كاملاً ، إلا ان الاضرار كانت في الحقيقة طفيفة ولا تستحق الذكر ، وخسر سلاحهم الجوي سبعاً واربعين طائرة مقابل ثلاث عشرة طائرة بريطانية [١].

وشهد الخامس عشر من آب أولى المعارك العظيمة في الجو . فقد قذف الالمان بالقسم الاكبر من طائرات اساطيلهم الثلاث وبلغ عدد الطائرات التي قذفوا بها في المعركة (٨٠١) طائرة قاذفة و (١١٤٩) طائرة محاربة . وواجه الاسطول الخامس العامل من القواعد الاسكندينافية ، الكارثة . وكان الالمان بعد ان زجوا بثمانمائة طائرة في الهجوم الضخم على الساحل الجنوبي الشرقي لانكلترا ، قد تصوروا ان السواحل الشمالية الشرقية قد خلت من أية طائرات دفاعية . وراحوا يبعثون بمائة قاذفة تحرسها أربع وثلاثون محاربة من ذوات المحركين من طائرات مسر شميت (١١٠) لمهاجمة ساحل « التاينسايد » ، ففوجئت بسبعة أسراب من طائرات « الهاريكين » و « السبيتفاير » تخرج لملاقاتها لتحطمها . وخسر الالمان نحواً من ثلاثين طائرة معظمها من القاذفات دون ان يخسر المدافعون طائرة واحدة . وسجل هذا الانتصار نهاية اشتراك الاسطول الخامس في معركة بريطانيا ، إذ لم يعد الى الهجوم ابداً بعد هذه الكارثة .

وكان الالمان أحسن حظاً واكثر نجاحاً في ذلك اليوم في جنوب انكلترا ، وقد شنوا أربع هجمات كثيفة تمكنت أحداها من التوغل والنفاذ الى سماء لندن

---

١ ـ ادعى الالمان انهم حطموا ١٢٤ طائرة بريطانية مقابل ٣٤ طائرة خسروها . وشرع الفريقان منذ هذا التاريخ يبالغان مبالغة كبيرة في تقدير ما ينزله الواحد منهما بالآخر .

تقريباً . وتمكنوا من اصابة أربع مصانع للطائرات في كرويدن وتدمير خمسة مطارات للطائرات المحاربة . وخسر الالمان في المعركة كلها خمساً وسبعين طائرة مقابل أربع وثلاثين خسرها السلاح الملكي [1] . وعلى الرغم من تفوق الالمان العددي فإن هذه النسبة في هـــذه الخسائر كانت كافية لاحباط خطة المانيا في إخراج السلاح الجوي البريطاني من أجواء المعركة .

وهنا اقترف غورنغ أول خطأ من خطئيه التعبويين (التكتيكيين) الكبيرين . فقد استندت قيادة الطائرات البريطانية المقاتلة ، في الزج بطائراتها في المعركة ضد قوات تفوقها عدداً ، على براعتها في استخدام الرادار . فمنذ اللحظة التي كانت الطائرات الالمانية تغادر قواعدها في أوروبا الغربية ، كانت تظهر على شاشات الرادار البريطانية ، وكانت قيادة الطائرات المقاتلة البريطانية تتابع بدقة سيرها ، وتقرر المكان الذي يجب ان تهاجمها فيه والزمن الذي يجب أن يقع فيـــه الهجوم . وكان (الرادار) شيئاً جديداً في الحرب ، وقد ادهش الالمان الذين كانوا متخلفين كثيراً عن البريطانيين في تطوير هذا الاختراع الالكتروني . وقد شهد ادولف غالاند ، الطيار الالماني المشهور ، أمام محكمة نورمبرغ فيما بعد قائلاً :

« وأدركنا ان ثمة طريقة لتوجيه أسراب الطائرات البريطانية المقاتلة من الارض ، وان هذه الطريقة جديدة علينا ، إذ كنا نسمع الاوامر الصادرة بوضوح وهي توجـــه طائرات السبيتفاير ، و « الهاريكين » توجيهاً بارعاً ودقيقاً نحو التشكيلات الالمانية ... وكان هذا الرادار وتوجيه المقاتلات مفاجأة وأي مفاجأة مؤلمة لنا » [2] .

---

١ ــ ذكر البلاغ الرسمي الذي صدر في لندن في ذلك المساء ان ١٨٢ طـائرة المانية قد اسقطت وان ٤٣ أخرى يعتقد انها دمرت . وقد ادى هــذا البلاغ الى الرفــع من معنويات الشعب البريطاني عامة ومعنويات طياري المقاتلات المجهدين بصورة خاصة .

٢ ــ ادولف غالاند ــ الاول والاخير ص ٢٦ . وكذلك من استجواب غالاند الذي اقتبسه ويلموت في الصفحة ٤٤ من كتاب « معركة اوروبا » .

ومع ذلك ، لم يواصل الالمان هجومهم على محطات الرادار البريطانية ، وهو الهجوم الذي دمر الكثير في الثاني عشر من آب ، وسرعان ما اصدر غورنغ في الخامس عشر منه أمره بوقف هذا الهجوم كلية بعد ان مني بنكسته الرئيسية الأولى قائلاً : « انني اشك كل الشك فيما اذا كان ثمة فائدة من استمرار هذه الهجمات على محطات الرادار ، لا سيما وان اياً من هذه المحطات التي هوجمت لم تتوقف عن العمل » .

وكان ثمة مفتاح آخر لنجاح الدفاع عن أجواء جنوب انكلترا ، وهو وجود محطات « قطاعية » . وكانت هذه المحطات العصب الحساس الذي يوجه طائرات الهاريكين والسبيتفاير بواسطة الهواتف اللاسلكية ، الى المعركة على اساس آخر الانباء التي تلقاها من اجهزة الرادار ، ومن محطات المراقبة الارضية والطيارين في الهواء . ويقول غالاند ، انه كان في وسع الطيارين الألمان ان يسمعوا هذه التمتمة المستمرة على أمواج الاثير بين المحطات القطاعية ، وبدأو يفهمون اخيراً اهمية هذه المراكز الارضية للمراقبة . وحوّلوا خططهم في الرابع والعشرين من آب الى تدمير هذه المحطات ، التي كان سبع منها يقوم في المطارات التي تحيط بلندن وهي مهمة كل الاهمية لحماية العاصمة نفسها وجنوب انكلترا بكامله . وكان هذا التحول ضربة وجهت الى الاجزاء الحيوية في دفاع بريطانيا الجوي .

وكان سير المعركة حتى ذلك اليوم ، يبدو ضد مصلحة السلاح الجوي الألماني . ففي السابع عشر من آب خسر الألمان احدى وسبعين طائرة مقابل سبع وعشرين طائرة بريطانية . وبرهنت طائرة الانقضاض البطيئة من طراز « شتوكا » التي ساعدت كثيراً في تمهيد الطريق امام انتصارات الجيش الألماني في بولندة والجبهة الغربية على انها فريسة سهلة للمقاتلات البريطانية ، فأمر غورنغ في ذلك اليوم ، أي السابع عشر من آب بسحبها من المعركة ، مما أدى الى هبوط قوة القاذفات بنسبة الثلث تقريباً . وحدثت فترة هدوء في الجو بين التاسع عشر والثالث والعشرين من آب بسبب رداءة الطقس . وأعاد غورنغ

درسه للوضع في مقره الريفي « كارينهول » القريب من برلين ، في التاسع عشر من آب فأصدر أمره بتركيز الهجوم فور تحسن الطقس على السلاح الجوي الملكي.

وراح يعلن قائلاً : « لقد وصلنا الفترة الحاسمة في الحرب الجوية ضد انكلترا ومهمتنا الحيوية هي هزم قوة العدو الجوية . وسيكون هدفنا الأول تحطيم طائرات العدو المحاربة »[1] .

وبعث الألمان بين الرابع والعشرين من آب والسادس من ايلول بنحو من الف طائرة في كل يوم لتحقيق هذه الغاية . وكان مشير الرايخ مصيباً للمرة الاولى في حياته . أجل لقد دخلت بريطانيا في مرحلتها الحاسمة . اذ على الرغم من القتال الباسل الذي خاضه طيارو السلاح الملكي ، الذين أجهدتهم كثرة الطيران مدة شهر كامل ، إلا ان تفوق الالمان الهائل في العدد ، بدأ يترك أثره . فقد تمكن الالمان من تدمير خمسة من مطارات الطائرات المقاتلة في جنوب انكلترا تدميراً كاملاً ، ولعل ما هو اسوأ من ذلك ، انهم قذفوا بقنابلهم ستاً من المحطات القطاعية السبع قذفاً عنيفاً ، وبدا أن جهاز المواصلات كله على وشك الانهيار . وكان مثل هذا الاحتمال يهدد بريطانيا بكارثة عنيفة .

ولعل ماهو اسوأ من هذا ، ان النتائج بدأت تؤثر على القوة الدفاعية المقاتلة للسلاح الجوي الملكي . ففي فترة الاسبوعين الحرجين بين الثالث والعشرين من آب وبين السادس من ايلول خسر البريطانيون ٤٦٦ طائرة مقاتلة اما تحطمت أو دمّرت أسوأ تدمير ، وكانت خسائر السلاح الجوي الألماني أقل من ذلك . وان لم يعرف البريطانيون بها ، اذ بلغت ٣٨٥ طائرة منها (٢١٤) طائرة مقاتلة و (١٣٨) قاذفة . يضاف الى هذا ان السلاح الجوي البريطاني خسر (١٠٣) من الطيارين قتلوا و (١٢٨) اصيبوا بجراح خطيرة . ويمثل هذا الرقم ربع ما لدى البريطانيين من طيارين .

وكتب تشرشل فيما بعد يقول : « وبدأت كفة الميزان تتجه ضد قيادة

---

١ ـ سجلات سلاح الجو الالماني ـ ويتلي ص ٧٣ .

الطائرات البريطانية المقاتلة ... وأخذنا نحس بقلق زائد » . ولو استمر الوضع على هذا النحو عدة اسابيع اخرى ، فإن بريطانيا كانت ستصبح حتماً دون أي دفاع منظم عن اجوائها . وكان من المحتوم نجاح الغزو للجزر البريطانية .

وهنا وقع غورنغ في خطئه التعبوي الثاني ، وبصورة مفاجئة . وكان هذا الخطأ مماثلاً في نتائجه الوخيمة للخطأ الذي وقع فيه هتلر عندما أوقف هجومه المدرع على دنكرك في الرابع والعشرين من ايار . وأدى الى انقاذ السلاح الجوي الملكي الذي بدأ في الترنح وأصبح على وشك الانهيار ، ومثل نقطة تحول رئيسية في تاريخ أولى المعارك الجوية العظيمة .

فبعد ان تحمل سلاح بريطانيا في الطائرات المقاتلة الدفاعيـــة هذه الخسائر الضخمة في الجو وعلى الارض ، والتي لم يكن في وسعه احتمالها أمداً طويلاً ، تحول السلاح الجوي الالماني في السابع من ايلول الى القصف الليلي الشامل لمدينة لندن. وهكذا نجحت مقاتلات السلاح الجوي الملكي من خطر أكيد .

ترى ما الذي حدث في المعسكر الالماني ، مما أدى الى هذا التحول في الاساليب التعبوية ، وهو التحول الذي قدر له ان يكون مفجعاً بالنسبة لمطامح هتـــلر وغورنغ ؟ ان الرد على هذا السؤال مشحون بالسخرية والهزء .

ولنبدأ الرد فنقول ، انه وقع خطأ ملاحي طفيف من نحو عشر من القاذفات الالمانية ليلة الثالث والعشرين من آب . فقد عهد الى هذه الطائرات بالقاء محمولها من القنابل على مصانع الطائرات ومستودعات الزيت في ضواحي لندن ، ولكنها ضلت طريقها وألقت قنابلها في وسط العاصمة ، ناسفة عدداً من البيوت ، وقاتلة عدداً من المدنيين . وخيل الى البريطانيين ان الغارة على هذا النحو كانت مقصودة فسارعوا الى الثأر من برلين في الليلة التالية .

ولم تكن الغارة ناجحة . فقد غطت سحابة كثيفة من الضباب سماء برلين في تلك الليلة ، ولم تتمكن إلا نصف الطائرات البريطانية الإحدى والثمانين التي عهد اليها بالقيام بهذه الغارة من الوصول الى هدفها . وهكذا كان الضرر الذي لحق بالعاصمة الالمانية طفيفاً ، ولكن اثر الغارة على معنويات الالمان كان هائلاً . اذ

كانت هذه هي المرة الأولى التي تسقط فيها القنابل على برلين. ودوّنت في يومياتي في اليوم التالي ، السادس والعشرين من آب أقول :

« أصيب البرلينيون بشيء من الذهول . ولم يكونوا يتصورون ان شيئاً من هذا قد يحدث فعندما بدأت الحرب ، أكد لهم غورنغ ان شيئاً من هذا لن يقع مطلقاً.. وقد صدقوه حتماً . ولا ريب في ان خيبة أملهم اكبر مما يتصور المرء .وكان على المرء ان يرى وجوههم ليقدر هول ما أصابهم » .

وكان الدفاع عن برلين قوياً ،اذ تحرسها حلقتان من المدافع المضادة للطائرات ، وبينما كانت القاذفات الزائرة تحلق فوقها اكثر من ثلاث ساعات ، وأزيزها يسمع من وراء السحب التي حالت بين مئات الأضواء الكشافة. وبين تمييز الطائرات المغيرة ، كان صوت القنابل المضادة للطائرات من أشد ما سمعت في حياتي. ولكن لم تتمكن اجهزة الدفاع من اسقاط طائرة واحدة . وقذف الطيارون البريطان بعدد من المنشورات التي تقول بأن « الحرب التي بدأها هتلر ستستمر ، وستطول ماطالت حياة هتلر » . وكانت هذه الدعاية ناجحة طبعاً ولكن صوت انفجار القنابل كان اكثر نجاحاً .

ووصلت طائرات السلاح الجوي الملكي باعداد اكبر ليلة الثامن والعشرين – التاسع والعشرين من آب . وقد دوّنت في يومياتي « ان هـذه الطائرات قتلت الالمان لأول مرة في عاصمة الرايخ » . وكان عدد الضحايا الذي ذكرته المصادر الرسمية عشرة من القتلى وتسعة وعشرين جريحاً . وثار العظماء النازيون وهاجوا وماجوا . وراح غوبلز الذي كان قد اصدر اوامره الى الصحافة بألاّ تنشر الا بضعة اسطر عن الغارة الأولى ، يأمرها الآن بأن تصرخ بأعلى صوتها حاملة على « وحشية » الطيارين البريطانيين الذين يهاجمون السكان العزّل من نساء برلين واطفالها . وحملت معظم صحف العاصمة نفس العنـــاوين الضخمة : (الهجوم البريطاني الجبان) وعادت الصحف بعد ليلتين عندما وقعت الغارة الثالثة تحمل العنوان التالي (قراصنة الجو البريطانيون فوق برلين) . ودونت في يوميـــاتي

بتاريخ الأول من ايلول أقول :

« كان الأثر الرئيسي بعد اسبوع من الغارات الليلية البريطانية المستمرة ، نشر خيبة الأمل بين أفراد الشعب ، وبذر الشكوك في نفوسهم ... وليس ثمة من ريب في ان القصف الجوي ، لم يكن في الحقيقة قتالاً » .

وكان الأول من ايلول ، موعد الذكرى الأولى لنشوب الحرب . ولاحظت حالة الناس ، وأوضاعهم المزاجية ، بالاضافة الى اعصابهم المرهقة من جرّاء حرمانهم من النوم وتعرضهم للارهاب من الغارات المفاجئة ، وأزيز القنابل المضادة المرعب ، ودوّنت في يومياتي أقول :

« وقد تمكن السلاح الالماني في هذه السنة من تحقيق انتصارات لا مثيل لها حتى في التاريخ العسكري الرائع لهذا الشعب المحارب والمعتدي . ومع ذلك لم تنته الحرب ، ولم يكن الانتصار نتيجتها . وعلى هذه الناحية تتركز عقول الناس اليوم . انهم يتوقفون الى السلام . وهم يريدون ان يحصلوا عليه قبل حلول الشتاء » .

وأحس هتلر بأن من الضروري ان يخطبهم في الرابع من ايلول بمناسبة افتتاح حملة الشتاء في الميدان الرياضي . وقد احتفظ بسرية حضوره هناك حتى اللحظة الأخيرة ، مخافة ان تنتهز طائرات العدو فرصة وجود الغيوم وتفرّق الاجتماع بغاراتها على الرغم من انه وقع في ساعات بعد الظهيرة المتأخرة ، قبيل الغسق .

ولم يسبق لي ان رأيت الديكتاتور النازي في مثل هذا المزاج الساخر ، أو ما يسميه الألمان بالميل الى النكتة ، الا نادراً ، مع العلم بأن هتلر كان في العادة رجلاً لايعرف الا الجد . وقد اطلق على تشرشل اسم «المراسل الحربي البارز ». وعندما اشار الى دف كوبر قال ان (ليست ثمة كلمة في اللغة الألمانية المعروفة يمكن اطلاقها عليه . ولكن لدى البافاريين كلمة يصح اطلاقها على هذا الطراز من الرجال وهي كلمة (Krampfhenne) التي يمكن ترجمتها (بالدجاجة العجوز الشديدة العصبية) . ثم مضى يقول :

« ولا يعني هذر المستر تشرشل أو المستر ايدن ، ويمنعني الحياء من الشيخوخة ان اذكر المستر تشمبرلين معهما ، أي شيء للشعب الألماني . ولعل خير ما يمكن قوله : هو ان هذا الهذر يضحكنا».

ومضى هتلر بعد ذلك يثير ضحك سامعيه ومعظمهم من الممرضات وموظفي الخدمات الاجتماعية ، لينطلقوا بعد ذلك مصفقين هازجين بشيء من الهستيرية . وقد واجه مشكلة الرد على سؤالين يحتلان افكارالشعب الألماني وأولهما متى يقع غزو بريطانيا وماذا ستعمل الحكومة بصدد القصف الليلي لبرلين وغيرها من المدن الالمانية ، فتحدث عن السؤال قائلاً :

« ان الفضول يجتاح الشعب الانكليزي الذي يواصل السؤال .. ترى لماذا لايقع ؟ » . اهدأوا . اهدأوا ، ان الغزو واقع . ان الغزو واقع ! »

وقد وجد سامعوه هذا التعبير مضحكاً ، ولكنهم اعتقدوا على اية حال بأن هذا العهد باتٌ قاطعٌ . واشار الى القصف البريطاني لبرلين ، فبدأ حديثه بشيء من المغالطة وانتهى الى شيء من التهديد العنيف ثم قال :

« ان المستر تشرشل يعرض الآن الطفل الجديد الذي ابتكرته افكاره وهو الغارات الجوية الليلة . ويقوم المستر تشرشل بتنفيذ هذه الغارات لا لأنها تأتي له بنتائج فعالة ، بل لأن السلاح الجوي البريطاني لا يستطيع ان يطير في سماء المانيا في وضح النهار ... بينما تحلق الطائرات الألمانية فوق الارض الانكليزية في كل يوم ... وعندما يجد الطيار الانكليزي ضوءاً يقذف بقنبلته ....لايهمه أنى تقع .. هل تقع على المناطق الآهلة بالسكان أو المزارع أو القرى » .

وانتقل بعد ذلك الى التهديد فقال :

« وظللت ثلاثة اشهر لا ارد على هذه الغارات ، اذ انني كنت اعتقد ان مثل هذا الجنون سيتوقف . وقد اعتبر المستر تشرشل سكوتي علامة ضعف وها نحن نرد الآن ليلة مقابل ليلة .

« وعندما يلقي السلاح الجوي البريطاني ، الفين أو ثلاثة آلاف أو اربعة آلاف من الكيلوغرامات من القنابل، فسنلقي نحن (١٥٠) الفاً أو (٢٣٠) أو (٣٠٠) أو (٤٠٠) الف كيلو غرام .

وتقول يوميتي التي دونتها ، ان هتلر اضطر الى التوقف عند هذا الحد ، نتيجة الدوي الصاخب من تصفيق النساء الالمانيات المستمعات اليه وهتافهن .

ومضى هتلر يقول : (وعندما يقولون انهم سيضاعفون غاراتهم على مدننا ، فسنرد على ذلك باحالة مدنهم الى انقاض). ودوّنت هنا ان المستمعات الشابات، خرجن على اطوارهن واخذن يصفقن بجنون وخبال . وعندما توقف دوي الهتاف والتصفيق اضاف قائلاً : أجل سنقطع ايدي قراصنة الجو ، فليسا عدنا الله ويكون في عوننا) .

ودوّنت في ملاحظاتي أقول : (وعندما استمعت النساء الألمانيات الى ذلك ، قفزن على اقدامهن ، واخذت صدورهن تعلو وتهبط ، وهن يصرخن معلنات عن تأييدهن وموافقتهن) .

وأنهى هتلر خطابه قائلاً : (وسيحين الوقت عندما ينهار احد الجانبين ، وأود ان أؤكد لكم ان هذا الجانب لن يكون المانيا الاشتراكية الوطنية) . ودوّنت اخيراً ان (الفتيات الثملات بالحماس ، رحن يصرخن صرخات الفرح وهن يرددن بصوت واحد : (ابداً . ابداً . ابداً) .

وعندما استمع شيانو في رومه الى تسجيل اذاعي للخطاب بعد بضع ساعات اعترف بحيرته ودوّن قائلاً : (لاريب في ان اعصاب هتلر متوترة) [١] .

وكان هذا التوتر في اعصابه عاملاً في اتخاذ القرار القدري بتحويل غارات السلاح الجوي الألماني الظافرة في النهار على مراكز السلاح الجوي الملكي ، الى غارات ليلية ضخمة على لندن . وكان هذا القرار سياسياًبقدر ما هو عسكري، وقد اتخذ الى حد ما للثأر من غارات البريطانيين على برلين وغيرها من المدن

---

١ ـ يوميات شيانو ص ٢٩٠ .

الالمانية وهي غارات (تافهة) اذا ما قورنت بما كان السلاح الجوي الالماني يحدثه في المدن البريطانية ، كما هـــدف أيضاً الى تحطيم عزيمة البريطانيين على المقاومة باحالة عاصمتهم الى انقاض . ولو تحقق هذا الهدف ، وكان هتلر وغوبلز على ثقة من تحقيقه ، فان الغزو لايصبح امراً لازماً .

وهكذا بدأ الهجوم الجوي العظيم على لندن بعد ظهر السابع من ايلول . وقذف الألمان في هذه الغارة بستمائة وخمس وعشرين طائرة قاذفة تحرسها (٦٤٨) طائرة مقاتلة . ففي الساعة الخامسة من مساء يوم السبت ذاك ، انطلقت الموجة الأولى المؤلفة من (٣٢٠) قاذفة تحرسها جميع الطائرات الألمانية المقاتلة ، محلقة فوق نهر (التيمز) وبـــدأت تلقي قنابلها على (ترسانة) وولويتش ، وعلى محطات توليد الغاز والقوى الكهربائية والمستودعات وارصفة الميناء . وسرعان ما تحولت المنطقة الواسعة كلها الى كتلة من ألسنة اللهيب . وقد أحاطت النيران في منطقة (سيلفرتاون) بالاهلين مما اضطر السلطات الى نقلهم عن طريق النهر. ووصلت الموجة الثانية التي تضم (٢٥٠) طائرة قاذفة في الساعة الثامنة والدقيقة العاشرة مساء بعد هبوط الظلام . واستأنفت الغارة التي استمرت في موجات متعاقبة حتى الساعة الرابعة والنصف من صباح الاحد . واستؤنف الهجوم في الساعة السابعة والنصف من مساء الليلة التالية ، وقامت بها نحو من مائتي قاذفة قنابل واستمرت طيلة الليل . ويقول المؤرخ البريطاني الرسمي ان (٨٤٢)شخصاً قتلوا و (٢٤٤٧) جرحوا إبان هاتين الليلتين الأوليين ، ولحقت اضرار واسعة بالمدينة المنبسطة . [١] ومضت الغارات متلاحقة ليلة إثر أخرى طيلة الاسبوع التالي [٢] .

وركب الغرور رأس المسؤولين عن السلاح الجوي الألماني لنجاح هـــذه

---

١ ــ راجع كتاب . تي اش اوبريان « الدفاع المدني » وهو جزء من التاريخ البريطاني الرسمي للحرب كما نقحه الاستاذ جي . آر . ام ، واصدره مكتب مطبوعات الحكومة .

٢ ــ لم تكن وسائل الدفاع الليلية قد اتقنت حتى ذلك الحين ولذا كانت خسائر الالمان تافهـــة .

الغازات ، أو ما خيل اليهم انه « نجاحها » فقرروا القيام بهجوم نهاري ضخم على العاصمة المحترقة المحطمة وأدى هذا الهجوم الذي وقع يوم الأحد في الخامس عشر من ايلول الى احدى معارك الحرب الحاسمة .

فقد ظهرت في سماء القناة الانكليزية ظهر ذلك اليوم نحو من مائتي قاذفة قنابل المانية يحرسها ثلاثة اضعاف هذا العدد من الطائرات المحاربة ، وهي تتجه الى لندن . وكانت قيادة المقاتلات البريطانية قد شهدت تجميع هذه الطائرات المهاجمة على شاشات الرادار ، واستعدت للمعركة . وسرعان ما انبرت الطائرات البريطانية لقطع طريق الطائرات الألمانية قبل ان تقترب من العاصمة ، وعلى الرغم من تمكن بعضها من الوصول الى سماء العاصمة ، إلا أن معظمها قد بدد شمله أو اسقط قبل ان يتمكن من افراغ محموله من القنابل . وعادت تشكيلة ألمانية اخرى اكثر قوة بعد نحو من ساعتين ولكنها منيت بالهزيمة ايضاً . وعلى الرغم من ان البريطانيين ادعوا اسقاط (١٨٥) طائرة ألمانية إلا أن الرقم الحقيقي كما عرف بعد الحرب من سجلات برلين كان أقل من ذلك بكثير ، اذ لم تعد الطائرات التي أسقطت ستاً وخمسين بينها اربع وثلاثون قاذفة . وخسر الطيران الملكي البريطاني ستاً وعشرين طائرة ليس إلا .

واظهرت هذه المعركة ان السلاح الجوي الألماني بات عاجزاً على أي حال بعد ان اتاح لقيادة الطائرات المحاربة فترة راحة لمدة اسبوع ، عن القيام بغارات رئيسية نهارية ناجحة على بريطانيا . أما وقد تجلى هذا الوضع ، فقد بات احتمال القيام بحركة انزال فعّالة أمراً مستبعداً . وهكذا فقد مثل الخامس عشر من ايلول نقطة التحول في الحرب الجوية أو نقطة الذروة كما اسماها تشرشل فيما بعد في معركة بريطانيا . وعلى الرغم من ان غورنغ عندما أمر في اليوم التالي بتغيير أساليبه ، التي انطوت على استعمال القاذفات في وضح النهار لا لتقصف بقنابلها فحسب بل ولتكون احبولة يقصد منها خداع الطائرات المحاربة البريطانية وجرها الى المعركة ، تبجح قائلاً بأن مقاتلات العدو « لابد وان ينتهي امرها

في غضون اربعة او خمسة ايام »[1] . ولكن هتلر وقادة جيشه واسطوله كانوا اكثر فهماً للحقيقة ، ولم يمض يومان على المعركة الجوية الحاسمة أي في السابع عشر من ايلول ، حتى كان الفوهرر كما ذكرنا قد اجل عملية « اسد البحر » الى امدٍ غير مسمى .

وعلى الرغم من ان الندر شاء للندن ان تتعرض « لدك » فظيع مدة سبع وخمسين ليلة على التوالي ابتداء من السابع من ايلول الى الثالث من تشرين الثاني تقوم به نحو من مائتي قاذفة كل مرة ، مما حمل تشرشل على الاعتقاد كما قال فيما بعد ، ان المدينة ستتحول عما قريب الى ركام من الانقاض ، وعلى الرغم من ان معظم المدن البريطانية الاخرى ، وفي مقدمتها كوفنتري ، قد قضي عليها بأن تعاني ضرراً اعظم طيلة ذلك الخريف القائم والشتاء الذي تلاه ، إلا أن المعنويات البريطانية لم تصب بالانهيار ، ولم تهبط نسبة الانتاج في السلاح كما توقع هتلر بشيء من الثقة واليقين . وقد حدث العكس تماماً . فقد انتجت مصانع الطائرات في انكلترا ، وهي الهدف الرئيسي للطائرات الألمانية من الطائرات في عام ١٩٤٠ عدداً فاق ما أنتجته المصانع الألمانية اذ دفعت الى المعركة ٩٩٢٤ طائرة مقابل ٨٠٧٠ طائرة المانية . وكانت خسائر هتلر من القاذفات في سماء بريطانيا ، كبيرة الى الحد الذي استحال تعويضه ، وتشير السجلات الألمانية السرية الى ان الطيران الألماني ، لم يستفق قط من الضربة القاصمة التي تلقاها في اجواء بريطانيا في اواخر ذلك الصيف والخريف .

وكان الاسطول الألماني الذي شلته الخسائر التي مني بها في النروج في مطلع الربيع عاجزاً ، كما اعترف قادته ، طيلة الوقت عن تأمين القوة البحرية اللازمة لغزو بريطانيا . ولهذا كان الجيش الألماني ، مع افتقاره الى هذه القوة البحرية والى التفوّق الجوي ، عاجزاً عن عبور مياه القناة الانكليزية الضيقة . وهكذا ظهرت عوامل اوقفت هتلر للمرة الأولى ، وعرضت خططه الجديدة للفتح

---

١ ـ سجلات المؤتمرات التي عقدها غورنغ مع قادة سلاحه الجوي ـ وبتلي ـ ص ٨٧ .

والاحتلال الى الفشل وذلك في نفس اللحظة التي كان فيها كما رأينا من قبل واثقاً من تحقيق النصر النهائي .

ولم يكن قد فكر أو فكر غيره حتى ذلك الوقت بأن المعركة الحاسمة قد تقرّر في الهواء . ولم يكن قد أدرك بعد عندما جثم الشتاء المظلم على اوروبا بكلكله ، بأن حفنة من الطيارين المحاربين الانكليز ، قد حافظوا باحباطهم خطته للغزو ، على انكلترا كقاعدة عظيمة لإعادة تحرير القارة الاوروبية من الغرب في تاريخ لاحق . وكانت افكاره قد بدأت في الاتجاه ناحية اخرى ، بل اتجهت فعلاً الى تلك الناحية .

وهكذا نجحت بريطانيا. وكانت قد تمكنت طيلة الف عام بنجاح من الدفاع عن نفسها بقوتها البحرية . وكان بعض قادتها على الأقل ، على الرغم من كل ما ظهروا به من غباء امتلأت به صفحات هذا الكتاب ، قد ادركوا في السنوات الواقعة بين الحربين أن القوة الجوية باتت عاملاً حاسماً في أواسط القرن العشرين ، وان طائرة القتال الصغيرة وطيارها قد بات الدرع الرئيسي للدفاع عن البلاد ، ولا ريب في ان تشرشل كان صادقاً كل الصدق عندما قال لمجلس العموم ، في احدى خطبه الخالدة في العشرين من آب ، عندما كانت المعركة في الاجواء ما زالت مستمرة على اشدها ، وكانت نتيجتها لا تزال في كفة الاقدار : « لم يحدث قط في تاريخ أي صراع بشري ، ان أحسّ مثل هذا العدد الكبير من الناس ، بمثل هذا الدين الضخم ، لهذا العدد القليل من الناس ، مثل ما نشعر به جميعاً اليوم لطيارينا » .

لو نجح الغزو

لو احتل الألمان النازيون بريطانيا ، لما كان احتلالهم أمراً ينطوي على الدماثة واللطف . ولا تترك الوثائق الألمانية المصادرة أي شك في هذا . فلقد اصدر براوختش القائد العام للجيش توجيهاً في التاسع من ايلول ، ينص على

وجوب « اعتقال جميع الذكور الأصحاء ، من سكان بريطانيا الذين تتراوح اعمارهم بين السابعة عشرة والخامسة والاربعين ونقلهم الى القارة الاوروبية إلا اذ اقتضت الاوضاع المحلية استثناءات في الانظمة » . وقـــد صدرت الاوامر التنفيذية لهذا التوجيه من مدير ميرة الجيش في القيادة العامة الى قيادة الجيشين التاسع والسادس عشر اللذين كانا قد احتشدا استعداداً للقيام بالغزو . ولم يبدأ الألمان عملهم بمثل هذه الخطوة المتطرفة في عنفها ، في أي بلد محتل ، حتى ولا بولندة نفسها . وقد حملت تعليمات براوختش العنوان التالي : « أوامر عن تنظيم الحكم العسكري في انكلترا وضمان سيره » ، وتضمنت تفصيلات واقية مسهبة . ويبدو انها كانت تستهدف تأمين نهب الجزيرة البريطانية المنظم وارهاب سكانها ، وقد ألفت هيئة اركان خاصة في السابع والعشرين من تموز اطلق عليهـــا اسم « الاركان الاقتصادية الحربية لانكلترا » لتحقيق هذا الهدف الأول . وكان من المقرر ان يصادر كل شيء فوراً الا المخزونات البيتية العادية . كما تقرر نقـــل الرهائن ونصت التعليمات بتعرض كل شخص يلصق اعلاناً لا يرضى عنه الألمان ، الى عقوبة الاعدام الفوري ، كما فرضت عقوبة مماثلة على كل من يتوانى في تسليم ما لديه من اسلحة أو من اجهزة الراديو في غضون اربع وعشرين ساعة .

وعهد الى همبر وحرسه النازي بمهمة فرض الارهاب الحقيقي . وعهـــد الى جهاز « مكتب الرايخ للأمن المركزي » الرهيب بقيادة هايدريش بتولي هذه المسؤولية . [1] وكان من المقرر ان يتولى هذه العمليات في لندن عقيد في الحرس النازي يدعى « البروفسور الدكتور فرانزسيكس » ، وهو واحـــد من قطاع الطرق المثقفين المعجبين الذين استهواهم العبد النازي للعمل في شرطة هملر السرية وكان الاستاذ سيكس قد تخلى عن منصبه كعميد لكلية الاقتصاد في جامعة برلين لينضم الى مكتب هايدريش الخاص ، حيث تخصص في « القضايا العلمية » ، التي

---

١ ـ يطلق على هذا الجهاز اسم ، R.S.H.A (Reichssicherheitshauptamt)
وقد تولى كما ذكرنا من قبل ، منذ عام ١٩٣٩ الاشراف على الفستابو وعلى الشرطة الجنائية ، ومكتب الامن الخاص (S.D.) .

تلقي جوانبها الغريبة شيئاً من السحر على هنريخ همـلر ذي النظارتين وعلى الأوغاد الذين يعملون تحت امرته. وفي وسع المرء ان يحكم على ما خسره الانكليز، من عدم مجيء الدكتور سيكس الى بلادهم، من الأعمال التي قام بها فيما بعد في روسيا حيث نشط نشاطاً ملحوظاً في جماعات الحرس النازي (Ein satzgruppen) التي ابرزت نفسها في كثرة ما ارتكبته من مذابح جماعية في روسيـا، حيث انحصر تخصص الاستاذ في اكتشاف المفوضين السياسيين السوفيات من بين الاسرى لإعدامهم.[1]

وتظهر وثائق «مكتب الرايخ للأمن المركزي» المصادرة ان غورنغ ابلـغ هايدريش في الأول من آب، بأن يكون على استعداد للعمل. فقد تقرر ان تشرع شرطة الحرس النازي ورجال المكتب الخاص ...

«فوراً في العمل في نفس الوقت الذي يقع فيه الغزو العسكري، وذلك لاعتقال المنظمات المهمة العديدة ومكافحة الجمعيات الانكليزية المعادية لألمانيا».

ولعل من سخرية الأقدار ان هايدريش قد عيّن في السابع عشر من ايلول الاستاذ سيكس بصورة رسمية لتولي منصبه الجديد في انكلترا، وهو عـين التاريخ الذي اصدر هتلر أمره فيه بتأجيل الغزو الى امد غير محدود .. وقـد وجّه اليه تعليماته على النحو التالي:

«تكون مهمتك مكافحة جميع المنظمات والمؤسسات المعادية لالمانيا بجميع الوسائل اللازمة، واعتقـال جماعات المعارضة في انكلترا لتحول دون انتزاع التجهيزات الموجودة، وتركيزها وحمايتها لاستغلالها في المستقبل. وانني أقرر أن تتخذ من مدينة لندن مقراً لعملك ... واخولك أن تقيم ادارات تابعة لك في الاجزاء

---

١ ـ اصدرت محكمة نورمبرغ في عام ١٩٤٨ الحكم على الدكتور سيكس كمجرم حرب بالسجن عشرين عاما، ولكنه ما لبث ان اطلق سراحه في عام ١٩٥٢.

الاخرى من بريطانيا العظمى ، طبقاً لمقتضيات الاوضاع واملاءات الظروف » .

وكان هايدريش قد أعد فعلاً في شهر آب ست مجموعات من الحرس النازي للعمل في بريطانيا على ان تكون تابعة لقياداتها في لندن وبريستول وبرمنغهام وليفربول ومانشستر وادنبره أو غلاسجو ، اذا كان الانكليز قد نسفوا جسر فورث . وتقرر ان يعهد الى هذه المجموعات بنشر الارهاب النازي ، وأن تبدأ عملها باعتقال جميع الذين تتضمن القوائم الخاصة اسماءهم ، وهي القوائم التي كان قد أعدها بصورة مستعجلة تنطوي على الاهمال ، وولتر شيلبرغ ، وهو شاب آخر من المثقفين الجامعيين الاذكياء الذين يعملون تحت أمرة هملر ، وكان قد ولاه رئاسة مكتب الشعبة الرابعة لمكافحة التجسس في « مكتب الرايخ للامن المركزي » . وقد ادّعى ذلك شيلنبرغ نفسه ، على الرغم من انشغاله في ذلك الوقت الى حد كبير في لشبونه عاصمة البرتغال في مهمة غريبة لخطف الدوق وندسور .

ولا ريب في ان هذه القوائم الخاصة ببريطانيا التي عثر عليها بين وثائق هملر ، ممتعة للغاية ، وان لم يكن قصد هملر من الاحتفاظ بها ، ان يعثر عليها الحلفاء فيما بعد . فقد تضمنت أسماء نحو من الفين وثلاثمائة من الشخصيات البارزة في بريطانيا العظمى ، وان لم يكونوا جميعاً من الانكليز ، الذين اعتقد المسؤولون عن الفستابو ضرورة اعتقالهم فوراً . وكان اسم تشرشل طبعاً في رأس القائمة مع جميع أعضاء وزارته ، والساسة البارزين الذين يمثلون مختلف الاحزاب . وتضمنت كذلك أسماء كبار الصحفيين من رؤساء تحرير وأصحاب صحف ومراسلين وبينهم مراسلا « التايمز » السابقان في برلين نورمان ايبون ودوغلاس ريدر ، اذا كانت برقياتها قد أغضبت النازيين. ويحتل المؤلفون البريطانيون مكانة خاصة في هذه القائمة التي غاب منها اسم برناردشو مما دعا الى الاستغراب . لكنها تضمنت أسماء . اش . جي ويلز وفيرجينيا وولف ، واي.ام. فورستر ، والدوس هكسلي ، وجي . بي بريستلي ، وستيفين سبيندر ، وسي . بي سنو ،

ونويل كوارد ، وربيكاويست ، والسير فيليب غيبس ، ونورمان اينجل . ولم تستثن القائمة الاساتذه والعلماء ، اذ ضمت اسماء جيلبرت موري و برتراند راسل وهارولد لاسكي وبياتريس ديب وجي بي . اس هولدين .

وهدفت الغستابو ايضاً الى استغلال زيارتها لانكلترا لاعتقال المهاجرين اليها من المان واجانب . فقد تضمنت القوائم اسماء بادبرويسكي فرويد [1] وحايم وايزمن وبنيش رئيس جمهورية تشيكوسلوفاكيا وجانمازاريك وزير خارجيته. وتضمنت قائمة المهاجرين الالمان اسماء عدة بينها صديقينسابقين لهتلر كانا قد انقلبا عليه هما هيرمان روشنينغ وبوتزي هانفستينغل . وقد أسيئت تهجئة عدد من الأسماء الانكليزية الى الحد الذي بات من الصعب علىالقارىء ان يعرف اصحابها، كما اضيفت احياناً الى بعض الأسماء تعاريف غريبة للغاية ، وقد ورد اسم الليدي بونهام كارتر ، على النحو التالي « الليدي كارتر– بونهام » واضيفت امامها العبارة التالية : « ولدت تحت اسم فيوليت اسكويت .. وهي سيدة تعمل في التطويق السياسي » وقد حدد امــــام كل اسم ، هوية القسم الخاص من « مكتب الرايخ للأمن الداخلي » الذي سيتولى أمره . وكان من المقرر ان يعهد بأمر تشرشل الى الشعبة السادسة « التجسس الخارجي » ، بينما تتولى الشعبة الرابعة « الغستابو » أمر معظم الأسماء [2] .

وتؤلف هذه القائمة الألمانية السوداء ملحقاً تكميلياً لكتاب سري أسود آخر اطلق عليه اسم « Informationsheft » ، ادعى شيلنبرغ ايضاً انـه هو الذي وضعه ، وكانت الغاية منه كما يبدو مساعدة قوات الحلفاء علىنهب بريطانيا وتمييز المنظمات المعادية لالمانيا فيها ولا ريب في ان هذا الكتاب اكثر طرافة من القائمة السوداء . فقد تضمن بين قائمة المؤسسات الخطرة التي عددها والتي اشتملت على

---

١ ـ توفي المحلل النفسي المشهور في لندن في عام ١٩٣٩ .

٢ ـ تضمنت قائمة الذين يجب اعتقالهم عددا من الامريكيين بينهم برنارد باروخ وجون غونتر وبول روبيسون ولويس فيشر ودانييل دي لوس (مراسل الصحافة المشتركة في لندن) و م. دبليو فودور مراسل الشيكاغو ديلي نيوز المعروف بكتاباته الكثيرة المعادية للنازية .

كافة المحافل الماسونية والمنظمات اليهودية التي تستحق « عناية خاصة » من « مكتب الرايخ للأمن المركزي » ، « المدارس العامة » (وهي في انكلترا تمثل المدارس الخاصة) ، والكنيسة الانكليكانية (كنيسة انكلترا) التي وصفت بأنها « أداة قوية من أدوات السياسات الاستعمارية البريطانية » ، ومنظمة الكشافة التي نعتت بأنها « مصدر ممتاز للمعلومات لجهاز المخابرات البريطانية ». وكان من المقرر ان يعتقل قائد الكشافة الأعلى ومؤسسها اللورد بادن باول فوراً .

ولو حاول الألمان الغزو ، لما استقبلهم البريطانيون بالترحاب واللطف. وقد اعترف تشرشل نفسه فيما بعد بأنه كان يسائل نفسه ترى ما كان سيتحدث لو جرّب الالمان الغزو . ولكنه كان واثقاً من شيء واحد :

« كان حدوث المذابح أمراً واقعاً لا محالة فيه عند الفريقين ، وهي من النوع الكئيب والضخم ، وبالطبع ما كان من المحتمل ان تكون هناك رأفة أو شفقة . فالألمان كانوا سيلجأون الى الارهاب ، وكنا على استعداد أيضاً لنمضي الى ابعد الحدود في حربهم » [1]

وهو لا يحدد بالضبط ما عناه بأبعد الحدود ، ولكن بيتر فليمنغ في كتابه عن « أسد البحر » يذكر شيئاً مما عناه . فهو يقول ان البريطانيين قرروا كملجأ اخير ، اذا فشلت جميع الأساليب التقليدية الاخرى ، ان يهاجموا رؤوس الجسور الالمانية بغاز الخردل ، الذي تنشره طائرات تحلق على ارتفاع منخفض . وكان القرار مؤلماً ، وقد تطلب اتخاذه الكثير من الشجاعة الروحية على ارفع المستويات ، ويقول فليمنغ « أنه أحيط آنذاك وحتى الآن بالكثير من السرية » [2] .

ولا ريب في ان هذا الطراز الخاص من المذابح التي تكهن بها تشرشل ، والتي كانت تتوقف على اطلاق ذلك الارهاب الذي خططت له الغستابو من عقاله ، لم

---

١ ـ تشرشل ـ مذكرات ـ الجزء الثاني ٢٧٩ .

٢ ـ بيتر فليمنغ ـ عملية أسد البحر ص ٢٩٣ . كتاب رائع للغاية . **ولكن لم يسمح للمؤلف بالوصول الى الوثائق السرية .**

يقع في هذا المكان في هذا الوقت لأسباب تولينا شرحها فيما سلف . ولكن قدر لنا ان نشهد في اقل من عام واحد ، وفي مكان آخر من اوروبا ، الالمان يبعثون اهوالاً ومفازع على نطاق لم يسبق للعالم ان جرّبه من قبل .

وكان هتلر ، وحتى قبل العدول عن قراره بغزو بريطانيا ، قد توصل الى قرار آخر ، وهو ان يوجه اهتمامه الى روسيا في الربيع التالي .

ذيل المؤامرة النازية

لخطف دوق ودوقة وندسور

لعل من اطرف ما وقع في ذلك الصيف المتميز بالفتوحات الألمانية العظيمة هي القصة التي تفوق طرافتها ما فيها من اهمية ، أي قصة المؤامرة النازية لاختطاف دوق ودوقه وندسور ، ومحاولة اقناع ملك انكلترا السابق بالعمل مع هتلر في سبيل تسوية سلمية مع بريطانيا العظمى . وتتحدث وثائق وزارة الخارجية الألمانية المصادرة باسهاب عن تطور هذه الخطة الخيالية الغريبة [1] ، كما يتحدث عنها وولتر شيلنبرغ القائد الشاب من قادة الحرس النازي والمكتب الخاص ، والذي انتدب للقيام بها ، في يومياته [2] .

وقد ذكر ريبنتروب ليشيلنبرغ ، ان هتلر هو صاحب الفكرة . وقد احتضنها وزير خارجية النازي بكل ما لديه من حماس يقوده اليه جهله المعيب في الأمور ، واضطرت وزارة خارجية الرايخ وممثلوها الدبلوماتيون في اسبانيا والبرتغال الى اضاعة الوقت الطويل في تنفيذها في غضون صيف عام ١٩٤٠ الذي بلغ الذروة .

---

١ ــ وثائق وزارة الخارجية الالمانية (١٠) .

٢ ــ شيلنبرغ ــ الكهف ــ الفصل الثاني .

وكان الدوق ، الذي اشغل منصب العضوية في البعثة العسكرية البريطانية لدى القيادة العامة الفرنسية ، قد شق طريقه بعد انهيار فرنسا في حزيران عام ١٩٤٠ ، مع الدوقة الى اسبانيا لتجنب الوقوع اسيراً في ايدي الألمان . وابرق ايبرهارد فون ستوهرر ، السفير الألماني في مدريد ، وهو من الدبلوماتيين العريقين في السلك السياسي الى برلين في الثالث والعشرين من حزيران يقول :

« يطلب وزير خارجية اسبانيا رأيكم بالمعاملة التي يجب ان يقابل بها دوق ودوقة وندسور ، اذ ينتظر وصولهما الى مدريد اليوم في طريقهما الى انكلترا على الغالب عبر لشبونه . ويرى الوزير الاسباني اننا قد نرغب في استبقاء الدوق هنا وفي اجراء اتصال معه . ارجو الابراق بتعليماتكم » .

وراح ريبنتروب يبرق بتعليماته في اليوم التالي . واقترح استبقاء « الدوق والدوقة في اسبانيا مدة اسبوعين » محذراً من ان « يبدو الاقتراح صادراً عن المانيا » . ورد ستوهرر في اليوم التالي الخامس والعشرين من حزيران : « وعد وزير خارجية اسبانيا بعمل كل ما يمكن لاستبقاء وندسور هنا بعض الوقت » . واجتمع الوزير الاسباني العقيد خوان بيغبيد بريا اتيينزا الى الدوق ، ونقل ما دار بينهما من حديث الى السفير الألماني الذي راح يبلغ برلين في برقية « سرية للغاية » بتاريخ الثاني من تموز ان الدوق لن يعود الى انكلترا ، إلا اذ اعترف بزوجته كفرد من الاسرة المالكة ، وإلا اذا اعطي له منصب ذو اهمية . واضاف ان الدوق يؤثر ان لم تتحقق شروطه البقاء في اسبانيا في قصر وعدته به حكومة فرانكو واضاف السفير « ان الدوق قد اعرب لوزير خارجية اسبانيا ولغيره من معارفه ، بأنه يخالف تشرشل ، ويعارض في الحرب . »

وانتقل الدوق والدوقة الى لشبونه في مطلع شهر تموز وراح الوزير الألماني في البرتغال ، يبلغ ريبنتروب في الحادي عشر من تموز ان الدوق قد عيّن حاكما لجزر البهاما ولكنه « يعتزم تأجيل سفره اليها اطول مدة ممكنة ... أملاً منه في تحوّل في الاحداث الى مصلحته » ... ومضى الوزير الالماني يقول :

« والدوق على يقين من انه لو ظل ملكاً على انكلترا لكان في الامكان تجنب الحرب ، اذ انه يصف نفسه مؤيداً صادقاً للتسوية السلمية مع المانيا . ويعتقد الدوق اعتقاداً جازماً بـأن استمرار القصف الجوي العنيف سيجعل انكلترا ميالة الى السلام » .

وقد حملت هذه المعلومات وزير خارجية المانيا الغر ، على ان يبرق من قطاره الخاص في « فوشل » برقية « عاجلة للغاية وسرية جداًالسرية » الى السفارة الألمانية في مدريد في ساعة متأخرة من نفس الليلة في الحادي عشر من تموز ، يطلب فيها منع الدوق من السفر الى جزر البهاما ، وإعادته الى اسبانيا ، ويفضل ان تكون العودة عن طريق اصدقائه الاسبانيز . ومضى ريبنتروب يقول : « وعندما يعود الزوجان الى اسبانيا يجب اقناعهما أو ارغامهما اذا اقتضى الأمر بالبقاء في الارض الاسبانية » . وعلى اسبانيا اذا اقتضى الأمر ان تعتقله كضابط انكليزي ، وان تعامله « كلاجيء عسكري » . ومضى ريبنتروب يقول:

« ومن الواجب ابلاغ الدوق في فرصة مواتية ان المانيا تنشد السلام مع الشعب البريطاني ، وان عصابة تشرشل هي التي تقف حجر عثرة في سبيل هـذا السلام ، وان من الافضل ان يتأهب الدوق لتطورات مختلفة اخرى . فالمانيا مصممة على إرغام انكلترا على الصلح ، بكل وسيلة تحت تصرفها ، وهي عـلى استعداد في حالة حدوث ذلك ، الى تلبية كل رغبة يبديها الدوق ولا سيما اذا هدفت هذه الرغبة الى ارتقاء الدوق والدوقة عرش انكلترا . أما اذا لم يكن الدوق راغباً في العرش ، واظهر استعداداً للتعاون مع المانيا على اقامة علاقات طيبة بينها وبين انكلترا ، فإننا على اتم الاهبة ايضاً ، لنضمن له ولزوجته دخلاً محترماً يمكنهما من العيش اللائق بملك من الملوك » [1].

---

١ ـ ذكر ريبنتروب لشيلنبرغ ان الحكومة الالمانية قد وضعت مبلغ خمسين مليون فرنك سويسري ، وان « الفوهرر على استعداد ايضا لرفع هذا الرقم » .

واضاف الوزير النازي الأحمق ، الذي لم يتعلم شيئاً إبان عمله كسفير لألمانيا في لندن عن طبائع الانكليز ، بأن لديه معلومات وثيقة تشير الى ان جهاز المخابرات البريطاني يعتزم « الخلاص » من الدوق حال وصوله الى جزر البهاما .

واجتمع السفير الألماني في مدريد في اليوم التالي ، الثاني عشر من تموز الى رامون سيرانو سونر وزير داخلية اسبانيا وصهر فرانكو ، الذي وعده بحمل الجنرال الاكبر « فرانكو » على الاشتراك في المؤامرة وتنفيذ الخطة التالية . ستوفد الحكومة الاسبانية الى لشبونة صديقاً حميماً وقديماً للدوق هو ميغويل بريمودي ريفيرا ، زعيم (الفالانج) في اسبانيا ، ونجل الديكتاتور الاسباني السابق . وسيوجه ريفيرا الى الدوق الدعوة للقدوم الى اسبانيا للاشتراك في رحلة صيد ولاجراء محادثات مع الحكومة الاسبانية عن العلاقات الانكليزية - الاسبانية . وسيتولى سونر ابلاغ الدوق عن مؤامرة المخابرات البريطانية لقتله . ومضى السفير الألماني يبلغ برلين قائلاً :

« وسيعرض الوزير على الدوق والدوقة بعد ذلك قبول ضيافة اسبانيا ومساعدتها المالية ايضاً. ومن المحتمل ان يحال بين الدوق وبين السفر ايضاً بطرق اخرى . وسنظل بعيدين عن الاضواء في جميع اجزاء هذه الخطة » .

وتقول الوثائق الألمانية أن ريفيرا عاد الى مدريد من زيارته الأولى للشبونه حيث اجتمع الى الدوق والدوقة في السادس عشر من تموز ، حاملاً رسالة الى وزير خارجية اسبانيا الذي نقلها الى السفير الألماني ، فتولى هذا الابراق بها الى برلين . وقد ذكرت الرسالة ان تشرشل عين الدوق حاكماً لجزر البهاما « برسالة فاترة رسمية » ، يأمره فيها بأن يمضي الى مقر وظيفته فوراً . وقد هدد تشرشل الدوق في حالة تأخره عن الذهاب « بمحاكمته أمام محكمة عسكرية » . واضافت الرسالة ان الحكومة الاسبانية وافقت « على تحذير الدوق بسرعة من الذهاب الى جزر البهاما لتولي منصبه » .

وعاد ريفيرا الى مدريد مرة ثانية من لشبونه في الثاني والعشرين من تموز ،

وأبرق السفير الألمـــاني في مدريد الى ريبنتروب في اليوم التالي « برقية عاجلة وسرية للغاية » جاء فيها :

« تحدث ريفيرا مرتين الى الدوق في جلستين طويلتين شهدت الدوقة ثانيتهما . وقد افصح الدوق عن حقيقة آرائـــه بصراحة وانطلاق ... فهو يحس بنفسه ينأى اكـــثر فأكثر من الناحية السياسية عن الملك والحكومة البريطانية الراهنة . ولا يحس الدوق والدوقة بكبير خشية مـــن الملك الذي يعتبر انه رجلاً احمق ، ولكنهما يخشيان كثيراً من الملكة الداهية التي تدسّ بدهاء ومكر ضد الدوق وضد الدوقة بصورة خاصة .

« ويفكر الدوق في اصدار بيان علني عام ... يستنكر فيه سياسة انكلترا الراهنة ويعلن خلافه مع اخيـــه الملك ... وقد اعرب الدوق والدوقة عن رغبتهما الشديدة في العودة الى اسبانيا » .

وقد توصل السفير الألماني ، كما اضاف في برقيته ، الى ترتيب مع سونر ، على ايفاد رسول اسباني آخر الى البرتغال « لاقناع الدوق بمغادرة لشبونه وكأنه يعتزم القيام برحلة طويلة في السيارة ثم يعبر الحدود الى اسبانيا في نقطة يـــتم الاتفاق عليها ، وتتولى الشرطة السرية الاسبانية تنظيم دخوله الحدود والحفاظ على سلامته » .

وراح السفير يبعث بعد يومين ببرقيـــة اخرى « عاجلة وسرية للغاية » الى ريبنتروب ضمنها بعض المعلومات الاضافية من ريفيرا ... قالت البرقية :

« عندما وجـــه ريفيرا نصيحته الى الدوق بعدم الذهاب الى جزر البهاما ، والعودة الى اسبانيا ، طالما أن من المحتمل ان يطلب الى الدوق ان يلعب دوراً هاماً في السياسة الانكليزية ، وقد يطلب اليه ان يرتقي العرش الانكليزي ، ظهرت علائم الدهشة على وجهي كل من الدوق والدوقة ... وقد رد كلاهما، بأن هذا الأمر مستحيل بموجب الدستور الانكليزي الذي يحظر عودة الملك الى العرش بعد

تنازله عنه . وعندما لاحظ المبعوث الاسباني بأن سير الحرب قد يـــؤدي الى تبدلات في كل شيء حتى في الدستور الانكليزي ، راحت الدوقة بصورة خاصة ، تغيب في تفكير عميق » .

وقد ذكر السفير الألماني في هـــذه البرقية وزير خارجيته ، بأن ريفيرا نفسه لا يعرف « بوجود أية مصلحة لألمانيا في هذه القضية . ويبدو ان الاسباني الشاب يعتقد بأنه يعمل نيابة عن حكومته . »

ولم يحل الاسبوع الأخير من شهر تموز ، حتى كان النازيون قد اكملوا وضع خطتهم لاختطاف الدوق والدوقة . وقد انتدب هتلر شخصياً ، وولتر شيلنبرغ ليتولى تنفيذ هذه الخطة . وطار هذا من برلين الى مدريد حيث تشاور مـــع السفير الألماني ثم مضى الى البرتغال ليشرع في تنفيذ الخطة . وراح السفير يبرق في السادس والعشرين من تموز برقية «مستعجلة جداً وسرية للغاية» الى ريبنتروب ضمنها مخطط العملية ... وهذا ماجاء فيها :

« في وسعنا افتراض وجود تصميم صادق عند الدوق والدوقة على العودة الى اسبانيا . ولتشديد هذه العزيمة ، أوفـــد الرسول السري الثاني اليوم الى لشبونة يحمل رسالة الى الدوق تم اعدادها بمنتهى البراعة والذكاء ، وأرفق بها مخطط دقيـــق لعملية عبور الحدود ...

« وتنص الخطة على ان يتظاهر الدوق وزوجته بالقيام رسمياً بإجازة صيفية الى منطقة جبلية لا تبعد كثيراً عن الحدود الاسبانية ، ليتمكنا من عبور الحدود اثنـــاء رحلة صيد في وقت معين ، وفي المـكان المحدد . ولمـــا كان الدوق لا يحمل أي جواز سفر ، فمن الواجب رشوة موظف الجوازات البرتغالي المسؤول في ذلك المكان.

« وتقضي الخطة ايضاً بأن يكون الرسول السري الأول « بريمو دي ريفيرا » على رأس بعض القوات الاسبانية في مكان مناسب داخل الحدود الاسبانية في الوقت المحدد لضمان سلامـــة الدوق

وزوجته .

« ويقوم شيلنبرغ وجماعته بالعمل من لشبونه ، بالتعاون الوثيق مع الخطة لتنفيذ الهدف .

« ولهذه الغاية سيتم إعداد الرحلة الى مكان الاجازة الصيفية ، وتهيئة رحلة الصيد ، بالتعاون مع احد كبار قادة الشرطةالبرتغاليين الموثوقين ...

« وفي لحظة عبور الحدود كما هو متفق عليه ، تتولى جماعة شيلنبرغ مسؤولية ترتيبات الأمن على الطرف البرتغالي من الحدود ، ثم تواصل نفس المسؤولية الى داخل اسبانيا كحرس مباشر ، على ان يجري تبديل الحراسة من وقت الى آخر دون اي عائق .

« وحرصاً على سرية الخطة كلها ، اختار وزير داخلية اسبانيا شخصاً آخر ، سيكون امرأة على الغالب ، تتولى الاتصال اذا اقتضى الأمر بالرسول السري الثاني وتستطيع نقل المعلومات عند الحاجة الى جماعة شيلنبرغ .

« وفي حالة وقوعأي طارىء نتيجة أي عملمن جانبالمخابرات البريطانية تتخذ الترتيبات اللازمة لايصال الدوق والدوقة الى اسبانيا بالطائرة . وفي هذه الحالة ، كما في حالة تنفيذ الخطة الأولى، يشترط قبل كل شيء الحصول على الرغبة في مغادرة البرتغال من الدوق عن طريق التأثير النفسي الصريح على عقليته الانكليزية المعروفة ، دون السماح باعطائه الانطباع بأنه يفر من البرتغال ، وعن طريق استغلال ما قد يحس به من قلقمنالمخابراتالبريطانية ، والايحاء له بحرية العمل السياسي في الارض الاسبانية .

« وبالاضافة الى ما يجب توفيره له من حماية في لشبونه ،قد يوضع رأي آخر في موضع الاعتبار اذا اقتضى الأمر ، وهو يقضي باقناعه بترك البلاد مختاراً ، عن طريق تخويفه بمناورة مناسبة يمكن ان

تعزى مسؤوليتها الى جهاز المخابرات البريطاني » .

هذه هي الخطة التي وضعها النازيون لاختطاف دوق وندسور ودوقتها . وهي تتميز بشيء من البلادة التي عرفت عن الألمان ، وقد تعذر تحقيقها بسبب ما عهد في الألمان من عجز عن فهم « عقلية الدوق الانكليزية » .

وقام شيلنبرغ بتنفيذ مناورة « التخويف » بدقة . فقد دبر ذات ليلة ، قذف نوافذ الدارة التي يعيش فيها الدوقان ببعض الحجارة ، ونشر الشائعات بين الخدم بأن هذا العمل صادر عن المخابرات البريطانية . وتمكن من ارسال باقة من الزهور الى الدوقة وهي تحمل بطاقة كتب عليها : «احذري مكائد المخابرات البريطانية . من صديق برتغالي ، يضع مصالحك في فؤاده فوق كل اعتبار » وراح يبلغ برلين في تقرير رسمي انه قرر حذف ما كان قد أعد من اطلاق بعض العيارات النارية غير المؤذية على زجاج النافذة في غرفة نوم الدوقة ، وذلك في ليلة الثلاثين من تموز ، خشية أن يترك هذا العمل اثراً نفسياً معاكساً عند الدوقة يضاعف من رغبتها في مغادرة البرتغال الى جزر البهاما » .

وكان الوقت يسبق المتآمرين . فقد نقل شيلنبرغ في الثلاثين من تموز الى برلين نبأ وصول السير وولتر مونكتون ، صديق الدوق القديم الى لشبونه ، ممثلاً الحكومة البريطانية التي يشغل منصباً هاماً فيها . وكانت المهمة التي جاء من اجلها ، كما هو واضح ، اقناع الدوقين على الاسراع في السفر الى البهاما . وابرق السفير الألماني في مدريد الى ريبنتروب في نفس اليوم برقية « سرية للغاية وعاجلة جداً » يبلغه فيها انه تلقى قبل لحظات نبأ من جاسوس الماني في لشبونه يقول ان الدوق والدوقة سيغادران لشبونه في الاول من آب ، أي بعد يومين . وراح يسأل ريبنتروب في برقيته انه بالنظر الى هذه الانباء « الا يحسن بنا الى حدٍ ما التخلي عن تحفظنا » ؟ ومضى السفير يقول : ان المعلومات الواردة اليه من مصادر المخابرات الالمانية ، تفيد بأن الدوق قد أعرب لمضيفه المالي البرتغالي ، ريكاردو دو اسبيريتويتو سانتو سيلفا عن رغبته « في الاتصال بالفوهرر » ثم قال: فلم لانعد العدة لاجتماع بين الدوق والفوهرر ؟

وعاد السفير يبرق في اليوم التالي أي الواحد والثلاثين من تموز الى ريبنتروب برقية « عاجلة للغاية وسرية جداً » يبلغه فيها ان الموفد الاسباني الذي عاد قبل لحظات من لشبونه بعد الاجتماع الى الدوقين ، قد حمل الانباء بأنهما « على الرغم من تأثرهما أشد التأثر من انباء الدسائس الانكليزية ضدهما ، ومن قلقهما على سلامة شخصيهما » ، يعتزمان كما يبدو الابحار الى البهاما في الأول من آب ، وان كان الدوق يحاول « اخفاء الموعد الحقيقي » واضاف السفير « ان مدير داخلية اسانيا يعتزم القيام بمحاولة اخيرة لمنع الدوق والدوقة من مغادرة البرتغال » .

وافزعت الانباء التي وردت الى ريبنتروب بأن الدوقين يعتزمان السفر بمثل هذه السرعة ، الوزير الالماني ، وبعث من قطاره الخاص في فوشل ببرقية «عاجلة جداً وسرية للغاية » الى الوزير الالماني المفوض في لشبونه في ساعة متأخرة من بعد ظهر نفس اليوم أي الواحد والثلاثين من تموز وقد طلب في برقيته ابلاغ الدوق عن طريق مضيفه البرتغالي الرسالة التالية :

« تريد المانيا من الناحية الاساسية السلام مع الشعب البريطاني ، ولكن عصابة تشرشل هي التي تقف حجر عثرة في سبيل هذا السلام. وقد باتت المانيا على أثر رفض نداء الفوهرر الاخير بالرجوع الى حكم العقل والمنطق ، مصممة على ارغام انكلترا على الصلح بكل وسيلة تحت تصرفها . وقد يكون من الافضل ان يكون الدوق متأهباً لأية تطورات جديدة . وستكون المانيا في مثل هذه الحالة على استعداد لتلبية كل رغبة يبديها الدوق ، أو الدوقة ، وللتعاون معه تعاوناً وثيقاً ... أما اذا رغب الدوق والدوقة في اشياء أخرى ، شريطة ان يظهرا استعداداً للتعاون مع المانيا على اقامة علاقات طيبة بينها وبين انكلترا ، فان المانيا على استعداد ايضاً للتعاون مع الدوق ، وان تهيىء للدوقين مستقبلاً يتفق مع رغباتهما . وعلى الصديق البرتغالي الذي يحل الدوق في ضيافته ان يبذل جهداً صادقاً للحيلولة دون رحيله غداً ، لا سيما وان لدينا

تقارير موثوقة تؤكد ان تشرشل يعتزم ان يفرض سيطرته على الدوق بعد وصوله الى البهاما ، ليستبقيه هناك بصورة دائمة ، وكذلك لان اقامة أي اتصال في اللحظة المواتية مع الدوق في جزر البهاما سيكون امراً عسير المنال علينا .. »

ووصلت برقية وزير خارجية المانيا العاجلة الى المفوضية في لشبونه ، قبيل منتصف الليل . واجتمع الوزير الالماني الى السنيور اسبيريتو سانتو سيلفا في غضون الليل ، وحثه على نقل هذه الرسالة الى ضيفه الكبير . وقد نفذ المالي لبرتغالي المطلوب منه في صباح الاول من آب ، وتشير برقية بعثت بها المفوضية الالمانية الى برلين في نفس اليوم ، الى الدوق تأثر بالرسالة تأثراً بالغاً :

« اثنى الدوق على رغبة الفوهرر في السلام ، مما يتفق تمام الاتفاق مع وجهات نظره هو وأعرب الدوق عن قناعته المطلقة بأن الحرب ما كانت لتقع ابداً ، لو كان هو على عرش انكلترا . وافق منشرحاً على النداء الموجه اليه للتعاون في اللحظة المواتية على اقامة السلام . لكنه يجد نفسه مضطراً على أي حال في هذه الآونة لاطاعة أوامر حكومته الرسمية . فالعصيان يكشف نواياه قبل الأوان ، ويخلق فضيحة عالمية ، ويقضي على ما له من مكانة في انكلترا . وهو على يقين ايضاً بأن الظرف الحاضر ، لم يعد بعد مواتياً للظهور في هذه الصورة اذ لم تظهر حتى الآن أية ميول في انكلترا للتقارب من المانيا . ولكنه على أي حال على استعداد للعودة حالاً ، عندما يظهر أي تحوّل في التفكير البريطاني .. فهناك احتمال قريب الوقوع وهو ان تستدعيه انكلترا في لحظة حرجة ، كما ان ثمة احتمالاً آخر بأن تعرب له المانيا عن رغبتها في التفاوض معه . وهو على استعداد في كلتا الحالتين للتضحية الشخصية ، وسيضع نفسه دائماً رهن الإشارة دون ان يكون له أي مطمح شخصي .

« وسيظل على اتصال دائم بضيفه السابق ، ويتفق معه على

عبارة « رمزية » حتى اذا ما وصلت اليه من مضيفه ، طار فوراً عائداً الى لشبونه » .

وهكذا ابحر الدوق والدوقة على الرغم من أنف الألمان عيشة اليوم الأول من آب على ظهر الباخرة الامريكية (اكسكاليبر) . وبعث شيلنبرغ في اليوم التالي برقية شخصية الى وزير الخارجية (ريبنتروب) ضمنها تقريره الأخير عن فشل مهمته ، مؤكداً فيها وباسهاب ، انه فعل كل ما في وسعه حتى اللحظة الاخيرة للحيلولة دون رحيل الدوقين. وقد استغاث السفير الاسباني في لشبونه ، وهو شقيق لفرانكو ، ليقوم بآخر محاولة مع الدوقين مناشداً اياهما عدم الرحيل . وادعى شيلنبر تخريب السيارة التي تحمل متاع الدوقين ، بحيث لم يصل الى الباخرة الا متأخراً . ونشر الألمان شائعات عن وجود قنبلة موقوتة على ظهر الباخرة . وأخر الموظفون البرتغاليون ابحارها ، الى ان أتموا تفتيشها تفتيشاً دقيقاً للتأكيد من عدم وجود القنبلة .

ومع ذلك أبحر الدوقين في ذلك المساء ، وفشلت المؤامرة النازية فشلاً ذريعاً. وانحى شيلنبرغ في تقريره الأخير بالملامة على تأثير مونكتون وانهيار « الخطة الاسبانية » وعقلية الدوق .

وهناك ورقة أخيرة بين الوثائق الألمانية المصادرة تتعلق بالمؤامرة. فقد ابرق الوزير الالماني المفوض في لشبونه في الخامس عشر من آب الى برلين يقول : « ان الشخص الموثوق قد تلقى قبل لحظات برقية من الدوق من برمودا يطلب اليه فيها ان يبعث اليه برسالة عاجلة حالما تصبح الفرصة مواتية للعمل . هل نرد على هذه البرقية ؟ »

ولم نعثر بين اوراق وزارة الخارجية الالمانية على أي رد على هذه البرقية كأن هتلر قد حزم أمره في منتصف شهر آب على احتلال بريطانيا العظمى بقوة السلاح . ولم تعد ثمة حاجة الى العثور على ملك جديد لها . فستتولى برلين نفسها حكم الجزر البريطانيــة كما تحكم البـــلاد المحتلة الاخرى . وهذا مــا رآه هتلر على الأقــل .

هذه هي القصة الغريبة كما ترويها الوثائق الالمانية السرية ، وكما اضاف اليها شيلنبرغ في روايته . وعلى الرغم من عدم ثقتنا فيما يقوله ، الا ان من الصعب علينا ان نؤمن باختراعه للدور الذي نسبه الى نفسه ، لا سيما وقد أقر هو بأن هذا الدور كان مضحكاً من أوله الى آخره .

وقد وصف الدوق وندسور في بيان اصدره عن طريق وكلائه القانونيين في لندن في الأول من آب عام ١٩٥٧ ، بعد نشر الوثائق الالمانية السرية ، هذه المراسلات التي جرت بين ريبنتروب وبين السفير الالماني في اسبانيا والبرتغال بأنها « اختلاقات كاملة ، وقلب كلي للحقائق من الناحية الاخرى » . وأوضح الدوق انه عندما كان في لشبونه في عام ١٩٤٠ ، ينتظر الابحار الى جزر البهاما ، اتصل به « بعض الناس » الذين سرعان ما اكتشف انهم من مؤيدي النازية ، وبذلوا جهوداً محدودة لاقناعه بالعودة الى اسبانيا وعدم المضي الى البهاما ، لتسلم مهام منصبه .

وقال : ولقد حذرني بعضهم من انني والدوقة سنتعرض الى الخطر الشخصي في حالة ذهابنا الى البهاما .. ولكنني لم أفكر لحظة واحدة في الانسياق وراء هذه الاقتراحات ، التي عاملتها بكل ما تستحقه من زراية واحتقار » .

وأصدرت وزارة الخارجية البريطانية بياناً رسمياً اعلنت فيه ان ولاء الدوق لبريطانيا العظمى ايام الحرب ، لم يتزعزع قط أو يهن [1] .

---

١ ـ صحيفة (النيويورك تايمز) عدد الاول من آب عام ١٩٥٧ .

٢٣

عمليّة « بربروسة »
الاتجاه إلى روسيا

اغتنم ستالين فرصة انشغال هتلر في صيف عام ١٩٤٠ بتوجيه الفتوحات الالمانية في الغرب ، فشرع يزحف باتجاه دول البلطيق ويتقدم نحو دول البلقان.

وكانت مظاهر الصداقة تبدو قائمة بين الدولتين الديكتاتوريتين الكبيرتين . ولم يكن مولوتوف الذي يعمل بوحي ستالين ، يضيع فرصة واحدة في كيل المديح والاطراء للألمان والزلفى اليهم ، مهتبلاً كل سانحة من أي عمل عدواني جديد أو فتح آخر . وراح في التاسع من نيسان عام ١٩٤٠ عندما غزت المانيا النروج والدانيمارك ، يبلغ السفير الالماني في موسكو فون دير شولنبرغ ، ان «الحكومة السوفياتية تتفهم تمام التفهم الاجراءات التي فرضت على المانيا فرضاً» واضاف قائلاً « واننا لنرجو لالمانيا النجاح الكامل في اجراءاتها الدفاعية »[١].

وعندما قام السفير الالماني بعد شهر بزيارة مولوتوف لابلاغه رسمياً قيام القوات الالمانية المسلحة بالهجوم في الغرب ، موضحاً طبقاً لتعليمات ريبنتروب ، ان هذا الهجوم « قد فرض على المانيا فرضاً ، من جراء الاندفاع الذي كان يعده الانكليز

---

١ ـ وثائق وزارة الخارجية الالمانية (٩) ص ١٠٨ .

والفرنسيون نحو الروهر عن طريق بلجيكا وهولنده » عاد السياسي السوفياتي الى الاعراب عن سروره . وابرق شولنبرغ الى برلين يقول : « استقبل مولوتوف رسالتكم بروح من التفهم ، وأضاف انه يدرك حق المانيا في حماية نفسها من الهجوم الانكليزي – الفرنسي . وأكد انه على ثقة مطلقة من نجاحنا » [1] .

واستدعى مولوتوف في السابع عشر من حزيران ، اي في اليوم الذي طلبت فيه فرنسا الهدنة ، السفير الالماني الى مكتبه « واعرب له عن تهاني الحكومة السوفياتية الحارة على الانتصارات الرائعة التي حققتها القوات الالمانية المسلحة ».

وكان هناك شيء آخر اراد الوزير السوفياتي قوله ، ولم يبد هذا القول مستساغاً في آذان الألمان . فقد ابرق السفير الألماني الى برلين « رسالة عاجلة للغاية » قال فيها ان مولوتوف ابلغه « بما يعتزم السوفيات عمله في دول البلطيق »، مضيفاً ، وفي عينيه وهج غريب : « انه بات من الضروري جداً وضع حد للجميع هذه الدسائس التي حاولت انكلترا وفرنسا نشرها لخلق جو من عدم الثقة والخلاف بين المانيا والاتحاد السوفياتي في دول البلطيق » [2] . واضاف مولوتوف ان الحكومة السوفياتية رغبة منها في وضع حد لهذا « الخلاف » قد اوفدت « مبعوثين خاصين » الى دول البلطيق الثلاث . وكان هؤلاء الثلاثة في الواقع من خيرة اعوان ستالين ، فقد أوفد ديكانوزوف الى ليتوانيا وفيشينسكي الى لاتفيا وجدانوف الى استونيا .

وقد قام هؤلاء المبعوثون بالمهام التي اسندت اليهم بما عرف عنهم من دقة ، ولا سيما بالنسبة الى الاخيرين . وفي الرابع عشر من حزيران ، وهو اليوم الذي دخلت فيه القوات الالمانية باريس ، بعثت الحكومة السوفياتية بانذار لمدة تسع ساعات الى ليتوانيا طلبت فيه استقالة حكومتها ، واعتقال عدد من كبار موظفيها ، ومنح روسيا الحق في ايفاد أي عدد تشاؤه من قوات الجيش الأحمر

---

١ – وثائق وزارة الخارجية الالمانية (٩) ص ٢٩٤ – ٣١٦ .

٢ – وثائق وزارة الخارجية الالمانية (٩) ص ٥٩٦ – ٦٠٠ .

الى بلادها . وعلى الرغم من ان الحكومة الليتوانية قد قبلت الانذار الروسي ، الا ان موسكو لم تعتبر قبولها « مرضياً » ، وقامت القوات السوفياتية في الخامس عشر من حزيران باحتلال البلاد . التي تقع وحدها دون دول البلطيق الاخرى محاذية لألمانيا . وبعثت موسكو في غضون اليومين التاليين بانذارين مماثلين الى لاتفيا واستونيا ، ثم قامت باجتياحهما على نحو مماثل ايضاً .

وكان في وسع ستالين ان لا يقل مثل هذه الأمور صلافة وقسوة عن هتلر نفسه ، وكثيراً ما يكون اكثر تشككا . فقد عطل حرية الصحافة في هـــذه البلاد فوراً واعتقل زعماءها السياسيين وحل احزابها باستثناء الحزب الشيوعي ، ثم حدد الرابع عشر من تموز موعداً « للانتخابات فيهـــا » . وبعد ان اجتمعت برلماناتها التي انتخبت بهذه الطريقة ، وقررت ضم بلادها الى الاتحاد السوفياتي ، اعلن مجلس السوفيات الأعلى قبول ليتوانيا في الوطن الأب في الثالث من آب وقبول لاتفيا في الخامس منه واستونيا في السادس من الشهر نفسه .

وأحسن ادولف هتلر بالمهانـــة ، ولكنه لم يستطيع ان يعمل شيئاً ، اذ ان انشغاله باعداد العدة لغزو بريطانيا قـــد اعجزه عن ان يفعل شيئاً . وأمر ريبنتروب باعادة مذكرات الاحتجاج التي قدمها مبعوثو الدول البلطيقية الثلاث في برلين اليهم . واراد مولوتوف المزيد من اذلال الألمان فامرهم بمنتهى الفظاظة في الحادي عشر من آب ، باغلاق مفوضياتهم في كوناس وريغا وتالين ،في غضون اسبوعين واقفال قنصلياتهم في جميع دول البلطيق قبل الأول من ايلول .

ولم يشبع الاستيلاء على دول البلطيق نهم ستالين . فقد حفزه انهيار الجيوش الانكليزية – الفرنسية السريع والذي يثير الدهشة على محاولة كسب ما يمكن له ان يكسبه طالما ان المجال فسيح امامه الآن . ويبدو أنه اعتقد بأن الوقت اقصر من ان يضيعه ويفوّته . وعاد مولوتوف في الثالث والعشرين من حزيران أي بعد يوم واحـــد من استسلام فرنسا رسمياً وتوقيعها الهدنة في كومبيين ، فاستدعى السفير النازي في موسكو وابلغه ان « حل مشكلة بسارابيا لم يعد يحتمل تأجيلا . وقد قررت الحكومة السوفياتية اللجوءالى القوةفي حالة تقاعس

الحكومة الرومانية عن قبول تسوية سلمية للمشكلة » . واضاف ان حكومته تتوقع من المانيا « عدم معارضتها في عملها هذا بـل ودعمه ايضاً » . وقال ان « مطالب السوفيات تمتد كذلك الى مقاطعة بوكوفينا [1] » . وكانت رومانيا قد انتزعت مقاطعة بسارابيا من روسيا في نهايـة الحرب الكونية الأولى ، أما بوكوفينا فلم تكن في يوم ما تابعة لروسيا و وانما كانت جزءاً من النمسا الى ان استولت عليها رومانيا عام ١٩١٩ . وكان ريبنتروب ، قـد وافق اثناء المفاوضات التي جرت في موسكو في العـام الفائت لعقد الميثاق النازي — السوفياتي ، على منح بسارابيا لمنطقة النفوذ الروسي ، وقد اكـد موافقته هذه لهتلر الآن عندما سأله عنها . ولكنه لم يكن قـد وافق على اعطائها بوكوفينا ايضاً .

وانتشرت الآن موجة من الذعر في برلين امتدت الى القيادة العامة للجيش في الغرب فالقوات الالمانية المسلحة محتاجة أمسّ الحاجة الى زيت رومانيا، إذ انها تعتمد عليه كلية كما ان المانيا في حاجة الى ما تنتجه هذه البـلاد من مواد غذائية وعلف للحيوانات . وستفقد المانيا هذا المورد حتماً اذا قام الجيش الاحمر باحتلال رومانيا . وكانت هيئة الاركان العامة الرومانية قد بعثت في الثـالث والعشرين من ايار ، عندما كانت معركة فرنسا في ذروتها اشارة استغـاثية الى القيادة الالمانية العليا ، تبلغها فيها ان القوات السوفياتية تحتشد على حدودها . ولخص يودل رد الفعل في مقر قيادة هتلر في يوميته التي دوّنها في اليوم التالي فقال : « بات الوضع في الشرق منذراً بالخطر من جراء حشد القوات الروسية على حدود بسارابيا » .

ووجهت روسيا ليلة السادس والعشرين من حزيران انذاراً الى رومانيـا تطلب فيه تخليها لها عن بسارابيا وعن بوكوفينا الشمالية ، وتصر على وجوب تلقي الرد على طلبها في اليوم التالي . وراح ريبنتروب ، وهو يرتعد من الفزع ،

---

١ — وثائق وزارة الخارجية الالمانية (١٠) ص ٣ — ٤ .

يبعث بتعليمات عاجلة من قطاره الخاص الى وزيره المفوض في بوخارست يطلب إليه فيها ان ينصح الحكومة الرومانية بالاذعان لروسيا . وقد أذعنت رومانيا في السابع والعشرين من حزيران فعلاً . وزحفت القوات السوفياتية في اليوم التالي الى المناطق التي حصلت عليها وتنفّست برلين الصعداء ، لا سيا وان مصادر الزيت والغذاء الوفيرة لم تقطع عنها ، لان روسيا لم تقم باحتلال رومانيا كلها .

ويتضح من أعمال ستالين ومن الوثائق الالمانية المصادرة نفسها ، ان الديكتاتور الروسي ، على الرغم من حرصه على اقتناص كل ما يستطيع اقتناصه في أوروبا الشرقية ، مغتنماً فرصة انشغال الألمان في الغرب ، إلا أنه لم يرغب ، ولم يتصور قط ، انه سيصل الى حد القطيعة مع هتلر .

وحاول تشرشل في نهاية شهر حزيران تحذير ستالين في رسالة شخصيةوجهها إليه ، من خطر الفتوحات الالمانية على روسيا وعلى بريطانيا [1] . ولم يكترث الديكتاتور الروسي بالرسالة ، ولم يكلّف نفسه عناء الرد عليها ، ولعله كان يعتقد كما اعتقد كثيرون غيره ان بريطانيا قد انتهت . ولهذا فقد نقل الى الألمان ما أوصلته إليه الحكومة البريطانية . واستقبل ستالين في مطلع شهر تموز السير ستافورد كريبس الزعيم العمالي اليساري – الجناح ، الذي أوفده رئيس الوزراء بسرعة خارقة ،كسفيرله في موسكو ، آملاً ان يحقق عن طريقه بعض التقارب مع البلاشفة ، وهو أمل اعترف تشرشل نفسه فيما بعد بخيبته . وكانت هذه المقابلة على حد تعبير تشرشل نفسه « رسمية ومتسمة بالبرود » . وقد سلم مولوتوف في الثالث عشر من تموز ، بأمر من ستالين مذكرة خطية الى السفير الالماني ضمنها ما دار من حديث سري في هذه المقابلة .

وليس ثمة من شك في ان هذه الوثيقة طريفة غاية الطرافة . فهي تحسر النقاب أكثر من أية وثيقة أخرى عن الحدود الصارمة التي يضعها الديكتاتور السوفياتي

---

١ – تشرشل – مذكرات – الجزء الثاني ص ١٣٥ – ١٣٦ .

في حساباته الدقيقة في الشؤون الخارجية . وسارع شولنبرغ الى الابراق بها الى برلين ، كبرقية « عاجلة جداً وسرية » ، وأعرب ريبنتروب عن امتنانه لمحتوياتها في رسالة وجهها الى الحكومة السوفياتية أكد فيها « تقديره العظيم لهذه المعلومات » . وتقول المذكرة ان السفير كريبس ألحف على ستالين ، مطالباً اياه بتبيان موقفه من عدة قضايا بينها القضية الرئيسية التالية :

« تجد الحكومة البريطانية نفسها مقتنعة كل الاقتناع بأن المانيا تجاهد لخلق نوع من السيادة لنفسها في أوروبا ... وليس ثمة من شك في ان السيادة لا تقل خطراً على الاتحاد السوفياتي منها على انكلترا نفسها . وعلى الدولتين ، والحالة هذه ، ان تتفقا على سياسة مشتركة من الحماية الذاتية ضد المانيا وان تحاولا إعادة التوازن الدولي في أوروبا الى وضعه السابق » .

وأضافت المذكرة ان ردود ستالين كانت على النحو التالي :

« لا يرى ستالين أي خطر لقيام سيادة دولة واحدة في أوروبا ، وهو لا يرى كذلك أي خطر في ابتلاع المانيا للقارة الأوروبية فهو يراقب السياسة الألمانية ويفهمها ، كما يعرف عدداً من أبرز الساسة الألمان . ولم يستطع أن يرى رغبة عند هؤلاء لابتلاع البلاد الأوروبية . وهو لا يرى كذلك ان انتصارات المانيا العسكرية تهدد الاتحاد السوفياتي ، أو تهدد علاقاته الودية بألمانيا »[1] .

وليس ثمة من شك في ان مثل هذه الخشونة المذهلة ، وهذا الجهل الفاضح ، يجعلان الانسان في حيرة من أمره . ومن الطبيعي أن لا يعرف الطاغية الروسي بما في عقل هتلر من أسرار ، ولكن سلوك الفوهرر الماضي ومطامحه المعروفة ، والسرعة غير المنتظرة في انتصاراته ، كلها دوافع كافية لتحذيره من الخطر البالغ الذي يتعرض له الاتحاد السوفياتي الآن . ولكن هذه العوامل كما يبدو ،

١ ـ وثائق وزارة الخارجية الالمانية (١٠) ص ٢٠٧ ـ ٢٠٨ .

لم تكن كافية ، وهذا امر لم نستطع فهمه مطلقاً .

ونحن نعرف الآن من الوثائق النازية المصادرة ومن شهادات بعض الشخصيات الألمانية البارزة التي لعبت دورها في تلك المسرحية العظيمة التي مثلت على مسرح أوروبا الغربية الفسيح في ذلك العام ، ان هتلر كان في هذه اللحظة التي أبدى فيها ستالين هذه الاستكانة البارزة ، يقلّب في عقله فكرة الالتفات نحو الاتحاد السوفياتي وتحطيمه .

وتعود الفكرة الأصلية الى أبعد من ذلك بكثير ، انها تعود الى خمس عشرة سنة على الأقل ... الى كتاب « كفاحي » عندما قال هتلر :

« وهكذا نستأنف نحن الاشتراكيين الوطنيين اليوم السير الذي توقف قبل نحو من ستماية عام . وسنوقف الحركة الالمانية التي لا تنتهي باتجاه جنوب أوروبا وغربها ، لنعود بنظراتنا الى البلاد الواقعة شرقاً ... وعندما نتحدث اليوم عن الاراضي الجديدة في أوروبا ، علينا ان نفكر بصورة رئيسية بروسيا وبدول الحدود التابعة لها ... ويبدو ان القدر يود ان يبسط لنا طريقنا هناك الآن ... فهذه الامبراطورية الضخمة الواقعة الى الشرق باتت ناضجة الآن للتحليل والتفسُّخ ، وسترمز نهاية السيطرة اليهودية على روسيا الى نهاية روسيا لنفسها كدولة »[1] .

وكانت هذه الفكرة تمثل القاعدة في تفكير هتلر ، ولم يؤدِّ ميثاقه مع ستالين الى تغيير هذه القاعدة مطلقاً ، وإذا كان قد أجل العمل بوحيها فإن هذا التأجيل لم يكن إلا لفترة قصيرة جداً . إذ لم يمض شهران على توقيع الصفقة وعقدها . وعلى استغلالها في تحطيم بولندة ، حتى كان الفوهرر يصدر تعليماته الى جيشه ، بأن يعامل البلاد البولندية المحتلة على اعتبار انها « منطقة تجميع لعمليات مقبلة » . وكان هذا في الثامن عشر من تشرين الاول عام ١٩٣٩ ، وقد دوّنه

---

١ ـ كفاحي ـ هتلر ص ٦٥٤ .

هولدر في يومياته .

وبعد خمسة اسابيع ، أي في الثالث والعشرين من تشرين الثاني ، لم تكن روسيا غائبة عن أفكاره مطلقاً وهو يخطب فرقاءه العسكريين المترددين ، متحدثاً اليهم عن الهجوم في الغرب . وراح يعلن لهم هذه الافكار قائلاً : « في وسعنا ان نقاوم روسيا عندما نكون طليقي اليدين في الغرب » . وكانت فكرة الحرب في جبهتين ، التي ظلت الكابوس المسيطر على القادة العسكريين الالمان اكثر من قرن كامل ، الغالبة على تفكير هتلر في ذلك اليوم ولذا فقد تحدث عنها باسهاب وتطويل في ذلك اليوم . فهو لا يريد ان يكرر الخطأ الذي وقع فيه الحكام الالمان السابقون ، وسيواصل التأكد من ان الجيش لن يحارب على اكثر من جبهة واحدة في وقت واحد .

ولذا كان من الطبيعي ، والحالة هذه ، بعد ان سقطت فرنسا ، وبعد ان طاردت جيوشه فلول الجيش البريطاني عبر القناة ، وبعد ان انتعشت آماله في انهيار بريطانيا المرتقب في كل لحظة ان يتجه باهتمامه وتفكيره ثانية الى روسيا . فلقد افترض نفسه الآن متحرراً في الغرب ، إذ خيل إليه انه حقق الشرط الذي كان قد وضعه ليغدو في مركز يسمح له «بمقاومة روسيا» . وقد استفزت السرعة التي اتم فيها ستالين استيلاءه على دول البلطيق وعلى المقاطعتين الرومانيتين في حزيران هتلر الى اتخاذ قرار عاجل .

وفي وسعنا الآن ان نتابع الطريق التي أدت به الى اللحظة التي اتخذ فيها قراره هذا . ويقول يودل ان « القرار الرئيسي الجوهري » قد اتخذ « في وقت مبكر إبان الحملة في الغرب » [1] . ويتذكر العقيد وولتر ووورليمونت نائب يودل في القيادة العامة للقوات المسلحة ، ان يودل أعلن في التاسع والعشرين من تموز في اجتماع عقده مع ضباط أركان حرب العمليات ان « الفوهرر يعتزم

---

١ ـ خطاب يودل في ٧ تشرين الثاني عام ١٩٤٣ ـ المؤامرة النازية والعدوان (١) ص ٧٩٥ .

مهاجمة الاتحاد السوفياتي في خريف عام ١٩٤٠ » . وكان هذا اكثر مما يحتمل كايتل نفسه ، وقد ناقش هتلر في هذا الموضوع مناقشة حادة محاولاً اقناعه بأن صعوبة تحقيق الهجوم في الغرب لا تقوم بسبب رداءة الطقس فحسب بل وبسبب متاعب نقل القسم الأكبر من الجيش من الغرب الى الشرق . وعندما عقد هذا المؤتمر المشار اليه في التاسع والعشرين من تموز ، ذكر وورليمونت « ان موعد الهجوم المقترح ضد روسيا كان قد تأجل الى ربيع عام ١٩٤١ »[١].

ونحن نعرف الآن من يوميات هولدر[٢] ان الفوهرر كان لا يزال حتى قبل أسبوع واحد ، يرى إمكان القيام بالحملة على روسيا في الخريف ، إذا لم يتم بغزو بريطانيا في هذا الموعد . وطلب من براوختش في مؤتمر عسكري عقد في برلين في الواحد والعشرين من تموز بأن يشرع في الأعداد لهذه الحملة . ويبدو من رده على هتلر ان القائد العام للجيش وأركان حربه كانوا قد أولوا هذه المشكلة بعض تفكيرهم وان لم يكن كل هذا التفكير . فقد أبلغ براوختش الزعيم بأن الحملة قد تستغرق « من اربعة الى ستة اسابيع » ، وان هدفها سيكون « هزم الجيش الروسي أو احتلال ما يكفي من الارض الروسية لإبعاد خطر وصول القاذفات السوفياتي الى برلين ، أو منطقة سيليزيا الصناعية ، مع اتاحة الفرصة لطائرات السلاح الجوي الألماني للوصول الى جميع الأهداف المهمة في الاتحاد السوفياتي » . وكان براوختش يرى ان في إمكان قوة يتراوح عددها بين الثمانين والمائة فرقة المانية ان تقوم بهذا العمل وقدّر قوة روسيا بما يتراوح بين « خمسين وخمسة وسبعين فرقة صالحة » . وتشير الملاحظات التي دوّنها هولدر عن حديث براوختش اليه عما دار في الاجتماع الى ان هتلر تألم أشد الألم من خطوات ستالين في الاستيلاء على بعض الأراضي في الشرق ، وانه ، أي هتلر ، يعتقد بأن الديكتاتور

---

١ – شهادة وورليمونت المشفوعة باليمين في نورمبرغ في ٢١ تشرين الثاني عام ١٩٤٥ – المؤامرة النازية والعدوان (٥) ص ٧٤١ . واستجوابه في ١٢ تشرين الاول – المؤامرة النازية والعدوان الملحق (ب) ص ١٦٣٥ – ١٦٣٧ .

٢ – يوميات هولدر – في ٢٢ تموز ١٩٤٠ .

السوفياتي « يغازل انكلترا » لتشجيعها على الصمود ، وان كان لا يرى أية دلالة على ان روسيا تعتزم الدخول في الحرب ضد المانيا .

ودفعت خيبة الأمل في القيام بغزو بريطانيا ، هتلر على ان يعلن لأول مرة لقادته العسكريين في المؤتمر الذي عقده معهم في « عش النسر » في اليوم الأخير من شهر تموز عام ١٩٤٠ ، قراره بالحملة على روسيا . وقد شهد هولدر شخصياً ، هذا الاجتماع ودوّن بنفسه وقائع ما دار فيه وملخص ما قاله سيد الحرب النازي[١] . وتحسر هذه الملاحظات النقاب عن ان هتلر كان قد اتخذ قراراً واضحاً بمهاجمة روسيا في الربيع المقبل ، وانه حدد في ذهنه أيضاً الأهداف السوقية الرئيسية ... فقد كتب هولدر :

« قال هتلر ان آمال بريطانيا متركزة في روسيا وأمريكا . فإذا تمكنا من تحطيم آمالها في روسيا ، فان آمالها في الثانية تتحطم تلقائياً إذ ان ازالة روسيا من الوجود تؤدي الى تقوية سيطرة اليابان في الشرق الأقصى الى حد كبير » .

وزاد اقتناعه بهذه الفكرة مع تكرار دراسته لها . فلقد رأى هتلر ان تصميم بريطانيا الحرون على مواصلة الحرب ناجم عن اعتمادها على الاتحاد السوفياتي ...

« وأوضح ان شيئاً غريباً يحدث في بريطانيا . فلقد كسرت بريطانيا كسرة كاملة . ولكنها ما لبثت ان وقفت على قدميها . (ووقع هنا جدل قطع عليه أقواله ثم عاد يقول) : وليس ثمة من شك في ان روسيا قد انزعجت انزعاجاً شديداً من جراء هذه التطورات السريعة في اوروبا الغربية » .

« ولا تحتاج روسيا الى اكثر من مجرد إشارة الى انكلترا بأنها لا ترغب في ان ترى المانيا قوية اكثر من اللزوم ، فآنذاك يسارع الانكليز كالغريق الى استعادة الأمل بأن الوضع قد يتبدل تبدلاً

---

١ – يوميات هولدر في ٣١ تموز – ١٩٤٠ .

كلياً في فترة تتراوح بين ستة وثمانية شهور .

« ولكن إذا تحطمت روسيا ، فإن آخر أمل لبريطانيا يتحطم أيضاً ، وتغدو المانيا آنذاك سيدة أوروبا والبلقان .

« القرار .. وبالنظر الى جميع هـــذه الاعتبارات ، يتوجب علينا ان نصفـّي أمر روسيا في ربيع عام ١٩٤١ .

« وكلما أسرعنا في تحطيم روسيا، كلما كان هذا أجدى وأنفع»

* * *

وشرع سيد الحرب النـــازي بعد ذلك يوسّع في خططه الاستراتيجية التي كانت كما اتضح لقادته العسكريين قد شرعت تنضج في عقله منذ أمد ما، على الرغم من كل ما كان يشغله من احداث في الجبهة الغربية .وقال ان هذه العملية تكون جديرة بالمجازفة إذا كان هدفها تحطيم الاتحـــاد السوفياتي بضربة ساحقة واحدة . ولا يكفي مطلقاً احتلال شطر كبير من الارض الروسية. وأكد هتلر ان هدفنا يجب أن يكون « تحطيم قدرة روسيا على الوجود » . وسيكون هناك زحفان أوليان ، أحدهما في الجنوب باتجاه كييف وحوض الدنيبر ، والثاني في الشمال عبر دول البلطيق ومن ثم باتجاه موسكو . وهناك يتلاقى الجيشان. وقد يتطلب الامر بعد ذلك عملية خاصة لضمان زيت حقول النفط في باكو ، وكان مجرد التفكير بهذه الفتوحات الجديدة يثير هتلر ، إذ كان قد أعد في فكره ما سيفعله فيها. وقال انه سيضم الى بلاده فوراً أوكرانيا وروسيا البيضاء ودول البلطيق ، ويوسع حدود فنلنده الى البحر الابيض الشمالي . وسيخصص لهذه العملية كلها (١٢٠) فرقة محتفظاً بستين فرقة للدفاع عن الغرب وإسكنديناڤيا . واقترح أن يبدأ الهجوم في أيار عام ١٩٤١ ، ويستغرق أشهر للانتهاء منه . وسينتهي الهجوم في الشتاء . وأضاف أنه كان يؤثر لو قام بهذا الهجوم هذا العام ولكن ثبتت استحالة تنفيذ هذا الرأي .

ومضى هولدر في اليوم التالي أي الأول من آب ، يعمل مع أركان حربه في إعداد الخطط اللازمة . وعلى الرغم من زعمه فيما بعد ، بأنه عارض فكرة

الهجوم على روسيا كل المعارضة واضعاً إياها بالجنوب ، إلا ان اليوميات التي دوّنها في تلك الآونة تحسر النقاب عن الحماس العظيم الذي اندفع فيه ينفذ المهمة الجديدة التي أوكلت إليه .

وراح التخطيط للحملة الجديدة يقطع أشواطاً بعيدة بدقة متناهية عرفت عن الألمان ، وذلك على ثلاثة صعدان ، أولها هيئة أركان حرب الجيش وثانيها صعيد أركان حرب العمليات الحربية بقيادة وورليمونت في القيادة العليا للقوات المسلحة وثالثها فرع التسلح والاقتصاد الذي يرئسه الفريق توماس في القيادة العليا للقوات المسلحة . وقد صدرت الأوامر الى الفريق توماس في الرابع عشر من آب من المشير غررنغ بأن الفوهرر يود ان يستمر تسليم السلع التي يطلبها الروس حتى ربيع عام ١٩٤١ ليس إلا [١] . وعهد الى مكتب توماس أيضاً في إعداد دراسة مفصلة للصناعة والنقل ومراكز الزيت في الاتحاد السوفياتي على ان تصلح هذه الدراسة كدليل للأهداف العسكرية في الحرب ومن ثم كمرشد للادارة العسكرية في روسيا بعد انتهاء القتال .

وكان وورليمونت قد أصدر قبل بضعة أيام ، أي في التاسع من آب ، أول توجيه له لاعداد العدة لمناطق توزيع القوات العسكرية في الشرق ، استعداداً للقفز على الروس . وقد أطلق على هذه العملية الاسم الرمزي « البناء في الشرق » . وأمر هتلر في السادس والعشرين من آب عشر فرق للمشاة وفرقتين مدرعتين بأن تتجه كلها من الغرب الى بولندة . واشترط تركيز الوحدات المدرعة في الأقسام الجنوبية الشرقية من بولندة حتى تتمكن من التدخل عند الضرورة

---

١ ـ يؤكد توماس في تقريره عن هذا الموضوع ان الروس كانوا جد دقيقين في تسليم ما تطلبه المانيا من سلع في الاوقات المعينة . ويقول ان الروس ظلوا في الحقيقة « حتى بداية الهجوم على هذه الدقة » ، ويلاحظ مع شيء من السخرية ان « شحنات المطاط الهندي من الشرق الاقصى قد تم نقلها حتى في بضعة الايام الاخيرة على قطارات الشحن الروسية السريعة على سكة حديد سيبريا . » (المؤامرة النازية والعدوان (٤) ص ١٠٨٣ .

لحماية حقول الزيت في رومانيا[1] . ولم يكن من السهل نقل قوات ضخمة الى الشرق[2] دون إثارة مخاوف ستالين وشكوكه التي سرعان ما تثور اذا ما عرف بها ، وكان الألمان جد حريصين على ان لا يعرف ستالين بهذه الاحتشادات . ولما كان من المحتوم ان تعرف روسيا ببعض هذه الحركات ، فقد صدرت الأوامر الى الفريق ايرنست كويسترينغ ، الملحق العسكري الالماني في موسكو ، لإبلاغ أركان الحرب السوفيات ، بأن القضية لا تعدو استبدال عدد من الجنود الكبار في السن بآخرين من الشبان للافادة من أولئك في الاعمال الصناعية . وأصدر يودل في السادس من ايلول ، توجيهاً آخر ، يتضمن تفصيلات وافية عن الأساليب التي يجب اتباعها لخداع الروس والتعمية عليهم . وقال في توجيهه : « ومن الواجب ان لا يخلق هذا التجميع للقوات أي انطباع لدى الروس بأننا نعد العدة للقيام بهجوم في الشرق »[3] .

ورغب هتلر في ان لا تحس القوات المسلحة بالتكاسل والاسترخاء بعدما حققته من انتصارات رائعة في الصيف توجت هاماتها بأكاليل الغار ، وأصدر نتيجة لرغبته هذه توجيهاً شاملاً وسرياً للغاية في الثاني عشر من تشرين الثاني عام ١٩٤٠ ، حدد فيه المهام العسكرية التي سيكلفها بها في أوروبا وخارجها . وسنعود بعد قليل الى بعض هذه المهام . أما ما يهمنا منها الآن فالجزء الخاص بالاتحاد السوفياتي إذ ورد فيه ما يلي :

« لقد شرعنا في محادثات سياسية نهدف من ورائها الى ايضاح

---

١ ـ يوميات الحرب لاركان حرب العمليات في القيادة العليا للقوات المسلحة بتاريخ ٢٦ آب عام ١٩٤٠ ، وقد اقتبست من « محاكمات كبار مجرمي الحرب (١٠) ص ٥٤٩ ـ ٥٥٠ » .

٢ ـ كان الالمان قد احتفظوا في بولندة بسبع فرق ليس الا ، بينما فرقتان نقلتا الى الغرب اثناء حملة الربيع . وقال هولدر ان القوات هناك لم تكن كافية حتى للقيام بالاعمال الجمركية العادية . ولو قام ستالين بمهاجمة المانيا في حزيران عام ١٩٤٠ ، لكان في امكان الجيش الاحمر ان يصل برلين قبل ان تتمكن المانيا من اعداد اية مقاومة منظمة .

٣ ـ شهادتا ووراليمونت (المؤامرة النازية والعدوان (٥) ص ٧٤٠ ـ ٧٤١ . وتوجيه يودل (نفس المصدر (٣) ص ٨٤٩ ـ ٨٥٠) .

موقف روسيا في الوقت الحاضر . ومهما كانت نتيجة هذه المحادثات، من الواجب اتخاذ جميع الاستعدادات اللازمة للشرق ، والتي أمرت بها شفوياً فيما سبق ، والمضي في اتخاذها . وستصدر التعليمات المتعلقة بهذه الاستعدادات فيما بعد ، حالما يقدم إليّ الجيش خطته العامة للعمليات لإقرارها »[1] .

ووصل مولوتوف في نفس ذلك اليوم ، أي الثاني عشر من تشرين الثاني الى برلين ليواصل مع هتلر نفسه هذه المحادثات السياسية .

مولوتوف في برلين

ظلت العلاقات تسير من سيىء الى أسوأ بين برلين وموسكو عدة أشهر . وكان من حق هتلر وستالين ان يخدعا أي فريق ثالث ، ولكن لم يكن من حقهما مطلقاً أن يخدع الواحد منهما الآخر . ولم يكن في وسع هتلر أن يحول بين الروس وبين الاستيلاء على دول البلطيق وعلى مقاطعتي بسارابيا وشمالي بوكوفينا الرومانيتين، وقد أدى عجزه هذا الى المزيد من نقمته وغضبه . وكان لا بد من وقف الزحف الروسي نحو الغرب ، ولا سيما في رومانيا ، التي يؤلف زيتها مصدراً حيوياً لألمانيا ، نظراً لأن الحصار البريطاني المفروض عليها يحول بينها وبين استيراد البترول بحراً .

وراحت المجر وبلغاريا وغبة في اضافة تعقيدات أخرى الى مشكلة هتلر ، تطالبان ببعض الأراضي من رومانيا . وأعدت المجر في الحقيقة عدتها عندما اقترب صيف عام ١٩٤٠ من نهايته ، للمضي الى الحرب لاستعادة ترانسلفانيا التي كانت رومانيا قد اقتطعتها منها بعد الحرب الكونية الأولى . وأدرك هتلر ان

---

١ – توجيه ١٢ تشرين الثاني عام ١٩٤٠ . (المؤامرة النازية والعدوان (٣) ص ٤٠٣ – ٤٠٧ .

مثل هذه الحرب ستعزل المانيا عن مصدرها الرئيسي للزيت الخام ، وقد تؤدي الى دخول الروس لاحتلال رومانيا كلها ، وحرمان الرايخ بصورة دائمة من الزيت الروماني .

وقد تردّى الوضع الى حد ينذر بالخطر في الثامن والعشرين من آب ، مما دفع هتلر الى اصدار الأمر لخمس فرق مدرعة وثلاث فرق آلية بالإضافة الى قوات المظليين والهابطين من الجو (قوات تنقلها الطائرات) بأن تكون كلها على قدم الاستعداد للاستيلاء على حقول الزيت الرومانية في الأول من ايلول[1]. وتشاور في نفس اليوم مع ريبنتروب وشيانو في « عش النسر » ثم أوفدهما الى فيينا حيث أمرهما بفرض القانون على وزيري خارجية المجر ورومانيا لقبول تحكيم المحور في نزاعهما . وقد تم انفاذ هذه المهمة دون كبير عناء ، بعد ان عنّف ريبنتروب كلا من الفريقين المتنازعين تعنيفاً حاداً . وقبل المجريون والرومانيون في الثلاثين من آب وفي قصر « البيلفيدير » في فيينا التسوية التي وضعها المحور. وعندما رأى ميهاي مانويليسكو وزير خارجية رومانيا الخريطة التي تقضي باعادة نحو من نصف ترانسلفانيا الى المجر ، أغمي عليه ، وسقط فاقد الوعي على المنضدة التي كان التوقيع على الاتفاق يجري فوقها ، ولم يفق من غشيته إلا بعد ان جاء الأطباء واستخدموا الكافور في انعاشه [2] . وتلقت رومانيا نتيجة تعقلها في الظاهر ، ونتيجة الرغبة في اعطاء هتلر المبرر القانوني لتحقيق مشاريعه المقبلة في

---

١ ــ يوميات القيادة العليا للقوات المسلحة في ٢٨ آب (محاكات كبار مجرمي الحرب (١٠) ص ٥٦٦ ــ ٥٦٧) .

٢ ــ يوميات شيانو ص ٢٨٩ . كلف هذا الحادث الملك كارول الروماني عرشه . ففي السادس من ايلول اضطر الملك الى التنازل عن العرش ، لمصلحة ولده ميشيل البالغ من العمر ثمانية عشر عاما ، ثم فر مع عشيقته الحمراء الشعر ماجدا لوبيكو في قطار خاص يضم عشر عربات محملا اياه ما يمكن وصفه « بمنهوبات » القصر الملكي عبر يوغوسلافيا الى سويسرا . واصبح الفريق ايوني انطونسكو ، زعيم « الحرس الحديدي » الفاشي وصديق هتلر ، ديكتاتورا في البلاد .

الحقيقة ، الضمانات من المانيا وايطاليا ، لما تبقى من بلادها [1] .

وسرعان ما ألقى هتلر الضوء على هذه « المشاريع المقبلة » أمام من يثق بهم ثلاثة اسابيع من توقيع الاتفاق . فقد أصدر في العشرين من ايلول توجيهاً في منتهى السرية ، يأمر بموجبه بإيفاد « بعثات عسكرية » الى رومانيا ..

« ستكون مهمة هذه البعثات أمام العالم ، توجيه رومانيا الصديقة في إعادة تنظيم قواتها المسلحة وتدريبها .

« أما المهمة الحقيقية التي يجب ان لا يعرف بها الرومانيون ولا حتى قواتنا فهي :

« ١ – حماية منطقة ابار الزيت ..

« ٢ – اعداد العدة لتوزيع قواتنا من القواعد الرومانية مع القوات الرومانية نفسها في حالة اضطرارنا لمحاربة روسيا السوفياتية » [2] .

وكان هذا الاجراء كافياً لضمان الجناح الجنوبي للجبهة الجديدة التي بدأ هتلر يصورها في عقله .

واستاءت موسكو من عملية التوزيع في فيينا ولا سيما من الضمانة الالمانية لما تبقى من رومانيا ، وكان معظم استيائها منصباً علىعدم استشارتها . وعندما قام شولنبرغ بزيارة مولوتوف في الأول من ايلول ، ليقدم إليه مذكرة عاجلة من ريبنتروب يحاول فيها ان يشرح وان يبرر ما وقع في فيينا ، روى السفير ان « الوزير السوفياتي كان متحفظاً بالنسبة الى ما ألفه في مقابلاته السابقة » ولكن هذا التحفظ لم يكن قوياً الى الحد الذي يحول بينه وبين الاحتجاج شفوياً بصورة عنيفة . فقد اتهم الحكومة الالمانية بنقض المادة الثالثة من الاتفاق النازي – السوفياتي ، التي تدعو الى التشاور بين الفريقين، وبمواجهة روسيا « بالأمر الواقع»

---

١ – شملت الضمانات جميع رومانيا باستثناء دبروجه الجنوبية التي ارغمت رومانيا على التنازل عنها لبلغاريا .

٢ – المؤ امرة النازية والعدوان (٦) ص ٨٧٣ .

الذي يتعارض مع التأكيدات الالمانية المتعلقة « بالقضايا ذات المصالح المشتركة »[1]. وهكذا بدأ اللصوص ، كما هي العادة في مثل هذه الأحوال يتصارعون على اقتسام الغنائم .

وأخذ التفاهم يزداد حدة وعنفاً يوماً بعد آخر . فقد أبرق ريبنتروب في الثالث من ايلول ببرقية مطولة الى موسكو ينفي فيها ان المانيا قد نقضت ميثاق موسكو ، ويتهم روسيا بأنها هي التي فعلت ذلك باستيلائها على دول البلطيق وعلى المقاطعتين الرومانيتين دون مشاورة برلين . وكانت المذكرة الألمانية مصوغة في عبارات قاسية ولذا فقد رد عليها الروس في الواحد والعشرين من ايلول بمذكرة لا تقل عنها عنفاً وقسوة ، لا سيما وان الفريقين قد تحولا الآن الى عرض شكاواهما في وثائق خطية ، وقد أكد الرد السوفياتي ان المانيا هي التي ناقضت الميثاق وحذر من ان روسيا مازالت تحتفظ بمصالح لها في رومانيا ، ثم انتهى الى اقتراح ينطوي على الهزء والسخرية ، إذ يعلن ان الحكومة السوفياتية على استعداد لتعديل البند الخاص بالتشاور أو حذفه من المعاهدة كلية ، إذا كانت حكومة الرايخ ترى في هذا البند أمراً يسبب لها « الضيق والعنت وتقييد اليدين »[2] .

وقد ثارت شكوك الكرملين من هتلر بصورة متزايدة من جراء حادثين وقعا في شهر ايلول . فقد أبرق ريبنتروب الى شولنبرغ في السادس عشر من الشهر يطلب اليه ان يقوم بزيارة مولوتوف وان يبلغه عرضاً بأن المانيا تعتزم ارسال نجداتها الى شمال النروج عن طريق فنلندة ، وبعث وزير خارجية النازي بعد بضعة ايام أي في الخامس والعشرين من ايلول ببرقية أخرى الى السفارة في موسكو وجهها هذه المرة الى القائم بالأعمال إذا كان شولنبرغ قد جاء برلين في اجازة . وقد نص بصراحة على هذه البرقية بأنها « سرية ومكتومة للغاية » ، كما أرفقت بتعليمات واضحة بأن لا تنفذ إلا في اليوم التالي عندما يتلقى القائم

---

١ ـ العلاقات النازية ـ السوفياتية ص ١٧٨ ـ ١٨١ .

٢ ـ العلاقات النازية السوفياتية ص ١٨١ ـ ١٨٣ و ص ١٩٠ ـ ١٩٤ .

بأعمال السفارة من برلين كلمة « السر » إما عن طريق الهاتف أو البرق [1].

وقد طلب الى الدبلوماتي الالماني ان يبلغ مولوتوف ان اليابان وايطاليا والمانيا ستوقع « في غضون بضعة الأيام التالية » حلفاً عسكرياً في برلين . وسيتضمن الحلف نصاً خاصاً ، على أنه غير موجه ضد روسيا ... وأوضح ريبنتروب في برقيته :

« ان هذا الحلف موجه ضد دعاة الحرب الامريكيين ليس إلا . وبالطبع لن يكون هذا الهدف صريحاً في المعاهدة ، ولكن في وسع المرء ان يصل الى هذا الاستنتاج من قراءة بنوده دون شك .. والهدف الوحيد منه هو حمل تلك العناصر التي تشدد الضغط لإدخال امريكا في الحرب ، على التعقل ، باتهامها بصراحة بأن دخول امريكا الصراع الحالي ، سيؤدي بصورة آلية رتيبة الى وقوفها موقف العداء الحربي من ثلاث دول عظيمة » [2] .

وثارت شكوك الوزير السوفياتي الشديد التحفظ ، عندما حمل اليه فيرنو فون تيبلسكيرش ، القائم بالأعمال الألماني هذه الأنباء عشية السادس والعشرين ايلول ، لا سيما وان هذه الشكوك كانت قد بدأت تزدهر ، كما تزدهر الورود في حزيران . وراح يقول لزائره فوراً بذلك الاهتمام المتعالم بالتفاصيل الذي كثيراً ما ضايق كل من تفاوض معه من أعداء وأصدقاء ؛ بأن المادة الرابعة من اتفاق موسكو تخوّل الحكومة السوفياتية ؛ الحق في الاطلاع على نص هذا الميثاق العسكري الثلاثي قبل توقيعه ، مضيفاً الى ذلك قوله : « والاطلاع على أية ملاحق سرية فيه أيضاً » .

ورغب مولوتوف أيضاً في أن يعرف المزيد عن الاتفاق الألماني مع فنلندة ، لنقل القوات الالمانية عبر تلك البلاد ، وهو الاتفاق الذي سمع عنه أكثر ما سمع

---

١ ـ العلاقات النازية السوفياتية ص ١٨٨ ـ ١٨٩ .
٢ ـ العلاقات النازية السوفياتية ص ١٩٥ ـ ١٩٦ .

من الصحف بما في ضمنها برقية نقلتها وكالة الصحافة المتحدة من برلين . وأضاف مولوتوف ان موسكو قد تلقت في غضون الأيام الثلاثة الاخيرة أنباء عن نزول القوات الألمانية في ثلاث موانىء فنلندية على الأقل « بدون ان تبلغها المانيا شيئاً عن ذلك . ثم مضى يقول :

« وتود الحكومة السوفياتية ان تتلقى نص الاتفاق الذي سمح بمرور تلك القوات عبر فنلندة ، بكل ما فيه من أجزاء سرية ... وان تبلغ رسمياً الهدف من هذا الاتفاق ، وضد من هو موجه ، والأهداف التي يحققها » [1] .

وأحس الجميع في برلين حتى ريبنتروب البليد نفسه ، بالحاجة الى تهدئة الاتحاد السوفياتي ، فراح يبرق في الثاني من تشرين الاول الى موسكو بنص ما دعاه بالاتفاق مع فنلندة . وعاد فأكد ان الميثاق الثلاثي الذي تم التوقيع عليه [2] في غضون ذلك ليس موجهاً ضد الاتحاد السوفياتي ، وأعلن بكل « إخلاص » ان ليس ثمة « أية ملاحق أو اتفاقات سرية لهذا الميثاق » [3] . وأصدر ريبنتروب أيضاً تعليماته الى تيبلسكيرش في السابع من تشرين الأول ، لإبلاغ مولوتوف «بصورة عرضية ايضاً بأن المانيا تعتزم ايفاد « بعثة عسكرية »

---

١ ـ العلاقات النازية ـ السوفياتية ص ١٩٧ ـ ١٩٩ .

٢ ـ تم التوقيع على الميثاق الثلاثي في برلين في السابع والعشرين من ايلول ١٩٤٠ ، في حفلة كانت اشبه بالتمثيليات الساخرة ، وقد وضعتها في مكان آخر (كتاب يوميات برلين للمؤلف ص ٥٣٢ ـ ٥٣٧) . وقد اعترفت اليابان في المادتين الاولى والثانية من الميثاق « بزعامة المانيا وايطاليا في اقامة النظام الجديد في اوروبا » ، واعترفت الدولتان بزعامة اليابان في تحقيق نفس الغرض في آسيا الشرقية الكبرى . ونصت المادة الثالثة على المساعدة المتبادلة في حالة تعرض اي من الدول الثلاث الموقعة للهجوم من الولايات المتحدة وان لم ينص صراحة على اسمها ، وانما اكتفي بتعريفها . وبدا لي من هذا الميثاق كما دونت في يومياتي في ذلك اليوم في بر [illegible] ، ان ابرز ما فيه هو ما يرنو اليه من ان هتلر بات مقتنعا من ان الحرب ستكون طويلة وتوصل شيانو الذي وقع الميثاق نيابة عن ايطاليا الى نفس النتيجة (يوميات شيانو ص ٢٩٦) . وعلى الرغم من كل ما صدر من نفي ، فان الغاية من الميثاق كانت تهدف كذلك الى تحذير الاتحاد السوفياتي .

٣ ـ العلاقات النازية ـ السوفياتية ص ٢٠١ ـ ٢٠٢ .

الى رومانيا . وعندما تلقى رد فعل مولوتوف المنطوي على التشكك بالنسبة الى هذه المعلومات الجديدة ، إذ استفهم الوزير السوفياتي عن عدد القوات التي تعتزم إرسالها الى رومانيا [١] ، راح ريبنتروب يبعث في الثالث عشر من تشرين الأول برسالة مطولة الى ستالين محاولاً تهدئة ما يحس به السوفيات من قلق تجاه المانيا [٢] .

وكانت هذه الرسالة ، كما يتوقع المرء ، أطروحة في البلاهة والغرور ، تحتشد بالسخف والأكاذيب وتشويه الحقائق. فهو ينحو باللوم على انكلترا لقيام الحرب، ويحملها مسؤولية كل ما وقع حتى الآن ، ويعود فيؤكد شيئاً واحداً .. وهو « اننا قد كسبنا الحرب. ولم تعد القضية إلا مجرد وقت ومدى ما تستطيع فيه انكلترا ان تتحمل قبل ان تعترف بالانهيار » وهو يصف الحركات الألمانية ضد روسيا في كل من فنلندة ورومانيا ، وكذلك في الميثاق الثلاثي على انها « نعم » من المانيا لروسيا ويضيف ان الدبلوماتية البريطانية ووكلاء بريطانيا السريين يحاولان في غضون ذلك خلق الفتنة بين روسيا والمانيا . وراح يقترح على ستالين لإحباط هذه المحاولات ايفاد مولوتوف الى برلين « ليشرح له الفوهرر شخصياً آراءه في موضوع صياغة العلاقات المقبلة بين البلدين » .

وأشار ريبنتروب بطرف خفي الى ما قد تعنيه هذه الآراء ... انها لا تعني أقل من اقتسام العالم بين الدول الأربع الجماعية .. ثم مضى يقول :

« ويبدو ان رسالة هذه الدول الأربع ، وهي الاتحاد السوفياتي وايطاليا واليابان والمانيا ، وضع سياسة طويلة المدى ، عن طريق تحديد مصالحها كلها عن نطاق عالمي » .

وقد وقع بعض التأخير في السفارة الالمانية في موسكو في تسليم هذه الرسالة الى المصدر الموجهة اليه ، مما اثار غضب ريبنتروب الى حد الهياج ،

---

١ ـ العلاقات النازية ـ السوفياتية ص ٢٠٦ ـ ٢٠٧ .

٢ ـ العلاقات النازية السوفياتية ص ٢٠٧ ـ ٢١٣ .

وأوحى له بارسال برقية غاضبة الى شولنبرغ يطلب اليه فيها معرفة الاسباب التي حالت دون وصول رسالته حتى السابع عشر من الشهر ، ولماذا « على الرغم من معرفته بأهمية محتويات هذه الرسالة » ، لم يقم بتسليمها الى ستالين شخصياً وانما اكتفى بتسليمها الى مولوتوف [١] . ورد ستالين في الثاني والعشرين من تشرين الأول برسالة كانت ودية للغاية في لهجتها . وقد جاء في هذا الرد ما يلي : « يعترف مولوتوف أنه مدين لك بزيارة لبرلين ، وعلى هذا فهو يقبل دعوتك لزيارتها » [٢] . ويبدو ان هذا اللطف من جانب ستالين لم يكن اكثر من مجرد قناع . فقد ابرق شولنبرغ الى برلين بعد بضعة ايام يقول ان الروس قد احتجوا على ان المانيا ترفض تسليمهم المواد الحربية في الوقت الذي يبعثون فيه بالاسلحة الى فنلندة . وقال شولنبرغ في برقية ايضاً بان هذه هي المرة الأولى التي يتحدث فيها الروس عن شحنات اسلحتنا الى فنلندة . » [٣]

* * *

« انه يوم عبوس قاتم . وقد وصل مولوتوف وكان استقباله رسمياً ينطوي على الفتور والجمود . وبدا وهو يقطع شارع «اونتردن لندن » بسيارته متجهاً الى السفارة السوفياتية كمدير مدرسة ريفية كادح وعادي . ولكن ليس ثمة من شك في ان نجاحه في البقاء حياً في منافسات الكرملين على « قطع الرقاب » يوحي بأن في الرجل شيئاً ما . . ويتحدث الألمان صراحة عن رغبتهم في السماح لموسكو بتحقيق الحلم الروسي القديم بالسيطرة على مضائق البوسفور والدردنيل ، في الوقت الذي يحتلون هم فيه ما تبقى من البلقان

---

١ ـ العلاقات النازية السوفياتية ـ نص برقية ريبنتروب الغاضبة ص ٢١٤ .
٢ ـ العلاقات النازية السوفياتية ـ نص رد ستالين ص ٢١٦ .
٣ ـ العلاقات النازية السوفياتية ص ٢١٧ .

كرومانيا ويوغوسلافيا وبلغاريا .. »

بهذه العبارة استهليّت يوميتي في برلين بتاريخ الثاني عشر من تشرين الثاني عام ١٩٤٠ . ويبدو ان حديث الألمان الصريح كان صحيحاً الى حد كبير ، بالنسبة الى ما حدث . فنحن نعرف اليوم عن هذا الاجتماع الغريب والقدري ، كما حدث ، اكثر مما كان باستطاعتنا ان نعرف ، ويرجع الفضل في ذلك الى الوثائق الألمانية الرسمية المصادرة التي يعثر المرء فيها على ما دوّنه الألمان من وقائع هذا الاجتماع الذي استغرق يومين على النحو الذي دوّنه فيه الدكتور شميدت الموجود في كل مكان . [1]

وكان ريبنتروب في الاجتماع الأول الذي دار بين وزيري الخارجية قبل ظهر الثاني عشر من تشرين الثاني ، في حالة مزاجية تعتبر من اكثر حالاته تفاهة وغروراً ، ولكن سرعان ما تمكن مولوتوف من سبر غوره ومعرفة حقيقة ما يجري الألمان وراءه . وقد بدأ ريبنتروب حديثه قائلاً : « لقد هزمت انكلترا ، وغدا الموضوع قضية وقت ليس إلا ، عندما تعترف اخيراً بهزيمتها . . . فلقد جاءت اخيراً بداية النهاية بالنسبة الى الامبراطورية البريطانية » . ومضى يقول ان البريطانيين ما يزالون يأملون في العون يأتيهم من امريكا ، ولكن « دخول الولايات المتحدة في الحرب لم يعد ذا شأن بالنسبة الى المانية ، اذ ان المانيا وايطاليا لن تسمحا لأي « انكلو – سكسوني » بأن يطأ القارة الأوروبية ثانية ... ولا يؤلف هذا التصميم أية مشكلة عسكرية . . ولا تدرس دولتا المحور الآن والحالة هذه الطريقة التي تستطيعان فيها كسب الحرب ، بل الطريقة التي يمكن بواسطتها انهاء هذه الحرب التي كسبها المحور بالسرعة الممكنة » .

---

١ ـ مذكرة عن اجتماعات مولوتوف بريبنتروب وهتلر في ١٢ ـ ١٣ تشرين الثاني عام ١٩٤٠ ـ ص ٢١٧ ـ ٢٥٤ ـ عاد ستالين فأكد دقة هذه المذكرة ، وان لم يقصد هو تأييدها . ويقول تشرشل انه تلقى وصفا من ستالين في آب عام ١٩٤٢ عن المحادثات التي اجراها مولوتوف في برلين ثم يمضي قائلا : « وهي لا تختلف في جوهرها عن السجلات الالمانية على الرغم من انها اكثر قوة ودقة » (تشرشل ـ مذكرات ـ الجزء الثاني ص ٥٨٥ ـ ٥٨٦) .

وراح ريبنتروب ، يوضح ان الحالة وقد باتت على هذا النحو ، تتطلب الآن من الدول الأربع الكبرى وهي روسيا والمانيا وايطاليا واليابان ان تحدد « مناطق نفوذها » . وقد توصل الفوهرر الى الاستنتاج بأن الطبيعة تقضي بأن تتوسع الدول الاربع « باتجاه الجنوب » . وقد شرعت اليابان فعلاً بالاتجاه جنوباً ، كما فعلت ايطاليا نفس الشيء ايضاً ، بينما ستجد المانيا بعد ان تقيم « النظام الجديد » في اوروبا الغربية ، المجال الحيوي الاضافي لها في « اواسط افريقيا . وقال ريبنتروب «أنه يتسائل » ما اذا كانت روسيا لن « تتجه ايضاً نحو الجنوب للوصول الى منفذها الطبيعي الى البحار الفسيحة ، وهو المنفذ الذي كان متناهياً في الأهمية بالنسبة لها » .

وقاطعه مولوتوف ببرود قائلاً : « أي بحر تقصد ؟ » .

وكان هذا السؤال غريباً بالاضافة الى ما فيه من حرج ، وهو ما تعلمه الألمان في غضون الست والثلاثين ساعة المقبلة من احاديث لا تنتهي مع هذا البلشفي العنيد والدقيق والكثير الكلام . واسقط في يد ريبنتروب فترة من الوقت لم يستطع فيها ان يحير جواباً . وبدلاً من ان يرد مباشره على هذاالسؤال، راح يتحدث باسهاب عن « التبدلات العظيمة التي ستقع في جميع اطراف العالم بعد الحرب» ، وقال هاذراً ان الشيء المهم هو « ان الفريقين الشريكين في الميثاق الروسي –الألماني قد افلحا في تحقيق بعض النتائج الطبيعية ، وان في وسعهما ان يستمرا في تحقيق مثل هذه النتائج » . وعندما أصر مولوتوف على الحصول من رد لسؤاله البسيط ، أجاب ريبنتروب اخيراً بأن « المنفذ الأنفع لروسيا على المدى الطويل للوصول الى البحر ، يقوم باتجاه الخليج الفارسي وبحر العرب» .

ويقول الدكتور شميدت الذي شهد الاجتماع ودون وقائعه ، ان مولوتوف كان يجلس دون « ان يستطيع المرء تمييز ما يفكر فيه من تعبيرات وجهه »[1] . ولم يتحدث إلا القليل ، واقتصر قوله في النهاية على ان « الدقة والحرص » أمران ضروريان في تحديد مناطق النفوذ « ولا سيما بين المانيا وروسيا » . ويبدو ان

---

١ – بول شميدت ترجمان هتلر – ص ٢١٢ .

المفاوض السوفياتي الداهية ظل يختزن ما لديه حتى يقابل هتلر الذي اجتمع اليه بعد الظهر . وقد تبين ان هذا الاجتماع كان بالنسبة الى سيد الحرب النازي الواسع الجبروت ، تجربة فذة في نوعها ، ومثيرة للدهشة ومحطمة للأعصاب ومخيبة للأمل .

وكان هتلر في مقابلته هذه لا يقل غموضاً عن وزير خارجيته ، ولربما كان اكثر منه استعلاء . وقد بدأ كلامه قائلا ان المانيا ستوجه « الضربة القاضية ضد انكلترا » فور تحسن الطقس . واضاف قائلا : « ولكن هناك مشكلة امريكا بكل تأكيد » . ومع ذلك فلا تستطيع هذه ان « تهدد حرية الدول الاخرى قبل عام ١٩٧٠ أو عام ١٩٨٠ . فلا شأن لها لا في اوروبا ولا في افريقيا أو آسيا ، وهو تأكيد سرعان ما قاطعه مولوتوف ليعلن موافقته عليه . ولكنه لم يتفق مع هتلر في الكثير مما قاله ايضاً . اذ عندما انتهى الزعيم النازي من عرضه المسهب لبعض التعليمات المفرحة ، مؤكداً عدم وجود خلافـات جوهرية بين البلدين في سعيهما لتحقيق ما يطمحان اليه في زحفهما المشترك « نحو منافذ المحيطات » ، رد مولوتوف بأن « بيانات الفوهرر لا تعدو ان تكون ذات طبيعة عامة » . واضاف انه يود الآن ان يعرض آراء ستالين الذي زوده عند مغادرته موسكو « بتعليمات دقيقة واضحة » . وسرعان ما كشف اوراقه امام الديكتاتور الالماني بشكل لم يكن هذا ، كما روت الوقائع التي دوّنها شميدت مستعداً له .

واستذكر شميدت فيما بعد هذا الاجتماع فقال : « لقد انهالت الاسئلة على هتلر ، بطريقة لم يسبق قط لأي زائر اجنبي ان تحدث بها في حضوري لهتلر . » [١]

كان موتولوف راغباً في ان يعرف ماذا تريد المانيا من حركاتها في فنلندة. وما الذي تعنيه كلمة النظام الجديد في اوروبا وآسيا ، وما هو الدور الذي سيعطي للاتحاد السوفياتي في هذا النظام ؟ وما هي « أهمية » الميثاق الثلاثي ؟ ومضى يقول « يضاف الى هذا ان ثمة قضايا يجب ايضاحها بالنسبة الى مصالح روسيا في البلقان والبحر الأسود بالنسبة الى بلغاريا ورومانيا وتركيا . وانهى حديثه

---

١ ــ بول شميدت ــ ترجمان هتلر ص ٢١٤

قائلاً بأنه يود ان يسمع من الفوهرر بعض الردود « والأيضاحات » .

ويبدو ان هتلر قد فوجيء بهذه الأسئلة لأول مرة في حياته، فلم يستطع الرد عليها، واقترح تأجيل الاجتماع « نظراً لاحتمال وقوع انذار بالغارة الجوية » مع الوعد بأن يدخل مع زائره في نقاش طويل في اليوم التالي .

وهكذا تأجل الشجار الى اليوم التالي، ولم يستبعد، وعندما استأنف هتلر ومولوتوف حديثهما في الصباح التالي، كان الوزير الروسي عنيفاً لا يلين . وبدأ حديثه بفنلندة، التي سرعان ما اشتبك الرجلان في شجار عنيف ومرير حولها. وطلب مرلوتوف ان تسحب المانيا قوتها فوراً من فنلندة . ونفى هتلر « ان تكون الجيوش الألمانية محتلة لها . »، وأكد انها تمضي من هناك الى النروج، ولكنه يود ان يعرف « هل تعتزم روسيا ان تحارب فنلندة » . وتقول الوقائع الالمانية المدوّنة ان مولوتوف حاول التملص من الرد على هذا السؤال، وان هتلر اعتبر جوابه غير مرضٍ .

وراح هتلر يصرّ قائلاً : « يجب ان لا تقع حرب في البلطيق، اذ ان مثل هذه الحرب ستعرض العلاقات الألمانية – الروسية للتوتر » . وعاد يضيف بعد لحظة واحدة ان هذا التوتر قد يؤدي الى نتائج لا يتوقعها احد » . ثم راح يسأل زائره قائلاً : « على أي حال ماذا يطلب الاتحاد السوفياتي من فنلندة بعد كل ما أخذه منها » ؟ انه يود ان يعرف، ورد الزائر بأن الاتحاد السوفياتي يود « تسوية معها على غرار ما وقع في بسارابيا »، أي ضمها اليه . ويبدو ان رد فعل هتلر على هذا القول قد ازعج الزائر الروسي الجامد الذي لا يتأثر أبداً فسارع يسأل هتلر ابداء رأيه فيما قاله .

وحاول الديكتاتور بدوره ان يتملص من الرد الصريح فأجاب بأنه لا يسعه إلا ان يكرر ما سبق له قوله من « ان الحرب يجب ان لا تقع مع فنلندة، اذ ان مثل هذا النزاع قد يترك آثاراً بعيدة المدى، لا تدرك الآن » .

ورد مولوتوف قائلاً : « يؤدي هذا الوضع والحالة هذه الى دخول عامل جديد في النقاش ... »

ويبدو ان هذا الشجار قد احتد في هذه اللحظة ، حتى ان ريبنتروب ، أحس بالهلع فسارع الى التدخل ، قائلاً ، حسب الرواية الالمانية ، « بأن ليس ثمـة من داع في الحقيقة ابداً ، لخلق مثل هذه المشكلة حول موضوع فنلندة . ويبدو ان القضية لا تعدو ان تكون مجرد سوء تفاهم » .

واستغل هتلر هذا التدخل الذي جاء في وقتـه المناسب ، ليحول دفـّة الحديث بسرعة الى موضوع آخر . وراح يفكر أو ليس في امكانه اغراء الروس بالمنهوبات التي لا حد لها ولا حصر ، والتي ستتوافر مـع انهيار الامبراطورية البريطانية ؟ ثم قال : « دعنا نتحوّل الآن الى البحث في مواضيـع اكثر اهمية . ثم قال :

« بعد ان يتم احتلال انكلترا ، ستصبح الامبراطورية البريطانية مجرد اقطاعية تضم اربعين مليون كيلو متر مربـع من انحاء العالم ، وفي حالة من الافلاس . وسيغدو في مكنة روسيا ان تعثر في هذه الاقطاعية المفلسة على المنفذ الذي تريده الى البحار المفتوحة والتي لا يلحق بها التجمد ... فلقد كانت اقلية لا يعدو تعدادهـا خمسة واربعين مليوناً من السكان تتحكم حتى الآن في نحو من ستمائة مليون انسان يقيمون في الامبراطورية البريطانية . وهو على وشك تحطيم هذه الاقلية . . . وتنشأ في مثل هذه الظروف احتمالات واسعة تشمل العالم بأسره . . . وعلى جميع الدول التي يهمها أمر هذه الاقطاعية المفلسة ان توقف كل ما بينها من خلافات ، وان تحصر اهتمامها في تجزئة الامبراطورية البريطانية . وينطبق هذا القول على كل من المانيا وفرنسا وايطاليا وروسيا واليابان » .

ولكن الزائر الروسي البارد كالثلج والجامد العواطف لم يتأثر كما يبدو بهذه « الاحتمالات العالمية الواسعة » على الرغم مما فيها من اشراق ، كما لم يبد مقتنعاً كالألمان ، وهو ما عاد يؤكده بعد لحظات ، من ان الامبراطورية البريطانية ستكون جاهزة للاقتسام والتجزئة . وقال انـه يود لو بحث في المشاكل

الأقرب الى أوروبا كتركيا مثلاً او بلغاريا أو رومانيا .

وقال : ان الحكومة السوفياتية ترى ان الضمانة الألمانية لرومانيا انما تستهدف الإضرار بمصالح روسيا السوفياتية ، هذا اذا أراد المرء التعبير عن رأيه بصراحة ».وكان مولوتوف يواصل التعبير عمّا يريد قوله بصراحة طيلة اليوم، مما ازعج مضيفيه ، وها هو الان يمضي في اصراره هذا وصراحة فيطالب المانيا « بالغاء » ضمانتها لرومانيا ولكن هتلر يرفض طلبه هذا .

ويقول مولوتوف : « حسناً » ... ولما كانت موسكو كثيرة الاهتمام بالمضايق ، فماذا تقول المانيا لو انها أي روسيا قدمت لبلغاريا ضمانات تشبه في شروطها ونصوصها الضمانات التي قدمتها المانيا وايطاليا لرومانيا ؟ » .

وكان في وسع كل من حضر الاجتماع ان يرى التجهُّم واضحاً على اسارير هتلر . وراح يسأل ضيفه عما اذا كانت بلغاريا قد طلبت ضمانات ، كما فعلت رومانيا ؟ وتذكر الوقائع الألمانية عن الاجتماع ان الفوهرر قال لضيفه بأنه لا يعرف عن وجود طلب كهذا من بلغاريا . ولكنه على أي حال يود ان يشاور موسوليني قبل ان يعطي لروسيا رداً اكثر وضوحاً وتحديداً في هذا الموضوع . واضاف بشيء من التحذير قائلاً : « ولو ارادت المانيا البحث عن مصادر للاحتكاك مع روسيا لما احتاجت الى المضائق لخلق هذا الاحتكاك » .

وهنا أحس الفوهرر الذي عرف برغبته في كثرة الحديث دائماً ، بأنه لم يعد قادراً على الاستماع الى مثل هذا الروسي الصعب المراس .

وتقول الوقائع الألمانية المدوّنة ... « ان الفوهرر عندما وصل الحديث الى هذه النقطة ، لفت انتباه زائره الى ان الوقت بات متأخراً ، واضاف انه بالنظر الى احتمال وقوع غارات جوية بريطانية فإنه يرى من الافضل قطع الحديث في هذه المرحلة ، لا سيما وان البحث قد تناول معظم القضايا الرئيسية الى حد كاف » .

وأقام مولوتوف مأدبة عشاء ساهرة في تلك الليلة لمضيفيه في دار السفارة السوفياتية في « اونتر دين لندن » . ويبدو ان هتلر كان متعباً من الاجتماع

وكان لا يزال متأثراً من المحنة التي مر بها ، فتغيّب عن الحفلة .

ولم يتغيّب البريطانيون عنها ايضاً . وقد دهشت لأن قاذفات قنابلهم لم تظهر في سماء برلين في الليلة السابقة ، كما كان شأنها في كل ليلة سابقة ، لتذكر الوزير السوفياتي في الليلة الأولى التي قضاها في العاصمة الألمانية ، بأن بريطانيا ، مهما قال له الالمان عنها ، ما زالت في الحرب ، وان في وسعها ان تضرب . واني لأعترف ان البعض منا ظل ينتظر بأمل ورجاء وصول الطائرات البريطانية ولكنها لم تصل . وأحس موظفو الويلهلمشتراسه، الذين كانوا في قلق ، بالكابوس يزاح عن صدورهم . ولكن هذا الشعور بالارتياح لم يدم طويلاً .

فلقد جاءت الطائرات البريطانية مساء الثالث عشر من تشرين الثاني في وقت مبكر للغاية[1] . وكان الظلام يخيّم على برلين في الساعة الرابعة مساء في هذا الوقت من السنة ، ولم تكد تحل الساعة التاسعة مساء حتى انطلقت صافرات الانذار بالغارة الجوية ، وبات في وسع المرء ان يستمع الى هدير المدافع المضادة للطائرات ، وان يصغي الى ازيز الطائرات فوق رأسه . ويقول الدكتور شميدت الذي شهد المأدبة في دار السفارة السوفياتية ، ان مولوتوف كان قد اقترح ان يشرب الحاضرون نخب الصداقة بين البلدين ، وان ريبنتروب كان قد وقف على قدميه ليرد بنخب ودي مماثل عندما انطلقت الصافرات معلنة وقوع الغارة ، فسارع الضيوف الى الملجأ . واني لأذكر ما وقع من هرج ومرج ، في شارع « لندن » وعند زاوية الويلهلمشتراسه عندما كان الروس والألمان يهرعون للاحتماء بملجأ وزارة الخارجية . وسارع عدد من الموظفين وبينهم الدكتور شميدت الى فندق « ادلون » ، الذي كنا نرقب من مدخله ما يقع ، ولم يكن في وسعنا ان نصل الى الاجتماع المرتجل الذي عقده الوزيران الآن في اقبية وزارة الخارجية .

---

١ ــ يقول تشرشل ان الغارة الجوية قد وقتت خصيصا لهذه المناسبة . وقد كتب يقول: « وكنا قد سمعنا عن الاجتماع قبل وقوعه ، وعلى الرغم من اننا لم ندع الى الاشتراك فيما دار فيه من احاديث ، الا اننا لم نرغب مطلقا في ان نظل بعيدين عن وقائعه » . (تشرشل ــ مذكرات ــ الجزء الثاني ص ٥٨٤) .

ولهذا فقد تولى غوستاف هيلغر مستشار السفارة الألمانية في موسكو تدوين وقائع هذا الاجتماع نيابة عن الدكتور شميدت الذي لم يستطع حضوره ، اذ كان هيلغر هذا قد قام بدور أحد المترجمين في الاجتماعات .

وحاول وزير الخارجية النازي الكثير التملص ، اغراء الروس للمرة الاخيرة ، بينما كانت القاذفات البريطانية تحوّم في حلكة الدجى في السماء ، وبينما كانت المدافع المضادة ، تهدر مطلقة قذائفها عليها دون ان تترك اثراً . واستل من جيبه مشروع اتفاق ، يحوّل في جوهره الميثاق الثلاثي الى ميثاق للدول الاربع ، على ان تكون روسيا دولته الرابعة . واصغى مولوتوف بصبر واناة الى ريبنتروب وهو يتلو على مسامعه نص هذا المشروع .

وكانت المادة الثانية هي زبدة هذا الاتفاق . فهي تنص على ان تحترم كل من المانيا وايطاليا واليابان والاتحاد السوفياتي « مناطق النفوذ الطبيعية لبعضها البعض » . وهي تقضي ايضاً بأن تحل الخلافات في حالة ظهورها « بطريقة ودية وحبية » . وتوافق الدولتان الفاشيتان واليابان « على الاعتراف بالنطاق الحالي للممتلكات السوفياتية ، وتتعهد باحترامها » وتتعهد الدول الاربع بموجب المادة الثالثة بعدم الدخول أو بعدم تأييد أي تجمّع دولي « موجه ضد أي من الدول الاربع المتعاقدة » .

واقترح ريبنتروب اعلان نصوص الاتفاق مع الاحتفاظ بسرية ملاحقها المكتومة التي شرع الآن في تلاوتها على مسامع زميله السوفياتي . وكان اهم هذه الملاحق ، الوثيقة التي تحدد لكل دولة من الدول الاربع « مطامحها الاقليمية » . وكانت هذه المطامح بالنسبة الى روسيا ، الى الجنوب من اراضيها أي باتجاه المحيط الهندي .

ولم يستجب مولوتوف للطعم الذي قدمه اليه ريبنتروب . فالميثاق المقترح يهدف كما هو الواضح الى محاولة تحويل اهتمام روسيا عن اندفاعها التاريخي غرباً باتجاه البلطيق والبلقان وعبر المضائق الى البحر الابيض المتوسط ، حيث تصطدم حتماً مع مخططات المانيا فايطاليا الطامعة الى مكان آخر . والاتحاد السوفياتي

في الوقت الحاضر على الاقل ليس مهتماً بالمحيط الهندي الذي يبعد عنه كثيراً . ورد مولوتوف بأن ما يهم الاتحاد السوفياتي في الوقت الحاضر ينحصر في اوروبا والمضائق التركية . واضاف قائلاً : « وعلى ضوء هذا فان الاتحاد السوفياتي لن يكتفي باتفاقات الورق ، وانما يصر على نوال ضمانات فعالة لسلامته » . ثم قال :

« ولا تقتصر القضايا التي يهتم بها الاتحاد السوفياتي على تركيا بل يتعداها ايضاً الى بلغاريا ... ومع ذلك يهتم الاتحاد السوفياتي ايضاً بمصير رومانيا والمجر . ولا يمكن له ان يقف منهما موقف التجاهل وعدم الاكتراث . ويهم الحكومة السوفياتية كذلك ان تعرف ما يعتزمه المحور بصدد يوغوسلافيا واليونان ، وما تنويه المانيا بشأن بولندة ... وهي تهتم كذلك بحياد السويد ... يضاف الى ذلك مشكلة المرور عبر بحر البلطيق » .

وهكذا افرغ وزير الخارجية السوفياتية ، الذي لا يكل ولا يمل ، والذي لا تظهر على اساريره أي علائم انفعال ، كل ما في جعبته ، وأحس ريبنتروب نه قد بات مدفوناً تحت هذا التيهور الهائل من الاسئلة ، ذلك لأن مولوتوف قال عندما وصل الى هذا الحد ، بأن مما « يبعث في نفسه الرضى » ، ان يتكرم ضيفه بالرد عليها . واحتج ريبنتروب بأنه « يتعرض لاستجواب دقيق » ثم قال بصوت خافت :

« ان كل ما استطيع قوله وتكراره ، هو توجيه السؤال الحاسم لمعرفة ما اذا كان الاتحاد السوفياتي على استعداد ، ويجد نفسه في وضع يمكنه من التعاون معنا في عملية تصفية الامبراطورية البريطانية الضخمة » .

وكان مولوتوف على اهبة للرد بجواب قاطع . وقد دون هيلفر هذا الرد في سجله :

« قال مولوتوف ، ان الألمان يفترضون انهم قد كسبوا الحرب ضد انكلترا . واذا صح ما اكده هتلر من ان المانيا تخوض حرب

الحياة أو الموت ضد انكلترا فان كل ما يستطيع فهمه من هـــذا التأكيد، هو ان المانيا تحارب من اجل حياتها وان انكلترا تحارب من اجل موتها » .

وكان من المحتمل ان تفوت هـــذه السخرية على ذهن ريبنتروب البليد، لكن مولوتوف لم يرغب في ان يضيع فرصته، وان لا يفهم ضيفه سخريته. وراح يرد على تأكيد الألمان المستمر بأن بريطانيا قد انتهت قائلاً : « اذا صح هذا ، فلماذا نقبع نحن الآن في هذا الملجأ ، ولمن هذه الطائرات التي تقذف بقنابلها علينا ؟ » [١]

واستخلص هتلر من هذه التجربة المنهكة التي مر بهـا مع مساوم موسكو الصعب الشكيمة ، ومن دليل جديد جاءه بعد اسبوعين عن تزايد الشهية عند ستالين وعدم اكتفائها ، النتائج النهائية التي قررها .

وأرى من واجبي ان اقول هنـــا ، ان الديكتاتور السوفياتي ، مهما كانت الطلبات التي قدمها متعارضة مع عروض هتلر ، قد قبل هذه العروض بالانضمام الى المعسكر الفاشي ، وان كان قد ألحّ على وجوب الحصول على ثمن اكبر ممـــا عرضته برلين . ففي السادس والعشرين من تشرين الثاني أي بعد اقل من اسبوعين من عودة مولوتوف من زيارته الى المانيا ، ابلغ ستالين السفير الألماني في موسكو بأن روسيا على استعداد للاشتراك في الميثاق الرباعي شريطة تحقيق المتطلبات التالية :

« ١ — سحب القوات الألمانية فوراً من فنلندة التي تعتبر جزءاً من منطقة نفوذ الاتحاد السوفياتي ...

« ٢ — ضمان أمن الاتحاد السوفياتي في المضائق في غضون الاشهر القليلة القادمة عن طريق عقـــد ميثاق للعون المتبادل بين الاتحاد السوفياتي وبلغاريا... واقامة قاعدة للقوات البرية والبحرية

---

١ — روى تشرشل هذه الطلقة الاخيرة التي صدرت عن مولوتوف قبل سفره في الصفحة ٥٨٦ من الجزء الثاني من مذكراته وقد سمعها من ستالين في وقت لاحق من الحرب .

السوفياتية على مرمى من البوسفور والدردنيل عن طريق الاجارة لمدة طويلة .

« ٣ – الاعتراف بالمنطقة الواقعة الى الجنوب من باطوم وباكو باتجاه الخليج الفارسي كمركز الثقل في مطامح الاتحاد السوفياتي .

« ٤ – تنازل اليابان عن حقوقها وامتيازاتها في الزيت والفحم في شمال جزيرة سخالين » [١]

وهكذا طلب ستالين خمس ملاحق سرية بدلاً من ملحقين للميثاق المقترح ، على ان تتضمن هذه الملاحق اقتراحاته الجديدة ، وطلب ايضاً ان تقوم الدول الاربع في حالة تعنّت تركيا في معارضة اقامة قواعد روسية تسيطر على المضائق ، باتخاذ الاجراءات العسكرية اللازمة ضدها .

ولكن هذه الاقتراحات التّفت ثمناً اعلى مما كان هتلر على استعداد للبحث فيه. فلقد حاولَ الابقاء على روسيا بعيدة عن اوروبا ولكن ستالين يطالب الآن بفنلندة وبلغاريا والاشراف على المضائق بالاضافة الى السيطرة على حقول الزيت الايرانية والعربية وهي الحقول التي تزود اوروبا في الظروف العادية بمعظم حاجاتها من الزيت . ولم يشر الروس بقليل أو كثير الى المحيط الهندى الذي حاول الفوهرر ان يجعل منه مركز الثقل في مطامح الاتحاد السوفياتي .

وقال هتلر لكبار قادته العسكريين : « ان ستالين ذكي وداهية . وها هي طلباته تزداد شيئاً فشيئاً . انه بلطجي من الطراز الأول يعتمد الابتزاز طريقة له . ولم يعد في قدرة روسيا ان تحتمل نصر المانيا . ولهذا يجب علينا ان نحملها على الركوع على ركبتيها في اسرع وقت ممكن [٢] » .

وهكذا وجد البلطجي النازي العظيم نداً له في ستالين ، وادى ادراكه لهذه الحقيقة الى اثارة غضبه . ولم يحل مطلع شهر كانون الأول، حتى كان يطلب

---

١ – برقية شولنبرغ في ٢٦ تشرين الثاني ١٩٤٠ . العلاقات النازية السوفياتية ٢٥٨ – ٢٥٩ .

٢ – مؤتمرات هتلر في الشؤون البحرية (١٩٤١) ص ١٣ يوميات هولدر في ١٦ كانون الثانـي ١٩٤١ .

الى هولدر ان يقدم له الخطة التي وضعتهـــا هيئة اركان حرب الجيش للهجوم الكاسح على الاتحاد السوفياتي . ونفذ هولدر الأمر ، وفي الخامس من كانون الاول حمل الخطة مع براوختش ومضيا لمقابلته ، فأقرها بعد اجتماع دام اربع ساعات. وتتضمن اليوميات الحربية للقيادة العليا للقوات المسلحة ، التي صودرت بعـــد الحرب ، كما تتضمن يوميات هولدر السرية نفسها تقريراً عما دار في هذا الاجتماع الخطير (١) . واكد سيد الحرب النازي وجوب تحطيم الجيش الاحمر الى الشمال والجنوب من مستنقعات بريبيت ، وتطويق قواته وإبادتها « كما وقع في بولندة ». وقال لهولدر « انني لا ارى اهمية لموسكو » . والمهم هو تحطيم « قوة الحياة » في روسيا . ومن الواجب اشراك رومانيا وفنلندة في الهجوم ، أما المجر فلا . ومن الواجب ايضاً نقل فرقة الفريق كايتل الجبليـــة من نارفيك عبر شمال السويد الى فنلندة لمهاجمة المنطقة السوفياتية القطبية (٢) . وتقرر تخصيص نحو من (١٢٠) أو (١٣٠) فرقة لهذه الحملة الضخمة .

وتستخدم يوميات الفريق هولدر في اشارتها الى ما وقع في هـــذا المؤتمر ، العبارة الرمزية « اوتو » للتدليل على هذه الخطة ضد روسيا ، وهو نفس الاسم الرمزي الذي اطلق على العملية في مناسبات سابقة . ولكن لم يمضِ اقـــل من اسبوعين ، أي في الثامن عشر من كانون الأول عام ١٩٤٠ ، حتى كان هـــذا الاسم الرمزي قد استبدل باسم آخر قـــدر له ان يصبح اسماً تاريخياً . ففي هذا اليوم اجتـــاز هتلر نهر « روبيلون » وحزم امره . واصدر توجيهه الواحد والعشرين الذي توّجه بالعبارة التالية ... « عملية بربروسة » وهذا نص مـــا جاء في استهلاله ...

---

١ ـ يوميات هولدر في ٥ كانون الاول عام ١٩٤٠ . المؤامرة النازية والعدوان (٤) ص ٣٧٤ ـ ٣٧٥ . والاخيرة ترجمة لجزء من اليوميات الحربية لقيادة الجيش العليا ، التي كان يودل يتولى رئاسة اركان حربها .

٢ ـ سمحت السويد التي سبق لها ان رفضت نقل قوات الحلفاء عبر اراضيها ابـان الحرب الروسية ـ الفنلندية ، لهذه الفرقة المسلحة اكمل تسلح بعبور اراضيهـا . وقـد انضمت المجر فيما بعد طبعا الى الحرب ضـد روسيا .

سري للغاية

مقر قيادة الفوهرر
١٨ كانون الأول ١٩٤٠

« على القوات الألمانية المسلحة ان تكون متأهبة لسحق روسيا السوفياتية في حملة سريعة قبل انتهاء الحرب ضد انكلترا . وعلى الجيش تحقيقاً لهذه الغاية ان يعد كل ما يتوافر لديه من وحدات ، شريطة ان يضمن الدفاع عن البلاد المحتلة ضد أية هجمات مفاجئة .

« ومن الواجب استكمال الاعدادات اللازمة قبل الخامس عشر من ايار عام ١٩٤١ . ومن الضروري اتخاذ اقصى الحيطة ، مخافة ادراك ما نعتزم القيام به من هجوم » .

وهكذا تقرر ان يكون منتصف ايار من الربيع القادم موعد الصفر بالنسبة الى الهجوم ... وحدد هتلر « الهدف العام » لعملية بربروسة على النحو التالي :

« يجب تحطيم القسم الاكبر من الجيش الروسي العامل في غرب روسيا بواسطة عمليات جريئة ، تتمثل في شق ثغرات مدرعة وعميقة ، وكذلك في الحيلولة دون تقهقر وحدات متماسكة ومستعدة للحرب نحو آفاق روسيا الواسعة الفسيحة . أما الهدف النهائي للعملية فإقامة خط دفاعي ضد روسيا الآسيوية يمتد من نهر الفولغا الى ميناء اركانجل في الشمال » .

ومضى توجيه هتلر يتحدث باسهاب بعد ذلك عن الخطوط الرئيسية للهجوم [1] . وحدد بعد ذلك دوري رومانيا وفنلندة تحديداً واضحاً . فعلى

---

١ ـ ذهب كثيرون من المؤرخين الى ان هتلر لم يمض بعيدا في التفصيل في هذا التوجيه

هاتين الدولتين ان تؤمنا مناطق الوثوب للهجوم في الجناحين البعيدين في الشمال والجنوب ، وان تزود المانيا بما تحتاج اليه من قوات لتعزيز جيوشها في هـــذه العمليات . ورأى التوجيه ان موقف فنلندة متناهٍ في الأهمية . إذ على الجيوش الألمانية والفنلندية المتعددة ان تزحف باتجاه لينغراد ومنطقة بحيرة لادوغا ، وان تقطع الخط الحديدي الموصل الى مورمانسك وتستولي على مناجم النيكل في تبسامو وتحتل الموانىء الروسية التي لا تتجمد في المنطقة القطبية . واعترف هتلر ، بأن الكثير يعتمد على ما إذا كانت السويد ستسمح بعبور القوات الألمانية من النروج في أراضيها ، ولكنه توقع وكان محقاً في توقيعه ، بأن السويد لن تتوانى عن تقديم هذا التساهل .

وأوضح هتلر انمستنقعات بريبيت هيالتي ستتولى تجزئة العمليات الرئيسية . وقال ان الضربة الكبرى ستوجه الى الشمال من هذه المستنقعات على ان تتولى أمرها مجموعتان كاملتان من الجيوش ، تتقدم احداهما عبر دول البلطيق نحو لينغراد . أما المجموعة الثانية فتتقدم من الجنوب زاحفة عبر روسيا البيضاء ثم تتحول شمالاً لتلتقي بالمجموعة الأولى مكملة بذلك الطول عى ما يتبقى من القوات السوفياتية التي تحاول التراجع من البلطيق . وهنا قال هتلر ، ان في الامكان بعد تحقيق هذه الخطة توجيه هجوم موسكو . فلقد غدت العاصمة الروسية التي كانت حتى قبل اسبوعين ، « غير ذات أهمية » لهتلر ، اكثر قيمة الآن ، اذ كتب في توجيهه : «ويعني الاستيلاء على هذه المدينة نصراً حاسماً من الناحيتين السياسية والاقتصادية بالاضافة الى مـــا يمثله من خسارة العدو لنقطة مهمة كل الأهمية في تقاطع مواصلاته الحديدية » . واشار الى ان موسكو تمثل بالاضافة الى كونهـا

الاول عن عملية بربروسة ، ولعل هذا الخطأ نجم عن الشكل المختصر الذي ظهر فيه التوجيه في الترجمة الانكليزية لمجلدات « المؤامرة النازية والعدوان » . لكن النص الالماني الكامل الوارد في كتاب « محاكمات كبار مجرمي الحرب (٢٦) ص ٤٧ — ٥٢ » يشير الى وجود تفصيلات وافية مما يقيم الدليل على أن الالمان كانوا قد مضوا بعيدا في استعداداتهم في هذا الموعد المبكر . (المؤامرة النازية والعدوان)٣) ص ٤٠٧ — ٤٠٩)

مركز المواصلات الرئيسي في روسيا ، المنتج الرئيسي لسلاحها .

أما مجموعة الجيوش الثالثة فتزحف الى الجنوب من المستنقعات عبر اراضي اوكرانيا نحو كييف ، هادفة إلى تطويق القوات السوفياتية العاملة الى الغرب من نهر الدنيبر وتحطيمها . وتزحف القوات الالمانية والرومانية في الجنوب البعيد لحماية جناح العملية الرئيسية والتقدم نحو اوديسا ومن هناك على ساحل البحر الاسود . ويمكن بعد ذلك احتلال حوض الدونتس الذي يضم نحواً من ستين في المائة من الصناعة السوفياتية .

هذه هي الخطة العظيمة التي وضعها هتلر والتي اتمها قبل عطلة عيد الميلاد في عام ١٩٤٠ ، وكان إعدادها على نحو من الدقة بحيث لم يطرأ عليها أي تبدل اساسي فيما بعد ابداً . ورغبة في ضمان السرية المطلقة ، أمر هتلر باعداد تسع نسخ فقط من التوجيه ، سلمت نسخة واحدة منها الى كل فرع من الفروع الثلاثة للقوات المسلحة ، على ان يحتفظ بالنسخ الباقية في مقر القيادة العليا . واوضح التوجيه ايضاً ان من الواجب القول حتى لكبار قادة الميدان ، بأن الخطة لا تعدو ان تكون « مجرد اجراء احتياطي في حالة تبديل روسيا لموقفها السابق منا » . وأمر هتلر بأن يظل عدد الضباط المطلعين على هذا السر صغيراً الى اقصى حد ٍ ممكن . ثم مضى قائلاً : « وإلا فإن ثمة خطر في ان تتضح حقيقة اعداداتنا ، مما يؤدي الى وقوع اشد الاضرار من الناحيتين السياسية والعسكرية »

وليس ثمة من دليل على ان القادة العسكريين في قيادة الجيش العليا قد اعترضوا على قرار هتلر ، بالاستدارة نحو الاتحاد السوفياتي الذي مكنهم اخلاصه في تنفيذ ميثاقه مع المانيا من تحقيق انتصاراتهم العظيمة في بولندة والغرب. ولكننا رأينا هولدر فيما بعد يكتب هازئاً « بمغامرة هتلر الروسية » ويدعي ان قادة الجيش وقفوا موقف المعارضة منها منذ البداية [1] . ولكن عندما نقرأ يومياته الضخمة كلها عن شهر كانون الأول عام ١٩٤٠ ، لا نجد فيها كلمة واحدة تؤيد ادعاءه .

---

١ ـ هولدر ـ هتلر كقائد ميدان ص ٢٢ .

ونجد فيها على النقيض من ذلك حماسا اصيلا في تأييد « المغامرة » التي يتحمل هو بوصفه رئيس هيئة اركان الحرب المسؤولية في وضع مخططها .

لكن القرار أصبح حاسماً بالنسبة الى هتلر ، وكان هذا القرار الذي اتخذه في الثامن عشر من كانون الأول عام ١٩٤٠ ، العمل الفاصل الذي قرر مصيره هو ، وان لم يكن قد عرف هذه الحقيقة عندما حزم امره على اتخاذه . وأحس بالراحة بعد ان قضى على تردده في النهاية ، ومضى كما قال هو فيما بعد ، الى جبهة القناة الانكليزية ليقضي أعياد الميلاد مع جنوده وطياريه فيها ، بعيداً ما أمكنه عن روسيا التي صمم على اجتياحها . ويبدو انه ابتعد بافكاره ، الى اكثر حد ممكن ، عن شارل الثاني عشر ملك السويد ونابليون بونابرت اللذين واجها بعد ان حققا فتوحات مجيدة لا تقل شأواً عن فتوحاته هو ، الكارثة في اعماق السهوب الروسية الفسيحة . وكيف يمكن له ان يتعرض لمثل هذه الافكار تجتاح عقله ؟ لقد بات الآن كما تظهر السجلات، هذا الانسان الذي كان أفاقـاً في فيينا في يوم ما ، يعتبر نفسه اعظم فاتح عرفه تاريخ العالم وقد بات « العظام » ذلك المرض الخطير الذي يصيب جميع الفاتحين مسيطراً عليه الى حدّ الجنون .

ستة اشهر من الانتظار الخائب

وواجه الفاتح النازي بعد تلك الانتصارات الكثيرة العدد التي حققها في الربيع ومطلع صيف عام ١٩٤٠ ، ستة أشهر طويلة من الانتظار الخائب . ولم يكتف القدر بأن يجنبه الحصول على النصر النهائي على بريطانيا ، بل اضاع عليه ايضاً الفرص التي اتيحت له ليوجه اليها ضربة قاتلة في البحر الأبيض التوسط .

وقابل امير البحر الاكبر ريدر زعيمه في برلين بعد يومين من انقضاء عيد الميلاد ، ولكنه لم يحمل له في هذه المقابلة أية هدايا مفرحة من التي اعتاد الناس تقديمها في مناسبة هذا العيد . وراح يقول للفوهرر : « لقد انتهى كل امل في تهديد بريطانيا في شرق البحر المتوسط والشرق الأدنى وشمال افريقيا ... ولم

يعد العمل الحاسم في البحر المتوسط الذي طالما ركّزنا آمالنا عليه ممكناً » [1].

أجل لقد فات « الباص » هتلر في البحر المتوسط ، اذا اعتمد على فرانكو « المتذبذب » ، وموسوليني « العاجز » وبتان « الخرف » . فلقد حلّت الكارثة بالحليف الايطالي في صحراء مصر ، وها هو يواجه في شهر كانون الأول ، كارثة مماثلة في جبال البانيا التي تكسوها الثلوج ومثلت هذه الاحداث المشؤومة نقاط تحول في تاريخ الحرب ، وفي تاريخ الرايخ الثالث ايضاً . ولم تقع هذه الحوادث نتيجة ما عليه حلفاء المانيا واصدقاؤها من ضعف فحسب ، وانما نجحت ايضاً نتيجة عجز سيد الحرب النازي عن فهم السوقية الضخمة المتعلقة بحروب تشمل القارات ، وهي السوقية التي كانت المانيا في حاجة اليها ، والتي الحّ ريدر وحتى غورنغ بوجوب تفهمها .

فلقد حاول امير البحر الاكبر مرتين في شهر ايلول من عام ١٩٤٠ ، أولاهما في السادس منه والثانية في السادس والعشرين ، ان يفتح امام عقل الفوهرر آفاقاً جديدة ، وان يفهمه ان الهجوم المباشر على انكلترا بات مستحيلاً. وقد حاصر ريدر في الاجتماع الثاني زعيمه على انفراد ، دون ان يكون هناك ضباط من الجيش أو القوة الجوية ، ليقطعوا عليه حبل تفكيره ، وحاول في محاضرة طويلة ومستفيضة ألقاها على مسامع الزعيم عن السوقية البحرية ، افهامه اهمية التغلب على بريطانيا في اماكن اخرى تتجاوز حدود القناة الانكليزية ... ثم مضى يقول :

« ما زال البريطانيون يعتبرون البحر الابيض المتوسط ، كما اعتبروه دائماً ، محور امبراطوريتهم العالمية ... وها ان ايطاليا التي يحيط بها السلطان البريطاني من كل ناحية ، تتعرض بشكل سريع لتغدو الهدف الرئيسي للهجوم ... وليس ثمة من شك في ان رفض الايطاليين عوننا يرمز الى انهم لم يدركوا حق الادراك بعد ما

١ ـ مؤتمرات هتلر في الشؤون البحرية (١٩٤٠) ص ١٣٥ ـ ١٣٦ .

يواجههم من اخطار . ومع ذلك ، على المانيا ان تشن الحرب على بريطانيا العظمى بكل ما تحت تصرفها من وسائل ، ودون أي ابطاء ، قبل ان تتمكن الولايات المتحدة من التدخل تدخلاً فعّالاً الى جانبها . ولهذا السبب وحده ، يجب حل معضلة البحر الابيض المتوسط في غضون اشهر الشتاء » .

ولكن كيف تحل هذه المشكلة ؟ ان امير البحر يحاول شرح ذلك بالحقائق والارقام ، فهو يقول :

« علينا ان نحتل جبل طارق . وعلينا ان نسيطر على جزر الكناريا بقوتنا الجوية » .

« وعلينا ايضاً أن نحتل قناة السويس » .

وعاد ريدر يرسم بعد حديثه عن السويس صورة زاهية الألوان عما سيحدث من آثار منطقية :

« ومن الضروري ان نزحف من السويس عبر فلسطين وسوريا الى حدود تركيا. واذا ما وصلنا الى تلك النقطة ، فإن تركيا نفسها ستغدو تحت سيطرتنا . وآنذاك ستبدو لنا المشكلة الروسية من زاوية جديدة ... ويغدو من المشكوك فيه ان يصبح الزحف على روسيا من الشمال أمراً لازباً » .

وبعد ان تمكن ريدر من ان يطرد في افكاره البريطانيين من البحر الابيض المتوسط ، وان يسيطر على تركيا وروسيا ، مضى يكمل الصورة لزعيمه . فقد توقع وكان توقعه صحيحاً ، ان بريطانيا بتأييد من الولايات المتحدة وقوات ديغول ، ستحاول في النهاية ان تحصل على موطىء قدم لها في افريقيا الشمالية الغربية ، كقاعدة تشن منها حربها المقبلة ضد المحور ، ولذا حث امير البحر على ضرورة قيام ألمانيا وفرنسة فيشي باحباط مثل هذه الخطة عن طريق ضمان بقاء هذه المنطقة ذات الأهمية السوقية لها .

ويقول ريدر ان هتلر وافق مبدئياً على « اتجاه فكرته » بصورة عامة ،

ولكنه اضاف بأنه يرى ضرورة لبحث جميع هـــذه القضايا أولاً مع كل من موسوليني وفرانكو وبتان [1] . وقد شرع فعلاً في مثل هذه المحادثات ، وان كان بعد لأي وتردد اضاعا عليه الكثير من الوقت الثمين . وقد اعد العدة لمقابلة الديكتاتور الاسباني في الثالث والعشرين من تشرين الأول ، وان يقابـل بتان الذي كان يرئس الآن حكومة متعاونة مع المانيا في فيشي من اليوم التالي ، وان يجتمع الى الدوتشي بعد بضعة ايام من هذين الاجتماعين .

وكان فرانكو المدين بانتصاره في الحرب الأهليـــة الأسبانية الى العون العسكري الضخم الذي تلقاه من ايطاليا والمانيا، يحس كغيره من الديكتاتورين، بشهية متعطشة الى الغنائم والأسلاب ، ولا سيما اذا تمكن من الحصول عليها دون ان تكلفه ثمناً باهظاً . وكان في شهر حزيران ، عندما تهاوت فرنسا ، قد سارع الى ابلاغ هتلر ، بأن اسبانيا على استعداد لدخول الحرب ، شريطة ان تحصل على القسم الأكبر من امبراطورية فرنسا الافريقية بما في ضمنها المغرب وغرب الجزائر [2] ، وشريطة ان تقوم المانيا بتزويد اسبانيـــا بسخاء بالأسلحة والوقود والمواد الغذائية [3] وقد جاء هتلر الآن ليتيح الفرصة لفرانكو لتحقيق وعده ، ووصل في قطاره الخاص الى بلدة « هنداي » الواقعة على الحدود الفرنسية – الاسبانية في الثالث والعشرين من تشرين الأول ،لكن أحداثاً كثيرة وقعت بين عرض حزيران والمطالبة بالتحقيق في تشرين الاول ، ولعل أهمها صمود بريطانيا امام المانيـا . ولذا فقد قدر لهتلر ان يواجه مفاجأة غير سارة .

ولم يتأثر الاسباني الداهية بتبجح هتلر بأن « انكلترا قد هزمت هزيمة حاسمة » ، كما لم يقتنع بوعد هتلر بأن يعطي اسبانيا تعويضات اقليمية في افريقيـا الشمالية الفرنسية » الى الحد الذي يكون في الامكان التعويض على خسارة فرنسا من المستعمرات البريطانية ». ولكن فرانكو يريد الامبراطورية الفرنسية الافريقية

---

١ – مؤتمرات هتلر في الشؤون البحرية (١٩٤٠) ص ٩١ – ٩٧ ، ١٠٤ – ١٠٨ .

٢ – يبدو من هذا ان المطامع الاستعمارية واحدة عند جميـع الدول الاستعماريـة – المعـرب .

٣ – وثائق وزارة الخارجية الالمانية (٩) ص ٦٢٠ – ٦٢١ .

كلها ، دون أية قيود أو شروط . وكان اقتراح هتلر ان تدخل اسبانيا الحرب في كانون الثاني عام ١٩٤١ ، ولكن فرانكو أشار الى الاخطار المترتبة على هـذا العمل المتأخر . وأراد هتلر من الاسبانيين ان يهاجموا جبل طارق في العاشر من كانون الثاني بمساعدة اخصائيين من الألمان الذين اشتركوا في احتلال قلعة « ايبين ايمايل » البلجيكية من الجو . ورد فرانكو بشيء من الكبرياء الاسباني المعروف بأن الاسبانيين « وحدهم » ، هم الذين يجب ان يحتلوا جبل طارق . وهكذا ظل الديكتاتوران يتصارعان تسع ساعات . ويقول الدكتور شميدت الذي شهـد المقابلة ايضاً ، ان فرانكو ظل يتكلم ، ويتكلم بصوت رتيب متصل ، وسرعان ما تضايق هتلر واشتد ضيقه ، قافزاً حيناً ، كما فعل ذات مرة مـع تشمبرلين ليهتف صارخاً انه لم يعد يرى فائدة من استمرار الحديث [١] .

وقال فيما بعد يروي لموسوليني التجربة القاسية التي مر بها مع الكوديلّو .. « انني لأوثر أن أقلع ضرساً أو ضرسين أو ثلاثة أو اربعة من اضراسي ، على ان أمر بهذه المحنة مرة ثانية » [٢] .

وبعد تسع ساعات حان أثر انتهائها موعد العشاء مع هتلر في عربة طعامـه الخاصة ، توقفت المحادثات تلك الليلة دون ان يتعهد فرانكو بصورة محددة بالدخول في الحرب . وترك هتلر وزير خارجيته ريبنتروب ليواصل تلك الليلة محادثاته مع سيرانو سونر وزير خارجية اسبانيا، وليحاول اقناع الاسبانيين بتوقيع شيء ما على الأقل ، كاتفاق لاخراج البريطانيين من جبل طارق ، واغلاق الباب الغربي للبحر الأبيض المتوسط أمامهم . ولكن جميع محاولاتـه ذهبت ادراج الرياح . وراح ريبنتروب يسب ويشتم فرانكو في الصباح التالي امـام ترجمانه

---

١ ـ شميدت ـ ترجمان هتلر . ص ١٩٦ . يقدم الترجمان وصفا كاملا الى حد ما لما دار من ابحاث . اما ما ورد في كتاب وزارة الخارجية الامريكية « الحكومة الاسبانية والمحور » فليس الا مقتطفات من هذه الوقائع . اما ابريك كوردت الذي شهد المحادثات فيعطي وصفا أكثر تفصيلا في مذكرته التي لم تطبع .

٢ ـ اوراق شيانو الدبلوماتية ص ٤٠٢ .

شميدت قائلاً : « يا له من جبان ناكر للجميل . انه مدين لنا بكل شيء ، وها هو يحاول الآن التملص من الانضمام الينا » [١] .

وسارت مقابلة هتلر مع بيتان في بلدة مونتوار في اليوم التالي على نحو أفضل. ولعل السبب في ذلك ان المشير الانهزامي الخرف، بطل معركة فردان في الحرب الكونية الأولى والسبب المباشر في الاستسلام الفرنسي في الحرب الثانية قد وافق على تعاون فرنسا مع محتليها في آخر محاولة لارغام بريطانيا ، حليفتها السابقة ، على الركوع على قدميها . وقد وافق بالفعل على تدوين هذه الصفقة الغريبة خطياً :

« لدولتي المحور وفرنسا مصلحة مشتركة ومتماثلة في تحقيق هزيمة انكلترا في اسرع وقت ممكن . ولهذه الغاية فإن الحكومة الفرنسية ستؤيد ضمن حدود طاقاتها وامكاناتها الاجراءات التي قد تتخذها دولتا المحور للوصول الى هذا الهدف » [٢] .

وقد تقرر ان تعطى لفرنسا مكافأة لها على خيانتها هذه، « المكانة التي تستحقها في اوروبا الجديدة » كما ستعطى في افريقيا تعويضات يقدمها اليها الديكتاتوران الفاشيان من اراضي الامبراطورية البريطانية مقابل ما قد ترغم على التنازل عنه للدول الاخرى . وقد قرر الفريقان ابقاء هذا الاتفاق « سرياً للغاية » [٣] .

---

١ ــ شميدت ــ ترجمان هتلر ص ١٩٧ .

٢ ــ يوجد نص اتفاق مونتوار بين وثائق وزارة الخارجية الالمانية المصادرة ، ولكن وزارة الخارجية الامريكية لم تكن قد نشرت هذا النص عندما تم وضع هذا الكتاب . لكن ويليام لانغر يروي في الصفحتين ٩٤ و ٩٥ من كتابه « مقامرتنا في فيشي » هذا النص كما استقاه من الوثائق الالمانية التي وضعتها وزارة الخارجية تحت تصرفه .

٣ ــ على الرغم من ان تشرشل وروزفلت كانا على جهل بمحتويات هذا الاتفاق السري الذي عقد في مونتوار ، الا انهما توقعا اسوأ شيء ممكن . وبعث ملك انكلترا عن طريق المبعوث الامريكي نداء شخصيا الى بتان طلب اليه فيه ان لا يقف ضد بريطانيا . وكانت الرسالة التي بعث بها الرئيس روزفلت الى المشير ، صارمة ، وقد صيغت في عبارات قاسية ، وحذره فيها من النتائج السيئة التي قد تؤدي اليها خيانة فرنسة فيشي لبريطانيا (راجع كتاب ويليام =

ولم يكن هتلر راضياً حتى عن هذه التساهلات الجوهرية وغير الشريفة . ويقول الدكتور شميدت ان هتلر طلب المزيد ، ولم يكن يقنعه شيء أقل من اشتراك فرنسا الفعلي في الحرب ضد بريطانيا . وعندما عاد الترجمان الرسمي مع الفوهرر في رحلته الطويلة الى ميونيخ ، وجده في حالة من خيبة الأمل والحزن للنتائج التي حققها في رحلته . وقد ازدادت هذه الحالة سوءاً في فلورنسا، عندما وصل اليها في صباح الثامن والعشرين من تشرين الأول لمقابلة موسوليني .

وكان الديكتاتوران قد اجتمعا قبل ثلاثة اسابيع فقط أي في الرابع من تشرين الأول عند ممر برينر . وكان هتلر كعادته دائماً قد تولى معظم الحديث ، مقدماً صورة مدهشة من صوره المألوفة التي يجوب فيها جميع الآفاق ، دون ان يذكر شيئاً عن ارساله قواته الى رومانيا التي تتشهاها ايطاليا ايضاً . وعندما وصل هذا النبأ الى مسامع الدوتشي بعد بضعة ايام ، هاج غاضباً، وارغى وازبد لشيانو قائلاً :

« يواجهني هتلر دائماً بالأمر الواقع . وانني لعازم هذه المرة على ان أرد له الثمن بنفس العملة التي يستعملها . وستواجهه الصحف بالمفاجأة المذهلة ، وهي اننا احتللنا اليونان :وبهذه الطريقة سنتمكن من اعادة التوازن الى نصابه »[1] .

وكانت مطامح الدوتشي في البلقان لا تقل هوساً عن مطامح هتلر نفسه ، وكثيراً ما تتعارض معها ، مما حمل الألمان على تحذير رومه في منتصف شهر آب من أية مغامرات في يوغوسلافيا واليونان. ودوّن شيانو في يوميته بتاريخ السابع عشر من آب يقول : « انه اشبه ما يكون بالأمر الكامل لنا للتوقف على طول الخط » . وعدل موسوليني لفترة ما على الأقل عن مشاريعه لاحراز مجد عسكري

لانفر ـ مقامرتنا في فيشي ـ الصفحة ٩٧ . وقد سمح للاستاذ لانفر لاصدار هذا الكتاب بدراسة بعض الوثائق الالمانية التي لم تسمح الحكومتان البريطانية بنشرها حتى بعد احد عشر عاما من صدور الكتاب) .

١ ـ يوميات شيانو ص ٣٠٠ .

جديد في البلقان ، وأكد عدوله هذا في رسالة ذليلة بعث بها الى هتلر في السابع والعشرين من آب . ولكن تلهفه الى فتح سهل وسريع في اليونان يعوّض بـه شيئاً عما اصاب سمعته من انهيار من جرّاء انتصارات شريكه المتألقة ، كان اغراءاً ضخماً للقيصر الفاشي المزهو بنفسه ، لم يستطع مقاومته ، على الرغم من انه لم يكن اكثر من مجرد سراب خادع كما اثبتت الحقائق ذلك .

وحدد في الثاني والعشرين من تشرين الأول اليوم الثامن والعشرين منـه موعداً للقيام بهجوم ايطـالي مفاجىء على اليونان ، وراح في اليوم نفسه يسطر رسالة الى هتلر أرخها في التاسع عشر من تشرين الأول ، مشيراً فيها الى العمل الذي يتصور القيام به ، لافتاً اياه بالغموض عن طبيعة العمل وموعده . ودوّن شيانو في نفس اليوم في يومياته ان الدوتشي كان يخشى من ان يقوم « الفوهرر » باصدار امره اليه بالامتناع عن هذا العمل . وسمع هتلر وريبنتروب في طريق عودتهما من فرنسا في قطاريهما الخاصين بخطط موسوليني ، وتوقف وزير خارجية النازي بأمر من الفوهرر في اول محطـــة في المانيا ليهتف الى شيانو في رومه وليحثه على عقد اجتماع فوري لزعيمي المحور . واقـــترح موسوليني ان يعقـد الاجتماع في فلورنسة في الثامن والعشرين من تشرين الأول ، وعندما نزل زائره الألماني من قطاره في صباح ذلك اليوم استقبله في المحطة وقد شمخ بأنفه وتألقت عيناه ببريق عجيب قائلا : « لقد بدأنا زحفنا ايهـــا الفوهرر ! إن الجنود الايطاليين الظافرين عبروا الحدود اليونانية — الالبانية في صباح هذا اليوم »[1].

وتقول جميع الروايات ، ان موسوليني طرب كالاطفال لهـــذا العمل الذي اراد منه ان يثأر لنفسه من صديقه بالنسبة الى جميع المناسبات السابقة التي كان فيها الديكتاتور النازي قد زحف الى بلاد ما ، دون ان يأتمن حليفه الايطالي على السر قبل وقوعه . وهاج هتلر وماج . فهذا العمل الأهوج ضد عدو صعب

---

١ ـ تذكر ريبنتروب هذه الكلمات في شهادته امام محكمة نورمبرغ كما تذكرها شميدت في كتابه ترجمان هتلر ـ ص ٢٠٠ .

المراس في مثل هذا الوقت من السنة الذي يعتبر من اسوأ الاوقات يهدد بقلب الاوضاع في البلقان . وكان الفوهرر ، كما كتب لموسوليني فيما بعد ، قد طار الى فلورنسة ، أملاً في منع هذا العمل المتهور ، ولكنه وصل متأخراً ، وبعد فوات الأوان . ويقول شميدت الذي شهد المقابلة ان الزعيم النازي تمكن من السيطرة على غضبه ... فقد روى في كتابه :

« ومضى هتلر الى الشمال بعد ظهر ذلك اليوم ، والمرارة تعصر فؤاده . لقد اصيب بخيبة الأمل ثلاث مرات ، الأولى في هينداي والثانية في مونتوار وهذه الثالثة في ايطاليا . وكانت ذكريات هذه الرحلات الطويلة المجهدة ، تعود دائماً الى مخيلته في ليالي الشتاء الطويلة في السنوات القليلة الباقية من حياته فتسبب له الألم ، وتحمله على توجيه اعنف اللوم الى هؤلاء الاصدقاء الناكرين للجميل والناكثين للعهود من شركاء المحور ومن الفرنسيين « المخادعين » [1] .

وتحتم عليه الآن على أي حال ان يعمل شيئاً ليمضي في حربة ضد بريطانيا بعد ان استحال عليه غزوها . ولم يكد الفوهرر يعود الى برلين حتى كانت الحاجة الى العمل ، قد تضاعفت عنده بسبب مهزلة جيوش الدوتشي في اليونان ، فقد انقلب الهجوم الايطالي « الظافر » هناك الى هزيمة . ودعا هتلر في الرابع من تشرين الثاني الى مؤتمر حربي في دار المستشارية في برلين ، دعا اليه كلاً من براوختش وهولدر من قيادة الجيش ، وكايتل ويودل من القيادة العليا للقوات المسلحة . ويرجع الفضل الى يوميات هولدر والى نسخة مصادرة من تقرير يودل الى الاسطول ، في معرفة قرارات سيد الحرب ، التي ضمنها توجيهه الثامن عشر الذي اصدره في الثاني عشر من تشرين الثاني والذي عثر على نصه بين وثائق نورمبرغ [2] .

---

١ ـ شميدت ـ ترجمان هتلر . ص ٢٠٠ .

٢ ـ هولدر ـ يوميات بتاريخ ٤ تشرين الثاني ١٩٤٠ ـ تقرير يودل الى الاميرال شنايويند في نفس التاريخ ـ مؤتمرات هتلر في الشؤون البحرية (١٩٤٠) ص ١١٢ ـ ١١٧ . والتوجيه الثامن عشر في « المؤامرة النازية والعدوان (٣) ص ٤٠٢ ـ ٤٠٧ » .

واتضح تأثير الاسطول الألماني على خطط هتلر السوقية ، كما اتضحت ضرورة القيام بعمل تجاه الحليف الايطالي المترنح . ولاحظ هولدر « افتقار الفوهرر الى الثقة » بالقيادة الايطالية . وقد تقرر على ضوء هذه النتيجة عدم ارسال قوات المانية الى ليبيا حتى تكون قوات المستر رودلفو غرازياني الايطالية التي كانت قد تقدمت ستين ميلاً داخل مصر باتجاه سيدي براني ، قد وصلت الى مرسى مطروح التي تقع على بعد خمسة وسبعين ميلاً على طول الشاطىء ، وهو ما لم يكن متوقعاً قبل عيد الميلاد ان وقع فعلاً . وتقرر في غضون ذلك اعداد بعض الخطط لايفاد عدد من طائرات الانقضاض الى مصر لمهاجمة الاسطول البريطاني في الاسكندرية وزرع الالغام في قناة السويس .

واعترف هتلر لقادته العسكريين بأن الهجوم الايطالي في اليونان كان عملاً من اعمال الطيش والرعونة التي يؤسف لها كل الأسف وعرضت مركز المانيا في البلقان الى خطر كبير . وقد تمكن البريطانيون باحتلالهم جزيرتي كريت وليمنوس من الفوز بقواعد جوية يستطيعون منها قصف حقول الزيت الروماني بسهولة كما تمكنوا بارسال قوات الى البر اليوناني من تهديد مركز الألمان في البلقان كله . ولمواجهة هذا الخطر أمر هتلر الجيش بأن يعد خططه فوراً لغزو اليونان عن طريق بلغاريا بقوة لا تقل عن عشر فرق وان يكون ارسالها عبر رومانيا اولاً . واضاف « انه يتوقع بأن تلتزم روسيا جانب الحياد » .

ولكن هتلر خصص جماع حديثه في مؤتمر الرابع من تشرين الثاني والقسم الاكبر من توجيهه الثامن عشر الذي صدر بعد المؤتمر ، لموضوع تحطيم مركز بريطانيا في غرب البحر المتوسط ، فقد ورد في التوجيه ما يلي :

« يجب احتلال قاعدة جبل طارق ، واغلاق مضيقها .

« ومن الواجب منع البريطانيين من الحصول على موطىء قدم آخر في أية نقطة في شبه جزيرة ايبريا (اسبانيا والبرتغال) أو جزر الاطلسي القريبة منها » .

وتقرر اطلاق اسم « فيلكس » الرمزي على عملية الاستيلاء على جبل

طارق وجزر الكناريا الاسبانية وجزر الرأس الأخضر البرتغالية . وعهد الى الاسطول بدراسة احتمال احتلال جزر ماديرا والآزور البرتغالية ايضاً . وقد تضطر المانيا الى احتلال البرتغال نفسها . وتقرر ان يطلق على هذه العملية الاسم الرمزي « ايزابيلا » ، وان يعهد الى ثلاث فرق المانية يجري حشدها على الحدود الاسبانية البرتغالية بتنفيذ هذه المهمة .

وتقرر اطلاق سراح بعض وحدات الاسطول الفرنسي للسماح لقسم من قواتها لتتمكن فرنسا من الدفاع عن ممتلكاتها في شمال غربي افريقيا ضد البريطانيين وضد ديغول . ومضى هتلر يقول في توجيهه « ومن هذه المهمة التمهيدية يمكن تطوير اشراك فرنسا في الحرب ضد انكلترا » .

وقد مضت خطط هتلر الجديدة ، كما اوضحت للقادة العسكريين في اجتماع الرابع من تشرين الثاني وحددت في التوجيه الصادر بعد اسبوع ، في سرد التفاصيل الحربية الدقيقة ولا سيما بصدد قيام الألمان بتوجيه ضربة جريئة لاحتلال جبل طارق . ويبدو ان هذه الخطط قد اثرت كل التأثير على القادة العسكريين الذين رأوا فيها الدهاء والجرأة مجتمعين . ولكن هذه الاجراءات كانت ناقصة في الواقع ، ولم يكن ممكناً ان تحقق اهدافها ، واستندت الى حد ما الى خداعه لفرقائه العسكريين . فلقد اكد لهم في الرابع من تشرين الثاني ، كما دوّن هولدر في يومياته ، انه تلقى قبل قليل وعداً جديداً من فرانكو بدخول الحرب « وهو ما لم يقع مطلقاً » كما روينا قبل قليل. وليس ثمة من شك في ان الاهداف التي حددت باخراج البريطانيين من البحر الأبيض المتوسط كانت سليمة ، ولكن القوات التي عهد اليها باتمام المهمة لم تكن كافية ، ولا سيما بالنظر الى ما هي عليه ايطاليا من ضعف .

وقد بينت هيئة اركان البحرية هذه الحقيقة بمذكرة شديدة اللهجة سلمها امير البحر ريدر الى هتلر في الرابع عشر من تشرين الثاني [1] واشار الضباط

---

١ ـ مؤتمرات هتلر في الشؤون البحرية ـ (١٩٤٠) ص ١٢٥ .

البحريون في مذكراتهم الى ان الكارثة الايطاليـــة في اليونان بعد ان صدت القوات الايطالية الى البانيا ، وكانت لا تزال تتراجـــع حتى ذلك التاريخ ، لم تحسن مركز بريطانيا السوقي في البحر الابيض فحسب ، بل قوّت من سمعة بريطانيا ومركزها في جميع انحـــاء العالم . واضافوا يقولون بصراحة لهتلر : « امـــا بالنسبة الى الهجوم الايطالي على مصر ، فان ايطاليا لن تتمكن أبداً من تحقيق الهجوم العام في مصر . والقيادة الايطالية في وضع تعس للغاية . اذ انهـا لا تفهم شيئاً عن الموقف ولا تحظى القوات الايطالية المسلحة بالقيادة او الكفـــاية العسكرية اللتين تتمكن عن طريقهما من القيام بالعمليات المطلوبة في منطقـــة البحر الأبيض المتوسط ، والوصول بهـــا الى نتيجة ناجحـة بالسرعة والحسم المطلوبين » .

وانتهت مذكرة البحرية الى القول بأن على المانيا والحالة هذه ان تحمل اعباء هذه المهمة على عاتقها . ومضت تحذر هتلر قائلة بأن « القتال في المنطقة الافريقية هو الهدف السوقي الأول للحرب الألمانية في مجموعها ... وليس ثمـة من شك في ان هذا القتال ذو اهمية حاسمة بالنسبة الى نتيجة الحرب كلها » .

لكن الديكتاتور النازي لم يقتنع بهذا القول . فلقد عجز طيلة الوقت عـن تصور أهمية الحرب في البحر الأبيض المتوسط وشمال افريقيا ، ولم يعتبرهـــا إلا ثانوية بالنسبة الى هدفه الرئيسي . وعندما شرح امـــير البحر ريدر له في اجتماعهما في الرابـع عشر من تشرين الثاني مفاهيم البحرية السوقية ، رد هتلر بأنه « لا يزال ميالاً الى عرض قوته العسكرية في روسيا » [١] ، وكانت هذه الرغبة قد تقوّت لديه في ذلك اليوم بصورة فاقت ما أحس بـه في أي وقت ، اذ كان مولوتوف ، قد غادر برلين قبل قليل من ذلك الصباح بعد أن اثار حنق الفوهرر وسخطه . وعندما قام امير البحر بمقابلة الزعيم بعد يومين من انتهاء عيد الميلاد ، ليرفع اليه تقريراً عن الطريقة التي تأخر الألمان فيها عن اللحاق « بالباص » في

١ ــ مؤتمرات هتلر في الشؤون البحرية (١٩٤٠) ص ١٢٤ .

البحر الأبيض المتوسط لم يحس هتلر باضطراب زائد ، أو ازعاج فوق العادة . ولم يُلقِ اذناً صاغية لأقوال ريدر بأن انتصار البريطانيين على الايطاليين في مصر [1] وتزايد المعونة المادية التي تتلقاها من امريكا يتطلبان تركيز جميع موارد المانيا لارغام بريطانيا على الركوع ، كما يتطلبان تأجيل عملية « بربروسة » الى ان يتم دحر بريطانيا وهزمها .

وقال هتلر لأمير بحره : « من واجبنا بالنظر الى التطورات السياسية الراهنة ، وخاصة الى تدخل روسيا في شؤون البلقان ، ان نقضي مهما كان الثمن على آخر عدو لنا في القارة الأوروبية قبل ان نشتبك في المعركة الفاصلة مع بريطانيا » . وقدر له منذ هذه اللحظة حتى نهايته المرة ان يتمسك تمسكاً

---

١ ـ كانت قوة بريطانية صحراوية مفككة العرى قد تمكنت في هذا الوقت من اخراج قوات ايطالية تبلغ ثلاثة اضعافها من الاراضي المصرية بعد أن أسرت نحوا من (٣٨) الف ايطالي دون ان تخسر الا (١٣٣) قتيلا و (٣٨٨) جريحا وثمانية مفقودين . وقد تألفت القوة البريطانية المهاجمة من فرقة مدرعة واحدة ، وفرقة هندية من المشاة ، ولواءين بريطانيين من المشاة وكتيبة دبابات ملكية مجموع تعداد جنودها كلها لا يربو على الواحد والثلاثين الفا . وكان الهجوم البريطاني المضاد بقيادة الفريق السير ارشيبالد ويفل قد بدأ في السابع من كانون الاول ، وتمكن في اربعة ايام من الحاق الهزيمة بقوة المشير غرزياني . وتحول الهجوم المضاد المحدود الذي بدأ في خمسة أيام الى هجوم عام دام حتى السابع من شباط ، تمكن الجيش البريطاني في غضونه من الاندفاع عبر برقة كلها مسافة نحو من خمسمائة ميل ومن ابادة جيش ايطالي كامل يضم عشر فرق في ليبيا ، بعد ان أسر (١٣٠) الف ايطالي ، ومن الاستيلاء على (١٢٤٠) مدفعا وخمسمائة دبابة دون ان يخسر الا خمسمائة قتيل و (١٣٧٣) جريحا وخمسة وخمسين مفقودا . ويقول الكاتب البريطاني العسكري المعروف الفريق جي.اف.فولر ، « ان هذه الحملة من أغرب ما شهده تاريخ الحروب من حملات » . (فولر ـ الحرب العالمية الثانية ص ٩٨) .

وتلقى الاسطول الايطالي ايضا ضربة قاتلة . فقد قامت القاذفات البريطانية من حاملة الطائرات « الستريوس » التي كان السلاح الجوي الالماني قد ادعى اغراقها من قبل ، في ليلة الحادي عشر ـ الثاني عشر من تشرين الثاني بمهاجمة وحدات الاسطول الايطالي الراسية في ميناء تارانتو وعطلت عن العمل لعدة اشهر ثلاث بوارج وطرادين . وبدأ شيانو يوميته في الثاني عشر من الشهر المذكور قائلا : « حقا انه ليوم أسود . لقد اغرق البريطانيون دون انذار الدارعة كافور والحقوا اضرارا خطيرة بالبارجتين ليتوريو ودويليو » .

أعمى بهذه الفكرة السوقية الجوهرية .

ووعد هتلر ترضية منه لقائده البحري« ان يعاود الكرة للتأثير على فرانكو» وذلك ليحقن هجومه على جبل طارق ، ويغلق البحر الأبيض المتوسط في وجه الاسطول البريطاني . ولكنه كان في الحقيقة قد تخلى عن هذه الفكرة كلياً . واصدر في الحادي عشر من كانون الأول بمنتهى الهدوء أمراً يقضي « بالعدول عن عملية فيلكس ، اذ ان الأوضاع السياسية التي اقتضتها لم تعد قائمة » . ولكنه ما عتم تحت إلحاف قيادة اسطوله وإلحاح الايطاليين بالتشديد على فرانكو ، ان بذل محاولة أخيرة ، رغم ما فيها من ألم شخصي له . ووجه في السادس من شباط عام ١٩٤١ رسالة مطولة الى الديكتاتور الاسباني قال فيها :

« أرى من الواجب أيها الكوديلو ،ان اوضح لك شيئاً واحداً ، وهو اننا نخوض معركة الحياة أو الموت ، وأن ليس في وسعنا في الحاضر ان نغدق الهبات والهدايا ...

وليس ثمة من شك في ان المعركة التي تخوضها المانيا وايطاليا الآن ، ستقرر مصير اسبانيا ايضاً . ولا يمكن لعهدك في اسبانيا ان يستمر إلا اذا انتصرنا في هذه المعركة » [١] .

ومن سوء حظ المحور ، ان هذه الرسالة وصلت الى الكوديلو (لقب اسباني يطلق على فرانكو) ، في نفس اليوم الذي أتم فيه البريطانيون محو آخر ما تبقى من قوات المشير غرازياني في برقة الى الجنوب من بنغازي . ولم يكن من المستغرب والحالة هذه ، ان يقول فرانكو عندما شرع يرد على هتلر في السادس والعشرين من شباط عام ١٩٤١ ، بعد تأكيد « ولائه المطلق » للمحور ، ان التطورات التي وقعت مؤخراً ، قد نسخت اوضاع تشرين الاول ، وبات التفاهم الذي تم في ذلك الحين بينه وبين الفوهرر « شيئاً باطلاً فات وقته » .

وأقر هتلر هذه المرة ، وهي واحدة من مرات قليلة في حياته العاصفة

---

١ ـ الحكومة الاسبانية والمحور ص ٢٨ ـ ٣٢ .

بالهزيمة. وراح يكتب لموسوليني قائلاً « ان زبدة ما تضمنته ثرثرة الاسباني المزعجة هو ان اسبانيا لا تريد ان تدخل الحرب ولن تدخلها. وليس ثمة من شك في ان هذه الحقيقة مزعجة كل الازعاج، لأنها تعني ان امكانية توجيه ضربة الى بريطانيا بأسهل سبيل قائم، في ممتلكاتها الافريقية، قد زالت من الوجود مؤقتاً ».

وكانت ايطاليا لا اسبانيا، هي مفتاح هزيمة بريطانيا في البحر المتوسط، ولكن وضع الامبراطورية الايطالية المتهاوية لم يكن كافياً لمواجهة هذه المهمة وحده، ولم يكن هتلر نفسه حكيماً الى الحد الذي يدفعه الى ان يقدم اليها الوسائل التي يملكها، لتحقق هذه المهمة. وقد اعترف الآن ان احتمال توجيه الضربة الى بريطانيا اما مباشرة عبر القناة الانكليزية، أو بصورة غير مباشرة، عبر البحر المتوسط الأوسع مدى، قد زال من الوجود « في الوقت الحاضر ». وعلى الرغم مما في هذه الحقيقة من مرارة وخيبة أمل، إلا ان مجرد الاعتراف بها قد خلق راحة نفسية لهتلر، إذا كان في وسعه الآن ان يستدير بجماع اهتمامه الى نواح اقرب الى عقله وقلبه من غيرها.

وعقد في الثامن والتاسع من كانون الثاني عام ١٩٤١، مجلساً حربياً في « عش النسر » فوق برختسغادن، الذي كانت الثلوج تغطيه في هذا الوقت من السنة. ويبدو ان هواء الجبال قد انعشه وصفّى تفكيره، وراح من جديد كما توضح التقارير السرية المطوّلة التي وضعها امير البحر ريدر والفريق هولدر [1] عن الاجتماع، يجول بافكاره آفاقاً واسعة، وهو يحدد خططه السوقية العظمى لقادته العسكريين. وقد استعاد في هذه الجولات الضخمة تفاؤله. اذ دوّن ريدر قائلاً:

« يبدو الفوهرر على يقين من ان الوضع في اوروبا لا يمكن ان

---

١ – يوجد تقرير ريدر في « مؤتمرات هتلر في الشؤون البحرية (١٩٤١) ص ٨ – ١٣. اما هولدر فلم يدون ما دار في اجتماعات هذين اليومين حتى السادس عشر من كانون الثاني عام ١٩٤١.

يتطور تطوراً غير موات ٍ لالمانيا حتى ولو خسرنا افريقيا الشمالية كلها . وقد بات موقفنا في اوروبا وطيد الاركان الى الحد الذي يضمن ان لا تكون النتائج ضد مصلحتنا ... ولا يمكن لبريطانيا ان تأمل في كسب الحرب إلا اذا هزمتنا في القارة الأوروبية . يؤمن الفوهرر ايماناً جازماً بأن هذا مستحيل كل الاستحالة » .

وقد اعترف بأن غزو بريطانيا المباشر « لا يمكن ان يتحقق إلا اذا شلت هذه عن الحركة الى حد كبير ، وإلا اذا أحرزت المانيا التفوّق الجوي الكامل ، واضاف ان على الاسطول والقوة الجوية ان يركزا على مهاجمة طرقها الملاحية ومداخلها لقطع التموينات عنها . وهو يعتقد ان مثل هذه الهجمات « قد تؤدي الى النصر في موعد ٍ لايعدو تموز أو آب القادمين » . ومضى يقول ان على المانيا في غضون ذلك ، « ان تقوي نفسها تقوية كلية على القارة الأوروبية بحيث تتمكن من ان تقود حرباً أخرى ضد انكلترا (وامريكا ايضاً) » . ولا ريب في ان ورود اسم امريكا ، للمرة الأولى في الوثائق الألمانية المصادرة ، مهم كل الأهمية ، اذ دلل على ان هتلر بات يواجه في مستهل عام ١٩٤١ ، احتمال دخول الولايات المتحدة الامريكية الحرب ضده .

وتناول سيد الحرب النازي بعد ذلك ، المناطق السوقية المختلفة ، محللاً مشاكلها ، وما يعتزم عمله تجاهها . ودوّن ريدر في مذكراته قائلاً :

« يرى الفوهرر أن من الأمور الجوهرية بالنسبة الى نتيجة الحرب ، ان لا تنهار ايطاليا ... ولهذا فهو عازم على الحيلولة دون خسارتها لشمال افريقيا ... اذ ان هذه الخسارة تؤدي الى اصابة سمعة المحور ، بضربة شديدة ... ولهذا فقد قرر ان يقدم لايطاليا عونه » .

وعندما وصل الى هذه النقطة ، راح يحذر قادته العسكريين من البوح بالخطط الالمانية المقبلة وقال :

« انه لا يرغب في ابلاغ الايطاليين حقيقة خططنا . فهناك

خطر كبير ماثل في الاسرة الايطالية المالكة تقوم بنقل المعلومات الى بريطانيا » .

واعلن هتلر ان العون لايطاليا سيتألف من تزويدها ببعض الوحدات المضادة للدبابات وبعض اسراب الطائرات الألمانية ، لإرسالها الى ليبيا . ولعل ما هو أهم من هذا، قراره بإيفاد فيلق الماني يضم فرقتين ونصف الفرقة لدعم الايطاليين المتراجعين في البانيا ، التي شرع اليونانيون يزحفون داخلها . واضاف ان من الواجب وضع « عملية ماريتا »[1] موضع التنفيذ الآن . ولهذا يتوجب نقل القوات من رومانيا الى بلغاريا فوراً ، بحيث يغدو في الامكان البدء بعملية ماريتا في السادس والعشرين من آذار . وتحدث هتلر باسهاب ايضاً عن الحاجة الى المضي في « عملية اتيلا » ، وهي من العمليات التي تحمل اسماء رمزية والتي لا حد لها ولا حصر . وكان قد حدد هذه العملية في توجيهه في العاشر من كانون الأول عام ١٩٤٠ . وهي تقضي باحتلال ما تبقى من فرنسا ، والاستيلاء على الاسطول الفرنسي في طولون . وقد رأى هتلر الآن ان من الواجب تنفيذ هذه الخطة فوراً . فإذا ما ابدت فرنسا بعض "المعارضة" أو "الإزعاج" ، فمن الواجب سحقها سحقاً كاملاً » . وكان هذا الرأي خرقاً فاضحاً لاتفاق هدنة كومبيين ، ومع ذلك لا نرى فيما كتبه هولدر أو ريدر ، أي فريق عسكري أو امير بحر ، يثير هذا الموضوع أو يعترض عليه .

وفي هذا المؤتمر العسكري نفسه ، اطلق هتلر على ستالين لقب « البلطجي المتعمّد » ، وابلغ قادته العسكريين وجوب ارغام روسيا على الركوع على ركبتيها « في اسرع وقت ممكن » ... ومضى هتلر يقول :

« واذ قدر للولايات المتحدة وررسيا ان تدخلا الحرب ضد

---

١ ـ حددت عملية ماريتا في التوجيه العشرين الذي صدر في الثالث عشر من كانون الاول عام ١٩٤٠ . وتقضي هذه العملية بتجميع جيش يضم اربعا وعشرين فرقة في رومانيا والزحف بها على اليونان عبر اراضي بلغاريا ، حالما يتحسن الطقس لتحقيق هذه العملية ، وقد وقع هتلر نفسه هذا التوجيه . (المؤامرة النازية والعدوان (٤) ص ١٠١ ـ ١٠٣) .

المانيا (كانت هذه هي المرة الثانية التي يشار فيها الى احتمال دخول امريكا) ، فإن الموقف يغدو معقداً للغاية . ومن هنا تنشأ الضرورة لازالة كل خطر قد ينجم من هذا الاحتمال منذ البداية . واذا تمكنا من القضاء على الخطر الروسي ، بات في وسعنا ان نخوض الحرب ضد بريطانيا الى أجل غير مسمى . واذا انهارت روسيا ، فإن انهيارها سيريح اليابان راحة كبرى ، ويؤدي هـــذا بدوره الى تزايد الخطر على الولايات المتحدة » .

كانت هذه هي افكار الديكتاتور النازي في مطلع عام ١٩٤١ عن الخطط السوقية العالمية . وما لبث ان ضمن هذه الافكار في توجيهه الثاني والعشرين ، الذي اصدره في الحادي عشر من كانون الثاني أي بعد يومين من انتهاء المؤتمر العسكري . وتقرر ان تتحرك النجدات الألمانية الى طرابلس بموجب « عملية عبّاد الشمس » (Sunflower) وان تتحرك الى ألبانيا بموجب عملية « الزنابق الالبية [1] » (Alpine Violets) .

العالم يقف لاهثاً متقطع الانفاس

استدعى هتلر موسوليني للمثول امامه في عش النسر في يومي ١٩ و ٢٠ كانون الثاني ولم يكن هذا ميالاً الى تلبيـــة الدعوة والقيام بالرحلة ، بعد ان حطمته وأذلته المتاعب التي واجهتها قواته في مصر واليونان . ورآه شيانو « متجهم الوجه شديد العصبية » عندما استقل قطاره الخاص ، وقد سيطرت عليه الخشية من ان يجد هتلر وريبنتروب والفرقاء الألمان في موقف مهين له . وقد استصحب الدوتشي معه ليزيد الامور سوءاً الفريق الفريدو غوزوني مساعد رئيس هيئة اركان الحرب الذي وصفه شيانو في يومياته بأنه رجل عادي مكتنز البطن ،

---

١ ـ نص التوجيه (٢٢) والاوامر التكميلية التي تذكر الاسمـاء الرمزيـة للعمليـات في المؤامرة النازية والعدوان (٣) ص ٤١٣ ـ ٤١٥) .

مضبوغ الشعر ، ورأى ان في تعريفه الى الألمان مذلة ومهانة لايطاليا .

ودهش موسوليني وسري عنه ، عندما وجد هتلر ، الذي جاء لاستقباله على رصيف محطة توش الذي تكسوه الثلوج ، جم التهذيب والدماثة ، لا يفوه بحرف واحد من التأنيب لسجل ايطاليا المحزن في ميادين القتال . ودوّن شيانو في يومياته ايضاً ، انه وجد مضيفه في حالة مزاجية معادية لروسيا اشد العداء . وظل الفوهرر زهاء ساعتين في اليوم الثاني يحاضر ضيوفه الايطاليين وحشداً من القادة العسكريين من البلدين . ويؤيد تقرير سري اعده الفريق بودل [1] ان الفوهرر على الرغم من توقه لمساعدة الايطاليين في البانيا وليبيا ، كان يركز افكاره بصورة رئيسية على روسيا ؛ اذ قال :

« انا لا ارى كبير خطر من امريكا حتى ولو دخلت الحرب ضدنا . أما الخطر الاكبر فيمثل من قوة روسيا الضخمة . وعلى الرغم من اننا نملك اتفاقات اقتصادية وسياسية مواتية مع روسيا إلا اني أوثر الاعتماد على وسائل العنف القائمة تحت تصرفي . »

وعلى الرغم من اشارته الى ما ينتوي فعله « بوسائل العنف » الا انه لم يفصح عن حقيقة خططه لشريكه . لكن الإعداد لاستخدام هذه الوسائل كان قد قطع شوطاً بعيداً الى الحد الذي مكن رئيس هيئة اركان حرب الجيش من تقديم تفاصيل الخطط التي وضعها لقائده الأعلى في جلسة عقدت في برلين بعد اسبوعين .

وقد استغرق هذا المؤتمر العسكري الذي عقد ظهر يوم الثالث من شهر شباط ، والذي شهده كبار فرقاء القيادة العليا للقوات المسلحة والقيادة العامة للجيش نحواً من ست ساعات . وعلى الرغم من ان الفريق هولدر ، الذي قدم خطط هيئة اركان حرب الجيش الى الفوهرر ، قد ادعى فيما بعد في كتابه [2]

---

١ ـ المؤامرة النازية والعدوان (٦) ص ٩٣٩ ـ ٩٤٦ .

٢ ـ هولدر ـ هتلر كقائد ميدان ص ٢٢ ـ ٢٤ .

انه وبراوختش قد اثارا الشكوك في موضوع تقديراتها للقوة العسكرية السوفياتية، وعارضا بصورة عامة في عملية «بربروسة» على اعتبار انها مغامرة، الا ان يومياته التي دوّنها في تلك الليلة نفسها أو الوثائق المدونة للقيادة العليا للقوات المسلحة المتناهية في السرية عن الاجتماع [1]، لاتؤيد هــذه المزاعم مطلقاً. وتظهر هذه الوثائق في الحقيقة عكس هذا الادعاء، فقد روت ان هولدر عرض في مستهل الاجتماع تقييماً اشبه ما يكون بالتقييم التجاري عززه بالارقام للقوات الحربية المتعارضة، ذاكراً ان قوات العدو تبلغ نحواً من (١٥٥) فرقة وان قوة المانيا ستعادل زهاء هذا العدد تقريباً، ولكنها تتفوق في «الكيف» والكفاية تفوقاً كبيراً. وعندما حلت الكارثة فيما بعد تبيّن لهولدر وزملائه من الفرقاء ان معلوماتهم عن قوة الجيش الاحمر كانت خاطئة تماماً. ولكنهم في الثالث من شباط عام ١٩٤١ لم يشكو مطلقاً في صحة هذه المعلومات. اذ كانت تقارير هولدر عن القوى المتقابلة وعن الخطط السوقية التي يجب تطبيقها لمحو الجيوش الحمراء من الوجود دقيقة الى حد الاقناع [2]، حتى ان هتلر نفسه لم يكتف بالموافقة عليها «في مجموعها» فحسب، بل اشتد تأثره من الآمال البراقة التي اثارها في مخيلته رئيس هيئة اركان الحرب، وراح يهتف بحماس:

«عندما تبدأ عملية بربروسة، فسيقف العالم لاهثاً مقطع الأنفاس لايحير تعليقاً أو قولاً من الدهشة.»

ولم يكن في وسعه ان ينتظر متمهلاً هذه البداية، وانما راح يصدر أمره بفراغ صبر باعداد خريطة العملية وخطة توزيع القوات وارسالها اليه في اسرع وقت ممكن.

---

١ ـ المؤامرة النازية والعدوان ص ٦٢٦ ـ ٦٣٣.

٢ ـ اعتمدت الخطط السوقية بصورة جوهرية على تلك التي حددها التوجيه الواحد والعشرون الصادر في الثامن عشر من كانون الاول عام ١٩٤٠. وعاد هتلر في تعليقاته التي قدمها لبراوختش وهولدر يؤكد اهمية «ابادة قسم كبير من قوات العدو» بدلا من ارغامها على التراجع. وقد اكد أيضا ان الهدف الرئيسي يجب ان يكون الاستيلاء على دول البلطيق وعلى مدينة لينينغراد.

مقدمة في البلقـــان

كان من الضروري لهتلر قبل ان يبدأ عملية بربروسة في الربيع ان يؤمن جناحه الجنوبي الممتد في البلقان وان يثبت دعائمه . ولم يحل الاسبوع الثالث من شهر شباط عام ١٩٤١ حتى كان الألمان قد جمعوا جيشاً ضخماً في رومانيا قوامه نحو من (٦٨٠) الف رجل ، يقف على حدود او كرانيا التي تمتد ثلاثمائة ميل بين الحدود البولندية والبحر الأسود [١] . فإلى الجنوب كانت اليونان لا تزال صامدة امام الايطاليين ، وكان ثمة كل ما يبرر لبرلين اعتقادها بأن القوات البريطانية ، العاملة في ليبيا ستنقل الى اليونان بحراً . وتكشف وقائع المؤتمرات العسكرية العديدة التي عقدها هتلر في هذه الآونة النقاب عن خشيته آنذاك ، من ان يقيم الحلفاء جبهة الى الشمال من سلانيك تكون اكثر ازعاجاً لألمانيا من الجبهة المماثلة التي حاولوا اقامتها في الحرب الكونية الماضية ،اذ تتيح للبريطانيين قاعدة تمكنهم من ضرب آبار الزيت الرومانية . يضاف الى هذا ان مثل هذه الجبهـــة ستشل عملية بربروسة . وكان هتلر قد توقع هذا الخطر منذ كانون الأول عام ١٩٤٠ ، عندما صدر التوجيه الأول لعملية ماريتا الذي نص على قيام هجوم الماني ضخم على اليونان عبر بلغاريا بقوات يحشدها في رومانيا .

وقدعادت بلغاريا اليوم الى نفس الخطأ الذي وقعت فيه إبان الحرب الكونية الأولى في تقدير الجانب الذي سينتصر في الحرب . وصدقت الحكومة البلغارية ادعاءات هتلر بأنه قد كسب الحرب ، وأثملتها الآمال بالحصول على اراضٍ يونانية الى الجنوب تتيح لها منفذاً الى بحر ايجه ، فسارعت الى الموافقـــة على الاشتراك في عملية ماريتا ، الى المدى التي تسمح فيه بعبور القوات الالمانية لاراضيها على الأقل . وعقد اتفاق سري في هذه الخطوة [٢] . وفي ليلة الثامن

---

١ ـ العلاقات النازية السوفياتية ص ٢٧٥ .

٢ ـ المؤامرة النازية والعدوان (٤) ص ٢٧٢ ـ ٢٧٥ .

والعشرين من شباط عبرت وحدات من الجيش الالماني نهر الدانوب من رومانيا ، وتركزت في مواقع ذات اهمية سوقية في بلغاريا التي انضمت في اليوم التالي الى الميثاق الثلاثي .

ولم يكن اليوغوسلافيون المتصلبون على هـذا النحو من التساهل . ولكن عنادهم حفز الألمان على المزيـــد من الضغط عليهم لارغامهم على الانضمام الى معسكرهم . واستدعي الوصي على عرش يوغوسلافيا الامير بول ليلة الرابع - الخامس من آذار بصورة متناهية في السرية الى عش النسر لمقابلة الفوهرر ، حيث استمع الى التهديدات المألوفة ، مع اغرائه بمدينة سلانيك كرشوة لبلاده. ووصل الى فيينا في الخامس والعشرين من آذار دراغيشا شفيتكوفيش رئيس وزراء يوغوسلافيا والكساندر سينكار - ماركوفيتش وزير خارجيتها بعد ان انسلاّ بصورة سرية في الليلة الفائتة من بلغراد تجنباً للمظاهرات المعادية او لخطر اختطافهما . ووقعا بحضور الفوهرر وريبنتروب وثيقة انضمام بلادهما الى الميثاق الثلاثي . وقد طرب هتلر لهذا التطور وراح يبلغ شيانو انه أي التطور سيساعد هجومه المتوقع على اليونان . وتلقى الوزيران اليوغوسلافيان قبل مغادرتهما فيينا رسالتين من ريبنتروب يؤكد فيهما «عزم» المانيا على احترام «سيادة يوغوسلافيا وسلامة اراضيها في جميع الظروف والأحوال» ، ووعدها بأن لايطلب المحور حقوق العبور لقواته داخل اراضي يوغوسلافيا «طيلة ايام الحرب». [1] ولكن هتلر ما لبث ان خرق هذين الاتفاقين في وقت اعتبر قياسياً في سرعته حتى بالنسبة الى هتلر نفسه .

ولم يكد الوزيران اليوغوسلافيان يعودان الى بلغراد ، حتى اطاح بهما وبالحكومة وبالأمير الوصي انقلاب عشية السادس والعشرين من آذار ، قامت به الجماهير واعلن الانقلابيون ارتقاء ولي العهد الشاب الامير بطرس الذي نجا من

١- المؤامرة النازية والعدوان (١) ص ٧٨٣ ، نص الرسالتين اللتين سلمهما ريبنتروب الى الوزيرين اليوغوسلافيين .

مراقبة أعوان الوصي ، بتسلله من القصر هابطاً على احدى انابيب المياه ، على العرش ، وعلى الرغم من ان الفريق دوشان سيموفيش زعيم العهد الجديد ، قد عرض فور توليه مقاليد الحكم على المانيا عقد ميثاق لعدم الاعتداء، الا انه اتضح لبرلين ان هذا العهد ، لن يقبل مطلقاً تمثيل دور « الدمية » الذي أعده الفوهرر ليوغوسلافيا ، وأظهر الصربيون حقيقة ميولهم وعواطفهم اثناء مظاهرات الفرح الصاخبة التي قاموا بها في بلغراد ، عندما بصقت الجماهير على سيارة الوزير الالماني المفوض .

واطاح انقلاب بلغراد بالفوهرر في نوبة من اشد النوبات التي تعرض لها في حياته غضباً وهياجاً . واعتبره اهانة شخصية له ، واتخذ في سورة غضبه سلسلة من القرارات المفاجئة التي قدر لها ان تكون مفجعة لطوالع الرايخ الثالث .

وراح هتلر يستدعي قادته العسكريين الى دار المستشارية في برلين في السابع والعشرين من آذار . وقد عقد هذا الاجتماع بصورة عاجلة وغير متوقعة حتى ان براوختش وهولدر وريبنتروب ، وصلوا اليـــه متأخرين ليشهدوا زعيمهم وهو يتأجج سخطاً على اليوغوسلافيين مقرراً الثأر منهم فوراً . وقال ان انقلاب بلغراد ، يعرض للخطر عملية ماريتا ، وعملية بربروسة ايضاً . ولهذا فقد قرر دون ان ينتظر أية بيانات محتملة من الحكومة اليوغوسلافية الجديدة للاعراب عن ولائها ، تحطيم يوغوسلافيا عسكرياً ، وكدولة لها وجود . ولن يقوم بأية اتصالات أو تحقيقات دبلوماتية ، كما لن يوجه اية انذارات ، واضاف ان من الواجب تحطيم يوغوسلافيا « بمنتهى القسوة والصرامة » . واصــدر أمره الى غورنغ فوراً وعلى التو « بتدمير بلغراد بغارات جوية في موجات متعاقبة » تقوم بها قاذفات تعمل من القواعد الجوية المجرية . واصدر توجيهه الخامس والعشرين[1] الذي يقضي بغزو يوغوسلافيا فوراً ، واوعز الى كايتل ويودل بإعداد الخطط

---

١ - يوجد نص جزئي للتوجيه الخامس والعشرين في المؤامرة النازيـة والعدوان (٦) ص ٩٣٨ - ٩٣٩ .

الحربية اللازمة للتنفيذ تلك الليلة نفسها . وأمر ريبنتروب بابلاغ كل من المجر ورومانيا وايطاليا بأنها ستحصل على شطر من الأراضي اليوغوسلافية ، التي قرر تجزئتها بين هذه الدول الثلاث . باستثناء مساحة ضيقة قرر ان يقيم فيها دويلة كرواتية « تابعة » له . [1]

واعلن هتلر عند ذاك؛ كما تشير فقرة « وضعت خطوط تحتها للتأكيد عليها » وردت في الوقائع السرية للغاية التي دونتها القيادة العليا للقوات المسلحة [2] . قراراً يعتبر اكثر قراراته تلك الليلة خطورة وقدرية . فقد ذكر لقادتـــه العسكريين « ان من الواجب تأخير موعد البدء بعملية بربروسة مدة اربعـــة اسابيـــع [3] . »

ولعل هذا القرار الذي اتخذه سيد الحرب النازي بتأجيل هجومـــه على روسيا ليشفي غله الشخصي من ذلك البلد البلقاني الصغير الذي جرؤ على تحديه ، هو اكثر قرار فردي اتخذه هتلر في حياته كلها ، فجيعة واذىً . ولا ارى ان من المغالاة القول ، ان الفوهرر بقراره هذا الذي اتخذه بعد ظهر ذلك اليوم في دار المستشارية في برلين ، وإبان سورة من سورات الغضب الاعمى ، قد اضاع آخر فرصة ذهبية لديه لكسب الحرب ، وليجعل من الرايخ الثالث الذي خلقه هو بمثل هذه العبقرية المدهشة والمتوحشة ، اعظم امبراطورية في تاريخ المانيا ، وليغدو هو السيد الذي لا ينازع لاوروبا . ولا ريب في ان المشير فون براوختش القائد العام للجيش الالماني ، والفريق هولدر الرئيس الموهوب لهيئة اركان

---

١ ـ قال هتلر وهو ينفث حممه ان « الحرب ضد يوغوسلافيا امر تتوق اليه شعوب ايطاليا والمجر وبلغاريا » . وقال انه سيعطي مقاطعة باتان للمجر ، ومقاطعة مقدونيا لبلغاريا وساحل الادرياتيك لايطاليا .

٢ ـ وقائع القيادة العليا للقوات المسلحة عن الاجتماع ـ المؤامرة النازية والعدوان (٤) ص ٢٧٥ ـ ٢٧٨ .

٣ ـ كان اول توجيه صدر عن عملية بربروسة في الثامن عشر من كانون الاول قد حدد موعد البدء بالهجوم في الخامس عشر من ايار .

الحرب ، قد تذكروا هذه الحقيقة بمنتهى المرارة ، وبالمزيد من التفهم لعواقبها، عن التفهم الذي ابدياه لحظة اتخذ الزعيم قراره هذا ، ولذلك عندما داهمتها الثلوج العميقة ودرجات الحرارة التي تنخفض عن الصفر في روسيا ، قبل ثلاثة اسابيع او اربعة من تحقيق ما كانا يتطلعان اليه من نصر نهائي ، وهو نصر كان مضموناً لو تأخرت الثلوج هذه المدة القصيرة . وقد ظل هذان القائدان ورفاقهما من الفرقاء العسكريين ، يلقون اللوم في الكوارث التي توالت ، على ذلك القرار الاحمق ، الذي اتخذه رجل غاضب مغرور ، في لحظة من لحظات غضبه .

وليس ثمة من ريب في ان التوجيه العسكري رقم(٢٥) الذي أصدره القائد الاعلى لفرقائه العسكريين قبل ان ينفض الاجتماع يعتبر وثيقة هتلرية نموذجية.. فقد جاء فيه :

« لقد بدل الانقلاب العسكري في يوغوسلافيا اوضاع البلقان السياسية كلها . ومن الواجب اعتبار يوغوسلافيا على الرغم من كل ما تدعيه من ولاء لنا عدوة في الوقت الحاضر يجب تحطيمها في اسرع وقت ممكن .

« وإن مما اتوق اليه أن اشق طريقي الى يوغوسلافيا ... وان ازيل من الوجود ما يدعى بالجيش اليوغوسلافي ... »

وصدر الأمر الى يودل بوصفه رئيس قسم العمليات الحربية في القيادة العليا للقوات المسلحة باعداد الخطط اللازمة تلك الليلة . وقد تحدث امام محكمة نورمبرغ فيما بعد فقال : « ظللت اعمل طيلة تلك الليلة في مستشارية الرايخ. ولم تحل الساعة الرابعة من صباح الثامن والعشرين من آذار حتى كنت اسلم مذكرة الى الفريق فون رينتيلين ، ضابط اتصالنا مع القيادة العليا الايطالية . »[١]

---

١ ــ شهادة يودل في « محاكمات كبار مجرمي الحرب (١٥) ص ٣٨٧ » وخططه في « المؤامرة النازية والعدوان (٤) ص ٢٧٨ ــ ٢٧٩ » .

وكان من المحتوم ابلاغ موسوليني فوراً بالخطط العملية الألمانية ، اذ ان جيوشه المتمايلة في البانيا كانت في خطر التهديد في مؤخرتها من يوغوسلافيا ، وان يطلب اليه التعاون مع هـــذه الخطط . واراد هتلر أن يتأكد من فهم الدوتشي لما يطلب اليه العمل،فلم ينتظر فراغ يودل من اعداد الخطط العسكرية اللازمة ، وراح يبعث في منتصف ليلة السابع والعشرين من آذار برسالة عاجلة الى حليفه ، وأمر بابراقها فوراً الى برلين لتصل الى الدوتشي في نفس الليلة ، وهذا نصها : [1]

« تضطرني الظروف ايها الدوتشي الى ان ابلغك بأسرع السبل الممكنة تقديراتي للوضع . والنتائج المترتبة على هذه التقديرات .

« لقد اعتبرت يوغوسلافيا منذ البداية عاملاً خطراً في الحرب ضد اليونان ... ولهذا السبب وحده ،بذلت كل جهد ممكن بصدق واخلاص ، لحمل يوغوسلافيا على الانضمام الى جماعتنا ... ولسوء الحظ لم تحقق هذه المحاولات أي نجاح ... ولا تترك تقارير اليوم اي شك في التحول المرتقب في كل لحظة في سياسة يوغوسلافيا الخارجية . »

« ولهذا فقد اعددت جميـع الاجراءات اللازمة ... بالسبل العسكرية . وانني لأطلب اليك الآن يادوتشي بكل ود وصداقة ، ان لا تقوم بأية عملية جديـــدة في ألبانيا في غضون بضعة الايام المقبلة . وارى من الضروري ان تغطي جميع الممرات الجبليـــة الواصلة بين يوغوسلافيا والبانيا بالقوات المتيسرة لديك .

« واني لأرى من الضروري ايضاً يا دوتشي ، ان تعزز قواتك المرابطة على الجبهة الايطالية – اليوغوسلافية بكل السبل المتوافرة لديك وبأسرع وقت ممكن . »

---

١ – نص رسالة هتلر الى موسوليني في ٢٨ آذار عام ١٩٤١ – المؤامرة النازية والعدوان (٤) ص ٤٧٥ – ٤٧٧ .

« واني لأرى من الضروري كذلك ، بأن يحاط كل ما نعمله ونأمر به بالسر والكتمان . وليس ثمة من شك في ان هـذه الاجراءات تفقد قيمتها تمامـاً في حالة البوح او اتضاحها ... ولهذا فإذا راعينا جانب السرية يا دوتشي تمام المراعاة ، فليس لدي من شك في اننا معاً سنحقق نجاحاً لا يقل عن النجاح الذي حققناه في النروج قبل عام . وليس ثمة من شك في ان ايماني هـذا راسخ لا يتزعزع .

« وارجو ان تتقبل اخيراً تحياتي القلبية والودية .

المخلص لك

ادولف هتلر

ولقد صدقت حسابات سيد الحزب النازي تمام الصدق بالنسبة الى هـذا الهدف القريب ، ولكن يبدو انه لم يكن يدري مطلقاً آنذاك ان هـذا الثأر الناجح من يوغوسلافيا سيكلفه ثمناً غالياً كل الغلاء على المدى البعيد وتدفقت جيوشه فجر اليوم السادس من آذار في قوة هائلة على يوغوسلافيـا واليونان ، عابرة من حدود بلغاريا والمجر والمانيا نفسها ، بكل ما لديها من سلاح مدرع ، وزاحفة بسرعة مقابل مدافعين يفتقرون الى التسلح وخيمت عليهم الدهشة من الغارات الأولية المألوفة التي قام بها السلاح الجوي الألماني .

وتحولت بلغراد نفسها تلبية لأوامر هتلر الى ركام . وظلت قاذفات غورنغ ثلاثة ايام متوالية بلياليها تحوم في سماء العاصمة الصغيرة على ارتفاع منخفض لا يعدو اسطحة البنايات ، اذ لم يكن في المدينة نفسها أي مدافـع للطائرات ، فقتلت نحو سبعة عشر الفاً من المدنيين ، واصابت بجراح عدداً آخر يربو على هذا العدد ، وحولت البلدة كلها الى انقاض . واطلق هتلر على هذا العمل اسم « عملية القصاص » (Punishment) وليس ثمة من شك في انه كان راضياً كل الرضى عن الدقة في تنفيذ اوامره . وتحطم الجيش اليوغوسلافي من جرّاء عدم وجود الوقت الكافي لتعبئة قواته الاحتياطية ، ونتيجة الخطأ الذي ارتكبته قيادته في محاولتها

الدفاع عن البلاد بأسرها . ودخلت القوات الألمانية المجرية في الثالث عشر من آذار الى ما تبقى من بلغراد ، واستسلمت في السابع عشر من الشهر بقايا الجيش اليوغوسلافي وكانت لا تزال تعد ثماني وعشرين فرقة في سراجيفو ، بعد ان فرّ الملك ورئيس وزرائه بالطائرة الى اليونان .

ولم يستطع اليونانيون الذين تمكنوا من اذلال الجيش الايطالي مدة ستة اشهر من القتال ، الصمود أمام جيش المشير فون ليست الثاني عشر ، المؤلف من خمس عشرة فرقة بينها أربع فرق مدرعة . وكان البريطانيون قد سارعوا الى ارسال اربع فرق من ليبيا الى اليونان قوامها ثلاثة وخمسين الفاً من الجنود ، ولكن هؤلاء شأنهم شأن اليونانيين، كانوا أقل عدداً من ان يصمدوا امام الفرق المدرعة الالمانية وأمام الضربات القاتلة التي يكيلها لهم السلاح الجوي الالماني. واستسلمت الجيوش اليونانية الشمالية للألمان وللايطاليين ـ وهنا تقع المرارة ـ في الثالث والعشرين من نيسان . ولم تمض ايام اربعة حتى كانت الدبابات النازية تهدر داخل شوارع اثينا وترفع علم الصليب المعقوف على تلة الاكروبوليس . وكان البريطانيون يحاولون يائسين في غضون ذلك ، اجلاء قواتهم من الارض اليونانية عن طريق البحر ، وشهد الساحل اليوناني « دنكرك » ثانية ولكنها اصغر حجماً وان لم تكن أقل منها نجاحاً .

ولم تحل نهاية شهر نيسان ، أي بعد ثلاثة اسابيع ، حتى كان كل شيء قد انتهى في اليونان باستثناء جزيرة كريت التي استولى عليها الالمان من البريطانيين بعد هجوم حملته الطائرات في نهاية شهر ايار . ولقد حقق هتلر في بضعة ايام من الربيع ، ما فشل الايطاليون في تحقيقه فشلاً ذريعاً طيلة اشهر الشتاء. وعلى الرغم من ان الدوتشي قد نجا من مرارة الهزيمة ، إلا انه أحس بمرارة الاذلال لأن نجاته حدثت على يد الألمان . ولم تلطف الحصة المخيّبة للأمل التي حصل عليها من الأسباب اليوغوسلافية التي شرع هتلر في توزيعها من حدة مشاعر الألم التي عاناها . [1]

---

١ ـ أصدر هتلر في الثاني عشر من نيسان اي بعد ستة ايام من شنه هجومه في البلقان =

ولم تكن البلقان المنطقة الوحيـــدة التي سارع الفوهرر ، الى انقاذ شريكه الأصغر فيها وانقاذه من « السنّارة » التي اشتبكت بحلقه . فلقدوافق هتلر بعد إبادة القوات الايطالية في ليبيا ، وهو متبرم ، على ارسال فرقة مدرعة خفيفـة وبعض وحدات السلاح الجوي الى افريقيا الشمالية ، حيث تمكن من ان يضمن للفريق اروين رومل ، القيادة العامة للقوات الايطالية والالمانية فيها . وكان رومل هذا ، وهو ضابط الدبابات الجريء والوافر الذكاء والذي برز كقائـــد لأحدى الفرق المدرعة في معركة فرنسا ، من طراز آخر من القادة العسكريين يختلف عن الطراز الذي خبره البريطانيون في صحراء افريقيا الشمالية ، وقدر له ان يغدو بالنسبة اليهم مشكلةعظيمة دامت زهاء سنتين.ولكنه لم يكن المشكلة الوحيدة التي جابهتهم هناك . فالجيش اللجب ، والقوة الجوية الكبيرة ، اللذين أوفدهما البريطانيون الى اليونان من ليبيا كانا قد اضعفا قواتهم في الصحراء . ولم يقلق البريطانيون من هذه الحقيقة في بادىء الأمر ، على الرغم من ان مخابراتهم قد نقلت اليهم انباء وصول وحدات المانية مدرعة الى هناك في نهاية شهر شباط. ولكنهم كانوا مخطئين في تجاهلهم هذا .

فقد شرع رومل بالهجوم في برقة بصورة مباغتة في اليوم الأخـــير من شهر آذار مستخدماً فرقة المانية مدرعة وفرقتين ايطاليتين احداهما مدرعة . واعاد احتلال الولايات في اثني عشر يوماً ، طوق فيها طبرق ووصل الى البردية التي لا تبعد إلا بضعة اميال عن حدود مصر . وتعرض مركز بريطانيا كله في مصر والسويس للخطر من جديد ، واصبحت سيطرة بريطانيـــا على شرق البحر

= توجيها سريا يقضي بتقسيم يوغوسلافيا بين المانيا وايطاليا والمجر وبلغاريا . وقد قضى التوجيه بخلق دولة كرواتيا الجديدة التابعة لالمانيا . وخص الفوهرر بلاده بالحصة السخية من البلاد اذ ضم لالمانيا كل ما كان في السابق جزءا من الامبراطورية النمسوية القديمة ، محتفظا تحت احتلالها ببلاد الصرب القديمة وبالمناطق الغنية بمناجم النحاس والفحم . وظلت حصة ايطاليا غامضة الى حد ما وان لم تكن حصة كبيرة . (للتفاصيل راجع نص التوجيه ـ المؤامرة النازية والعدوان (٣) ص ٨٣٨ ـ ٨٣٩) .

المتوسط ، معرضة لخطر هائــــل ، من جرّاء وجود الألمان والايطاليــــين في اليونان ايضاً .

وجاء الربيــع الثاني من الحرب بانتصارات مذهلة جديدة لألمانيا ، وغدت خطوات بريطانيا ، التي تقف وحيدة ، وتتعرض بلادها لغارات السلاح الجوي الألماني كل ليلة ، والتي تطارد جيوشها هاربة من اليونان وبرقــة ، اكثر قتاماً ومدعاة لليأس من أي وقت مضى . وهبطت سمعتها التي تعتبر عاملاً مهماً في صراع الحياة أو الموت حيث تلعب الدعاية دوراً بارزاً كسلاح من اسلحة الحرب ولا سيما في التأثير على الولايات المتحدة وروسيا الى الحضيض من جديد [1].

ولم يتوان هتلر أو يتقاعس عن استغلال هذه الانتصارات في خطاب آخر من خطب « انتصاراته » ، ألقاه في الرايشستاغ في برلين في الرابع من ايار . وتألف هذا الخطاب من عبارات ساخرة وملأى بالحقد وجهها بصورة شخصية الى تشرشل ، الذي يعتبره من اليهود ، أشد المحرضــــين على الحرب ، والرجل

---

١ ـ شرع شارل . أ. ليندبرغ ، بطل الطيران المشهور ، والذي كان قد بدا لمؤلف هذا الكتاب ، نتيجة السذاجة المدهشة ، ضحية تبجحات الدعاية النازية اثناء الزيارات المتعددة التي قام بها لالمانيا ، يخطب في جماهير غفيرة من الامريكيين منبئا بهزيمة بريطانيا ولقد خطب في الثالث والعشرين من نيسان عام ١٩٤١ ، عشية الانتصارات النازيــة الضخمــة في البلقان وافريقيا ، في نحو من ثلاثين ألف شخص في نيويورك في الاجتماع الاول الذي عقدتــه لجنــة امريكا اولا « المؤلفة حديثا » فقال ... « لا تزال هناك خطة يائسة وحيدة امــام الحكومة البريطانية ... وهي اقناعنا من جديد بارسال حملة عسكرية امريكية الى اوروبا ، وباشتراكنا مع انكلترا عسكريا وماليا في مهزلة هذه الحرب » . وقد حكم على انكلترا « لتشجيعها الدول الصغيرة في اوروبا على الحرب ضد قوات تفوقها عددا بشكل هائل لا أمل فيه » . ويبدو انه لم يدر في خلد هذا الرجل قط ان يوغوسلافيا واليونان ، اللتين أتم هتلر سحقهما قبل قليل، قد هوجمتا بصورة وحشية دون أي استفزاز من جانبهما ،وانهما قد حاولتا مدفوعتين بالغريزة وبالاحساس بالكرامة ، الدفاع عن نفسيهما ، متسلحتين بالبسالة امام قوات تفوق قواتهمــا عددا . وقد استقال ليندبرغ في الثامن والعشرين من نيسان من منصبــه كعقيــد احتياط في الفيلق الجوي التابع للجيش الامريكي ، وذلك بعد ان وصمه الرئيس روزفلت في الخامس والعشرين علنا بوصمة الانهزامية والدعاية الى التسليم .وقد قبل وزير الحربية استقالته فورا.

الذي يبرع أشد البراعة في تحقيق الهزيمة ... إذ قال عنه :

« إن هذا الرجل ، هو اكثر واضعي الخطط السوقية هواية وتعطشاً للدماء في تاريخ العالم ... فلقد ظل هذا الانسان قرابة خمسة اعوام يذرع اوروبا شرقاً وغرباً كرجل مجنون يبحث عمّا يستطيع ان يلهب النار فيه ... فهو في الجندية سياسي فاشل ، وهو في السياسة جندي لا يقل فشلاً عنه في الجندية . والموهبة الوحيدة التي يملكها تشرشل ، هي قدرته على الكذب وهو يتظاهر بالصدق ، في وجهه تغمره التقوى ، وعلى تشويه الحقائق الى الحد الذي يقلب الهزائم الفظيعة للغاية الى انتصارات مجيدة ...و هكذا فإن تشرشل ، الرجل السخرية في ميدان السوقية العسكرية ،وقد تمكن في يوغوسلافيا واليونان من ان يخسر مسرحين من مسارح الحرب بضربة واحدة . ولو كان تشرشل في بلاد اخرى غير بريطانيا لحوكم أمام محكمة عسكرية ... ولا يمكن وصف حالته العقلية الشاذة إلا انها صورة واضحة إما لانسان مصاب بالشلل ، أو لسكير يحلم أحلام السكارى ... » .

ولم يحاول هتلر ، ان يكبح جماح عواطفه الحقيقية عندما تحدث عن انقلاب يوغوسلافيا الذي كان قد استفزّ غضبه الى حد الجنون ، إذ قال :

« وقد ذهلنا جميعاً من ذلك الانقلاب الذي قامت به زمرة صغيرة من المتآمرين المرتشين ... وليس من شك ،في أنكم ستفهمون ايها السادة،انني عندما سمعت بنبأ الانقلاب هذا ، أصدرت أوامري فوراً بالهجوم على يوغوسلافيا . فلقد استحال علي ان اقبل بمعاملة الرايخ الألماني على هذا النحو من الزراية ... »

وعلى الرغم من صلفه وغروره بما حققه من انتصارات في الربيع ولا سيما على بريطانيا ، إلا ان هتلر ، لم يدرك ادراكاً تاماً مدى الضربة القاسية التي وجهتها هذه الانتصارات لبريطانيا ولا الوضع اليائس الذي غدت فيه حالة امبراطوريتها.

ففي اليوم الذي كان يخطب فيه في الرايشستاغ ، كان تشرشل يكتب الى الرئيس روزفلت عن النتائج الوخيمة التي ستنجم عن خسارة بريطانيا لمصر والشرق الأوسط ويناشده ان تدخل امريكا الحرب . وكان رئيس الوزراء في حالة قاتمة من اكثر الحالات التي مر بها في الحرب كآبة .. اذ كتب لروزفلت يقول :

« وانني لأناشدك الله ياسيدي الرئيس ، ان لا تقلل من خطورة النتائج التي قد تنجم من انهيار الشرق الأوسط [1] . »

وقد حثت قيادة البحرية الألمانية الفوهرر على استغلال هذا الوضع الى اقصى الحدود . ويشاء حسن حظ المحور ، لتحسين الأوضاع بالنسبة اليه ، ان يقوم رئيس وزراء العراق الجديد ، رشيد عالي ، الذي كان ميالاً الى الألمان ، بهجوم على القواعد البريطانية الجوية في الحبانية القريبة من بغداد ، وان يناشد هتلر العون لاخراج البريطانين من البلاد . وكان هذا في مطلع شهر ايار [2] . وعندما تم الاستيلاء على جزيرة كريت في السابع والعشرين من ايار ، ناشد امير البحر ريدر ، الذي كان دائم المعارضة لعملية « بربروسة » هتلر في الثلاثين من ايار ، ان يعد العدة لهجوم حاسم على مصر والسويس . وبعث روميل الذي كان تواقاً الى مواصلة زحفه حالما تصله النجدات التي طال انتظاره لها ، بنداءات مماثلة لهتلر من افريقيا الشمالية . وكتب ريدر الى الفوهرر يقول : « ستكون هذه الضربة أشد أثراً قتالاً على الامبراطورية البريطانية من احتلال لندن » . وسلم امير البحر بعد نحو اسبوع مذكرة الى هتلر وضعها قسم العمليات في هيئة اركان حرب الاسطول . يحذر فيه بأي حال من الاحوال في « عدم العدول عن المضي في الحروب في المتوسط او تأجيله على الرغم من الحقيقة الواقعة وهي ان عملية بربروسة تحتل طبعاً ، المكانة البارزة في تفكير القيادة العليا للقوات

---

١ ـ تشرشل ـ مذكرات ـ الجزء الثالث ص ٢٣٥ ـ ٢٣٦ .

١ ـ يبدو من هذه الفقرة ان المؤلف لم يدرس حقيقة ثورة العراق في عام ١٩٤١ ، دراسة كاملة ، واكتفى بأن يساير التيار الشائع القائل بأن الثورة كانت نتيجة الميل الى الالمان ، لا نتيجة النقمة على الاستعمار ، كما لم يعرف بأن الحرب قد فرضت على العراقيين فرضا .
ـ المعرب ـ

المسلحة »[1] .

ولكن الفوهرر كان قد حزم أمره . ولم يكن في الحقيقة قد بدل القرار الذي اتخذه منذ ايام عيد الميلاد المنصرم ، عندما أمر بإعداد العدة لبربروسة ، وأبلغ أمير البحر ريدر وجوب « تصفية روسيا اولاً » . وكان عقله المغلق على الحرب البرية لا يستطيع ان يفهم الخطط السوقية الواسعة التي تنادي بها البحرية. وكان حتى قبل ان يصله نداء ريدر واركان حرب البحرية في نهاية شهر ايار ، قد أوضح نفسه في التوجيه الثلاثين الذي اصدره في الخامس والعشرين من ايار [2] . فقد امر في هذا التوجيه بايفاد بعثة عسكرية وبعض الطائرات والاسلحة الى بغداد لمساعدة العراق . وقال : « لقد قررت تشجيع ما يقع في الشرق الاوسط من تطورات عن طريق مساعدة العراق » . ولكنه لم ير ابعد من هذه الخطوة الصغيرة وغير الكافية . أما بالنسبة الى الخطة السوقية الاوسع مدى واكثر سرعة والتي نادى بها امراء البحر ورومل ... فقد اعلن قائلاً :

« وليس في الامكان اتخاذ قرار نهائي بصدد ما اذا كان في الامكان شن هجوم على قناة السويس ، لاخراج بريطانيا نهائياً من مراكزها بين البحر المتوسط والخليج العربي ، وكذلك بصدد ما يلزم لهذا الهجوم من وسائل قبل الانتهاء من عملية بربروسة » .

وهكذا رأى هتلر ان تحطيم الاتحاد السوفياتي يجب ان يحتل كل اهتمام أولاً ، وان على المشاريع الأخرى ان تنتظر . وفي وسعنا الآن ان نحكم على ان هتلر قد اخطأ في رأيه هذا خطئاً فاحشاً . فلقد كان في امكان هتلر في ذلك الوقت ، أي في نهاية ايار عام ١٩٤١ ، ان يوجه بجزء من قواته ليس إلا ، ضربة ساحقة للامبراطورية البريطانية قد تقضي عليها . ولم يكن ثمة من شخص يدرك هذه الحقيقة ، احسن من تشرشل المجهد المنهوك . فلقد ذكر في رسالته التي بعث بها

---

١ ـ المؤامرة النازية والعدوان (٦) ص ٩٩٨ ـ ١٠٠٠ .

٢ ـ مؤتمرات هتلر في الشؤون البحرية ـ ١٩٤١ ، ص ٥٠ ـ ٥٢ .

الى الرئيس روزفلت في الرابع من ايار ، ان استمرار الحرب في حالة ضياع مصر والشرق الاوسط ، سيصبح « افتراضاً قاسياً وطويلاً وهزيلاً » حتى ولو اشتركت الولايات المتحدة في الصراع . ولكن هتلر لم يدرك هذه الحقيقة . ويصبح عماه عنها اكثر صعوبة على الفهم ،اذا عرفنا ان حملته البلقانية قد أخرت بدء عملية بربروسة بضعة اسابيع ، فقضت عليها بالشلل تبعاً لذلك . فلقد بات من الضروري اكمال اجتياح روسيا في وقت اقصر مما كان مقرراً في السابق . اذ كان ثمة موعد لايمكن تخطيه ، وهو حلول الشتاء الروسي ، ذلك القائد الذي هزم شارل الثاني عشر ونابليون من قبل . وكان هذا يعني ان على الألمان ان يجتاحوا روسيا في غضون ستة اشهر قبل حلول الشتاء ، وهي بلاد فسيحة هائلة ، لم يستطع فاتح ان يجتاحها قط من الغرب . وعلى الرغم من ان شهر حزيران قد اطل ، إلا ان ذلك الجيش اللجب الذي وجّه جنوباً بشرق ، باتجاه يوغوسلافيا واليونان كان ينتظر الآن ان يعود مسافات واسعة ، الى الحدود الروسية ، فوق طرق غير معبّدة ، وعلى سكة حديد واحدة مجهدة ، لا تعتبر كافية بأي حال من الأحوال ، لتحمل اعباء هذا النقل الضخم .

و كان التأجيل ، كما أظهرت الاحداث فيما بعد ، قدرياً مميتاً . ويقول المدافعون عن عبقرية هتلر العسكرية ، ان حملة البلقان ، لم تؤثر على توقيت عملية بربروسة تأثيراً ملحوظاً ، وان التأجيل كان ناجماً على أي حال ، عن تأخر ذوبان الثلوج في ذلك العام ، مما ادى الى انتشار الوحول في طرق اوروبا الشرقية حتى اواسط حزيران . ولكن شهادة كبار القادة الألمان تختلف عن هذه الأقوال تمام الاختلاف . فلقد شهد المشير فريدريك باولوس ، الذي سيظل اسمه دائماً مترابطاً مع ستالينغراد ، والذي كان في هذا الوقت المخطط الرئيسي للحملة الروسية في هيئة اركان حرب الجيش ، امام محكمة نورمبرغ ، ان قرار هتلر بتحطيم يوغوسلافيا قد أجل البدء بعملية بربروسة نحواً من خمسة اسابيع »[١].

---

١ ـ محاكمات كبار مجرمي الحرب (٧) ص ٢٥٥ ـ ٢٥٦ .

وتعطي اليوميات الحربية لقيادة الاسطول نفس الوقت الذي ذكره باولوس [١]. وقال : المشيرفون رونشتادت الذي تولى قيادة مجموعة الجيوش الجنوبية في روسيا لمحققي الحلفاء بعد الحرب ، اننا « بدأنا الحملة في روسيا متأخرين اربعة اسابيع بسبب حملة البلقان ». واضاف قائلاً : « وكان هذا التأجيل غالي الثمن والتكاليف للغاية » [٢].

على أي حال ، عندما انتهت جيوش هتلر في الثلاثين من نيسان من فتحها ليوغوسلافيا واليونان حدد هتلر الموعد الجديد لعملية بربروسة ، فقرر ان تبدأ في الثاني والعشرين من حزيران عام ١٩٤١ [٣].

تخطيط الارهاب

اصر هتلر على قادته العسكريين ان يفهموا شيئاً واحداً بوضوح كلي ، وهو ان ليست هناك قيود يجب عليهم التقيّد بها في روسيا . وكان قد جمع في مطلع شهر آذار عام ١٩٤١ ، جميع قادة القوات المسلحة الثلاث في مؤتمر حضره كبار قادة الميدان ، وخطط لهم القانون الذي فرض عليهم اتباعه . وقد دوّن هولدر ما قاله بالحرف الواحد : [٤]

« ستكون الحرب في روسيا من الطراز الذي لا تتبع فيه اصول الشهامة والفروسية . وهذا الصراع صورة للخلافات العقائدية والعنصرية ، ومن الواجب ان يسير في قسوة لا هوادة فيها ولا رحمة ولا تردد ، ولا مثيل لها. وعلى جميع الضباط ان يتحرروا من العقائد المنسوخة الباطلة واني لأفهم ان ضرورة مثل هذه

---

١ ـ المؤامرة النازية والعدوان (٦) ص ٩٩٦

٢ ـ شولمان ـ الهزيمة في الغرب ـ ص ٦٥

٣ ـ التوجيه السري في ٣٠ نيسان ١٩٤١ ، المؤامرة النازية والعدوان (٣) ص ٦٢٣ ـ ٦٢٤ .

٤ ـ شهادة هولدر المشفوعة باليمين في ٢٢ تشرين الثاني ١٩٤٥ ـ المؤامرة النازية والعدوان (٨) ص ٦٤٥ ـ ٦٤٦) .

الوسائل لشن الحرب تتعدى فهم قادتكم العاملين تحت امرتكم ... ولكنني أصر اصراراً كلياً على وجوب اطاعة اوامري دون عصيان أو مخالفة . والمفوضون (القوميساريون) هم حملة العقيدة الشيوعية ، وهم على خط مناقض واضح للاشتراكية الوطنية . ولهذا يجب تصفية المفوضين تصفية تامة . وسأعفو عن جميع الجنود الألمان الذين يتهمون بمخالفة القانون الدولي ... فروسيا لم تنضم الى ميثاق لاهاي ، وليس من حقها ان تطالب باحترام هذا القانون » .

وهكذا صدر الأمر المسمى «بأمر المفوضين ». وقد نوقش موضوعه مناقشات طويلة في محاكمات نورمبرغ ، عندما وُجه القادة العسكريون الألمان بالقضية التي تقول : « هل كان من واجبهم ان يطيعوا أوامر الفوهرر ويقترفوا جرائم الحرب او كان لزاماً عليهم ان يطيعوا ما تمليه عليهم ضمائرهم »[١] .

وروى هولدر فيما بعد ، ان القادة العسكريين ثاروا لهذا الامر ، ولم يكد الاجتماع ينفض حتى كانوا يجتمعون الى قائدهم العام براوختش. وقال هذا المشير الخائر العزم[٢] ، لقادته انه « سيقاتل ضد هذا الأمر على النحو الذي وضع فيه » . ويقسم هولدر ان براوختش عاد فأبلغ القيادة العليا للقوات المسلحة خطياً ، ان ضباط الجيش « لايستطيعون تنفيذ هذه الاوامر » . ولكن هل صدر عنه مثل هذا البلاغ حقاً ؟

---

١ ـ قال المشير فون مانشتاين على منصة الشهادة في نورمبرغ لدى البحث في « امر المفوضين » . « كانت هذه هي المرة الاولى التي أجد نفسي فيها متورطا في صراع بين مفاهيمي العسكرية وبين واجبي في الطاعة . وكان لزاما علي في الواقع ان اطيع ، ولكنني قلت لنفسي انني كجندي لا استطيع التعاون في أمر كهذا . وقلت لقائد مجموعة الجيوش الذي كنت اعمل تحت امرته في ذلك الوقت ... انني لا استطيع ان انفذ مثل هذا الأمر الذي يتعارض مع شرفي العسكري » (محاكمات كبار مجرمي الحرب الالمان (٢٠) ص ٦٠٩) .

واحقاقا للحق والتاريخ اود ان اقول هنا ، ان الامر قد نفذ بالطبع على نطاق واسع .

٢ ـ اطلق عليه هتلر فيما بعد لقب «رجل من القش» . (احاديث هتلر السرية ص١٥٢).

اعترف براوختش اثناء الاستجواب المباشر في نورمبرغ ، انه لم يقم بمثل هذا الاجراء مع الفوهرر « لأنه لم يكن ثمة سبيل لاقناعه بتغيير موقفه » . وكل ما فعله قائد الجيش كما ذكر للمحكمة ، انه اصدر أمراً خطياً ، يطلب فيه « الحفاظ على انضباط الجيش بنفس الدقة على ضوء الخطوط والانظمة التي كانت مطبقة في الماضي » .

وسأله القاضي اللورد لورنس ، رئيس المحكمة الحاد الطبع : « اذن فأنت لم تصدر أي أمر يشير اشارة مباشرة الى « امر المفوضين » ؟ »

فرد براوختش قائلاً : « لا . لم استطع معارضة الامر بصورة مباشرة »[1]

واتيحت لضباط الجيش من رجال المدرسة القديمة ، بتقاليدهم العسكرية الموروثة ، الفرصة من جديد ، للاصطراع مع ضمائرهم ، بالتوجيهات اللاحقة التي اصدرها كايتل في الثالث عشر من ايار نيابة عن الفوهرر .وقد حدد التوجيه الاساسي مهمة المحكمة العسكرية الألمانية . اذ كان من الواجب ان تفسح هذه المحكمة المجال ، ليحل محلها طراز اكثر بدائية من القوانين ... وجاء في التوجيه مايلي :

« ليس من صلاحية المحاكم العسكرية ان تنظر في الجرائم القابلة للعقاب والتي يقترفها المدنيون من الاعداء في روسيا ، وذلك حتى اشعار آخر ...

« ومن الواجب ان يظهر الاشخاص المتهمون بعمل اجرامي فوراً أمام ضابط من الضباط ، ومن حق هذا الضابط ان يقرر ما اذا كان من الواجب اعدامهم .

« أما بالنسبة الى الجرائم التي يرتكبها افراد القوات المسلحة الألمانية ضد المدنيين الاعداء ، فليس من الضروري الادعاء عليهم من النيابة العامة ، حتى ولو كانت الجريمة المقترفة من النوع

---

١ ـ شهادة براوختش في نورمبرغ (محاكمات كبار مجرمي الحرب (٢٠) ص ٥٨١ ـ ٥٨٢ ، و ص ٥٩٣) .

العسكري سواء كانت جريمة او جنحة » .

وطلب الجيش ان يكون متساهلاً مع مثل هؤلاء الجانحين ، وان يتذكروا في كل حالة من الاحوال ما حل بألمانيا من اذى على ايدي البلاشفة منذ عام ١٩١٨ . ولا يمكن السماح بمحاكمة الجنود الألمان عسكرياً ، الا اذا كان « الحفاظ على الانضباط أو امن القوات المسلحة يتطلب مثل هذا الاجراء » . وانتهى التوجيه الى القول ، « وعلى أي حال ، فإن الاحكام التي تتطابق مع النوايا السياسية للقيادة العليا ، هي التي يمكن تصديقها » [١] . واشترط التوجيه ان يعتبر من « الوثائق السرية للغاية » [٢] .

وصدر توجيه ثان بنفس التاريخ ، وقعه كايتل نيابة عن هتلر ، يعهد الى هملر « بمهام خاصة » لإعداد العدة للادارة السياسية في روسيا وهي « مهام » حددها الأمر بأنها « ناجمة عن الكفاح الذي يجب ان يستمر بين نظامين سياسيين متعارضين » . وقد عهد الى الرجل الصادي ، الذي يتولى رئاسة الشرطة السرية

---

١ ـ نص امر كايتل في ٢٣ تموز عام ١٩٤١ ـ المؤامرة النازية والعدوان (٦) ص ٨٧٦ .

٢ ـ امر كايتل في السابع والعشرين من تموز عام ١٩٤١ ، باتلاف جميع نسخ التوجيه الصادر في الثالث عشر من ايار في موضوع المحاكم العسكرية مع اشتراطه بأن لا يتأثر مفعول هذا التوجيه باتلاف هذه النسخ . » واضاف امر السابع والعشرين من تموز ، بأن من الواجب اتلاف نسخ هذا الامر نفسه . ولكن بعض النسخ من الامرين بقيت موجودة لتظهر في نورمبرغ ولتدمغ القيادة العليا بدليل الادانة .

وكان كايتل قد أصدر قبل أربعة ايام اي في الثالث والعشرين من تموز امرا آخر نص على انه « سري للغاية » . هذا نصه :

« أصدر الفوهرر في الثاني والعشرين من تموز بعد أن استقبل القائد العام للجيش (براوختش) الامر التالي :

« بالنظر الى المساحات الشاسعة التي تحتلها المناطق المحتلة في الشرق ، ستكون القوات المتوافرة لضمان الامن والاستقرار كافية اذا عوقبت جميع جرائم المقاومة لا بالاجراءات القانونية المعروفة بل بنشر الارهاب من قبل قوى الاحتلال ، على ـ يكون من النوع الكافي لمحو كل ميل للمقاومة عند السكان » (نص التوجيه المؤامرة النازية والعدوان (٣) ص ٦٣٧ ـ ٦٣٩ وهناك نص آخر في نفس المصدر (٦) ص ٨٧٢ ـ ٨٧٥) .

أن يعمل مستقلاً « عن الجيش » وعلى « مسؤوليته الخاصة » . وقد أدرك القادة العسكريون تمام الادراك ما عناه تعيين هملر « لهذه المهام الخاصة » ، على الرغم من انهم انكروا معرفتهم ذلك عندما وقفوا في محكمة نورمبرغ . يضاف الى هذا ان التوجيه قد اعلن وجوب منع الدخول الى المناطق المحتلة في روسيا عندما يكون هملر عاملاً فيها . واشترط هتلر ان لا يسمح « حتى للشخصيات الكبيرة في الحكومة او الحزب » بدخول هذه المناطق ورؤية ما يدور فيها . وانتدب نفس التوجيه غورنغ لتولي « عملية استغلال البلاد وضمان استخدام الصناعة الألمانية لمافيها من موجودات اقتصادية » . واعلن هتلر في أمره هذا بصورة عرضية ايضاً ان روسيا « ستقسم فور انتهاء العمليات العسكرية فيها الى ولايات مستقلة لكل منها حكومتها الخاصة بها » [1] .

وقد عهد الى الفرد روزنبرغ البلطيقي ، المدمن على الخمر ، والمعتبر رسمياً ، المفكر النازي الأول ، والذي كان من اوائل المؤمنين بهتلر من ايام ميونيخ ، بوضع الخطط العملية اللازمة لتنفيذ هذه الاجراءات . فقد عينه الفوهرر في العشرين من نيسان « مفوضاً لهيئة الاشراف المركزية على القضايا المتعلقة بمنطقة اوروبا الشرقية » وسرعان ما هبّ هذا الأحمق النازي المتميز بعبقرية الجابية في اساءة فهم التاريخ ، حتى تاريخ روسيا البلاد التي نشأ فيها وترعرع وتثقف ، ومضى يقيم قواعده في البلاد التي كانت في يوم ما مسقط رأسه . وقد عثر على ملفات روزنبرغ الضخمة سليمة ، وهي مثل كتبه متعبة لمن يقرؤها ، ولذا فلن اسمح لها بقطع سياق هذه القصة وان كنت أرى وجوب الرجوع اليها احياناً لأنها تحسر النقاب عن الخطط التي وضعها هتلر لروسيا .

وكان روزنبرغ قد أعد في مطلع شهر ايار أول طبعة زرقاء خطية عمّا اعتبر أعظم فتح الماني في التاريخ فقد قررت هذه الطبعة اولاً تقسيم روسيا الأوروبية الى ما يسمى « بمفوضيات الرايخ » . ونصت على ان تتحول بولندة الروسية الى

---

١ ـ نص التوجيه الصادر في ١٣ ايار ١٩٤١ (المؤامرة النازية والعدوان (٣) ص ٤٠٩ ـ ٤١٣) .

محميّة ألمانية يطلق عليها اسم « اوستلاند » ، بينما تعلن اوكرانيا « دولة مستقلة متحالفة مع المانيا » . ويتولى « مفوض » المانى خاص حكم بلاد القفقاس بما فيها من حقول الزيت الغنية ، وتؤلف دويلات البلطيق وروسيا البيضاء محميات المانية تمهيداً لضمها مباشرة الى الرايخ الالماني الأكبر . وشرح روزنبرغ في احـدى مذكراته التي لاعد لها ولا حصر والتي انهال بها على هتلر وقادته العسكريين ، ان هذا يمكن تحقيقه ليهدف الى « الافصاح عن الاوضاع التاريخية والعنصرية » اللازمة لتنفيذ قراراته ، والتي لا يمكن تنفيذها الا « بألمنة » البلطيقيين المشابهين عنصرياً للألمان واستبعاد العناصر غير المرغوب فيها . وأنذر بأن من الواجب « توقع عمليات ابعاد واسعة المدى في لاتفيا واستونيا » . وسيحل الألمان وغالباً ما يكونون من المحاربين القدماء محل الذين يتم ابعادهم . ويجب ان يتحول « بحر البلطيق الى بحيرة المانية داخلية » [١] .

والقى روزنبرغ قبل يومين من وثوب القوات على روسيا خطاباً في اقرب اعوانه الذين قرر ان يشتركوا معه في حكم روسيا قال فيه :

(تقف مهمة اطعام الشعب الألماني في طليعة مطالب المانيا من الشرق . وعلى سكان المناطق الروسية الجنوبية ان يعملوا كالخدم .. لاطعام الشعب الألماني .

« ونحن لا نرى مطلقاً أي داع لأي التزام من جانبنا لاطعام الشعب الروسي بالفائض من منتجات تلك البلاد . ونحن نعرف ان هذه الضرورة قاسية وعارية من كل مشاعر .. وسيخبىء المستقبل عدة سنوات قاسية للشعب الروسي » [٢] .

حقاً انها لسنوات قاسية للغاية ، اذ ان الألمان كانوا يعدون العدة بصورة متعمدة لتجويع الملايين من الروس حتى الموت .

---

١ ـ نص تعليمات روزنبرغ ـ المؤامرة النازية والعدوان (٣) ص ٦٩٠ ـ ٦٩٣ .

٢ ـ النص في المؤامرة النازية والعدوان (٣) ص ٧١٦ ـ ٧١٧ .

وكان غورنغ الذي عهد إليه بتولي الاستغلال الاقتصادي للاتحاد السوفياتي ، اكثر وضوحاً من روزنبرغ نفسه في هذه القضية . فقد أصدرت هيئة اركانـــه الاقتصادية للشرق في الثالث والعشرين من ايار عام ١٩٤١ ، توجيهـــاً مطولاً ، اشترطت فيه ان لايحول الفائض من المنتجات الزراعية في المناطق الخصبة في الجنوب الروسي الى أهل المناطق الصناعية ، حيث ستدمر المصانع فيها . ومن الواجب ترك العمال وعائلاتهم في هذه المناطق يموتون جوعاً ، أو يسمح لهم بالهجرة الى سيبيريا اذا استطاعوا الى هذه الهجرة سبيلاً . أما انتاج روسيا العظيم في المواد الغذائية فيجب ان يحوّل الى الألمان . ومضى التعميم يقول :

« وعلى الادارة الألمانية في هذه المناطق ان تحاول تلطيف آثار المجاعة التي ستقع حتماً فيها ، وان تعجّل في العودة الى الأوضاع الزراعية الأولية . ولكن هذه الاجراءات لن تحول دون المجاعة . وستكون أية محاولة لإنقاذ الناس هناك من الموت جوعاً ، عن طريق استيراد الفائض من المناطق الخصبة ذات التربـــة السوداء ، على حساب المؤن المرسلة الى اوروبا ، مما يضعف من طاقة المانيـــا على المضي في الحرب ، ويحطم قدرة المانيا وأوروبا على مقاومة الحصار ، عليكم جميعاً ان تفهموا هذه الأمور بوضوح وصراحة » (١) .

ترى كم عدد المدنيين الروس الذين سيموتون نتيجة هذه السياسة الألمانيـــة المتعمدة ؟. هناك اجتماع عقده رؤساء الوزارات في الثاني من ايار ، قدم رداً عاماً على هذا السؤال . فقد نقلت مذكرة سرية عن الاجتماع انه قرر « ان ليس ثمة من شك في ان نتيجة هذه السياسة ستعني موت الملايين من الاشخاص جوعاً ، هذا اذا اخذنا من البلاد كل مانحتاج اليه » (٢) . وقد أكد غورنغ ومعه روزنبرغ ايضاً ان هذه الحاجات ستؤخذ من البلاد ، وان على الجميع ان يفهموا هـــذا

١ ـ نص التوجيه ـ المؤامرة النازية والعدوان (٧) ص ٢٠٠

٢ ـ مذكرة عن الاجتماع ـ المؤامرة النازية والعدوان (٥) ص ٣٧٨ .

بوضوح وصراحة .

فهل قام ألماني واحد، يحتج على هذه الوحشية المتعمّدة والمخطط لها بل وعلى هذه الخطة المدروسة الرامية الى قتل الملايين من الناس عن طريق تجويعهم؟ اننا لا نرى في جميع المذكرات المتعلقة بالتوجيهات الألمانية لسلب روسيا أي ذكر لأية معارضة من أي نوع، حتى ولو كانت من طراز ما ابداه القادة العسكريون من معارضة « لأمر المفوضين » . ولم تكن هذه الخطط مجرد خيـــالات شريرة وشرسة ، راودت عقولاً وأرواحاً شاذة لبعض الرجال من امثال هتلر وغورنغ وروزنبرغ ، فقد اتضح من السجلات والوثائق ان مئات الموظفين الالمان ظلوا يعملون في مكاتبهم اسابيع وشهوراً طويلة ، في ايام الربيع المشرقة الدافئـــة ، يجمعون الارقام ويضعون المذكرات التي تحسب عن عمد وسابق اصرار ، ضحايا ذبح الملايين من الناس . وقد تقرر ان يكون التجويع سلاح هذا القتل، وجلس هنريخ هملر ، صاحب الوجه الوديع ، ومربي الدجاج السابق في مكتبه في مقر قيادة الحرس النازي في برلين في تلك الايام ، يدرس من وراء نظارتيه المشاريع التي أعدت له لذبح ملايين اخرى بطرق اسرع واكثر عنفاً » .

وأحس هتلر بالرضى من عمل احبائه الكثيري الجد، من عسكريين ومدنيين في وضع الخطط لاجتياح الاتحاد السوفياتي وتدميره واستغلاله ، ولقتل الملايـين بالجملة من مواطنيه ، فحدد في الثلاثين من نيسان موعد الهجوم في الثاني والعشرين من حزيران، ثم القى خطابه المنتصر في الرايشستاغ في الرابع من ايار، وانسحب الى ركنه الهـــادىء اللطيف في « عش النسر » فوق ذرى برختسغادن . حيث يستطيع ان يتطلع بعينيه الى ما في جبال الالب من روعة الجمال ، وقد اكتست قممها بثلوج الربيع ، وان يتصور فتوحاته المقبلة ، التي يعتبرها اعظم من كل ما حقق من فتوحات سابقة ، والتي سبق له ان قال عنها لقادته العسكريين ، ان العالم بأسره سيقف أمامها مشدوهاً متقطع الانفاس .

وهنا ، وفي هذا المكان الهادىء المنعزل ، تلقى ليلة السبت العاشر من ايار عام ١٩٤١ ، أنباء غريبة وغير متوقعة ، هزته هزاً عنيفاً ، وارغمته كما ارغمت

كل انسان آخر تقريباً في العالم الغربي ، على الابتعاد بتفكيره ولو مؤقتاً عن حوادث الحرب ووقائعها ، فأقرب المقربين اليه ، ونائبه في زعامة الحزب النازي ، والرجل الثاني في التسلسل بعد غورنغ لخلافته في حكم المانيا ، والخدن الأمين الذي ظل على اخلاصه له وولائه المهووس منذ عام ١٩٢١ ، ومنذ مصرع روهم ، واقرب الاصدقاء الى قلبه ، قد طار من القفص فعلاً ، وراح ، يفاوض العدو ، على مسؤوليته الخاصة .

فرار رودلف هس

أصاب النبأ الأول الذي تلقاه هتلر عشية ذلك اليوم العاشر من ايار ، عن ركوب رودلف هس وحيداً، طائرة المانية مقاتلة من طراز مسر شميت (١١٠) متجهاً الى سكوتلندة ، الزعيم ، كما روى الدكتور شميدت فيما بعد ، بذهول يشبه ما قد يصيبه « لو اصابت قنبلة عش النسر » [١] . وعثر الفريق كايتل على الفوهرر وهو يذرع مكتبته الفسيحة جيئة وذهاباً مشيراً باصبعه الى جبهته ومتمماً بصوت خفيض ان هس قد جنّ حقاً [١] . وهتف هتلر صارخاً : « يجب ان اتحدث الى غورنغ فوراً » . وعقد في الصباح التالي اجتماعاً صاخباً شهده غورنغ وجميع قادة الحزب ، واخذ يدرس معهم الطريقة التي يجب ان يصور فيها هذا الحادث المربك وهو يقدمه الى الرأي العام في المانيا والخارج . وشهد كايتل فيما بعد ، ان سكوت البريطانيين في البداية عن وصول هذا الزائر لم يهوّن عليهم مهمتهم ، وتركز أمل هتلر ومستشاريه في البداية ، على ان تكون طائرة هس ، قد نضب خزانها من الوقود ، وان يكون قد سقط بها في بحر الشمال ولقي حتفه في اعماقه الباردة .

---

١ ــ شميدت ــ ترجمان هتلر ص ٢٣٣ .

٢ ــ استجواب كايتل ــ المؤامرة النازية والعدوان ــ الملحق (ب) ص ١٢٧١ ــ ١٢٧٢ .

وقد جاءت الانباء الاولى لهتلر عن الموضوع في رسالة تفتقر نوعاً ما الى التماسك ، كتبها هس وسلمها رسول خاص بعد بضع ساعات من طيرانه في الساعة الخامسة والدقيقة الخامسة والاربعين من بعد ظهر العاشر من ايار من مدينة اوغزبرغ . وقال هتلر يحدث كايتل : « انني لا استطيع ان اعرف هس في هذه الرسالة . إنه شخص آخر مختلف تمام الاختلاف . ولا ريب في ان شيئاً ما قد حدث له . شيء من طراز الاضطرابات العقلية » . ولكن الفوهرر ظل يشك فيما وقع ، فأمر باعتقال مستر شميت الذي طار هس من مطار شركته ، كما اعتقل عشرات من موظفي مكتب نائب الزعيم .

واذا كان هتلر قد دهش من رحيل هس المفاجىء فإن دهشة تشرشل من مجيئه غير المتوقع كانت اكبر واشد [1] . أما ستالين فقد ثارت شكوكه الى حد كبير للغاية . وظلت هذه الحادثة الغريبة سراً من الاسرار طيلة الحرب ، ولم تتضح إلا في محاكمات نورمبرغ عندما وقف هس بين زمرة المتهمين . وفي وسعنا أن نسرد الحقائق المتعلقة بها بايجاز .

كان هس دائماً رجلاً مهوّش الفكر وان لم يكن يماثل روزنبرغ في الحماقة . وقد طار الى بريطانيا مدفوعاً بفكرة خادعة طرأت على عقله، بأن في استطاعته ان يصل الى تسوية سلمية مع بريطانيا . وعلى الرغم مما في هذه الفكرة من خداع ، إلا ان مما لا شك فيه انه كان مخلصاً ، وليس ثمة من داع مطلقاً الى الشك في هذا الاخلاص . وكان هس قد تعرف الى الدوق هاملتون في برلين إبان الالعاب الاولمبية في عام ١٩٣٦ ، وعندما بات على بعد اثني عشر ميلاً من منزل الدوق في اسكوتلندة ، مما يشير الى دقته في الملاحة الجوية ، راح يقذف بنفسه من طائرته المسر شميت ، ويهبط بمظلته سالماً الى الارض ، فيسأل فلاحاً رآه أمامه ان ينقله الى منزل اللورد الاسكوتلندي . وحدث ان كان الدوق

---

١ ـ رسم تشرشل صورة واضحة للطريقة التي تلقى فيها النبأ في ساعة متأخرة من ليلة السبت ، عندما كان يزور دارته الريفية ، وكيف ان النبأ بدا له غريبا في بداية الامر الى حد عدم تصديقه (مذكرات تشرشل ـ الجزء الثالث ـ الحلف الاعظم . ص ٥٠ ـ ٥٥) .

في السلاح الجوي الملكي ، وهو قائد جناح في عمله تلك الليلة ، في احـدى غرف العمليات في قطاع من القطاعات ، وكان قد رأى طائرة المسر شميت على شاشة الرادار وهي تقترب من الساحل ثم رآها تتجه نحو الارض بعيد الساعة العاشرة. وبعد نحو من ساعة ، نقل اليه نبأ سقوطها على الارض وقد اشتعلت فيها النيران ، وان طائرها الذي هبط بمظلته قد ذكر ان اسمه الفرد هورن وادعى انه قادم في « مهمة خاصة » لمقابلة الدوق هاملتون . وقد رتّبت السلطات البريطانية أمر هذا الاجتماع في الصباح التالي .

وراح يشرح للدوق انـه قادم في « مهمة انسانية وان الفوهرر لايريد ان يهزم انكلترا وانه يريد وقف الحرب معها » . وقال هس ، ان هناك حقيقة واقعة ، وهي ان هذه هي المرة الرابعة التي يحاول الطيران فيها الى بريطانيا اذ اضطر في المحاولات الثلاث السابقة الى النكوص على عقبيه بسبب رداءة الطقس ، واضاف ان هويته كعضو في وزارة الرايخ تظهر « اخلاصه ورغبة المانيا الصادقة في السلام » . ولم يتراجع هس في هذه المقابلة ،. وفي المقابلات التالية التي جرت له مع آخرين عن التأكيد بأن المانيا ستربح الحرب ، وانها اذا استمرت فإن حالة بريطانيا ستغدو فظيعة ، وهو ينصح مضيفه والحالة هـــذه بأن ينتهزوا فرصة وجوده ليفاوضوا لعقد الصلح . وكان هذا المتعصّب النازي واثقـــاً من ان البريطانيين سيجلسون اليه ويتحدثون معه في أمر الصلح ، الى الحد الذي حمله على ان يطلب من الدوق ، أن يسأل الملك « منحه كلمة الامان » اذ انـــه جاء الى انكلترا دون أي سلاح وبمحض رغبته الخاصة [1] . وطالب فيما بعد بأن يعامل بالاحترام الذي يعامل به أي وزير .

وقد اجرى المحادثات التالية معه ، من الجانب البريطاني ، باستثناء محادثة واحدة ، ايفون كيركباتريك السكرتير الأول السابق في السفارة البريطانية في برلين والخبير بالشؤون الألمانية . وقد عرضت تقاريره السرية عن المحادثات

---

١ ـ تقرير الدوق هاملتون الشخصي ـ المؤامرة النازية والعدوان (٨) ص ٣٨ ـ ٤٠

كلها فيما بعد على محكمة نورمبرغ[1]. وراح هس يردد لهذا الانسان العليم بالشؤون النازية. مــــا سبق لهتلر قوله من تفسيرات لاعتداءاته التي تبدأ بالنمسا مارة باسكندينافيا ومنتهية بالاراضي المنخفضة ، واصر على القول بمسؤولية بريطانيا عن الحرب ، وعلى التأكيد بأنها ستخسرها حتماً ، اذا لم توقفها الآن ، ثم تلا على مسامعه اقتراحاته لعقد الصلح . ولم تكن هذه الاقتراحات تعدو ما سبق لهتلر ان عرضه دون نجاح على تشمبرلين عشية هجومه على بولندة ، وهو ان تطلق بريطانيا حرية العمل والمجال لألمانيا في اوروبا مقابل اطلاق هذه لها حرية العمل والمجال في امبراطوريتها . ونصــــت الاقتراحات ايضـــاً على وجوب عودة المستعمرات الألمانية السابقة ، وعلى وجوب قبول بريطانيا بعقـــد الصلح مع ايطاليا . وقد روى كير كباتريك في تقريره ما يلي :

« وعندما كنا نوشك اخيراً على مغادرة الغرفة ، اطلق هس سهمه الاخير . فقد اعلن انه نسي ان يؤكد ، بأن هذه الاقتراحات لا يمكن ان تقبل من جانب المانيــــا إلا اذا تولت المفاوضة فيها حكومة انكليزية غير الحكومة الحالية . فالمستر تشرشل الذي خطط للحرب منذ عـــام ١٩٣٦ ، وزملاؤه الذين باعوا أنفسهم لسياســـته الحربية ليسوا مـــن النوع الذي يستطيع الفوهرر الت[illegible]ض معه » .

وفي وسع كل مر[illegible]ف هس ش[illegible]سياً ، ان يشهد بأنه كان الساذج الوحيد بين الألمان الذين مضوا بعيدا في ا[illegible]ب ا[illegible]شية الـــتي شنها الحزب النازي اولاً والرايخ الثالث ثانياً . وكان يتوقع كما يبدو من وقائع المحادثات التي جرت معه ان يستقبل فوراً كمفاوض جدي ، إن لم يكن من قبل تشرشل فمـــن « حزب المعارضة » ، الذي كان يظن ان الدوق هاملتون أحد زعمائه . وعندما وجد ان اتصالاته مـــع المسؤولين البريطان ظلت مقتصرة على كير كباتريك ، أخـــذ

---

١ ـ تقارير كير كباتريك عن مقابلاته لهس ـ المؤامرة النازية والعدوان (٨) ص ٤٠ ـ ٤٦

يفقد هدوءه ويتحول الى التهديد . وراح يرسم في المقابلة التي جرت له مع الدبلوماتي البريطاني الكثير الشكوك في الرابع عشر من ايار ، النتائج الوخيمة لبريطانيا اذا اصرت على المضي في الحرب . وقال إن بريطانيا ستشهد عما قريب حصاراً كاملاً للغاية وفظيعاً للجزر البريطانية . وروى كير كباتريك ان هس قال له :

« وليس من المجدي بالنسبة الى أي انسان هنا ان يتصور بأن في وسع انكلترا ان تستسلم،وان تواصل شن حربها من امبراطوريتها. ويعتزم هتلر في حالة وقوع مثل هذا ان يواصل حصاره لانكلترا.. بحيث يصبح لزاماً علينا ان نواجه التجويع المتعمد لشعب هذه الجزر » .

وحث هس على وجوب الشروع في المفاوضات التي تحمل الكثير من الاخطار لاجرائها فوراً . وقد أوضح لكير كباتريك كما روى هذا « ان طيرانه ، استهدف اعطاءنا فرصة للشروع في مفاوضات مع احتفاظنا بكرامتنا . واذا ما رفضنا هذه الفرصة فإن رفضنا هذا يعتبر برهاناً واضحاً على اننا لانريد التفاهم مع المانيا ، وان من حق هتلر في هذه الحالة ، بل من واجبه ، ان يحطمنا تمام التحطيم ، وان يتركنا بعد انتهاء الحرب في حالة من العبودية الدائمة ». وأصر هس على ان يظل عدد المفاوضين صغيراً . ومضى يقول :

« وهو كوزير من وزراء الرايخ لا يستطيع ان يضع نفسه في موقف الانسان الفرد الذي يتعرض لوابل من التعليقات والأسئلة من عدد ضخم من الناس » .

وقد انتهت المحادثات بالنسبة الى كير كباتريك عند هذا الحد المضحك. ولكن مجلس الوزراء البريطاني كما روى تشرشل نفسه ، وهو ما يثير الدهشة [1] قد طلب الى احد أعضائه وهو اللورد سيمون ان يقابل هس في العاشر من حزيران.

---

١ ــ تشرشل مذكرات ــ الجزء الثالث ــ الحلف الاعظم . ص ٥٤

وقـــد روى محامي الدفاع عن هس في محكمة نورمبرغ ان سيمون وعده بأن يعرض اقتراحاته السلمية على الحكومة البريطانية [١] .

وليس ثمة من من شك في وضوح دوافع هس . فلقد اراد مخلصاً السلام مع بريطانيا . ولم يكن لديه ذرة من الشك في ان ألمانيا ستربح الحرب وستحطم المملكة المتحدة ما لم يعقد الصلح فوراً . وكانت هناك ولا ريب اهداف اخرى . فلقد جــاءت الحرب له بكسوف شخصي . ورأى ان ادارته للحزب النازي كنائب هتلر ، إبان الحرب ، عمل بليد ، وليست فيه أية أهمية . وكان كل ما يهم المانيا الآن ، تسيير دفة الحرب ودفة الشؤون الخارجية . وكانت هذه هي القضايا التي استأثرت دون سواهــا باهتمام الفوهرر ، وسلطت الاضواء على غورنــغ وريبنتروب وهملر وغوبلز والقادة العسكريين . وأحس هس بالمرارة والغيرة . فهل هناك من سبيل أفضل لاستعادة مركزه القديم عنـــد زعيمه المحبوب وفي البلاد ،من القيام بمثل هذه الخطوة الجريئة والرائعة من الفراهة السياسية ،وتدبير امر الصلح ، بصورة فردية بين المانيا وبريطانيا ؟

واخيراً كان نائب الزعيم الكث الحاجبين كغـــيره من كبار قادة النازي الآخرين وفي مقدمتهم هتلر نفسه وهملر ، قد شرع يؤمن ايمانـــاً قوياً بالتنجيم والفلك . فعندما كان في نورمبرغ اسر لطبيب السجن النفساني الدكتور دوغلاس . ام . كيلي ، ان احد منجميه كان في أواخر عام ١٩٤٠ ، قد قرأ له طالعه ، فقال له ان نجمه يشير الى ان العناية الالهية تشاء له ان يحقق السلام. وروى ايضاً ان مستشاره القديم الاستاذ هوشوفر ، العالم الجغرافي – السياسي في ميونيخ ، قد رآه في الحلم ، يخطو عــبر قاعات القصور الانكليزية المسدلة

---

١ ـ محاكمات كبار مجرمي الحرب الالمان (١٠) ص ٧ . قال هس لمحكمة نورمبـرغ ان اللورد سيمون قد قدم نفسه اليه باسم « الدكتور غوثري » ، وانه قال له ما يلي : « لقد جئت مخولا من الحكومة ، وانا على استعداد للبحث معك في كل شيء قد يبدو نافعا ، وقد ترغب في الافضاء به ليصل الى علم الحكومة » (محاكمات كبار مجرمي الحرب (١٠) ص ٧٤)

الستائر حاملاً السلام الى الشعبين « النورديين » العظيمين [1]. ولا ريب في أن مثل هذه الأقوال لرجل لم يخرج قط عن دور المراهقة الفكرية ، قد سيطرت على جميع أفكاره ، وساعدت على ان توحي له بالقيام بهذه المهمة الغريبة الى انكلترا .

وخرج أحد ممثلي الادعاء في نورمبرغ ، وهو انكليزي ، بفكرة جديدة عن الدافع الى رحلة هس . فقد ذكر ان نائب الفوهرر طار الى انكلترا ليحاول الوصول الى تسوية سلمية معها . لتتمكن المانيا من الحرب في جبهة واحدة عندما تشرع في هجومها على الاتحاد السوفياتي . وقال ممثل الادعاء الروسي للمحكمة انه واثق من صحة هذا الدافع . وقد شاركه في هذه الثقة أيضاً حوزيف ستالين ، الذي تركزت شكوكه العظيمة في هذه الآونة على بريطانيا لا على المانيا حيث كان من الواجب ان تتركز . وقد أقنعه وصول هس الى سكوتلندة ، بأن ثمة مؤامرة خفية للغاية يجري طبخها بين تشرشل وهتلر . لتتاح لألمانيا في هجومها على الاتحاد السوفياتي نفس الحرية التي أتاحها لها الديكتاتور الروسي عند مهاجمتها بولندة والغرب . ولم يشأ ان يعدل عن هذا الاعتقاد ، حتى بعد ثلاث سنوات عندما حاول رئيس الوزراء البريطاني في زيارته الثانية لموسكو اقناعه بالحقيقة . ولكن يتضح الى حد كبير من عملية الاستجواب التي قام بها كير كباتريك للرجل ، والتي حاول فيها ان يستخلص منه ما لديه من معلومات عن نوايا هتلر تجاه روسيا ، ان هس كان أحد رجلين ، أما الجاهل بوجود عملية بربروسة تمام الجهل ، أو الرجل الذي لا يعرف انها واقعة في وقت قريب ، هذا إذا كان قد عرف بوجودها حقاً .

وكانت الأيام التي تلت هروب هس المفاجىء ، من أشد الأيام مضايقة وإزعاجاً لهتلر في حياته . فقد أدرك ان سمعة عهده ونظامه ، قد تحطمت الى حد كبير من جراء فرار أخلص أنصاره والمتعاونين معه . وراح يفكر في الطريقة

---

١ ــ دوغلاس ام. كيلي . زنزانات نورمبرغ ص ٢٣ ــ ٢٤

التي يجب أن يلجأ إليها لشرح هذه القضية الى الشعب الالماني والى العالم الخارجي. وأقنعه استجواب المعتقلين من بطانة هس بأن ليس ثمة من مؤامرة عليه أو افتقار الى الولاء له. وآمن بأن مساعده، قد انهار ليس إلا. وتقرر في اجتماع عش النسر، وبعد ان أيد البريطانيون وصول هس الى بلادهم، تقديم هذا التفسير الى الشعب. وسرعان ما نشرت الصحف الالمانية وصفاً قصيراً، ذكرت فيه ان هذا الرجل الذي كان قبل قليل كوكباً ساطعاً من كواكب الاشتراكية الوطنية قد بات « انساناً مهووساً، وخيالياً ملتبس العقل، ومرتبكه، تسيطر عليه « الهلوسات » التي يمكن ردها الى ما أصيب به من جراح في الحرب الكونية الأولى » . ومضى البلاغ الرسمي الذي نشرته الصحف الألمانية يقول :

« ويبدو ان رفيق الحزب هس، قد عاش أخيراً في حالة من « الهلوسة » والخيال حملته على الاعتقاد بأن في وسعه ان يحقق تفاهماً بين انكلترا وألمانيا ... ولن يؤثر هذا الحادث على أي حال، على مواصلة الحرب التي فرضت فرضاً على الشعب الألماني » .

وأصدر هتلر أوامره سراً، بقتل هس فوراً إذا عاد [1]، كما أمر علناً بإقالة رفيقه القديم من جميع مناصبه، واختار محله، في نيابة زعامة الحزب مارتن بورمان، الرجل الأكثر دهاء ومكراً من سلفه. وأمل الفوهرر، في أن

---

١ ــ عاش هس بعد هتلر، وظهر في محاكمات نورمبرغ، شخصا محطما حزينا، يتظاهر في شطر من المحاكمات بفقدان الذاكرة، وان كان عقله في الحقيقة قد اهتز وفقد توازنه. وقد حكمت عليه المحكمة بالسجن مدى الحياة ونجا من الحكم بالاعدام، رأفة بحاله من جراء ما اصيب به من انهيار عقلي. وقد وصفت وضعه في نهاية كتابي .. « يوميات برلين » .

وقد عامله البريطانيون معاملتهم لاسرى الحرب، واطلقوا سراحه في العاشر من تشرين الاول عام ١٩٤٥، ليتمكن من الظهور كمتهم امام محكمة نورمبرغ. وكان اثناء اسره في انكلترا، يشكو بمرارة من ان البريطانيين قد انكروا عليه حقه في « الامتيازات الدبلوماسية الكاملة » ، التي واصل المطالبة بها، وبدأ عقله غير المتزن، ينهار شيئا فشيئا، متعرضا الى نوبات من فقدان الذاكرة. وقد روى للدكتور كيلي، انه حاول الانتحار مرتين اثناء اعتقاله. واضاف انه بات على يقين من ان البريطانيين يحاولون قتله بالسم .

ينسى الناس في وقت قريب هذه القصة الغريبة ، وعادت أفكاره تتجه بسرعة إلى موضوع الهجوم على روسيا الذي لم يعد موعده بعيداً .

حالة الكرملين

ظل رجال الكرملين ، وعلى رأسهم ستالين يأملون مع ما عرف عنهم من واقعية مجردة ، أملاً أعمى ، في ان تنجو روسيا بشكل من الأشكال من حنق الطاغية النازي ، هذا على الرغم من قيام جميع الدلائل على نوايا هتلر كحشده الجيوش الجرارة في بولندة ، وتجميعه أكثر من مليون جندي نازي في دول البلقان القريبة ، واحتلال قواته المسلحة ليوغوسلافيا واليونان بالإضافة الى رومانيا وبلغاريا والمجر . ولكن شكوكهم الطبيعية كانت تنمو بدون ريب وتتزايد على ضوء الحقائق العارية ، ولم يكن في وسعهم ان يكتبوا سخطهم المتزايد من حركات هتلر في جنوب شرق أوروبا . ومع ذلك ، فهناك شيء يبعد كثيراً عن الواقع ، ولا يكاد يصدق أو يفهم ، في تلك الرسائل الدبلوماتية التي تبودلت بين موسكو وبرلين في غضون أسابيع ذلك الربيع ، والمحفوظة في الوثائق الألمانية المصادرة ، إذ تصور من ناحية محاولات الألمان الرعناء لخداع الكرملين حتى النهاية ، وعجز القـادة السوفيات ، عن إدراك الواقع إدراكاً تاماً وصحيحاً ، واتخاذ الخطوات اللازمة لمواجهة هذا الواقع في الوقت المناسب .

وعلى الرغم من ان الروس قد احتجوا مرات عدة على دخول القوات الألمانية الى رومانيا وبلغاريا ، وكذلك على الهجوم على يوغوسلافيا واليونان ، معتبرين هذه الأعمال خرقاً للميثاق النازي – السوفياتي ، وتهديداً « لمصالح الأمن السوفياتية » ، إلا أنهم مالبثوا ان تراجعوا ، وأغرقوا في محاولة ترضية برلين ، كلما اقترب موعد الغزو . وقد تولى ستالين نفسه زمام المبادرة في هذا الميدان . فقد أبرق السفير الألماني فون ديرشولنبرغ من موسكو في الثالث عشر من نيسان عام ١٩٤١ ، برقية ممتعة الى برلين ، روى فيها كيف ان ستالين قد

أبدى في تلك الليلة التي غادر فيها يوسوماتسوكا وزير خارجية اليابان موسكو أثر انتهاء زيارته لها ، « عواطف ودية بارزة » لا نحو اليابان وحدها ، بل ونحو المانيا ايضاً ... ومضى السفير يقول في برقيته :

« وعندما كنا في المحطة ، استدعاني ستالين بصورة علنية ، وألقى بذراعه على كتفي وقال : « يجب ان نظل أصدقاء ، وعليك أنت ان تفعل كل شيء لتحقيق هذه الغاية ! » . وعاد ستالين بعد قليل فالتفت الى ملحقنا العسكري بالنيابة العقيد كريبس ، وبعد ان تأكد من هويته الالمانية ... قال له : « سنظل أصدقاء لكم ، مهما حدث » [1] .

وأبرق القائم بالأعمال الألماني في موسكو ، تيبلسكيرش ، بعدثلاثة أيام الى برلين ، مؤكداً ان التظاهرة التي وقعت في المحطة ، قد أقامت الدليل على مايحمله ستالين من صداقة لالمانيا ، وان أهميتها تقوم بصورة خاصة « بالنسبة الى الشائعات الرائجة باستمرار عن توقع نشوب الصراع بين المانيا والاتحاد السوفياتي » [2] . وكان تيبلسكيرش ، قد أبلغ برلين في اليوم السابق ان الكرملين قد قبل «دون قيد أو شرط » وبعد شهور من المماطلة والتسويف ، الاقتراحات الالمانية لتسوية مشاكل الحدود بين البلدين من نهر ايفوركا حتى بحر البلطيق . وأضاف « ان هذا الموقف المتساهل من جانب الحكومة السوفياتية يعتبر في منتهى الغرابة والاهمية »[3]. وليس ثمة من شك في هذه الغرابة بالنسبة الى ما كان يطبخ في برلين من إعدادات .

وظلت الحكومة السوفياتية على تساهلها أيضاً في موضوع تزويد المانيا المحاصرة بما تحتاج اليه من مواد أولية مهمة . وقد نقل شنوري المسؤول عن

---

١ ـ العلاقات النازية ـ السوفياتية ص ٣٢٤
٢ ـ العلاقات النازية ـ السوفياتية ص ٣٢٦ .
٣ ـ العلاقات النازية ـ السوفياتية ص ٣٢٥ .

المفاوضات التجارية مع موسكو الى سادته النازيين في الخامس من نيسان عام ١٩٤١ ، وهو يكاد يطير من الفرح ، ان الشحنات الروسية بعد ما طرأ عليها من هبوط في شهري كانون وشباط من العام نفسه بسبب ما وقع من « فتور في العلاقات السياسية » قد عادت الى الارتفاع بسرعة خارقة في شهر آذار ولا سيما في القمح والزيت ومعدن المنغيز وغيره من المعادن الثمينة وغير الحديدية . ثم أضاف قائلاً .

« وقد عادت حركة النقل العابرة في سيبريا الى ما كانت عليه من نشاط . ووضعت الحكومة السوفياتية ايضاً تلبية لطلبنا قطار شحن خاصاً على الحدود المنشورية تحت تصرفنا لنقل المطاط »[1] .

وعاد شنوري بعدستةأسابيع أي في الخامس عشر منايارفنقل الىحكومته ان الروس الكرماء ، قد وضعوا عدة قطارات شحن تحت تصرف الالمان لنقل أربعة آلاف طن من المطاط الخام الى المانيا على خطوط سيبريا ، نظراً لحاجة المانيا الماسة الى هذه المادة . ثم قال :

« ويقوم الروس بتسليم كميات المواد الاولية التي تم التعاقدعليها ، بدقة في الأوقات المعينة ، على الرغم مما يلقيه هذا التسليم من أعباء ثقيلة عليهم ... واني لواقع تحت الانطباع بأن في وسعنا ان نطلب من الروس مطالب اقتصادية تتعدى الحدود المتفق عليها في معاهدة العاشر من كانون الثاني. وهي طلبات تتضمن لنا الحصول على كميات من الاغذية ومتطلبات المواد الأولية لالمانيا ، تفوق المدى الذي تعاقدنا عليه »[2] .

وذكر شنوري ان تسليم الالمان للآلات التي تحتاج اليها روسيا والتي تمالتعاقد عليها ، قد هبط هبوطا كبيراً . وأضاف ان هذا لا يهمه كثيراً طالما ان الروس راضون عن هذا الوضع . لكنه شعر بالقلق في تقريره في الخامس عشر

---

١ ـ العلاقات النازية ـ السوفياتية ص ٣١٨ .
٢ ـ العلاقات النازية ـ السوفياتية ص ٣٤٠ ـ ٣٤١ .

من ايار ، من جراء عامل جديد .. فقد شكا من « المتاعب العظيمة التي يخلقها هذا السيل الذي لا نهاية له من الشائعات عن توقع الصراع بين المانيا وروسيا » . وهي متاعب تقع مسؤوليتها على المصادر الالمانية الرسمية . وأوضح شنوري في مذكرة مطولة بعث بها الى الخارجية الألمانية ، إنه مندهش من ان هذه المتاعب لا تصدر عن روسيا وانما عن المؤسسات الصناعية الألمانية التي قال انها تحاول « الانسحاب » من عقودها مع الروس .

وأرى لزاماً علي هنا أن أذكر بأن هتلر كان يبذل كل مافي وسعه لنفي هذه الشائعات ، وان كان في الوقت نفسه ، يحاول اقناع قادته العسكريين و كبار موظفيه بأن الخطر يتزايد على المانيا من توقع هجوم روسي عليها . وعلى الرغم من ان هؤلاء القادة العسكريين ، كانوا يعرفون الحقيقة من مصادر مخابراتهم ، إلا انهم كانوا كما يبدو واقعين تحت تأثير سحر هتلر عليهم ، الذي يكاد يشبه التنويم المغناطيسي ، حتى ان هولدر وبراوختش ومانشتاين وغيرهم من القادة العسكريين ، باستثناء باولوس الذي كان اكثر صدقاً منهم ، ظلوا بعد الحرب ، يقولون ان الحشود العسكرية السوفياتية على الحدود البولندية باتت منذرة بالخطر في مطلع صيف عام ١٩٤١ .

وقد اجتمع الكونت فون دير شولنبرغ الذي وصل الى برلين قادماً من موسكو في اجازة قصيرة الى هتلر في الثامن والعشرين من نيسان وحاول اقناعه بنوايا روسية السلمية . وراح يشرح له افكاره قائلاً : « إن روسيا قلقة للغاية من الشائعات التي تتوقع هجوماً ألمانياً من روسيا » وأضاف قائلاً : « وأنا لا استطيع ان اصدق بأن روسيا ستهاجم قط المانيا ... واذا كان ستالين قد رفض السير جنباً الى جنب مع انكلترا وفرنسا في عام ١٩٣٩ عندما كانتا قويتين ، فمن المؤكد انه لن يتخذ مثل هذا القرار اليوم وهو يرى ان فرنسا قد انتهت وان انكلترا قد دكت دكاً عنيفاً . واني لواثق على النقيض من ذلك ، من استعداد ستالين للمضي الى أبعد مما وصل اليه في التساهل معنا » .

وراح الفوهرر يتظاهر بالشك في ذلك . فلقد « حذره » ما وقع في صربيا

من أحداث ثم قال : « ترى أي شيطان استحوز على الروس حتى يعقدوا ميثاق صداقة مع يوغوسلافيا ؟ » [١] . وأضاف قائلاً : « وانني لأصدق ان ليس في الإمكان حمل روسيا على مهاجمة المانيا » ، ولكنه يجد نفسه مضطراً رغم ذلك « الى اتخاذ موقف الحيطة والحذر » . ولم يتحدث هتلر الى سفيره في الاتحاد السوفياتي عن الخطط التي وضعها لغزو تلك البلاد ، وظل شولنبرغ ، وهو الالماني الشريف الصادق من رجال المدرسة القديمة جاهلاً بما يدور حتى النهاية .

وظل ستالين ايضا على هذا الجهل . وان لم يكن جاهلاً للدلائل والتحذيرات عما ينتوي هتلر عمله . واحتجت الحكومة السوفياتية رسميا في الثاني والعشرين من نيسان على ثمانين حادثة من حوادث انتهاك الطائرات النازية لحدود بلادها وقعت بين السابع والعشرين من آذار والثامن عشر من نيسان ، وقدمت في احتجاجها التفاصيل الوافية المتعلقة بكل حادث من هذه الحوادث . وقالت مذكرة الاحتجاج ، انه عثر في احدى طائرات الاستطلاع الالمانية التي اضطرت الى الهبوط على مقربة من روفنو في الخامس عشر من نيسان على جهاز تصوير وعلى اسطوانات من الافلام التي تم تصويرها ، وعلى خريطة طوبوغرافية للمناطق القريبة من الاتحاد السوفياتية » وكلها دلائل واضحة على الهدف الذي كان يسعى إليه ملاحو الطائرة » . ومع ذلك فقد حافظ الروس على لهجتهم الودية حتى في احتجاجهم . إذ أضافت ان الأوامر قد صدرت الى قوات الحدود السوفياتية « بعدم اطلاق النار على الطائرات الالمانية التي تحلق فوق الارض السوفياتية طالما ان هذا التحليق لا يتكرر بصورة مستمرة » [٢] .

---

١ ـ كانت الحكومة السوفياتية في الخامس من نيسان اي في اليوم الذي سبق الهجوم الالماني على يوغوسلافيا قد سارعت الى عقد « معاهدة صداقة وعدم اعتداء » مع الحكومة اليوغوسلافية الجديدة هادفة من ورائها كما يبدو ، الى القيام بمحاولة محمومة لوقف هتلر عند حده . وكان مولوتوف قد نقل نبأ هذه المعاهدة الى شولنبرغ في الليلة السابقة ، وقد علق السفير الالماني على ذلك هاتفا : « انها لحظة غير مؤاتية مطلقا » وحاول عبثا ان يحمل لروس على تأجيل توقيع المعاهدة على الاقل.(العلاقات النازية ـ السوفياتية ص ٣١٦ـ٣١٨)

٢ ـ العلاقات النازية ـ السوفياتية ص ٣٢٨ .

وعاد ستالين في مطلع شهر ايار ، فخطا عدة خطوات جديدة للتفاهم مع المانيا. فقد طرد الممثلين الدبلوماتيين لبلجيكا والنروج واليونان وحتى يوغوسلافيا من موسكو وأمر باغلاق مفوضياتهم سعياً منه لإرضاء هتلر . واعترف بحكومة رشيد عالي في العراق الموالية للنازية (؟) . وفرض رقابة صارمة على الصحافة السوفياتية للحيلولة دون استفزاز المانيا . وقد ابرق شولنبرغ الى برلين في الثاني عشر من ايار يقول :

« ان القصد من هذه التظاهرات من جانب حكومة ستالين عن نواياها ، تخفيف حدة التوتر بين الاتحاد السوفياتي والمانيا وخلق جو أفضل للمستقبل . وعلينا ان نذكر دائماً ان ستالين كان يؤيد تمام التأييد بصورة شخصية ودائماً وجود علاقات ودية بين المانيا والاتحاد السوفياتي »[1] .

وعلى الرغم من ان ستالين كان منذ عهد طويل الحاكم المطلق في الاتحاد السوفياتي ، إلا ان هذه هي المرة الأولى التي يستعمل فيها شولنبرغ في برقياته عبارة «حكومة ستالين » . وكان لهذا الاستعمال سبب طيب . ففي السادس من ايار ، تولى ستالين شخصياً رئاسة مجلس مفوضي الشعب أو رئاسة الوزراء ، خالفاً في هذا المنصب مولوتوف الذي ظل وزيراً للخارجية . وكانت هذه هي المرة الأولى التي يتولى فيها الامين العام للحزب الشيوعي ، وصاحب السطوة والنفوذ ، منصباً حكومياً ، وكان تفسير الرأي العالمي لهذا التبدل ، ان الوضع قد بات خطيراً كل الخطورة بالنسبة الى الاتحاد السوفياتي ولا سيما من ناحية علاقاته مع المانيا النازية ، حتى ان ستالين أصبح وحده القادر على معالجته بوصفه الرأس الاسمي والحقيقي للحكومة . وكان هذا التفسير واضحاً كل الوضوح ، ولكن كان ثمة تفسير آخر أقل منه وضوحاً ، وقد أبرزه السفير الالماني ذو الكفاية ابرازاً جليا في رسالته الى برلين .

---

١ ــ العلاقات النازية ــ السوفياتية ص ٢٣٨ .

فلقد روى السفير ان ستالين كان غير راض عن التدهور الذي طرأ على العلاقات الالمانية – السوفياتية ، وقد حمّل مسؤوليته لدبلوماتيـــة مولوتوف الجامدة وقال :

« واني لأرى ان في وسعنا الافتراض بأن ستالين قد وضع هدفاً لسياسته الخارجية يعتبر في منتهى الأهمية ... وهو يأمل في ان يصل الى هذا الهدف بجهوده الخاصة . وإني لأعتقد اعتقاداً جازما، انه في مثل هذا الوضع الدولي الذي يعتبره ستالين خطيراً ، فإن هذا الرجل قد حدد لنفسه هدفا وهو ابعاد الاتحاد السوفياتي عن الصراع مع المانيا »[1].

ولكن ألم يكن الديكتاتور الروسي الداهية قد أدرك الآن أي في أواسط ايار عام ١٩٤١ ، انمن المستحيل عليه ان يحقق هذا الهدف، وان سبيلهالوحيد للوصول إليه لا يعدو ان يكون الاستسلام الذليل لهتلر ؟ وليس ثمة من شك في ان ستالين قد أدرك ما يعنيه احتلال هتلر ليوغوسلافيا واليونان ، وما يرمز اليه وجود هذه الحشود الضخمة من القوات الالمانية في رومانيا والمجر على حدوده الجنوبية الغربية ، وما يرمي اليه تركيز القوات المسلحة الالمانية على حدوده الغربية في بولندة . وليس ثمة من ريب ايضا في ان هذه الشائعات المتواترة في موسكو قد وصلت الى مسامعه . إذ لم يكد يحل اليوم الأول من ايار حتى كانت الشائعات من الشدة بحيث دفعت شولنبرغ الى وصفها في برقية بعث بهـــا الى برلين في الثاني من الشهر « بالأقاويل عن وقوع صراع عسكري في اقرب وقت بين المانيا وروسيا » وان هذه الأقاويل كانت من سعة الانتشار في العـــاصمة السوفياتية الى الحد الذي بات فيه هو وموظفو سفارته عاجزين عن دحضها ونفيها . ثم مضى يقول :

« وأرجو ان تتذكروا ان جميع محاولاتنا لدحض هذه الشائعات

---

١ – برقيات شولنبرغ – العلاقات النازية – السوفياتية ص ٣٣٥ – ٣٣٩ .

في موسكو لن تجدي فتيلا ، إذا ظلت هذه الشائعات تصل باستمرار من المانيا ، واذا بات كل مسافر قادم الى موسكو أو مار بها ، لا يكتفي بحمل هذه الشائعات معه بل ويؤكدها سارداً الحقائق التي تقوم دليلاً على صحتها » [١] .

وكان الشك قد بدأ يتطرق الى السفير المحنك نفسه . فقد ظلت التعليمات تصل إليه من برلين طالبة منه ان ينفي هذه الشائعات وان ينشر بدلاً منها أقوالاً تؤكد عدم وجود أية حشود المانية على حدود روسيا ، وان قوات كبيرة فعلاً (وقد حدد عددها بثماني فرق لمعلوماته الخاصة) ، يجري نقلها « من الشرق الى الغرب » [١] . ومن المحتمل ان تكون هذه التعليمات قد أيدت شكوك السفير وقلقه ، إذ ان الصحف في جميع انحاء العالم كانت قد شرعت في هذا الوقت تطبّل وتزمر للحشود الألمانية على الحدود السوفياتية .

وكان ستالين قبل أمد طويل من هذه الوقائع ، قد تلقى تحذيرات محددّة عن خطط هتلر ومشاريعه . ولكن يبدو أنه لم يلق الى هذه التحذيرات بالاً . وكان اكثر هذه التحذيرات جدّية وخطورة من حكومة الولايات المتحدة الأمريكية .

ففي مطلع كانون الثاني عام ١٩٤١ بعث سام . اي وودز ، الملحق التجاري الامريكي في برلين ، بتقرير سري الى وزارة الخارجية في واشنطن يقول فيه انه علم من مصادر المانية موثوقة ، ان هتلر ، يعد الخطط اللازمة للهجوم على روسيا في الربيع المقبل . وكان هذا التقرير مطولاً ومليئاً بالتفاصيل التي تحدد خطة هيئة أركان الحرب الألمانية للهجوم (وقد قامت القرائن فيما بعد على صحة هذه التفاصيل ودقتها) ، والتي تشرح الاعدادات التي يجري اتخاذها لاستغلال الاتحاد السوفياتي اقتصاديا بعد استكمال احتلاله [٣] .

---

١ ـ العلاقات النازية ـ السوفياتية ص ٣٣٤ .

٢ ـ العلاقات النازية ـ السوفياتية ص ٣٣٤ ـ ٣٣٥ .

٣ ـ عرفنا ونحن في برلين سام وودز هذا ، وكان انسانا مستظهرا بفطرته (اي مولعا بالظواهر) وكنا نرى فيه رغم حبنا له ، افتقارا الى تفهم شؤون السياسة العالمية والتاريخ ،

وخيل الى كوردل هل وزير الخارجية الامريكية في بداية الأمر ، ان وودز وقع ضحية « خدعة » المانية . وراح يستدعي جي أدغار هوفر ، رئيس دائرة الاستخبارات المركزية . وعندما قرأ هوفر تقرير الرجل ، أكدصحته وصدقه. فقد ذكر وودز أسماء عدد من مصادره في مختلف وزارات برلين وفيهيئة أركان الحرب الألمانية ، وعندما تم التحري عن أصحاب هـــذه الأسماء في واشنطن ، تبيّن انهم من الناس الذين يعرفون الكثير ، وان ميولهم المعادية للنازية تدفعهم الى الحديث والثرثرة . وقرر هل رغم العلاقات المتوترة بين الحكومتين الامريكية والسوفياتية ان يبلغ الروس المعلومات التي جاءته ، وأوعز الى وكيل وزارته سمنر ويلز بنقل فحوى التقرير الى السفير السوفياتي قسطنطين أومانسكي . وقد تم هذا في العشرين من آذار ، وكتب سمنر فيما بعد يقول :

« وعلا الشحوب وجه المستر اومانسكي . وسكت لحظة واحدة ثم اكتفى بقوله :

« انني لأدرك تمام الإدراك خطورة الرسالة التي قدمتها لي . ولا

ولذا كان بالنسبة الينا آخر موظف في السفارة الامريكية في برلين يستطيع الوصول الى مثل هذه المعلومات الخطيرة ، ولا ريب في أن زملاءه في السفارة ما زالوا يشكون في أنه توصل الى هذه المعلومات ولكن كوردل هل قد اكد هذا في مذكراته وسرد تفاصيل التقرير . فقد روى وزير الخارجية المتوفي انه كان لوودز صديق الماني من خصوم النازية ، وكانت لهذا الصديق اتصالات عالية في وزارات برلين ، وبنك الرايخ والحزب النازي . وقد نقل هذا الصديق لوودز في شهر آب عام ١٩٤٠ ، ان مؤتمرات تعقد في مقر قيادة هتلر لدرس الاعدادات اللازمة لشن هجوم على الاتحاد السوفياتي . وظل هذا المخبر ، منذ ذلك الحين يطلع الملحق التجاري على كل ما يجري في هيئة اركان الحرب ، وبـــين اولئك الذين يخططون لاستغـــلال روسيا اقتصاديا . وكان وودز يجتمع الى هذا المخبر تجنبا للعيون والرقباء في مختلف دور السينما في برلين ويتسلم منه في الظلام قصاصات مطوية من الورق (راجع مذكرات كوردل هل ـ الجزء الثاني ـ ص ٩٦٧ ـ ٩٦٨) .

وقد غادرت برلين في كانون الاول عام ١٩٤٠ . وابلغني جورج كينان ، ألمع رجال السلك السياسي في السفارة . والذي ظل هناك ، ان السفارة علمت من مصادر عدة بالهجوم الالماني المقبل على روسيا . ويقول كينان هذا ان قنصلنا في كوينغزبرغ ، كويكيندال ، ابرق بتقرير قبل اسبوعين او ثلاثة اسابيع من بدء الهجوم ، يحدد فيه بالضبط الموعد الصحيح الذي سيبدأ فيه الزحف على روسيا .

ريب في أن حكومتي ستعترف بجميلكم على هذه الثقة ، وسأبلغها فوراً ما دار بيننا من حديث [1] .

ولكن الحكومة الامريكية لم تتلق أية اشارة عن هذا الاعتراف بالجميل أو عن تصديق الحكومة السوفياتية لهذه المعلومات الهامة . ويروي كوردل هل في مذكراته ان موسكو غدت على النقيض أشد عداءً وشراسة في علاقاتها بأمريكا ، لأن مساعدتها – أي امريكا – لبريطانيا ، قد حالت بينها وبين تزويد روسيا بكل ما تحتاجه من مواد . ومع ذلك ، وعلى الرغم من هذا الموقف العدائي ، فإن وزارة الخارجية الامريكية ، على حد رواية هل ، وقد تلقت برقيات من مفوضيتها في بوخارست وستوكهولم في الأسبوع الأول من حزيران تؤكد عزم الألمان على غزو روسيا في غضون اسبوعين ، بعثت بنسخ من هذه البرقيات الى سفيرها ستاينهاردت في موسكو ، الذي تولى بدوره نقلها الى مولوتوف .

وحاول تشرشل بدوره ان يحذر ستالين ، ففي الثالث من نيسان طلب الى السير ستافورد كريبس ، سفيره في موسكو ، ان يسلم رسالة شخصية الى الديكتاتور ، يشير فيها الى مدى ما في تحركات القوات الالمانية في جنوب بولندة من أهمية الى روسيا ، مؤكداً له انه تلقى هذه المعلومات من أحد وكلاء بريطانيا السريين . وكان سخط تشرشل من تأخر كريبس في تسليم هذه الرسالة الى ستالين لا يزال ماثلاً عندما دوّن هذه الواقعة في مذكراته [2] .

وقد عرف كريبس قبل انتهاء شهر نيسان الموعد المحدد للهجوم الالماني ، وقد نمي الى علم الالمان ان كريبس يعرف هذا الموعد . فقدبعث الملحق البحري الالماني في موسكو في الرابع والعشرين من نيسان برسالة مقتضبة الى القيادة العليا للأسطول في برلين هذا نصها :

« يتوقع السفير البريطاني ان يكون الثاني والعشرون من

---

١ – سمنر ويلز – حان الوقت للقرار ص ١٧٠ – ١٧١ .

٢ – تشرشل – مذكرات – الجزء الثالث – الحلف الاعظم ص ٣٥٦ – ٣٦١

حزيران يوم بدء الحرب »[1].

وقد دوّنت هذه الرسالة التي عثر عليها بين الأوراق النازية المصادرة ، من يوميـــات الحربية للأسطول الالماني في نفس اليوم بعد ان أضيفت الى نهايتها اشارة تعجب[2] . وقد دهش أمراء البحر الالمان من دقة تكهّن السفير بريطاني . ولكن الملحق البحري الالماني المسكين ، الذي كان كسفيره في موسكو آخر من يعلم بالسر ، أضاف الى برقيته العبارة الساذجة التالية...« أنها سخافة كبرى » .

ويبدو ان مولوتوف قد شارك الملحق البحري تفكيره هذا . فقد استقبل بعد نحو من شهر من هذا التاريخ ، أي في الثاني والعشرين من ايار السفير الألماني شولنبرغ ليبحث معه بعض القضايا . وراح السفير يبرق لبرلين ان مولوتوف كان كعادته « ودوداً وواثقاً من نفسه وغزير المعلومات » ، ثم أكد ان ستالين ومولوتوف « وهما أقوى رجلين في الاتحاد السوفياتي » يبذلان كل ما في وسعهما من جهد لتجنب الصراع مع المانيا[3] .

ولكن السفير الفطن كان مخطئاً في نقطة واحدة على الاقل ، إذ لم يكن مولوتوف في هذه الآونة بالذات « غزير المعلومات » فعلاً . ولكن السفير نفسه لم يكن كذلك غزير المعلومات أو واسع الاطلاع .

وقد تبين مدى جهل وزير الخارجية السوفياتية وافتقاره الى المعلومات في تعبير علني أفضى به في الرابع عشر من حزيران عام ١٩٤١ ، أي قبل أسبوع واحد من توجيه الضربة الالمانية . ففي ذلك المساء استدعى مولوتوف السفير شولنبرغ ، وسلّمه نصّ بيان لوكالة «تاس» قال انه سيذاع في تلك الليلة وستنشره الصحف في الصباح التالي[4] . وقد اتهم البيان السفير البريطاني كريبس شخصياً

---

١ ـ العلاقات النازية ـ السوفياتية ص ٣٢٠

٢ ـ المؤامرة النازية والعدوان (٦) ص ٩٩٧ .

٣ ـ العلاقات النازية ـ السوفياتية ص ٣٤٤ .

٤ ـ العلاقات النازية السوفياتية . ص ٣٤٥ ـ ٣٤٦ .

بترويج « هـــذه الشائعات المنتشرة ، عن حرب وشيكة الوقوع بين الاتحاد السوفياتي والمانيا » في الصحف الانكليزية والاجنبية . وأكد البيان الرسمي الصادر عن الحكومة السوفياتية ان هذه الشائعات ليست إلا مجرد « سخافة واضحة ، ومناورة دعائية حمقاء تقوم بها القوى المتــكاتفة ضد الاتحاد السوفياتي والمانيا » ثم مضى يقول :

« وترى الدوائر السوفياتية ان الشائعات عن عزم المانيا .. على شن هجوم ضد الاتحاد السوفياتي تفتقر كل الافتقار الى الصحة » .

وفسّر البلاغ التحركات الالمانية العسكرية الاخيرة من البلقان الى الحدود السوفياتية بأنها عادية « ولا شك لهـا بالعلاقات الالمانية – السوفياتية » . أما بالنسبة الى الشائعات القائلة بأن روسيا ستهاجم المانيا ، فقد وصفها البلاغ بأنها « كاذبة واستفزازية » .

ويظهر مدى السخرية في بلاغ «تاس» هذا ، بالنسبة الى الحكومة السوفياتية في خطوتين المانيتين ، وقعت احداهما يوم نشر البلاغ أي في الخامس عشر من حزيران ، ووقعت الثانية في اليوم التالي .

ففي الخامس عشر من حزيران بعث ريبنتروب من مدينــة البندقية حيث كان يتشاور مع زميله شيانو ، برسالة سرية الى بودابست ، يحذر فيها الحكومة المجرية من الخطر ويطلب اليها «اتخاذ الاجراءات لضمان حدودها » ..ثم يقول :

« بالنظر الى الحشود الروسية الضخمة على حدود المانيا الشرقية ، قد يجد الفوهرر نفسه مرغماً في مستهل شهر تموز على أبعد تقدير ، على توضيح العلاقات الالمانية – الروسية ، والى تقديم مطالب معينة في هذا الصدد » [1] .

وهكذا نجد الالمان يلمحون بعض التلميح الى المجريين ، بينما يضنون بمثله على حليفهم الأول . إذ عندما وجه شيانو ، سؤالاً الى ضيفه ريبنتروب ، في اليوم

---

١ – العلاقات النازية السوفياتية ص ٣٤٦ .

التالي وكانا يستقلان « غندولاً » في قنوات البندقية ، عن صحة الشائعات الرائجة حول هجوم الماني متوقع على روسيا ، رد وزير خارجية النازي قائلاً :

« ليس في وسعي ياعزيزي شيانو ، ان أفضي اليك حتى الآن بشيء ، لأن القرارات جميعها مختزنة في صدر الفوهرر الذي لايمكن النفاذ إليه . لكن هناك شيئاً واحداً مؤكداً على الأقل ، وهو اننا إذا هاجمناهم ، فإن روسية ستالين ستمّحي من الخارطة في غضون ثمانية اسابيـع » [1] .

وبينما كان الكرملين يعد العدة لإذاعة بيانه « المهندم » الى العالم في الرابـع عشر من حزيران عام ١٩٤١ ، مؤكداً فيه ان شائعات الهجوم الالماني على روسيا ليست إلا « سخافة واضحة » ، كان أدولف هتلر في اليوم نفسه ، يعقـد آخر مؤتمراته العسكرية الضخمة ليبحث مع كبار قادة القوات الألمانية المسلحة الخطوط النهائية لعملية بربروسة . وكان توقيت تجميـع القوات في الشرق ، وتوزيعها ، وإعدادها في نقاط القفز ، قد حددت كلها في الثاني والعشرين من أيار . ولم تمض ايام حتى كان بيان آخر قد صدر متضمناً الصورة المعدّلة للتوقيت[2] . وهذا البيان طويل مسهب يتضمن كافة التفصيلات ويعتبر وثيقة في غاية الأهمية ، إذ يظهر انه لم يحل الأول من حزيران حتى كانت جميـع الخطط اللازمة لاجتياح روسيا قد استكملت وان تحركات القوات الواسعة والمعقدة ، بما في ضمنها الجنود والمدفعية والمدرعات والطائرات والبواخر والتموينات قد قطعت شوطاً بعيداً طبقاً للخطة المرسومة . وتقول فقرة مختصرة في اليوميات الحربية لقيادة الاسطول بتاريخ التاسع والعشرين من ايار ان « الحركات الأولية للسفن الحربية المشتركة

---

١ — اقتبست هذه الفقرة من الجملة الاخيرة التي دونها شيانو في يومياته في الثالث والعشرين من كانون الاول عام ١٩٤٣ من الزنزانة رقم ٢٧ في سجن فيرونا قبل بضعة ايام من اعدامه . واضاف ان الحكومة الايطالية علمت بالغزو الالماني لروسيا بعد ساعة من وقوعه (يوميات شيانو ص ٥٨٣)

٢ — يوجد النص في المؤامرة النازية والعدوان (٦) ص ٨٥٢ — ٨٦٧) .

في عملية بربروسة قد بدأت » . واستكملت المحادثات مع اركان حرب كل من رومانيا والمجر وفنلندة ، وكانت الدولة الأخيرة تواقة الآن لاستعادة ما انتزعه الروس منها في حرب الشتاء . وأصدر هتلر من مقره في برختسغادن في التاسع من حزيران أمراً يدعو فيه قادة القوات المسلحة الثلاث العامين ، وكبار قادة الميدان الى اجتماع نهائي يدوم يوماً كاملاً ، ويعقد في برلين في الرابع عشر من حزيران للبحث في بربروسة .

وعلى الرغم من ضخامة المهمة ، فإن هتلر وقادته العسكريين كانوا في وضع الواثق المطمئن وهم يدرسون تفاصيل « اللحظة الاخيرة » لأعظم عملية عسكرية شهدها التاريخ ، تتمثل في هجوم عام على جبهة تمتد نحواً من الف وخمسمائة ميل من ميناء بتسامو على المحيط المتجمد الشمالي الى البحر الأسود . وكان براوختش قد عاد في الليلة الفائتة الى برلين من جولة تفتيشية على التحشدات في الشرق . ودوّن هولدر في يومياته ان القائد العام للجيش كان مرتاحاً كل الارتياح ، إذ وجد جميع الضباط والجنود في أروع حالة وعلى أتم الاهبة والاستعداد .

وقد انتهى هذا الحفل العسكري الصاخب الاخير في الساعة السادسة والنصف من مساء اليوم نفسه ، وكان قد بدأ في الساعة الحادية عشرة ، ولم يتوقف إلا عند الساعة الثانية بعد الظهر قليلاً ليتناول الحاضرون الغداء الذي انتهز هتلر فرصته ليلقي على مسامعهم خطاباً آخر من خطبه النارية الاستفزازية التي تعوّد على إلقائها عشية المعارك [1] . ويقول هولدر ان هذا الخطاب كان من « الخطب السياسية الجامعة » التي أكد فيها هتلر ، انه يجد نفسه مضطراً لمهاجمة روسيا ، اذ ان انهيارها سيرغم انكلترا على « التسليم » ، ويبدو ان الفوهرر المتعطش للدماء ، قد أكد شيئاً آخر غير هذا . وقد تحدث كايتل عما أكده زعيمه إبان

---

١ - لم نعثر على وقائع هذا الاجتماع الرسمية بين الوثائق المصادرة ولكن هولدر قدم وصفا له في يومياته بتاريخ الرابع عشر من حزيران عام ١٩٤١ ، كما ان كايتل اورد في افادته امام محكمة نورمبرغ وصفا له (محاكمات كبار مجرمي الحرب (١٠) ص ٥٣١ - ٥٣٢) . وتتحدث يوميات اركان حرب الاسطول الحربية بايجاز عنه .

الاستجواب المباشر في محكمة نورمبرغ اذ قال :

« كانت الفكرة الأساسية من خطاب هتلر ان الصراع القادم ، معركة حاسمة بين عقيدتين ، وان علينا ان ننظر الى الاجراءات التي نعرفها كجنود — وهي الاجراءات الوحيدة الصحيحة في نظر القانون الدولي — يجب ان تقيّم على اساس مفاهيم مختلفة تمام الاختلاف . »

واضاف كايتل ، ان الفوهرر شرع بعد ذلك يصدر أوامر مختلفة لانفاذ ارهاب لا مثيل له في روسيا « بالطرق الوحشية » .

وراح محامي الدفاع عن كايتل يوجه اليه السؤال التالي : « ولكن هل أثرت انت أو غيرك من القادة العسكريين أية اعتراضات على هذه الأوامر ؟

فرد كايتل قائلا : « لا لم أثر انا أية اعتراضات » واضاف ان أياً من القادة الآخرين لم يعترض كذلك .[1]

---

١ — اكد هاسيل هذه الحقيقة . فقد كتب بعد يومين من الاجتماع في يومياته أي في السادس عشر من حزيران يقول : « لقد وافق براوختش وهولدر على اساليب هتلر في روسيا. وهكذا بات لزاما على الجيش ان يتحمل اعباء القتل والحرق التي كانت مقتصرة على الحرس النازي حتى الان » .

ويبدو ان « المتآمرين » المناهضين للنازية ، قد ظنوا بسذاجة بادىء ذي بدء ان اوامر هتلر لنشر الارهاب في روسيا قد تستثير القادة العسكريين وتدفع بهم الى الاشتراك في الثورة ضد النازية . ولكن لم يكد يحل السادس عشر من حزيران حتى كان هاسيل نفسه قد مني بخيبة الامل ، اذ استهل يومياته في ذلك التاريخ بقوله :

« عقدنا عدة مؤتمرات مع بوبيتز وبيك واوستر لندرس ما اذا كانت بعض الاوامر التي تلقاها قادة الجيش (والتي لم يقوموا باصدارها بعد الى من هم دونهم) قد تكون كافية لتفتح عيون القادة العسكريين على طبيعة العهد الذي يحاربون من اجله . وتتعلق هذه الاوامر ببعض الاجراءات الوحشية التي يتحتم على الجنود اتخاذها ضد البلاشفة عند غزو روسيا .

« وقد توصلنا الى الاستنتاج بأن ليس في وسعنا ان نأمل في شيء الآن . . . فالقادة العسكريون يخدعون انفسهم . . . انهم لم يعودوا اكثر من عرفاء لا حول لهم ولا طول (يوميات فون هاسيل ص ١٩٨ — ١٩٩) .

ولا يستطيع المرء ان يصدق ، وان كان هذا هو الصدق بعينه ، ان رجال الكرملين بكل ما عرف عنهم من وفرة الشكوك وشدة الدهاء والصلابة ، وعلى الرغم من جميع الأدلة والتحذيرات التي مثلت واضحة جلية أمامهم ، قد ظلوا على جهل حتى اللحظة الاخيرة ، من ان الضربة ستنزل بهم ، وبقوة كادت ان تحطم بلادهم كل تحطيم .

ففي الساعة التاسعة والنصف من مساء ذلك اليوم الممتع من أيام الصيف، في الواحد والعشرين من حزيران عام ١٩٤١، أي قبل تسع ساعات من بدء الهجوم الألماني ، استقبل مولوتوف السفير الألماني في مكتبه في الكرملين وسلم اليه ما دعاه تشرشل « بغفلته الأخيرة »فبعد ان ذكر للسفير عدداً جديداً من حوادث خرق الالمان بطائراتهم للحدود السوفياتية ، مؤكداً انه أوعز الى سفيره في برلين بلفت انظار ريبنتروب اليها ، اتجه مولوتوف الى موضوع آخر وصفه شولنبرغ في برقيته العاجلة التي بعث بها الى الويلهمشتراسة تلك الليلة :

« قال مولوتوف ان هناك عدة دلائل تشير الى ان الحكومة الألمانية غير راضية عن الحكومة السوفياتية . وتواترت الشائعات ايضاً عن ان الحرب بين المانيا والاتحاد السوفياتي باتت وشيكة الوقوع... ولا تستطيع الحكومة السوفياتية فهم الدوافع لعدم الرضى هذا .. ولذا فهو يود ان يعرف معنى الاسباب التي أدت الى هذا الوضع الراهن في العلاقات الالمانية ـ السوفياتية .

« وقد رددت عليه بأن ليس في استطاعتي الاجابة على سؤاله لافتقاري الى المعلومات المتعلقة به . » [١]

ولكنه تلقى الرد قبل طويل وقت .

اذ عندما كان يبرق رسالته هذه، كانت موجات الاثير بين برلين وموسكو، تحمل رسالة اذاعية طويلة بالرموز موجهة من ريبنتروب اليه ومؤرخة في الواحد

---

١ ـ العلاقات النازية ـ السوفياتية ص ٣٥٥ ـ ٣٥٦ .

والعشرين من حزيران عام ١٩٤١ ، وقد حملت في مطلعها العبـــارة التالية : « مستعجل للغاية – سري جداً – للسفير شخصياً » ، ثم جاء استهلالهـــا على النحو التالي :

« عليك حــــال وصول هذه البرقية ان تحرق كل مـــا تبقى لديك من مفاتيح الرموز . وعليك ايضاً ان تعطل جهاز الارسال الاذاعي .

« ازجو ابلاغ الهر مولوتوف فوراً ان لديك رسالة عاجـلة تود ابلاغها اليه .. وارجو بعد ذلك ان تنقل اليه الاعلان التالي . »

وكان الاعلان من النوع الذي ألفناه عن هتلر ، والذي يكاد ينضح بالاكاذيب والاختلاقات العفنة من طول اختزانها ، والتي برع هتلر وريبنتروب في صياغتها، قبل كل عمل جديد من اعمال العدوان غير المستفز . وهذا هو على الاقـــل ، الانطباع الذي يتكوّن لدى مؤلف هذا الكتاب كلما عاد الى قراءة هذا الاعلان وان كان يفوق جميع الاعلانات السابقة ، في خداعه الوقح ، وسلاطته . فلقـد ادعى ان روسيا قد واصلت خرق الميثاق النازي – السوفياتي ، في الوقت الذي تمسكت به المانيا تمسكاً صادقاً . وقد اقترب الاتحاد السوفياتي اعمال «التخريب والارهاب والتجسس » ضد المانيا . وحاول ان « يحارب المحاولة الالمانية لاقامة نظام مستقر في اوروبا » . وقد تواطأ مع بريطانيا « للهجوم على القوات الالمانية في رومانيا وبلغاريا » . وقد « هدد » بحشده « كل ما توافر له من قوات روسية على طول الجبهة الممتدة من البلطيق الى البحر الأسود » وجود الرايخ وكيانه . ثم مضى الاعلان يقول :

« وقد قضت الانباء التي تلقيناها في بضعة الايام القليلة الماضية على كل ما تبقى لدينا من شكوك عن الطبيعة العدوانية لهذا الحشد الروسي .. يضاف الى هذا ان انباء قد وصلتنا من انكلترا تتحدث عن المفاوضات التي اجراها السفير كريبس لتحقيق تعاون أوسع مدى سياسياً وعسكرياً بين انكلترا والاتحاد السوفياتي .

«وتعلن حكومة الرايخ على ضوء كل هذا ان الحكومة السوفياتية خلافاً للالتزامات التي قبلتها على نفسها ..

« ١ – لم تكتف بمواصلة محاولتها لتهديم المانيا في اوروبا بل وضاعفتها ايضاً .

« ٢ – وانها قد تبنت سياسة خارجية تشتد شيئاً فشيئاً في مناهضتها لألمانيا .

« ٣ – وانها قد حشدت جميع قواتها في حالة تأهب على الحدود الألمانية .

«ولهذا فإن الحكومة السوفياتية قد ناقضت معاهداتها مع المانيا وباتت على وشك مهاجمتها من الخلف في صراعها من اجل الحياة . ولهذا فقد أمر الفوهرر القوات الألمانية المسلحة بمقاومة هذا الخطر بكل الوسائل الموجودة تحت تصرفها »[١]

وراح ريبنتروب ينصح سفيره في النهاية بقوله : « ارجو ان لا تدخل في أي نقاش حول موضوع هذا التبليغ » ولكن ماذا يسع شولنبرغ ان يقول ، وهو الذي هزّه هذا التبليغ هزاً وحطم آماله، بعد ان كرس خيرة سني حياته لتحسين العلاقات بين المانيا وروسيا ، والذي يعرف اكثر من غيره ان هذا الهجوم على الاتحاد السوفياتي، لا مبرر له من استفزاز او غيره؟ وها هو يعود الى الكرملين مع أول خيط من خيوط الفجر، فيكتفي بتلاوة الاعلان الالماني[٢]. وأصاب الذهول

---

١ – العلاقات النازية – السوفياتية ص ٣٤٧ – ٣٤٩ .

٢ – وهكذا انتهت حياة هذا السفير المحنك الدبلوماتية . وقد عاد الى المانيا ، وارغم على التقاعد ، فانضم الى حلقة المعارضة التي يقودها الفريق بيك وغوبردلر وهاسيل وغيرهم، وقد اعد ليكون في وقت ما وزير خارجية العهد الجديد المناوىء لهتلر . وروى هاسيل ان شولنبرغ كان راغبا في عام ١٩٤٣ ، في اجتياز الخطوط الروسية ليتحدث الى ستالين في موضوع عقد صلح عن طريق التفاوض مع حكومة مناوئة للنازية في المانيا (يوميات فون هاسيل ص ٣٢١ – ٣٢٢) وقد اعتقل شولنبرغ واودع السجن بعد اكتشاف مؤامرة شهر تموز عام ١٩٤٤ لاغتيال هتلر . ونفذ فيه رجال الغستابو حكم الاعدام في العاشر من تشرين الثاني .

مولوتوف ، وهو يصغي صامتاً حتى النهاية ثم قال :

« اذن فهي الحرب . ولكن هل تعتقد اننا نستحق هذا ؟ »

* * *

وكان نفس المنظر ، يمثل في ذات الوقت من فجر اليوم في دار الويلمهشتراسة في برلين . فلقد ظل السفير السوفياتي فلاديمير ديكانوزوف طيلة بعد ظهر الواحد والعشرين من حزيران يهتف الى وزارة الخارجية يطلب تحديد موعد لمقابلة ريبنتروب ، ليقدم اليه احتجاجه المتواضع على استمرار الطائرات الألمانية في خرق حرمة الحدود السوفياتية . وقيل له ان وزير الخارجية النازي « خارج المدينة » . وفي الساعة الثانية من صباح الثاني والعشرين من حزيران ، قيل له ان ريبنتروب سيستقبله في الساعة الرابعة صباحاً في دار الوزارة . وهناك تلقى هذا المبعوث الذي كان في وقت ما نائباً لوزير الخارجية ، والرجل الذي يعتمد عليه ستالين في سلمه وحربه ، ويوفده لاصطياد المشاكل وخلقها ، والذي رتّب لستالين أمر الاستيلاء على ليتوانيا ، الصدمة الكبرى في حياته ، وهي عين الصدمة التي ذاقها مولوتوف في موسكو . وقد وصف الدكتور شميدت ، الذي شهد الاجتماع ، المنظر بقوله :

« لم أر في حياتي ريبنتروب في نفس الحالة العصبية التي رأيته فيها ذلك الصباح في الخمس دقائق الأخيرة ، التي سبقت وصول ديكانوزوف . فلقد كان يذرع الغرفة طولاً وعرضاً وكأنه وحش حبيس في قفصه ..

« ودخل ديكانوزوف ، ويبدو انه لم يكن قد تكهن بما هو جار ، فمد يده كالعادة الى ريبنتروب . وجلسنا ... وشرع ديكانوزوف ، يوجه بالنيابة عن حكومته بعض الأسئلة التي يطلب ايضاحاً لها .. ولكنه لم يكد يبدأ حديثه ، حتى كان ريبنتروب يقاطعه ، وقد بدت في وجهه تعابير جامدة كالصخر ، قائلاً : « انا لم استدعك لهذا الآن » ..

وشرع وزير الخارجية النازي المتعجرف بعد ذلك في ايضاح القضية التي استدعى السفير من اجلها ، وسلمه نسخة من المذكرة التي كان شولنبرغ يتلوها في نفس اللحظة على مسامع مولوتوف ، وابلغه ان القوات الالمانية شرعت في تلك الآونة في اتخاذ « اجراءات عسكرية مضادة » على الحدود السوفياتية . ويقول شميدت ان المبعوث السوفياتي الذي بدا في صورة الدهشة مجسدة ... « استعاد هدوءه بسرعة ، وأعرب عن أسفه العميق » لهذه التطورات التي حمّل المانيا مسؤليتها .. ثم « نهض من مقعده ، وانحنى بأدب ، وغادر الغرفة دون ان يمد يده لمصافحة الوزير »[١] .

وهكذا انتهى شهر العسل بين النازيين والسوفيات . وفي الساعة الثالثة والنصف من صباح الثاني والعشرين من حزيران عام ١٩٤١ ، اي قبل نصف ساعة من رفع الستارة عن التمثيليتين الدبلوماتيتين الاخيرتين في الكرملين والويلهلمشتراسة ، دوّت مدافع هتلر على طول مئات الأميال من جبهة اشعلت النيران فيها الى وقت طويل .

* * *

ووقعت هناك مقدمة دبلوماتية اخرى ، للرواية المدفعية . فبعد ظهر الواحد والعشرين من حزيران ، جلس هتلر الى مكتبه في مقر قيادته الجديد ، تحت الارض « عرين الذئب » على مقربة من راستنبرغ القائمة في احدى اجمات بروسيا الشرقية الكئيبة ، واملى على احدى سكرتيراته ، رسالة مطولة الى موسوليني . وقد اتبع في هذه المرة ، كما في المرة السابقة التي هيأ فيها لاعتداءات جديدة ، نفسها الإسلوب بعدم الركون الى الثقة في صديقه الحميم وكبير حلفائه ، واطلاعه على السر ، قبل اللحظة الاخيرة . وها هو الآن يطلعه عليه في الساعة التي سبقت الاخيرة . وليس ثمة من شك في ان كتابه هذا يعتبر اصدق دليل وأوضحه على الاسباب الحقيقية التي حملته على اتخاذ هذه الخطوة القدرية القاضية ، وهي الخطوة

---

١ ـ مذكرة شميدت الرسمية عن الاجتماع ـ العلاقات النازية ـ السوفياتية ص ٣٥٦ ـ ٣٥٧ وكذلك في كتابه « ترجمان هتلر » ص ٢٣٤ ـ ٢٣٥ .

التي ظلت أمداً طويلاً تحيّر العالم الخارجي ، والتي مهدت الطريق لنهايته ونهاية الرايخ الثالث . واود ان اقول : ان الرسالة مكتظة بأكاذيب هتلر العادية وأضاليله ، وهي الاكاذيب التي يحاول « بيعها » حتى الى اصدقائه . ولكن وراء هذه الاكاذيب وبين سطورها تظهر حقيقة افكاره وتقديراته الصحيحة- وان كانت قد اخطأت - عن الاوضاع العالمية في صيف عام ١٩٤١ ، وهو الصيف الثاني في الحرب ... وهذا ما جاء في الرسالة :

« يا دوتشي ... !

« انني اكتب اليك هذه الرسالة في اللحظة التي انتهت فيها اشهر طويلة من الدراسات العميقة ومن الانتظار المحطم باستمراره للاعصاب ، الى اتخاذ اقسى قرار اتخذته في حياتي .

« ولأبدأ الآن بتحليل الوضع . لقد خسرت انكلترا الحرب. وهي كانسان غريق تحاول التشبث بكل قشة تلوح لها . ومع ذلك فإن في بعض امانيها بالطبع شيئاً من المنطق ... وقد ادى انهيار فرنسا ... الى تحول انظار دعاة الحرب البريطاني الى المكان الذي واصلوا في البداية التطلع اليه لإشعال نار الحرب عن طريقه ، وهو روسيا السوفياتية .

« وللبلدين أي روسيا السوفياتية وانكلترا ، مصلحة مشتركة ومتعادلة في وجود اوروبا ، التي غدت محطمة من جراء الحروب الطويلة . ويقف الاتحاد الامريكي الشمالي وراء هاتين الدولتين يستحثهما على السير في هذا الطريق ... »

وراح هتلر يوضح بعد ذلك ، انه لا يستطيع مع وجود قوات عسكرية سوفياتية ضخمة قابعة في مؤخرته ، ان يجمع القوة الكافية « لا سيا في الهواء » لشن هجوم شامل على بريطانيا يرغمها على الاستسلام ... ثم قال :

« وتقف جميع القوات الروسية المتوافرة على حدودنا في الواقع .. ولو افترضنا ان الظروف قد اتاحت لي المبرر لاستخدام

القوة الجوية الالمانية ضد انكلترا ، فهناك خطر ماثل بأن روسيا ستشرع آنذاك في خطتها « الابتزازية » التي اجد نفسي مضطراً للاذعان لها وانا صامت بسبب شعوري بالافتقار الى القوة الجوية... وستكون انكلترا ، اقل استعداداً وتقبلاً للسلام منها في اي وقت مضى اذ سيكون في وسعها تركيز آمالها على شريكتها روسيا . . وليس ثمة شك في ان هذا الأمل سينمو بصورة طبيعية مع كل تقدم تحرره القوات الروسية المسلحة في استعداداتها . ويقف وراء كل هذا ، ما يأمل البريطانيون في الحصول عليه في عام ١٩٤٢ من شحنات المعدات الامريكية الضخمة .

« وقد توصلت اخيراً بعد ان انهكت عقلي في التفكير ، الى قرار لمواجهة هذا الوضع ، وهو ان اقطع « الانشوطة » قبل ان تطبق على خناقي ... ووجهة نظري الشاملة تتلخص فيما يلي :

« ١ – ليس في الإمكان الوثوق بفرنسا كما لم يكن في الامكان الوثوق بها سابقاً .

« ٢ – لا اعتقد بأن ثمة خطراً في شمال افريقيا بالنسبة الى مستعمراتك ايها الدوتشي قبل حلول الخريف .

« ٣ –ما زالت اسبانيا تقف موقفاً متردداً واني لأخشى انها لن تختار الجانب الذي تقف فيه إلا بعد ان تكون نتيجة الحرب قد تقررت

« ٥[1]–ليس ثمة من مجال للقيام بهجوم على مصر قبل الخريف..

« ٦ – لم تعد قضية دخول امريكا الحرب ، أو عدم دخولها فيها مسألة مهمة ، طالما انها تمين اعداءنا بكل ما لديها من قوى تستطيع حشدها وتعبئتها .

« ٧ – ان الوضع في بريطانيا نفسها سيء للغاية . وباتت قضية تموينها بالغذاء والمواد الأولية تتعقد بصورة متزايدة . ولا تعيش

---

١ – لم يورد المؤلف السبب الرابع في الاصل الانكليزي – المعرب – .

الروح النضالية فيها لشن الحرب إلا على الآمال ، على أي حال .
وتستند هذه الآمال ، على افتراضين لا ثالث لهما ، هما روسيا وامريكا وليس أمامنا مجال لازالة امريكا من الوجود . ولكن في وسعنا ان نبعد روسيا عن الحلبة . وتعني ازالة روسيا في الوقت نفسه ، انفراجاً هائلاً لليابان في الشرق الاقصى ، كما تعني ايضاً احتمال قيام تهديد اضخم المجالات النشاط الامريكي عن طريق التدخل الياباني .

« ولهذا فقد قررت على ضوء هذه الظروف ان اضع نهاية لتمثيلية النفاق والخداع التي تعرض على مسرح الكرملين . »

وقال هتلر ان المانيا لن تكون بحاجة الى اية قوات ايطالية في روسيا . (فهو لا يريد ان يشرك ايطاليا في امجاد احتلال روسيا كما لم يشركها في امجاد احتلال فرنسا) . ولكن في وسع ايطاليا ، في رأيه ، ان « تقدم مساعدة حاسمة » عن طريق تعزيز قواتها في افريقيا الشمالية ، والإعداد « للزحف على فرنسا في حالة نقضها لمعاهدتها » . وكان هذا القول بمثابة طعم رائع للدوتشي الجائع الى الاحتلال ... ثم مضى يقول :

« اما بالنسبة الى حربنا الجوية ضد انكلترا ، فسنقف في الوقت الحاضر موقف الدفاع ...

« وأما بالنسبة الى الحرب في الشرق ، يا دوتشي ، فإنها ستكون شاقة حقاً ، ولكنني لا اشك لحظة واحدة في نجاحها . واني لآمل فوق كل اعتبار بأنه سيكون في امكاننا ان نضمن قاعدة مشتركة لتموييننا بالغذاء من اوكرانيا التي ستزودنا بالمؤن الاضافية التي قد نحتاج اليها في المستقبل . »

وانتقل بعد ذلك الى محاولة الاعتذار عن تأخره في ابلاغ شريكه بقراره في وقت ابكر فقال :

« واذا كنت قد تأخرت يا دوتشي حتى هذه اللحظة عن

ابلاغك هذه المعلومات فإن السبب في ذلك عائـــد الى ان القرار النهائي نفسه لن يتخذ قبل الساعة السابعة من هذا المساء ...

. « ومهما كانت النتيجة يا دوتشي فإن وضعنا لا يمكن ان يسوء بسبب هذه الخطوة ، وانا واثق من انه سيتحسن .. وإذا لم تحاول انكلترا ان تستخلص النتائج الصحيحة من الحقائق المجردة ، فإن في وسعنا آنذاك ، بعد ان نؤمن مؤخرتنا ان نزود انفسنا بالمزيـد من القوة للتخلص من عدونا . »

وشرح هتلر اخيراً ما يحس به من راحة بال لأنه توصل في النهـاية الى اتخاذ قراره فقال :

« واسمح لي ان اقول لك شيئاً آخر يا دوتشي. انني أحس ثانية بأنني قد تحررت روحياً ، بعد ان جهدت كثيراً للوصول الى هذا القرار . فالشراكة التي عقدناها مع الاتحاد السوفياتي ، كانت عبئا ثقيلاً على ضميري على الرغم من اخلاص جهودنا الكاملة للوصول الى تفاهم نهائي معه . ولقد كنت متضايقاً منها لأنني رأيت فيهـــا على نحو أو آخر ، تحولاً عن جذوري ومفاهيمي والتزاماتي السابقة . وانني لمغتبط الآن لأنني تحررت من هذه الآلام العقلية ...

« وختاماً ارجو ان تقبل تحيات الحب والزمالة ...

المخلص لك

ادولف هتلر »[1]

وفي الساعة الثالثة من صباح الثاني والعشرين من حزيران ، أي قبـل نصف ساعة من موعد وثوب القوات الألمانيـــة على الاتحاد السوفيـاتي ، ايقظ السفير الالماني فون بسمارك ، الكونت شيانو من نومه لينقل اليه رسالة هتلر الطويلة ،

---

١ ـ رسالة هتلر لموسوليني في ٢١ حزيران ١٩٤١ ـ العلاقات النازية ـ السوفياتية ص ٣٤٩ ـ ٣٥٣ .

التي تولى الوزير الايطالي نقلها بدوره هاتفياً الى موسوليني الذي كان يستجمّ في قصره الصيفي في ريسيوني . ولم تكن هذه هي المرة الاولى التي يوقظ بها الدوتشي من غطيطه في منتصف الليل ، ليتلقى رسالة من شريكه في المحور ، مما كان يسبب له دائماً الضيق والازعاج ... وراح موسوليني يقول غاضباً لشيانو : « انني لا اجرؤ حتى على ازعاج خدمي في منتصف الليل ... ولكن الألمان يدفعونني الى القفز من فراشي في أية ساعة من ساعات الليل ، دون اي اعتبار أو احترام » . [1] ومع ذلك لم يكد موسوليني ينتهي من تفريك عينيه ، حتى راح يصدر أوامره ، باعلان الحرب فوراً على الاتحاد السوفياتي . فلقد بات اخيراً الاسير المطيع للألمان . وكان يعرف هذه الحقيقة ويثور على معرفته لها . وراح يقول لشيانو : «انني لا ارجو إلا شيئاً واحداً ، وهو ان يخسر الألمان في حربهم هذه في الشرق الكثير من ريشهم [2] » . ومع ذلك فقد كان يدرك ان مستقبله هو ، يعتمد الآن كل الاعتماد على السلاح الألماني . وكان واثقاً من ان الالمان سيفوزون في روسيا ، ولكنه كان يأمل في ان تنزف الدماء من انوفهم فيها على الاقل ، لتضعف قوتهم .

ولم يكن موسوليني يعرف أو حتى يشك ، كما لم يشك أي انسان آخر في الغرب ، من كلا الجانبين ، في أن الألمان سيلقون في روسيا مصيراً اسوأ مما رجاه موسوليني . وفي صباح يوم الاحد الثاني والعشرين من حزيران ، وهو نفس الموعد الذي عبر فيه نابوليون نهر النيمين في عام ١٨١٢ ، في طريقه الى موسكو ، وبعد سنة تماماً من استسلام فرنسا ، بلاد نابوليون في كومبيين ، تدفقت جيوش ادولف هتلر المدرعة والآلية ، والتي لم تعرف الهزيمة حتى ذلك اليوم نهر النيمين وغيره من الانهار ، متوغلة بسرعة البرق في الاراضي الروسية . وبوغت الجيش الاحمر ، رغم جميع التحذيرات ، والنذر والقرائن ، كما دون الفريق هولدر في

---

١ ـ يوميات شيانو ص ٣٦٩ و ص ٣٧٢ .
٢ ـ يوميات شيانو ص ٣٧٢ .

يوميته للنهار الأول « مباغتة تعبوية (تكتيكية) ، على طول الجبهة كلها. »[1]
واستولى الألمان على جميع الجسور الاولى وهي سليمة . ويضيف هولدر ، ان الروس كانوا في الحقيقة وفي معظم نقاط الجبهة ، غير متأهبين للعمل ، وقد اجتاحتهم الجيوش الغازية حتى قبل ان يتمكنوا من تنظيم المقاومة . وقد دمرت مئات الطائرات السوفياتية وهي جاثمة في مطاراتها .[2] ولم تمض بضعة ايام ، حتى كان الألوف من الاسرى يتدفقون على المؤخرة الألمانية ، اذ تم تطويق جيوش كاملة بسرعة خارقة ، وبدا ان الوضع الذي « وقع في بولندة » يتكور من جديد .

ودوّن هولدر المعروف بحذره في يوميته للثالث من تموز بعد ان اطلع على آخر تقارير هيئة اركان الحرب يقول : « لا اعتقد ان من المبالغة القول بأن « الهجوم » ضد روسيا ، قد تحقق في اربعة عشر يوماً . واضاف ان كل شيء سينتهي في غضون اسابيع . »

---

١ ـ تضمنت يومية هولدر لليوم الاول ، ملاحظة غريبة للغاية . فبعد ان ذكرت ان محطات الاذاعة الروسية ، التي كان الالمان يلتقطون اذاعاتها ، قد عادت الى البث عند الظهيرة ، قالت « ان هذه الاذاعات تطلب الى اليابان التوسط لحل الخلافات السياسية والاقتصادية بين روسيا والمانيا ، وان تظل نشطة في الاتصال مع وزارة الخارجية الالمانية » . فهل اعتقد ستالين بعد تسع ساعات من بدء الهجوم ، ان في وسعه ان يوفق في وقفه والعدول عنه ؟

٢ ـ روى الفريق غوينتر بلومينتريت ، رئيس اركان الجيش الرابع فيما بعد معتمدا على ذاكرته ، ان قطار برلين ـ موسكو السريع ، اجتاز الخطوط الالمانية عند نهر بوغ متجها الى بريست ليتوفسك دون « اي حادث » بعيد منتصف ليل الواحد والعشرين منحزيران، وعندما كانت المدافع الالمانية قد صوبت افواهها على اهدافها منتظرة اشارة الانطلاق . وقال ان هذا الحادث بدا له غريبا كل الغرابة . وكان سكوت المدافع الروسية وعدم ردها حتى بعد بدء الهجوم لا يقل غرابة في عينه عن الحادث الاول ... وكتب على ضوء ذلك يقول : « لقد بوغت الروس مباغتة كلية في جبهتنا ». وعندما اطلت تباشير الفجر ،التقطت محطات الاشارة الالمانية رسائل على اجهزة اذاعة الجيش الاحمر تقول : « اننا نتعرض لاطلاق النار . ماذا نفعل ؟ » . وسرعان ما جاء الرد من القيادة العامة الروسية ... « لا ريب في انكم معتوهين . لم لا ترسلون اشارتكم بالرموز ؟ » (كتاب القرارات القدرية ـ اعداد سيمور فريدين وويليام ويتشاردسون) .

٢٤

تحوّل التيّار

اعتقد هتلر عندما هلّ خريف عام ١٩٤١ ان روسيا قد انتهت ...

ففي غضون الاسابيع الثلاثة الأولى من بدء العمليات الحربية تمكنت مجموعة جيوش الوسط التي يقودها المشير فون بوك والمؤلفة من ثلاثين فرقة مشاة وخمس عشرة فرقة مدرعة أو آلية ، من الاندفاع مسافة اربعمائة وخمسين ميلاً من بياليستوك الى سمولنسك . وباتت موسكو على بعد مائتي ميل فقط نحو الشرق على الطريق الرئيسية التي سار عليها نابوليون في عام ١٨١٢ . وكانت مجموعة جيوش الشمال بقيادة المشير فون ليب والمؤلفة من احدى وعشرين فرقة مشاة وست فرق مدرعة ، تتحرك في الوقت نفسه عبر دول البلطيق باتجاه لينغراد وفي الجنوب كانت مجموعة جيوش المشير فون رونشتادت المؤلفة من خمس وعشرين فرقة مشاة واربع فرق آلية ، واربع فرق جبلية وخمس فرق مدرعة ، تتقدم نحو نهر الدنيبر ومدينة كييف عاصمة اوكرانيا الخصبة ، التي يتشهاها هتلر ويطمع فيها .

وكان الزحف الألماني يسير وفق الخطة المرسومة كما ذكر بلاغ القيادة العليا للقوات المسلحة على طول جبهة تمتد الف ميل من البلطيق حتى البحر الاسود . وكان الديكتاتور النازي واثقاً كل الثقة من ان هذا الزحف سيستمر على هذه

الدرجة من السرعة لا سيما وان الجيوش السوفياتية تطوّق واحداً إثر آخر ، أو تُشَتّت بصورة مستمرة ، حتى انه اصدر في الرابع عشر من تموز أي بعد نحو ثلاثة اسابيع من بدء الغزو ، توجيهاً يقول ان في الامكان « تخفيض قوة الجيش في المستقبل القريب الى حدٍ كبير » ، وينصح بالتركيز في الانتاج الحربي على السفن الحربية . وطائرات السلاح الجوي ، ولا سيما الاخيرة ، للمضي في الحرب ضد بريطانيا ، العدو الاخير الباقي ، وضد « امريكا اذا اقتضت الضرورة محاربتها [١] » . واوعز في نهاية شهر ايلول الى القيادة العليا ، بإعداد العدة لتسريح اربعين فرقة من فرق المشاة حتى يكون في الامكان استخدام افرادها كيد عاملة اضافية في الصناعة . [٢]

وبدا لهتلر ان مدينتي روسيا العظيمتين ، لينينغراد التي بناها بطرس الاكبر عاصمة له على بحر البلطيق ، وموسكو العاصمة القديمة وعاصمة البلاشفة حالياً ، قد باتتا وشيكتي السقوط في يديه . وراح في الثامن عشر من ايلول يصدر اوامر صارمة « بعدم قبول استسلام لينينغراد أو موسكو ، حتى ولو عرض تسليمها » [٣] واوضح ما يرى وقوعه بالنسبة اليها في التوجيه الذي اصدره قادته العسكريين في التاسع والعشرين من ايلول :

« قرر الفوهرر وجوب زوال سان بطرسبرغ (لينينغراد) من خريطة الوجود . وعندما تنتهي روسيا، لا تعود هناك اهمية لوجود هذه المدينة الكبيرة .

« ويرى الفوهرر وجوب الاطباق على المدينة وتحويلها الى انقاض بقذائف المدفعية وقنابل الطائرات المغيرة ...

« وهو يطلب انه في حالة احتلال المدينة يجب هدمها ، اذ لا

---

١ ـ المؤامرة النازية والعدوان (٦) ص ٩٠٥ ـ ٩٠٦ . ويوجد النص الكامل باللغة الالمانية في «محاكمات كبار مجرمي الحرب» (٣٤) ص ٢٩٨ ـ ٣٠٢ .

٢ ـ تقرير هولدر (عرضت صورة منه في نورمبرغ)

٣ ـ المؤامرة النازية والعدوان (٦) ص ٩٢٩ .

يمكننا وليس من واجبنا ان نحل مشكلة الابقاء على السكان او تزويدهم بالغذاء اللازم . وليست لنا مصلحة في حرب الوجود التي نخوضها الآن ، في الحفاظ حتى على قسم من سكان هذه المدينة العظيمة [1] » .

وعاد هتلر الى برلين في نفس الاسبوع أي في الثالث من تشرين الأول ، وأعلن في خطاب وجهه الى الشعب الألماني ، انهيار الاتحاد السوفياتي، اذ قال : « انني اعلن اليوم وبدون أي تحفظ ، ان العدو في الشرق قد وقع ، ولن يقدر له ان يقف ثانية ... وتمتد الى ما وراء قواتنا مساحات من الأرض تبلغ ضعف مساحة الرايخ الألماني ، عندما جئت الى الحكم في عام ١٩٣٣ » .

وعندما سقطت اوريل في الثامن من تشرين الاول ، وهي مدينة مهمة للغاية ، الى الجنوب من موسكو في ايدي الالمان ، اوفد هتلر ، رئيس دائرة صحافته اوتوديتريش ، بالطائرة الى برلين ، ليبلغ مراسلي الصحافة العالمية فيها في اليوم التالي ، ان آخر الجيوش السوفياتية المتماسكة وهي جيوش المشير بوديني في الجنوب قد هزمت وشتت شملها ، وان نحواً من ستين الى سبعين فرقة يقودها المشير فورشيلوف قد تم تطويقها في جبهة لينينغراد .

وانهى ديتريش بيانه مختالاً : « لقد انتهت روسيا السوفياتية من جميع النواحي العسكرية . وقد اهيل التراب في الحلم البريطاني في الحرب على جبهتين » .

ولكن هذه التبجحات العلنية من جانب هتلر وديتريش كانت غير ناضجة وسابقة

---

١ ـ المؤامرة النازية والعدوان (٦) ص ٩٣١ ـ قال غورنغ لشيانو بعد بضعة اسابيع من هذا التاريخ .. « سيموت نحو من عشرين او ثلاثين مليونا من الناس في روسيا من الجوع . ولعل من الخير ان يقع هذا ، اذ من الواجب افناء بعض الشعوب . وليس في وسعنا ان نعمل شيئا ، حتى ولو لم نعمل على تحقيق ذلك . ومن الواضح انه اذا كان لا بد للجنس البشري من الموت جوعا ، فان شعبيا هما آخر من يجب ان يموت .. ولقد بدأ الاسرى الروس يأكلون بعضهم البعض في معسكرات اعتقالهم » (اوراق شيانو الدبلوماتية ص ٤٦٤ ، ٤٦٥) .

لأوانها على الاقل [١] . فالروس على الرغم من المباغتة التي ووجهوا بها في الثاني والعشرين من حزيران ، وعلى الرغم مما ادت اليه هذه المباغتة من خسائر فادحة في الرجال والمعدات ، ومن انسحابهم السريع ، ووقوع بعض خيرة جيوشهم في الفخ ، قد شرعوا في تموز يبدون مقامة متزايدة من النوع الذي لم تواجهه القوات الالمانية المسلحة من قبل . وبدأت يوميات هولدر وتقارير بعض قادة الميدان من امثال الفريق غودريان ، الذي كان يقود مجموعة ضخمة من القوات المدرعة في الجبهة الوسطى ، تحمل انباء متفرقة ما لبثت ان تحولت الى انباء حاشدة ، عن وصف القتال العنيف والصمود الروسي اليائس والهجمات المضادة والخسائر البالغة في القوات الالمانية كما في القوات الروسية .

وكتب الفريق بلومينتريت فيما بعد يقول : « ان سلوك القوات الروسية حتى في هذه المعركة (معركة مينسك) مناقض تمام المناقضة لسلوك البولنديين وحتى الحلفاء الغربيين في الهزيمة . فالروس حتى عند تطويقهم ، يثبتون في مواقفهم ويقاتلون بعناد [٢] » . وقد ثبت ان هناك عدداً اكبر من هؤلاء الجنود وكميات أوفر وأحسن من المعدات ، مما تصوره هتلر أو حلم فيه . فهناك فرق سوفياتية جديده كاملة . لم تكن المخابرات الألمانية تعلم عنها شيئاً ، تتوافد باستمرار على ميدان القتال . وكتب هولدر في يوميته بتاريخ الحادي عشر من آب يقول: « أخذ يتضح لنا يوماً بعد يوم، إننا قللنا من تقدير قوة روسيا الهائلة لا على صعيد الاقتصاد والنقل فحسب بل وعلى الصعيد العسكري ايضاً وهذا هو المهم. فلقد قدرنا في البداية قوات روسيا بمائتي فرقة، وها نحن نواجه حتى

---

١ ـ لكن هذا الافتقار الى النضوج والسبق للاوان ، لم يكن قويا على أي حال ، بحيث يعادل آراء هيئة اركان الحرب الامريكية التي راحت تبلغ الصحفيين الامريكيين والمراسلين في واشنطن في شهر تموز بصورة سرية ان مسألة انهيار الاتحاد السوفياتي باتت قضية اسابيع قليلة . ولذا لم يكن من الغريب ان يصدق الناس في الولايات المتحدة وبريطانيا كما في المانيا وغيرها بيانات هتلر والدكتور هايدريش عن انتهاء الاتحاد السوفياتي في مطلع تشرين الاول .

٢ ـ مقال للفريق بلومينتريت في كتاب « القرارات القدرية » من اعداد سيمور فريدير ووليام ريتشاردسون ، ص ٥٧ .

الآن (٣٦٠) فرقة . ونحن لا نكاد نحطم عشر فرق روسية، حتى يقذف الروس بعشر فرق أخرى . وهكذا باتت جبهتنا مفتقرة الى الكثافة على هذا المدى الفسيح . فليس في جبهتنا أي عمق . وهذا يؤدي الى نجاح هجمات العدو المتكررة في كثير من الأحايين » . وقال رونشتادت بصراحة لمحققي الحلفاء بعد الحرب : « ماكدنا نبدأ الهجوم ، حتى أدركت ان كل ما كتب عن روسيا ، لم يكن أكثر من مجرد هراء » .

وخلّف عدد من الفرقاء وبينهم غودريان وبلومنتريت وسيب ديتريش ، تقارير تعرب عن دهشتهم عندما واجهوا لأول مرة الدبابات الروسية (ت٣٤) التي لم يكونوا قد سمعوا عنها من قبل والتي كانت مصفحة بشكل قوي الى الحد الذي لا تؤثر فيه قذائف المدافع الألمانية المضادة للدبابات . وقال بلومنتريت فيما بعد انظهور هذه الدبابة قد رمز الى بداية ما باتيدعى « بارهاب الدبابات». ولأول مرة في الحرب ، لم يتمتع الألمان بمزية التفوق الجوي الهائل لحماية قواتهم الأرضية ، وللقيام بأعمال الاستطلاع أمامها . فعلى الرغم من الخسائر الفادحة التي منيت بها الطائرات السوفياتية على الأرض في اليوم الاول من الحملة ، وفي معارك الايام الاولى ، ظلت أسراب جديدة من الطائرات المحاربة السوفياتية تظهر يوماً بعد آخر ، كالفرق الجديدة ، دون ان يعرف الالمان المكانالذي تأتي منه . يضاف إلى هذا ان سرعة الزحف الألماني ، وافتقار روسيا الى المطارات الصالحة ، قد حتم بقاء قواعد المقاتلات الالمانية بعيدة الى الوراء بحيث لم تعد نافعة في تقديم الغطاء الكافي الى الجبهة . وقال الفريق فون كلايست فيما بعد : « ولقد تعطلت قواتي المدرعة في مراحل عدة من الزحف ، عن التقدم بسبب الافتقار الى الغطاء الجوي » [١] .

وهناك خطأ الماني آخر في حساباتهم عن الروس ، وقد ذكره كلايست للمؤرخ ليدل هارت ، وقد شاركهم فيه بالطبع في ذلك الصيف الكثيرون من الناس

---

١ ــ ليدل هارت ــ الفرقاء الالمان يتكلمون ص ١٤٧

في الغرب .

فلقد قال كلايست : « لقد تركزت آمالنا في النصر الى حد كبير على توقعنا ان يؤدي الغزو الى اضطراب سياسي في روسيا ... وقد أقيمت آمال كثيرة على الاعتقاد القائل بأن الشعب الروسي سيثور على ستالين إذا مني بخسائر جسام وهزائم قاسية . وكان مستشارو الفوهرر السياسيون هم الذين قووا هذا الاعتقاد »[1] .

وكان هتلر قد قال بالفعل ليودل : « لسنا في حاجة الى اكثر من القرع على الباب ، وسرعان ما سينهار جميع البناء المتعفّن وراءه » .

وبدت للفوهرر فرصة « قرع الباب » وكأنها قد اجتازت نصف الطريق بنجاح في شهر تموز ، مما أدى الى وقوع أول الخلافات العظيمة في موضوع الخطط السوقية في القيادة العليا الالمانية والى اتخاذ الفوهرر قراراً تحدى فيه احتجاجات معظم كبار القـادة ووصفه هولدر بأنه كان « اكبر الاخطاء السوقية في الحملة الشرقية كلها » . وكانت القضية بسيطة ولكنها جوهرية . فهل تواصل مجموعة جيوش الوسط بقيادة المشير بوك . وهي اقوى مجموعات الجيوش الالمانية الثلاث واكثرها نجاحاً حتى الآن اندفاعها من سمولنسك التي وصلتها في السادس عشر من تموز عبر المائتي ميل التي مازالت تفصلها عن موسكو ، أو هل تتمسك القيادة بالخطة الاصلية التي وضعها هتلر في توجيه الثامن عشر من كانون الاول الماضي والتي تقضي بالاندفاع رئيسياً على الجناحين الشمالي والجنوبي ؟ وبكلمة أخرى هل تكون موسكو هي الهدف الاول أو لينينغراد وأوكرانيا ؟ .

وأصرت القيادة العامة للجيش بزعامة براوختش وهولدر ، يؤيدها بوك الذي كانت مجموعة جيوشه المركزية تتقدم على الطريق الرئيسي باتجاه موسكو ، وكذلك غودريان الذي تتولى قواته المدرعة طليعة هذا الزحف ، على اندفاع هائل وشامل باتجاه العاصمة السوفياتية . وقد استند هؤلاء في رأيهم الى مبررات

---

١ ــ ليدل هارت ــ الفرقاء الالمان يتكلمون ص ١٤٥

كثيرة منها التأكيد على الاهمية النفسية لاحتلال عاصمة العدو . وأشاروا الى هتلر بأن موسكو مركز حيوي من مراكز إنتاج الاسلحة ، كما انها ، وهذا هو المهم ، المركز الرئيسي لاجهزة المواصلات والنقل في روسيا . وأضافوا انه إذا ما تم احتلالها ، فإن السوفيات سيحرمون من مصدر جوهري من مصادر سلاحهم ، كما سيعجزون عن نقل القوات والمؤن الى الجبهات الضعيفة التي ستضعف نتيجة لذلك وتذبل وتنهار .

وكانت هناك حجة أخيرة وحاسمة قدمها الفرقاء الى العريف السابق الذي بات الآن قائدهم الاعلى . فقد دلت جميع تقارير مخابراتهم على ان الروس قد حشدوا قواتهم الرئيسية الآن أمام موسكو ، للدفاع دفاعاً كاملاً وعنيداً عن العاصمة . وقد شرع جيش سوفياتي قوامه نصف مليون رجل ، تمكن من النجاة من الطوق الذي فرضته ذراعا كماشة المشير بوك ، في حفر الخنادق والخطوط المنيعة الى الشرق من سمولنسك للحيلولة دون اندفاع الماني جديد نحو العاصمة . وكتب هولدر في تقرير أعده للحلفاء فور انتهاء الحرب يقول : [1]

« وهكذا كان مركز الثقل للقوات الروسية أمام مجموعة جيوش الوسط....

« وكان قد طلب الى هيئة الأركان العامة ان تركز هدف عملياتها على هزم قوة العدو العسكرية . ولهذا رأت الهيئة ان مهمتها التالية والملحة يجب ان تتركز على هزم قوات تيموشنكو ، عن طريق حشد كل ما يتوافر لها من قوات في مجموعة جيوش الوسط ، وان تزحف بقواتها على موسكو ، لاحتلال مركز ثقل مقاومة العدو ، وتحطيم تشكيلات العدو الجديدة . وتحتم تنفيذ الحشد اللازم لهذا الهجوم في اسرع وقت ممكن نظراً لتقدم أشهر الصيف من نهايتها. وكان على مجموعة جيوش الشمال في غضون ذلك ان تحقق مهمتها

---

١ – تقرير هولدر .

الأساسية وان تحاول الاتصال بالفنلنديين . وتحتم على مجموعة جيوش الجنوب ان تتقدم نحو الشرق ، لتجميد اكثر ما يمكن من قوات العدو .

« وعندما انتهت المحادثات الشفوية بين هيئة أركان الجيش والقيادة العليا للقوات المسلحة الى الفشل ، قدم القائد العام للجيش (براوختش) مذكرة من هيئة الاركان العامة الى هتلر » .

ونحن نعرف الآن من يوميات هولدر أن هذه المذكرة قد قدمت في الثامن عشر من آب . ويقول هولدر : « وكانت ثمرة المذكرة انفجاراً عنيفاً » . فقد ركز هتلر عينيه الجائعتين على أراضي اوكرانيا الخصبة اللازمة للغذاء ومناطقها الصناعية و كذلك على حقول الزيت الروسي التي تقع وراءها في القفقاس. ورأى بالإضافة الى ذلك ، ان فرصة ذهبية قد لاحت أمامه لإيقاع جيوش بوديني إلى الشرق من الدنيبر وراء كييف في الفخ ، لا سيما وان هذه المدينة كانت لا تزال صامدة . وكان يريد ايضاً احتلال لينتغراد ، والاتصال مع الفنلنديين في الشمال. ولتحقيق هذا الهدف المزدوج ، كان من الضروري نقل عـــدد من فرق المشاة والفرق المدرعة من جبهة جيوش الوسط وإرسالها الى الشمال ، وبصورة خاصة الى الجنوب . أما موسكو ففي وسعها ان تنتظر .

وراح هتلر في الواحد والعشرين من آب يهاجم هيئة أركان حربه الثـــائرة بتوجيه جديد . وقد نقل هولدر نص هذا التوجيه بكامله في يوميته للنهارالتالي، وهذا بعض ما جاء فيه :

« لا تتفق اقتراحات الجيش عن سير العمليات في الشرق مع نواياي ...

« ان الهدف الأساسي الذي أسعى لتحقيقه قبل حلول الشتاء ، هو احتلال القرم ومناطق الصناعة ومنـــاجم الفحم في حوض الدونتس وقطع تموينات الزيت من القفقاس عن الجيوش الروسية ، ولا أرى ان هذا الهدف هو احتلال موسكو . أما هدفنا في الشمال

فحصر لينينغراد والاتصال مع الفنلنديين ... »

وأضاف هتلر في توجيهه ان من الواجب تحطيم الجيش السوفياتي الخامس في حوض الدنيبر في الجنوب ، والذي أزعجت مقاومته الحرون هتلر أشد ازعاج أياماً عدة ، تحطيماً كاملاً ، كما يجب احتلال اوكرانيا والقرم وتطويق لينينغراد وتأمين الاتصال مع الفنلنديين . وانهى توجيهه قائلا : « واذا تحققت هـــذه الأهداف ، اصبح في الإمكان خلق الأوضاع اللازمة للهجوم على جيش تيموشنكو وهزمه بنجاح » . وعلق هولدر بمرارة على هذا التوجيه قائلاً :

« وهكذا أصبح الهدف في هزم الجيوش الروسية أمام موسكو هزماً حاسماً ، أمراً ثانوياً بالنسبة الى الاستيلاء على المناطق الصناعية المهمة والتقدم باتجاه الزيت الروسي ... وبات هتلر الآن واقعاً تحت سيطرة الفكرة القائلة بالاستيلاء على مدينتي لينينغراد وستالينغراد ، إذ انه اقنع نفسه بأن سقوط « هاتين المدينتين المقدستين عند الشيوعية » سيؤدي الى انهيار روسيا » .

وأراد هتلر ان يضيف الاهانة الى الأذى ، في حديثه الى مشيريه وفرقائه الذين خالفه الرأي ولم يقدّروا عبقريته السوقية ، فبعث بما أسماه هولدر « بالمذكرة المضادة » – أي لمذكرة الجيش في الثـامن عشر – وهي مذكرة وصفها رئيس هيئة أركان الحرب بأنها « حاشدة بالاهانات » كقولها ان القيادة العليا للجيش مكتظة « بالأدمغة المتحجرة ، التي تجمّدت فيها نظريات منسوخة فات وقتها » .

وراح هولدر ينفث في يوميته في النهار التالي ما يعتور في نفسه من مشاعر السخط والغضب قائلاً : « هذا أمر لا يطاق ! ولم يسمع من قبل ! . لقد تجاوز الحدود » . وراح يتشاور بعد ظهر ذلك اليوم وعشيته مع المشيرفون براوختش في موضوع تدخل الفوهرر « الذي لا يمكن قبوله » في أعمال قيادة الجيش العامة وأركان حربها ، مقترحاً في النهاية ان يقدم هو وقائد الجيش استقالتيهما . ودوّن هولدر في يومياته : « ولكن براوختش رفض هذا الاقتراح قائلاً انه لا عملي ، ولن يغيّر من واقع الأمر شيئاً . » وهكذا استسلم المشير الجبان مرة ثانية ،

كما استسلم مرات عدة من قبل ، لإرادة الرجل الذي كان عريفاً في وقت ما .

وعندما جاء الفريق غودريان قائد المدرعات المتألم الى مقر قيادة الفوهرر في اليوم التالي ، أي الثالث والعشرين من آب ، لقي هولدر الذي حثه ، مع انه لا يحتاج الى حث ، على ان يحاول التحدث الى هتلر وحمله على العدول عن قراره المفجع ، ولكنه ما لبث ان قابل براوختش قائده العام الذي بادره قائلاً : « انني أمنعك من أن تذكر موضوع موسكو للفوهرر . لقد أصدرنا أمرنا ببدء العملية في الجنوب . وباتت المشكلة الآن مجرد تنفيذ ليس إلا . ولذا لم تعد للنقاش أية فائدة » .

ومع ذلك ، عندما أدخل غودريان على الفوهرر ، ولم يرافقه في المقابلة براوختش او هولدر ، عصى أوامر قائده ، وراح يجادل الزعيم بأقوى ما لديه من حجّة محاولاً اقناعه بالهجوم الفوري على موسكو ... وقد دوّن فيما بعد ما جرى قائلاً :

« سمح لي هتلر بالكلام حتى النهاية ، وراح يشرح لي بعد ذلك باسهاب الاعتبارات التي دفعته الى اتخاذ قرار مغاير . وقال ان مواد أوكرانيا الأولية ومواردها الزراعية ، ضرورية للغاية لاستمرار الحرب في المستقبل . وتحدث عن ضرورة تجميد القرم والخلاص من خطرها ناعتاً إياها « بحاملة الطائرات السوفياتية التي تصلح لمهاجمة حقول الزيت في رومانيا » . وسمعته يستعمل لأول مرة عبارة : « ان فرقائي لا يعرفون شيئاً عن النواحي الاقتصادية للحرب » .. وكان قد أصدر أوامر صارمة ، بأن يكون الهجوم على كييف هو الهدف السوقي الفوري ، وان تدور جميع الأعمال العسكرية حول هذه الفكرة الرئيسية . ورأيت هنا للمرة الأولى ، منظراً قدر لي فيما بعد ان أراه يتكرر باستمرار ... فقد أبصرت بالحاضرين جميعاً من أمثال كايتل ويودل وغيرهما ، يحنون رؤوسهم موافقين على كل عبارة تصدر عن هتلر ، بينما ظللت وحدي ، لا يؤيدني انسان في

وجهة نظري ... »[١] .

ولكن هولدر لم يحن رأسه موافقاً ولا مرة واحدة في المناقشات السابقة . وعندما اجتمع اليه غودريان في اليوم التالي ، لينقل اليه فشله في حمل هتلر على تغيير رأيه ، ذكر هذا ان رئيس هيئة أركان الحرب « اصيب لدهشتي بانهيار عصبي كامل ، حمله على ان يتفوه باتهامات وشتائم ، ليس لها مايبررها مطلقاً »[٢].

كانت هذه أعنف أزمة مرت بها القيادة العسكرية العليا الألمانية منذ بداية الحرب. ولكن أزمات أخرى أشد منها عنفاً ما لبثت ان توالت في ايام المحنة .

وتحقق لهجوم رونشتادت في الجنوب ، بعد ان تلقى النجدات من قوات غودريان المدرعة ومن فرق المشاة التي تم سحبها من الجبهة الوسطى ، النجاح الذي وصفه غودريان نفسه بأنه « نصر تعبوي – تكتيكي – عظيم » . وسقطت كييف في أيدي الالمان في التاسع عشر من ايلول ، بعد ان كانت الوحدات الالمانية قد توغلت مسافة مائة وخمسين ميلاً وراءها ، وانتهت معركة كييف في السادس والعشرين من ايلول بتطويق جيش روسي ضخم استسلم من أفراده حسب ادعاء الألمان نحو من (٦٦٥) الف أسير . وكانت هذه المعركة بالنسبة الى هتلر « أعظم معركة في تاريخ الحرب » ، ولكن على الرغم من روعة نتائجها ، فإن بعض قادته العسكريين ظلوا على تشككهم في أهميتها السوقية ، وأرغمت مجموعة جيوش بوك المفتقرة الى المدرعات على الجمود مدة شهرين على خط نهر « ديزنا » الواقع الى ما وراء سمولنسك . وكانت أمطار الخريف التي ستحيل الطرقات الروسية الى حمآت من الوحل ، تقترب يوماً بعد يوم . وسيعقب الشتاء ببرده

---

١ – هاينز غودريان – قائد الدبابات – ص ١٥٩ – ١٦٢ .

٢ – يقدم هولدر في يومينه بتاريخ الرابع والعشرين من آب ، رواية اخرى مخالفة لهذه الرواية . فهو يتهم غودريان « بالافتقار الى الشعور بالمسؤولية » وبتبديل فكره بعد مقابله هتلر ، ويسخر منه قائلا ان من الصعب ان يحاول المرء تغيير طبيعة اخر . واذا صح ما زعمه غودريان من انه قد « اصيب بانهيار عصبي » ، فان تدويناته المتعالمة في يومياته لذلك اليوم تشير الى انه قد شفي من اصابته بسرعة .

وثلوجه هذه الأمطار .

الزحف العظيم على موسكو

وافق هتلر ، وهو برم ، على إلحـــاف براوختش وهولدر وبورك ، وأمر استئناف الزحف على موسكو ، ولكن بعد فوات الأوان . وقد اجتمع إليه هولدر بعد ظهر الخامس من ايلول ، وكان الفوهرر بعد أن حزم أمره ، قد بات على عجلة من أمره للوصول الى الكرملين . وراح يوجه اليه أمره قاقلاً : «لتبدأوا الهجوم في الجبهة الوسطى بعد ثمانية ايام أو عشرة » . (ودوّن هولدر في يومياته « هذا مستحيل ») . وأضاف هتلر قائلاً : « طوقوهم واضربوهم وحطموهم » . ووعد بأن يعيد الى الجبهة الوسطى ، مجموعة غودريان المدرعة التي كانت لا تزال تخوض معركة عنيفة في اوكرانيا وان يضيف إليها لواء رينهاردت المدرع الذي سيسحبه من جبهة لينتغراد . ولكن لم يكن بالامكان إعادة القوات المدرعة واصلاحها وتجهيزها واعدادها للمعركة قبل مطلع تشرين الأول . وشنّ الهجوم العظيم أخيراً في الثاني من تشرين الأول . وأطلق عليه الاسم الرمزي « أعاصير » وقد تقرر ان تنزل بالروس زوابع قوية أشبه بالعواصف الدوارة والأعاصير ، وان تحطم آخر ما تبقى لديهم من قوات محاربة أمام موسكو ، وان تؤدي الى انهيار الاتحاد السوفياتي .

ولكن الديكتاتور النازي وقع من جديد فريسة عُظامه (جنون العظمة) . ولم يكن ليكتفي بالاستيلاء على العاصمة الروسية قبل حلول الشتاء ، فقد أصدر أوامره الى المشير فون ليب في الشمال، بأن يستولي على لينتغراد في نفس الوقت وان يتصل بالفنلنديين وراء المدينة ، ثم يزحف لقطع سكة حديد مورمانسك . وأمر رونشتادت في الوقت ذاته بأن يطهر سواحـــل البحر الأسود الشمالية ويحتـــل روستوف ويضع يده على حقول الزيت في ميكوب وان يندفع الى ستالينغراد على نهر الفولغا ليقطع آخر اتصال بين ستالين والقفقاس . وعندما

حاول ررنشتادت ان يوضح له ان تنفيذ أوامره يعني التقدم نحو اربعمائة ميل الى ما وراء نهر الدنيبر مع بقاء جناحه الأيسر مكشوفاً ومعرضاً للخطر ، رد عليه القائد الأعلى ، بأن الروس في الجنوب باتوا عاجزين عن ابداء أية مقاومة جدية . وسرعان ما وجد رونشتادت الذي يقول انه « ضحك عالياً » من هذه الأوامر المضحكة ، عكس ما كان يقول له زعيمه .

واتصف الزحف الألماني على الطريق التي استخدمها نابوليون في هجومه على موسكو ، في مستهله بسرعة «الأعاصير» فعلاً وهوجها . ففي الأسبوعين الأولين من تشرين الأول ، تمكن الالمان في المعركة التي أطلق عليها بلومنتريت فيما بعد اسم « معركة للدرس » ، من تطويق جيشين سوفياتيين بين فيازما وبريانسك ، وادعوا أسر (٦٥٠) الف جندي روسي والاستيلاء على خمسة آلاف مدفع وألف ومائتي دبابة . ولم يحل اليوم العشرون من تشرين الأول حتى كان الألمان قد باتوا على بعد اربعين ميلاً من موسكو ، وكانت الوزارات السوفياتية والسفارات الاجنبية تجلو بسرعة عنها الى كويبشيف على نهر الفولغا . وقد اعتقد حتى هولدر العاقل الرصين ، الذي كان الآن قد سقط عن جواده و كسر عظم ترقوته ، فأدخل المستشفى للمعالجة ، ان في امكان القوات الالمانية إذا توافرت لها القيادة الجريئة ، والطقس الحسن ان تحتل موسكو قبل حلول فصل الشتاء السيىء .

وكانت أمطار الخريف قد بدأت على أي حال في السقوط وحلت فترة انتشار الوحول « راسبوتيتزا» . وكثيراً ما اضطر الجيش اللجب ، المتحرك على عجلات آلية الى ابطاء حركته والتوقف عن الزحف احياناً . وكثيراً ما أرغمت القيادة على سحب الدبابات في المعارك لجر المدافع وشاحنات الذخيرة وإخراجها من الوحول . وكانت الجيوش تفتقر الى السلاسل والموثّقات (التعشيقات في الميكانيك) اللازمة لاداء هذا العمل بالاضافة الى ان حزم الحبال كانت تقذف بها طائرات النقل لاستعمالها لرفع التموينات العسكرية الأخرى من أماكنها . وقد بدأت الأمطار تنهمر في أواسط شهر تشرين الأول . وقد روى غودريان فيما بعد معتمداً على ذكرياته : « ان الأوحال ظلت العامل المسيطر في

الأسابيع القليلةالتالية » . وقد وصف الفريق بلومنتريت رئيس أركان حرب جيش المشير فون كلوغه الرابع ، وهو الجيش الذي تولى خوض معمعة معركة موسكو ، هذا الوضع بوضوح إذ قال :

« يخوض جندي المشاة في الوحول ، وكثيراً ماتزل به قدماه ، بينما تحتاج الوحدات الى اعداد ضخمة من الجياد لجر كل مدفع الى الامام . وتغطس جميع العربات ذات العجلات حتى محاور دواليبها (وناقلها) في الوحول . وحتى الجرارات لا تستطيع حراكاً إلا بمنتهى الصعوبة . وسرعان ما تجمدت اعداد ضخمة كبيرة من مدافعنا الثقيلة وتوقفت عن الحركة ... وفي وسع الانسان ان يتصور العناء الذي واجهته قواتنا المجهدة من جراء هذا الوضع ».[1]

وسرعان ما تسللت لأول مرة الى يوميات هولدر وتقارير غودريان وبلومنتريت وغيرهما من الفرقاء الالمان علائم الشك الذي تحوّل الى يأس . وانتقلت هذه المخاوف الى صغارالضباط وجنود الميدان ، أو انها نبعت منهم. وعاد بلومنتريت بذاكرته الى تلك الأيام فقال : « وهكذا عندما غدت موسكو على مرمى الأبصار من قواتنا ، بدأت الحالة النفسية عند قادتنا وجنودنا في التبدل . وقد أخذت مقاومة العدو تشتد ، وأصبح القتال أكثر عنفاً ومرارة .. وهبط عدد الجنود في كثير من سرايانا الى الستين والسبعين جندياً » . وكان هناك نقص في المدافع الصالحة للعمل والدبابات . ويمضي القائد قائلاً : « وأصبح الشتاء على الأبواب ، ولكن لم تكن ثمة علامة على وصول ملابس الشتاء إلينا ... وبدأت أولى وحدات « الأنصار » تعمل وتثبت وجودها وراء الجبهة ، في الغابات الشاسعة والمستنقعات . وكثيراً ما تعرضت أرتال التموين للكمائن التي ينصبها هؤلاء الأنصار ... »

وراح بلومنتريت يتذكر الآن أشباح جنود جيش نابليون الأعظم ، الذين

---

١ ـ مقال بلومنتريت ٩ كتاب « القررات القدرية » ص ٦٦ .

كانوا قد ساروا على نفس هذا الطريق من قبل . وبدأت ذكريات مصير نابوليون تؤرق على الغزاة النازيين مضاجعهم . وأخذ الفرقاء الألمان يقرأون أو يعيدون قراءة ما كتبه كولينكورت من وصف قاتم عن الشتاء المفجع الذي قضاه الفاتح الفرنسي في روسيا في عام ١٨١٢ .

والى الجنوب ، حيث الطقس لا يزال اكثر دفئاً ، وان كانت الأمطار والوحول لا تقل هناك سوءاً عن الشمال ، لم تكن الأمور تسير كذلك سيراً مرضياً . فقد دخلت دبابات كلايست مدينة روستوف الواقعة على مصب نهر الدون في الواحد والعشرين من تشرين الثاني بين قرع الطبول الذي دوّت به دعاية غوبلز ، هاتفة بأن « بوابة القفقاس » قد غدت مفتوحة أمام الألمان . ولكن هذه «البوابة» لم تظل مفتوحة أمداً طويلاً . فقد أدرك كل من كلايست ورونشتادت ان من المحال الاحتفاظ بروستوف وحدها . ولم تمض خمسة ايام حتى كان الروس يستعيدونها وحتى كان الألمان الذين يتعرضون للهجوم من جناحي الشمال والجنوب يتقهقرون متراجعين بسرعة خمسين ميلاً الى نهر ميوس ، حيث أراد كلايست ورونشتادت في البداية ان يقيموا خطهم للشتاء .

ويعتبر التراجع من روستوف نقطة تحول أخرى في تاريخ الرايخ الثالث . فلقد كانت هذه هي المرة الأولى التي يمنى بها أي جيش نازي بنكسة خطيرة وعلق غودريان فيما بعد بقوله : « لقد بدأت مصائبنا في روستوف ... وكان هذا ما سطر لنا في كتاب القدر » . وقد كلفت هذه النكسة المشير فون رونشتادت ، الضابط الاكبر في الجيش الالماني قيادته . وروى القائد فيما بعد للمحققين في نورمبرغ انه عندما كان يتراجع نحو نهر ميوس :

« جاءني أمر مفاجىء من الفوهرر يقول : « لا تقهقر شعرة واحدة . وظل في المكان الذي انت فيه . ورحت أبرق له على التو قائلاً : « انه جنون مطبق ان نحاول الصمود في مكاننا . فمن الناحية الاولى لا يستطيع الجنود ان يصمدوا ، وحتى ولو صمدوا ، ولم يتراجعوا فإنهم سيلقون الدمار . وانني أكرر طلبي بسحب هذا

الامر ، فإذا تعذر ذلك ، أرجو ان تعثروا على قائد آخر » .

ووصل رد الفوهرر في تلك الليلة نفسها وهو يقول : «لقد استجبت لرغبتك . ارجو ان تسلم قيادتك لخلفك » ويمضي رونشتادت قائلاً : « وعلى الاثر ذهبت الى بيتي [1] » .

وقد يكون هذا الجنون في اصدار الامر الى القوات البعيدة بالصمود حيث هي ، مهما كان الخطر الذي تتعرض له قد أنقذ الجيش الالماني من الانهيار الكامل في الاشهر المحطمة التالية ، على الرغم من أن كثيرين من الفرقاء يعارضون هذا الرأي ، إلا انه أدى حتماً الى كارثة ستالينغراد والى الكوارث الاخرى التي قررت مصير هتلر .

وحلت ثلوج الشتاء وبرودة الطقس التي تهبط عن الصفر بسرعة في ذلك الشتاء في روسيا . وقد لاحظ غودريان تساقط الثلج ليلة السادس – السابع من تشرين

---

١ – استجواب رونشتادت في عام ١٩٤٥ . نقل وقائعه شولمان في كتابه « الهزيمة في الغرب » ص ٦٨ – ٦٩ . وقد دون هولدر في يوميته بتاريخ الثلاثين من تشرين الثاني يصف تراجع رونشتادت الى نهر ميوس وقرار هتلر باقالة المشير يقول : « كان الفوهرر في هياج متناه في الغلو » ... ثم مضى يقول : « واستدعى الفوهرر براوختش وكال له التوبيخ واللوم ، والاهانات » وكان هولدر قد بدأ يوميته لذلك اليوم معددا ارقام الخسائر الالمانية حتى السادس والعشرين من تشرين الثاني وقال : بلغ مجموع الخسائر في جيوش الشرق دون حساب المرضى (٧٤٣،١١٢) بين ضابط وجندي أي نحوا من (٢٣) في المائة من مجموع القوة التي يبلغ تعدادها ثلاثة ملايين ومائتي الف .

وسجل هولدر في الاول من كانون الاول حلول رايخناو محل رونشتادت وكان الاول لا يزال يقود الجيش السادس الذي سبق له ان قاده في فرنسا والذي كان يجتاز الآن محنة عصيبة الى الشمال من فرق كلايست المدرعة التي كانت تواصل انسحابها من روستوف .

ودون هولدر قائلا : « واتصل رايخناو بالفوهرر هاتفيا يسأله بالانسحاب الليلة الى خط ميوس . وقد سمح له الفوهرر بالانسحاب . وهكذا وصلنا اليوم الى ما كان علينا ان نصل اليه بالامس . ولكننا اضعنا وقتا وقوة وضحينا برونشتادت . » ثم اضاف قائلا : « ما زالت صحة براوختش تدعو الى القلق من جراء الهياج العصبي المستمر » . وسجل هولدر في العاشر من تشرين الثاني ان قائد الجيش العام اصيب بنوبة قلبية حادة .

الأول ، أي في نفس اللحظة التي استؤنف فيها الزحف على موسكو. وقد ذكره هطول الثلج بواجبه في ان يطلب الى القيادة العامة تزويده بملابس الشتاء ولا سيما الأحذية الثقيلة العالية والجوارب الصوفية الثقيلة . وقد سجل في الثاني عشر من تشرين الأول ان الثلج كان لا يزال يتساقط . وفي الثالث من تشرين الثاني، هبّت أول موجة من البرد والصقيع ، وهبطت درجة الحرارة الى ما تحت نقطة التجمد ثم استمرت في الهبوط . وفي السابع من الشهر روى غودريان وقوع أول حادثة من حوادث « عضة البرد » بين جنوده ، كما روى ان درجة الحرارة هبطت في الثالث عشر الى الثامنة تحت الصفر فهرنهايت ، وان الجنود أخذوا يعانون الأهوال من الافتقار الى ملابس الشتاء . وأثر البرد القارس على المدافع وعلى الآلات ايضاً . وكتب غودريان يقول :

« يسبب لنا الصقيع الكثير من المتاعب ، لا سيما وان « القير » اللازم لطرق الدبابات لم يصل بعد . وأدت شدة البرد الى عدم الإفادة من المناظر المقرابية (التلسكوبية) . وكنا نحتاج الى ايقاد النيران لنتمكن من ادارة الآلات في الدبابات . وكثيراً ما تجمد الوقود ، أما الزيت فقد بات لزجاً .وخسر كل فوج من أفواج الفرقة (١١٢) من فرق المشاة نحواً من خمسمائة رجل من جراء « عضة البرد » .وباتت المدافع الرشاشة عاجزة عن الاطلاق من جراء البرد ، كما برهنت مدافعنا المضادة للطائرات من عيار (٣٧) مليمتراً على انها غير مجدية مع دبابات (ت ٣٤) الروسية » .[١]

ويقول غودريان « ان النتيجة كانت انتشار الهلع الذي امتد حتى وصل الى بوغورودسك . وكانت هذه هي المرة الاولى التي يقع فيها مثل هذا الأمر إبان الحملة الروسية ، كما كانت بمثابة تحذير من ان طاقة مشاتنا على القتال كانت قد بلغت نهايتها . »

---

١ ـ غودريان ـ قائد فرق الصاعقة ص ١٨٩ ـ ١٩٠ .

ولكن لم تكن طاقة المشاة وحدها هي التي بلغت حدود نهايتها . ففي الواحد والعشرين من تشرين الثاني دوّن هولدر في يومياته ان غودريان هتف للقيادة ليقول ان قواته المدرعة « قد وصلت حدود طاقتها وانتهت » . ويعترف هذا القائد الصلب الشكيمة وذو الطبيعة العدوانية ، انه كان قد قرر في ذلك النهار زيارة قائد مجموعة جيوش الوسط ، المشير بوك ، ليطلب اليه تغيير الأوامر التي بعث بها اليه إذ انه « عاجز عن ان يرى سبيلاً لتحقيقها » . وكان في حالة كئيبة وانحطاط معنوي ، اذ دوّن في نفس اليوم يقول :

« تجعل برودة الطقس القارصة ، والافتقار الى المأوى ، ونقص الملابس ، والخسارة البالغة في الرجال والمعدات ، والحالة السيئة لتموينات الوقود ، مهمة القائد شاقة بل شقاء ، وكلما طال هذا الوضع ، كلما تحطمت من جراء المسؤوليات الجسام التي أتحملها »[١].

وعندما عاد غودريان بأفكاره فيما بعد الى تلك الأيام كتب يقول :

« ان كل من رأى تلك المتاهات التي لا حدود لها من الثلوج الروسية في ذلك الشتاء الذي علّمنا معنى الشقاء ، وكل من أحس بالرياح المتجلدة التي كانت تهب فوقها ، دافنة بين طيات الثلج كل ما تلقاه في طريقها . وكل من مضى بسيارته ساعة بعد ساعة في هذه الأرض الحرام التي لا يقيم فيها انسان ليعثر بعد رحلته الشاقة على مأوى حقير لا يسد مسغبة ولا يغني فتيلاً ، ويجد فيه بعض الرجال العراة من ملابس الدفء وانصاف الجياع ، ورأى بعد ذلك الجنود السيبريين (الروس) وقد ارتدوا الملابس الدافئة ، وحصلوا على أجود الطعام ، وتدرّعوا بكل ما يلزمهم لقتال الشتاء.. يستطيع حقاً ان يحكم على الاحداث التي وقعت الآن »[٢] .

---

١ ـ غودريان ـ قائد فرق الصاعقة ص ١٩٢

٢ ـ غودريان ـ قائد فرق الصاعقة ص ١٩٤ .

وفي وسعنا الآن ان نسرد هذه الأحداث بإيجاز ، ولكن بعد ان نؤكد نقطة واحدة ، وهي انه على الرغم من اعترافنا بفظاعة الشتاء الروسي ، وبأن الجنود الروس كانوا مهيأين طبعاً لهذا النوع من القتال ، بصورة تفضل تهيئة الألمان لها ، إلا ان العامل الاساسي في كل ما وقع الآن لم يكن الطقس ورداءته ، وإنما كان القتال العنيف الذي خاضته قوات الجيش الاحمر ، وعزيمتها التي لم تهن ولم تضعف على عدم التسليم . ولا ريب في أن يوميات هولدر ، وتقارير قادة الميدان ، التي تتحدث باستمرار عن دهشتها من مـــدى عنف الهجمات والهجمات المضادة الروسية ، وعن يأسها من نكسات الالمان وخسائرهم ، خير دليل على ما أقول . ولم يستطع القادة العسكريون الالمان ان يفهموا لماذا لم يتعرض الروس للانهيار ، كما انهار الفرنسيون وكثيرون غيرهم ، كانت مبرراتهم في الانهيار أقل من مبررات الروس التي تحتل طليعتها طبيعة نظامهم الطاغي والنتائج المفجعة التي انزلتها بهم الضربات الالمانية الاولى .

وكتب بلومنتريت يقول : « وقد اكتشفنا في نهاية تشرين الاول ومطلع تشرين الثـاني ، ونحن في غاية الدهشة وخيبة الامل ، ان الروس المهزومين لم يكونوا يعرفون انهم قد انتهوا من الوجود كقوة عسكرية » . ويتحدث غودريان عن مقابلته لجنرال قيصري متقاعد قديم على مقربة من أوريل في الطريق الى موسكو .. ويروي ان هذا القائد العجوز قاله له :

« لو انـكم جئتم قبل عشرين عاماً لاستقبلناكم بأذرع مفتوحة ، أما الآن فقد فات الأوان . فلقد شرعنا الآن نقف على أقدامنا وها انتم تجيئون وتحاولون إعادتنا عشرين عاماً الى الوراء ، بحيث يتحتم علينا أن نعود الى البداية من جديد وها نحن نحارب الآن في سبيل روسيا ، ونحن جميعاً متحدون في هذا الهدف » [1] .

ومع ذلك ، عندما اقترب تشرين الثاني من نهايته وسط هـــذه الاعاصير

---

١ ــ غودريان ــ قائد فرق الصاعقة ص ١٩١

الثلجية الجديدة . ومن درجات حرارة تقل كثيراً عن الصفر ، ظلت موسكو ، تبدو كأنها باتت في متناول هتلر وقادته العسكريين . وكانت الجيوش الالمانية في شمال العاصمة وجنوبها وغربها قد باتت على بعد عشرين أو ثلاثين ميلاً من هدفها . وبدا لهتلر الذي كان يقف أمام الخريطة في مقر قيادته بعيداً في بروسيا الشرقية ، يتطلع الى ما أمامه ، ان هذه المسافة الباقية لم تعد شيئاً يستحق الذكر . فقد توغلت جيوشه نحواً من خمسمائة ميل ، ولم تبق أمامها إلا هذه الأميال العشرون أو الثلاثون . وراح يقول ليودل في منتصف شهر تشرين الثاني ... « لم تبق أمامنا إلا رمية أخرى أخيرة ، وسنحقق انتصارنا » . وشبه المشير فون بوك قائد مجموعة جيوش الوسط ، الوضع في حديث هاتفي مع الفريق هولدر في الثاني والعشرين من تشرين الثاني ، بما كان عليه في معركة المارن » « عندما أدى الفوج الأخير الذي قذف في المعركة الى تقرير مصيرها . »قال بوك لرئيس هيئة أركان الحرب انه « يعتقد بامكان تحقيق كل شيء » على الرغم من مقاومة العدو المتزايدة . وعندما حل اليوم الأخير من تشرين الثاني ، كان يقذف في الحقيقة بآخر ما تبقى لديه من أفواج . وتقرر ان يبدأ الهجوم الشامل الأخير على قلب الاتحاد السوفياتي في اليوم التالي الأول من كانون الاول عام ١٩٤١ .

ولكن هذا الهجوم تعثر على مقاومة فولاذية . وكانت آمال هتلر المشرقة قد تركزت على أعظم قوة دبابات سبق لها ان حشدت في تاريخ الحرب في جبهة واحدة . فقد تدفقت دبابات الفيلق الرابع الذي يقوده الفريق هوبنر ودبابات الفيلق الثالث الذي يقوده الفريق هيرمان هوث من شمال العاصمة متجهة نحو الجنوب ، بينما اندفعت قوات الجيش المدرع الثاني الذي يقوده غودريان من جنوب العاصمة ، أي من بلدة تولا باتجاه الشمال . وأخذت دبابات الجيش الرابع الضخم الذي يقوده كلوغه تشق طريقها في الوسط متجهة شرقاً نحو العاصمة عبر الغابات التي تحيط بها . وتمكن فوج استطلاع من فرقة المشاة (٢٥٨) من النفاذ في الثاني من كانون الاول الى « خيمكي » إحدى ضواحي موسكو ،

واصبح رجاله على مرأى من قباب الكرملين ، ولكن ما عتم ان طرد منها في الصباح التالي ، على ايدي بعض الدبابات الروسية وقوة مختلطة تم تشكيلها على جناح السرعة من عمال مصانع المدينة . وكانت هذه اقرب نقطة من موسكو استطاع الجنود الألمان الوصول اليها ، وكانت المرة الأولى والاخيرة التي وقعت فيها أنظارهم على الكرملين .

ولم يحل مساء اليوم الأول من كانون الأول ، حتى كان بوك ، الذي يعاني من آلام قاسية في معدته ، قد هتف الى هولدر ليقول له انه بات عاجزاً عن متابعة الهجوم بقواته الضعيفة . وحاول رئيس هيئة اركان الحرب ان ينعش معنوياته فقال له : « على المرء ان يحاول ارغام العدو على الركوع بآخر مجهود يبذله . فإذا ما ثبتت استحالة ذلك، بات لزاماً علينا ان نصل الى استنتاجات جديدة». وراح هولدر يدوّن في اليوم التالي في يوميته : «وصلت مقاومة العدو ذروتها ». وعاد بوك الى الهاتف في اليوم التالي أي الثالث من كانون الأول ليتحدث عن طريقه الى رئيس هيئة اركان الحرب الذي دوّن رسالته في يومياته :

« اضطرت رؤوس اندفاع الجيش الرابع الى التراجع ، لأن الجناحين عجزا عن الاندفاع ... وعلينا ان نواجه الآن اللحظة التي تكون فيها قوة رجالنا قد بلغت نهايتها » .

وعندما تحدث بوك للمرة الأولى عن التحول الى الدفاع ، حاول هولدر تذكيره بأن « الاستمرار في الهجوم هو خير وسائل الدفاع » .

ولكن القول كان اسهل بكثير من العمل من جراء عناد الروس وقسوة الطقس . ونقل غودريان في اليوم التالي أي الرابع من كانون الأول ، بعد ان اوقف الروس المحاولة التي قام بها جيشه المدرع الثاني لاحتلال موسكو من الجنوب ، الى القيادة العليا ان درجة الحرارة قد هبطت الى الاحدى والثلاثين دون الصفر . وعادت فهبطت في اليوم التالي خمس درجات اخرى . وقال أن دباباته « باتت عاجزة عن الحركة » ، وان جناحيه ومؤخرته الى الشمال من تولا ، قد اصبحت كلها معرضة للخطر .

وكان الخامس من كانون الأول ، هو اليوم الحاسم . فقد اوقف الألمان في كل مكان في الجبهة التي تمتد مائتي ميل على شكل نصف دائرة حول موسكو . ولم يحل المساء حتى كان غودريان يبلغ قائده بوك ، ان قواتـــه لم تضطر الى الوقوف فحسب بل باتت مرغمة على التراجع، وراح بوك يهتف الى هولدر ليقول له « ان قوته قد بلغت منتهاها ». بينما ابلغ براوختش رئيس هيئة اركان حربه ، واليأس يقطر من عباراته ، انه قرر الاستقالة من منصبه كقائد عام للجيش . حقاً لقد كان يوماً قاتماً ومراً للفرقاء الألمان . وتذكر غودريان ذلك اليوم الاغبر فيما بعد فكتب يقول :

« كانت هذه هي المرة الأولى التي اجد نفسي مضطراً فيها الى اتخاذ قرار من هذا النوع ، ولم يكن اشقّ علي من هذا القرار ... فلقد تحطم هجومنا على موسكو . وضاعت جميع تضحيات جنودنا البواسل واحتمالهم ، هباء وعبثاً . لقد منينا بهزيمة مؤلمة »[1] .

وادرك بلومنتريت رئيس هيئة اركان حرب جيش كلوغه الرابع، ان نقطة التحول قد أتت . واستذكر تلك الايام فيما بعد ، فكتب عنها يقول : « لقـد انهارت آمالنا في اخراج روسيا من الحرب في عام ١٩٤١ في اللحظة الاخيرة » .

وتحول الفريق الروسي جورجي جوكوف الذي خلف المشير تيموشنكو في قيادة الجبهة الوسطى قبل نحو من ستة أسابيـع الى الهجوم في اليوم التالي ، أي السادس من كانون الاول . واطلق على جبهة تمتد مائتي ميل أمام موسكو سبعة جيوش وفيلقي فرسان ، يبلغ مجموعها كلها مائـــة فرقة تتألف كلها من جنود يدخلون المعركة لأولى مرة أو آخرين مارسوا القتال فيما مضى ، وكلهم مجهزون بأحسن الاسلحة والمعدات ، ومدربون على القتال في مثل هـــذا الطقس البارد والثلوج الكثيفة . وكانت الضربة التي وجهها هذا القائد الذي كان مغموراً حتى هذه اللحظة ، بمثل هذه القوة الضخمة مــن المشاة والمدافع والدبابات والفرسان

---

١ ـ غودريان ـ قائد فرق الصاعقة ص ١٩٩ .

والطائرات التي لم يكن هتلر قـــد تصور لحظة واحدة وجودها ، من العنف والمباغتة الى الحد الذي لم يستفق الجيش الألماني ولا الرايخ الثالث من هوله ابداً . وبدا لعدة ابابيع في غضون ما تبقى من شهر كانون الأول ذاك الشديد البرودة والمرارة ، وفي شهر كانون الثاني ان الجيوش الالمانية المهزومة والمتراجعة ، والتي تتعرض جبهتها باستمرار للاختراق من جانب الروس ، قد تتفسخ في أية لحظة وتباد في الثلوج الروسية ، تماماً كما حدث لجيش نابليون الاعظم قبل نحو من مائة وثلاثين عاماً . وقد اقتربت هذه الجيوش في عدة لحظات حرجة من هذه النهاية . ومن المحتمل ان تكون ارادة هتلر الصخرية وتصميمه الفولاذي همـــا اللذان انقذا جيوش الرايخ الثالث من الكارثة النهائية ، لكن الذي لا شك فيـه ان الفضل في هذا الانقاذ يعود حتماً الى قوة احـــتمال الجندي الألماني وصبره على الأهوال .

لكن الفشل كان ذريعاً . فلقد شلّت الجيوش السوفياتية في الاشهر الماضية ولكنها لم تحطم . ولقد صمدت موسكو كما صمدت لينغراد وستالينغراد ، ولم يتمكن هتلر من احتلال حقول زيت القفقاس وظلت شرايين الحياة الروسية المتصلة ببريطانيا وامريكا من الشمال والجنوب ، مفتوحة لم تقطع . ولأول مرة منذ اكثر من عامين من الانتصارات العسكرية المتلاحقة ، كانت جيوش هتلر تتراجع الآن أمام قوة متفوّقة عليها .

ولم يكن هذا كل شيء . اذ كان الفشل اعظم بكثير . وقـــد ادرك هولدر ذلك وان جاء ادراكه متأخراً . اذ كتب في يومياته يقول : « لقـد تحطمت الاسطورة القائلة بأن الجيش الالماني لا يغلب » . وقـــدر لروسيا ان تشهد انتصارات المانية اخرى عندما عاد الصيف ، ولكن لم تستطع هذه الانتصارات ان تعيد للجيش الالماني تلك الاسطورة . وهكذا يمثل السادس من كانون الاول عام ١٩٤١ ، نقطة تحول أخرى ، في التاريخ القصير للرايخ الثالث ، وكانت ولا شك نقطة تحول قدرية من الدرجة الاولى . لقد وصل سلطان هتلر الى سمته ، ومنذ هذه اللحظة بدأ في الافول ، وقد لفته الضربات المضادة النامية ، مـــن

الشعوب التي اختار هو ان يشن حروبه العدوانية عليها .

* * *

وحدثت الآن تبدلات جذرية في القيادة العليا الالمانية وبين قادة الميدان . اذ لما بدأت الجيوش الالمانية تتراجع على الطرق المتجمدة ، وفوق الحقول التي تكسوها الثلوج أمام الهجوم السوفياتي المضاد ، أخذت رؤوس الفرقاء الالمان تتدحرج . وقد رأينا كيف ان رونشتادت قد ابعد من قيادة الجيوش الالمانية في الجنوب،عندما وجد نفسه مضطراً الى الانسحاب من روستوف . وازدادت آلام المعدة عند المشير فون بوك من جراء نكسات شهر كانون الاول، وسرعان ما خلفه في الثامن عشر من الشهر نفسه المشير فون كلوغه ، الذي كان جيشه الرابع المحطم يتراجع الى الابد من ضواحي موسكو . وحتى الفريق غودريان الجريء ، خالق الحرب المدرعة الجماعية التي اوجدت ثورة في المعارك العصرية ، اقيل من منصبه ايضاً يوم عيد الميلاد لأنه اصدر أمراً بالتراجع دون اذن من رؤسائه . وحتى الفريق هوبنر ، قائد الدبابات البارع الذي لا يقل كفاية عن زميله غودريان والذي وصلت مجموعته المدرعة الى ابواب موسكو من ناحية الشمال ، ثم اضطر الى التراجع ، أقيل من منصبه بأمر من هتلر لنفس الاسباب ، وانتزعت رتبته منه ، وحرّم عليه ارتداء البزة العسكرية . ولقي الفريق هانز الكونت فون سبونيك ، الذي كان قد تلقى ارفع الاوسمة الالمانية لقيادته حركات انزال القوات المحمولة من الجو في لاهاي في السنة الماضية ، عقاباً اشد ، لأنه اضطر الى سحب فرقة واحدة من فيلقه في القرم في التاسع والعشرين من كانون الاول بعد أن نزلت القوات الروسية من البحر وراءه . فلم يكتف هتلر بانتزاع رتبته منه،وانما امر باعتقاله ومحاكمته عسكرياً ، ثم نفذ الاعدام فيه باصرار من الفوهرر [1] .

وقد تعرض حتى كايتل الخنوع لبعض المشاكل مع القائد الأعلى . فقد رأى

---

١ ـ لم ينفذ فيه حكم الاعدام الا بعد مؤامرة تموز عام ١٩٤٤ على حياة هتلر ، التي لم يكن مشتركا فيها بأية حالة من الاحوال .

حتى هذا القائد الذي لا يبصر الا ما يراه سيّده في الأيام الأولى من شهر كانون الاول انالانسحاب من منطقة موسكو أمر ضروري لتجنب الكارثة. وعندما حشد كل مالديه من شجاعة ، وجرؤ على ابداء رأيه هذا لهتلر ، راح هذا يكيل له الشتائم ، صارخاً في وجهه ومطلقاً عليه اسم « الانسان البليد » . وعثر بودل بعد قليل على رئيس القيادة العليا التعس ، جالساً الى مكتبه ، يكتب استقالته ، وقد وضع مسدسه الى جانبه . وانتزع بودل المسدس بهدوء واقنع كايتل ، دون كبير عناء كما يبدو ، بالبقاء في منصبه وابتلاع اهانات الفوهرر ، فابتلعها بكثير من الاحتمال والصبر حتى النهاية المرة [١] .

وأدى الجهد الناجم عن قيادة جيش لا يستطيع ان يفوز دائماً ، في ظل قائد أعلى يصر على ان يكون الفوز باستمرار من نصيب جيشه ، الى تجدد النوبات القلبية عند المشير فون براوختش ، وعندما شرع جوكوف في هجومه المضاد كان المشير قد صمم على التخلي عن منصبه كقائد عام للجيش. وقد عاد الى مقر القيادة العامة من جولة طاف فيها الجبهة المتراجعة في الخامس عشر من كانون الأول ، وعثر عليه هولدر وهو « في حالة تهدم ». ودوّن هولدر في يوميته قائلاً : « لم يعد براوختش يرى سبيلاً للخلاص ، وانقاذ الجيش من وضعه اليائس.. » أجل كان رئيس الجيش قد وصل الى نهاية مداه . وكان قد طلب الى هتلر في السابع من كانون الاول تسريحه من منصبه ، ثم عاد فكرر هذا الطلب في السابع عشر منه . وقبل الفوهرر طلبه رسمياً ونحاه من منصبه بعد يومين . وقد افضى الفوهرر لغوبلز بعد ثلاثة اشهر ، برأيه الصريح في الرجل الذي اختاره هو لقيادة جيشه ، وكتب غوبلز في يوميته بتاريخ العشرين من آذار عام ١٩٤٢ يقول :

« لقد تحدث الفوهرر عنه (براوختش) بعبارات تنطوي على الزراية والاحتقار فوصفه بأنه جبان ومغرور وأخرق ومخبول [٢] »

واعلن هتلر لاخوانه رأيه في براوختش فقال : « انه ليس

---

١ – غوبر ليتنر – تاريخ هيئة اركان الحرب الالمانية ص ٤٠٣ .
٢ – يوميات غوبلز ص ١٣٥ – ١٣٦ .

بالجندي وانما هو رجل ضعيف خائر العزم . ولو ظل براوختش في منصبه بضعة اسابيع اخرى لانتهت الاوضاع الى كارثة [1] » .

وبدأت التكهنات بين قادة الجيش عن الرجـــل الذي سيخلف براوختش ولكن جميع هذه التكهنات خابت في اصابة هدفها تماماً كما خابت من قبـــل سنوات عدة بصدد من سيختلف هندنبرغ . واستدعى هتلر في التاسع عشر من كانون الاول ، هولدر الى حضرته وابلغه انه سيتولى بنفسه قيادة الجيش العامة. واضاف ان في وسعه ان يستمر في منصبه كرئيس لهيئة اركان الحرب، اذا اراد الاستمرار ، وقد اراده هولدر فعلاً . ولكن هتلر ، أوضح صراحة ، انه سيتولى بنفسه منـــذ تلك اللحظة تصريف أمور الجيش ، كما يصرف كل شيء آخر في المانيا . ثم قال له :

« ان في وسع كل انسان ان يتولى هذا المنصب الذي لا أهمية له، في قيادة الجيش بصورة عادية . ولكن مهمة القائد العام، في الحقيقة هي تدريب الجيش بالطريقة الاشتراكية الوطنية . واني لا اعرف ان ثمة « فريقاً » يستطيع ان يقوم بهذه المهمة كما أقوم بها أنا. ولهذا فقد قررت ان أتولى بنفسي قيادة الجيش [2] » .

وهكذا كمل انتصار هتلر على فيلق الضباط البروسيين . وبات الافاق الفييني السابق ، والعريف في يوم ما ، رئيس الدولة الالمانية ووزير حربيتها والقائـد الأعلى لقواتها المسلحة، والقائد العام لجيشها. وبات « الفرقاء » كما اشتكى هولدر في يومياته ، مجرد موزعي بريد ، يحملون أوامر هتلر المستندة على مفاهيمه الشخصية في الخطط السوقية .

ولم يمض طويل وقت حتى كان هذا الديكتاتور المصاب بالعُظام ، قد جعل من نفسه شيئاً اكبر من كل هذا ، فقد اضفى على نفسه سلطاناً شرعياً لم يسبق لأي رجل آخر في تاريخ « الرايخات » الالمانية سواء أكان امبراطوراً او ملكاً

---

١ ـ محادثات هتلر السرية ص ١٥٣ .

٢ ـ هولدر ـ هتلر كقائد ميدان ص ٤٥ .

او رئيس جمهورية ، ان حصل عليه . ففي السادس والعشرين من نيسان عـــام ١٩٤٢ ، تمكن من ان يحمل الرايشستاغ الذي « يبصم له على كل شيء » على سن قانون يمنحه الصلاحيات المطلقة التي تمنح الحياة أو الموت لكل رجل في المانيا ، ويوقف جميع القوانين التي قد تقف عقبة في طريق هذه الصلاحيات . وأرى لزاماً علي ان أورد نص هذا القانون حتى يصدق القارىء هــذا الأمر الذي لا يكاد يصدق :

« في مثل هذه الحرب التي يخوضها الشعب الالماني ويواجه فيها النضال في سبيل الوجود او الفناء ، من الواجب ان يتمتع الفوهرر بجميع الحقوق التي يفترض ان يملكها ليستطيع عن طريقها الوصول الى النصر او الإسراع فيه . ولهذا ، ودون التقيد بالأنظمة القضائية المرعية ، وبوصفه زعيم الأمة والقائد الأعلى لقواتها المسلحة ورأس حكومتها ، والرئيس الأعلى لأجهزتها التنفيذية ، وقاضيها الاعلى وزعيم حزبها ، يجب ان يكون الفوهرر في وضع يمكنه من ان يفرض بجميع الوسائل الموجودة تحت تصرفه ، على كل الماني ، اذا اقتضى الامر ، سواء أكان جندياً عادياً أو ضابطاً ، موظفاً عالياً او خفيضاً ، قاضياً ، أو كبيراً من كبراء الحزب أو تابعاً من اتباعه ، عاملاً أو صاحب عمل ، ان يؤدي واجباته على أكمل وجه . ومن حق الفوهرر ، في حالة تقاعس أي انسان عن اداء واجباته ، وبعد التحري الواعي ، دون اكتراث بما يسمى بالحقوق المكتسبة . ان يفرض أية عقوبة مناسبة ، وان يقيل أي مسيء من منصبه او رتبته أو مكانته دون أية اجراءات قانونية معروفة [١] » .

وهكذا لم يعد هتلر في الحق ، زعيم المانيا بل بات قانونها . ولم يحدث قط لا في العصور الوسطى ولا قبلها في الايام القبلية البربرية ، ان تمكن أي الماني من

---

١ ـ المؤامرة النازية والعدوان (٤) ص ٦٠٠ .

اغتصاب مثل هذا السلطان الطغياني لنفسه اسماً وشرعاً وحقيقة .

ولكن هتلر كان قبل هذه السلطات الاضافية السيد المطلق للجيش الذي تولى الآن قيادته المباشرة وقد قام بهذه الحركة في ذلك الشتاء القاسي ليوقف تراجع جيوشه المهزومة ويجنبها مصير جيش نابوليون وهو يتراجع على نفس الطرق المتجمّدة والمكسوة بالثلوج عائداً من موسكو. وسرعان ما اصدر أمراً صارماً بمنع أي تراجع آخر . وقد ناقش القادة العسكريون الألمان طويلاً حسنات هذا الصمود العنيد ومساوئه ، وما اذا كان قد انقذ القوات الالمانية من الكارثة الكاملة ، أو انه سبب تلك الخسارات الهائلة التي لم يكن ثمة مناص منها . وقد ادعى معظم القادة العسكريين انهم لو منحوا حرية العمل ، في الانسحاب عندما بات وضعهم لا يطاق ، لكان في إمكانهم انقاذ عدد أكبر من الرجال وكميات اضخم من المعدات ، ولأضحوا في وضع افضل يمكنهم من اعادة تنظيم جيوشهم وشن هجوم مضاد . وما حدث هو ان فرقاً كاملة كانت تجتاح احياناً أو تطوّق ثم تجزأ الى اقسام صغيرة ، بينما كان في وسع أي انسحاب في الوقت المناسب ان ينقذها .

ومع ذلك فقد وجد بعض القادة العسكريين الذين اعترفوا بعد لأي وتردد بأن ارادة هتلر الحديدية في الاصرار على صمود الجيوش وقتالها ، كانت اعظم ما انجزه من اعمال الحرب ، لأنها على الغالب كانت السبب في انقاذ جيوشه من التفسخ الكامل فوق الثلوج . ولا ريب في ان الفريق بلومنتريت كان خير من لخص هذا الرأي وعبّر عنه اذ قال :

« ليس ثمة من شك في ان أمر هتلر المتعصّب ، ببقاء القوات الألمانية صامدة في أماكنها دون الاكتراث بأوضاع كل وحدة من هذه القوات أو بالظروف المستحيلة التي تصمد فيها ، كان امراً صحيحاً. وقد ادرك هتلر بدافع غريزته ، أن أي تراجع عبر الثلوج والجليد، يجب ان يؤدي في غضون بضعة ايام الى تحلل الجبهة وتفسخها، وانه اذا وقع مثل هذا التطور ، فإن القوات المسلحة الألمانية ستواجه

نفس المصير الذي حـل بالجيش الاعظم ... ولم يكن ثمـة سبيل للانسحاب إلا عبر الارض العراء ، طالما ان الطرق والممرات كانت تغطيها الثلوج التي تحول دون السير فيها ... ولن تنقضي ليالٍ طويلة على الانسحاب ، حتى يكون العياء قد ادرك الجنود ، الذين سينبطحون حتماً في أي مكان ، ثم يموتون في هذا المكان نفسه . ولم تكن هناك مواقع مهيأة في المؤخرة ، يستطيع الجنود الانسحاب اليها ، كما لم يكن هناك أي خط من الخطوط الدفاعية التي يتمكنون من الارتكاز اليها [1] » .

وقد وافقه على هذا الرأي ايضاً الفريق فون تيبلسكيرش قائد احد الفيالق اذ قال :

« كان هذا الأمر العمل العظيم الوحيد الذي حققه هتلر . فلقد كان الجنود في تلك الآونة العصيبة يذكرون ما سبق لهم ان سمعوه عن تراجع نابوليون من موسكو ويعيشون في كابوس هـــذه الذكريات. ولو سمح للجنود بأن يبدأوا في التراجع لتحول تراجعهم الى فرار مصحوب بالهلع [2] .

ولكن الهلع كان قد ظهر في الجيش الألماني . ولم يقتصر ظهوره على الجبهة وانما بدا واضحاً ايضاً في المؤخرة ، وفي القيادة العامة بالذات ، وقـــد سجله هولدر تسجيلاً تصويرياً في يومياته . ففي يوم الميلاد عام ١٩٤١ ، استهل هولدر يوميته بقوله : « انه ليوم عصيب » . وعاد يكرر هـــذه العبارة في مستهل يوميات عدة قبل رأس السنة وبعده ، عندما يتحدث عن أي خرق جديد من جانب الروس لجبهة الالمان ، وما ينجم عن كل خرق من وضع خطر بالنسبة الى الجيوش المختلفة . وهذا بعض ما دوّنه :

« ٢٩ كانون الأول ... يوم عصيب آخر ... مكالمات هاتفية

---

١ ـ مقال بلومنتريت في كتاب « القرارات القدرية » ص ٧٨ ـ ٧٩ .

٢ ـ ليدل هارت ـ الفرقاء الانكليز يتكلمون ص ١٥٨ .

بعيـدة المدى ومسرحية بين الفوهرر وكلوغه . منع الفوهرر أي انسحاب آخر للجناح الشمالي من الجيش الرابع . الجيش التاسع في وضع حرج للغاية ويبدو ان القادة قد فقدوا عقولهم. حديث هاتفي ثائر عند الظهيرة من كلوغه . يريد الجيش التاسع التراجع الى مـــا وراء ريجيف ...

« ٢ كانون الثاني عام ١٩٤٢ .. يوم من القتـال الوحشي ... الجيشان الرابـع والتاسع في ازمة خطرة ... ادى اختراق روسي الى الشمال من « مالويا روسلافيتس » الى تمزيق الجبهة وفتح ثغرة واسعة فيهـــا ، ومن الصعب معرفة الطريقة التي تمكن بواسطتها اعادة تثبيت الجبهة في الوقت الحاضر ... حمل هذا الوضع كلوغه على المطـــالبة بسحب الجبهة المائلة ... دارت مناقشة عاصفة مع الفوهرر الذي اصر على موقفه فهو يريد ان تظل الجبهة في موضعها مهما كانت النتائج ...

« ٣ كانون الثاني ـ اصبح الوضع اكثر خطورة نتيجة الاختراق الروسي بين مـــالويا روسلافيتس وبوروفسك . يحس كويبلر [١] وبوك بالكثير من الاثارة ويطالبان بالانسحاب من جبهة الشمال التي شرعت في الانهيار . ويقع منظر مسرحي جديد بطله الفوهرر ، فهو يشك في شجاعة قادته العسكريين وفي قدرتهم على اتخاذ قرارات قاسية . ولكن الجنود لا يستطيعون الصمود في مواقعهم عندما تكون درجة الحرارة ثلاثين تحت الصفر ، ويأمر الفوهرر ، بأنه سيقرر شخصياً مـــا اذا كان من الضروري القيام بانسحابات جديدة ... »

---

١ ـ خلف الفريق كويبلر ، المشير كلوغه في السادس والعشرين من كانون الاول كقائـد للجيش الرابع عندما تسلم هذا قيادة مجموعة جيوش الوسط . وعلى الرغم مـن صلابته كجندي الا انه لم يطق احتمال الجهد اكثر من ثلاثة اسابيع فخلفه في قيادته الفريق هنريكي .

ولم تعد مثل هذه القرارات في يد الفوهرر وانما في يد الجيش الروسي . وكان في وسع هتلر ان يرغم الجنود الالمان على الصمود بقوة في اماكنهم والموت فيهـا ، ولكن لم يكن في قدرته ان يوقف الزحف الروسي ، إلا بالقدر الذي كان في وسع الملك كانيوت [1] او يمنع التيارات الهوائية من الهبوب . واقترح بعض ضباط القادة العليا ذات مرة من مرات الهلع ان انقاذ الموقف قد يتطلب اللجوء الى استعمال الغازات السامة . ودوّن هولدر في يوميته بتاريخ السابع من كانون الثاني يقول : « يحاول العقيد اوخسنر اقناعي بأن نبدأ باستخدام الغازات السامة ضد الروس » . ولكن قد تكون شدة البرودة هي التي اعاقت استخدام الغازات . على أي حال ، لم يؤد الاقتراح الى اية نتيجة .

وكان الثامن من كانون الثاني من « الايام العصيبة حقاً » كما دوّن هولدر في يومياته ... ومضى قائلاً : « لم يعد في وسع كلوغه احتمال الفجوة التي فتحهـا الروس في سوخينجي الى الجنوب الغربي من موسكو . وهو ما يزال يصرّ على سحب جبهة الجيش الرابع الى الوراء » . وظل المشير طيلة اليوم على الهاتف يحدث هتلر وهولدر ، مصراً على هـذا الانسحاب . واخيراً وافق الفوهرر في المساء على هـذا الانسحاب ، وهو برم ، وسمح لكلوغه بالانسحاب « خطوة خطوة ليضمن حماية مواصلاته » .

وهكذا تراجعت الجيوش الألمانية التي كانت قد اعدت عدتها للاحتفال بعيد الميلاد في موسكو ، خطوة خطوة ، واحياناً في خطوات سريعة ، مرغمة امام الجيوش الروسية على هذا التراجع خوفاً من التطويق ومن عمليات الاختراق . وعندما حلّ شهر شباط ، وجد الألمان انفسهم في مواضع يتراوح بعدهـا عن

---

١ ـ الملك كانيوت الكبير (توفى عام ١٠٣٦ ميلادية) ، ملك الدانمرك وانكلترا . تولى الملك في انكلترا عام ١٠١٤ بعد موت ابيه الملك سوين الدانيماركي الذي فتح جزءا كبيرا من انكلترا ، بعد ان انتصر على ملكها الكسوني اثيلريد ونفاه الى نورمانديا . ظـل في حروب طويلة مع اثيلريد واولاده الى أن انتصر عليهم . وله قصص مشهورة منها قصة محاولته منع التيارات الهوائية من الهبوب ببناء سور عال ـ المعرب ـ .

العاصمة بين خمسة وسبعين ميلاً ومائتي ميل . ودوّن هولدر في يومياته في نهاية هذا الشهر المتجمد ، الثمن الباهظ الذي دفعته المانيا لهذه المغامرة الروسية الخاطئة ، فقد قدر الخسائر حتى الثامن والعشرين من شباط بـ (١,٠٠٥,٦٣٦) أو (٣١) في المائة من مجموع القوات الألمانية ، قتل منهم نحو (٢٠٢,٢٥١) بجراح و (٤٦,١١١) فقدوا ولم يعثر لهم على اثر . وبلغت الخسائر من « عضة البرد » نحواً من (١١٢,٦٢٧) شخصاً. ولم تشمل هذه الأرقام بالطبع الخسائر التي مني بها المجريون والرومانيون والايطاليون في روسيا .

وسيطر الهدوء على الجبهة كلها مع مجيء ذوبان الثلوج في الربيع ، وشرع هتلر وهولدر في اعداد الخطط اللازمة للإتيان بقوات جديدة وأعداد من الدبابات والمدافع ، لاستئناف الهجوم في جزء من الجبهة على الاقل . ولم يعد في طاقة الألمان ان يهجموا على طول الجبهة الواسعة كلها ، فلقد قضت الغرامة الكبيرة التي دفعوها لبرد الشتاء القارص ولهجوم جوكوف المضاد على ذلك الأمل .

ونحن نعرف الآن ، ان هتلر كان قد ادرك قبل هذا الوقت ان مقامرته في احتلال روسيا قد فشلت ، وانه لم يعد قادراً على احتلالها لا في ستة اشهر ولا ست سنوات . ويروي هولدر في يوميته التي كتبها في التاسع عشر من تشرين الثاني عام ١٩٤١ ، ان الفوهرر ألقى محاضرة طويلة على عدد من ضباط القيادة العامة . فعلى الرغم من وجود قواته على بعد بضعة اميال من موسكو ، وعلى الرغم من زحفها العنيف للاستيلاء عليها إلا انه كان قد تخلى عن آماله في اخضاع روسيا هذا العام ، واستدار بأفكاره الى السنة القادمة . وقد دوّن هولدر آراء الزعيم على النحو التالي :

« اهدافنا للعام القادم : اولاً القفقاس كلها . غاية الهدف الوصول الى حدود روسيا الجنوبية . الوقت بين آذار ونيسان . في الشمال بعد وقت حملة السنة الحالية الوصول الى فولوغدا أو

غوركي [1] . ولكن ليس قبل نهاية ايار .

« ومن الواجب ابقاء تحديد الاهداف الأخرى للعام المقبل مفتوحاً . فكل شيء يتوقف على مدى طاقة سككنا الحديدية . وتظل هناك قضية بناء « جدار شرقي » فيما بعد قائمة .

واذا كان هتلر يتوقع ان يتم تحطيم الاتحاد السوفياتي ، فلن تكون ثمة حاجة الى جدار شرقي . ولا ريب في ان هولدر أخذ يتمعن فيما قاله الفوهرر . عندما مضى هذا يقول :

« يخرج الانسان بانطباع واحد وهو ان هتلر يدرك الآن ان اياً من الفريقين لن يستطيع تحطيم الفريق الآخر ، وان هذا الوضع سيؤدي الى مفاوضات للصلح » .

وليس ثمة من ريب في ان هـذه اليقظة كانت « مرة » على الفاتح النازي الذي كان قبل ستة اسابيع خلت ، وفي برلين قد اذاع رسالة اعلن فيها « دون أي تحفظ » ان روسيا « قد ضربت ضربة قاضية ، ولن تستطيع الوقوف ثانية » . وها هي خططه هي التي تحطمت ، وآماله هي التي قضي عليها بالزوال . وما عتمت هذه الآمال ان تحطمت من جديد في السادس من كانون الأول ، أي بعد اسبوعين ، عندما شرعت الهزيمة تلحق بقواته متراجعة تحت الضربات المنهالة عليها من ضواحي موسكو .

وحدث في اليوم التالي ، أي السابع من كانون الأول عام ١٩٤١ ، حادث في الطرف الثاني من الكرة الارضية حوّل الحرب الأوروبية التي كان هو الذي أثارها باستخفاف الى حرب عالمية ، قدر لها ، وان لم يدرك هو هذه الحقيقة آنذاك ، ان تقرر مصيره ومصير الرايخ الثالث . فقد هاجمت القاذفات

---

١ ـ تقع فولوغدا على بعد (٣٠٠) ميل الى الشمال الشرقي من موسكو وتسيطر على الخط الحديدي الممتد الى اركانجل . أما غوركي فيقع على بعد (٣٠٠) ميل الى الشرق من العاصمة .

اليابانية ميناء اللؤلؤ (بيرل هاربور) . وسارع هتلر في اليوم التالي [1] في قطاره الى برلين عائداً من مقر قيادته في « عرين الذئب » . انه مرتبط بعهد سري مقدس مع اليابان وقد حان الوقت اما للوفاء به أو نقضه .

---

١ ـ كان هتلر يدون حركاته وسكناته كلها في تقويمه اليومي الذي عثر عليه بين الوثائق المصادرة .

٢٥

دور الولايات المتحدة

كان ادولف هتلر قد اعطى وعده المتهور لليابان في غضون سلسلة من المحادثات التي اجراها في برلين مع يوسوكي ماتسوكا ، وزير خارجية اليابان المتشيع للنازية في الربيع عام ١٩٤١ أي قبيل بدء الهجوم الالماني على روسيا ، وتمكننا الوثائق الالمانية المصادرة عن وقائع هذه الاجتماعات من متابعة التطور الفكري عند هتلر الذي قاده الى احدى اخطائه الحسابية الجسام الاخرى . وتشير هذه الوقائع وغيرها من الوثائق الالمانية المصادرة الاخرى والمتعلقة بتلك الفترة الى ان الفوهرر كان جاهلاً اشد الجهل ، وان غورنغ كان مغالياً في الغرور والتعاظم . وان ريبنتروب كان مغرقاً في البلادة ، حتى ان ثلاثتهم لم يستطيعوا فهم القوة العسكرية المحتملة للولايات المتحدة ، وهو خطأ كان قد ارتكبه في الحرب الكونية الاولى ، كل من غليوم وهندنبرغ ولودندورف .

ولقد كان ثمة تناقض اساسي منذ البداية في سياسة هتلر تجاه امريكا . وعلى الرغم من انه كان يزدري طاقاتها العسكرية ، إلا انه حاول أشد ما وسعه من جهد طيلة السنتين الاوليين من الحرب ، ابقاءها خارج نطاقها . وكانت هذه ، كما رأينا من قبل ، هي المهمة الرئيسية التي أوكل بها الى السفارة الالمانية في واشنطن ، التي مضت بعيداً في تنفيذها الى الحد الذي دفعها الى رشوة بعض اعضاء الكونغرس

ومحاولة دفـــع الاموال الى الكتاب ومساعدة « لجنة امريكا اولاً » ، ودعم الامريكيين من انصار العزلة ، وذلك لابقاء امريكا بعيدة عن الانضمام الى اعداء المانيا في الحرب .

وقد ادرك هتلر تمام الادراك ، كما توضح اقواله المتعددة في جلساته الخاصة ، ان الولايات المتحدة ، طالما يتولى قيادها الرئيس روزفلت ، ستظـل واقفة في طريق خططه العظيمة للسيطرة على العالم وتجزئة الكرة الارضية بين دول الميثاق الثلاثي . وكان يرى ان الواجب يدعوه الى معالجة امريكا في النهاية ، وان يكون هذا العلاج « قاسياً وصارماً » . ولكنه يؤثر ان تتم هـذه المعالجات مع الدول المناوئة له فرادى . وكان هذا الايثار هو السر في نجاح خططه السوقية حتى الآن . فدور الولايات المتحدة قادم ولا شك ، ولكن بعد ان ينتهي من تصفية اموره مع بريطانيا العظمى والاتحاد السوفياتي . وآنذاك يخلو له الجو ليعالج مع حليفتيه اليابان وايطاليا أمر هذه الدولة « الحديثة النعمة » أمريكا التي ستذعن بعد ان تغدو وحيدة منعزلة ، لإرادة دول المحور الظافرة .

وكانت اليابان هي مفتاح الجهود التي بذلها هتلر للابقاء على امريكا خارج الحرب الى ان تكون المانيا قد باتت على استعداد لمعالجة امرهـــا . وكانت اليابان في رأيه ، وعلى حد قول وزير خارجيته ريبنتروب لموسوليني في الحادي عشر من آذار عام ١٩٤٠ ، تملك الثقل الكافي للتوازن مع الولايات المتحدة ، وان ثقلها هذا سيحول بين امريكا وبين محاولة التدخل في اوروبا ضد المانيا كما تدخلت في الحرب الكونية الاولى [١] .

وكان هتلر وريبنتروب طيلة تعاملهما ايام الحرب مع اليابان يؤكد ان اهمية عدم استفزاز الولايات المتحدة مخافة تخليها عن حيادها . وكانا قـد اصبحا في مستهل عام ١٩٤١ تواقين كل التوق ، لجر اليابان الى الحرب ، لا ضد امريكا، ولا ضد روسيا ايضاً التي كانا على وشك مهاجمتها ، وانما ضد بريطانيا التي رفضت

---

١ ـ وثائق وزارة الخارجية الالمانية (٨) ص ٩٠٤ ـ ٩٠٦

التسليم حتى عندما ظهرت في مظهر الدولة المغلوبة . واشتد الضغط النازي على اليابان في مطلع عام ١٩٤١ . وفي الثالث والعشرين من شباط استقبل ريبنتروب في اقطاعيته التي سرقها في « فوشل » على مقربة من سالزبرغ ، السفير الياباني الحاد المزاج والناريّ الطباع ، الجنرال هيروشي اوشيما ، الذي كثيراً ما اعتبره مؤلف هذا الكتاب ، اكثر نازية من النازيين انفسهم . وقال ريبنتروب لزائره، انه على الرغم من ان المانيا قد كسبت الحرب فعلاً ، إلا ان من واجب اليابان ان تدخلها « في أسرع وقت ممكن ، حرصاً على مصالحها » وان تضع يدها على امبراطورية بريطانيا في آسيا . ثم مضى يقول :

« وليس ثمة من شك في ان تدخل اليابان بصورة مباغتة في الحرب ، سيحمل امريكا على البقاء بعيدة عنها . فأمريكا التي تفتقر الى السلاح في الوقت الحاضر ، والتي ستتردد في تعريض اسطولها لأية مخاطر الى الغرب من جزر « الهواي » ، ستتخذ نفس الموقف في حالة وقوع تطور مماثل . وإذا اعلنت اليابان بدورها احترامها للمصالح الامريكية فلن يكون هناك أي احتمال في ان يستخدم روزفلت حجة « الكرامة المهدرة » لجعل طعم الحرب مستساغاً عند الامريكيين . وليس من المعقول ان تعلن امريكا الحرب لكي تجد نفسها عاجزة عن عمل أي شيء ، وهي ترى اليابان تضع يديها على جزر الفلبين » .

واعلن ريبنتروب انه حتى ولو اشتركت الولايات المتحدة في الحرب ، فإن « اشتراكها هذا لن يعرض للخطر ، النصر النهائي لدول الميثاق الثلاثي . » ففي استطاعة الاسطول الياباني ان ينتصر بسهولة على الاسطول الامريكي، وستتحقق نهاية الحرب بسرعة بسقوط كل من بريطانيا وامريكا. وكانت هذه الاقوال كافية لإدارة رأس المبعوث الياباني المتعشق للحرب ، واشتعال النار في فؤاده التي اقبل ريبنتروب على اذكاء ضرامها . وقد نصح ريبنتروب اليابانيين بأن يكونوا اكثر صلابة . وان يستخدموا « لغة واضحة » في المحادثات الراهنة التي يجرونها

في واشنطن . وقال :

« ولن يحجم الامريكيون عن خوض الحرب ، الا اذا ادركوا انهم سيواجهون تصميماً عنيداً . فالشعب في الولايات المتحــدة لا يريد التضحية بأبنائه ، وهو لهذا يعارض في دخول بلاده الحرب .. ويحس الشعب الامريكي بدافع غريزته ، ان روزفلت واليهود من « جاذبي الخيوط » وراء الكواليس ، يدفعونه دفعاً الى الحرب التي لا يريدها ... ولهذا يجب ان تكون سياساتنا مع الولايات المتحدة واضحة وقاسية » .

ولم يبق أمام وزير خارجية النازي الا أن يوجه تحذيراً أخيراً وهو التحذير الذي سبق له ان فشل في دفع فرانكو الى الحرب ... فقال :

« واذا قدر لألمانيا ان تنضعف ، فستجد اليابان نفسها تواجــه تحالفاً دولياً معادياً في وقت قريب للغاية ... اننا جميعاً في مركب واحد . ومصير بلدينا المشترك ، يقرر الآن لعدة قرون قادمة ... فهزيمة المانيا لا تعني الا نهاية احلام اليابان الاستعمارية » [1]

واراد هتلر اطلاع كبار قادته العسكريين ورجال وزارة الخارجيـــة على سياسته اليابانية الجديدة فأصدر في الخامس من آذار عام ١٩٤١ ، توجيهاً سرياً للغاية جعل له عنواناً « امر اساسي رقم ٢٤ بصدد التعاون مع اليابان .. » وهذا نصه : [2]

« يجب ان يكون الهدف من التعاون المستند الى الميثاق الثلاثي ، اقناع اليابان في اقرب وقت ممكن ، باتخاذ اجراءات فعالة في الشرق الأقصى . وستؤدي هذه الاجراءات الى شل قوات بريطانيا العظمى ، وإلى تحول مركز الثقل في المصالح الامريكية إلى المحيط الهادي ...

« وعلينا أن نؤكد بأن الهدف المشترك من ادارة دفة الحرب ،

---

١ ـ المؤامرة النازية والعدوان (٤) ص ٤٦٩ ـ ٤٧٥
٢ ـ المؤامرة النازية والعدوان (٦) ٩٠٦ ـ ٩٠٨

هو ارغام انكلترا على الركوع على قدميها بسرعة ، والابقاء بذلك على الولايات المتحدة خارج نطاق الحرب .

« وسيعني الاستيلاء على سنغافورة وهي المركز المهم في الشرق الاقصى الى نجاح حاسم في تسيير دفة الحرب بالنسبة الى الدول الثلاث » .

وحث هتلر اليابانيين ايضاً على الاستيلاء على قواعد بحرية بريطانية اخرى وعلى بعض القواعد الامريكية » اذا لم يكن في الامكان الحيلولة دون دخول امريكا في الحرب . » وانتهى من توجيهه باصدار الأمر الى رجاله « بعدم اطلاع اليابانيين مطلقاً على موضوع عملية بربروسة . » وهكذا كان هدف هتلر ، استخدام حليفته اليابان كما استخدم حليفته ايطاليا لتحقيق المطامع الألمانية ، دون ان يأتمن اياً منهما على نواياه تجاه روسيا .

وبعد نحو من اسبوعين ، أي في الثامن عشر من آذار ، حث امير البحر ريدر في الاجتماع الذي عقده هتلر معه ومع كايتل ويودل ، على وجوب دفع اليابان الى مهاجمة سنغافورة . واوضح ريدر ان الفرصة المتاحة الآن لن تتكرر ثانية وهي انشغال « الاسطول البريطاني الكبير في اماكن اخرى وافتقار الولايات المتحدة للاستعداد لحرب اليابان وضعف اسطولها امام الاسطول الياباني . » وقال امير البحر ان احتلال سنغافورة « سيحل كافة المشاكل الآسيوية الاخرى المتعلقة بالولايات المتحدة وانكلترا » ويمكن اليابان ايضاً ، وبالطبع ، من تجنب الحرب مع امريكا اذا ارادت تجنبها . واعرب ريدر عن اعتقاده بوجود عقبة واحدة ، وليس ثمة من شك في ان ذكره لها قد حمل هتلر على العبوس . فالمعلومات الواردة للبحرية الالمانية من مخابراتها تشير الى ان اليابان لن تتحرك ضد بريطانيا في جنوب شرقي اسيا الا اذا « شرعت المانيا في النزول في انكلترا » . وليس ثمة من سجل لهذا الاجتماع في وثائق البحرية ، ولا الى ما رد به هتلر على قائده البحري . وكان ريدر يعرف حتماً ان القائد الأعلى لم يعد أية خطط للنزول في انكلترا هذا العام ، ولا يحلم حتى في القيام به .

وفاه ريدر بعبارة اخرى لم تلق استجابة عند الفوهرر ، فقد اوصى « باعلام ماتسوكا بالخطط الالمانية المقررة لروسيا »[1] .

وكان وزير خارجية اليابان في طريقه الآن الى برلين عن طريق سيبريا وموسكو ،وهو يفضي بين الحين والآخر طيلة الطريق بتصاريح مشايعة للمحور . ومشبعة بروح الميل الى الحرب ، على حد تعبير كوردل هل وزير خارجية امريكا في وصفها . [2] وقد جاء وصوله الى برلين في السادس والعشرين من آذار متزامناً مع لحظة غريبة بالنسبة الى هتلر ، إذ أطاح الانقلاب في بلغراد تلك الليلة بالحكومة اليوغوسلافية المشايعة لالمانيا، وانشغل الفوهرر في وضع الخطط لسحق تلك البلاد البلقانية العاصية ، حتى انه اضطر الى تأجيل اجتماعه بزائره الياباني حتى بعد ظهر السابع والعشرين من الشهر .

واجتمع ريبنتروب اليه في الصباح ، وعزف له كما يقولون على الاسطوانات القديمة المحفوظة لمثل هذه المناسبات ، ولعرضها على اذان مثل هؤلاء الضيوف ، ومكثراً في الهذر والثرثرة حتى الى حد يفوق مألوفه دون ان يسمح لماتسوكا القصير واللبيب ، بالتفوه بكلمة واحدة . ولا تترك الوقائع السرية المطولة التي أعدها الدكتور شميدت ، والموجودة الآن بين وثائق وزارة الخارجية الالمانية المصادرة ، أي شك في هذا . [3] واعلن ريبنتروب ان المحور قد فاز في الحرب، « وان القضية لم تعد اكثر من مجرد وقت للاعتراف بهذه الحقيقة . » ولم يكد يتوقف عن الحديث قليلاً حتى راح يحث ضيفه « على وجوب الهجوم بسرعة

---

١ ـ تقرير ريدر عن الاجتماع ـ مؤتمرات هتلر في الشؤون البحرية ١٩٤١ ص ٣٧ وفي المؤامرة النازية والعدوان (٦) ص ٩٦٦ ـ ٩٦٧ .

٢ ـ ابدى هل هذه الملاحظة لامير البحر نومورا سفير اليابان الجديد في واشنطن في الرابع عشر من اذار بحضور الرئيس روزفلت . ورد نومورا بأن ماتسوكا « يتحدث بصوت عال للاستهلاك الداخلي اذ انه من الساسة الطموحين » (مذكرات كوردل هل الجزء الثاني ص ٩٠٠ ـ ٩٠١)

٣ ـ نشر هذا الحديث مع الاحاديث التالية والتي اشترك هتلر في بعضها في العلاقات النازية ـ السوفياتية ص ٢٨١ ـ ٣١٦ .

على سنغافورة » ، اذ ان الهجوم في رأيه « سيكون عاملاً حاسماً في انهيار بريطانيا بسرعة . » ولم تطرف للزائر الياباني الضئيل الجسم عين أمام هذا التناقض الصارخ ، وانما ظل جالساً هناك « في غموضه » على حد تعبير شميدت فيما بعد دون « ان يترك المجال للذين يجلسون أمامه في تبيّن حقيقة تأثير هذه الاقوال الغريبة عليه » [١]

واشار ريبنتروب الى امريكا فقال :

« ليس ثمة من شك في انه لولا الآمال الجديدة التي يبعثها روزفلت في نفس تشرشل بين الحين والآخر ، لتخلى البريطانيون عن الحرب منذ امد طويل ... ولقد كان للميثاق الثلاثي منذ امد ، هدف واحد وقبل كل شيء ، هو بث الرعب في امريكا وابقاؤها بعيدة عن الحرب ...وقد تحتم اتخاذ جميع الوسائل لمنع امريكا من القيام بدور فعال في الحرب ، وكذلك من جعل مساعدتها لانكلترا كبيرة الأثر والفعل . وقد يحول الاستيلاء على سنغافورة على الغالب بين امريكا والحرب ، لأن الولايات المتحدة لا تستطيع ان تغامر بارسال اسطولها الى المياه اليابانية ... وسيكون روزفلت في وضع شاق للغاية ... »

وعلى الرغم من ان هتلر كان قد اشترط عدم ابلاغ ماتسوكا بالهجوم الألماني المتوقع على روسيا ، وهو احتياط ضروري . للابقاء على سرية الانباءومنعها من التسرب إلا أن ريبنتروب ألمح في هذه الاجتماعات للوزير الياباني تلميحات تكاد تكون مكشوفة ، وكان لهذه التلميحات نتائجها المفجعة بالنسبة الى المانيا . فلقد ذكر للوزير الياباني ان العلاقات مع الاتحاد السوفياتي ، صحيحة ولكنها ليست ودية ، واذا ما حاولت روسيا تهديد المانيا « فإن الفوهرر سيحطمها ». وأضاف ان الفوهرر على ثقة من ان الأمر اذا تطور الى حرب « فلن تكون

١ - شميدت - ترجمان هتلر ص ٢٢٤ .

هناك دولة اسمها روسيا في غضون بضعة اشهر . »

واتسعت عينا ماتسوكا من الدهشة ، وبان فيهما الفزع ، فسارع ريبنتروب يطمئنه بأنه لا يعتقد بأن « ستالين سيتبع سياسة بعيدة عن الحكمة » . ويقول شميدت ان ريبنتروب استدعي في هذه اللحظة لمقابلة هتلر لبحث الازمة اليوغوسلافية ، ولم يتمكن من العودة حتى لحضور حفلة الغداء الرسمية التي يفترض في انه هو الذي اقامها تكريماً لضيفه الكبير .

وبدأ هتلر عمله مع وزير خارجية اليابان بعد ظهر ذلك اليوم ، وبعد ان كان قد حزم أمره على تهشيم دولة اخرى هي يوغوسلافيا . وقد استهل حديثه معه قائلاً : « لقد خسرت انكلترا الحرب ، ولم تعد القضية إلا مجرد ذكاء لازم لفهم هذه الحقيقة » . ومع ذلك فما زالت بريطانيا الغرقى تتعلق « بقشتين » همـا روسيا وامريكا . وكان الفوهرر في حديثه عن الاتحاد السوفياتي اكثر احتراساً وحيطة من وزير خارجيته . فلقد ذكر بأنه لا يعتقد ابداً ان خطر الحرب مع الاتحاد السوفياتي سيظهر ابداً . وتملك المانيا على أي حال فرقاً يتراوح عددها بين المائة والستين والمائة والسبعين « للدفاع عن نفسها ضد روسيا » وانتقل بعد ذلك الى الولايات المتحدة فقال :

« وتواجـه امريكا ثلاثة احتمالات ، اما ان تسلح نفسها او تساعد انكلترا أو تشن الحرب في جبهة اخرى . فاذا آثرت تسليح نفسها فلن يكون في وسعها أن تساعد انكلترا وبالعكس . واذا تخلت عن انكلترا ، فستلقى هذه نهايتها ، وستجد امريكا نفسها آنذاك تحارب دول الميثاق الثلاثي وهي وحيدة . على أي حال ، لا تستطيع امريـكا مهما كانت ظروفهـا أن تشن الحرب على جبهة اخرى . »

وانتهى الفوهرر قائلاً : « ليس ثمـة من فرصة افضـل يمكن للانسان ان يتصورها من هذه الفرصة المتاحة الآن لليابان لتوجه ضربتها في المحيط الهادي » . وأضاف قائلاً وهو يشدد على كل كلمة يقولها : «ولن تعود مثل هذه الفرصة ثانية.

فهي فريدة من نوعها في التاريخ » . واعرب ماتسوكا عن موافقته على كلام الفوهرر ، ولكنه ذكّره بأنه لسوء الحظ « ليس بالرجل الذي يسيطر على مقدرات اليابان ، وان ليس في امكانه في الوقت الحاضر ، ان يتعهد باسم الامبراطورية اليابانية بأنها ستقوم بأي عمل . »

ولكن هتلر وهو الحاكم المطلق في المانيا ، كان قادراً على تقديم الوعود ، وقد قطع عهداً لليابان ، تلقائياً وبدون أي طلب من جانبها ، وذلك في الرابع من نيسان بعد عودة ماتسوكا الى برلين من اجتماعه بموسوليني . [1] وقد وقع هذا الاجتماع عشية الهجوم النازي على بلدين بريئين آخرين وهما يوغوسلافيا واليونان . وكان الفوهرر وهو المتعطش للفتوحات السهلة وللثأر من بلغراد في احدى حالاته الحربية . وقال لزائره ، انه على الرغم من عدم رغبته في الحرب مع الولايات المتحدة ، إلا انه لا يبعدها كثيراً عن حساباته . ولكنه لا يعتبر قوة امريكا العسكرية أمراً ذا بال . [2] ثم مضى يقول :

« لقد اعدت المانيا عدتها بحيث لا تسمح لأي امريكي بأن يطأ بأقدامه اوروبا . وستشن المانيا حرباً كلها حيوية ضد امريكا بواسطة غواصاتها وطائراتها ، وستكون بفضل تجاربها الحربية العظيمة اكثر من ند لامريكا بالاضافة الى الحقيقة الواقعة وهي ان الجنود الالمان خير بكل تأكيد من الجنود الامريكيين » .

---

١ ــ قال ماتسوكا لهتلر ان موسوليني ذكر امامه « بان امريكا هي العدو رقم واحد وان روسيا السوفياتية تأتي في المرتبة الثانية » .

٢ ــ كما لا يعتبر اي امر آخر يتعلق بامريكا على جانب من الاهمية . وقد عرض هتلر هذا الراي الغريب عن امريكا ، ويبدو انه كان في هذا الوقت قد شرع في تصديق اقوال دعايته النازية ، في حديث آخر اجراه مع موسوليني في الجبهة الروسية في اواخر شهر آب عام ١٩٤١. وتقول الوثائق الايطالية ان الفوهرر قدم للدوتشي عرضا مسهبا عن الزمرة اليهودية التي تحيط بروزفلت وتستغل الشعب الامريكي . وقال انه لا يستطيع مهما كانت المغريات ان يعيش في بلد كالولايات المتحدة ، التي تستمد مفاهيمها عن الحياة من المتاجرة المبتزة ، والتي لا تتعشق ايا من التعابير السامية للروح الانسانية كالموسيقى مثلا . » (اوراق شيانو الدبلوماتية ص ٤٤٩ ــ ٤٥٢) .

وقد حمله هذا التبجح على ان يعطي ذلك العهد القدري الذي دونه شميت في وقائع الاجتماع ... اذ قال :

« اذا اشتبكت اليابان في صراع مع الولايات المتحدة ، فإن المانيا بدورها ستتخذ الخطوات اللازمة فوراً ... »

ويتضح من ملاحظات شميت ان ماتسوكا لم يدرك على الفور اهمية ما كان الفوهرر قد وعد به .. ولذا فقد عاد الفوهرر الى تكراره ... قائلاً :

« ان المانيا كما قلت ، ستشترك فوراً في حالة وقوع حرب بين اليابان وامريكا . »

وقد دفع هتلر الثمن غالياً ، لا بالنسبة الى هذا التأكيد المرتجل فحسب ، والذي اعطي في حالة عارضة ليس إلا ، وانما ايضاً بالنسبة الى خداعه في عدم اطلاع اليابانيين على حقيقة ما انتواه من الهجوم على روسيا فور اتمامه احتلال البلقان . وكان ماتسوكا قد سأل ريبنتروب بلطف وكياسة ، اثناء اجتماعهما في الثامن والعشرين من آذار ، عما اذا كان يؤثر في طريق عودته الى بلاده « ان يتوقف في موسكو ليتفاوض مع الروس في عقد ميثاق عدم اعتداء أو معاهدة حياد » . وأجاب وزير الخارجية النازي ، المفتقر للذكاء ، بمنتهى البلادة ان « من الافضل ان لا يثير ماتسوكا مثل هذا الموضوع في موسكو ، اذ انه قد لا ينسجم تمام الانسجام مع طبيعة الاوضاع الراهنة » . ولم يفهم الوزير النازي ، اهمية سؤال زميله الياباني . وعندما حل اليوم التالي ، وكان قد وعى ما قاله ضيفه ، شرع يطرق الموضوع عندما بدءا محادثاتهما . وقال اولاً ، بصورة عارضة تشبه الصورة التي اعطى هتلر فيها عهده ، ان « المانيا ستضرب روسيا فوراً في حالة قيام هذه بأي اعتداء على اليابان . » واضاف انه يود أن يؤكد لزائره هذا ليطمئن « اليابان على ان في وسعها أن تندفع نحو سنغافورة دون أن تخشى من اية تعقيدات مع روسيا » . وعندما اعترف ماتسوكا اخيراً ، بأنه وهو يمر في موسكو في طريقه الى برلين ، كان قد اقترح عقد ميثاق عدم اعتداء مع الاتحاد السوفياتي ، وبعد أن ألمح الى ان الروس كانوا ميالين الى الاستجابة

لاقتراحه ، التبس الأمر على عقل ريبنتروب البليد واكتفى بأن يوجه النصيحة الى زميله الياباني بأن يعالج القضية « بطريقة الاصطناع » .

ولكن عندما وصل وزير الخارجية الياباني الى موسكو في طريق عودته الى الوطن ، راح يوقع معاهدة حياد مع ستالين ، نصت ، كما أبرق السفير الالماني في موسكو فون دير شولنبرغ الى حكومته بعد أن ادرك اهميتها ،على أن تظل كل من الدولتين على الحياد في حالة تعرض الاخرى للاشتباك في حرب مع دولة ثالثة. وكانت هذه المعاهدة التي وقعت في الثالث عشر من نيسان ، هي الوحيدة التي احترمتها اليابان حتى النهاية ، على الرغم من صراخ الألمان المتوالي وندائهم لها بوجوب التنكر لها . اذ لم يحل صيف عام ١٩٤١ ، حتى كان النازيون يتوسلون الى اليابانيين لا لمهاجمة سنغافورة او مانيلا ، بل لمهاجمة فلاديفوستوك .

ولم يدرك هتلر في البداية أهمية ميثاق الحياد بين روسيا واليابان . وقد ابلغ امير البحر ريدر في العشرين من نيسان ، الذي جاءه مستوضحاً عن هذه المعاهدة ، بأنها عقدت « بموافقة المانيا » وانه يرحب بها « لأنها ستمنع اليابان من مهاجمة فلاديفوستوك وتقنعها بمهاجمة سنغافورة بدلاً منها [1] » . وكان هتلر في هذه المرحلة على ثقة من قدرة المانيا على تحطيم الاتحاد السوفياتي في الصيف. وهو لا يريد

---

١ - مؤتمرات هتلر في الشؤون الحربية ١٩٤١ ص ٤٧ - ٤٨ . وقد احدث نبأ توقيع ميثاق الحياد السوفياتي - الياباني هلعا شديدا في واشنطن ، اذ ان روزفلت وهل ، كانا ميالين الى حمل وجهة نظر مماثلة لوجهة نظر هتلر ، وهي ان هذه المعاهدة ستجر القوات اليابانية التي كانت مجمدة خشية وقوع حرب محتملة مع روسيا ، للعمل في الجنوب ضد الممتلكات البريطانية او الممتلكات الامريكية كذلك . ويحسر شيروود في كتابه « روزفلت وهوبكنز » النقاب عن سر وهو ان روزفلت عندما تلقى نبأ توقيع الاتفاق في الثالث عشر من نيسان مزق خطة كان قد اعدها لشن هجوم عدواني من السفن البحرية الامريكية على الغواصات الالمانية في غرب الاطلسي . واصدر الرئيس امرا آخر ، يوعز الى السفن الحربية الامريكية بمراقبة حركات السفن الحربية الالمانية الى الغرب من ايسلنده دون اطلاق النار عليها . وقد اعتبرت الدوائر الامريكية الرسمية ان عقد ميثاق الحياد الروسي - الياباني قد جعل الوضع في المحيط الهادي خطرا الى الحد الذي لا يسمح بمغامرات بعيدة المدى في الاطلسي . (روبرت شيروود - روزفلت اوهوبكنز . ص ٢٩١) .

ان يشرك اليابان في هذا العمل العظيم الجبار ، تماماً كما اعتذر عن اشراك ايطاليا في احتلال فرنسا. وكان على يقين ايضاً من انه لن يحتاج الى معونة اليابان مطلقاً. وردد ريبنتروب افكار سيده ، فذكر لماتسوكا في اجتماعهما في التاسع والعشرين من آذار ، بأنه يعتقد ان من الافضل في حالة اضطرار المانيا لمهاجمة روسيا ، ان يمتنع الجيش الياباني عن مهاجمة روسيا .

ولكن آراء هتلر وريبنتروب في هذا الصدد ما لبثت ان تبدلت تبدلاً مفاجئاً وجذرياً بعد أقل من ثلاثة أشهر . اذ لم تمض ايام ستة على شن الهجوم الالماني على روسيا حتى كان ريبنتروب يبرق في الثامن والعشرين من حزيران الى سفيره في طوكيو ، الفريق يوجين اوت ، يطلب اليه ان يبذل المستحيل ، لحمل اليابان على مهاجمة روسيا السوفياتية في مؤخرتها. وأوعز الى اوت ان يغري الشهية اليابانية بالغنائم وان يقنعهم بأن هذه الخطوة هي خير سبيل للابقاء على حياد امريكا . وأوضح ريبنتروب رأيه بقوله :

« ومن المنتظر ان يؤدي الاسراع في هزيمة الاتحاد السوفياتي ولا سيما اذا اشتركت اليابان في اتخاذ عمل في الشرق ، الى اقناع الولايات المتحدة بلا جدوية الدخول في حرب الى جانب بريطانيا العظمى المعزولة تماماً والتي تواجه اقوى حلف في العالم »[1]

وقد أيد ماتسوكا ، الدخول في حرب فورية ضد روسيا ، لكن حكومة طوكيو لم تقبل رأيه ، اذ ان موقفها تلخص في انه اذا صحت ادعاءات الألمان بأنهم سيهزمون روسيا بسرعة ، فلا حاجة لهم في أي عون من اليابان . لكن طوكيو ، لم تكن على أي حال واثقة من نصر نازي صاعق على روسيا ، وكان هذا هو السبب الحقيقي في موقفها هذا .

ولكن ريبنتروب أصر على موقفه . وفي العاشر من تموز عندما كان الهجوم الالماني في روسيا قد أخذ يحقق انتصاراته مما حمل شخصاً رضياً كهولدر على

---

١ ـ تريفوس ـ المانيا والحياد الامريكي ١٩٣٩ ـ ١٩٤١ ص ١٢٤ .

التفكير بأن النصر قد تحقق ، بعث الوزير النازي من قطاره الخاص في الجبهة الشرقية ببرقية جديدة واكثر قوة في التعبير الى سفيره في طوكيو قال فيها :

« لما كانت روسيا ، طبقاً لرواية السفير الياباني في موسكو على وشك الانهيار .. يبدو ان من غير المعقول ان تظل اليابان مكتوفة اليدين ، فلا تسارع الى حل مشكلتي فلاديفوستوك وسيبيريا عندما تستكمل استعداداتها العسكرية ..

« واني اطلب اليك ان تستخدم كافة الوسائل المتوافرة لديك للاصرار على دخول اليابان في الحرب ضد روسيا في اقرب تاريخ ممكن .. وكلما تم اشتراكها في الحرب بصورة أسرع، كلما كان هذا أفضل وأبقى . وسيكون الهدف الطبيعي ان نلتقي نحن واليابانيون على الخط الحديدي الممتد عبر سيبيريا قبل حلول الشتاء » [١]

ولكن مثل هذا الأمل البراق لم يؤثر حتى على الحكومة اليابانية العسكرية. فقد رد السفير اوت بعد اربعة ايام ، يقول انه يبذل قصارى جهده لاقناع اليابانيين بمهاجمة روسيا في اسرع وقت ممكن ، وان ماتسوكا يؤيد هذا الرأي كل التأييد ، ولكنه – أي اوت – يواجه « عقبات كبرى » في حكومة طوكيو يتحتم عليه تذليلها [٢] . وقد اضطر ماتسوكا الميال للحرب ، الى التنحي عن منصبه في الوزارة بعد وقت قصير ، وفقدت المانيا باستقالته في الوقت الحاضر على الأقل أهم صديق لها في الحكومة اليابانية ، وعلى الرغم من ان العلاقات قد عادت بين برلين وطوكيو ، كما سنرى فيما بعد ، الى سابق عهدها من القوة والوثوق الا انها ، لم تبلغ قط حداً يقنع اليابانيين بحكمة مساعدة المانيا في حربها ضد روسيا . وهكذا وجد هتلر مرة ثانية حليفاً ماكراً يتفوق عليه في لعبة الخديعة التي ابتكرها . [٣]

---

١ – المؤامرة النازية والعدوان (٦) ص ٥٦٤ – ٥٦٥ .

٢ – المؤامرة النازية والعدوان (٦) ص ٥٦٦ .

٣ – واصل ريبنتروب محاولاته هذه طيلة الخريف ، وفي عدة مرات لاحقة في السنتين

« تجنبوا الحوادث مع الولايات المتحدة »

اصبح من المهم كل الأهمية بالنسبة الى المانيا اثر اصرار اليابان على رفضها مساعدة هتلر على رفع « كستنائه » من النار في روسيا، اذ ان اليابان كانت مهتمة « بكستنائها » هي الذي اخذ في الاستواء ، ان تظل الولايات المتحدة بعيدة عن الحرب ، الى ان يتم لها احتلال الاتحاد السوفياتي الذي كان هتلر يطمع في استكماله في صيف ذلك العام نفسه أي عام ١٩٤١ ، وقبل حلول الشتاء .

وكان الاسطول الالماني مغيظاً من القيود التي وضعها هتلر على الجهود التي يبذلها لمنح الشحنات الأمريكية من الوصول الى بريطانيا ولمواجهة الزيادة في الاعمال العدائية التي تقوم بها السفن الامريكية ضد الغواصات الالمانية وضد السفن الاخرى العاملة في الاطلسي . وكان امراء البحر النازيون وهم ابعد نظراً في الشؤون البحرية من هتلر الذي اغلق عقله « على البر » قد ادركوا منذ البداية ان دخول امريكا الحرب شيء لا بد منه ، وحثوا القائد الأعلى على التأهب لمثل

التاليتين لاقناع اليابان بالهجوم على روسيا في مؤخرتها ، ولكنه كان يتلقى دائما رد حكومة طوكيو المهذب ... نحن آسفون ، من فضلك » .

وظل هتلر على امله طيلة الصيف . وقد ابلغ ريدر في السادس والعشرين من آب ، بانه « واثق من ان اليابان ستنفذ هجومها على فلاديفوستوك ، حالما يتم لها تجميع قواتها اللازمة . وما الامتناع الحالي الا نتيجة الرغبة في ان يتم تجميع هذه القوات دون أي ازعاج ، وفي ان يأتي الهجوم على نحو مباغت » (مؤتمرات هتلر في الشؤون البحرية ١٩٤١ ص ١٠٤) .

وتكشف الوثائق اليابانية كيف ان طوكيو قد تملصت من الالمان في هذه القضية المعقدة . فعندما طلب السفير الالماني اوت مثلا في التاسع عشر من آب من نائب وزير الخارجية اليابانية معرفة رأي حكومته في التدخل ضد روسيا ، اجاب هذا بقوله : « ان القيام بمهاجمة روسيا معضلة صعبة بالنسبة الى اليابان وتتطلب دراسة عميقة » . وعندما وجه اوت في الثلاثين من آب ، وكان قد بات الان سفيرا دائم الازعاج سؤالا الى وزير خارجية اليابان امير البحر تويودا بقوله : « هل هناك أي احتمال في ان تشترك اليابان في الحرب الروسية ــ الالمانية ؟ » رد هذا قائلا : « ان استعدادات اليابان ماضية في طريقها ولكنها تحتاج بعض الوقت لاستكمالها » . (المؤامرة النازية والعدوان (٦) ص ٥٤٥ ــ ٥٤٦) .

هذا الاحتلال . فبعد انهيار فرنسا في حزيران عام ١٩٤٠ حث امير البحر ريدر ، يدعمه غورنغ ، هتلر ، على ان يستولي فوراً على افريقيا الغربية الفرنسية ، وعلى الجزر في المحيط الاطلسي وبينها ايسلنده وجذر الأزور والكناري، لمنع الولايات المتحدة من احتلالها . وقد ابدى هتلر اهتمامه في هذا الموضوع ، ولكنه اراد اولاً ان يغزو انكلترا وان يحتل روسيا . وآنذاك يستطيع ان يعالج موضوع الامريكيين الحديثي النعمة ، بعد ان يغدو وضعهم يائساً لا يطاق . وتكشف مذكرة سرية للغاية وضعها الرائد فريهر فون فالكنشتاين، من ضباط هيئة اركان الحرب ، النقاب عن آراء هتلر في نهاية صيف عام ١٩٤٠ ..

« يشغل الفوهرر نفسه الآن في موضوع احتلال جزر المحيط الاطلسي ، هادفاً الى مواصلة الحرب ضد امريكا في تاريخ لاحق. وتجري المشاورات في هذا الصدد الآن هنا .. » [١]

وعلى هذا لم تكن القضية ، ما اذا كان هتلر يعتزم المضي الى الحرب ضد الولايات المتحدة أو لا ، بل كانت في تحديد الموعد الذي يختاره هو لشن الحرب عليها . وعندما حل الربيع القادم ، كان هذا الموعد قد بدأ في الاطلال على ذهن الفوهرر . ففي الثاني والعشرين من أيار عام ١٩٤١، تشاور أمير البحر ريدر مع القائد الأعلى . ونقل لأركان حربه « إن على الاسطول أن يرفض فكرة احتلال جزر الأزور » . فهو لا يملك القوة الكافية لذلك ، ولكن هتلر كان قد بات متحمساً أشد الحماس للمشروع ، ورد على قائد بحريته طبقاً للملاحظات السرية التي دوّنها هذا [٢] بقوله :

« ما زلت اؤيد احتلال جزر الأزور لاستخدامها في شن هجمات جوية تقوم بها القاذفات البعيدة المدى على الولايات المتحدة . فقد ينشأ هذا الاحتمال في الخريف القادم [٣] .

---

١ ـ المؤامرة النازية والعدوان (٣) ص ٢٨٩ .

٢ ـ مؤتمرات هتلر في الشؤون البحرية ـ ١٩٤١ ص ٥٨ .

٣ ـ لم يكن لدى الالمان طائرات بعيدة المدى تستطيع الوصول الى الساحل الامريكي

وكان هتلر يعني بذلك ، ان الاحتمال سينشأ بعد انهيار الاتحاد السوفياتي . وهنا يحل دور امريكا . وقد اوضح ذلك بجلاء لأمير البحر ريدر عندما اجتمع اليه بعد شهرين أي في الخامس والعشرين من تموز ، وكان الهجوم في روسيا على اشده . فقد دون ريدر عن الفوهرر قوله : « عندما تنتهي الحملة الشرقية ، سيحتفظ بحقه في اتخاذ اجراءات قاسية ضد الولايات المتحدة . » [1] ولكن حتى يحين ذلك الوقت اصر هتلر على قائد بحريته في ان « يتجنب حمل امريكا على اعلان الحرب ... وذلك حرصاً على الجيش الذي يشتبك الآن في معركة عنيفة . »

ولم يقتنع ريدر بهذا الموقف . وتظهر يومياته عن الاجتماعات التي عقدها مع هتلر ، والتي يستطيع المرء الاطلاع عليها في الوثائق الالمانية المصادرة ، ان صبره كان قد بدأ ينفذ من الاغلال التي قيد بها الاسطول الالماني . وكان يبذل في كل مقابلة له مع الفوهرر كل جهد ممكن لاقناعه بابدال موقفه .

وكان ريدر قد رفع في وقت مبكر من ذلك العام أي في الرابع من شباط مذكرة الى هتلر ، اعرب فيها عن شكوك الاسطول القوية في جدوى بقاء امريكا على الحياد ، وذلك بالنسبة الى المانيا . وكان من رأي امراء البحر ان دخول امريكا الحرب قد يكون « ذا نفع لجهود المانيا الحربي » ولا سيما اذا اغدت اليابان دولة محاربة الى جانب المحور [2] . ولكن الديكتاتور النازي لم يقتنع بهذا الرأي مطلقاً .

واثبط في يدي ريدر . فمعركة الاطلسي قد وصلت اوجها ، ولم تستطع المانيا الفوز فيها . والتموينات الامريكية بموجب قانون الاعارة والتأجير تتدفق على بريطانيا . وجعلت « دوريات حياد الجامعة الامريكية » مهمة

في جزر الازور بله العودة اليها ، ولا ريب في أن هذا القول دليل على انحرافات هتلر العقلية في هذا الوقت ، اذ اعتمد على « قاذفات بعيدة المدى » لا وجود لها .

١ ـ مؤتمرات هتلر في الشؤون البحرية ـ ١٩٤١ ص ٩٤ .

٢ ـ مؤتمرات هتلر في الشؤون البحرية الملحق الاول بتاريخ ٤ شباط ١٩٤١ .

الغواصات الألمانية اكثر صعوبة واقل اثراً . وقد عرض ريدر كل هذه الأمور على هتلر ، دون ان يتأثر بها أو يقتنع . وعاد الى الاجتماع بالزعيم في الثامن عشر من آذار ، ونقل اليه ان السفن الحربية الامريكية تتولى حراسة القوافل الامريكية المتجهة الى بريطانيا حتى مياه ايسلنده . وطلب من الفوهرر ان يسمح بمهاجمتها دون انذار . ورجاه ان يعمل أي شيء ليحول دون فوزالولايات المتحدة بموطىء قدم لها في افريقيا الغربية الفرنسية . وقال له : « ان هذا الاحتمال ، كثير الخطورة . » واصغى هتلر الى كل ما قاله قائد اسطوله وقال : وهنا موطن الهزل – انه سيبحث في جميع هذه القضايا مع وزارة الخارجية هادفاً من قوله هذا الى التخلص من امير البحر وآرائه [1] .

وظل يسوف ويماطل في الاستجابة الى الاسطول طيلة الربيع واوائل الصيف ، ورفض في العشرين من نيسان الاستماع الى حجج ريدر المقنعة « بوجوب شن الحرب على سفن امريكا التجارية طبقاً للانظمة البحرية » [2] وكانت اولى المصادمات المسجلة بين السفن الحربية الامريكية والألمانية قد وقعت في العاشر من نيسان عندما قذفت المدمرة الامريكية بعض قنابل الاعماق على غواصة المانية ظهرت في المنطقة على استعداد للهجوم . وفي الثاني والعشرين من ايار ، عاد ريدر الى « عش النسر » يحمل مذكرة مطولة ، يقترح فيها اجراءات مضادة للاعمال غير الودية التي يقوم بها الرئيس روزفلت ، ولكنه لم يستطع التأثير على قائده الأعلى . ودون امير البحر قائلاً :

« يعتبر الفوهرر ان موقف رئيس الولايات المتحدة ، ما زال غير نهائي ، وهو لا يرغب بأي حال من الاحوال في احداث وقائع تؤدي الى دخول امريكا الحرب [3] . »

وقد تعززت الاسباب المؤدية الى تجنب الحوادث عندما بدأت الحملة على

---

١ – مؤتمرات هتلر في الشؤون البحرية ص ٣٢ .
٢ – مؤتمرات هتلر في الشؤون البحرية ص ٤٧ .
٣ – مؤتمرات هتلر في الشؤون البحرية ٢٢ ايار ١٩٤١ .

روسيا وفي الواحد والعشرين من حزيران ، أي في اليوم الذي سبق الهجـوم ، عاد هتلر يؤكد هذه الاوامر لريدر . وكان امير البحر الاكبر قد قدم اليـه وصفاً رائعاً عن مشاهدة الغواصة الألمانية (يو ٢٥٣) للبارجة الامريكيـة تكساس في منطقة الحصار البحري الذي اعلنته المانيا في شمال الاطلسي، ترافقها مدمرة ، وان الغواصة طاردتها محاولة مهاجمتهما ، ثم اضاف قائلاً : « ان العمل الحازم مع الولايات المتحدة اكبر اثراً من مجرد الاستسلام ». وقد وافق الفوهرر على المبدأ ولكنه لم يوافق على العمل المحدد الذي اشار به قائد بحريته وعاد مرة يؤنب الاسطول ويحذره .

« اعلن الفوهرر بايضاح وتفصيل ، رغبته في تجنب أي حادث مع الولايات المتحدة، الى ان تكون عملية بربروسة قد قطعت شوطاً بعيداً . فبعد بضعة اسابيع ، سيكون الموقف اكثر اتضاحاً ، ومن المنتظر ان يترك اثراً مناسباً على الولايات المتحـدة واليابان . وستكون امريكا اقل ميلاً لدخول الحرب ، بسبب التهديد الياباني الذي سيشرع في الازدياد . ولهذا يجب توقف جميع الهجمات على السفن البحرية في المنطقة المغلقة طيلة الاسابيع التالية ان امكن . »

وعندما حاول ريدر مناقشته في ان من الصعب التميز ليلاً بين السفن الحربية المعادية والمحايدة ، اسكته الفوهرر مصدراً امره اليه بأن يوجه تعليمات جديدة تنص على وجوب تجنب أية حوادث مع امريكا، وعلى الاثر اصدر قائد البحرية تعليمات في تلك الليلة نفسها يقضي بالامتناع عن الهجوم على أية سفن حربيـة داخل المنطقة المغلقة او خارجها الا اذا كانت هويتها البريطانية معروفة بشكل قاطع . وقد صدر امر مماثل الى قيادة السلاح الجوي الألماني (١)

وأعلن الرئيس روزفلت في التاسع من تموز ان القوات الامريكية، قد تولت احتلال جزيرة ايسلندة بدلاً من القوات البريطانية . وكان رد فعل برلين عنيفـاً

---

١ ــ مؤتمرات هتلر في الشؤون البحرية ص ٨٨ ــ ٩٠ .

وفورياً.وأبرق ريبنتروب الى طوكيو يقول: « ان هذا التدخل من جانب القوات العسكرية الامريكية لمساعدة انكلترا في منطقة سبق لنا ان اعلنا رسمياً ، انها منطقة قتال ، يعتبر في حد ذاته عدواناً على المانيا واوروبا [1] . »

وهرع ريدر الى « عرين الذئب » وهو المقـــر الذي كان الفوهرر يدير منه جيوشه في روسيا . وقال الفوهرر انه يود قراراً... « فهل يعتبر احتلال امريكا لجزيرة ايسلندة اشتراكاً فعلياً في الحرب، أومجرد عمل استفزازي يجب تجاهله؟» اما الاسطول الألماني فقد اعتبر نزول القوات الامريكية في ايستلندة عمـــلاً حربياً ، وراح يذكر الفوهرر في مذكرة من صفحتين ، بجميع اعمال «العدوان» التي ارتكبتها حكومة روزفلت ضد المانيا . وطالب الأسطول فوق ذلك بمنحه الحق في إغراق سفن الشحن الامريكية في منطقة القوافل وفي مهاجمة السفن الحربية الامريكية اذا تطلبت الضرورة ذلـــك .[2] وذكر تقرير ريدر عن الاجتماع ان هتلر رفض مطالب الاسطول ثم مضى قائلاً :

« أوضح الفوهرر بشكل مفصل تلهفه الشديد على تأجيل دخول الولايات المتحدة الحرب شهراً أو شهرين آخرين.فمن الناحية الأولى يجب تركيز القوة الجوية كلها في الحملة الشرقية ، وهو لذلك لا يود تحويل أي جزء منها الى معارك ثانية : أما من الناحية الثانية فان حملة ظافرة في الجبهة الشرقية تترك أثراً هائلاً في الوضع كله وعلى موقف الولايات المتحدة نفسها . ولهذا فهو لا يرغب في الوقت الحاضر ، في إحداث أي تبدل في التعليمات الحالية ، ويود ان يرى من الناحية الأخرى استمرار القوات الألمانية في تجنب أية حوادث. »

وعندما ذكر ريدر ان قادته البحريين لا يمكن اعتبارهم مسؤولين عن أي « خطأ » قد يحدث . اذا ما صيبت بواخر امريكية رد هتلر بأن من الواجب

---

١ ــ المؤامرة النازية والعدوان (٥) ص ٥٦٥ .

٢ ــ أرى من الجدير ان ندون هنا ان امير البحر ريدر الح في محاكمات نورمبرغ على القول بأنه عمل كل ما في وسعه لتجنب استفزاز الولايات المتحدة على دخول الحرب .

التأكد على الأقل من هوية السفن الحربية والتثبت من انها معادية قبل الهجوم عليها. وأراد هتلر ان يتحقق من ان أمراء البحر قد فهموا تعليماته فهماً صحيحاً، فأصدر أمراً محدداً في التاسع عشر من تموز يشترط «عدم مهاجمة السفن الأمريكية في مناطق العمليات الحربيـــة الواسعة سواء أكانت مبحرة على انفراد او في قوافل انكليزية أو امريكية، هذا اذا تم تمييز هوية هذه السفن قبل اللجوء الى السلاح » أما في مناطق الحصار التي اعترفت الولايات المتحدة أيضاً بأنها محظورة على سفنها، ففي الإمكان مهـــاجمة السفن الامريكية . ولكن هتلر ، أوضح بصورة خاصة في أمره هذا بأن المنطقة الحربية « لا تشمل الطريق البحري بين ايسلندة والولايات المتحدة [١] . »

لكن الأخطاء كثيراً ما تقع على حد تعبير ريدر . ففي الواحد والعشرين من ايار أغرقت غواصة المانية سفينة الشحن الامريكية (روبن مور Robin Moor) وهي في طريقهـــا الى جنوب افريقيا ، وفي مكان يبعد عن منطقة الحصار الألمانية . وأغرقت باخرتان تجاريتان أمريكيتان قبيل نهاية الصيف ، بعد نسفهما بالطرابيد . وأطلقت غواصة المانية في الرابع من ايلول ، طوربيدين على المدمرة الامريكية « غرير » دون ان تصيباهـــا . وبعد نحو من اسبوع أي في الحادي عشر من ايلول ، رد روزفلت على هذا الهجوم بخطاب أذاعه ، واعلن فيه انه قد اصدر الأوامر الى الاسطول الامريكي لاطلاق النار على اية غواصة المانية عند رؤيته لها ، وحذر من ان السفن الحربية الالمانية تتحمل مسؤولية الخطر الذي تتعرض له اذا ما دخلت الى منطقة الدفاع الامريكية .

وألهب الخطاب برلين . وهاجمت الصحافة الالمانية روزفلت واطلقت عليه لقب « داعية الحرب رقم واحد » وتذكر ريبنتروب في محاكمات نورمبرغ ان هتلر ، تأثر تأثراً بالغاً . « ولكن عندما وصل امير البحر ريدر الى مقر قيادة الفوهرر في «عرين الذئب» بعد ظهر السابع عشر من ايلول ليحثـــه على اتخاذ

---

١ ــ محاكمات كبار مجرمي الحرب (٣٤) ص ٣٦٤ . والترجمة الانكليزية الجزئية في المؤامرة النازية والعدوان (٦) ص ٩١٦ . وهي مضللة الى حد ما .

خطوات انتقامية عنيفة للرد على امر « اطلاق النار عند الرؤية » ، كان الفوهرر قد هدأت ثائرته . وعاد القائد الأعلى فرد بعبارة « لا » على توسل امير البحر ، بالسماح للاسطول الألماني بمهاجمة السفن الامريكية وتحريره من القيود المفروضة عليه . وذكر ريدر في تسجيله لما دار في هذا الاجتماع :

« لما كان من المحتمل بأن تأتي نهاية ايلول بالقرار العظيم الفاصل في الحملة الروسية ، فإن الفوهرر يطلب اتخاذ كل انواع الحذر لتجنب اية احداث في الحرب مع السفن التجارية قبل نحو منتصف شهر تشرين الأول . »

ومضى ريدر يدوّن وهو حزين : « لهذا فقد سحب القائد العام للاسطول وامير البحر قائد سلاح الغواصات (دونتس) اقتراحاتها . ومن الواجب ابلاغ الغواصات بالاسباب التي تدعو مؤقتاً الى التمسك بالاوامر القديمة [1] . » وليس ثمة من شك في ان هتلر كان يسلك بالنسبة الى الظروف سلوكاً ينطوي على الكثير من ضبط النفس غير المعهود فيه . ولكن من المعترف به انه كان من الصعب كل الصعوبة على قادة الغواصات الشبان ، العاملين في مياه الاطلسي العاصفة ، والمجهدين باستمرار من جراء تزايد الوسائل الناجعة في مكافحة الغواصات عند البريطانيين وهي وسائل كانت السفن الحربية الامريكية تشترك فيها احياناً ، ان يضبطوا نفوسهم واعصابهم . وكان هتلر قد ذكر لريدر في شهر تموز انه لن يحاسب قط أي قائد غواصة اذ اغرق سفينة امريكية « بطريق الخطأ . » وورد في التاسع من تشرين الثاني في خطابه السنوي المعهود للحرس النازي القديم في حانة الجعة المشهورة في ميونيخ على خطاب روزفلت قائلاً :

« لقد امر الرئيس روزفلت سفنه بأن تطلق النار على السفن الالمانية فور رؤيتها لها . اما انا فقد اصدرت امري الى السفن الألمانية بأن لا تطلق النار عند مشاهدتها سفناً امريكية ، وان

1 ـ مؤتمرات هتلر في الشؤون البحرية في ١٧ ايلول ١٩٤١ . ص ١٠٨ ـ ١١٠ .

تدافع عن نفسها اذا هوجمت. وسأقدم كل ضابط الماني يتقاعس عن الدفاع عن نفسه امام محكمة عسكرية . »

وعاد في الثالث عشر من تشرين الثاني فأصدر توجيهاً جديداً يحتم على الغواصات الالمانية الدفاع عن نفسها في حالة تعرضها الى الهجوم شريطة ان تتجنب قبل ذلك الاشتباك مع السفن الحربية الامريكية .[1]

وبالطبع كان قادة الغوّاصات قد دافعوا عن انفسهم قبل صدور هذا الأمر الجديد . ففي ليلة السادس عشر – السابع عشر من تشرين الأول ، قامت المدمرة الامريكية كيرني (Kearny) . التي جاءت لمساعدة قافلة تعرضت لهجوم الغواصات الالمانية بقذف قنابل الاعماق على احدى هذه الغواصات ، فردت هذه بنفسها بالطوربيد . وقد قتل احد عشر رجلاً من بحارة المدمرة . وكان هؤلاء أول الضحايا الامريكيين في الحرب غير المعلنة مع المانيا .[2] ولكن سرعان ما وقع ضحايا آخرون . ففي الواحد والثلاثين من تشرين الأول، نسفت المدمرة الامريكية روبن جيمس (Reuben James)بالطرابيد الألمانية وغرقت وهي تقوم بحراسة احدى القوافل ، وغرق معها مائة من مجموع بحارتها الذين يعدون (١٤٥) رجلاً . وكان بين الغرقى جميع ضباطها السبعة .وهكذا بدأت حرب النيران بين المانيا والولايات المتحدة قبل ان تبدأ الحرب الرسمية بأمد طويل .

---

١ – مؤتمرات هتلر في الشؤون البحرية في ١٣ تشرين الثاني عام ١٩٤١ .

٢ – أعلن روزفلت في خطاب القاه في يوم البحرية في السابع والعشرين من تشرين الاول مشيرا الى هذا الحادث ان «التاريخ قد سجل من اطلق الرصاصة الاولى» . وارى من الانصاف ان اقول ان المدمرة الامريكية بالقائها قنابل الاعماق كانت البادئة باطلاق النار . وتقول وثائق البحرية الالمانية السرية ان هذا الحادث لم يكن الاول من نوعه . ويؤكد المؤرخ البحري الامريكي الرسمي ان المدمرة الامريكية نيبالاك (Nibalack) قد هاجمت في العاشر من نيسان غواصة المانية بقنابل الاعماق (صمويل ايليوت موريسون – تاريخ العمليات البحرية الامريكية في الحرب الكونية الثانية – المجلد الاول ص ٥٧) .

اليابان تعمل لنفسها

رأينا من قبل ان هتلر عهد الى اليابان بدور المحافظة على ابقاء الولايات المتحدة خارج الحرب ، ولم يعهد اليها ولو مؤقتاً ، بارغامها على دخول الحرب فقد عرف ان احتلال اليابان لسنغافورة وتهديدها الهند ، لن يعنيا مجرد ضربة قاصمة للبريطانيين بل وتحويل اهتمام امريكا وبعض مجالات نشاطها وحيويتها من الاطلسي الى الهادي . وعندما شرع يرجو اليابان مهاجمة فلاديفوستوك ، كان يرى في مثل هذه الخطوة لا مجرد وسيلة لمساعدته في حرب روسيا واخضاعها ، بل ضغطاً اضافياً على الولايات المتحدة لابقائها على الحياد . ومن الغريب كل الغرابة ، انه لم يدر في خلد هتلر أو خلد أي انسان آخر في المانيا إلا مؤخراً ، بأن اليابان لا تبحث الا عن مصالحها ، وانها قد تخشى الشروع في هجوم عظيم في جنوب شرقي آسيا ضد البريطانيين والهولنديين او مهاجمة روسيا في ظهرها ، الا اذا كانت هي قد اطمأنت الى مؤخرتها بتحطيم الاسطول الامريكي في المحيط الهادي . ومن الحق ان يقال ان الفاتح النازي ، كان قد وعد ماتسوكا بأن المانيا ستدخل الحرب ضد امريكا اذا وقعت بين هذه واليابان ، ولكن ماتسوكا بات خارج الحكم الآن ، وكان هتلر قد واصل الحافه على اليابان لتجنب الصراع المباشر مع امريكا والتركيز على بريطانيا والاتحاد السوفياتي اللذين كانت مقاومتهما تحول بينه وبين كسب الحرب . ولم يخطر في بال الحكام النازيين ان اليابان قد تعطي الأولوية في اهتمامها الى الصراع المباشر مع الولايات المتحدة .

ولا يمكن القول ان برلين كانت تريد من اليابان ان تتفاهم مع امريكا . فمثل هذا التفاهم كفيل بإحباط الاهداف الرئيسية من الميثاق الثلاثي التي يمكن تلخيصها في بعث الفزع في نفوس الامريكيين ومنعهم من دخول الحرب . وقد تكون هذه هي المرة الوحيدة التي قدر فيها ريبنتروب تقديراً صادقاً واميناً افكار الفوهرر عندما وقف في نورمبرغ يقول لمستجوبيه :

« كان يخشى من ان يؤدي أي ترتيب بين الولايات المتحدة واليابان

الى طمأنينة امريكا على مؤخرتها ، وآنذاك يغدو اشتراك امريكا في الحرب، أو هجومها غير المتوقع الآن اسرع مما يظن .. وكان يحس بالقلق من حدوث مثل هذا الاتفاق ، نظراً لوجود جماعات في اليابان تود التوصل الى اتفاق مع امريكا » (١)

وكان بين اعضاء هذه المجموعة امير البحر كيشيز ابورو نومورا، الذي وصل الى واشنطن في شباط عام ١٩٤١ ، لتولي منصبه كسفير اليابان الجديد . وقد اثارت سلسلة المحادثات السرية التي دارت بينه وبين كوردل هل، والتي بدأت في شهر آذار هادفة الى تسوية الخلافات بين البلدين بصورة سلمية ، واستمرت حتى النهاية ، الكثير من القلق في برلين . (٢)

وقد جهد الألمان كل ما وسعهم لتخريب محادثات واشنطن هذه . وقدم وايز ساكر في الخامس عشر من ايار مذكرة الى ريبنتروب اشار فيها الى ان أية معاهدة سياسية بين اليابان والولايات المتحدة شيء لا يرغب فيه في الوقت الحاضر . وقال انه ما لم تحل المانيا دون ذلك فإن المحور قد يخسر اليابان نهائياً . (٣) وقام الفريق اوت سفير المانيا في طوكيو بزيارة وزارة الخارجية اكثر من مرة محذراً من مفاوضات هل ـ نومورا . وعندما رأى ان محاولاته هذه لم تؤت اكلاً، وان المفاوضات ظلت مستمرة ، تحوّل الى مناورة جديدة ، وهي اقناع اليابانيين بأن يشترطوا لاستمرار هذه المفاوضات ان تتخلى الولايات المتحدة عن عونها لبريطانيا وعن سياستها المناوئة لألمانيا . (٤)

كان هذا في شهر ايار . وجاء الصيف بتبدل جوهري . ففي شهر تموز كان هتلر مشغولاً في اقناع اليابان بمهاجمة الاتحاد السوفياتي ، وقطع كوردل هل في

---

١ ـ المؤامرة النازية والعدوان ـ الملحق (ب) . ص ١٢٠٠

٢ ـ كتب هل في مذكراته فيما بعد يقول : « اني أشهد بأن نومورا كان مخلصا وصادقا في محاولته تجنب الحرب بين بلاده وبلادي » (مذكرات كوردل هل (٢) ص ٩٨٧ .

٣ ـ تريفوس ـ « المانيا والحياد الامريكي ـ ١٩٣٩ ـ ١٩٤١ ص ١٠٢ .

٤ ـ تريفوس ـ المانيا والحياد الامريكي ص ١٠٣ .

الشهر نفسه مفاوضاته مع السفير الياباني نتيجة قيام اليابانيين بغزو الهند الصينية الفرنسية . وقد استؤنفت هـــذه المحادثات في منتصف شهر آب تقريبـــاً عندما اقترحت الحكومة اليابانية ، عقد اجتماع شخصي بين الأمير كونويي رئيس وزراء اليابان وبين الرئيس روزفلت بقصد الوصول الى تسوية سلمية . وبالطبـع لم ترض برلين عن هذه الخطوة مطلقاً ، وسرعان ما هرع اوت الذي لا يحس بأي تعب او نصب ، الى وزارة خارجية طوكيو للاعراب عن امتعاض المانيا من هذا التحول في الاحداث . وأبلغه وزير الخارجية أمير البحر تويودا ونائبه أمـــاو ، بصراحة ان المحادثات المقترحة بين كونويي وروزفلت ، لن تؤدي إلا الى تحقيق اهداف الميثاق الثلاثي التي ترمي ، كما أراد تذكيره الى «منع امريكا من الاشتراك في الحرب » [١].

وعندما استمرت محادثات هل ـ نومورا في الخريف ، تحوّلت الويلهمشتراسة من جديد الى اساليبها التي سبق لها اتباعها في الربيع. وقد أصرّت على طوكيو بوجوب اصدار تعليماتها الى نومورا لتحذير الولايات المتحدة من استمرار سيرهـا في اعمالها غير الودية تجاه المحور الأوروبي ـ المانياوايطاليا ـ لأن هذا الاستمرار قد يؤدي الى اشعال نيران الحرب بينها وبينها ، وستجد اليـابان نفسها في مثل هذه الحالة مضطرة الى الاشتراك معها في حربها . ويتبين من هذا ، ان هتلر كان لايزال راغباً في عدم دخول امريكا الحرب ، وقد قام بخطوته هذه في الحقيقة « لبلف » واشنطن وحملها على البقاء بعيدة عنها ، وتقديم بعض العون في الوقت نفسه له ، عن طريق تخفيف اعمال امريكا الحربية في الاطلسي .

وعلم وزير الخارجية هل فوراً بهذا الضغط الألماني الجديد ، ويرجع الفضل في معرفته له ما سمي « بالسحر » ، وهي طريقة مكنت الحكومة الامريكية منذ انتهاء عام ١٩٤٠ ، من حل جميـع البرقيات والرسائل اللاسلكية اليابانية حـتى ولو كانت في اعقد الرموز اليابانية ، وسواء منها ما كان متبادلاً بين طوكيـــو

---

١ ـ المؤامرة النازية والعدوان (٦) ص ٥٤٦ ـ ٥٥١ .

وواشنطن أو بينها وبين برلين وغيرها من العواصم . وقد نقـــل الطلب الألماني برقياً الى نومورا من وزير خارجيته توبودا في السادس عشر من تشرين الأول عام ١٩٤١ ، مرفقاً بالتعليمات اللازمة لتقديمه بصورة مخففة الى هل [١] .

وسقطت حكومة كونوبي في ذلك اليوم ، وحلت محلها حكومة عسكرية يرئسها الفريق المحارب: السريـع الغضب هيديكي توجو . وهرع الفريق اوشيما ، وهو من نفس الطراز المحارب الى وزارة الخارجية في برلين ، لينقل الى الحكومة الألمانية الانباء السارة وقال السفير ان استلام توجو الحكم كرئيس للوزراء يعني ان اليابان ستزداد تقرباً من شريكتيها في المحور ، وان محادثاتهـــا مع واشنطن ستتوقف . وقد أهمل السفير سواء عن قصد او بلا قصد ابلاغ اصدقائه النازيين ما سيؤدي اليه وقف هذه المحادثات من نتائج ، وان تعيين توجو رئيساً للوزراء، يعني والحالة هذه اكثر بكثير مما توهموه هم ، وان هذه الحكومة الجديدة تعبـير عن التصميم على حرب الولايات المتحدة إلا اذا أدت مفاوضات واشنطن الى نهاية سريعة ، بقبول الرئيس روزفلت الشروط اليابانية لاطلاق يدها لا في محاربـــة روسيا بل في احتلال جنوب شرقي آسيا . ولم يحلم هتلر أو ريبنتروب قط بهـذا الاتجاه الجديد ، اذ انهما كانا لا يزالان يتصوران اليابان نافعـــة ومفيدة للمصالح الالمانية ، اذا هاجمت سيبريا وسنغافورة وافزعت واشنطن وحملتهـــا على القلق تجاه المحيط الهادي ومنعتهـــا من دخول الحرب . ولم يستطع الفوهرر أو وزير خارجيته البليد بالطبـع ، ان يفهما ابداً ان فشل مفاوضات نومورا ـ هـل في واشنطن ، وهو ما كانا يرغبان فيه رغبة عظيمة سيؤدي الى النتيجـــة التي كانا يحاولان تجنبها منذ أمد طويل الى ان يكون الوقت قد بات مناسباً لوقوعهـا ، وهي دخول امريكا في الحرب العالمية [٢] .

---

١ ـ مذكرات هل ص ١٠٣٤ . ويوجد نص برقيات توبودا الى نومورا في « الهجوم على ميناء اللؤلؤ ـ شهادات امام اللجنة المشتركة للتحقيق في هجوم ميناء اللؤلؤ (١٢) ص ٧١ ـ ٧٢

٢ ـ تكشف مذكرات الامير كونوبي التي وضعها بعد الحرب ، النقاب عن انه اضطر في الرابع من آب الى الموافقة على طلب للجيش ، بان يخرج من الاجتماع المقترح مع الرئيس =

وبدأت الاحداث تتلاحق الآن وبسرعة هائلة .

ففي الخامس عشر من تشرين الثاني ، وصل الى واشنطن سابورو كوروزو ، مبعوثاً خاصاً من الحكومة اليابانية ليساعد نومورا في مفاوضاتـه . ولكن وزير الخارجية هل ، سرعان ما أحس أن هذا الدبلوماتي ، الذي وقع في برلين بالنيابة عن حكومته ، الميثاق الثلاثي . والذي تبدو منه علائم تشيّعه للألمان ، لم يحمل معه أية اقتراحات جديدة . وخيل للوزير ان مهمته تنحصر في اقناع واشنطن بقبول الشروط اليابانية فوراً ، أو تهدئة الحكومة الامريكية في حالة فشله في الشق الأول ، عن طريق مواصلة المباحثات الى ان تكون قـد غدت متأهبة لتوجيه ضربة مفاجئة ثقيلة[1] . ووصلت الى نومورا من طوكيو ، في التاسع عشر من تشرين الثاني ، رسالة « الرياح » المشؤومة ، وقد تمكن مسجلو الرموز في وزارة الخارجية الامريكية من حلها واطلاع هل عليها . فلقد ذكرت الرسالة للسفير انه في حالة سماعه من مذيـع الانباء على اذاعـــة طوكيو القصيرة ، التي تلتقطها السفارة يومياً ، عبارة « رياح شرقية وامطار » ، فإن هذه العباره تعني ان الحكومة اليابانية قد قررت الحرب مع امريكا . وعلى السفير في هذه الحـالة وعند تلقيه هذا الإنذار ، ان يتلف جميع الرموز والأوراق السرية فوراً .

واستفاقت برلين الآن على ما هو جارٍ . ففي اليوم الذي سبق تاريخ رسالة « الرياح » ، أي في الثامن عشر من تشرين الثاني ، فوجيء ريبنتروب الى حـد ما ، بطلب من طوكيو ، تسأل فيه المانيا توقيـع معاهدة تتعهد الدولتان فيهـا بعدم عقد أي صلح منفرد مع اعداء مشتركين . ولم يفسر اليابانيون ما يعنونه بكلمة « اعداء » ، ولكن وزير خارجية النازي أمـــل ولا شك في ان تكون روسيا في مقدمة هؤلاء الاعداء . ووافق على الاقتراح « من ناحية المبدأ » ، ولعله كان واقعاً تحت تأثير الاعتقاد « اللذيذ » بأن اليابان توشك في النهاية على الوفـاء

= روزفلت في حالة رفض الرئيس لطلبات اليابان « مصمما على الحرب مع الولايات المتحدة » (هل – مذكرات – ص ١٠٢٥ – ١٠٢٦) .

١ – كوردل هل – مذكرات . ص ١٠٦٢ – ١٠٦٣ .

بوعودها الغامضة في ضرب الاتحـاد السوفياتي في سيبريا . ولم يكن ثمـة شك في ان برلين قد رحبت بهذه الخطوة التي جاءت في وقتهـا ، اذ ان مقاومة الجيش الاحمر على طول الجبهة الواسعة ، كانت قد غدت هائـلة . وكان الشتاء الروسي قد بدأ في قرع الابواب ، في وقت ابكر ممـا كان متوقعاً . وخيل للألمان ان هجوماً يابانياً على فلاديفوستوك وعـلى المقاطعات البحرية الروسية في المحيط الهادي ، قد يؤدي الى مزيد من الضغط الذي يقود بدوره الى انهيار السوفيات .

وسرعان ما طاش سهم ريبنتروب ، وخابت آمـاله . فقد تلقى في الثالث والعشرين من تشرين الثاني برقية من سفيره أوت في طوكيو ، يقول فيها ان جميع الدلائل تشير الى ان اليابانيين ينوون التحرك جنوباً ، بقصد احتـلال سيام وجزيرة بورنيو التي تسيطر عليها هولندة ، والغنية بحقول زيتها ، وان الحكومة اليابانية تود ان تعرف اذا كانت المانيا على استعداد للوقوف الى جانبها في حـالة خوضها غمار حرب ما . وكانت هذه البرقية تعني بوضوح ان اليابان لن تهاجم روسيا ، وانما تفكر بشن « حرب اخرى » مـع هولندة وبريطانيا في جنوب المحيط الهادي ، قد تدفعها الى الاشتباك في نزاع مسلح مع الولايات المتحدة . ولكن ريبنتروب وأوت ، لم يفهـما النقطة الاخيرة . وتظهر البرقيات المتبـادلة بينهما في هذه الايام انه على الرغم من ادراكهما الآن ، ادراكاً بعث خيبة الأمـل في نفسيهما . من ان اليابان لن تهاجم روسيا ، إلا انهما اعتقدا ان حركتها جنوبـاً تستهدف ممتلكات هولندة وبريطانيا ، ولا علاقة لها بالولايات المتحدة . وهكذا سيظل العم سام بعيداً ، تحقيقاً لرغبة هتلر ، الى ان يحين دوره[1] .

ويرجع سوء تقدير الألمان للموقف الى حد كبير الى امتناع اليابانيين في هذه المرحلة عن اطلاع الحكومة الألمانية على حقيقة قراراتهم القدرية بصدد امريكا . وكان وزير الخارجية هل ، احسن اطلاعاً من الألمان ، بفضل عمليـة « السحر » الرائعة في حل الرموز . وكان قد عرف في الخامس من تشرين الثـاني ان وزير

---

١ ـ الوثيقتان (٤٠٧٠) و (٤٠٧٠ ب) ـ تريفوس ـ المانيا والحياد الامريكي ص ١٤٠ ـ ١٤١ .

الخارجية اليابانية الجديد ، شيغينوري توغو ، قد ابرق الى نومورا ، يحدد فيه الخامس والعشرين من الشهر آخر موعد لتوقيع الاتفاق مع الحكومة الامريكية على اساس الشروط اليابانية ، وقدمت اليابان اقتراحاتها النهائية الى واشنطن في العشرين من تشرين الثاني . وقد عرف هل وروزفلت ان هذه الاقتراحات نهائية ، اذ ان عملية « السحر » اطلعتهما بعد يومين على برقية مرسلة من توغو الى نومورا وكوروزو تبيّن هذه الحقيقة بوضوح ، وتؤجل الموعد النهائي للاتفاق حتى التاسع والعشرين ... وهذه هي البرقية :

« هناك اسباب لا تستطيعان فهمها تحتم علينا الرغبة في الوصول الى تسوية للعلاقات اليابانية – الامريكية قبل الخامس والعشرين من هذا الشهر . أما اذا كان في الامكان استكمال التوقيع قبل التاسع والعشرين ، فقد قررنا الانتظار حتى ذلك التاريخ . ونحن جادون كل الجد هذه المرة ، ولا يمكن تغيير الموعد النهائي . أما بعد هذا التاريخ فستتوالى الحوادث على نحو آلي رتيب »[1] .

وكان الخامس والعشرون من تشرين الثاني تاريخاً دقيقاً كل الدقة . ففي ذلك اليوم ابحرت قوة الحاملات اليابانية متجهة الى ميناء اللؤلؤ . ومضى كوردل هل في واشنطن الى البيت الابيض لتحذير مجلس الحرب من الخطر الذي تواجهه البلاد من اليابان ، ويؤكد لقادة الجيش والاسطول الامريكيين احتمال قيام اليابان بهجمات مباغتة . واقيم في برلين في ذلك اليوم احتفال فخم الى حدٍ ما ، جددت فيه دول المحور الثلاث وسط الاحتفالات وتظاهرات الابهة ميثاق مكافحة الشيوعية (الكومنترن) لعام ١٩٣٦ . وكانت هذه الحركة مجرد ايماءة خالية من الاهمية . اذ ان هذا الميثاق ، كما دوّن بعض الألمان ، لم يعمل شيئاً لادخال اليابان في الحرب ضد روسيا . لكنها كانت فرصة اتيحت لريبنتروب الشغوف بالابهة ليحمل على روزفلت ناعتاً إياه « بمجرم الحرب الأول » وليذرف

١ – كوردل هل – مذكرات ص ١٠٥٦ و ١٠٧٤ .

دموع التماسيح على « الشعب الامريكي الصادق المتدين » الذي يتعرض لخديعة مثل هذا القائد الذي لا يعرف المسؤولية .

ويبدو ان وزير الخارجية النازي قد ثمل بهذه العبارات التي استخدمها . وراح يستدعي اوشيما عشية الثامن والعشرين من تشرين الثاني ، عقب خروجه من مجلس حرب طال اجتماعه ، رئسه هتلر . واعلن للسفير الياباني ان الموقف الألماني من الولايات المتحدة قد « تصلّب الى حدٍ كبير » . وابرق السفير بهذه المعلومات الجديدة الى طوكيو بسرعة . وبدا ان سياسة هتلر الرامية الى بذل كل جهد للابقاء على امريكا خارج الحرب الى ان تكون المانيا قد باتت مستعدة لها ، غدت الآن منبوذة . فقد تحول ريبنتروب فجأة الى موقف من يحث اليابان على محاربة الولايات المتحدة وبريطانيا العظمى واعداً إياها بدعم الرايخ الثالث . وبعد ان حذر الوزير ، السفير الياباني من « ان تردد اليابان الآن ... قد يؤدي الى تركيز كل ما لدى بريطانيا وامريكا من قوة عسكرية ضدها — وهي نظرية لا شك في سخفها طالما ان الحرب في اوروبا لم تكن قد انتهت ـ مضى قائلاً لزائره :

« لقد صدق هتلر اليوم عندما قال ان ثمة خلافات جوهرية في حق الوجود بين المانيا واليابان والولايات المتحدة . وقد تلقينا معلومات تقول ، بعدم وجود أمل عملي في الوصول بالمفاوضات اليابانية ـ الامريكية الى نهاية ناجحة ، وذلك بسبب تعنّت الولايات المتحدة في موقفها .

« فإذا صحت هذه المعلومات ، واذا كانت اليابان قد توصلت الى قرار بحرب بريطانيا والولايات المتحدة ، فإني واثق من ان هذا القرار ان يكون في مصلحة المانيا واليابان المشتركة فحسب ، بل سيؤدي الى أحسن النتائج بالنسبة الى اليابان نفسها » .

ودهش السفير الياباني ، وهو رجل قصير مكتنز الجسم من هذا الحديث دهشة ارتياح . ولكنه اراد ان يتأكد مما سمعه ، وان ما فهمه هو الصحيح ،

فراح يسأل الوزير : « هل تعني سعادتك ان حالة من الحرب الفعلية ستقوم بين المانيا والولايات المتحدة ؟ »

وتردد ريبنتروب قليلاً ... وخيل اليه انه افرط في حديثه . ثم قال : « ان روزفلت رجل متعصب لرأيه ، ويستحيل على المرء ان يتكهن بما سيلجأ اليه من اجراءات » .

وبدا هذا الرد غريباً وغير مرض الى اوشيا ، وذلك بالنسبة الى ما قاله الوزير قبل لحظات ، وما لبث ان عاد الى النقطة الاساسية قبل انتهاء المقابلة. وراح يسأل ريبنتروب : « ترى ماذا سيكون موقف المانيا اذا توسعت الحرب فعلاً لتشمل بلاداً كانت ولا تزال تساعد بريطانيا ؟ . ورد ريبنتروب قائلاً :

« اذا اشتبكت اليابان في حرب مع الولايات المتحدة ، فإن المانيا ستشترك في هذه الحرب فوراً وليس ثمة احتمال مطلقاً لدخول المانيا في صلح منفرد مع الولايات المتحدة في مثل هذه الظروف ، ان الفوهرر واضح كل الوضوح في هذا الموقف » [1] .

وكانت هذه هي الضمانة الصريحة التي تنشدها الحكومة اليابانية . فلقد سبق لهتلر ان قدم مثل هذا الوعد في الربيع المنصرم لماتسوكا ، ولكن خيل لليابان ان هذا الوعد قد نسي في خضم ما تلاه من احداث . ولا سيما اثر ما أحس به هتلر من سخط على رفض اليابان الاشتراك معه في حربه ضد روسيا . ولم يبق من وجهة النظر اليابانية إلا ان تحمل المانيا على تضمين هذا الوعد في وثيقة خطية . وابرق الفريق اوشيا بهذه المعلومات وهو يكاد يرقص فرحاً الى طوكيو في التاسع والعشرين من تشرين الثاني . وسرعان ما وصلت اليه في برلين تعليمات جديدة في اليوم التالي تقول ان « محادثات واشنطن قد قطعت ... » ومضت الرسالة تقول :

« فهل لسيادتك ان تقابل المستشار هتلر على الفور ووزير

---

١ ـ المؤامرة النازية والعدوان (٧) ص ١٦٠ ـ ١٦٣ .

خارجيته ريبنتروب وان تنقل اليها بصورة مكتومة ملخصاً لما وقع من تطورات . قل لها ان انكلترا والولايات المتحدة قد اتخذتا اخيراً موقفاً استفزازياً . وقل لها ايضاً ان هاتين الدولتين تضعان الخطط لنقل قواتها العسكرية الى اماكن عدة في شرق آسيا ، واننا نجد انفسنا مرغمين على مقابلتها بالمثل ونقل قواتنا ايضاً الى اماكن جديدة . وانقل اليها بصورة سرية للغاية ان ثمة خطراً كبيراً في ان الحرب قد تنشب فجأة بين اليابان والدولتين الانكلوسكسونيتين اثر بعض التصادم في الاسلحة ، وأضف الى ذلك ان موعد اندلاع هذه الحرب قد يأتي في وقت اسرع مما يحلم فيه أي انسان »[1] .

وكان اسطول الحاملات الياباني قد قطع الآن في طريقه الى ميناء اللؤلؤ . وغدت اليابان على عجلة من أمرها ، فهي تريد من المانيا التوقيع خطياً على وعدها . وفي نفس اليوم الذي كان اوشيما يتلقى فيه تعليماته الجديدة من طوكيو ، أي في الثلاثين من تشرين الثاني ، كان وزير خارجية اليابان يتشاور في طوكيو مع السفير الالماني اوت ، مؤكداً له ان محادثات واشنطن قد تحطمت بسبب رفض اليابان الموافقة على طلب امريكا بأن تتخلى عن الميثاق الثلاثي . وأعرب عن أمله في ان يقدر الألمان لبلاده هذه التضحية دعماً للقضية المشتركة .

وقال توغو لزائره اوت : « ان هناك قرارات خطيرة على وشك الوقوع . فالولايات المتحدة تستعد استعداداً جدياً للحرب ، ولا يساور اليابان أي خوف من انقطاع المفاوضات . وهي تأمل في مثل هذه الحالة ان تقف المانيا وايطاليا الى جانبها تنفيذاً للميثاق الثلاثي » .. وابرق اوت الى برلين يقول :

« قلت للوزير انه لا يمكن ان يكون ثمة شك في موقف المانيا

---

١ ـ الهجوم على ميناء اللؤلؤ (١٢) ص ٢٠٤ . والمؤامرة النازية والعدوان (٦) ص ٣٠٨ ـ ٣١٠ ويقول كوردل هل انه تلقى صورة من هذه البرقية عن طريق عملية « السحر » . ويتبين من هذا ان كلا من واشنطن وبرلين كانت تعرفان في نهاية تشرين الثاني ان اليابان قد تهاجم الولايات المتحدة « في وقت اسرع مما يحلم فيه أي انسان » (هل ـ مذكرات ص ١٠٩٢).

المقبل . وعاد الوزير الياباني فصرح انه يفهم من كلامي ان المانيا ستعتبر في مثل هذه الحالة ان علاقتها باليابان اضحت قضية مصير مشترك . ورددت بأنني اعتقد ان المانيا على استعداد حتماً لعقد اتفاق بين الدولتين على هذا الاساس » [١]

عشية الهجوم على ميناء اللؤلؤ

كان الفريق اوشيما ، سفير اليابان في برلين من عشاق الموسيقى الكلاسيكية الالمانية النمسوية ، وعلى الرغم من خطورة الوضع وحراجته مضى الى النمسا ، ليتمتع بحضور عيد « موزار » فيها . ولكن قدر له ان لا يتمكن طويلاً من متابعة الاستماع الى معزوفات الموسيقار النمسوي العظيم . فقد تلقى السفير نداءً عاجلاً من برلين في الأول من كانون الأول ، وطار الى سفارته ليتسلّم تعليمات حكومته الجديدة ، التي حثته على العمل فوراً لضمان توقيع المانيا على الاتفاق الجديد . اذ ان الموقف لا يحتمل أي ابطاء .

ولكن ريبنتروب جمد الآن وتردد بعد ان وجد نفسه « في زاوية » ، لا يستطيع الخروج منها . ويبدو انه ادرك للمرة الأولى ادراكاً تاماً نتائج الوعود المتهورة الطائشة التي قطعها لليابانيين فحاول الآن التملص منها ، والوقوف موقفاً فاتراً . وراح يقول : لأوشيما في ساعة متأخرة من ليلة الأول من كانون الأول . انه يجد نفسه مضطراً لاستشارة الفوهرر اولاً قبل اتخاذ اي التزام محدود . وعاد السفير الياباني الى الويلهلمشتراسة يوم الاربعاء في الثالث من كانون الأول ، ملحفاً على عقد الاتفاق الجديد ، ولكن ريبنتروب دفعه مسوّفاً مثل هذه الخطوة . وقال يرد على رجاء السفير وتأكيده بأن الوضع بات دقيقاً لا يحتمل أي ابطاء ، انه على الرغم من تأييده شخصياً لعقد مثل هذا الاتفاق

٢ ــ المؤامرة النازية والعدوان (٥) ص ٥٥٦ ــ ٧٥٥ .

الخطي ، الا انه لايرى مندوحة عن تأجيل القضية الى ان يعود الفوهرر من مقر قيادته في وقت لاحق من الاسبوع . وكان هتلر قد طار في الحقيقة ، كما روى شيانو بشيء من الفرح في يومياته ، الى الجبهة الجنوبية في روسيا للاجتماع الى الفريق فون كلايست « الذي كانت جيوشه تواصل التراجع تحت ضغط هجوم روسي غير متوقع »

وكان اليابانيون قد استداروا في هذا الوقت ، نحو موسوليني ايضاً ، الذي لم يكن مشغولاً في أية جبهة من الجبهات . وكان السفير الياباني في رومة ، قد زار الدوتشي في الثالث من كانون الأول ، وطلب اليه رسمياً ان تعلن ايطاليا الحرب على الولايات المتحدة ، تنفيذاً للميثاق الثلاثي ، حالما تشتبك اليابان معها في حرب . وأراد السفير ايضاً ان يحصل على معاهدة مع ايطاليا تؤكد استحالة قيام صلح منفرد . وروى شيانو في يومياته ان المترجم الايطالي كان « يرتجف كورقة على شجرة ». ورد الدوتشي بأنه سيكون «سعيداً» للاستجابة الى طلب اليابان بعد التشاور مع برلين .

ووجد شيانو في اليوم التالي برلين قد غدت حذرة كل الحذر ودوّن في مستهل يوميته للرابع من كانون الاول يقول :

« من المحتمل ان يمضي الألمان في هذا الطريق ، اذ لا طريق سواها امامهم ، ولكن فكرة استفزاز امريكا على التدخل ، فكرة يمجها الألمان ، ويزداد كرههم لها . اما موسوليني فسعيد لمثل هذه الخطوة » .

وكان القرار في موضوع كهذا ، يتعلق باعطاء تعهد رسمي لليابان ، من حق سيد الحرب النازي وحده . ولا عبرة لرأي ريبنتروب ، على الرغم من ان هتلر كان لايزال يولي آراء وزير خارجيته بعض الاهتمام مما يثير الدهشة . ويبدو ان وزير الخارجية تمكن ليلة الرابع ـ الخامس من كانون الأول من الحصول على موافقة الفوهرر ، وراح يسلّم السفير الياباني في الساعة الثالثة صباحاً مسوّدة مشروع اتفاق تتعهد المانيا بموجبه بأن تنضم الى اليابان في حربها ضد الولايات

المتحدة وبأن لا تعقد اي صلح منفرد معها . وبعد ان اتخذ هذه الخطوة القدرية، واتبع زعيمه في « قلب » السياسة التي تمسك بها بإصرار مدة سنتين ، رأساً على عقب ، لم يستطع ريبنتروب إلا ان يحـاول التأكد من ان حليفه الايطالي ، سيسير في ركابه . وقد استهل شيانو يوميته للخامس من كانون الاول على النحو التالي :

« قضيت ليلة قطع علي هدوءها ريبنتروب بأرقه وقلقه . فبعد تسويف ومماطلة داما يومين ، بات الآن لا يستطيع إضاعة دقيقة واحدة في الرد على اليابانيين. وقد بعث الي في الساعة الثالثة صباحاً سفيره ماكنزن ، ليقدم إلي في بيتي مشروعاً بميثاق ثلاثي للتدخل الى جانب اليابان مع الوعد القاطع بعدم عقـد أي صلح منفرد . وأراد مني الألمان ايقاظ الدوتشي في هذه الساعة المتأخرة ، ولكنني امتنعت عن ايقاظه وسر الدوتشي من موقفي غاية السرور » .

وأعد اليابانيون مشروع اتفاق أقره هتلر وموسوليني ولكنهما لم يوقعاه بعد، وكان هذا مصدر قلق لليابانيين . وشكوا في ان مماطلة الفوهرر ناجمة عن الرغبة في المقابلة بالمثل ، أي ان تنضم اليابان الى المانيا في حربها مع روسيا مقابل انضمام هذه اليها في حربها ضد الولايات المتحدة . وقد ضمن وزير خارجية اليابان برقيته التي بعث بها الى سفيره اوشيما في برلين في الثلاثين من تشرين الثاني تعليماته اليه عن الطريقة التي يعالج فيها هذه المشكلة المعقدة إذا اثارها الألمان والايطاليون اذ قال :

« واذا سألوك عن موقفنا من السوفييت ، أجب بأننا قد اوضحنا موقفنا من الروس في اليابان الذي اصدرناه في تموز الماضي. وقل لهم اننا لا نعني بتحركاتنا جنوباً تخفيف ضغطنا ضد السوفيات ، واننا في حالة اشتراك روسيا مع انكلترا والولايات المتحدة ضدنا ولجوئها الى الأعمال العدوانية ، سننقلب عليها بكل ما لدينا من قوة . أما الآن فإن من مصلحتنا ان نواصل الضغط جنوباً ، واننـا نؤثر في

الوقت الحاضر الامتناع عن أية حركة مباشرة في الشمال [1] » .

وحل السادس من كانون الاول. وشن جوكوف في ذلك اليوم هجومه المضاد امام موسكو ، وتراجعت الجيوش الالمانية في جو تغمره الثلوج ، ويسيطر عليه البرد القارس. وكان هذا التطور حافزاً يدفع هتلر الى المطالبة بالمثل . وأحسّت وزارة الخارجية في طوكيو بالكثير من القلق تجاه هذا الموضوع . فقد غدت القوة البحرية الامريكية على مرمى من طائراتها التي تحلق من حاملاتها . ولم تكتشف السفن والطائرات الامريكية موقعها حتى هذه اللحظة نتيجة ما يشبه المعجزة . ولكنها قد تكتشفها في أية لحظة . وأبرقت طوكيو رسالة مطوّلة بالراديو الى نومورا وكوروزو في واشنطن تأمرهما فيها بزيارة الوزير كوردل هل في الساعة الواحدة من بعد ظهر الغد ، الأحد ، السابع من كانون الاول ، وان يقدما اليه رفض اليابان للاقتراحات الامريكية الأخيرة والتأكيد له على ان المفاوضات باتت مقطوعة بحكم الواقع . وتحوّلت طوكيو في غمرة يأسها نحو برلين تطلب منها الضمانة الخطية على تأييد المانيا لها . ولم يكن سادة الحرب اليابانيون ليثقوا بالألمان ثقة كافية تمكنهم من ابلاغهم بالضربة التي قد يوجهونها الى الولايات المتحدة في اليوم التالي . ولكنهم كانوا اكثر قلقاً من ان يرفض هتلر اعطاء الضمانة الخطية إلا اذا وافقت اليابان على اعلان الحرب ضد روسيا بالاضافة الى الولايات المتحدة وبريطانيا . وابرق توغو رسالة مطولة في هذا الصدد الى سفيره اوشيا في برلين يحثه فيها على محاولة التسويف مع الألمان في موضوع روسيا ، وان لا يقبل بوجهة نظرهم ، الا اذا اقتضت الضرورة قبوله تمام الاقتضاء. اذ على الرغم من ان القادة العسكريين اليابانيين كانوا مخدوعين في قدرتهم على التغلب على بريطانيا وامريكا إلا انهم كانوا لا يزالون يحتفظون ببعض التعقل الذي مكنهم من ان يدركوا عجزهم عن محاربة الروس في نفس الوقت حتى مع مساعدة المانيا لهم . وتكشف تعليمات توغو الى اوشيا في ذلك اليوم القدري السبت في السادس

---

١ ـ المؤامرة النازية والعدوان (٦) ص ٣٠٩

من كانون الاول ، والتي عثر عليهـــا بين الرسائل التي حل جهاز « السحر » رموزها ، النقاب عن الدبلوماتية التي طبقها ابناء الشمس مع الرايخ الثالث في الساعة الحادية عشرة .. وهذا ما جاء فيها :

«نود لو امكننا تنكّب الصراع المسلح مع روسيا الى ان تسمح به الظروف السوقية . لذا اعمل على تفهيم الحكومة الألمانية وجهة نظرنا هذه وفاوضهم لكي يمتنعوا مؤقتاً على الأقل عن الاصرار على تبادل المذكرات الدبلوماتية في هذا الموضوع .

« وأرجو ان توضح لهم بإسهاب وتفصيل انه بالنسبة الى المواد الامريكية التي تشحن الى روسيا السوفياتية ... فإن هـذه المواد ليست وافرة لـكم ولا جيّدة الكيف ، وانه في حالة شننا الحرب على الولايات المتحدة ، فإننا سنضع ايدينا على جميع البواخر المتجهة الى روسيا السوفياتية. أرجو ان تحاول الوصول الى تفاهم مع الألمان في هذا الصدد .

« أما اذا أصرّ ريبنتروب على ان نقدم نحن بدورنا ضمانة في هذه القضية ، ولما كنا لا نجد مناصاً آخر ، في هذا الصدد ، فعليك في هذه الحالة ان تؤكد لهم اننـــا من ناحية المبدأ سنمنع وصول شحنات المعدات الحربية الامريكية الى روسيا السوفياتية عبر المياه اليابانية ، وان تطلب اليهم الموافقة على اجراء يسمح باضافة بيان آخر ينص على اننا قد لا نستطيع تطبيق هذا المنع تمام التطبيق طالما ان الاسباب السوقية تحتم علينا عدم الاشتباك في حرب مع الاتحاد السوفياتي ، او بكلمة اخرى طالما اننـــا عاجزون عن الاستيلاء على السفن السوفياتية .

« وفي حالة رفض الحكومة الالمانية الموافقة على هذا الوضع ، واصرارها على ربط موافقتهـا على هذا الموضوع ، باشتراكنا في الحرب ، وبتوقيعنا معاهدة تضمن عدم عقد أي صلح منفرد، فإننا

لا نرى مندوحة من تأجيل عقد هذه المعاهدة كلية [1] » .

وكان هذا القلق من جانب اليابانيين في غير موضعه . اذ ان هتلر ، لأسباب جهلها العسكريون اليابانيون كما جهلها كل انسان آخر ، نظراً لخلافها مع المنطق والفهم ، لم يصر على قيام اليابان بمحاربة روسيا بالاضافة الى حربها مع الولايات المتحدة وبريطانيا ، مع ان موقفه هذا كان لا بد وان يتبدل لو ان سير الحرب قد اتخذ اتجاهاً مغايراً .

وعلى أي حال ، فإن اليابانيين كانوا قد قرروا ليلة السبت السادس من كانون الاول عام ١٩٤١ ، توجيه ضربة يتحدث عنها الركبان الى الولايات المتحدة في المحيط الهادي ، وان لم يكن هناك في واشنطن أو في برلين من يعرف متى تقع هذه الضربة وأين توجه . وتولت الاميرالية البريطانية في ذلك الصباح ابلاغ الحكومة الامريكية بأن أسطول غزو يابانياً ضخماً ، شوهد متجهاً عبر خليج سيام نحو برزخ « كرا » (Kra) مما يشير الى ان ابناء الشمس ، كانوا يعتزمون اولاً غزو سيام ولربما الملايو ايضاً . ووجه الرئيس روزفلت في الساعة التاسعة من مساء اليوم نفسه رسالة شخصية الى امبراطور اليابان يرجوه فيها ان يشترك معه في ايجاد « السبل اللازمة لتبديد السحب القاتمة » ، ويحذره في الوقت نفسه من مغبة اندفاع القوات العسكرية اليابانية باتجاه جنوب شرقي آسيا ، مؤكداً له ان مثل هذه الخطوة ستخلق وضعاً « لا يمكن تصوره » . وراح ضباط المخابرات في وزارة البحرية الامريكية يعدون آخر تقرير لهم عن مواقع السفن الحربية الرئيسية في الأسطول الياباني . وجاء في هذا التقرير ان معظم هذه الوحدات قابعة في موانئها الداخلية في اليابان وبينها جميع حاملات الطائرات والسفن الحربية الأخرى التي تؤلف القوة التي كانت في نفس تلك اللحظة قد باتت على بعد ثلاثمائة ميل من ميناء اللؤلؤ ، والتي كانت تعد قاذفاتها للتحليق غداً في مهمتها الخطرة .

---

١ ـ المؤامرة النازية والعدوان (٦) ص ٣١٢ ـ ٣١٣ .

وابلغت وزارة البحرية في نفس تلك الليلة – ليلة السبت – الرئيس والمستر هل ان السفارة اليابانية تقوم باتلاف اوراقها السرية ورموزها . وكان عليها ان تحل اولاً رسالة توغو المطوّلة التي جاءت في اربعة عشر جزءاً . وكان حلاّلو الرموز في البحرية الامريكية يقومون بحل نفس الرسالة وبالسرعة ذاتها ، وفي الساعة التاسعة والنصف مساء وصل الى البيت الابيض ضابط بحري يحمل ترجمة ثلاثة عشر جزءاً منها . وقرأ الرئيس روزفلت هذه البرقية فهتف قائلاً للمستر هاري هوبكنز الذي كان يتشاور معه في مكتبه .. « انها تعني الحرب » ولكن البرقية لا تذكر شيئاً عن مكان الحرب وزمانها ، ولم يعرف الرئيس بالطبع شيئاً عنها . وحتى امير البحر نومورا ، لم يكن يعرف شيئاً عنها ، وكذلك الحال بالنسبة الى ادولف هتلر القابع بعيداً في اوروبا الشرقية ، اذ كان روزفلت يعرف اكثر منه حتماً .

هتلر يعلن الحرب

بوغتت برلين كما بوغتت واشنطن بالهجوم الياباني الكاسح على اسطول امريكا في المحيط الهادي في قاعدته الرئيسية في ميناء اللؤلؤ ، في الساعة السابعة والنصف صباحاً (حسب التوقيت المحلي) من يوم الأحد السابع من كانون الأول عام ١٩٤١ . وعلى الرغم من ان هتلر كان قد وعد ماتسوكا شفوياً بأن تشترك المانيا مع اليابان في الحرب ضد الولايات المتحدة ، وعلى الرغم من صدور وعد مماثل من ريبنتروب وزير خارجيته الى اوشيما سفير اليابان في برلين ، إلا ان التوكيد الخطي لم يكن قد وقع بعد ولم يكن اليابانيون قد فاهوا ببنت شفة الى الألمان عن مشروعهم لميناء اللؤلؤ[١] . يضاف الى هذا ان هتلر كان غارقاً حتى

١ – اعتقد الكثيرون منذ امد طويل ، ان هتلر كان على علم سابق بالساعة المحددة للهجوم على ميناء اللؤلؤ ، ولكنني لم استطع العثور على أية قصاصة ورق في الاوراق الالمانية الصادرة تقيم الدليل على صحة هذا الاعتقاد .

اذنيه في مشاغل الجبهة الشرقية حيث تحتم عليه ان يشدد من عزائم قادته العسكريين الخائرة ، ويحول دون تراجع قواته نحو الغرب .

وكان الظلام قد خيم على برلين عندما التقط جهاز الاستماع الى الاذاعات الأجنبية أول نبأ عن الغارة المتلصصة على ميناء اللؤلؤ . وعندما نقل موظف في قسم الصحافة في وزارة الخارجية الألمانية هاتفياً الى ريبنتروب النبأ الذي هز العالم بأسره ، رفض هذا ان يصدقه في البداية ، وغضب غضباً شديداً لإزعاجه في تلك الساعة . وقد علق على النبأ بقوله · « انه قد يكون من احابيل العدو الدعائية » ، وطلب ان لا يزعجه انسان حتى الصباح [1] . ولعل ريبنتروب كان صادقاً للمرة الوحيدة في حياته عندما شهد في محاكمات نورمبرغ « بأن الهجوم جاء مباغتة كاملة لنا. فلقد كنا نتوقع هجوماً يابانياً على سنغافورة او على هونغ كونغ . ولكننا لم نتوقع مطلقاً ان يستهدف الهجوم الياباني الولايات المتحدة ، اذ اننا لم نكن نعتبر ان هذا الهجوم في مصلحتنا [2] » . ولكنه كان كاذباً عندما قال للمحكمة ان الهجوم قد آلمه ، اذ انه احس بالسعادة الغامرة تجاهه ، وكان هذا هو انطباع شيانو الذي استهل يوميته للثامن من كانون الأول على النحو التالي :

« تلقيت هاتفاً ليلياً من ريبنتروب . انه سعيد كل السعادة للهجوم الياباني على الولايات المتحدة . ولقد احسست بالفرح ينطلق من كلماته الى الحد الذي ارغمني على تهنئته ، على الرغم من اني لم اكن واثقاً من ان هذا التطور لمصلحتنا ... ورأيت موسوليني سعيداً ايضاً للانباء ، فلقد كان منذ عهد بعيد يود توضيح الموقف بين امريكا والمحور » .

ومضى الفريق اوشيما في الساعة الواحدة من بعد ظهر الاثنين في الثامن من كانون الأول الى الويلهلمشتراسة ، ليحمل ريبنتروب على توضيح موقف المانيا .

---

١ ـ شميدت ـ ترجمان هتلر · ص ٢٣٦ ـ ٢٣٧ ·

٢ ـ محاكمات كبار مجرمي الحرب (١٠) ص ٢٩٧ ·

وطلب ان تعلن المانيـــا الحرب رسمياً على الفور على الولايات المتحدة . وبعث اوشيما برسالة اذاعية الى طوكيو قال فيها :

« رد ريبنتروب بأن هتلر يجتمع في تلك اللحظة في مؤتمر في مقر قيادته العامة الى المختصين ليبحث معهم في الشكليات المتعلقة باعلان الحرب ، ليضمن تأثيراً مؤاتياً على الرأي العام الألمـــاني . ووعد الوزير بأنه سينقل رغبتـكم فوراً الى هتلر ، ويعمل كل ما في وسعه لتحقيق هذه الرغبة فوراً » .

وابلغ وزير خارجية النازي السفير الياباني ايضاً ، وفقاً لمـــا ورد في برقية الاخير الى طوكيو ، بأن هتلر اصدر في صبـــاح ذلك اليوم ذاته « اوامره الى الاسطول الألماني لمهاجمة السفن الامريكية حيثما وجدها وحيثما يلقاهـا [1] » . ولكن الديكتاتور تردد في اعلان الحرب [2] .

ويقول التقويم اليومي الذي يسجل حركات الفوهرر ، ان هتلر سارع بالعودة الى برلين ليلة الثامن من كانون الأول فوصلها في الساعة الحادية عشرة من صبـــاح اليوم التالي . وادّعى ريبنتروب في نورمبرغ ، انه بيّن للزعيم ان المانيا ليست ملزمة بموجب نصوص الميثاق الثلاثي باعلان الحرب ضد الولايات المتحدة لأن اليابان هي المعتدية كما هو واضح كل الوضوح ... ومضى يقول :

« يلزمنا الميثاق الثلاثي بمساعدة اليابان في حالة واحـدة وهي ان تتعرض اليابان لهجوم من جهة ما ... ومضيت لمقابلة الفوهرر واوضحت له الناحية القانونية للوضع وقلت له ، اننا على الرغم من ترحيبنا بحليف جديد ضد انكلترا ، الا ان هذا الوضع يعني ايضاً ظهور خصم جديد لنا يتحتم علينا ان نعالجه ... هذا اذا أعلنـــا

---

١ ـ المؤامرة النازية والعدوان (٧) ص ١٦٣ .

٢ ـ كان وزير الخارجية اليابانية توغو « يقول في نفس الوقت للسفير الالماني اوت » تنتظر الحكومة اليابانية ايضا ، ان تسارع المانيا الى اعلان الحرب على الولايات المتحدة » (وثائق نورمبرغ الكتاب العاشر قضية وايز ساكر) .

الحرب على الولايات المتحدة .

« وقلت له ان نصوص الميثاق الثلاثي لا تشترط علينا ان نعلن الحرب رسمياً على الولايات المتحدة طالما ان اليابان هي التي هاجمت. وفكر الفوهرر طويلاً في هذه القضية ثم ما لبث ان اتخذ قراراً واضحاً كل الوضوح سرعان ما ابلغنيه ، اذ قال : « اننا اذا لم نقف الى جانب اليابان فإن الميثاق يغدو ميتاً من الناحية السياسية . ولكن هذا لا يعتبر السبب الرئيسي . فالعامل الأول هو ان الولايات المتحدة تطلق النار على بواخرنا . ولقد كان الامريكيون عنصراً قوياً في هذه الحرب وكانوا قد خلقوا بأعمالهم وضعاً يشبه اوضاع الحرب » .

« وكان من رأي الفوهرر في تلك اللحظة أن من الواضح ان الولايات المتحدة ستشن الحرب على المانيا . ولهذا فقد أمرني بأن اسلم الى الممثل الامريكي جواز سفره واوراقه [١] » .

وكان روزفلت وهل ينتظران هذا القرار في واشنطن بكل ثقة . ولقد تعرضا لضغط شديد من جانب الكونغرس ليعلنا الحرب على المانيا وايطاليا في الثامن من كانون الأول أي في نفس الوقت التي أعلناها على اليابان . ولكنهما آثرا الانتظار . وكان قصف ميناء اللؤلؤ قد انقذهما من وضع حائر مرتبك ، وقد جاءتهما المعلومات التي اقنعتهما بأن الديكتاتور النازي العنيد سينقذهما من حيرة اخرى[٢] وكانا قد فكرا طويلاً في الرسالة التي التقطاها والموجهة من السفير اوشيما في برلين الى طوكيو في التاسع والعشرين من تشرين الثاني ، وهي الرسالة

---

١ ـ جمعت هنا بين شهادة ريبنتروب في التحقيق المباشر في نورمبرغ (محاكمات كبار مجرمي الحرب (١٠) ص ٢٩٧ ـ ٢٩٨) وبين بياناته الاخرى الموجودة في المؤامرة النازية والعدوان ـ الملحق ب ـ ص ١١٩٩ ـ ١٢٠٠) .

٢ ـ كنت واقعا في واشنطن في تلك الاونة تحت الانطباع بأنه سيكون من الصعب على الرئيس روزفلت ان يحمل الكونغرس على اعلان الحرب على المانيا . وبدا لي ان ثمة شعورا قويا في كل من المجلسين كما في الجيش والبحرية على أن من واجب البلاد تركيز كافة جهودها =

التي اكدت لليابانيين ان المانيا ستشترك مع اليابان في الحرب. اذا اشتبكت مع الولايات المتحدة فيها . ولم يكن هناك في الرسالة ما يشير الى ان المانيا قد اشترطت تقديم مساعدتها في حالة تعرض اليابان للاعتداء . انها اشبه ما تكون بصك على بياض ، وليس ثمة من ريب في ان اليابانيين كانوا يلحفون على برلين

= على هزم اليابان ، وان عليها ان لا تحمل على عاتقها عبئا اضافيا بقتال المانيا في نفس الوقت .

وقد نقل هانز تومسون القائم بأعمال السفارة الالمانية في واشنطن هذا الشعور الى برلين، لا سيما انه كان كغيره من المبعوثين في الخارج ، لا يعرف شيئا عن حقيقة ما كان هتلر وريبنتروب يدبرانه من خطط . وقد بعث تومسون الى برلين رسالة على الراديو فور انتهاء الرئيس من القاء خطابه في الكونغرس صباح الثامن من كانون الاول ، وهو الخطاب الذي اعلن فيه الحرب على اليابان قال فيها : « تشير الحقيقة الماثلة في تجنب روزفلت ذكر المانيا او ايطاليا في خطابه حتى ولو في كلمة واحدة ، الى ان الرئيس سيحاول اولا تجنب كل ما يؤدي الى تحرج الوضع في الاطلسي » . وراح تومسون يبعث في عشية اليوم نفسه برسالة اخرى عن الموضوع قال فيها : « ما زال الشك قائما فيما اذا كان روزفلت سيطلب اعلان الحرب على المانيا وايطاليا او لا . ومن المنطق بالنسبة الى وجهة نظر القادة العسكريين الأمريكيين ، ان تتجنب بلادهم كل ما يؤدي الى حرب في جبهتين » . وكان القائم بالاعمال الالماني قد اكد في عدة برقيات سبقت هجوم ميناء اللؤلؤ ان الولايات المتحدة ليست على استعداد للحرب في جبهتين . وكان في الرابع من كانون الاول قد نقل الى حكومته برسالة اذاعية ، ما كتبته « الشيكاغو تربيون » عن « الخطط الحربية التي اعدتها القيادة العليا الامريكية وآمالها في هزم المانيا وحلفائها » .

ويؤكد تقرير الصحيفة هذه ـ على حد رواية القائم بالاعمال الالماني ـ ان اشتراك امريكا الكامل في الحرب ، لن يكون قبل تموز من عام ١٩٤٣ ، وان الاجراءات العسكرية ضد اليابان ذات طابع دفاعي .

واكد تومسون في رسالته التي بعث بها الى برلين عشية الثامن من كانون الاول ان الهجوم على ميناء اللؤلؤ سيؤدي حتما الى تخفيف الضغط عن المانيا بالنسبة الى اعمال امريكا العدائية لالمانيا في الاطلسي وراح يقول :

« وتعني الحرب مع اليابان تحول جميع النشاط الى مشاريع التسلح الامريكي نفسها . مما يقلل من مساعدات الاعارة والتأجير ، والى انتقال كل نشاط لامريكا الى المحيط الهادي » .

واني مدين بالنسبة الى البرقيات المتبادلة بين الويلهلمشتراسة وبين السفارة الالمانية في واشنطن اثناء هذه الفترة ، الى وزارة الخارجية الامريكية التي مكنتني من الاطلاع على هذه البرقيات وستنشر هذه البرقيات فيما بعد في سلسلة « وثائق وزارة الخارجية الالمانية ».

الآن في دفع قيمة هذا الصك .

وقد وفت المانيا بالتزامها ، ولكن بعد تردد طويل من جانب سيد الحرب النازي . وقد دعا الرايشستاغ الى الاجتماع في التاسع من كانون الأول ، أي يوم وصوله الى برلين ثم عاد فأجـــل الاجتماع يومين ، أي حتى الحادي عشر من الشهر . ويبدو انه حزم في هذه الآونة امره كما روى ريبنتروب . وكان قد ملّ من الهجمات التي يشنها الرئيس روزفلت عليه وعلى النازية ، وكان صبره قد نفد من الأعمال الحربية التي يشنهـــا الاسطول الامريكي على الغواصات الألمانية في الاطلسي ، والتي ظل امير البحر ريدر يلحف عليه بوجوب مقابلتها بالمثل اكثر من عـــام تقريباً وكانت كراهيته لامريكا والامريكيين قد تزايدت في الآونة الاخيرة ، كما ازداد لديهُ الميل ، وهنا يقبع السوء كل السوء، الى التقليل الى حدٍ خطر من قوة الولايات المتحدة واحتمالاتها العسكرية [1] .

وقـــد بالغ في الوقت نفسه مبالغة ضخمة في تقدير قوة اليابان العسكرية . ويبدو انه اعتقد ، بأن اليابان ، التي كان يعتبر اسطولهـــا اقوى الاساطيل في العالم ، عندما تنتهي من امر البريطان والامريكيين في المحيط الهادي ، ستتحول على روسيا وتساعده على انهاء فتوحاته العظيمة في الشرق . وقد اعرب لبعض اعوانه بعد بضعة شهور ، عن اعتقاده بأن دخول اليابان الحرب « كان ذا قيمة كبيرة لنا ، ولا سيما بالنسبة الى الموعد الذي اختارته » ثم قال :

« لقد جاء اشتراكها هذا في الواقع في نفس اللحظة التي كانت مفاجآت الشتاء الروسي ، تضغط بشدة على معنويات شعبنـــا ،

---

١ ـ قال هتلر لبعض اخدانه بعد شهر واحد ، في حديث له في مقر قيادته في السابع من كانون الثاني عام ١٩٤٢ ... « انا لا ارى مستقبلا مشرقا للامريكيين . فأمريكا بلاد منحلة . وفيها مشاكلها العنصرية ، كما تعاني من الافتقار الى العدالة الاجتماعية . وان عواطفي المناوئة « الامريكانية » هي مشاعر من الكراهية والتقزز ... ويكشف كل ما يتعلق بسلوك المجتمع الامريكي على ان نصف هذا المجتمع « متهود » ، وان النصف الثاني « متزنج » (نسبة الى الزنوج) . فكيف يمكن للمرء ان يتوقع من دولة كهذه ان تظل متماسكة ، لا سيما وناها تقيم كل اعتبارالها على اساس الدولار » (محادثات هتلر السرية . ص ١٥٥) .

وعندما كان كل فرد في المانيا ، واقعاً تحت ضغط الحقيقة القائلة بأن الولايات المتحدة ستشترك في الصراع ان عاجلاً وان آجلاً . ولهذا كان التدخل الياباني مؤاتياً كل المواتاة من وجهة نظرنا [1] »

وليس ثمة من شك في ان ضربة اليابان المتلصّصة والقوية للاسطول الامريكي في ميناء اللؤلؤ قد اشعلت اعجابه واستفزّته ، وقد اشتد هذا الاعجاب من جراء ما فيها من « مباغتة » ، كان يزهو دائماً بتطبيقها. وقد اعرب عن مشاعره هذه للسفير اوشيما في الرابع عشر من كانون الأول عندما انعم عليه بالصليب الاعظم من وسام الاستحقاق للنسر الالماني المذهب اذ قال له :

« لقد اتبعتم الطريقة الصحيحة في اعلان الحرب . فهذه الطريقة هي المثلى دائماً » .

وأضاف انها تشبه طريقته هو ثم قال :

« تتلخص هذه الطريقة في التفاوض اطول زمن ممكن . ولكن اذا رأى المرء ان الجانب الآخر ، غير مهتم إلا بالتسويف والمماطلة ، وبإلحاق العار والمذلة بـه ، دون وجود اية رغبة حقيقية لديه في الوصول الى اتفاق ، فإن عليه ان يضرب فوراً ، وبأقسى ما يمكن من عنف ، وان لا يضيع وقته في اجراءات اعلان الحرب . ولقد انعش فؤاده ما سمعه عن العمليات اليابانية الأولى . فلقد فاوض هو نفسه طويلاً وبمنتهى الصبر مع بولندة ، وكذلك مع روسيا . وعندما ادرك ان الجانب الآخر لا ينوي حقاً الوصول الى اتفـاق ، راح يضرب فجأة وبدون انتظار للشكليات . وسيواصل اتباع هـذا الاسلوب في المستقبل ايضاً [2] » .

وكان ثمة سبب آخر ، حدا بهتلر الى اتخاذ قراره المتسرع هذا باضافة الولايات المتحدة الى قائمة اعدائه الاقوياء . وقد اشار الدكتور شميدت الذي ظل طيلة

---

١ ـ محادثات هتلر السرية . ص ٣٩٦

٢ ـ المؤامرة النازية والعدوان (٥) ص ٦٠٣

ذلك الاسبوع كثير التجوال بين المستشارية ووزارة الخارجية الى هـذا السبب بقوله : « تكوّن لدي الانطباع بأن رغبة هتلر المتأصلة في الشهرة هي التي دفعته الى الرغبة في اعلان الحرب على امريكا قبل ان تبادره هي بهذا الاعلان الذي كان واثقاً من وقوعه [1] » . وقـد ايد سيد الحرب النازي هذه الحقيقة في الخطاب الذي ألقـاه في الرايشستاغ في الحادي عشر من كانون الأول ... اذ قال للنواب « الهتافة » : « سنكون نحن دائماً المبادرين بالضرب . وسنكون دائماً أول من يضرب » .

وسادت الخشية برلين حقاً في العاشر من كانون الأول ، من ان تسبقهـا واشنطن الى اعلان الحرب ، ممـا دفع ريبنتروب الى ارسال برقية حازمة الى ممثله تومسون ، في واشنطن ، يحذره فيها من أي تلميح قد يشير الى ما تنتوي برلين فعله ، في اليوم التالي ، مخافة تسرب هـذا التلميح الى وزارة الخارجية الامريكية . وبعث الوزير النازي في رسالة برقية « بالراديو » في العاشر من كانون الأول الى تومسون نص الاعلان الذي سيتولى هو تبليغه الى القـائم بالاعمال الامريكي في برلين في الساعة الثانية والنصف من بعدِ ظهر الحادي عشر من كانون الأول . وتضمنت تعليماته الى تومسون ان يقوم بزيارة وزير الخارجية هل بعد ساعة واحـدة تماماً أي في الثالثة والنصف من بعد ظهر اليوم نفسه حسب توقيت برلين ، وان يسلمه نسخة من الاعلان ، ويطلب اليه تسليمه جواز سفره ، ثم يسلم مهـام التمثيل الدبلوماتي الالماني في واشنطن الى المبعوث السويسري . وحذر ريبنتروب في نهاية رسالته مبعوثه من أي اتصال بوزارة الخارجية الامريكية قبل تسليم المذكرة مضيفاً قوله : « نود في جميع الظروف والاحتمالات ان لا تسبقنا الحكومة هناك في مثل هذه الخطوة » .

ومهما كانت الدوافع التي حملت هتلر على التردد وتأجيل اجتماع الرايشستاغ مـدة يومين فليس ثمـة من شك بالنسبة الى الرسائـل المتبـادلة بين

---

١ ـ شميدت ـ ترجمان هتلر ص ٢٣٧ .

الويلهلمشتراسة وبين السفارة الالمانية في واشنطن وكذلك بالنسبة الى اوراق اخرى في وزارة الخارجية الالمانية ، في ان الفوهرر اتخذ قراره القدري بإعلان الحرب على الولايات المتحدة في التاسع من كانون الأول ، أي في نفس اليوم الذي عاد فيه الى عاصمته من مقر قيادته في الجبهة الروسية . ويبدو ان الطاغية النازي اراد مهلة اليومين الاضافيين لا ليضمن المزيد من التفكير في الموضوع بل ليعد بعناية خطابه في الرايشستاغ ليؤمن له التأثير اللازم على الشعب الألماني ، الذي كان يدرك تمام الادراك بما يذكره من وقائع الحرب الكونية الأولى ، الدور الحاسم الذي لعبته امريكا بدخول الحرب .

وعهد هتلر في التاسع من كانون الأول الى هانز ديكهوف ألذي ما زال يحمل رسمياً لقب السفير الألماني في الولايات المتحدة ، والذي قبع دون عمل في الويلهلمشتراسة منذ سحبت الدولتان سفيريهما في خريف عام ١٩٣٨ ، باعداد قائمة مطولة عن الأعمال المناوئة لألمانيا التي ارتكبها روزفلت منذ نشوب الحرب ، ليضمنها الفوهرر في خطابه الى الرايشستاغ [١] .

وصدر الأمر الى تومسون في التاسع من كانون الأول، ليحرق جميع اوراقه السرية ومفاتيح الرموز الموجودة لديه. وابرق الى برلين في الحادية عشرة والنصف صباحاً يقول : « نفذت جميع تعليماتكم » . وقد تبيّن الآن ولأول مرة حقيقة ما يدور في برلين ، وبعث في المساء ببرقية الى الويلهلمشتراسة "يقول فيها ان

---

١ ـ كان ديكهوف الذي وصفه هاسيل « بالمستكين بطبيعته » ، قد أعد قبل نحو من اسبوع تلبية لطلب ريبنتروب ، مذكرة مطولة عنوانها « مبادىء للتأثير على الراي العام الامريكي » . وقد تضمنت مبادؤه الاحد عشر .. « ان روزفلت هو الخطر الحقيقي الذي يهدد امريكا ... لليهود تأثير كبير على روزفلت عن طريق فرانكفورتر وباروخ وبنيامين كوهين وصمويل روزغان وهنري مورغنتاو وغيرهم ... يجب ان يكون شعار كل ام امريكية : « انا لم انشىء ولدي ليموت في سبيل بريطانيا » . (من اوراق وزارة الخارجية الالمانية التي لم تنشر بعد) . وكانت نظرة بعض الامريكيين في وزارة الخارجية وفي سفارتنا في برلين طيبة بالنسبة الى ديكهوف الذي اعتبروه خصما للنازية . اما انا فكنت ارى انه يفتقر الى الذكاء اللازم لمن يناهض النازية ، وقد ظل يخدم هتلر حتى النهاية اذ اشغل منصب السفير في اسبانيا بين عامي ١٩٤٣ و ١٩٤٥ .

وزارة الخارجية الامريكية تعرف ايضاً ما هو واقع في برلين . واضاف قائلا : « والمعتقد هنا ان المانيا ستعلن الحرب على الولايات المتحدة في غضون اربع وعشرين ساعة أو انها ستقطع علاقاتها الدبلوماتية بها [1] » .

هتلر في الرايشستاغ - ١١ كانون الأول

خصص هتلر القسم الاعظم من خطابه، الذي ألقاه في الحادي عشر من كانون الأول على المخلوقات « الآلية » التي تحتل مقاعد الرايشستاغ ، والذي دافع فيه عن اعلانه الحرب على الولايات المتحدة خصصه لتوجيه الاهانات الشخصية الى فرانكلين ديلانو روزفلت . وقد اتهم الرئيس بأنه هو الذي استفز الحرب ليغطي فشله في سياسته الاقتصادية المسماة « بالتوزيع الجديد » او « النيوديل » ، كما ذكر مرعداً ومزبداً ان « هذا الرجل وحده » الذي يدعمه اصحاب الملايين واليهود هو « المسؤول عن الحرب الكونية الثانية » . وتفجّر حقد هتلر وغضبه الدفينان على هذا الرجل الذي وقف منذ البداية في طريقه وحال بينه وبين الوصول الى السيطرة العالمية ، والذي ألحق به الاذى دائماً وقدم المساعدات الضخمة الى بريطانيا في اللحظة التي بدت فيها جزيرتها محطمة معزولة وشيكة الانهيار ، والذي وقف اسطوله درعاً في المحيط الاطلسي يفسد عليه خططه ، ويضيع عليه آماله ... وقد استهل هتلر خطابه قائلاً :

---

١ - حث تومسون حكومته على اعتقال المراسلين الصحفيين الامريكيين في برلين انتقاما من اعتقال الحكومة الامريكية عددا من الصحفيين الالمان في الولايات المتحدة . وتشير مذكرة لوزارة الخارجية الالمانية وقعها وكيل الوزارة ابرنست وورمان ومؤرخة في العاشر من كانون الاول الى ان الامر قد صدر باعتقال جميع المراسلين الامريكيين في برلين كعمل « ثأري » . وقد استثني من امر الاعتقال « غيدو ايندريس ، كبير مراسلي « النيويورك تايمز » في برلين « نظرا لمواقفه الودية من المانيا » على حد تعبير وكيل الوزارة المذكور ، وقد يكون هذا القول ظلما للمرحوم ايندريس ، الذي كان يعاني من سوء الحالة الصحية في ذلك الوقت والذي كان مرضه على الغالب السبب في عدم اعتقاله .

« ارجو ان تسمحوا لي بتحديد موقفي من ذلك العالم الآخر ، الذي يمثله رجل كان يؤثر ان يجري احاديثه على مقربة من نيران المدفئة ، بينما كان جنودنا يقاتلون وسط الثلوج وفوق الجليد . انه الرجل الذي يعتبر المسؤول الأول عن هذه الحرب .

«وقد اتغاضى عن الحملات المهينة التي كان يشنها علي هذا الرئيس المزعوم . ولا يهمني قط ، انه يطلق علي اسم قاطع الطريق . فهذا التعبير على أي حال لم يُصغ في اوروبا وانما صيغ في امريكا ، لأن اوروبا تفتقر الى قطـــاع الطرق . يضاف الى هذا انني لا ألوم روزفلت على اهاناته لي ، فأنا اعتبره مجنوناً ، ولا يقل في جنونه عن سلفه ويلسون .. فهـــو اولاً يحرض على الحرب ، ثم يزوّر الاسباب ويزيفها ، ويعود بعد ذلك فيرتدي مسوح النفاق المسيحي ثم يقود الجنس البشري ببطء ولكن باستمرار ، الى الحرب ، مستجيراً بالله ومشهداً اياه على طهارة هجومه ، على النحو المألوف عند قدماء الماسونيين ...

«وقد ارتكب روزفلت سلسلة من ابشع الآ ثام في حق القانون الدولي . فهو يغتصب البواخر بدون حق وبصورة لا مشروعة ، ويستولي ظلماً وعدواناً على ممتلكات الرعايا الألمان والايطاليين ، كما يستخدم وسائل التهديد والنهب والسلب مع اولئك الذين حرمهم من حرياتهم عن طريق اعتقالهم . ومضت هجمات روزفلت الى حــــدٍ بعيد متحدية كل قانون وعرف دوليين ، فأصدر أمره الى الاسطول الأمريكي بمهاجمة السفن التي ترفع العلمين الألماني والايطالي وإغراقهـــا ، مخالفاً بذلك كل شرعة دولية ، وأخذ الوزراء الامريكيون يتبجحون بإغراق الغواصات الألمانية بهذه الطريقة الاجرامية . وهاجمت الطرادات الامريكية سفن المانيا وايطاليا التجارية واستولت عليها واعتقلت ملاحيها .

« وهكذا فشلت جميع الجهود التي بذلتها المانيا وايطاليا للحيلولة دون امتداد الحرب ، وللحفاظ على العلاقات مع الولايات المتحدة على الرغم من الاستفزازات التي لا تطاق والتي ظل الرئيس روزفلت يحترمها سنوات طويلة » .

وراح هتلر يتساءل بعد ذلك عن دوافع روزفلت لمضاعفة المشاعر المناوئة لألمانيا الى حد الحرب . وقدم تفسيرين لها قائلاً :

« انني افهم تمام الفهم ان ثمة مسافات شاسعة تفصل بين آراء روزفلت وآرائي . فروزفلت ينتمي الى اسرة ثرية ، والى الطبقة التي تجد الطرقات امامها في الدول الديموقراطية مفروشة بالورود . أما انا فأنتمي الى أسرة صغيرة فقيرة ، وقد شققت طريقي بالنضال والعمل والجهد وعندما حلّت الحرب العظمى ، كان روزفلت يحتل مركزاً مكنه من تذوق نتائجها الحسنة ليس إلا ، والتي لا يعرفها الا اولئك الذين يفيدون على حساب دماء الآخرين . أما انا فكنت من تلك الفئة التي تطيع الأوامر ، وعدت بالطبع من الحرب التي خدمت فيها جندياً عادياً ، وانا في حالة من الفقر تماثل تلك التي دخلت الحرب فيها في عام ١٩١٤ . وقد اشتركت مع الملايين في مصائرهم ، أما روزفلت فكان مصيره مصير تلك الطبقة التي تعد عشرة آلاف ليس إلا .

« وعندما انتهت الحرب ، حاول روزفلت تجربة حظه في المضاربات المالية . وقد جنى الارباح الطائلة من موجات الغلاء وعلى حساب شقاء الآخرين ، بينما كنت انا مريضاً في المستشفى اعاني الآلام » ..

وأسهب هتلر في هذه المقارنة الفردية ، قبل ان ينتهي الى نقطته الثانية وهي ن روزفلت قد لجأ الى الحرب لتغطية فشله كرئيس للجمهورية وقال :

« جاءت الاشتراكية الوطنية الى الحكم في المانيا في نفس

السنة التي انتخب فيها روزفلت رئيساً للجمهورية ... وهكذا تسلم الزمام في دولة تعاني وضعاً اقتصادياً سيئاً ، بينما تسلمت انا قيادة الرايخ وهو يواجه الدمار المطلق بفضل الديموقراطية ...

« وبينما حققت المانيا في ظل الاشتراكية الوطنية بعثاً لا مثيل له في الحياة الاقتصادية ، أخفق روزفلت حتى في ايجاد أي تحسن مهما كان ضئيلاً في بلاده ... وعلى المرء ان لا يدهش من هذه الحقيقة اذا اخذ بعين الاعتبار ان الرجال الذين دعاهم الى مساعدته أو الرجال الذين دعوه للحكم بعبارة اخرى، يمتون الى العنصر اليهودي الذين تتركز مصالحهم دائماً في تفسيخ البلاد لا في تنظيمها وانضباطها.

« وكانت جميع التشريعات التي استنها روزفلت لسياسته الاقتصادية « التوزيع الجديد » خاطئة مغلوطة . وليس ثمة من شك في ان استمرار هذه السياسة الاقتصادية سيؤدي حتماً الى اخفاق الرئيس في اوقات السلم على الرغم من براعته في الجدل والنقاش . ولو وجد الرئيس في دولة اوروبية ، لتعرض حتماً وفي النهاية الى المحاكمة امام محكمة الدولة ، بتهمة الإتلاف المتعمد للثروة القومية ، وأمام محكمة مدنية عادية، ما كان لينجو حتماً من عقابها بتهمة اتباع الاساليب التجارية الاجرامية . »

وكان هتلر يعرف ان هذا التقيم لسياسة « النيوديل » التوزيع الجديد ، يلقى تأييد الكثيرين من دعاة العزلة من الامريكيين ، كما يلقى تأييد شطر كبير من مجتمع رجال الأعمال . وقد حاول استغلاله الى اقصى حدود الاستغلال ، جاهلاً للحقيقة الواقعة، وهي ان جميع هذه الفئات كغيرها من الفئات الامريكية ، قد سارعت يوم الهجوم على ميناء اللؤلؤ الى تأييد بلادها . وهكذا نراه يمضي مشيراً الى هذه الفئات :

« وقد ادرك الكثيرون من الامريكيين هذه الحقائق وفهموها فهماً كاملاً ، وبينهم بالطبع عدد من ابرز الرجال . وهكذا اخذت

معارضة ضخمة تتجمع فوق رأس هذا الرجل . وخيل اليه ان سبيله الوحيد للخلاص يقوم في تحويل انتباه البلاد قاطبة من السياسة الداخلية الى السياسة الخارجية ... وقد شجعه على تبني هذه الفكرة من يحيط به من اليهود ... وتحلقت حول هذا الرجل جميع حقارات اليهود الشيطانية ، فمد اليها يده متعاوناً معها .

« ومن هنا نشأت الجهود المتزايدة التي بذلها هذا الرئيس الامريكي لخلق الحروب .. وتحرقت في نفسه شهوة عارمة وحيدة سنوات عدة ، وهي ان تنشب الحرب في مكان ما من هذا العالم . »

وعقب ذلك سرد طويل للجهود التي بذلها روزفلت في هذا الاتجاه ابتداء من خطاب « العزل الصحي » في شيكاغو عام ١٩٣٧ ، وذوى صوت هتلر بعد ذلك قائلاً : « وتسيطر على هذا الرجل الآن مخاوف شديدة ، من ان يؤدي حلول السلام في اوروبا ، الى ضياع الملايين من الأموال التي انفقها على التسلح ، مما يحمل الناس الى التطلع اليه على انه « نصاب مخادع » طالما ان ليس ثمة من يهاجم امريكا . ولهذا فقد حزم امره على ان يستفز الآخرين على مهاجمة بلاده . »

واعرب الطاغية النازي عن ارتياحه لأن القطيعة قد وقعت ، وراح يحاول اشراك الشعب الالماني في شعوره هذا ... وقال :

واني لأعتقد انكم جميعاً ، قد شعرتم بالانفراج الآن ، من ان دولة واحدة على الاقل كانت البادئة في اتخاذ الخطوات اللازمة للاعتراض على هذا التشويه المخزي والفريد من نوعه للحق والحقيقة ، واني لعلى يقين من ان الحقيقة الواقعة ، الممثلة في ان الحكومة اليابانية ، وقد سعت الى مفاوضة هذا الرجل سنوات طوالاً ، ملت اخيراً من سخريته بها بطريقة غير كريمة ، قد ارضت الشعب الالماني وغيره من الشعوب الكريمة في العالم ، ارضاءاً عميقاً ... وعلى رئيس الولايات المتحدة ان يدرك اخيراً – واني اقول هذا لأنني اعرف حق المعرفة عقله المحدود – اننا على علم بالهدف من نضاله وهو

تحطيم الدول واحدة اثر اخرى .

« أما الشعب الالماني فلا يطلب احساناً لا من المستر روزفلت ولا من المستر تشرشل ، فكيف يطلبه من المستر ايدن ؟ انه يريد حقه ، ولا شيء غير هذا الحق . وسيؤمن هذا الشعب لنفسه حقه في الحياة ، حتى ولو تآمر عليه الآلاف من امثال تشرشل وروزفلت ...

« ولهذا فقد اعددت العدة اليوم ، لتسليم جوازات السفر للقائم بأعمال امريكا في بلادنا ... » [1]

وعندما وصل هتلر الى هذه النقطة ، قفز جميع اعضاء الرايشستاغ على اقدامهم ، هاتفين ، وضاعت كلماته وسط هرج ومرج اشبه ما يكون ببرج بابل .

وبعد لحظات ، أي في الساعة الثانية والنصف بعد الظهر ، استقبل ريبنتروب في احدى « وقفاته » الجامدة ، ليلاند موريس ، القائم بأعمال امريكا في برلين ، وتركه واقفاً امامه واخذ يتلو على مسامعه اعلان المانيا الحرب ، وبعد ان قدم اليه نسخة من الاعلان ، صرفه من حضرته ... وجاء في الاعلان :

« وعلى الرغم من حرص المانيا الدائم على التمسك بالقواعد التي ينص عليها القانون الدولي في علاقاتها بالولايات المتحدة ، طيلة ايام هذه الحرب ، لجأت الحكومة الامريكية اخيراً الى اعمال حربية مكشوفة ضد المانيا . ولهذا ، خلقت الحكومة الامريكية بأعمالها هذه حالة حرب بين البلدين .

« ولهذا قررت حكومة الرايخ قطع جميع علاقاتها الدبلوماتية مع الولايات المتحدة ، والاعلان بأن هذه الظروف التي خلقها الرئيس

---

١ ـ توجد ترجمة جزئية لخطاب هتلر في كتاب « كلمات هتلر » اعداد غوردون برانج ص ٩٧ ـ و ص ٢٦٧ ـ ٢٧٧ .

روزفلت ، قد دفعتها الى اعتبار نفسها في حالة حرب مع الولايات المتحدة اعتباراً من هذا اليوم . [1]

وانطوى الفصل الاخير من مسرحية اليوم على قيام المانيا وايطاليا واليابان بتوقيع ميثاق ثلاثي يعلن « تصميم الدول الثلاث الذي لا يهن ، على عدم اغماد سلاحها إلى ان تصل الحرب المشتركة ضد الولايات المتحدة وانكلترا الى نتيجة ناجحة » كما تعهدت ايضاً بعدم عقد أي صلح منفرد .

وهكذا نرى هتلر، الذي كان قبل اقل من ستة اشهر لا يواجه إلا دولة واحدة محاصرة هي بريطانيا في حرب بدت له وكأنها قد انتهت لمصلحته، قد دفع اعظم ثلاث دول صناعية في العالم، الى الوقوف ضده، وكان دفعه لها عن عمد وطواعية . مع علمه المطلق بأن القوة العسكرية في مثل هذه الحرب التي يخوضهـا معها ، تعتمد كلية ، وعلى المدى الطويل ، على القوة الاقتصادية . وتملك هذه الدول الثلاث في الوقت نفسه ، تفوقاً عددياً هائلاً في عدد رجالها على دول المحـور الثلاث . ويبدو ان هتلر وقادته العسكريين وامراء بحره قد اهملوا التفكير في هذه الحقائق العارية المجردة ، في ذلـك اليوم العصيب من ايام الشهر الاخير من عام ١٩٤١ .

وقد اهمل الفريق هولدر ، وهو الرئيس الحصيف لهيئة اركان الحرب ، ان يدوّن في يوميته بتاريخ الحادي عشر من كانون الاول ، ان المانيا قد اعلنت الحرب على الولايات المتحدة . واكتفى بأن يذكر حضوره عشية ذلـك اليوم محاضرة القاها قبطان الماني عن « اسس الحرب البحرية بين امريكا واليابان » . ويبدو انه تعمد حصر ما تبقى من يوميته للحديث عن الانباء السيئة التي تصل باستمرار من قطاعات الجبهة الشرقية التي انهكتها الحرب . ويبدو ان افكاره لم تتسع للحديث عن ذلك اليوم الخطير ، الذي تقرر فيه ان تواجه جيوشه التي لحقها الضعف قوات جديدة ستتوافد من العالم الجديد .

ورحب أمير البحر ريدر فعلا بخطوة هتلر الجديدة . وراح يتشاور مـع

---

١ – المؤامرة النازية والعدوان (٨) ص ٤٣٢ – ٤٣٣ .

الفوهرر في اليوم التالي ، أي الثاني عشر من كانون الاول مؤكداً له « ان الوضع في الاطلسي سينفرج بعض الانفراج من جراء التدخل الياباني الناجح » . واندفع يتحدث عن هذا الموضوع فقال :

« وصلت انباء تقول ان امريكا نقلت بعض بوارجها من الاطلسي الى المحيط الهادي . ومن المؤكد ان امريكا ستحتاج الى بعض الوحدات الخفيفة ولا سيما من المدمرات بأعداد متزايدة في المحيط الهادي . وستكون الحاجة الى سفن النقل ماسة جداً ، مما يدعونا الى توقع نقل عدد من بواخر النقل الى المحيط الهادي ، وبذلك يشتد الضغط على ملاحة بريطانيا التجارية » .

لكن هتلر ، الذي غطس هذه « الغطسة » متظاهراً بالشجاعة المتهورة ، ما لبث ان فاء الى عقله ، وأضحى فريسة الشكوك والمخاوف . وتولدت لديه اسئلة عدة أراد توجيهها الى امير البحر الاكبر ، اذ قال يسأله : « هل تعتقد ان العدو ، سيقوم بخطوات قريبة في المستقبل ، لاحتلال جزر الازور والرأس الاخضر ، ومهاجمة داكار ، ليستعيد بعض هيبته التي فقدها ، نتيجة ما مني به من نكسات في المحيط الهادي ؟ » ولكن امير البحر لم يكن يشاركه مخاوفه هذه فرد قائلاً :

« ستجد الولايات المتحدة نفسها مرغمة على تركيز كل ما لديها من قوى في المحيط الهادي في غضون الاشهر القليلة القادمة . ولا تود بريطانيا حتماً كذلك ان تغامر بأية وحدات جديدة بعدما منيت به من خسائر في بوارجها الضخمة . [1] ولا يحتمل مطلقاً ان تكون

---

١ ـ كانت الطائرات اليابانية قد اغرقت قبل يومين اي في العاشر من كانون الاول بارجتين بريطانيتين هما « الامير ويلز » و « ريبالس » ، على مقربة من ساحل الملايو . وادت هذه الخسارة الجسيمة مع ما مني به الاسطول الامريكي من خسائر في سفنه الحربية في ميناء اللؤلؤ في السابع من كانون الاول ، الى التفوق الكامل للاسطول الياباني في المحيط الهادي وبحر الصين والمحيط الهندي . وكتب تشرشل فيما بعد ، يصف هذه الخسارة بقوله : « لم اتلق طيلة ايام الحرب مثل تلك الهزة المباشرة » .

البواخر متوافرة لدى الدولتين للقيام بمثل هذه المهام الاحتلالية أو لنقل المؤن الى هذه القوات المحتلة »

وكان ثمة سؤال آخر ، اكثر أهمية .. فقد قال هتلر : « وهل تعتقد ان هناك احتمالا في ان تتخلى بريطانيا والولايات المتحدة مؤقتاً عن شرق آسيا، وان تركزا اهتمامها على سحق المانيا وايطاليا اولا؟» ورأى امير البحر ثانية انواجبه يقضي بتطمين هتلر فقال :

« أرى ان ثمة استحالة في ان يتخلى العدو عن شرق آسيا ولو مؤقتاً ، اذ ان مثل هذا التخلي يعرض مركز بريطانيا في الهندلخطر جسيم ،ولاتستطيع الولايات المتحدة في الوقت نفسه سحب اسطولها من المحيط الهادي ، طالما ان الاسطول الياباني هو صاحب اليد العليا في هذا المحيط . »

وحاول ريدر كذلك ، ان يبعث المرح في نفس الفوهرر فأبلغه ان ست غواصات المانية « ضخمة » ستمضي« في اسرع وقت ممكن » الى ساحل الولايات المتحدة الشرقي .[1]

وانصرفت افكار القائد الأعلى ، وقادته العسكريين على الفور عن العدو الجديد ، الذي كانوا على ثقة من انشغاله حتى اذنيه في المحيط الهادي ،الى الامعان في دراسة الوضع السيء في الجبهة الشرقية وكذلك في الجبهة الافريقية الشمالية ، حيث كان رومل قد اضطر ايضاً الى التراجع والانسحاب . ولم يقدر لأفكارهم ان تعود الى هذه الناحية الجديدة ، الا بعد انصرام عام واحد ، هو اكثر اعوام الحرب حسماً وقدرية ، اذ وقعت فيه نقطة التحول الفاصلة ،التي لم تكتف بتقرير مصير الحرب التي كان الالمان قد اعتقدوا طيلة عام ١٩٤١ انهم قد كسبوها ، وانما قررت كذلك مصير الرايخ الثالث ، الذي رفعته انتصاراتــه المذهلة في اوائل الحرب ، بسرعة خارقة الى مكانة رفيعة جداً ، دفعت هتلر الى الاعتقاد

---

١ ـ مؤتمرات هتلر في الشؤون البحرية (١٩٤١) ص ١٢٨ ـ ١٣٠ .

مخلصاً ، بأنه – أي الرايخ – سيظل مزدهرا الف عام .

وعندما هلّ مطلع العام الجديد – ١٩٤٢ – كانت تدوينات هولدر في يومياته قد تحولت الى التشاؤم ، اذ كتب يقول في يوميته بتاريخ الثلاثين من كانون الأول عام ١٩٤١ وفي اليوم الذي تلاه ، وهو آخر ايام السنة .. « يوم آخر قاتم كل القتام » . ويبدو ان حاسة رئيس هيئة اركان الحرب السادسة قد دفعته الى توقع اشياء اكثر هولاً وفظاعة .

٢٦

نقطة التحول العظيمة - ١٩٤٢
ستالينغراد والعلمين

عودة المتآمرين الى الحياة

اضرمت النكسات الشديدة التي منيت بها جيوش هتلر في روسيا في غضون شتاء عام ١٩٤١ — ١٩٤٢ ، وصرف عدد من « مشيري » هتلر و « فرقائه » من الخدمة ، الامال من جديد في نفوس المتآمرين على عهد هتلر .

وكان هؤلاء قد اخفقوا في بعث الاهتمام في نفوس كبار القادة العسكريين ، للاشتراك في ثورة ، طالما ان جيوشهم كانت تحطم كل ما امامها ، محققة نصراً سهلاً ، وراء آخر ، وطالما ان امجاد السلاح الالماني ، والرايخ الالماني كانت تحلق الى السماء . اما الآن فقد أخذ الجنود المتعجرفون والذين لا يعرفون الهزيمة ، يتراجعون في الثلوج وفي زمهرير الجو امام عدو برهن على كفايته وقدرته على الوقوف نداً ، وتجاوزت الخسائر في ستة اشهر اكثر من مليون رجل ، بينما صرف من الخدمة عدد من أشهر القادة العسكريين وتعرض بعضهم من امثال هوبنر وسبونيك للعار ، بينما لحق الاذلال بالآخرين واعتبروا اكباش الفداء من الطاغية الذي لا يرحم . (١)

١ — في وسعنا ان نذكر ان قائمة القادة الذين احيلوا الى التقاعد ، تضمنت المشير فون =

وانهى فون هاسيل يوميته بتاريخ الواحد والعشرين من كانون الاول عام ١٩٤١ بقوله : « لقد بات الوقت ناضجاً ومناسباً . وكان هاسيل وزملاؤه المتآمرون على يقين من ان فيلق الضباط البروسيين سيثأر من المعاملة السيئة التي يتعرض لها ، ويثور على جنون القائد الاعلى الذي يقودهم ويقود جيوشهم الى شفير الكارثة في الحرب الروسية . وكان المتآمرون قد اقتنعوا منذ عهد بعيد، كما رأينا من قبل ، بأن القادة العسكريين الذين يتولون قيادة القوات المحاربة هم وحدهم الذين يملكون السلطان الفعلي للاطاحة بالطاغية النازي . وها هي الفرصة متاحة لهم اليوم قبل ان يفوت الاوان . وعامل التوقيت مهم كل الاهمية . ولم يعد في امكان المانيا بعد النكسات التي منيت بها في روسيا ودخول امريكا في حلبة الصراع ان تكسب الحرب . ولكنها لم تخسرها بعد . ففي وسع حكومة مناهضة للنازية في برلين ان تحصل على شروط مؤاتية ، تترك المانيا دولة قوية ، وفي حوزتها بعض المكاسب التي حققها هتلر كالنمسا وبلاد السوديت وبولندة الغربية .

= براوختش القائد العام للجيش والمشير فون رونشتادت والمشير فون بوك ، وهما قائدا مجموعتي جيوش الجنوب والوسط . والفريق غودريان عبقري حرب الدبابات . وسرعان ما لحق بهؤلاء قائد مجموعة جيوش الشمال ، المشير فون ليب ، الذي صرف من الخدمة في الثامن عشر من كانون الثاني عام ١٩٤٢ — ومات المشير فون رايخناو الذي خلف رونشتادت في قيادته في اليوم الذي سبق هذا التاريخ متأثرا من نوبة قلبية . ومات الفريق اوديت من قادة سلاح الطيران منتحرا باطلاق النار على نفسه في السابع عشر من تشرين الثاني عام ١٩٤١ . ونحي نحو من خمسة وثلاثين قائدا من قادة الفيالق والفرق من مناصبهم واستعيض عنهم بآخرين اثناء تراجع الشتاء .

ولم تكن هذه الا البداية . ولخص المشير فون مانشتاين ما وقع للقادة اثناء شهادته في محكمة نورمبرغ ، عندما شرعوا يخسرون المعارك او وجدوا اخيرا الجرأة الكافية لمعارضة هتلر. وقال المشير للمحكمة ... (ان عشرة من مجموع سبعة عشر مشيرا . قد سرحوا الى منازلهم ابان الحرب ، ولقي ثلاثة منهم حتفهم نتيجة المؤامرة على حياة هتلر في العشرين من تموز عام ١٩٤٤ . ولم يتمكن الا مشير واحد من البقاء في مركزه حتى نهاية الحرب . واحيل لمانية عشر فريقا من مجموع ستة وثلاثين على التقاعد ، ومات خمسة منهم نتيجة مؤامرة ، او اقيلوا من مناصبهم طردا . وتمكن ثلاثة من الفرقاء من البقاء في مراكزهم حتى نهاية الحرب . (محاكمات كبار مجرمي الحرب (٢٠) ص ٦٢٥) .

وكانت هـــذه الافكار تسيطر على عقولهم في صيف عام ١٤٩١ ، حتى عندما كانت الآمال في تحطيم الاتحاد السوفياتي ، لا تزال مشرقة وقائمة . وجاء نص ميثاق الاطلسي الذي اصدره روزفلت وتشرشل في التاسع عشر من شهر آب ، ضربة قاسية لهم ، ولا سيما المادة الثامنة منه التي اشترطت نزع السلاح من المانيا بعد الحرب الى ان يتم الوصول الى اتفاق عام لنزع السلاح . وعنت هذه المادة بالنسبة لهاسيل وغويردلر وبيك وغيرهم من اعضاء حلقـة المقاومة انـ الحلفاء لا ينوون التمييز بين المانيا النازية وبين المانيا المناهضة للنازية،وانها برهان كما قال هاسيل – على ان انكلترا وامريكا لا تحاربان هتلر فحسب،وانما ترغبان في تحطيم المانيـــا وجعلها دولة لا حول لها ولا طول . ورأى هـــذا السفير الارستقراطي السابق ، الذي كان والغاً حتى رأسه في خيانة هتلر الآن ، والذي كان يريد ان يحصل على اكثر ما يمكنه الحصول عليه لالمانية الجديدة الـــتي لا يوجد هتلر فيها ، في المادة الثامنة ، طبقاً لما دونه في يومياته « تحطيمـــاً لكل فرصة معقولة في السلام » . [١]

وعلى الرغم من ان ميثاق الاطلسي ، قـــد خيب آمال المتآمرين ، الا ان اذاعته ، حثتهم على العمل ، اذ بينت لهم ضرورة التخلص من هتلر ، قبل ان يفوت الاوان على قيام عهد مناوىء للنازية يستطيع ان يساوم مساومة ناجحة للحصول على صلح لألمانيا التي لا تزال تحتل معظم انحـــاء اوروبا . ولم يكونوا يعارضون في استخدام فتوحات هتلر للحصول على الافضل الشروط لبـــلادهم واسفرت سلسلة المحادثات التي دارت في برلين إبان الايام الاخيرة من شهر آب بين هاسيل وبوبيتز واوستر ودوهنانيي والفريق فريدريـــك اولبرخت رئيس اركان جيش الوطن عن تعهد « الوطنيين الألمان » كما كانوا يلقبون انفسهم بتقديم « مطالب معتدلة للغاية » الى الحلفاء ولكن هناك بعض المطالب ، على حـــد تعبير هاسيل التي « لا يمكن لهم ان يتراجعوا عنها ».لم يحدد هاسيل هذهالمطالب

---

١ – هاسيل – يوميات ص ٢٠٨ .

التي لا يستطيعون التراجع عنها ، ولكن في وسع المرء ان يستخلص من يومياته الباقية ، انها تشمل الاصرار على المطالبة بحدود المانيا لعام ١٩١٤ في الشرق مع اضافة النمسا وبلاد السوديت اليها .

لكن الوقت لم يكن يتحمل أي تأجيل او ابطاء ، وقد دوّن هاسيل بعد مؤتمر عقده مع شركائه في نهاية شهر آب ، في يوميته يقول : « انهم جميعاً متفقون على ان الوقت يسابقنا . وعندما تغدو فرصنا في النجاح طفيفة او تختفي من الوجود ، فلن يبقى أمامنا الكثير مما نستطيع عمله [١] » .

وبذل المتآمرون بعض الجهود مع كبار القادة العسكريين في الجبهة الشرقية لاقناعهم باعتقال هتلر إبان حملة الصيف في روسيا . وعلى الرغم من ان الجهود لم تحقق اكلها في هذه المرحلة ، اذ ان كبار القادة كانوا غارقين في الانتصارات الأولية المدهشة التي حققوها ، بحيث كان من المتعذر عليهم حتى التفكير في الانقلاب على الرجل الذي أتاح لهم الفرصة لتحقيق هذه الانتصارات ، إلا ان بذورها ظلت مختفية في عقول العسكريين بحيث قدر لها ان تنمو في النهاية .

وتركزت المؤامرة في ذلك الصيف في مقر قيادة المشير فون بوك ، الذي كانت جيوشه في الجبهة الوسطى تستهدف موسكو في زحفها . وكان رأس المتآمرين هنا اللواء هيننغ فون تريسكو من أركان حرب المشير بوك ، الذي انقلب حماسه السابق للاشتراكية الوطنية الى عداء دفعه الى الانضمام الى المتآمرين ويساعده فابيان فون شلابريندورف مرافقه العسكري ، ومتآمران آخران فرضا على بوك كمرافقين له هما الكونت هانز فون هاردنبرغ ، والكونت هنريخ فون ليهندورف ، وكلاهما ينتميان الى أسرتين المانيتين قديمتين وبارزتين[٢] وكان بين المهام التي عهدت اليهما اقناع المشير باعتقال هتلر في إحدى زياراته لمقر قيادة الجيوش الوسطى . ولكن كان من الصعب اقناع بوك . وعلى الرغم من ادعاءاته السابقة باحتقار النازية إلا انه كان قد ارتقى سريعاً في ظلها ، وكان

---

١ ـ يوميات فون هاسيل ص ٢٠٩ .

٢ ـ اعدم النازيون ليهندورف في الرابع من ايلول عام ١٩٤٤ .

من الغرور والطموح على درجة كبيرة بحيث لم يستطع ان يغامر في هذه المرحلة. وعندما حاول تريسكو ذات يوم ان يلفت نظره الى ان الفوهرر يقود البلاد الى الكارثة رد عليه بوك صارخاً « انا لا أسمح لأحد بمهاجمة الفوهرر [1] ».

واسقط في يد تريسكو ومرافقه الشاب ولكنهما لم ييأسا . وعندما قـــام الفوهرر بزيارة مقر قيادة مجموعة جيوش الوسط في الرابع من آب عام ١٩٤١ ، في بلدة بوريسوف ، وضع الضابطان خطتهما لاعتقال الفوهرر وهو في سيارته من المطار الى قيـــادة بوك . ولكن المتآمرين كانا لا يزالان من الهواة ، ولم يكونا قد حسبا حساباً لترتيبـــات الأمن التي يتخذها الفوهرر . ولم يتح هتلر للضابطين المتآمرين الفرصة للاقتراب منـــه ، اذ وصل الى المطار يحيط به حرسه الخاص من الحرس النازي ، ولم يستعمل احدى السيارات العسكرية التي جاءت الى المطار لاستقباله ، وانما استخدم اسطول سيارته الخاص الذي أوفد الى المطار قبل وصوله . وقد علمّت هذه القصة المتآمرين من رجال الجيش بعض الدرس ، واولها ، أن الوصول الى هتلر ليس بالأمر السهل ، اذ ان الحراسة عليه شديدة دائماً . أما الدرس الثاني فهو ان وضع اليد على الفوهرر واعتقاله قد لا يحل المشكلة ، طالما ان الفرقاء المهمين إما ان يكونوا جبناء والى حدٍ كبير ، أو متمسكين بقسم الولاء الذي اقسموه ، بحيث يتعذر عليهم ان يساعدوا المتآمرين في تنفيذ خطتهم . ولا ريب ان بعض المتآمرين الشبان ، وهم من المدنيين الذين ارتدوا الآن الملابس العسكرية من أمثال شلابريندورف قد توصلوا الآن أي في خريف عـــام ١٩٤١ ، وهم برمون ، الى الاستنتاج القائل بأن الطريقة المثلى للخلاص من هتلر وقد تكون الطريقة الوحيدة ، هي قتله . ففي مثـــل هذه الحالة يمكن للقادة العسكريين الجبناء وقد تحرروا من قسم الولاء للزعيم ان يسيروا مع العهد الجديد ، وان يضمنوا له دعم الجيش وتأييده .

ولكن قادة المؤامرة في برلين لم يكونوا على أهبة بعدللمضي الى هذا الحد .

---

١ ـ شلابريندورف ـ ص ٣٦ .

وكانوا يحيكون مؤامرة حمقاء اطلقوا عليها اسم « العمل المنعزل » ، واعتقدوا لسبب او لآخر ان هذه المؤامرة سترضي ضمائر الفرقاء من ناحية الايمان التي اقسموها بالولاء للفوهرر ، وفي الوقت نفسه تخلص الرايخ من ادولف هتلر . ومن الصعب حتى في هذا اليوم ، ان نتابع افكارهم في هذا الموضوع ، وكل ما عرفناه هو أنهم اعتقدوا ان كبار القادة العسكريين سواء في الشرق او في الغرب ، سيرفضون عندما يتلقون اشارة اتفق عليها ، اطاعة اوامر هتلر بوصفه القائد الأعلى للجيش . وكان هذا الترتيب يعني نكثهم بيمينهم للفوهرر . ولكن هؤلاء السفسطائيين في برلين ادعوا انهم لا يرون هذه الحقيقة . وذكروا ان الهدف الحقيقي من الخطة على أي حال خلق الاضطراب ، مما يسهل السبيل أمام بيك بمساعدة فصائل من الجيش الداخلي في برلين للاستيلاء على السلطة وخلع هتلر ، واعلان الحركة الاشتراكية الوطنية حركة لا قانونية .

ولم يكن الجيش الداخلي في الحقيقة قوة عسكرية صحيحة ، وانما كان مجموعة غريبة من المجندين الذين بعد ان يؤدوا بعض التدريب العسكري الأساسي ، يوفدون الى الجبهة ليحلوا محل القتلى او المفقودين من رجالها. وتطلب نجاح المغامرة، ضمان تأييد بعض كبار القادة في روسيا أو في البلاد المحتلة ، الذين يسيطرون على بعض القوات المؤقتة. وبدا للمتآمرين ان خير من يصلح لهذه المهمة، هو ذلك القائد الذي اشترك مع هولدر في المؤامرة الرامية للقبض على هتلر إبان ازمة ميونيخ، وهو المشير فون ويتزليبين الذي بات الآن قائداً عاماً في الجبهة الغربية. وقرر المتآمرون ايفاد فون هاسّيل في اواسط كانون الثاني عام ١٩٤٢ لضمان اشتراكه في المؤامرة مع الفريق فون فالكنهاوزن القائد العسكري في بلجيكا ، وللتشاور معهما . واستخدم السفير السابق ، الذي بات مراقباً من الغستابو ، ستار القيام بجولة لالقاء محاضرات يخطب فيها جماعات الضباط وموظفي الاحتلال في موضوع « المجال الحيوي والاستعمار » . وتمكن بين المحاضرات من التشاور بصورة سرية مع فالكنهاوزن في بروكسل ومع ويتزليبين في باريس ، متلقياً من الرجلين انطباعات طيبة ، ولا سيما من القائد الأخير .

وكان المشير قد أحس بالألم لاختفائه عن الأضواء في فرنسا بينما يخوض رفاقه من المشيرين معارك عظيمة في روسيا ، فكان تواقاً للعمل . وقد اعرب لهاسيل عن رأيه في ان خطة « العمل المنغزل » التي وضعوها خطة خيالية طوبائية . وأكد ان العمل المباشر هو السبيل الوحيد . وكان على استعداد لإداء دور بارز. وكان خير وقت لتوجيه الضربة على الغالب ، الصيف القادم ، عندما يستأنف الهجوم الألماني في روسيا . واعتزم اعداداً منه لذلك اليوم العظيم ان يكون في أحسن حالاته الصحية ، وقرر لذلك اجراء عملية جراحية بسيطة . ومن سوء حظ المشير وشركائه ، ان هذا القرار أدى الى عواقب مفجعة. فقد كان ويتزليبين يشكو كما شكا فريدريك الأكبر و كثيرون غيره من قبل، من ألم «البواسير[1]» . وكانت العملية اللازمة للشفاء من هذا المرض من النوع العادي الرتيب في دنيا الجراحة ، ولكن عندما طلب ويتزليبين في الربيع اجازة قصيرة لاجرائها والخلاص من الآلام الشديدة التي يعانيها ، اغتنم هتلر هذه الفرصة ، فأحال المشير الى التقاعد من الخدمة الفعلية ، وعيّن خلفاً له، المشير رونشتادت ، الذي لا يميل الى التآمر ضد الزعيم الذي عامله قبل قليل، معاملة سيئة . وهكذا وجد المتآمرون ان أملهم الكبير في الجيش قد غدا مشيراً بلا جنود تحت قيادته . ولم يكن في الامكان اقامة عهد جديد من الحكم بلا جنود .

واسقط في يد قادة المؤامرة . وواصلوا عقد اجتماعاتهم السرية ، والحديث عن المؤامرة ، ولكنهم لم يستطيعوا التغلب على ما لحق بهم من يأس . ودوّن فون هاسيل في يومياته في نهاية شباط عام ١٩٤٢ ، بعد واحدٍ من هذه الاجتماعات التي لا عد لها ولا حصر قائلاً : «يبدو في هذه اللحظة اننا عاجزون عن ان نفعل شيئاً مع هتلر[2]» .

ولكن كان في امكانهم ان يفعلوا الكثير في موضوع تقويم افكارهم بصدد

---

١ ــ كان ملك بروسيا كثيرا ما يشكو من هذا المرض الذي اثر على قواه العقلية وعلى نشاطه البدني ايضا .

٢ ــ فون هاسيل ــ مذكرات ــ ص ٢٤٣ .

طراز الحكومة التي يريدون اقامتها في المانيا بعد خلع هتلر وتقوية الحالة المعتبرة التي يجدون انفسهم فيها ، وتوطيد أركان المنظمة غير المجدية التي ينتمون اليهـــا بحيث تستطيع تسلم زمام الحكم عندما تحين الساعة .

وكان معظم زعمـــاء المقاومة من المحافظين والطاعنين في السن ، ولذا فقد كانوا يتوقعون قبل كل شيء الى اعادة ملكية « الهوهنزلرن » الى المانيا .ولكنهم ظلوا مختلفين امداً طويلاً ، على الأمير الذي سيرفعونه الى العرش . وكان بوبيتز وهو أحد كبار المدنيين من المتآمرين ، يود اعادة ولي العهد المكروه لدى معظم رفاقه ، أما شاخت فكان يؤثر النجل الأكبر لولي العهد ، امير ويلهلم ، بينما يفضل غويردلر النجل الأصغر من ابنـــاء القيصر غليوم الثاني ، وهو الأمير اوسكار امير بروسيا . واتفقوا جميعاً على استبعاد الابن الرابع للقيصر وهو الامير اوغست ويلهلم ،أو « اووي » كما يسمونه ، اذ كان من غلاة المتعصبين للنازية ويشغل منصباً بارزاً في الحرس النازي .

وعندما حل صيف عام ١٩٤١ ، كان ثمة شبه اتفاق ، على ان خير مرشح للعرش هو لويس – فرديناند ، النجل الثاني والاكبر من الاحياء لولي العهد [1] . وكان هذا الامير آنذاك في الثالثة والثلاثين من عمره ، وقد عمل نحواً من خمس سنوات في مصانع فورد في ديربورن ، وبات يعمل الآن موظفاً في شركة طيران « لوفتهانزا » ، وكان على اتصال بالمتآمرين ، ولذا فقد نال اعجابهم جميعاً،وغدا افضل المرشحين من امراء الهوهنزلرن للعرش ، نظراً لفهمه عقلية القرن العشرين ، وذكائه وميوله الديموقراطية .يضاف الى هذا ، ان الامير كان متزوجاً من أميرة روسية اسمها « كيرا » وهي «غراندوقة سابقة » وتتميز بسعة ادراكها وشجاعتها ، كما كان ، وهذا أمر مهم بالنسبة للمتـــآمرين في هذه المرحلة ، صديقاً شخصياً للرئيس روزفلت الذي سبق له ان دعا الزوجين الى الاقامة في البيت الابيض عندما كانا يقضيان شهر العسل في امريكا في عام ١٩٣٨ .

---

١ – قتل الامير ويلهلم النجل الاكبر لولي العهد في احدى معارك فرنسا في ٢٦ ايار عام ١٩٤٠ .

ولم يكن هاسيل وبعض اصدقائه على يقين مطلق ، من ان لويس ـ فرديناند هو المرشح النموذجي . وقد علق بقسوة في يوميته التي دوّنها في عيد ميلاد عام ١٩٤١ ، عليه بقوله : « انه يفتقر الى كثير من المزايا ، التي لا يستطيع العمل بدونها » . ولكنه اراد ان يجاري شركاءه فوافق عليه .

وكان هاسيل يحصر جل اهتمامه في شكل الحكومة الألمانية المقبلة وطبيعتها. وكان قد أعد في وقت مبكر من ذلك العام . بعد التشاور مع الفريق بيك ومع غويردلر وبوبيتز برنامجاً للفترة الانتقالية ، سرعان ما عاد الى تعديله ، في مشروع آخر أعده في نهاية عام ١٩٤١ [١] . وتضمن المشروع اعادة الحرية الفردية . وان يسند بالسلطان الأعلى في هذه الفترة التي يعد إبانها الدستور الجديد الى وصي يكون رئيس الدولة ، ويعيّن حكومة ومجلساً للدولة . وهكذا كان هذا المشروع «جماعياً» في طبيعته ولذا فقد عارضه غويردلر والنقابيون من المتآمرين ، واقترحوا بديلاً له اجراء استفتاء فوري ، بحيث تستطيع الحكومة المؤقتة الاستناد الى التأييد الشعبي واقامة الدليل على طبيعتها الديموقراطية . ولكن بالنظر الى افتقار المتآمرين الى خطة افضل من مشروع هاسيّل ، فقد قبلوا به بصورة عامة ، كبيان سياسي مؤقت على الأقل يشرح الاهداف ، الى ان تم في عام ١٩٤٣ ، تحت ضغط «حلقة كريساو » التي يتزعمها الكونت هيلموت فون مولتكيه ، وضع برنامج اكثر ليبرالية وتحرراً .

واتفق المتآمرون اخيراً في ربيع عام ١٩٤٢ ، على اختيار زعيم رسمي لهم . وكانوا قد اعترفوا جميعاً بالفريق بيك زعيماً لهم ، لا بالنسبة الى سعة مداركه وقوة شخصيته فحسب ، بل وبالنسبة الى ما يتمتع به من مكانة بين القـــادة العسكريين ، وشهرة في البلاد وخارجها . ومع ذلك ، فقد كانوا على شيء كبير من فتور الهمة ، حتى انهم تهاونوا في تنظيم أنفسهم وفي تسليمه مقاليد القيادة .

---

١ ـ يوجد نص المشروع الاول الذي أعد في كانون الثاني ـ شباط عام ١٩٤٠ في يوميات هاسيل . ص ٣٦٨ ـ ٣٧٢ . اما نص المشروع الثاني الذي أعد في نهاية عام ١٩٤١ ففي كتاب ويلر ـ بنيت ـ نقمة السلطان ـ الملحق (أ) ص ٧٠٥ ـ ٧١٥ .

وعلى الرغم من ان البعض وفي طليعتهم هاسّيل كانوا معجبين اشد الاعجاب بالفريق ، ويجلّونه اكبر اجلال ، إلا انهم كانوا يشكون فيه بعض الشكوك .

وقد دوّن هاسّيل في يومياته ، قبيل عيد ميلاد عام ١٩٤١ يقول ان « المشكلة الرئيسية عند بيك ، هي انه انسان نظري . ولا ريب في ان بوبيتز كان صادقاً عندما وصفه بأنه رجل بارع في الأساليب « التكتيك » ، ولكنه ضعيف في العزم والإرادة . وقد اثبتت الأحداث فيما بعد ، ان هذا الحكم كان صحيحاً ، وان طبيعة الفريق التي تتميز بالمراوغة ، وافتقاره الى الحسم في بت الأمور والحزم في العمل ، قد اديا الى نتائج مفجعة ومحزنة في النهاية .

ومع ذلك فقد قرر المتآمرون بعد عدة جلسات سرية عقدوها ، في آذار عام ١٩٤٢ ، اسناد القيادة الى بيك ، ودوّن السفير السابق هاسّيل في يومياته انهم قرروا في نهاية ذلك الشهر « اختياره زعيماً رسمياً للجماعة » [١]

ومع ذلك ظلت المؤامرة اقرب الى الخيال منها الى الواقع ، ويبدو هذا الجو من اللاواقعية الذي أحاط حتى بأكثر الاعضاء فيها حيوية منذ البداية ، مسيطراً على جميع أحاديثهم ومشاوراتهم التي لا تنتهي ، كما يتبيّن لكل مَن يتابع اخبارهم في السجلات التي خلّفوها ، وكانوا يعرفون ان هتلر يعتزم استئناف الهجوم في روسيا في الربيع فور جفاف الأرض . واعتقدوا ان هذا الهجوم لن يؤدي إلا الى المزيد من غرق المانيا في اللجة التي دخلتها . ومع انهم اكثروا من الحديث ، إلا انهم ظلوا يفتقرون الى العمل . وجلس فون هاسّيل في الثامن والعشرين من آذار ١٩٤٢ ، في دارته في ايبنهاوزن يدوّن في يوميته :

« جرى حديث طويل في برلين في الأيام الأخيرة مع جيسّين[٢] .

---

١ ـ فون هاسيل . يوميات ص ٢٤٧ ـ ٢٤٨ .

٢ ـ كان جينز بطرس جيسين استاذ علم الاقتصاد في جامعة برلين ، من ادمغة المؤامرة . وكان قد تحول الى نازي متعصب في الفترة الواقعة بين عامي ١٩٣١ و ١٩٣٣ ، واصبح احد المثقفين العباقرة في الحزب . ولكن سرعان ما طاشت احلامه ، وخابت آماله بعد عام ١٩٣٣ ، وتحول بسرعة الى خصم عنيد للنازية ، وقد اعتقل بتهمة الاشتراك في المؤامرة على حياة =

وكذلك مع بيك وغويردلر . ويبدو ان الأمل ضعيف »[1] .

وكيف يمكن لهذه الآمال ان تكون مشرقة ؟ ان المتآمرين يفتقرون حتى الى خطة العمل ، في هذا الوقت ، وقبل ان يفوت الأوان .

ولكن ادولف هتلر ، هو الذي كان قد أعد خطته ، لهذا الربيع الثالث من الحرب ، وكانت لديه الارادة الشرسة لتنفيذ هذه الخطط .

آخر هجوم الماني عظيم في الحرب

على الرغم من ان حماقة الفوهرر ، في رفض السماح للجيوش الألمانية بالتراجع في روسيا في الوقت المناسب ، قد أسفرت عن خسائر كبيرة في الرجال والمعدات ، وأدت الى الانهيار المعنوي في بعض القيادات والى وضع ظل يهدد لبضعة اسابيع من شهري كانون الثاني وشباط من عام ١٩٤٢ بالوصول الى كارثة كلية ، الا ان الشيء الثابت الذي لا يتطرق اليه الشك ، هو ان تصميم الفوهرر المتعصب على الصمود والقتال ، قد ساعد في وقف التيار السوفياتي . وتولت الشجاعة المأثورة عن الجندي الألماني وتحمله الشدائد ، ما تبقى من المهمة .

ولم يحل العشرون من شباط حتى كان الهجوم الروسي من البلطيق حتى البحر الأسود قد فقد قوة اندفاعه ، وعندما حلت نهاية آذار ، كان فصل الوحول قد جاء وأدى الى هدوء نسبي في الجبهة الطويلة الدامية . ولحق الأعياء بالفريقين . وحسر تقرير عسكري الماني صدر في الثلاثين من آذار عام ١٩٤٢ ، النقاب عن الضريبة الباهظة التي دفعها الألمان في حرب الشتاء . فقد ذكر هذا التقرير ان ثماني فرق فقط من مجموع (١٦٢) فرقة محاربة في الشرق قد حافظت على طاقتها الهجومية . ولم يبق لدى الفرق الست عشرة المدرعة إلا نحو من

= هتلر في ٢٠ تموز عام ١٩٤٤ ، ونفذ فيه حكم الاعدام في سجن « بلويتزينسيه » في تشرين الثاني من ذلك العام .

١ – فون هاسيل – يوميات ص ١٤٧ .

(١٤٠) دبابة صالحة للخدمة وهو أقـــل من العدد الموجود في فرقـة واحدة في العادة [١] .

وراح هتلر ، الذي بات الآن ، القائد العام للجيش الألماني بالاضافة الى منصبه كقائد أعلى للقوات المسلحة ، يشغل نفسه في إعداد الخطط اللازمة لهجوم الصيف المنتظر ، بينما كانت قواته تخلد الى الراحة ، والى اعادة تنظيم نفسها ، بل وقبل ذلك حين كانت تتراجع في ثلوج الشتاء . ولم تكن خططه هــذه المرّة على نفس الدرجة من الطموح التي كانت لديه في العام المنصرم . ولكن يبدو انه فاء الآن الى عقله ، وأدرك انه ليس بوسعه تحطيم جميع قوات الجيش الأحمر في حملة واحدة. وقرر ان يحشد جماع قواته في هذا الصيف في الجنوب ، وان يحتل حقول زيت القفقاس ، وحوض الدونتس الصناعي ، وحقول الحنطـــة في كوبان واحتلال ستالينغراد على نهر الفولغا . وكان من المنتظر ان يؤدي هذا الهجوم الى عـــدة اهداف رئيسية . فهو يحرم الروس من الزيت ومن الكثير من المواد الغذائيـــة والصناعية التي يحتاجون اليها للمضي في الحرب بينما يتيح للألمان الحصول على ما هم بحاجة ماسة اليه من زيت ومن مواد غذائية .

ولقد صرح هتلر للفريق باولوس قائد الجيش الألماني السادس السيء الحظ قبيل بدء هجوم الصيف بقوله : « اذا لم يتح لي ان احصل على زيت ميكوب وغروزني ، فإني سأضطر الى انهاء هذه الحرب » [٢]

وكان في وسع ستالين ان يقول نفس هذا القول ايضاً. فهو في حاجة الى زيت القفقاس ليستطيع المضي في الحرب . وهنــا تقوم أهمية ستالينغراد . فاحتلال الألمان لها ، يغلق أمـــام الروس آخر طريق عبر بحر قزوين وبحر الفولغــا ،

---

١ ـ كتاب وزارة الحربية الامريكية عن الحملة الالمانية في روسيا ـ التخطيط والعمليات ١٩٤٠ ـ ١٩٤٢ ص ١٢٠ . وتستند هذه الدراسة الى حد كبير على وثائــق الجيش الالمانــي المصادرة والمذكرات التي اعدها قادة الجيش الالماني للحربية الامريكية بعد الحرب ، والتي لم تقدم للمدنيين وان كنت مدينا بالفضل لدائرة التاريخ الحربي في وزارة الحربية الامريكية .

٢ ـ محاكمات كبار مجرمي الحرب (٧) ص ٢٦٠

وهي الطريق التي يمكن بواسطتها وصول الزيت الى روسيا الوسطى طالما ان جنودها يسيطرون على آبار الزيت .

واحتاج هتلر بالاضافة الى الزيت اللازم لتحريك طائراته ودباباته وشاحناته الى الرجال لسد الفراغ في صفوف قواته التي غدت مفتقرة الى الكثافة. وبلغت الخسائر الاجمالية في نهاية حرب الشتاء (١,١٦٧,٨٣٥) مع استثناء المرضى ، ولم يكن لديه عدد متوافر من الجنود ، يسد الفراغ الذي خلفته هـذه الخسائر . وتحوّلت القيادة العامة الى حلفاء المانيا أو على الأصح الى اتباعها ، طالبة منهم قوات اضافية . وهرع الفريق كايتل إبان الشتاء الى بودابست وبوخارست ، لتجميع الجنود الرومانيين والهنغاريين وحشد فرق كاملة منهم ، للصيف المقبل . وناشد غورنغ واخيراً هتلر نفسه موسوليني ارسال وحدات ايطالية .

ووصل غورنغ الى رومة في نهاية كانون الثاني عام ١٩٤٢ ، ليؤمن حصول المانيا على نجدات ايطالية لقواتها في روسيا . مؤكداً لموسوليني ان الاتحاد السوفياتي سيهزم في هذا العام وان بريطانيا العظمى ستلقي سلاحها في عام ١٩٤٣ . ووجد شيانو ان مشير الرأيخ البدين المولع بالأوسمة بات من النوع الذي لايطاق . ودوّن في يومياته بتاريخ الثاني من شباط ان المشير « كعادته منتفخ الأوداج ، ثقيل الظل » ثم قال :

« وبعد يومين يغادر غورنغ رومة . تناولنا العشاء في فندق اكسلسيور ، وظل غورنغ يتحدث طيلة العشاء عن المجوهرات التي يملكها . وبالفعل كان يضع عدداً من الخواتم الجميلة في أصابعه ... وكان يرتدي ونحن في الطريق الى المحطة معطفاً من فرو السمّور هو وسط بين ما كان يرتديه سائقو السيارات في عام ١٩٠٦ ، وما ترتديه عاهر من الدرجة الاولى عندما تذهب الى دار الاوبرا » (١)

---

١ ـ يوميات شيانو . ص ٤٤٢ ـ ٤٤٣ .

وكان فساد الرجل الثاني في الرايخ واهتراؤه يزيدان يوماً بعد آخر . ووعد موسوليني غورنغ بإرسال فرقتين ايطاليتين الى روسيا في شهر آذار ، شريطة ان يزودهما الالمان بالمدافع ، ولكن قلقه ما لبث ان اشتد من جراء هزائم حليفه في الجبهة الشرقية الى الحد الذي حمل هتلر على ان يقرر ان الوقت بات مناسباً لعقد اجتماع آخر مع صديقه ليشرح له مدى قوة المانيا .

ووقع الاجتماع في سالزبرغ في التاسع والعشرين والثلاثين من شهر نيسان ، وقد حلّ موسوليني وشيانو وحاشيتهما ضيوفاً مكرمين في قصر كليشايم الفخم ، الذي كان في يوم ما مقر الاساقفة ـ الامراء ، والذي أعاد النازيون الآن زخرفته بالستائر والاثاث والسجاد التي جاءوا بها من فرنسا والتي خيل لشيانو انهم « لم يدفعوا فيها ثمناً عالياً » . وبدت على الفوهرر مظاهر الاعياء . ودوّن شيانو في يومياته يقول : « يبدو ان شهور الشتاء في روسيا قد أثرت عليه كل التأثير وقربته من الشيخوخة . فقد لاحظت لأول مرة الشيب يصبغ فوديه بالبياض »[1]

وقد استهل الاجتماع بالبيان الألماني المألوف عن تقدير الاوضاع بصورة عامة . واكد ريبنتروب وهتلر لضيوفهما من الايطاليين ان كل شيء على ما يرام في روسيا وشمال افريقيا والغرب ، والحرب البحرية . واسرّا لهم ان الهجوم المقبل في الشرق سيستهدف آبار زيت القفقاس ومضى ريبنتروب يقول :

« وعندما تفقد روسيا مصادر زيتها ، فإنها ستضطر الى التسليم . وحينئذ سيحني البريطانيون رؤوسهم لانقاذ ما يمكن انقاذه من امبراطوريتهم المنهارة ... أما امريكا فهي « خدعة » كبيرة » .

واصغى شيانو ، وهو يكبت جماح مشاعره ، الى ما يقوله زميله الألماني

---

١ ــ كان غوبلز قد رأى هتلر قبل نحو من شهر في مقر قيادته واعرب عن ذهوله في يومياته من الاعياء الذي بدا عليه ، اذ دون قائلا : « لاحظت ان شعره قد ابيض ... وقد ابلغني انه عانى من عدة نوبات من الدوار ... انني قلق اشد القلق على حالة الفوهرر » . واضاف غوبلز قائلا : « انه بات يكره الصقيع والثلج كرها فطريا . ولعل مما يقلق الفوهرر ان الثلج ما زال يغطي البلاد » (يوميات غوبلز ص ١٣١ ـ ١٣٧) .

وخيّل اليه ، وهو يستمع الى حديثه عما يمكن لامريكا ان تفعل ، ان الألمان هم الذين « يبلفون » في الحقيقة لا الامريكان ، وانهم عندما يفكرون حقاً في هـذا الموضوع « تنتشر الرعشة في ظهورهم » .

وكان الفوهرر هو الذي تكلم كعادته طيلة الوقت . ودوّن شيانو في يومياته قائلا :

« ان هتلر يتكلم ويتكلم ويتكلم ، ويعاني موسوليني من ذلك اشد الآلام ، فقد تعوّد على ان يكون هو المتكلم دائماً ، ولكنه الآن يجد نفسه مضطراً الى السكوت والاصغاء . وبعد الغداء ، في اليوم الثاني ، وكانت جعبة الحديث قد فرغت ظل هتلر يتكلم بلا انقطاع اربعين دقيقة . ولم ينس حجة واحدة ، أو موضوعاً واحداً . فهو يتحدث عـن الحرب والسلام ، والدين والفلسفة ، والتاريخ والفن . وظل موسوليني يتطلع بصورة آلية الى ساعته .. والألمان التعساء ملزمون بالاستماع الى هذا الحديث كل يوم ، واني لعلى ثقة من انه ليست ثمة ايماءة أو كلمة أو عبارة ، أو وقفة ، لم يحفظها الألمان عن ظهر قلوبهم . وراح الفريق يودل بعد نضال اسطوري يجاهد ويغالب جفنيه ليبعد عنهما الكرى ، وهو جالس على الاريكة . وكان كايتل مستلقياً في مقعده ولكنه نجـح في الابقاء على رأسه عالياً . ان صلاته الوثيقة بهتلر تمنعه من النوم » (١)

وعلى الرغم من هذا التيهور الهائل من الحديث والثرثرة ، او ربما نتيجة له ، تمكن هتلر من الحصول على وعدٍ من الدوتشي بإرسال المزيد من «الطعام البشري» لنيران مدافع الجبهة الروسية . وهكذا كللت مهمته هو وكايتل بالنجاح لدى « الاتباع » حتى ان القيادة العليا الألمانيـة حسبت ان في استطاعتها الحصول على اثنتين وخمسين فرقة « حليفة » لمهمة الصيف ، منها (٢٧) فرقة رومانية

---

١ ــ يوميات شيانو ص ٤٧٨ ــ ٤٧٩

و(١٣) مجرية و (٩) ايطالية ، وفرقتان سلوفاكيتان وفرقة اسبانية . وتؤلف هذه الفرق ربع قوة المحور المشتركة في الشرق . وهكذا تقرر تزويد الجبهة الجنوبية حيث ستوجه الضربة الرئيسية ، بإحدى واربعين فرقة جديدة منها احدى وعشرون فرقة من حلفاء المانيا تضم عشراً مجرية وستاً ايطالية وخمساً رومانية . ولم يرغب هولدر ومعظم القادة العسكريين الآخرين في ان يركزوا آمالاً كثيرة على مثل هذا العدد الضخم من الفرق « الاجنبية » ، التي كانوا يشكون حقاً في كفاياتها القتالية . ولكنهم نظراً لافتقارهم الشديد الى الرجال ، اضطروا الى قبول هذا الوضع ، وكان قرارهم هذا عاملاً عمّا قريب في الكارثة التي حلت في الشرق .

وكان نجم المحور في مطلع صيف عام ١٩٤٢ في سعود . فقد حقق حتى قبل بدء الوثوب نحو القفقاس وستالينغراد نصراً مثيراً في شمال افريقيا. وكان الفريق رومل قد استأنف الهجوم في الصحراء في السابع والعشرين من ايار عام ١٩٤٢ [١] . ووجه بفيلقه الافريقي المشهور المؤلف من فرقتين مدرعتين وفرقة مشاة آلية اخرى ، هجوماً سريعاً تعززه ثماني فرق ايطالية احداها مدرعة . وسرعان ما ارغم جيش بريطانيا الصحراوي على التراجع نحو الحدود المصرية . واستولى في الواحد والعشرين من حزيران على طبرق مفتاح الخطوط الدفاعية البريطانية بعد ان صمدت في الهجوم الأول تسعة اشهر طويلة ، وبعد يومين كان يجتاز الحدود المصرية . ولم تحل نهاية حزيران ، حتى كان على ابواب العلمين التي تبعد خمسة وستين ميلاً الى الغرب من الاسكندرية ومن دلتا النيل . وخيّل للكثيرين من ساسة الحلفاء الذين وقفوا مشدوهين أمام الخرائط يتطلعون إليها

---

١ ـ كانت قوات رومل قد اجبرت بعد سلسلة من المعارك الوحشية مع البريطانيين في شهري تشرين الثاني وكانون الاول عام ١٩٤١ ، على التراجع عبر برقة الى منطقة العقيلة في طرفها الغربي ولكنه ما لبث بدهائه المألوف وجراته ان عاد الى الاندفاع في كانون الثاني عام ١٩٤٢ ، فاستولى على الاراضي التي فقدها ، وذلك في زحف سريع دام سبعة عشر يوما احتل الغزالة التي شرع منها في زحفه الجديد في ايار عام ١٩٤٢ .

انه لم يعد ثمة ما يحول بين رومل وبين توجيه ضربة قاضية الى البريطانيين باحتلال مصر ، ومن ثم الزحف بعد وصول النجدات اليه شمالاً لاحتلال حقول الزيت العظيمة في الشرق الاوسط ، والاندفاع الى القفقاس للالتقاء مع الجيوش الألمانية في روسيا ، التي كانت قد شرعت في زحفها باتجاه تلك المنطقة من الشمال .

ومثلت هذه اللحظات اكثر ايام الحرب قتاماً بالنسبة الى الحلفاء واكثرها اشراقاً بالنسبة الى المحور . ولكن هتلر ، لم يكن يفهم كما ذكرنا من قبل الحرب على صعيدها العالمي ، ولم يــدرِ كيف يستغل انتصارات رومل المدهشة في افريقيا . وقد انعم على القائد الجريء بعصا الماريشالية . ولكنه لم يبعث اليه بما هو في حاجة اليه من نجدات ومؤن [1] . وكان تحت إلحاف امير البحر ريدر وحث رومل ، قد وافق برماً على ايفاد الفيلق الافريقي وقوة طيران صغيرة الى ليبيا ، ولكنه لم يفعل هذا إلا ليحول دون انهيار الايطاليين في شمال افريقيا ، لا بقصد الانسجام مع اهمية احتلال مصر .

وكانت جزيرة مالطة الصغيرة هي محور هذا الاحتلال بالفعل . وهي جزيرة صغيرة في المتوسط تقع بــين صقلية وقواعد المحور في ليبيا . وكانت القاذفات البريطانية والغواصات والسفن الحربية الاخرى ، تعمل من هذه القلعة ، وتنزل

---

١ ـ تألم موسوليني اشد الالم من انعام هتلر على رومل برتبة « المشير » بعد احتلاله طبرق ، وذلك لان هذا الانعام ، كما دون شيانو في يومياته قد اضفى على المعركة طابعا المانيا . وهرع الدوتشي فورا الى ليبيا ليغتصب الامجاد لنفسه ، معتقدا انه سيكون في وسعه دخول الاسكندرية ، كما قال شيانو ، « في غضون خمسة عشر يوما » . واتصل في الثاني من تموز بهتلر برقيا للتشاور معه في « موضوع الحكومة السياسية المقبلة في مصر » ، مقترحا ان يكون رومل القائد العسكري وان يعين ايطالي لمنصب « المفوض المدني » ورد هتلر بأنه لا يعتبر المسألة مستعجلة تستحق هذا الاهتمام (يوميات شيانو ص ٥٠٣ ـ ٥٠٤) .

وظل موسوليني ينتظر بفارغ الصبر في درنة الواقعة وراء الجبهة . وتذكر الفريق فريتز بايرلين رئيس اركان حرب رومل فيما بعد فقال : (اجل ظل موسوليني ينتظر اليوم الذي يستعرض فيه دبابات المحور في ظلال الاهرامات) ـ (القرارات القدرية اعداد فريدين وريشاردسون ص ١٠٣) .

الدمار بالبواخر الألمانية والايطالية التي تحمل الرجال والعتاد الى شمال افريقيا. وقد غرق من هذه البواخر في شهر آب عام ١٩٤١ نحو من (٣٥) في المائة من مجموع البواخر التي تنقل لرومل نجداته ومؤنه ، بينما غرق في شهر تشرين الأول نحو من (٦٣) في المائة . ودوّن شيانو في يومياته في التاسع من تشرين الثاني بشيء من الأسى يقول :

« لقد تخلينا منذ التاسع عشر من ايلول عن محاولة مرور القوافل الى ليبيا . فقد دفعنا ثمناً غالياً لكل محاولة من هذه المحاولات ... وقد اعدنا المحاولة الليلة . وارسلنا قافلة من سبع بواخر يحرسها طرادان من حمولة العشرة آلاف طن وعشر مدمرات ... وقد غرقت جميع بواخرنا ، اجل جميعها . وعاد البريطانيون الى مينائهم في مالطة بعد ان ذبحونا » [١] .

وحوّل الألمان ولكن بعد طويل وقت ، عدداً من غواصاتهم من معركة الاطلسي الى البحر الابيض المتوسط ، وتلقى كيسلرنغ اسراباً اضافية جديدة من الطائرات لقواعده في صقلية . وقد تقرر تجميد مالطة ومنعها من العمل ، وتحطيم الاسطول البريطاني في شرق المتوسط ، اذا كان ذلك ممكناً . وكان البريطانيون قد خسروا حتى نهاية عام ١٩٤١ ، ثلاث بوارج ، وحاملة للطائرات وطرادين وعدة مدمرات وغواصات ، واضطر ما تبقى من اسطولهم الى اللجوء الى القواعد المصرية . وظلت القاذفات الألمانية تقصف الجزيرة بحممها ليلاً ونهاراً عدة اسابيع متلاحقة . وادى ذلك الى مرور التموينات الألمانية بسلام ، ولم يخسر المحور في شهر كانون الاول أية باخرة وتمكن رومل من تعزيز قواته استعداداً للاندفاع العظيم داخل مصر .

وتحدث امير البحر ريدر الى هتلر في شهر آذار ، وحثه على الموافقة على الخطة التي وضعت لهجوم رومل نحو نهر النيل (عملية عائدة) وعلى الخطة .

---

١ ـ يوميات شيانو ص ٤٠٣ ـ ٤٠٤

الرامية لاستيلاء المظليين على مالطه (عملية هرقل) وكان من المقرر ان يبدأ الهجوم من ليبيا في نهاية ايار، وان يقع على مالطه في منتصف تموز. ولكن هتلر ما لبث في الخامس عشر من حزيران ، وكان روملفي خضم انتصاراته الأولية ، أن أجل الهجوم على مالطه . وراح يوضح لريدر قائلاً انه لايستطيع توفير أي جنود أو طائرات من الجبهة الروسية . وعاد بعد بضعة اسابيع فكرر تأجيل عملية هرقل ، قائلاً ان في وسعها ان تنتظر حتى يتم هجوم الصيف في الشرق تحقيق هدفه ، وحتى يكون رومل قد احتل مصر [1] . واضاف ان في الامكان ابقاء مالطة هادئة في غضون ذلك بفضل الغارات الجوية المستمرة عليها .

ولكن مالطه لم تهدأ، وادى فشل الألمان في تجميدها، أو الاستيلاء عليها الى دفعهم عما قريب ثمناً غالياً . وتمكنت قافلة بريطانيـــة، ضخمة من الوصول الى الجزيرة المحاصرة في السادس عشر من حزيران ، وادى وصولهـا على الرغم من خسارة بعض السفن الحربية وبواخر الشحن في العملية ، الى عودتها الى الحياة . ونقلت طائرات « السبيتفاير » الى الجزيرة من حاملةالطائرات واسب (Wasp) ، وتمكنت بعد برهة قصيرة من طرد القاذفات الالمانية من الاجواء . وسرعان ما أحس رومل بالأثر اذ اغرق ثلاثة ارباع سفن التموين المرسلة اليه .

وكان قد وصل الى العلمين ، ولديه ثلاث عشرة دبابة فقط صالحة للعمل [2] . ودوّن في يوميته بتاريخ الثالث من تموز يقول : « ان قوتنا قد اضمحلت » وقد وقع هذا في اللحظة التي بدأت تترامى فيها أمام انظار الالمان اهرامات مصر ، والجائزة المغرية بالوصول الى النيل والسويس . وهكذا ضاعت فرصة اخرى ، ولعلها من آخر الفرص التي شاءت العناية الالهية ان تمنحها لهتلر ، مع ما فيهـــا من طلائع الحرب وسعودها .

---

١ ــ مؤتمرات هتلر في الشؤون البحرية ١٩٤٢ . ص ٤٢ و ٤٧ .

٢ ــ جاءت هذه المعلومات في شهادة الفريق بايرلين بعد الحرب . ومن المحتمل ان يكون مبالغا في تعداد خسائره . اما مخابرات الحلفاء فتقدر العدد ب (١٢٥) دبابة .

هجوم الصيف الالماني في روسيا

١٩٤٢

بدأ هتلر في نهاية صيف عام ١٩٤٢، وكأنه مازال في قمة العالم. فالغواصات الالمانية تغرق ما حمولته (٧٠٠) الف طن من البواخر البريطانية والامريكية في الشهر الواحد في الاطلسي، وهو رقم يفوق ما يمكن لاحواض بناء السفن في الولايات المتحدة وكندا واسكوتلندة ان تنتجه. وعلى الرغم من أن الفوهرر كان قد عرّى قواته في الغرب من رجالها ودباباتها وطائراتها، رغبة منـــه في الخلاص من روسيا، إلا أنه لم تبد ثمة أية دلالة في الصيف على ان البريطانيين والامريكيين كانوا اقوياء الى الحد الذي يمكنهم من القيام بحركة انزال مهـــما ضؤلت عبر القناة. ولم يغامروا حتى بمحاولة الاستيلاء على ممتلكات فرنسا في افريقيا الشمالية، على الرغم من الحقيقة الواقعة وهي ان فرنسا التي اضعفتهـــا الولاءات المجزأة لم تكن تملك ما تدرأ به هذه المحاولات إن وقعت، بينما لم يكن الالمان يملكون شيئاً سوى بعض الغواصات، وحفنة من الطائرات العاملة من ايطاليا وطرابلس.

وعجزت الطائرات البريطانية والاسطول البريطاني عن منع الطرادين — البارجتين الالمانيتين، شارنهورست «وغنيزناد» والطراد الثقيـــل «البرنس يوجين» من اقتحام القناة الانكليزية في وضح النهار، والوصول بأمان الى مياه الوطن من بريست [1]. وكان هتلر يخشى ان يقوم البريطانيون والامريكيون

---

١ — وقع هذا في ١١ — ١٢ شباط عام ١٩٤٢، وكان بمثابة مباغتة ضخمة فوجيء بها البريطانيون. ولم يكن بالامكان الا حشد قوى ضعيفة بحرية وجوية في الوقت المناسب لمهاجمة الاسطول الالماني وقد الحقت به خسائر طفيفة. وعلقت صحيفة التايمز اللندنية تقول: لقد نجح نائب الاميرال سيلياكس (الذي قاد عملية التسلل)، حيث فشـــل الدوق ميدينا سيدونيا ... ولم يحدث منذ القرن السابع عشر ما هو اشد ايلاما لكرامة قوة بحرية كبريطانيا في مياهها الداخلية من هذا).

باحتلال شمال النروج ، ولعل هذا كان السبب في اصراره على إعادة هـــذه القطع البحرية من بريست ، وذلك لاستخدام هـــذه القطع الثلاث الثقيلة في الدفاع عن المياه النروجية . وراح يقول لريدر في نهاية كانون الثاني عام ١٩٤٢ ان « النروج هي منطقة القدر » ، وان من الواجب الدفاع عنها مهما كان الثمن . وقد اثبتت الوقائع التي تلت ، ان لا ضرورة لكل هـذه الاحتياطات . فلقد كانت هناك خطط أخرى تنتظر القوات الانكليزية والامريكية في الغرب .

وبدت مساحات الفتوحات الالمانية على الخريطة في ايـلول عام ١٩٤٢ ، مدهشة تأخذ العقل . وكان البحر الابيض المتوسط قد غدا في الواقـع بحيرة للمحور ، تحتل المانيا وايطاليا معظم سواحله الشمالية من اسبانيا الى تركيا والقسم الاكبر من سواحله الجنوبية من تونس الى نحو ستين ميلاً من نهر الراين . وكانت القوات الالمانية بالفعل تقف موقف الحارس من رأس الشمال في النروج عند المنطقة القطبية حتى مصر ومن بريست على الاطلسي الى القسم الادنى من نهر الفولغا على حدود آسيا الوسطى .

ووصلت قوات الجيش الالماني السادس الى الفولغا الى الشمال من ستالينغراد في الثالث والعشرين من آب . وكان علـم الصليب المعقوف قد ارتفع قبل يومين فوق جبل البروس ، وهي اعلى قمة في جبال القفقاس اذ ترتفع (١٨،٤٨١) قدماً عن سطح البحر . واستولى الالمان في الثامن من شهر آب ، على حقول زيت ميكوب التي تنتج مليونين ونصف مليون من الاطنان في العـــام ، ولكنهم وجدوها مخربة كل التخريب . ووصلت دبابات كلايست في الخامس والعشرين الى موزدوك التي لا تبعد الا خمسين ميلاً عن مركز الزيت السوفياتي الأساسي حول غروزني ، وقرابة مائة ميل فقط عن بحر قزوين . ولم يحل الواحد والثلاثون من آب حتى كان هتلر يحث المشير ليست قائد الجيوش العـــاملة في القفقاس ، ليحشد كل ما لديه من قوات للشروع في الاندفاع الاخير نحو غروزني حتى يضع يده على حقول الزيت . وفي ذلك اليوم نفسه ، الاخير من شهر آب ، شن رومل هجومـــه على العلمين يحدوه الأمل الكامل باختراق الجبهة البريطانيـــة

والوصول الى النيل .

وعلى الرغم من ان هتلر لم يكن قط راضياً عن النتائج التي حققها قادته العسكريون ، اذ كان قد نحى المشير فون بوك من قيادة الجبهة الجنوبية كلها ، في الثالث عشر من تموز ،وعلى الرغم من انه كان كما يقول هولدر في يومياته يلحف باستمرار ، شاتماً مرعداً ومزبداً ، على القادة الآخرين وهيئة اركان الحرب ، بوجوب التقدم بسرعة اكبر ، إلا انه كان يعتقد ان النصر الحاسم بات في قبضته . وقد اصدر امره الى الجيش السادس والى الجيش المدرع الرابع بالالتفاف شمالاً مع نهر الفولغا ، وراء ستالينغراد بعد احتلالها ، في حركة تطويقية ضخمة تمكنه في النهاية من التقدم نحو روسيا الوسطى وموسكو من الشرق ، في الوقت الذي تتقدم فيه قواته من الغرب . واعتقد ان الروس قد انتهوا ، وتحدث عنه هولدر في هذه اللحظة ، فقال انه كان يتكلم عن الاندفاع بجزء من قواته عبر ايران الى الخليج الفارسي [١] ، وعن الالتقاء سريعاً مع اليابانيين في المحيط الهندي . ولم يكن لديه شك في صحة تقرير للمخابرات الالمانية بتاريخ التاسع من ايلول ، يقول ان الروس قد استخدموا كل ما لديهم من قوات احتياطية في الجبهة كلها . وكانت افكاره تتحول في حديث له مع امير البحر ريدر في نهاية شهر آب ، من روسيا التي بات يعتبرها « المجال الحيوي الواقي من الحصار » الى البريطانيين والامريكيين ، الذين كان على ثقة من انهم سيرغمون عما قريب « على التفاوض لعقد الصلح » [٢] .

ولكن على الرغم من اشراق جميع الظواهر في تلك الفترة ، إلا انها كانت على حد تعبير الفريق زيتزلر ، سراباً خادعاً . وكان جميع القادة العسكريين ، سواء منهم قادة الميدان أو رجال هيئة اركان الحرب ، يرون نقاط ضعف وعيوباً في الصورة الجميلة . وفي الامكان تلخيص هذه العيوب . فالألمان لا يملكون الموارد من رجال ومدافع ودبابات وطائرات ، ووسائل نقل ، التي

---

١ - هولدر « هتلر كقائد ميدان » ص ٥٠ - ٥١ .
٢ - مؤتمرات هتلر في الشؤون البحرية ١٩٤٢ . ص ٥٣

تمكنهم من الوصول الى الاهداف التي اصر هتلر على وجوب تحقيقها . وعندما حاول روهل ان يسرد هذه العقبات لسيد الحرب بالنسبة الى جبهة مصر ، أمره هتلر بأن يمضي الى اجازة مرضية يقضيها في جبال سيميرينغ . وعندما حاول هولدر والمشير ليست ، ان يقوما بنفس العمل بالنسبة الى الجبهة أمر بصرفهما من الخدمة .

وكان في وسع اكثر الهواة في فن السوقية العسكرية بداية ، ان يرى الخطر المتزايد على الجيوش الألمانية في جنوب روسيا، عندما شرعت المقاومة السوفياتية تتصلب في القفقاس وستالينغراد ، وعندما اقترب موسم امطار الخريف . وكان الجناح الشمالي للجيش السادس ، مكشوفاً بصورة خطرة على طول خط اعالي الدون مسافة (٣٥٠) ميلاً من ستالينغراد الى فوردنج . وكان هتلر قد عهد بحماية هذا الجناح الى ثلاثة جيوش تابعة ، وهي الجيش المجري الثاني الى الجنوب من فوردنج والجيش الايطالي الثامن الى الجنوب الشرقي والجيش الروماني الثالث الى اليمين عند منحنى الدون الى الغرب من ستالينغراد. وبالنظر الى العداء المستحكم بين الرومانيين والمجريين ، تطلب الوضع ، الفصل بينهما بالقوات الايطالية وكان ثمة جيش تابع رابع في السهوب الواقعة الى الجنوب من ستالينغراد ، وهو الجيش الروماني الرابع . وبالاضافة الى ان الكفايات القتالية في هذه الجيوش كلها كانت ضعيفة فإنها كانت مفتقرة الى العتاد اللازم، كالقوة المدرعة والمدفعية الثقيلة والحركة . وكانت منتشرة كذلك بشكل جعلها تفتقر الى التكثف . فالجيش الروماني الثالث مسؤول عن الدفاع بأفواجه التسعة والستين عن جبهة تمتد (١٠٥) اميال . ولكن ماذا يفعل هتلر ، وهذه الجيوش الحليفة هي كل ما تبقى لديه . ولم تكن هناك وحدات المانية كافية لملء الفراغ . ولما كان يعتقد كما قال لهولدر ان الروس قد « انتهوا » فلم يكن يحس بأي قلق من هذه الجبهة الطويلة والعارية على نهر الدون .

ومع ذلك ، فقد كانت هذه الجبهة هي مفتاح الحفاظ على الجيشين السادس والرابع المدرع في ستالينغراد ، ومجموعة الجيوش (ا) في القفقاس . فإذا انهار

جناح الدون تعرضت القوات الالمانية في ستالينغراد للتطويق وقطعت طريق العودة على القوات العاملة في القفقاس . وأراد سيد الحرب النازي ان يقامر مرة اخرى . ولم تكن هذه المقامرة هي الوحيدة في حملة الصيف كلها .

ففي الثالث والعشرين من تموز ، وكان الهجوم في ذروته ، قامر هتلر مقامرة سابقة . كان الروس يتراجعون تراجعاً كاملاً بين الدونتس والدون الأعلى ، متقهقرين بسرعة الى ستالينغراد باتجاه الشرق ، والى مصب الدون في الجنوب . وتحتم عليه ان يتخذ قراراً ، فهل يركز القوات الالمانية لاحتلال ستالينغراد واغلاق طريق نهر الفولغا، او يوجه ضربته الرئيسية في القفقاس بحثاً عن الزيت الروسي ؟ وكان هتلر في وقت مبكر من ذلك الشهر قد فكر في هذه القضية المعقدة ، ولكنه لم يكن قد حزم أمره مطلقاً . كانت رائحة الزيت قد استهوته في البداية ، وفي الثالث عشر من تموز فصل الجيش المدرع الرابع من مجموعة الجيوش (ب) ، الزاحفة جنوباً مع الدون نحو المنحنى ونحو ستالينغراد الواقعة الى الوراء وأمر بإيفادها جنوباً لمساعدة جيش كلايست المدرع الاول ، في عبور الدون الادنى على مقربة من روستوف باتجاه حقول الزيت في القفقاس . وكان من المحتمل ان يتمكن الجيش المدرع الرابع آنذاك من الاسراع الى ستالينغراد واحتلالها، اذ لم تكن قد حصنت بعد . وعندما أدرك هتلر غلطته ، كان الوقت قد فات ، وضاعف خطأه . فقد أمن بإعادة الجيش الرابع بسرعة الى جبهة ستالينغراد بعد اسبوعين ، وكان الروس قد استفاقوا من هول الضربة الاولى ، وأعدوا مواقعهم لوقف زحفه ، بينما أدى سحبه من جبهة القفقاس الى اضعاف قوات كلايست بحيث غدت عاجزة عن اكمال زحفها الى حقول الزيت في غروزني [1] .

---

١ ـ ابد كلايست هذه الحقيقة لليدل هارت فقال : « كان في وسع الجيش المدرع الرابع ان يجعل ستالينغراد دون قتال في نهاية شهر تموز ، ولكنه تحول نحو الجنوب لمساعدتي في عبور نهر الدون . ولم اكن في حاجة الى مساعدته . اذ ضايقني في الطرق التي استخدمها . وعندما عاد الى الشمال بعد اسبوعين كان الروس قد حشدوا قوات كافية في ستالينغراد =

وكان نقل هذه الوحدة المدرعة الضخمة الى ستالينغراد نتيجة القرار القدري الذي اتخذه هتلر في الثالث والعشرين من تموز . فقد ضمّن تصميمه العنيد على احتلال ستالينغراد والقفقاس في نفس الوقت خلافاً لنصيحة هولدر وقادة الميدان الذين لم يصدقوا إمكان تحقيق الهدفين في وقت واحد ، توجيهه رقم (٤٥) الذي بات مشهوراً بين أساطير الجيش الألماني . حقاً لقد كان هذا التوجيه من اكثر الحركات التي اتخذها هتلر في الحرب قدرية ، اذ أنه أدى في النهاية وبعد وقت قصير إلى فشله في تحقيق الهدفين وأسفر عن أكبر هزيمة إذلالاً في تاريخ السلاح الألماني ، مؤكداً له أنه لن يستطيع كسب الحرب ، وإن أيام الرايخ الثالث الذي سيعيش الف عام قد باتت معدودة .

وأصاب الذعر الفريق هولدر ، ووقعت جلسة عاصفة في « وكر الذئب » في مقر القيادة العامة في أوكرانيا على مقربة من فينيتسا ، الذي كان هتلر قد انتقل اليه في السادس عشر من تموز ليكون قريباً من الجبهة . وقد حث رئيس هيئة أركان الحرب على وجوب تركيز القوات الرئيسية على هدف الاستيلاء على ستالينغراد ، وحاول أن يوضح أن الجيش الألماني لا يملك القوة الكافية لتنفيذ الهجومين القويين في وقت واحد وفي اتجاهين مختلفين . وعندما رد هتلر بأن الروس قد « انتهوا » ، حاول هولدر إقناعه ، بأنه وفقاً لما لدى مخابرات الجيش من معلومات ، فإن هذا القول بعيد عن الحقيقة كل البعد . ودوّن هولدر بأسى في يومياته تلك الليلة يقول :

« يتخذ التقليل المستمر من ممكنات العدو وطاقاته شكلاً ضخماً ، وقد بات خطراً كل الخطورة . وقد بات العمل الجدي هنا مستحيلاً . وتضفي ردود الفعل المريضة على التأثيرات الوقتية ، والافتقار الكامل الى الطاقة على تصميم الوضع وما فيه من

= لوقف زحفه » وكان كلايست في هذا الوقت قد بات في حاجة الى قوة الدبابات الاضافية . « وكان في وسعنا إن نصل الى هدفنا ـ وهو زيت غروزني ـ لو لم تسحب هذه القوات مني .. للمساعدة في الهجوم على ستالينغراد» (ليدل هارت ـ الفرقاء الالمان يتكلمون ص ١٦٩ ـ ١٧١

احتمالات على هذه « القيادة » المزعومة طبيعة غريبة كل الغرابة » .

وعاد رئيس هيئة اركان الحرب ، الذي باتت ايامه معدودة في منصبه الآن الى هذا الوضع ثانية و كتب يقول :

« باتت قرارات هتلر لا تتفق مطلقاً مع مبادىء السوقية العسكرية والعمليات الحربية ، المقررة في الفن العسكري منذ اجيال بعيدة . ولم تكن هذه القرارات إلا ثمرة مزاج عنيف يتبع التأثيرات المؤقتة ، ولا يعترف بأية حدود للطاقات والممكنات ، وانما يجعل من احلام يقظته ، الدافع لجميع هذه الاعمال [1]

وعاد هولدر فيما بعد فروى قصة عما اسماه « بالمبالغات المريضة في تقدير القوة الحقيقية لطاقات القائد الاعلى ، والتقليل الاجرامي في تقدير قوة العدو » على النحو التالي :

« وفي ذات يوم تلا أحد المسؤولين تقريراً موضعياً على مسامع هتلر ، يظهر ان ستالين كان لا يزال قادراً في عام ١٩٤٢ ، على حشد قوات تتراوح بين المليون والمليون والربع من الجنود غير المجهدين في المنطقة الواقعة الى الشمال من ستالينغراد والغرب من نهر الفولغا ، وحشد نحو من نصف مليون من الجنود في القفقاس ،ويقدم الدليل المادي على ان انتاج روسيا من الدبابات للخط الأول يبلغ نحواً من (١٢٠٠) دبابة في الشهر ، هجم القائد الاعلى على الرجل ، وقد ضم قبضته وتدفق الزبد من شدقيه ، ومنعه من قراءة ما اسماه بالهذر الأحمق » [2]

ويقول هولدر ، « ولم يكن المرء في حاجة الى مواهب الانبياء والعرافين ليتبين ما سيقع عندما يطلق ستالين هذه القوات التي يبلغ تعدادها مليوناً ونصف

---

١ ـ هولدر « هتلر كقائد ميدان » ص ٥٠ .
٢ ـ هولدر « هتلر كقائد ميدان » ص ٥٢ .

المليون على ستالينغراد وجناح الدون[1] . وقد بيّنت هــذه الحقيقة بكل وضوح . » وكانت النتيجة تنحية رئيس اركان الحرب من منصبه .

ووقع هذا في الرابع والعشرين من ايلول . وعندما كان هولدر قبــل ذلك بأيام أي في التاسع من ايلول ، قد سمع من كايتل نبأ تنحية المشير ليست مــن القيادة العامة لجميع القوات العاملة في القفقاس ، ادرك ان دوره قد اتى. وقيل له ان الفوهرر بات مقتنعاً من انه « لم يعد ذا كفاية للمتطلبات النفسية التي يفرضها عليه مركزه » . وقد شرح هتلر قوله هذا شرحاً اكثر تفصيلاً لرئيس اركان حربه في اجتماعها الوداعي في الرابع والعشرين .

قال هتلر : لقــد كنت واياك نعاني من اعصابنا . ويرجع نصف مــا اعانيه من اجهاد عصبي اليك . ولا ارى خيراً في الاستمرار على هــذا النحو . ونحن في حاجة الآن الى الحماس الاشتراكي الوطني لا الى القدرة المهنية ولا يمكنني ان اتوقع مثل هذا الحماس من ضابط من ابناء المدرسة القديمة مثلك » .

وعلق هولدر فيما بعد قائلاً : « كان هذا هو حديثه . وكان فيــه اقرب الى المتعصب السياسي منه الى القائد العسكري المسؤول » [1]

وهكذا اخرج فرانز هولدر من المسرح . ولم يكن بدوره خاليــاً من الأخطاء . التي تشبه اخطاء سلفه الفريق بيك ، في انــه كان مشوش الفكر ، خائر العزيمة ، مشلول الارادة على العمل . وعلى الرغم من انه كثيراً ما وقف ضد هتلر ، وان كانت وقفاته دون أي تأثير ، إلا انه كان كغيره من ضبــاط الجيش الذين احتلوا ارفع الرتب في الحرب الكونية الثانية ، قد قطع اشواط

---

١ ـ ويقول هولدر انه وجد عرضا في اوكرانيا في ذلك الوقت كتابا عن الهزيمة التي الحقها ستالين بالفريق دينيكين ، بين منحنى الدون وستالينغراد اثناء الحرب الاهلية في روسيا . ويضيف ان الوضع كان آنذاك مماثلا للوضع الحالي في عام ١٩٤٢ ، وكيف ان ستالين استغل « ببراعة فائقة » ضعف دفاع دينيكين على طول نهر الدون . ثم مضى يقول : (ومن هنا نشأ تبديل اسم المدينة من (تساريتسين) الى ستالينغراد .

٢ ـ اقتبست اقوال هتلر وهولدر من يوميات الاخير وكتابه ومن كتاب (هاينز شروتر) ـ ستالينغراد ص ٥٣ .

بعيدة معه ، مساعدا اياه في اعتداءاته الشريرة وفتوحاته . ومع ذلك فقد ظلّ محتفظاً ببعض الفضائل التي تمت الى عصور اكثر فضيلة . وكان آخر من تولى رئاسة اركان حرب جيش الرايخ الثالث من ابناء المدرسة القديمة [1] . وقد خلفه في منصبه الفريق كورت زيتزلر وهو ضابط شاب من طراز مختلف ، كان يعمل رئيساً لاركان المشير رونشتادت في الغرب ، واحتمل الآن في منصبه الجديد الذي كان يعتبر ولا سيما في الحرب الكونية الأولى اعلى مناصب الجيش الألماني واكثرها مسؤولية ، ما لا يحتمله « آذن » في مكتب الفوهرر ، حتى جرت محاولة اغتيال الديكتاتور في تموز عام ١٩٤٤ . [2]

ولم يؤد تبدل رئيس هيئة اركان الحرب الى أي تبدل في وضع الجيش الألماني الذي توقف زحفه المزدوج الآن من جراء اشتداد المقاومة السوفياتية . واستمر قتال الشوارع المرير طيلة شهر تشرين الأول في مدينة ستالينغراد نفسها. واحرز الألمان بعض التقدم من بناية الى بناية ، ولكن بعض خسائر مذهلة، اذ ان حطام مدينة كبيرة يقدم ، كما يعرف كل من خبر الحروب العصرية ،فرصاً عدة لاشتداد المقاومة وإطالتها ، وقد استغل الروس كل شبر من هذا الحطام اكبر استغلال .

---

١ ـ كان فصل هولدر من منصبه خسارة ، لا للجيش الالماني وحده بل وللمؤرخين ايضا، اذ ان يومياته التي لا تقدر بثمن قد انتهت في الرابع والعشرين من ايلول عام ١٩٤٢ . وقد اعتقل في النهاية واودع في معتقل داخاو ، مع غيره من كبار المسجونين من امثال شوشنيغ وشاخت ، وحررته القوات الامريكية في نيدر دوف في جنوب التيرول في ٢٨ نيسان ١٩٤٥ . وقد تعاون منذ ذلك التاريخ حتى وضع هذا الكتاب مع الجيش الامريكي في عدد من الدراسات التاريخية للحرب العالمية الثانية . واني لمدين له بكثير من الردود على الاسئلة التي وجهتها اليه وبارشادي الى بعض المصادر .

٢ ـ كان الفريق يودل ، رئيس قسم العمليات في القيادة العليا للقوات المسلحة ، والمعروف بأمانته وولائه للفوهرر ، موضع الزراية في هذا الوقت ايضا فقد عارض في فصل المشير ليست والفريق هولدر وساقه دفاعه عنهما الى التعرض لغضب هتلر الذي ظل شهورا طويلة ، يرفض مصافحة يودل ، او تناول الطعام معه او مع غيره من ضباط الاركان . وكاد هتلر يأمر بفصل يودل من منصبه في نهاية شهر كانون الثاني عام ١٩٤٣ . وان يعين الفريق باولوس خلفا له ، ولكن الوقت قد فات ، فان باولوس كما سنروي فيما بعد . لم يعد بين يدي هتلر .

وعلى الرغم من ان هولدر وخلفه فيما بعد قد حذرا هتلر من ان القوات الالمانية في ستالينغراد قد بلغت نهاية طاقتها ، فإن القائد الأعلى اصر على وجوب الاستمرار في التقدم ، وكان يقذف بفرق جديدة سرعان ما تلتهمها نيران الجحيم .

وبدلاً من ان تكون ستالينغراد وسيلة لتحقيق غاية ، وهي غاية تحققت فعلاً عندما وصلت الوحدات الألمانية الى ضفاف الفولغا الغربية الى الشمال والجنوب من المدينة ، وقطعت حركة النقل في النهر ، باتت الآن ، أي ستالينغراد ، هي الغاية نفسها . وبات احتلالها الآن بالنسبة الى هتلر ، قضية كرامة شخصية . وعندما حاول حتى زيتزلر ، متدرعاً بالشجاعة الكافية ان يقترح على الفوهرر نظراً للخطر الماثل على الجناح الشمالي الطويل على نهر الدون ، سحب الجيش السادس من ستالينغراد الى منحنى الدون ، ثار هياج هتلر وصرخ بقائده قائلاً : « حيث يضع الجندي قدمه ، لن يكون هناك تراجع » .

وعلى الرغم من الاهوال والخسائر الفادحة فإن الفريق باولوس ، قائد الجيش السادس ، ابلغ هتلر في رسالة بعث بها عن طريق «الراديو» في الخامس والعشرين من تشرين الأول ، بأنه ينتظر اتمام الاستيلاء على ستالينغراد على ابعد تقدير في العاشر من تشرين الثاني . وانتعشت معنويات هتلر بهذا التأكيد ، فاصدر هتلر اوامره في اليوم التالي الى الجيش السادس والجيش المدرع الرابع ، الذي كان لا يزال يقاتل الى الجنوب من المدينة بالاستعداد للاندفاع شمالاً وجنوباً على طول نهر الفولغا فور سقوط ستالينغراد .

ولم يكن هتلر في الحقيقة جاهلا بالخطر الذي يهدد جناح الدون . وتوضح يوميات القيادة العليا للقوات المسلحة ان هذا الخطر كان يسبب له قلقاً بالغاً . ولكن المشكلة في انه لم يحمل هذا الخطر على محمل الجد الى حدٍ كبير ، وانه نتيجة لذلك ، لم يقم بأي عمل لتجنبه . أجل لقد كان واثقاً كل الثقة من السيطرة على الوضع حتى انه في اليوم الاخير من شهر تشرين الأول ، غادر هو واركان حرب القيادة العليا وهيئة اركان حرب الجيش ، مقرهم في فينيتسا في اوكرانيا عائدين الى « عش النسر » «وولفشانزي » في راستينبرغ . وكان الفوهرر قد

اقنع نفسه ، بأنه اذا كان ثمة هجوم سوفياتي في الشتاء فإن هذا الهجوم سيقع في الجبهتين الوسطى والشمالية .

ولكنه ما كاد يصل الى هناك حتى كانت الانباء السيئة قد بدأت في التوارد اليه ، من جبهة اخرى اكثر بعداً ، ففيلق رومل الافريقي ، بـــدأ يتعرض الى الخطر .

الضربة الاولى

العلمين والنزول الانكليزي ــ الامريكي

استأنف ثعلب الصحراء ، وهو الاسم الذي اطلق على رومل ، على جانبي الجبهة ، هجومه في العلمين في الواحد والثلاثين من آب ، هادفاً الى اجتياح الجيش البريطاني الثامن ، والزحف الى الاسكندرية ونهر النيل . ودارت معركة عنيفـة في حرارة الصيف اللاهبة على طول الجبهة الصحراوية التي تمتد اربعين ميلاً بـين البحر ومنخفض القطاره ، ولكن رومل عجز عن اختراق الجبهـة واضطر في الثالث من ايلول الى التحول الى الدفاع . وكان الجيش البريطاني قد تلقى اخيراً في مصر ، تعزيزات قوية في الرجال والمدافع والدبابات والطائرات ، وكان القسم الاكبر من المادتين الاخيرتين من امريكا . وكان هذا الجيش قد تلقى في الخامس عشر من آب قائدين جديدين ، احـــدهما فريق شاذ الطباع ولكنه موهوب يـــدعى السير برناردلو مونتغومري ، الذي تولى قيادة الجيش الثامن والفريق السير هارولد اليكزاندر ، الذي اثبت فيما بعد انه بارع في الشؤون السوقية وماهر في الادارة ، وقد تولى الآن مركز القائـــد العام في الشرق الأوسط .

وكان رومل قد امضى بعد نكسته لقضاء اجازة مرضية في جبال سيميرينغ الى الجنوب من فيينا ، ليتعالج من انف مصاب وكبد متقرّح . وسرعان مـــا

تلقى مكالمة هاتفية من هتلر هناك . قال الفوهرر : « اسمع يا روميل ، الانباء سيئة من افريقيا . ويبدو لي ان الوضع غامض الى حدٍ ما ، كما يظهر ان ليس ثمة من يعرف حقيقة ما وقع للفريق شتوم . [1] وهل في استطاعتك ان تعود الى افريقيا وتتسلم القيادة من جديد ؟ » [2] وقد وافق روميل على العودة فوراً على الرغم من مرضه .

وعندما وصل روميل الى مقر قيادته في غرب العلمين في المساء التالي ، كانت المعركة التي شنها مونتغومري في الساعة التاسعة والدقيقة الاربعين من الثالث والعشرين من تشرين الأول قد انتهت بالخسارة للالمان . فلقد كان لدى الجيش الثامن عدد وافر من المدافع والدبابات والطائرات ، وعلى الرغم من ان الخطوط الألمانية – الايطالية كانت لا تزال صامدة ، وعلى الرغم من الجهود اليائسة التي بذلها روميل ، لنقل فرقه المحطة لوقف الهجمات المختلفة ، ولشن هجمات مضادة احياناً ، إلا انه ادرك ان الوضع بات يائساً . فلم تكن لديه قوات احتياطية لا في الرجال ولا في الدبابات ولا في الزيت . فلقد بات السلاح الجوي البريطاني مسيطراً في الجو لأول مرة ، وكان يضرب قواته ومدرعاته وما تبقى من مستودعات تموينه دون رحمة أو شفقة .

وتمكنت مشاة مونتغومري ومدرعاته في الثاني والعشرين من تشرين الثاني من اختراق الخطوط الايطالية في جنوب الجبهة ، وبدأت تجتاح امامها الفرق الايطالية فيها . وبعث روميل في تلك الليلة برسالة اذاعية الى مقر قيادة هتلر في الجبهة الشرقية في بروسيا الشرقية على بعد الفي ميل ، قائلاً انه لم يعد في وسعه الصمود ، وانه يعتزم الانسحاب ، قبل ان تضيع الفرصة الىموقع الفوقة على بعد

١ – توفي شتوم ، الذي تولى القيادة نيابة عن روميل اثناء مرضه ، من نوبة قلبية اصابته في الليلة الاولى من الهجوم البريطاني اثناء فراره على اقدامه فوق رمال الصحراء من دورية بريطانية كادت تقتله .

٢ – اقتبسها الفريق بايرلين نقلا عن اوراق روميل – القرارات القدرية – اعداد فريدين وريشاردسون ص ١١٠

اربعين ميلاً غرباً .

وكان قد شرع في الانسحاب عندما جاءته في اليوم التالي رسالة مطولة على أمواج الأثير من سيد الحرب الأعلى هذا نصها :

« الى المشير رومل

« أرقب ويرقب معي الشعب الألماني بأسره ، المعركة الدفاعية البطولية التي تخوضونها في مصر ، مع ثقتنا المطلقة بكفايات قيادتك وبسالة القوات الألمانية والايطالية العاملة تحت امرتك . وفي مثل هذا الوضع الذي تجد نفسك فيه ، لا يمكن ان يكون ثمة اعتبار آخر ، سوى الصمود بقوة واصرار ، وعدم التراجع خطوة واحدة ، والقذف بكل مدفع وكل رجل في المعركة . وليس في مكنتك ان تعرض على جنودك سوى الطريقة الوحيدة التي تقودك إما الى النصر او الى الموت .

ادولف هتلر » [١]

وعنى هذا الأمر الأحمق شيئاً واحداً اذا أطيع ، وهو القضاء على الجيوش الايطالية والالمانية بالموت والابادة السريعة ، ويقول بايرلين ، ان رومل لأول مرة في افريقيا لم يدر ما يصنعه . فبعد نضال قصير مع ضميره وعلى الرغم من اعتراضات الفريق ريترفون توما ، القائد الفعلي للفيلق الافريقي الالماني الذي قال بأنه سينسحب على اي حال ، قرر اطاعة أمر القائد الأعلى.[٢] ودوّن رومل فيما بعد في يومياته يقول : « وقد قررت اخيراً ان اتخذ القرار لانني كنت دائماً اطلب الطاعة العمياء من جنودي ، وأردت ان افرض هذه الطاعة

---

١ ـ اقتبس الرسالة بايرلين ايضا ، القرارات القدرية ـ فريدين وريشاردسون ص ١٢٠

٢ ـ وفي اليوم التالي ، الرابع من تشرين الثاني قال الفريق فون توما للفريق بايرلين : « ان امر هتلر جنون مطبق لا مثيل له . وليس في مكنتي ان امضي في تنفيذه مدّة اطول » ... ثم راح يرتدي بزة نظيفة تحمل شارة رتبته والاوسمة التي يحملها ، ووقف الى جانب دبابته المحترقة ، الى ان جاءت وحدة بريطانية فاستسلم لها ، وتناول في المساء عشاءه مع مونتغومري في مطعم القيادة .

على نفسي » . ولكنه عاد فكتب في يومية لاحقة ، ما يدل على انه كان اكثر وعياً .

وأصدر رومل ، وهو برم ، الأمر بوقف الهجوم ، وبعث في الوقت نفسه رسولاً بالطائرة الى هتلر ، محاولاً ان يشرح له ،انه ما لم يسمح له بالتراجع فوراً ، فسيضيع كل شيء . ولكن الاحداث كانت اسرع منه ،وقرر عشية الرابع من تشرين الثاني ، مغامرة باحتمال تقديمه الى محكمة عسكرية بتهمة عصيان أوامر القائد الأعلى ، ان ينقذ ما تبقى من قواته وأن يتراجع الى الفوقة . ولم يكن في وسعه ان يسحب إلا ما تبقى من وحداته المدرعة والآلية . أما قوات المشاة ومعظمهم من الايطاليين، فقد خلّفوا الى الوراء ليستسلموا وهو ما فعلته غالبيتهم حتماً . [1] وتلقى في الخامس من تشرين الثاني رسالة قصيرة من الفوهرر تقول : « اني موافق على انسحاب جيشك الى موقع الفوقة » . ولكن دبابات مونتغومري كانت قد اجتاحت ذلك الموضع ايضاً . ولم تمض سبعة ايام ، حتى كان رومل قد تراجع سبعمائة ميل الى ما وراء بنغازي بما تبقى من جيشه الافريقي ، الذي لا يربو عدد من بقي منه على الخمسة والعشرين الف ايطالي وعشرة آلاف الماني وستين دبابة ، ولم تعد لديه فرصة للوقوف حتى في مكانه الجديد .

وكانت هذه بداية النهاية بالنسبة الى أدولف هتلر ، كما كانت اكثر معركة حسماً فاز فيها اعداؤه ، وان كانت هناك معركة ثانية اكثر حسماً على وشك ان تبدأ على السهوب الثلجية في جنوب روسيا . ولكن قبل ان تبدأ هذه المعركة فعلا ، قدر للفوهرر ان يسمع المزيد من الانباء السيئة من شمال افريقيا ، وهي التي قررت مصير المحور في ذلك الجزء من العالم .

وفي الثالث من تشرين الثاني وكانت الانباء الأولى قد جاءت عن كارثة

---

١ ـ بلغت خسائر رومل في العلمين (٥٩) الف شخص بين قتيل وجريح واسير ، بينهم (٣٤) الفا من الالمان ، وذلك من مجموع قوة تعد ستة وتسعين الفا .

روممل ، تلقى مقر قيادة الفوهرر كلمة تقول ان اسطولاً ضخماً للحلفاء قد شوهد متجمعاً في جبل طارق ، ولم يستطع احد في القيادة العليا للقوات المسلحة الألمانية ان يتكهن بالغاية التي يهدف لها هذا الاسطول . ومال هتلر الى الاعتقاد ، بأنه لم يكن اكثر من مجرد قافلة اخرى قوية الحماية متجهة الى مالطة. ولا ريب في ان لهذا الاعتقاد اهمية ، اذ ان عدداً من كبار رجال القيادة العليا ، كانوا قبل نحو من إسبوعين أي في الخامس عشر من تشرين الأول ، قد ناقشوا عدة تقارير عن « نزول انكلو – سكسوني » وشيك الوقوع في غرب افريقيا . ويبدو ان النبأ جاء من رومة ، اذ ان شيانو قبل نحو من اسبوع أي في التاسع من تشرين الأول ، دوّن في يومياته بعد حديث مع رئيس المخابرات السرية العسكرية ، ان « الانكليز والامريكيين يتأهبون للنزول بقوة في شمال افريقيا . » وقد أحزنت هذه الانباء شيانو ، اذ توقع ، وكان توقعه صحيحاً ، ان مثل هذه الخطوة ستؤدي حتماً الى هجوم مباشر للحلفاء على ايطاليا .

ولم يحمل هتلر وهو المشغول في محاولة منع الروس من ابداء مقاومتهم الجهنمية ، هذه الانباء الأولية على محمل الجد . واقترح يودل في اجتماع عقدته القيادة العليا للقوات المسلحة في الخامس عشر من تشرين الاول ، ان يسمح لفرنسة فيشي بارسال نجدات الى افريقيا الشمالية ليتمكن الفرنسيون من صد أي انزال يقوم به الانكليز والامريكيون . ولكن الفوهرر ، رفض كما تقول يوميات القيادة العليا ، هذا الاقتراح ، لانه قد يؤدي الى اغضاب الايطاليين الذين كانوا يتوجسون خيفة ويتقدون غيظاً من أي حركة تهدف الى تقوية فرنسا . ويبدو ان القضية قد نسيت في مقر القيادة الى ان عادت الى الذاكرة في الثالث من تشرين الثاني . ولكن في ذلك اليوم ، وعلى الرغم من ان العملاء الالمان في الجانب الاسباني من جبل طارق قد نقلوا الى برلين مشاهدتهم اسطولاً انكليزياً امريكياً ضخماً يتجمع هناك ، فإن هتلر كان مشغولاً بحمل روممل على الصمود في العلمين ، الى حد انه لم يكلف نفسه عناء التفكير بما بدا له ، مجرد قافلة اخرى متجهة الى مالطة .

وأبلغت القيادة العليا الالمانية في الخامس من تشرين الثاني ان قوة بحرية بريطانية قد ابحرت شرقاً من جبل طارق. ولكن هتلر، لم يول ما وصله من اخبار من جبل طارق أي اهتمام إلا في السابع من تشرين الثاني أي قبل اثنتي عشرة ساعة من بدء نزول الحلفاء في شمال افريقيا وكانت التقارير التي وصلت قبل ظهر ذلك اليوم الى مقر قيادته في بروسيا الشرقية قد اكدت ان قوات بحرية بريطانيا قد عادت الى جبل طارق، حيث التقت بأسطول ضخم من سفن النقل والسفن الحربية كان قادماً من الاطلسي، ثم اتجهت كلها معاً شرقاً نحو البحر المتوسط. ودار نقاش طويل بين ضباط الاركان وبين الفوهرر. ترى ماذا تعني هذه الحركات كلها؟ وما هو هدف هذه القوة البحرية الضخمة؟ قال هتلر انه بات ميالاً الى الاعتقاد، بأن الحلفاء قد يحاولون القيام بعملية انزال رئيسية بأربع فرق أو خمس في طرابلس او بنغازي، لتطويق رومل من مؤخرته. وأعلن امير البحر كرانكي، ضابط الاتصال البحري في مقر القيادة العامة للقوات المسلحة، بأنه لا يمكن ان تكون هناك اكثر من فرقتين معاديتين، هذا على اكثر تقدير ومع ذلك، يجب القيام بعمل ما وطلب هتلر تعزيز السلاح الجوي في البحر المتوسط فوراً، ولكن قيل له ان هذا مستحيل في الوقت الحاضر. واذا حكمنا على ضوء ما ورد في يوميات القيادة العامة للقوات المسلحة، تبيّن لنا ان كل ما فعله هتلر في ذلك الصباح هو ابلاغ رونشتادت القائد العام في الغرب ليكون على استعداد لتنفيذ عملية «انطون»، وهو الاسم الرمزي الذي اطلق على خطة احتلال ما تبقى من فرنسا.

ومن اثر ذلك، غادر القائد الأعلى مقر قيادته بعد ان تناول غداءه في السابع من تشرين الثاني متجهاً الى ميونيخ حيث كان من المقرر ان يلقي في الليلة التالية خطابه السنوي على اخدانه القدماء في الحزب الذين يجتمعون للاحتفال بالذكرى السنوية لانقلاب حانة الجعة. وبدأ الفوهرر بعمله هذا غير مكترث بحالة رومل الذي سيسقط في الفخ اذا نزلت القوات البريطانية والامريكية وراء ظهره، ولا بالانباء الاخيرة التي وردته عن توقع البدء بهجوم

روسي مضـــاد في حوض الدون مستهدفـــاً مؤخرة الجيش السادس في ستالينغراد .[1]

وتغلب السياسي في الرجل ، كما دوّن هولدر ، على الجندي في هذه اللحظة الحرجة في الحرب . وعهد بأمر القيادة العليا في الشرق الى عقيد يدعى فريهير تروخ فون بوتلر براندينفيلز ، لأن كايتل ويودل ، وهما اكبر ضابطين فيها قد رافقا الفوهرر للاشتراك في احتفالات حانة الجعة . وليس ثمـة وجود غرابة في مثل هذا التصرف الذي يحمل سيد الحرب الاعلى ، الذي كان يصر على توجيه الحرب في جبهات بعيدة ومترامية حتى على مستويات الفرق والالوية والافواج ، على الابتعاد الوف الاميال عن الميادين ليشترك في مهمـــة سياسية في وقت كان البيت فيه قد بدأ بالتهدم على رأس آهليه . وكان ثمة تحول في الرجل ، نوع من الاهتراء والانحلال ، تماماً كما وقع بالنسبة الىغورنغ ، الذي راح يزداد اهتمامـه على الرغم من تدهور سلاحه الجوي الذي كان في يوم مـا متناهياً في القوة ، بجوهراته وقطاراته الدمى ، دون ان يترك وقتاً للاهتمام بالواقع البشع النـاجم عن حرب طويلة تزداد عنفاً وشدة .

ووصلت القوات الانكليزية – الامريكية بقيادة الفريق ايزنهـــاور الى سواحل مراكش (المغرب) والجزائر في الساعة الواحـدة والنصف من صباح الثامن من تشرين الثاني عـــام ١٩٤٢ ، وفي الساعة الخامسة والنصف كان ريبنتروب يتحدث هاتفياً من ميونيخ الى شيانو في رومه ناقلاً اليـــه الانباء . ودوّن شيانو في يومياته يقول :

« كان ثائر الاعصاب في حديثه وود ان يعرف ما ننتوي نحن عمله . وارى ان اعترف انني قد فوجئت بالنبـأ ، وكنت لا ازال

---

١ ـ علمت من تقويم هتلر اليومي الذي عثر عليه مع الوثائق المصادرة ان الاحتفالات قد نقلت من حانة الجعة القديمة التي وقع فيها الانقلاب حقا الى حانة جعة اخرى اكثر اناقة وهي حانة لوين بروكلر . ولعل القراء يذكرون ان الحانة القديمة كانت قد تحطمت من جراء انفجار القنبلة الموقوتة التي كادت تقضي على الفوهرر ليلة الثامن من تشرين الثاني عام ١٩٣٩ .

أحس بالنعاس لم استطع ان اعطيه رداً مرضياً . »

وعلم وزير خارجية ايطاليا من السفارة الألمانية ان الموظفين فيها قد « فزعوا من الضربة الجديدة » .

ولم يصل قطار هتلر الخاص من بروسيا الشرقية الى ميونيخ حتى الساعة الثالثة والدقيقة الاربعين من بعد ظهر ذلك اليوم ، وكان اول ما تلقاه من انباء عن نزول قوات الحلفاء في شمال غربي افريقيا من النوع المتفائل . [1] اذ قيل له ان الفرنسيين يبدون مقاومة عنيدة في كل مكان ، وانهم احبطوا محاولات النزول في كل من الجزائر ووهران . وكان امير البحر دارلان ، وهو صديق للألمان ، ينظم اعمال الدفاع في الجزائر بموافقة حكومة فيشي . أما ردود فعل هتلر الاولى فكانت متضاربة تمام التضارب . واصدر امره بوجوب تقوية حامية كريت التي كانت خارجة تماماً عن مسرح الحرب الجديد ، موضحاً ان مثل هذه الخطوة لا تقل في اهميتها عن ارسال النجدات الى افريقيا . وأصدر أمراً الى الغستابو بنقل الفريق ويغان والفريق جيرو فيشي والاحتفاظ بهما هناك تحت الرقابة . [2] وطلب الى المشير فون رونشتادت ان يهيىء عملية « انطون » شرط ان لا يجتاز بقواته خط الحدود الى فيشي الى ان يتلقى اوامر جديدة . وطلب الى شيانو [3] والى بيير لافال الذي كان قد غدا الآن رئيس وزراء حكومة

---

١ ـ اعتمدت في مصدري هنا كما في اماكن اخرى من هذا الفصل عن اجتماعات هتلر في مقر قيادته العليا ، على ما يسمى بيوميات القيادة ، التي كان يعدها حتى ربيع عام ١٩٤٣ الدكتور هيلموت غرينر ، ليخلفه في اعدادها حتى نهاية الحرب الدكتور بيرسي ايرنست شرام. وقد اتلفت اليوميات الاصلية في مطلع ايار عام ١٩٤٥ بأمر من الفريق وينتر نائب يودل . وتولى غرينر بعد انتهاء الحرب اعادة كتابة القسم الذي كان قد اعده هو من ملاحظاته الاصلية ومسوداته وسلمه الى فرع التاريخ العسكري في وزارة الحربية الامريكية . وقد طبع جزء من هذه المادة في كتاب غرينر نفسه .

٢ ـ كان الفريق جيرو يصل في تلك الساعة الى الجزائر . وكان قد فر من معسكر الماني لاسرى الحرب واقام في شمال فرنسا حيث نقلته غواصة بريطانية في الخامس من تشرين الثاني الى جبل طارق للتشاور مع ايزنهاور قبل البدء بعمليات الانزال .

٣ ـ دون شيانو في يومياته بتاريخ التاسع من تشرين الثاني : « هتف لي ريبنتروب =

فيشي مقابلته في ميونيخ في اليوم التالي .

وظلت فكرة التحالف مع فرنسا تداعب خيال هتلر مدة اربع وعشرين ساعة ، محاولاً ادخالها الحرب الى جانبه ضد بريطانيا وامريكا ، وحملها في الوقت الحاضر على تقوية تصميم بتان على مقاومة نزول الحلفاء في افريقيا . ويبدو انه لقي تشجيعاً لفكرته هذه من العمل الذي قام به بتان بقطع العلاقات الدبلوماتية مع الولايات المتحدة صباح الاحد في الثامن من تشرين الثاني ومن بيان المشير الفرنسي العجوز الى القائم بالاعمال الامريكي من ان قواته ستقاوم الغزو الانكلو - امريكي . وتؤكد يوميات القيادة لذلك اليوم الأحد ان هتلر كان منشغلاً في اعداد « تعاون واسع النطاق مع الفرنسيين » . وقدم الممثل الألماني في فيشي ، كورغ فون ندّا ، في مساء ذلك اليوم نفسه ، اقتراحاً الى بتان لعقد تحالف وثيق بين المانيا وفرنسا . [1]

ولكن هتلر ما لبث ان غير فكره في الصباح التالي ، بعد ان القى خطابه التقليدي على مناضلي الحزب القدامى ، وهو الخطاب الذي اعلن فيه ان ستالينغراد باتت في ايدي الألمان بشكل حازم . وقد ابلغ شيانو ، بأنه لا يشك مطلقاً في رغبة الفرنسيين في القتال ، وانه صمم على احتلال فرنسا الكامل ، والنزول بقواته في كورسيكا واقامت رأس جسر في تونس . وقد نقل هذا القرار دون تحديد الوقت الى لافال عندما وصل الى ميونيخ بالسيارة في العاشر من تشرين الثاني . ووعد الفرنسي الخائن بأن يحث بتان على الاذعان لرغبات الفوهرر ولكنه اقترح ان يمضي الألمان بخططهم دون ترقب موافقة المشير الخرف ، وهو ما اراد هتلر ان يعمله فعلاً . وقد ترك شيانو لنا وصفاً عن رئيس وزراء فيشي الذي اعدم بتهمة الخيانة بعد انتهاء الحرب ... هذا ما جاء فيه :

= اثناء الليل ، قائلا ان علي او على الدوتشي ان نذهب الى ميونيخ في اسرع وقت . وسيكون لافال هناك ايضا . ايقظت الدوتشي ولكنه لم يكن راغبا في الذهاب لا سيما وانه كان متعبا ومريضا ، اذن سأذهب انا » .

١ - محاكمة المسيو بتان - شهادة لافال . ص ٢٠٢ .

« بدا لافال برباط عنقه الابيض وبزتـه التي تشبه ما يرتديـه فلاحو الطبقة الوسطى في فرنسا ، غريباً كل الغرابة في ذلك اللهو الفسيح بين هذ العدد الضخم من اصحاب البزات العسكرية . وهو يحاول ان يتحدث بلهجة أليفة عن رحلته . وعن نومه الطويل في السيارة ، ولكن كلمات تمضي دون ان يأبه بها احد . ويعامله هتلر بشيء من الكياسة الباردة ...

« ولم يكن في وسع المسكين ان يتصور « الأمر الواقـع الذي سيواجهه به الألمان . ولم يحدثه احد عن العمل الوشيك الوقـوع . وعن أن الأوامر باحتلال فرنسا قد صدرت بينما يجلس هو في الغرفة المجاورة يدخن سيجارته متحدثاً الى مختلف الناس . وذكر لي فون ريبنتروب ان لافال سيبلغ بما هو حادث ، في الساعة الثامنـة من صباح اليوم التالي ، وانه بالنظر الى ما ورد من معلومات فإن هتلر وجد نفسه مرغماً على اتخاذ اجرائه باحتلال البلاد . » [1]

وقد اصدر هتلر امره باحتلال ما تبقى من فرنسا ، متحدياً بذلك اتفـاق الهدنة في الساعة الثامنة والنصف من مساء العاشر من تشرين الثاني ، وتم تنفيذه صباح اليوم التالي دون اي حادث ،سوى الاحتجاج الذي لا جدوى منه ،والذي قدمه بتان . واحتل الايطاليون كورسيكا ، وشرعت الطائرات الألمانية في نقل القوات لاحتـلال تونس التي يسيطر عليهـا الفرنسيون قبل ان تصل اليها قوات ايزنهاور .

وكان ثمة قصة اخرى من قصص الخداع النموذجي الذي تميز به هتلر . ففي الثالث عشر من تشرين الثاني ، أكد الفوهرر لبتان ان الألمان والايطاليين لن يحتلوا طولون حيث يرابط الأسطول الفرنسي منذ توقيـع الهدنة . وفي الخامس والعشرين من تشرين الثاني سجلت يوميات القيادة العليا للقوات المسلحة ان هتلر

---

١ - يوميات شيانو ص ٥٤١ - ٥٤٢

قرر تنفيذ عملية «ليلى» في أسرع وقت ممكن [1] وكان «ليلى» هو الاسم الرمزي الذي اطلق على عملية احتـــلال طولون والاستيلاء على الاسطول الفرنسي . وهاجمت القوات الألمانية صباح السابع والعشرين القاعدة البحرية ولكن البحارة الفرنسيين صمدوا لها وقتاً مكن ملاحي السفن الحربية الفرنسية من تنفيـــذ تعليمات أمير البحر دي لا بورد بإغراقها وهكذا أضاع المحور الاسطول الفرنسي، بعد ان كان في حاجــة ماسة الى سفنه الحربية في المتوسط ، ولكن الاسطول ، ضاع كذلك بالنسبة الى الحلفاء الذين لو انضم اليهم لأضافوا قوة ثمينة الى قوتهم .

وتغلب هتلر على ايزنهاور في السباق لاحتلال تونس . ولكن هذا النصر كان موضع الشك . فقد نقل بناء على امر هتلر نحو ربع مليون من الجنود الألمـــان والايطاليين لاحتلال رأس الجسر هذا . ولو كان الفوهرر قد بعث بنحو خمس هذه القوة والدبابات الى رومل قبل بضعة اشهر ، لـكان من الممكن ان يكون ثعلب الصحراء ، قـــد وصل الآن الى ما وراء نهر النيل ، ولما كان مكنـــة الانكليز والامريكيين ان ينزلوا في افريقيا الشمالية الغربيـــة ، ولخسر الحلفاء حوض البحر الابيض المتوسط خسارة كلية ، مؤمناً للمحور بذلك الوقاية السرية لبطنه . ولكن قدر لكل جندي ودبابة ومدفع، اوفدها هتلر على جناح السرعة الى تونس في ذلك الشتاء وللبقية الباقية من الفيلق الأفريقي ان يضيع كلها في

---

١ ـ ارى من الانصاف ان نذكر ان هتلر شك كثيرا ، وكان له بعض الحق في ذلك ، في ان الاسطول الفرنسي قد يحاول الابحار الى الجزائر والانضمام الى الحلفاء . فعلى الرغم من تعامله الخائن مع الالمان وكراهيته العنيفة للبريطان ، كان امير البحر دارلان ، الذي كان يزور ولده المريض في الجزائر آنذاك ، قد تعرض لضغط شديد من ابزنهاور ليعمل كقائد لفرنسا في افريقيا الشمالية ، لا بوصفه الضابط الفرنسي الوحيد الذي يستطيع وقف مقاومة الاسطول والجيش الفرنسيين للحلفاء فحسب ، بل لان في استطاعتـه ان يحمل امير البحر الفرنسي الذي يقود الاسطول في طولون على الاسراع باسطوله الى افريقيا الشمالية للانضمام الى قوات الحلفاء البحرية ايضا . ولكن هذه الامال مـا لبثت ان تحطمت على الرغم مـن المحاولة التي قام بها دارلان . وقد تلقى من امير البحر دي لابورد ردا على الرسالة التي بعث بها اليها ، لنقل الاسطول من طولون الى افريقيا الشمالية ، عبارة واحدة تحمل الكثير من المعاني رغم خشونتها وهي عبارة « .. لعنة ! » راجع كتاب « محاكمة المشير بتان » .

الربيـع ، وان يمضي عدد آخر من الجنود الألمان الى اقفاص اسرى الحرب اكبر من العدد الذي اسر في ستالينغراد ، وهو المسرح الذي يجب ان نعود اليـه الآن . [1]

كارثة ستالينغراد

كان هتلر والقادة الكبار من رجال القيادة العليا للقوات المسلحـة يقضون وقتاً طيباً في الأجواء الاولمبية المحيطة ببرختسغادن عندما وصلت اليهم الانبـاء الأولى عن الهجوم الروسي المضاد عنـد نهر الدون بعد بضع ساعات من شنه وسط زوبعة شديدة فجر التاسع عشر من تشرين الثاني . وعلى الرغم من ان الالمان كانوا يتوقعون هجوماً في هذه المنطقة ، إلا ان اركان القيـادة لم يتوقعوا ان يكون من النوع الذي يتطلب عودة هتلر وكبار مستشاريه العسكريـين من امثال كايتل ويودل بسرعة بالغة الى مقر القيادة في بروسيا الشرقية ، بعـد الخطاب الداوي الذي ألقاه الفوهرر في حانة الجعة على رفاقه القدامى عشيـة الثامن من تشرين الثاني . وهكذا فقد انتجعوا شيئاً من الراحة في هـذا الجو الجبلي المحيط ببرختسغان .

وقد قطع عليهم راحتهم هذه ، نداء هاتفي مستعجلٌ من الفريق زيتزلر الرئيس الجديد لهيئة اركان الحرب، الذي كان قد تخلف عنهم في راستينبرغ. وكان ينقل اليهم انباء وصفتها يوميات القيادة العليا بأنها « مفزعـة للغاية » . وتمكنت قوة مدرعة روسية هائلة في الساعات الأولى من الهجوم من اختراق جبهـة الجيش الروماني الثالث بين سيرافيموفيتش وكليتسكايا على نهر الدون الى الشمال الغربي من ستالينغراد. والى الجنوب من المدينة المحاصرة شرعت قوات سوفياتية

---

١ – يقول ايزنهاور ان قوات المحور بلغت ٢٤٠ الف جندي بينها ١٢٥ الفا من الالمان والباقي من الايطاليين . وتضمنت هذه الارقام اولئك الذين استسلموا في الاسبوع الاخير من الحملة اي من ٥ حتى ١٢ ايار ١٩٤٣ . (حملة صليبية في اوروبا ص ١٥٦) .

قوية اخرى تهاجم بضراوة الجيش الالماني المدرع الرابع والجيش الروماني الرابع ، وباتت تهدد جبهة الجيشين بالاختراق .

وكان هدف الروس واضحاً لكل من يتطلع الى الخريطة ، وكان هذا واضحاً بصورة خاصة لزيتزلر ، الذي عرف من مخابراته العسكرية ان العدو قد حشد ثلاثة عشر جيشاً مع ألوف الدبابات في الجنوب لقطع ستالينغراد وكان الروس يندفعون بهذه القوة الهائلة من الشمال والجنوب لقطع ستالينغراد وارغام الجيش الالماني السادس إما على التراجع بسرعة الى الغرب أو الاقتناع بالحصار . وادعى زيتزلر فيما بعد ، انه عندما رأى هذا الخطر ، حث هتلر على السماح للجيش السادس بالانسحاب من ستالينغراد الى منحنى الدون ، حيث كان في الامكان تثبيت الجبهة المحطمة . ولكن بمجرد صدور هذا الاقتراح قذف بهتلر في سورة من سورات غضبه .

وصرخ القائد الأعلى قائلاً : « لن اتخلى عن نهر الفولغا ... لن ارجع عن الفولغا » . وهنا انتهى كل شيء . ولكن هذا القرار الذي اتخذ في سورة من سورات الغضب أدى الى كارثة . وأصدر هتلر أمراً شخصياً الى الجيش السادس بالصمود حول ستالينغراد [1] .

وعاد هتلر وأركان حربه الى مقر القيادة العليا في الثاني والعشرين من تشرين الثاني . وكانت الانباء التي وصلت في هذا اليوم الرابع من الهجوم

---

١ ـ يوجد مقال الفريق زيتزلر عن معركة ستالينغراد في كتاب « القرارات القدرية » من اعداد فريدين وقد اعتمدت عليه في كتابة هذا الجزء . ومن المصادر الاخرى يوميات القيادة العليا الالمانية وكتاب هولدر ، وكتاب هاينز شرويتر . « ستالينغراد » . وقد تمكن شرويتر وهو مراسل حربي الماني كان مع الجيش السادس من الوصول الى سجلات القيادة العليا ورسائلها الاذاعية والبرقية مع مختلف القيادات والى اوامر العمليات الحربية والخرائط العسكرية والاوراق الخاصة لعدد من الذين شهدوا معركة ستالينغراد . وقد تمكن من الخلاص من المدينة قبل استسلامها ، وعهد اليه بكتابة القصة الرسمية لمعركة ستالينغراد ، ولكن الدكتور غوبلز منع طباعة كتابه . وتمكن شرويتر من انقاذ مسودة الكتاب بعد الحرب وواصل دراساته للمعركة قبل ان يعيد كتابته من جديد .

مفجعة . فقد التقى الجيشان السوفياتيان الزاحفـــان من الشمال والجنوب عند كالاش التي تقــع على بعد اربعين ميلاً الى الغرب من ستالينغراد عنـــد منحنى الدون . ووصلت في المساء رسالة لاسلكية من الفريق باولوس قائد الجيش السادس تؤكد تطويق قواته . وأصدر هتلر فوراً أوامره الاذاعية الى باولوس بنقل قيادته الى المدينة للدفاع عنها بإصرار وعناد ، واكد ان تموين الجيش سيتم عن طريق الطائرات الى ان يتم انقاذه .

لكن هذا الحديث لم يكن أكثر من مجون وهذر. فهناك عشرون فرقة المانية وفرقتان رومانيتان تم تطويقهـــا في ستالينغراد . ورد باولوس بإشارة اذاعية يقول ان هذه القوات تحتـاج الى (٧٥٠) طناً من المؤن يومياً . وكان هذا الرقم فوق طاقة السلاح الجوي الالماني الذي كان يفتقر الى العدد المطلوب من طائرات النقل . وحتى لو كان هذا العدد متوافراً ، لما كان في امكان هذه الطائرات ان تخترق الزوابع والاعاصير ، عـــبر منطقة حقق فيها الروس الآن التفوق في طائرات القتـال . ومع ذلك أكد غورنـغ لهتلر ان في وسع سلاحه الجوي ان يؤدي المهمة . ولكنه لم يستطع حتى الشروع فيها .

وكان انقاذ الجيش السادس المطوق ، احتمالاً اكثر عملية وتفاؤلاً . واستدعى هتلر في الخامس والعشرين من تشرين الثاني المشير فون مانشتاين ، اكثر قـادته في الميدان كفاية وموهبة عسكرية ، فجاء من جبهة لينغراد ليتولى قيـــادة التشكيلة الجديدة التي تم خلقها والتي اطلق عليها اسم مجموعة جيوش الدون . وكانت مهمته ان يندفــع من الجنوب الغربي وان ينجد الجيش السادس في ستالينغراد .

ولكن الفوهرر فرض الآن شروطـاً مستحيلة على قائده الجديد . وحاول مانشتاين ان يوضح له ، ان الأمل الوحيد في النجاح ، يقوم في محاولة الجيش السادس المحصور الخروج من ستالينغراد باتجاه الغرب ، بينما تقوم قواته هو ، التي يؤلف الجيش المدرع الرابع طليعتها ، بالضغط باتجاه الشمال الشرقي ضد الجيوش الروسية التي تقوم حاجزاً بين القوتين الالمانيتين . ولكن هتلر رفض مرة ثانية

الانسحاب من نهر الفولغا . فعلى الجيش السادس ان يبقى في ستالينغراد وعلى مانشتاين ان يشق طريقه اليه فيها .

وحاول مانشتاين اقناع سيد الحرب الأعلى باستحالة تحقيق خطته ، فالقوة الروسية ضخمة للغاية . ومع ذلك،فقد شن مانشتاين وقلبه مفعم بالأسى هجومه في الثاني عشر من كانون الاول . وقد اطلق على هذه العملية اسم « عملية زوابع الشتاء » ، اذ ان الشتاء الروسي كان قد بلغ أشده الآن في السهوب الجنوبية ، مكوّماً الثلوج في تلال عالية ، وهابطاً بدرجة الحرارة دون الصفر . وحقق الهجوم في البداية بعض النجاح ، وتمكن الجيش المدرع الرابع الذي يقوده الفريق هوث من الاندفاع باتجاه الشمال الشرقي على جانبي السكة الحديدية الممتدة من كوتيلنيكوفسكي الى ستالينغراد التي تبعد نحواً من خمسة وسبعين ميلاً.وعندما حل التاسع عشر من كانونالاول كان هذا الجيش قد بلغ في زحفه الى بعد أربعين ميلاً من القطاع الجنوبي للمدينة ، وبات في الواحد والعشرين على بعد ثـــلاثين ميلاً ،واصبح في مكنة القوات المحاصرة من الجيش السادس ان ترى عبر السهوب الثلجية في الليل ، اشارات النور التي يطلقها منقذوها .

وأكد القادة الألمان في شهاداتهم ، انه كان في وسع الجيش المحاصر في ستالينغراد في هذه الآونة ان يحاول الخلاص بالزحف باتجاه الجيش الرابـع المدرع ، وان يحقق النجـاح المطلوب . ولكن هتلر عاد من جديد يمنع الجيش السادس من المحاولة . وأبرق زيتزلر في الواحد والعشرين الى باولوس يبلغه سماح الزعيم للقوات بمحاولة شق طريقها ، شريطة ان تحتفظ في الوقت نفسه بمواقفها في ستالينغراد . ويقول رئيس هيئة أركان الحرب ، ان هذه الحمـــاقة المطبقة كادت تودي به الى الجنون .

وعاد زيتزلر يقول فيما بعد : « وفي الليلة التالية توسّلت الى هتلر ان يسمح بعملية الاختراق والنجــاة . وقلت له ان هذه هي فرصتنا الاخيرة لانقاذ مائتي الف رجل من جيش باولوس » .

« ولكن هتلر ، يرفض . . . ويصر على رفضه . وحاولت عبثاً

ان اشرح له الأوضاع داخل القلعة المزعومة . من ياس الجنود الجياع وفقدهم الثقـــة في قيادتهم العليا ، والجرحى الذين يلقون حتفهم بسبب الافتقار الى العناية الطبية اللازمة ، بينما يتجمد الألوف من البرد حتى الموت . ولكنه ظل يصم أذنيه عن الاستماع الى هذه الحجج التي قدمتها » .

وفشل الفريق هوث في قطـــع الثلاثين ميلاً الباقية الى ستالينغراد في وجه مقاومه روسية أخذت في الازدياد في وجهه وعلى جناحيه . وكان يعتقد انه لو حاول الجيش السادس خرق الحصار ، لتم الاتصال بين الجيشين ، ولكان في وسعهما ان ينسحبا معاً الى كوتيلنيكوفسكي .وكان مثل هذا العمل كافياً لانقاذ نحو من مائتي روح المانيـــة [١] . وكان من المحتمل ان يتحقق ذلك بين الواحد والعشرين والثالث والعشرين من كانون الاول . ولكن هذا العمل بات مستحيلاً بعد ذلك التاريخ . فلقد كان هوث جاهلاً بأن الجيش الاحمر قد وجه ضربته من الشمال . وبات الآن يهدد الجناح الأيسر لمجموعة جيوش الدون كلها . وهتف مانشتاين في الثاني والعشرين من كانون الاول الى هوث يأمره بإعداد نفسه لتلقي أوامر خطيرة جديدة . وجاءت الأوامر في اليوم التالي ، وهي تقضي على هوث بالتخلي عن زحفه الى ستالينغراد ، وان يوفد احدى فرقه المدرعة الثلاث الى جبهة الدون في الشمال ، وان يدافع عن نفسه حيث هو ، وبكل ما تبقى لديه من قوات ، أطول مدة ممكنة .

وهكذا فشلت محاولة انقاذ ستالينغراد .

---

١ ـ ذكر المشير فون مانشتاين في مذكراته التي كتبها بعد الحرب انه في التاسع عشر من كانون الاول امر خلافا لاوامر الفوهرر ، الجيش السادس ، ان يبدأ محاولة الاختراق من ستالينغراد نحو الجنوب الشرقي ليتصل بالجيش الرابع المدرع . وقد نشر في كتابه نص الامر الذي اصدره ، ولكنه تضمن بعض التحفظات ، التي حيرت باولوس الذي كان لا يزال خاضعا لاوامر هتلر بعدم القيام بالمحاولة . ويضيف مانشتاين ان « هذه كانت الفرصة الاخيرة الوحيدة امامنا لانقاذ الجيش السادس » (مانشتاين ـ الانتصارات الضائعة ، ص ٣٣٦ ـ ٣٤١ وص ٥٦٢ ـ ٥٦٣) .

وكانت اوامر مانشتاين الخطيرة الجديدة ، نتيجة الانباء المفزعة التي وصلت اليه في السابع عشر من كانون الأول . ففي صباح ذلـــك اليوم تمكن جيش سوفياتي من اختراق جبهة الجيش الايطالي الثامن في الشمال على الدون عند بوغوشار ، ولم يحل المساء حتى كان يفتح ثغرة عمقها سبعة وعشرون ميلاً . ولم تمض ثلاثة ايام حتى كانت الفجوة قـــد بلغت في عرضها تسعين ميلاً ، بينما فرّ الايطاليون في هلع من الميدان واخـــذ الجيش الروماني الثالث الى الجنوب في الانحلال والتفسّخ ولا سيما بعد الضربات العنيفة التي تعرض لها في المرحلة الأولى من الهجوم الروسي في التاسع عشر من تشرين الثاني . ولم يكن من المستغرب والحالة هذه ان يطلب مانشتاين النجدة من قوات هوث المدرعة لتساعده في سد الفجوة . وادت هذه الخطوة الى سلسلة من ردود الفعل .

ولم تتراجع جيوش الدون وحدها ، بل تراجعت معها قوات هوث ايضاً ، وهي التي كانت قد باتت على مقربة من ستالينغراد . وادت هذه الانسحابات الى تهديد الجيش الألمـــاني في القفقاس ايضاً . اذ ان وصول القوات السوفياتية الى روستوف على بحر آزوف يهدد طريق رجعته . وبعد يوم أو يومين من عيد الميلاد لفت زيتزلر نظر هتلر الى الحقيقة الواقعة ، وهي انه ما لم يأمر بالانسحاب من القفقاس الآن فإن الألمان سيواجهون ستالينغراد ثانية . وأصدر القائد الأعلى ، وهو برم تعليماته بالانسحـــاب في التاسع والعشرين من كانون الأول الى مجموعة جيوش (أ) التي يتولى كلايست قيادتها والتي تضم الجيش المدرع الأول والجيش السابع عشر ، والتي فشلت في تحقيق مهمتها في الاستيلاء على حقول الزيت في غروزني . وبدأت هـــذه القوات ايضاً تراجعاً طويلاً بعد ان كانت على قاب قوسين أو ادنى من هدفها .

وحملت الانتكاسات التي مني بها الألمان في روسيا والجيوش الالمانية الايطالية في شمال افريقيا موسوليني على التفكير . وكان هتلر قـــد دعاه للمجيء الى سالزبرغ للتحدث اليه في اواسط شهر كانون الأول ، وقبـــل الدعوة الدوتشي المريض ، الذي كان يراعي الآن حمية شديدة من جراء اوجاع معدته ، على الرغم

من انه قال لشيانو انه سيذهب الى هناك بشرط واحد فقط ، وهو ان يتناول وجبات طعامه وحيداً ، « لأنه لا يريد ان يراه الألمان النهمون وهو يعيش على الارز والحليب » .

وقرر موسوليني ان الوقت قد حان لابلاغ هتلر بوجوب تخفيض خسائره في الشرق ، والوصول الى نوع من المساومة مع ستالين ، وتركيز قوة المحور للدفاع عما تبقى من شمال افريقيا والبلقان واوروبا الغربية. وراح يقول لشيانو: « سيكون عام ١٩٤٣ ، سنة الجهد من الانكليز والامريكان » . وعجز هتلر عن مغادرة مقر قيادته في الشرق لمقابلة موسوليني ، فسافر شيانو تلك المسافة الطويلة الى راستنبرغ في الثامن عشر من كانون الأول ، وكرر ، دون تعليمات من الدوتشي على مسامع الفوهرر ، اقتراحات موسوليني . واظهر هتلر زرايته بهذه الاقتراحات واكد لوزير خارجية ايطاليا ، ان في وسعه ، دون ان يضعف الجبهة الروسية ، ايفاد قوات اضافية جديدة الى شمال افريقيا التي يجب الحفاظ عليها . وقد وجد شيانو الروح المعنوية عند الالمان في مقر القيادة العليا في اسوأ حالاتها ، على الرغم من تأكيدات هتلر المطمئنة . فدوّن في يومياته يقول :

« الجو كئيب وثقيل . فبالاضافة الى الانباء السيئة ، هناك هذا الجو الحزين الذي يخيم على هذه الغابة الكئيبة ، والملل الذي ينتج عن الحياة الجماعية في الثكنات .. ولا يحاول انسان ان يخفي عني ما يحسون به جميعاً من تعاسة من انباء خرق الروس للجبهة . وهناك محاولات مفضوحة لإلقاء اللوم علينا » .

وكان الناجون من الجيش الايطالي الثامن ، عند الدون ، يحاولون الفرار بأرواحهم ، وعندما حاول احد اعضاء حاشية شيانو ان يسأل احد ضباط القادة العليا الالمانية عما اذا كان الايطاليون قد منوا بخسائر فادحة ، رد عليه الضابط قائلاً : « ليست هناك خسائر ، لأنهم يركضون فراراً [1] » .

---

١ ـ يوميات شيانو ص ٥٥٦ ، وتوجد اقتراحات موسوليني في يوميات القيادة العليا بتاريخ ١٩ كانون الاول .

واذا كانت القوات الالمانية في القفقاس وفي الدون ، لم تفر راكضة ، فإنها كانت تتراجع بأقصى سرعة ممكنة لتجنب خطر التطويق . وكان كل يوم جديد من مستهل عام ١٩٤٣ يحمل معه انباء تراجعهم مسافة جديدة عن ستالينغراد . وقد حان الوقت الآن للروس للقضاء على الألمـان هناك . ولكنهم أتاحوا اولاً للجنود الذين تقرر مصيرهم من رجال الجيش السادس الفرصة للنجاة بجلودهم .

ودخل ثلاثة من الضباط الشبان في الجيش الأحمر ، صبيحة الثامن من كانون الثاني عام ١٩٤٣ ، الخطوط الألمانية وهم يحملون الراية البيضاء ، عنـد القطاع الشمالي لمدينة ستالينغراد ، ووجهوا انذاراً نهائياً الى الفريق باولوس من الفريق روكوسوفسكي قائد القوات السوفياتية في جبهة الدون . وبعـد ان ذكره الإنذار بأن جيشه بات معزولاً ، وبأن النجدات لا تستطيع الوصول اليه ، ولا التموينات من الجو ، اضاف قائلاً :

«بات وضع قواتك يائساً . ان جنودك يعانون من الجوع والمرض والبرد . ولم يبدأ الشتاء الروسي الغليظ القلب بعد . فأمامكم صقيع قاس ورياح قرّة ، وأعاصير شديدة . وليست لدى جنودك ملابس شتوية تقيهم البرد القـارس ، والأوضاع الصحية رهيبة ومفزعة . وهكذا فإن وضعك يائس وليس لأية مقاومة اخرى من معنى .

« وبالنظر الى هذه الاوضاع وتجنباً للمزيد من سفك الدماء ، فإننا نقترح عليك القبول بالشروط التالية للتسليم .. »

وكانت الشروط مشرفـة للغاية . فسيعطى للأسرى جميعاً حصص غذائية عادية . وسيحصل الجرحى والمرضى والمصابون بعضة البرد على العلاج الطبي . وفي وسع جميع الأسرى الحفاظ على أشرطة رتبهم ، وأوسمتهم ، وحاجياتهم الخاصة . ومنح باولوس اربعاً وعشرين ساعة للرد على هذا الانذار .

وعلى الفور بعث باولوس بنص الانذار الى هتلر ، طالباً منه السماح له بحرية العمل . ولكن سيد الحرب الأعلى رفض طلبه فوراً . وبعد اربع وعشرين ساعة من انقضاء المهلة المحددة في طلب التسليم ، في صباح العاشر من كانون الثاني ،

استهل الروس المرحلة الأخيرة من معركة ستالينغراد بقصف مدفعي شديد من نحو من خمسة آلاف مدفع .

وكان القتال الذي تلا مراً ودموياً . وحارب الفريقان ببسالة وتهور على الحطام المتجمد من اطلال المدينة ، ولكن حربهم لم تطل ، اذ لم تمض ستة ايام حتى كان الجيب الألماني قد تقلص الى النصف أو الى بقعة سعتها خمسة عشر ميلاً طولاً وتسعة اميال عرضاً . وفي الرابع والعشرين من كانون الثاني تم تمزيق الجيب الى جزئين ، وخسر الألمان آخر ارض تصلح للطيران ، ولم يعد في وسع الطائرات التي جاءت لهم ببعض المؤن ولا سيما بالعلاجـــات الطبية للمرضى والجرحى ، والتي نقلت نحواً من تسعة وعشرين الف مريض الى المستشفيات ان تهبط في حطام المدينة .

وعاد الروس فأتاحوا لعدوهم الباسل الفرصة من جديد للاستسلام . ووصل المبعوثون الروس الى الخطوط الألمانية في الرابع والعشرين من كانون الثاني حاملين عرضاً جديداً . وعاد باولوس يتنازعه واجبه في اطاعة اوامر الفوهرر المجنون ، والتزامه بانقاذ جنوده الاحياء من خطر الابادة يناشد الفوهرر فأبرق اليه في الرابع والعشرين من كانون الثاني رسالة بالراديو هذا نصها :

« بات الجنود بلا عتاد أو طعام .. لم تعـــد القيادة الفعّالة ممكنة .. عندي ثمانية عشر الفاً من الجرحى دون مؤن أو عقاقير أو لفافات .. بات الدفاع مدة أطول لا معنى له . اصبح الانهيار محتوماً . يطلب الجيش الأذن الفوري بالاستسلام لانقاذ ارواح من تبقى من الجنود » .

وقد حفظ رد هتلر في الوثائق وهذا نصه :

« أمنعكم من الاستسلام ، على الجيش السادس ان يحافظ على مواقعه حتى الرجل الأخير والطلقة الأخيرة ، وسيساهمون بصبرهم البطولي إسهاماً لا ينسى في اقامة جبهة دفاعية وانقاذ العالم الغربي ... »

العالم الغربي !! لقد كانت هذه العبارة برشامة مرة للجيش السادس الذي قاتل ضد ذلك العالم في فرنسا وفي الفلاندرز قبل وقت قصير .

ولم تكن المقاومة لأمد أطول غير مجدية ، ولا منطقية فحسب ، بل كانت مستحيلة ايضاً ، وعندما اقترب شهر كانون الثاني عام ١٩٤٣ من نهايته ، كانت المعركة الاسطورية قد انتهت من نفسها ، متضائلة كلهب شمعة أخذ في التضاؤل الى ان خفت وانتهى . ولم يحل الثامن والعشرون من كانون الثاني حتى كان ما تبقى من جيش عظيم في يوم ما ، قد تجزأ الى ثلاثة جيوب ، في الجنوبي منها يقع مقر قيادة الفريق باولوس الذي اقامه في قبو ما تبقى من حطام حانوت ضخم لبيع مختلف انواع السلع . ويقول شاهد عيان ، ان القائد العام جلس على سريره السفري في زاوية معتمة في حالة تقرب من الانهيار.

ولم يكن باولوس في هذه الآونة ولا جنوده ، في حالة تسمح لهم بتقبل سيل الرسائل البرقية الذي بدأ ينهال عليهم لتهنئتهم ببطولتهم . وبعث غورنغ الذي كان يتمتع بعض الوقت بشمس ايطاليا الدافئة في الشتاء ، زاهياً بمعطفه الثمين من الفراء ، وبالخواتم والجواهر المتألقة في اصابعه برسالة اذاعية في الثامن والعشرين قال فيها :

« سيخلد التاريخ النضال البطولي الذي خاضه الجيش السادس ، وستتحدث الأجيال المقبلة ببسالة عن جرأة لانغيمارك ، وعن صلابة القصر (في اسبانيا) ، وعن شجاعة نارفيك ، والتضحية بالذات في ستالينغراد » .

ولم يتسرب المرح الى صدورهم وهم يصغون في الليلة الاخيرة ، ليلة الثلاثين من كانون الثاني عام ١٩٤٣ ، وهي الذكرى العاشرة لوصول النازيين الى الحكم الى مشير الرايخ البدين وهو يلقي اذاعته المليئة بالخيلاء والغرور فيقول :

« سيتحدث الناس والألمان بعد ألف عام عن هذه المعركة (ستالينغراد) بما تستحقه من اجلال ومهابة ، وسيذكرون ، انه على الرغم من كل شيء ، فإن نصر المانيا النهائي قد تقرر فيها ... وسيتحدث الناس في السنوات المقبلة عن المعركة البطولية على نهر

الفولغا ويقولون: اذا جئتم المانيا، قولوا انكم رأيتمونا في ستالينغراد نموت دفاعاً عن شرفنا واطاعة لأمر قادتنا كما يجب ان نموت في سبيل مجد المانيا » .

وهكذا بلغت امجاد الجيش السادس وآلامه الفظيعة نهايتها . وبعث باولوس في الثلاثين من كانون الثاني ، رسالة اذاعية الى هتلر : « لن يتأخر الانهيار النهائي اكثر من اربع وعشرين ساعة » .

وحفزت هذه الاشارة القائد الأعلى على ان يمطر الضباط الذين تقرر مصيرهم في ستالينغراد بسلسلة من الترقيات ، آملاً في ان تؤدي الى التشديد من عزيمتهم على الموت موتاً مجيداً في مراكزهم التي تغمرها الدماء . وقال هتلر ليودل : « لم يحدث قط في تاريخ المانيا العسكري ان أسر قائد برتبة المشير » .. وراح ينعم على باولوس برتبة المشير برسالة اذاعية . ورفع نحواً من ١١٧ ضابطاً آخرين الى رتب أعلى . فكانت ايماءة من ايماءات المقابر .

وكانت النهاية في حد ذاتها ، ذروة في التخاذل . وبعث باولوس في اليوم الاخير من كانون الثاني برسالته الاخيرة الى مقر القيادة .

« لقد صمد الجيش السادس وفاء منه بقسمه ، وإدراكاً لأهمية رسالته السامية في مراكزه حتى الرجل الأخير والطلقة الاخيرة في سبيل الزعيم والوطن » .

وبعث عامل اللاسلكي في مقر قيادة الجيش السادس في الساعة السابعة والدقيقة الخامسة والاربعين رسالته الاخيرة من جانبه .. « ان الروس على ابواب المخزن الذي نحن فيه . وها نحن نحطم اجهزتنا » واضاف حرفي (CL) وهما الاشارة اللاسلكية المتفق عليها دولياً لترمز الى ان هذه المحطة قد توقفت عن البث » .

ولم يدر هناك قتال في اللحظة الاخيرة في مقر القيادة . ولم يصمد باولوس واركان حربه حتى الرجل الاخير . ومدت ثلة من الروس يقودها ضابط صغير رؤوسها الى الجحر المعتم الذي يقيم فيه القائد العام .. وطلب الروس منه التسليم

فوافق رئيس اركان حرب الجيش السادس الفريق شميدت على التسليم . وجلس المشير باولوس حزيناً على سريره . وعندما وجه شميدت اليه الحديث قائلاً : « هل لي ان اسأل المشير اذا كان ثمة ما يقال ايضاً ؟ » كان المشير اكثر تعباً من ان يرد على رئيس اركان حربه .

وظل جيب الماني صغير يضم كل ما تبقى من فرقتين مدرعتين وأربع فرق للمشاة صامداً في الشمال في خرائب مصنع للجرارات . وتلقى هذا الجيب ليلة الأول من شباط رسالة من مقر قيادة الفوهرر تقول :

« ينتظر الشعب الألماني منكم ان تقوموا بواجبكم تماماً كما فعل الجنود في القلعة الجنوبية . وكل يوم بل وكل ساعة تواصلون القتال فيها ، يسهلان علينا اقامة جبهة جديدة » .

واستسلمت هذه الجماعة قبل ظهر الثاني من شباط بعد ان بعثت برسالة اخيرة الى القائد الأعلى ... « لقد حاربنا حتى الرجل الأخير ، ضد قوات هائلة تفوقنا عدداً . عاشت المانيا » .

وخيم الصمت اخيراً على ميدان المعركة الذي تغطيه الثلوج وتنتشر فوق حطامه الدماء . وحلقت في الساعة الثانية والدقيقة السادسة والاربعين من بعد ظهر الثاني من شباط طائرة استطلاع المانية فوق المدينة وبعثت بالرسالة الاذاعية التالية : « ليس ثمة اية اشارة على وجود قتال في ستالينغراد » .

وفي ذلك الوقت كان نحو من (٩١) الف جندي الماني بينهم اربعة وعشرون فريقاً نصفهم يتضورون جوعاً ويئنون من عضة البرد ، والكثيرون منهم جرحى ، وجلهم ذاهلون محطمون ، يحجلون فوق الثلوج والجليد ، يضعون « حراماتهم » التي غسلتها الدماء فوق رؤوسهم في درجة حرارة تقل عن الصفر بأربع وعشرين ، متجهين الى معسكرات الاسرى المتجمدة في متاهات سيبريا . واذا ما استثنينا عشرين الف روماني وتسعة وعشرين الف جريح تم اخذهم جواً فقد كان هؤلاء كل ما تبقى من جيش فاتح ، كان يعد نحواً من (٢٨٥) الفاً قبل شهرين ليس إلا . أما الباقون فقد ذبحوا ذبح النعاج . ولم يقدر

إلا لخمسة آلاف فقط من هؤلاء الواحد والتسعين الفاً الذين بدأوا سيرهم المجهد نحو الاسر ، في ذلك اليوم من ايام الشتاء ، ان تكتحل عيونهم برأى الوطن ثانية [١] .

وفي غضون ذلك كان سيد الحرب النازي يعود الى مقر قيادته الدافىء في بروسيا الشرقية ، وهو المسؤول بعناده وبلادته عن هذه الكارثة ، وينحي بالملامة على قادته العسكريين في ستالينغراد ، لأنهم لم يعرفوا كيف ومتى يموتون . وقد عاشت سجلات أحد المؤتمرات التي عقدها هتلر في مقر قيادته مع فرقائه في الأول من شباط ، الى ما بعد الحرب لتلقي ضوءاً على طبيعة الديكتاتور النازي في تلك الفترة القاسية من حياته ومن حياة جيشه وبلاده .. ولتتحدث بصراحة عن هذه الطبيعة ...

« لقد استسلموا هناك ، رسمياً ، وكلياً . وكان في إمكانهم ان ينظموا صفوفهم ، وان يؤلفوا متراساً دفاعياً كالقنافذ ، ثم يطلقون النار على انفسهم بآخر الطلقات المتبقية لديهم ... كان من واجب الرجل (باولوس) ان يقتل نفسه ، تماماً كما كان يفعل القادة السابقون اذ يلقون انفسهم على سيوفهم عندما يرون انفسهم خاسرين ... وحتى فاروس ، اصدر امره الى عبده قائلاً : « والآن اقتلني ... »

واخذ حقد هتلر على باولوس ، لانه قرر ان يعيش ، يزداد سماً كل ما عادت به افكاره الى ذلك الموضوع :

« وعليكم ان تفكروا انهم سيحملونه الى موسكو .. وتصوروا المأزق الذي سيقع هناك ... انهم سيحملونه على توقيع ما يريدون ... وسيقدم لهم اعترافات كثيرة ... ويصدر بيانات...

---

١ ــ هذه هي الارقام التي اوردتها حكومة بون في عام ١٩٥٨ . وقد مات كثيرون من الاسرى من جراء انتشار وباء التيفوس في الربيع المقبل .

وسوف ترون . انهم سيسيرون الآن في منحدر الافلاس الروحي الى اقصى اعماقه ... وسترون ان اسبوعاً واحداً لن ينقضي ، قبل ان يتحدث سايدليتز وشميدت وحتى باولوس من الاذاعة [١] ... وسينقلونهم بعد ذلك الى ليوبلانكا حيث ستأكلهم الجرذان هناك.. فكيف يمكن للمرء ان يكون جباناً على هـــذا النحو ؟ إنني لا استطيع ان افهم ذلك ...

« وما هي الحياة . ان الحياة هي الأمة . والفرد ميّت على أي حال . ووراء حياة الفرد تقوم حياة الأمة . فكيف يمكن للمرء ان يخاف من هذه اللحظة التي يموت فيها ، والتي يستطيع ان يحرر فيها نفسه من هذا الشقاء ، اذا كان واجبه لا يستطيع ان يقيده الى وادي الدموع هذا . لا !

« وهكذا يتحتم على الكثيرين من الناس ان يموتوا ، ثم يظهر رجل واحد يلوّث بطولات الكثيرين ، في اللحظة الاخيرة . وكان في وسعه ان يحرر نفسه من جميع الأحزان وان يمضي الى الأبدية ، والى الخلود القومي ، ولكنه آثر ان يمضي الى موسكو !..

« وما يؤلمني شخصياً أشد الألم هو انني رفّعته الى رتبة المشير . كنت أريد ان أقدم له هذه الترضية الاخيرة . انه المشير الاخير الذي سأعينه في هذه الحرب . على المرء ان لا يعد « الصيصان » قبل تفريخ البيوض [٢] » .

وتبع ذلك تبادل قصير في وجهات النظر بين هتلر والفريق زيتزلر ، عن

---

١ ـ كان هتلر على حق في تكهنه ، باستثنـاء التوقيت ليس الا . فلم يحل تموز من الصيف التالي حتى كان باولوس وسايدليتز اللذان اصبحا قائدي ما اطلق عليه اسم اللجنة الوطنية لالمانيا الحرة ، قد اذاعا من محطة اذاعة موسكو ، رسائل تحث الجيش الالماني على التخلص من هتلر .

٢ ـ فيليكس جيلبرت ـ هتلر يوجه حربه . ص ١٧ ـ ٢٢ . والكتـاب مجموعة من الوثائق عن مؤتمرات هتلر .

الطريقة التي يمكن بها نقل انباء الاستسلام الى الشعب الالماني . ففي الثالث من شباط أي بعد ثلاثة ايام من العملية ، اصدرت القيادة العليا للقوات المسلحة البلاغ الخاص التالي :

« انتهت معركة ستالينغراد . وقد قاتل الجيش السادس وفاء منه لقسمه بالقتال حتى النفس الاخير قتال الابطال في ظل القيادة المثالية للمشير باولوس ، ولكن تغلب عليه العدو بفضل تفوقه العددي الهائل ، وبفضل الظروف القاسية التي واجهت قواتنا » .

وقد سبق عزف الطبول تلاوة هذا البلاغ من الاذاعة الالمانية ، وعزفت بعد انتهاء البلاغ القطعة الثانية من سيمفونية بتهوفن الخامسة . وأعلن هتلر الحداد العام اربعة ايام ، وأغلقت في هذه المدة جميع المسارح ودور السينما وقاعات الرقص .

* * *

وكتب وولتر غويرليتز المؤرخ الالماني في كتابه عن هيئة اركان الحرب يقول : « كانت ستالينغراد بمثابة « يينا » ثانية ، وكانت ولا ريب أعظم هزيمة مني بها أي جيش الماني في تاريخه [1] » .

ولكنها كانت اكثر من ذلك . فهي تمثل مجتمعة مع معركة العلمين ومع نزول القوات البريطانية والامريكية في شمال افريقيا اعظم نقطة تحول في تاريخ الحرب الكونية الثانية . فالمد العالي للفتوحات النازية الذي اجتاح معظم انحاء اوروبا حتى حدود آسيا على نهر الفولغا. واجتاح افريقيا حتى نهر النيل تقريباً قد بدأ يتحول الى جزر الآن ، ولن يعود الى حالة المد ابداً . وقد انتهى الآن عهد الهجمات النازية العظيمة الصاعقة ، التي تستخدم فيها ألوف الدبابات والطائرات والتي تنشر الفزع في صفوف جيوش العدو ممزقة إياها شر ممزق.وقد تقع حتماً هجمات محلية يائسة ، كهجوم خاركوف في ربيع عام ١٩٤٣ وهجوم

---

١ - غويرليتز - تاريخ هيئة اركان الحرب الالمانية ص ٤٣١ .

الاردن في اعياد ميلاد عام ١٩٤٤ . ولكنها تؤلف في مجموعها جزءاً من النضال الدفاعي ، الذي قدر للألمان أن يمضوا فيه بصلابة هائلة وبسالة عظيمة ، طيلة السنتين الاخيرتين من الحرب . وقد انتقل زمام المبادرة من يدي هتلر ، ولن يعود قط اليها . واصبح هذا الزمام الآن في ايدي اعدائه وسيظل فيها . وهذا لا يقتصر على الحرب في الارض فحسب ، بل وفي الهواء ايضاً . وفي ليلة الثلاثين من ايار عام ١٩٤٢ ، قام البريطانيون بأول هجوم تشنه الف طائرة ، فقصفوا كولون ليلحقوا بها المدن الاخرى في ذلك الصيف الرهيب . وقد خبر المدنيون الألمان شأنهم في ذلك شأن الجنود الالمـــان في ستالينغراد والعلمين ، لأول مرة الاهوال التي كانت قواتهم المسلحة قد الحقتها بالآخرين حتى الآن .

واخيراً وفي ثلوج ستالينغراد ، وعلى رمـــال الصحراء الافريقية المحرقة تحطمت احـــلام النازيين الرهيبة . ولم تقرر الكوارث التي حلت بباولوس وروميل مصير الرايخ الثالث وحده بل مصير النظام الجديد المزعوم والمخيف والعجيب الذي اشتغـــل هتلر واجلافه من رجال الحرس النازي في اقامته في البلاد المحتلة . وقبل ان نصل الى الفصل الاخير وهو انهيار الرايخ الثالث ، ارى حرياً بنا ان نقف هنيهة ، وان نرى مـــا هو شكل هذا النظام الجديد ، في نظرياته واجراءاته الوحشية ، لنقدر كيف نجت هـــذه القارة الاوروبية ذات الحضارة العريقة والتليدة ، بأعجوبة من هذا الكابوس القصير والمخيف ، الذي خبرت فيه استهلال اهواله . ولا ريب في ان هـــذا الفصل ، بالنسبة الى هذا الكتاب كما بالنسبة الى الاوروبيين الاخيار ، الذين عاشوه ، أو لقوا حتفهم قبل انتهائه اشد الفصول في تاريخ الرايخ الثالث قتاماً وادلهماماً .

فهرست القسم الثالث

